دوستويفسكي

الشياطين

المجلد الأول



ترجمة: د. سامي الدروبي

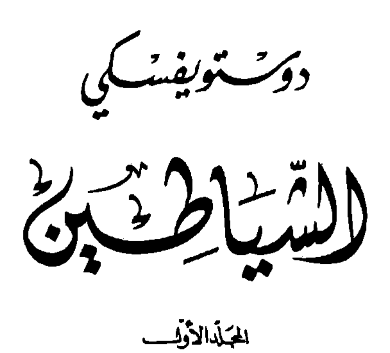
دوستويفسكي

الشياطين

ترجمة: د. سامي الدروبي

المجلد الأول




دوستويفسكي
الشياطين
المجلد الأول

الكتاب: الشياطين/ المجلد الأول
المؤلف: دوستويفسكي
ترجمة: د. سامي الدروبي
عدد الصفحات: 520 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-52-8
رقم الناشر: 14/439-61

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: beirut@dar-altanweer.com

مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟
الشيطان يجرنا هنا وهناك
ويديرنا إلى كل الجهات

ما عددهم وإلى أين يسيرون مسرعين؟
ماذا تعني أغنيات الحداد هذه التي يرددونها؟
أهم يدفنون أحداً من أهلهم؟
أم أنهم يزوِّجون ساحرة؟

أ. بوشكين

"وكان هناك قطيع من الخنازير يرعى في الجبل، فتضرَّعت الشياطين إلى يسوع أن تدخل في الخنازير. فأذن لها. فخرجت من ذلك الإنسان ودخلت في الخنازير. فاندفع القطيع من أعلى الجرف إلى البحيرة وغرق فيها. فلما رأى رعاة القطيع ما حدث هربوا ونشروا النبأ في المدينة وفي القرى. فخرج الناس ليروا ما جرى، فلما وصلوا إلى قرب يسوع وجدوا الإنسان الذي كانت الشياطين قد خرجت منه، وجدوه لابساً ثيابه، مالكاً عقله، جالساً عند قدمي يسوع. وروى لهم شهود الحادث كيف خلّص المجنون."

(إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني، 32)

الجزء الأول

الفصل الأول

بمثابة مدخل: بضعة تفاصيل عن حياة المحترم المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

حين أشرع في سرد قصة الأحداث الأخيرة الغريبة التي وقعت في مدينتنا ـ في هذه المدينة التي لم تتميز بشيء يوماً ـ فإنني أجدني مضطراً أن أتقهقر قليلاً إلى الوراء، أي أن أبدأ بذكر بعض التفاصيل عن حياة ذلك الرجل الموهوب المحترم المبجل ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي[1]. إن هذه التفاصيل لن تكون إلّا مدخلاً إلى القصة التي ننوي أن نرويها. أما القصة نفسها فتأتي بعد ذلك.

يجب أن أقول بصراحة أن ستيفان تروفيموفيتش قد مثل بيننا على الدوام دوراً خاصاً، دوراً "مدنياً" بمعنى من المعاني، وكان مولعاً بهذا الدور أشد الولع، شغوفاً به أقوى الشغف، حتى ليخيّل إليّ أنه ما كان يستطيع أن يعيش من دون أن يمثّله. ليس معنى هذا أنني أشبّهه بممثل على مسرح. معاذ الله! لا سيما وأنني أنا نفسي أحترمه. ولعل الأمر لا يعدو أن يكون عنده أمر عادة، أو قل أمر ميل ثابت نبيل، كان يحمله منذ الطفولة، بأن يحلم لنفسه ـ متلذذاً

(1) ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي: إن هذا الاسم العلم مشتق من الكلمة الروسية المجردة فرخوفنستفو، ومعناها التفوق. وهو يمكن أن يدل على أن هذه الشخصية، كأكثر الأساتذة الروس، تنحدر من أرومة من رجال الدين. غير أن له معنى أعمق كما تبين ذلك ملاحظة وردت في إحدى مسودات الرواية، حيث يقول دوستويفسكي: "إن فرخوفنسكي يظل طوال الرواية ينافس ابنه على التفوق" (فرخوفنستفو).

ـ بوضع مدني جميل. فهكذا كان يصر أشدّ الإصرار على أن يحتفظ لنفسه بحالة إنسان "مضطهد" أو إنسان "منفي" بمعنى من المعاني. إن في هاتين الكلمتين الصغيرتين جمالاً كلاسيكياً قد فتن لبّه مرة إلى الأبد، وكان يرفع قدره في نظر نفسه شيئاً بعد شيء، خلال سنين بلغت من الكثرة أنه نصبه أخيراً على نوع من قاعدة تمثال عالية ترضي غروره كثيراً.

في رواية إنكليزية ساخرة يرجع عهدها إلى القرن الماضي، أنّ رجلاً اسمه جوليفر عاد من بلاد الليلوبسيين التي لا يزيد طول البشر فيها على بوصتين، وكان قد بلغ من التعوّد على أن يعدّ نفسه بينهم عملاقاً ضخماً، حتى أنه أثناء سيره في شوارع لندن كان يصيح على غير إرادة منه، مهيباً بالمارة والعربات أن تزيح عن طريقه مخافة أن يدوسها، فهو ما يزال يتخيل نفسه عملاقاً وما يزال يتصور الناس أقزاماً. وكان الناس يضحكون منه ساخرين، وكانوا يشتمونه ويسبّونه، وكان الحوذيون الغلاظ يمضون إلى حد لسع العملاق بضربات من سياطهم. ولكن هل كان هذا عدلاً؟ الحق أن ستيفان تروفيموفيتش كان قد وصل إلى هذا الحد تقريباً، وإن يكن في صورة أكثر براءة وأقل ضرراً وأذى، إذا جاز استعمال هذا التعبير، لأنه كان رجلاً ممتازاً، والحق يقال.

أغلب ظني أنه كان في النهاية قد نُسي في مكان ما، وأنه غاب عن ذاكرة جميع الناس. ولكننا لا نستطيع أن نقول أنه كان رجلاً مجهولاً تماماً في جميع الأزمان. فما لا يمكن أن يجحده أحد أنه كان هو أيضاً في وقت من الأوقات أحد نجوم الحياة العامة من أبناء جيلنا الماضي، وأن عدداً من المسرفين في التعجل قد قرنوا اسمه خلال فترة من الوقت ـ وإن تكن فترة قصيرة جداً ـ بأسماء رجال مثل تشاديف[1] وبيلنسكي وخرانوفسكي وهرتسن الذي كان

(1) بطرس تشاديف (1857ـ 1793): ضابط سابق من ضباط فرسان الحرس، وكاتب سياسي، و فيلسوف اعتنق الكاثوليكية. ألف باللغة الفرنسية أربع "رسائل فلسفية"، يظهر فيها تعصبه الشديد للغرب، و يحكم حكماً قاسياً على روسيا التي يرى أنها في أعقاب انقسام الكنيسة قد انشقت عن الغرب، ثم لم تحمل إلى التراث الإنساني

يخطو أولى خطواته في الخارج حينذاك. غير أن نشاط ستيفان تروفيموفيتش مـا كاد يبدأ حتـى انتهى، في أعقـاب "إعصار من الظـروف" إن صح التعبير. وقـد تبيـن فيما بعد أنه لم يكـن ثمة "إعصار" ولا كان ثمـة "ظروف" في هذه الحالـة التي تعنينا على الأقل. ولم أعلم إلّا الآن، منذ بضعة أيام، أن سـتيفان تروفيموفيتـش لم يكـن يعيش في مقاطعتنا منفياً، كمـا كان يظن الناس عندنا عامـة، بـل ولا كان مراقبـاً في يوم من الأيام. لقد دهشـت أكبر الدهشـة حين عرفت هذه الحقيقة، ولكنني عرفتها من مصدر لا يتطرق الشـك إلى صدقه. فانظر إذن إلى قوة الخيال ما أكبرها! لقد ظل هو نفسه، طوال حياته، يعتقد أن هناك أوساطاً لم تنقطع عن التخوّف منه يوماً، وأن جميع خطاه كانت معروفة معـدودة، وأن كل واحد من الحكام الثلاثة الذين تعاقبو على مقاطعتنا خلال السـنوات العشـرين الأخيـرة كانوا يحملون عنـه منذ وصولهـم فكرة خاصة

المشترك أي فكرة. و الرسالة الأولى من تلك الرسائل الأربع قد ترجمت إلى اللغة الروسية و نشرت دون علمه. فعل ذلك الأستاذ نادجدين إذ نشر الرسالة في مجلته "التلسكوب" سنة 1836، فكانت فضيحة. و قد منعت مجلة التلسكوب ونفي محررها إلى برم، كما أعلن رسمياً أن كاتب الرسالة مجنون، وصار يزوره طبيب في كل أسبوع.. ولكن ذلك لم يمنعه من التألق بأحاديثه الكاوية في صالونات موسكو، حيث كان أنصار الغرب يقدّسونه تقديساً.

أمّا بيلنسكي الذي يورد المؤلف اسمه بعده فهو فساريون بيلنسكي (1848ـ 1811) الناقد الأدبي الشهير الذي كان في أول الأمر من أنصار النزعة الغربية اللبرالية، ثم صار في أواخر سني حياته إلى الاشتراكية.

وأمّا خرانوفسكي الذي يرد اسمه بعد ذلك فهو تيموتي خرانوفسكي (1855ـ 1813) أستاذ التاريخ العام بجامعة موسكو. وقد حصل علومه في ألمانيا، وكان من أنصار النزعة الغربية المعتدلين. وكان لمحاضراته عن تاريخ أوروبا في القرون الوسطى دوي كبير في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.

وأمّا الكسندر هرتسن ((1870ـ 1812فهو الابن الشرعي والوريث لمليونير اسمه إيفان باكوفليف، وهو كاتب لامع من دعاة النزعة الغربية. وقد بدأ بالفيلسوف الألماني هيجل، شأنه في ذلك شأن بيلنسكي، ثم صار إلى اشتراكية ثورية. وهاجر منذ سنة 1860 ، وأنشأ في لندن مجلة معارضة اسمها "الناقوس" نفذت إلى روسيا بل وصلت حتى إلى مكتب ألكسندر الثاني، وكان لها في العقول تأثير كبير.

قلقة يوحي بها إليهم من أعلى، ويوحي بها إليهم منذ تعيينهم قبل كل شيء آخر. فلو حاول أحد حينذاك أن يقنع المحترم جداً، ستيفان تروفيموفيتش، بالأدلة القاطعة، أن له أن يطمئن وأن في وسعه ألا يخشى شيئاً، لكان يغضبه حتماً. على أن ستيفان تروفيموفيتش كان من خيرة الناس ذكاء وموهبة، حتى لنستطيع أن نعده بمعنى من المعاني رجلاً من رجال العلم، وإن يكن، من ناحية العلم...، لم ينتج شيئاً ذا بال، أو لم ينتج شيئاً البتة. ولكن هذا أمر يقع كثيراً لرجال العلم عندنا في روسيا.

لقد عاد من الخارج ولمع نجمه مدرّساً بالجامعة حوالي سنة 1840، ولم يتسع وقته لأكثر من إلقاء بضع محاضرات. وكانت هذه المحاضرات عن العرب فيما يبدو. واستطاع أيضاً أن يناقش رسالة لامعة عن الأهمية الحضارية والتجارية التي بدأت تحظى بها بين عامَيْ 1413 و 1428، مدينة هاناو الألمانية الصغيرة[1]، وكذلك عن الأسباب الخاصة الغامضة التي منعت تلك المدينة من اكتساب تلك الأهمية بعد ذلك. وكان من شأن تلك الرسالة أن طعنت أنصار السلافية حينذاك ببراعة وحذق، فأوغرت صدورهم عليه، وأصبح له من بينهم أعداء كثيرون عتاة. وبعد ذلك ـ وكان قد فقد كرسيّه في الجامعة ـ نشر (على سبيل الانتقام إن صح التعبير، ولكي يرى الناس فداحة الخسارة بفقده). نشر في مجلة جديدة تقدمية كانت تترجم ديكنز وتدعو إلى جورج صاند، بداية دراسة عميقة جداً، كان موضوعها فيما يبدو هو أسباب النبل الخارق الذي يمتاز به فرسان لا أدري أي عصر من العصور، أو كان موضوعها شيئاً من هذا القبيل. لكنه على كل حال قد برهن في تلك الدراسة

---

(1) "مدينة هاناو الألمانية الصغيرة": تقع على نهر الماين، وهي مدينة ليس لها أي شأن. وهنا في الواقع إشارة إلى رسالة الدكتوراه التي كتبها خرانوفسكي عن مدن القرون الوسطى "فولن"، و"يومسبورج"، و"فينيتا" ((1840، والتي جرح فيها شعور أنصار السلافية. ويحسن أن نشير هنا عابرين إلى أن الرسالة الأولى التي يقدمها صاحبها إلى الجامعة في روسيا لا تخوله إلا لقب "مرشح". ولكي يصبح أستاذاً فوق العادة يجب أن يقدم رسالة "أستاذية". ولكي يصبح أستاذاً عادياً يجب يقدم رسالة "دكتور". وكانت المناقشة العلنية لهذه الرسائل تعد في روسيا على الدوام حدثاً هاماً.

على فكرة رفيعة غاية الرفعة، نبيلة أقصى النبل. وقد قيل فيما بعد إن تتمة هذه الدراسة قد منع نشرها فوراً، بل وإن المجلة التقدمية قد لقيت متاعب كثيرة لأنها نشرت نصفها الأول. جائز جداً أن يقع هذا، فأي شيء كان يستحيل حدوثه في ذلك الزمان؟ ولكن الأرجح، في الحالة التي تعنينا الآن، أن هذا لم يحدث، وأن الكاتب نفسه قد تقاعس عن إتمام دراسته كسلاً. أما دروسه عن العرب فقد أوقفها لأن شخصاً لا ندري من هو (لا شك أنه أحد أعدائه الرجعيين)[1] قد قبض، لا ندري كيف، على رسالة كانت موجهة إلى واحد من الناس وفيها عرض لبعض "الظروف"، فكان من جراء ذلك أن أحد الأشخاص طلب منه بعض الإيضاحات. لا أدري إن كان هذا صحيحاً. ولكن قيل أيضاً إن جمعية كبيرة قد اكتشفت ببطرسبرج في ذلك الوقت نفسه، وهي جمعية تناهض الطبيعة وتناهض الدولة، بلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر عضواً، وأوشكت أن تزعزع البناء، حتى أنها كانت تنوي أن تترجم فورييه نفسه. وبمصادفة تشبه العمد، ألقي القبض في موسكو، في ذلك الوقت نفسه، على قصيدة كان ستيفان تروفيموفيتش قد نظمها قبل ذلك بعشر سنين، في مدينة برلين، أيام شبابه الأول[2] ألقي القبض عليها بينما كانت تنتقل منسوخة، من

---

(1) حين اعتقال أعضاء حلقة بتراشفسكي، في الثالث من شهر نيسان (أبريل) سنة 1849 عثروا لدى سرجي دوروف رسالة من الشاعر آ. بلشتايف يتكلم فيها عن خرانوفسكي ممجداً معظماً. وقد أمر الجنرال حاكم موسكو يومذاك بأن يُراقَبَ مراقبة سرية.

(2) في كانون الأول (ديسمبر) 1849 اتهم خرانوفسكي بأنه يعادي الدين في محاضراته، واضطر أن يقدم إيضاحات للسلطات المختصة بموسكو.
والكلام على الجمعية التي يبلغ عدد أعضائها ثلاثة عشر إنما هو إشارة دعابة إلى حلقة بتراشفسكي التي كانت تدين بالاشتراكية، والتي انتمى إليها دوستويفسكي من 1846 إلى 1849.
أمّا ما يرد بعد ذلك من كلام عن قصيدة لستيفان تروفيموفتش فإن دوستويفسكي حين يشرح هذه القصيدة يجعل منها محاكاة للقصيدة الرومانسية التي نظمها فلاديمير بتشيرين بعنوان "انتصار الموت"، سنة 1834، إن كاتب القصيدة هو أستاذ في فقه اللغة (1807 ـ 1885) غربي النزعة، درس ببرلين، وترك كرسيه الجامعي بموسكو مهاجراً إلى إنجلترا حيث صار كاهناً كاثوليكياً. إننا نرى في هذه القصيدة أغاني رياح ونجوماً ولهباً. والموت يظهر فيها فتى جميلاً جمالاً لا مثيل له، ممتطياً صهوة جواد أبيض، تهتف له الشعوب في مختلف الكواكب صائحة باللغة الفرنسية "عاش الموت"، "عاش الموت". وهذه القصيدة المحتدمة الحارة قد ضمنها هرتسن سنة 1861 الديوان الذي أسماه "الأدب السري الروسي في القرن التاسع عشر". وإليكم مقطعاً من تلك القصيدة:

يد إلى يد، بين اثنين من الهواة وأحد الطلاب. إنني أحتفظ بهذه القصيدة في درج منضدتي: أهدانيها ستيفان تروفيموفيتش بنفسه منذ سنة واحدة وقد نسخها بخط يده، وزينها بإهداء منه، وجلّدها بجلد أحمر جميل. إن هذه القصيدة لا تخلو من شعر، بل ولا تخلو من بعض الموهبة. هي غريبة، ولكن كثيراً ما كان الشعراء ينظمون على هذا النحو في ذلك الأوان (أو قل على وجه أدقّ بين سنة 1830 وسنة 1840). صعب عليّ أن أحدّثكم عن موضوع القصيدة، لأنني في حقيقة الأمر لا أفهم منها شيئاً. إنها نوع من الرمز مصبوب في قالب غنائي درامي يذكّر بالجزء الثاني من فاوست. يرفع الستار عن جوقة من النساء تعقبها جوقة من الرجال ثم جوقة من عناصر الطبيعة لا أدري ما هي، وتأتي أخيراً جوقة أرواح لم تعش بعد ولكنها تشعر برغبة قوية في أن تذوق الوجود. وهذه الجوقات كلها تغني شيئاً مبهماً شديد الإبهام هو في أكثر الأحيان نوع من اللعن لكنه لعن يُقال بلهجة لا سبيل إلى مغالبة ما تثيره من ضحك، وفجأة يتغير المشهد ليحل محله ما يسميه المؤلف "عيد الحياة"، وفيه تشترك الحشرات نفسها بأغنيات. وتظهر سلحفاة، فتنطق بعبارة لاتينية من تراتيل الصلاة، ويظهر كذلك، إذا صدقت ذاكرتي، معدن من المعادن، أي شيء لا حياة فيه، فيأخذ ينشد هو أيضاً. وهؤلاء جميعاً لا يزيدون على أن يغنوا، فإذا اتفق لهم أحياناً أن يتكلموا، فإنما هم يتكلمون ليتشاجروا، دون أن يكون ثمة ما قد يبعث على المشاجرة، ولكن بلهجة من أكثر اللهجات أبّهة وفخامة بطبيعة الحال. ثم يتغير الديكور مرة أخرى. فالمكان الآن متوحِّش. وهذا شاب متحضر يسير وحيداً بين الصخور، يقطف الأعشاب وهذه جنية تسأله لماذا يأكل هذه الأعشاب، فيجيبها بقوله إنه لشعوره بفرط ما يتدفق فيه من قوى حيوية ينشد النسيان، وأنه يجد ضالته في مصّ هذه النباتات، لكن

ما أجمل أن يبغض المرء وطنه.
أن ينظر إلى دماره نهماً،
أن يتنبأ من خلال خراب بلده
بحلول يوم التغير الكوني الشامل.

رغبته الأساسية هي أن يفقد عقله بأقصى سرعة (رغبة نافلة). ويدخل بعد ذلك، على حصان أسود، فتى لا سبيل إلى وصف جماله، ووراءه جمهور كبير من الناس ينتمون إلى جميع القوميات! إن هذا الفتى يجسد الموت الذي ترنو إليه جميع الشعوب! ثم يظهر فجأة، في الفصل الأخير، برج بابل، وقد أخذ رجال أشداء يكملون بناءه وهم ينشدون نشيد الأمل الجديد. فإذا تم البناء حتى القمة رأينا المالك ـ ولنسمّه صاحب الأولمب ـ يهرب هروباً مزرياً. فإذا بالإنسانية التي أصبحت منذئذٍ تعرف ما تريد، تحتل مكانها، ثم إذا بها تبدأ عصراً جديداً وتكوّن لنفسها في الوقت ذاته نظرة جديدة إلى الكون.

تلك هي القصيدة التي عُدّت حينئذٍ خطرة. وقد اقترحت على ستيفان تروفيموفيتش، في العام الماضي، أن ينشرها لأنها في أيامنا هذه خالية خلوّاً مطلقاً من كل خطر. فرفض اقتراحي باستياء واضح. ذلك أن القول بأن قصيدته لا تشتمل على أي خطر، لم يرضه، وهذا هو السبب الذي أعتقد أنه جفاني من أجله بعد ذلك طوال شهرين. ولكن حدث في نحو ذلك الوقت الذي اقترحت عليه فيه نشر قصيدته أن نُشرت القصيدة في ديوان شعر ثوري صدر "هناك"، أي في الخارج، وذلك على غير علم من ستيفان تروفيموفيتش طبعاً. فأفزعه هذا النبأ في أول الأمر. فإذا هو يهرع إلى الحاكم، ثم إذا هو يكتب إلى بطرسبرج رسالة تبريرية رفيعة جداً، قرأها لي مرتين، لكنه لم يرسلها لأنه لم يعرف إلى من يرسلها. الخلاصة أنه عاش خلال شهر كامل في حالة من يتوجّس خيفة من شر يهمّ أن يحيق به، لكنني واثق أنه كان يشعر في قرارة نفسه بكثير م الزهو. ولما حصل ستيفان تروفيموفيتش على نسخة من الديوان أصبح لا يفارقها إلّا في الليل مكرهاً حين يريد أن ينام. وكان يخبّئها في النهار تحت الفراش ولا يسمح لخادمة بأن ترتب سريره. وكان يصطنع هيئة التعالي والكبر، على توقعه في كل يوم أن تصل إليه برقية لا أدري ما هي. ولكن ما من برقية وصلت. وعندئذ صالحني، وهذا دليل على طيب قلبه الحنون، وعلى أنه لا يحمل حقداً ولا يضمر ضغينة.

2

لست أدّعي أنه لم يلقَ أية متاعب، ولم تعترضه أية مصاعب. ولكنني اليوم مقتنع اقتناعاً تاماً بأنه كان في وسعه أن يثابر على إلقاء محاضراته عن العرب ما شـاء أن يثابر، مكتفياً بتقديم الإيضاحات اللازمة. غير أنه تشـدّد وأسـرف في التشـدّد، وتعجل تعجلاً كبيراً فعقد عزمه على أن يعتقد اعتقاداً جازماً بأن حياتـه الجامعيـة قد حطّمها "إعصـار الظروف" إلى الأبـد. وإذا كان علينا أن نذكر الحقيقة كلها فيجب أن نقول إن السبب الذي دفعه إلى تغيير مهنته فعلاً هـو أن فرفارا بتروفنا سـتافروجين، وهـي زوجة جنرال وامرأة واسـعة الثراء جداً، قد عرضت عليه في الماضي أن يتولى تثقيف ابنها الوحيد وأن يشـرف على تنشـئته الفكرية، بصفته عالم من علمـاء التربية وبصفته صديقاً، (ناهيك عن المكافأة المالية الكبيرة التي سـينالها دون أن تجيء هي على ذكرها)، ثم عادت تجدّد عرضها في ذلك الحين، لقد قدّمت إليه عرضها أول مرة وهو ما يزال في برلين، بعد فقده زوجته الأولى. كانت زوجته تلك فتاة طائشـة اللب جامحـة الطبع مـن مقاطعتنا، تزوجها فـي أيام شـبابه الأول المندفع. ويظهر أنـه لقـي مع هذه الإنسـانة، الفاتنة والحق يقـال، كثيراً من الحـزن والعذاب، لأنه لم يستطع أن يفي بحاجاتها من جهة، ولأسباب أخرى يتحرّج المرء من ذكرها من جهة أخرى. وقد توفيت في باريس بعد أن عاشـت السـنين الثلاثة الأخيرة منفصلة عنه، وتركت له طفلاً في الخامسة من عمره هو "ثمرة الحب الأول الفـرح الـذي لم تكن قد كدّرته سـحابة"، على حـد التعبير الذي أفلت يومـاً أمامي مـن سـتيفان تروفيموفيتش في لحظة حزن. وسـرعان ما أرسـل الطفل إلى روسـيا، فكفلت تربيته نسـاء تمتّ إليه بقرابة بعيدة، فعاش الطفل في مكان ناء بأعماق الريف. وقد رفض سـتيفان تروفيموفيتش العرض الذي قدمته فرفارا بتروفنا. وما هي سنة أو بعض سنة إذا بصاحبنا يتزوج مرة أخرى بألمانيـة من برلين، وهـو زواج لم يكن يبدو أن ثمة ما يدعو إليه أو يقضي به.

وهناك أسـباب أخرى دفعته إلى رفض وظيفة المربّي: لقد كان يغريه الصيت الـذي كان يحظى به أسـتاذ شـهير من أسـاتذة العصر، وكان لا بـد له أن يطير إلى ذلك الكرسـي الذي طالمـا رنا إليه بصره، وأن يجـرّب هو أيضاً جناحي النسـر اللذين يملكهمـا. أما الآن وقد احترق الجناحـان، فإن من الطبيعي أن يتذكـر صاحبنا ذلك العرض الذي تردد فـي قبوله من قبل. واختطف الموت زوجته الثانية فجأة ـ بعد زواج لم يدم أكثر من سـنة واحدة ـ فترتب كل شـيء علـى الوجه الأكمل. يجب أن أقول بصراحـة أن هذا الحل إنما يرجع إلى ما كانـت تحمله فرفارا بتروفنا لصاحبنا من مودة خالصة وصداقة ثمينة، صداقة كلاسـيكية إن صـح التعبير، فارتمى سـتيفان تروفيموفيتش فـي أحضان هذه الصداقـة، وتحـدد بذلك وضعـه مدة تزيد على عشـرين عامـاً. قلت "ارتمى فـي الأحضان" ولكن أرجـو أن يحمي الله القارئ من سـوء الظن فلا يحمّل قولـي مـا لا يحتمل. إن كلمة الأحضـان هذه يجب أن تُفهـم بمعنى أخلاقي تماماً فالصلة التي ربطت بين هذين الشخصين الممتازين قد ظلت على أروع جانب من الرهافة والنعومة.

وهناك سبب آخر دعا ستيفان تروفيموفيتش إلى قبول منصب المربّي. إن الميـراث الصغير جداً الذي خلّفته زوجته الأولى يقع على مقربة من الأطيان الواسـعة المجـاورة لمدينـة سكفورشـنيكي، التي كانت أسـرة سـتافروجين تملكهـا في مقاطعتنا. هذا إلى أنه سيسـتطيع في خلـوة مكتبه، حين لا يكون عليـه أن ينهض بأعبائه الجامعية الضخمـة، أن ينقطع للعلم وأن يمهر الأدب القومـي بدراسـات عميقـة. على أن هذه الدراسـات لـم تر النـور يوماً، لكن صاحبنا اسـتطاع في مقابل ذلك، خلال حياتـه كلها بعدئذ، أي خلال ما يزيد على عشرين عاماً أن ينتصب بقامته تجاه الوطن "لوماً مجسّداً" على حد تعبير ذلك الشاعر القومي الذي قال:

مثل لوم مجسَّد
تنتصب قامتك تجاه الوطن
لبراليًا مثاليًا

يجدر أن نقول إن الفرد الذي يتحدث عنه هذا الشاعر القومي ربما كان من حقه، إذا شاء، أن يقف تلك الوقفة خلال حياته كلها، رغم أنها وقفة مملة مضجرة. أما صاحبنا ستيفان تروفيموفيتش فإنه لا يعدو أن يكون بالقياس إلى أمثال أولئك الناس مقلِّداً ومحاكياً. لقد كانت الوقفة المنتصبة تتبعه. وما أكثر ما آثر عليها أن "يستلقي على جنبه". يجب أن نقول مع ذلك، إذا نحن شئنا الإنصاف، إن اللوم المجسد ظل موجوداً رغم الاستلقاء على الجنب، خاصة وأن مقاطعتنا كانت بحاجة إليه. ليتكم رأيتموه في النادي حين يلعب الورق! لقد كان وضعه كله يهتف: "هاتوا الورق!... صحيح أنني ألعب معكم... ولكن أية صلة تربطني بكم؟ من هو المذنب في هذا؟ من الذي هدّم حياتي الجامعية، وردّني إلى هذا الدرك حتى أصبحت لا أزيد على أن أكون واحداً من حلقة مقامرة؟ أهلك الله روسيا!". وفيما هو يشمخ بأنفه، تراه يقطع الورق في حماسة...

والحق أنه كان مفتوناً باللعب، وهذا هو السبب في كثير من المشاجرات المزعجة التي وقعت بينه وبين فرفارا بتروفنا، لا سيما في المدة الأخيرة. وكان مما يفاقم الأمر أن صاحبنا كان يخسر في اللعب دائماً. على أن لي عودة إلى هذا الموضوع. وحسبي الآن أن أذكر أن الرجل كان حسّاس الوجدان مرهف الضمير (أو قل على الأقل أنه كان يتفق له أن يكون كذلك في بعض الأحوال) ومن أجل هذا كان في كثير من الأحيان حزين النفس. وفي خلال الأعوام العشرين التي قضاها في صداقة فرفارا بتروفنا كان يتفق له دائماً، ثلاث مرات أو أربعة في العام، أن يصاب بنوبات من "الحزن الحضاري"، كما أسميناه فيما بيننا، أي بنوبات من الكآبة لا أكثر ولا أقل، غير أن المحترمة فرفارا بتروفنا كانت تحرص أشد الحرص على استعمال هذه اللفظة. وقد أصبح يصاب بعد ذلك بنوبات سببها "الشمبانيا"، غير أن فرفارا بتروفنا المرهفة الحس الرقيقة الشعور استطاعت دائماً أن تحميه من التردي في حمأة الميول الخسيسة. والحق أن هذا الرجل كان بحاجة إلى مربية من مربيات الأطفال، إذ كان يتفق له أحياناً أن يكون غريب الأطوار: فبينما هو مثلاً في ذروة حزنه الرفيع إذا هو

يأخذ يضحك على حين غرة ضحكاً مبتذلاً. وكان في بعض الساعات يطفق يتحدث عن نفسه بلهجة ساخرة. وفرفارا بتروفنا لا تفزع من شيء فزعها من السخر. إنها امرأة تعتنق مبادئ كلاسيكية، امرأة تحمي العلماء وترعى الأدباء، ولا تستلهم في سلوكها غير البواعث العليا والدوافع السامية. ولقد كان تأثير هذه السيدة الكبيرة في صديقها المسكين خلال عشرين سنة تأثيراً قوياً. ويحسن أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً. وهذا ما أنا فاعله الآن.

3

ثمة صداقات غريبة: رب صديقين يوشك كل منهما أن يلتهم صاحبه في كل لحظة، ثم هما يقضيان حياتيهما كلها دون أن يطيقا الافتراق، حتى ليستحيل عليهما أن يهجر أحدهما الآخر. فإذا بدا لأحد منهما أن يقطع صلته بالآخر في ساعة نزوة، كان أول من يسقط مريضاً من شدة الحزن، حتى لقد يموت كمداً ولوعة. أعرف أن ستيفان تروفيموفيتش قد حدث له غير مرة، بعد مكاشفات خلوية مع فرفارا بتروفنا، أن وثب عن أريكته منذ أصبح وحيداً، وأخذ يضرب الجدار بقبضة يده.

لست أزخرف... حتى لقد بلغ من شدة الدق على هذا النحو في بعض الأحيان أن أسقط جير الجدار. رب سائل يسألني: كيف استطعت أن تعرف أمراً تفصيلياً كهذا الأمر، وهل شهدته بأم عينك؟ لقد طالما أخذ ستيفان تروفيموفيتش ينتحب فوق كتفي مرات كثيرة، حتى وهو يصوِّر لي العواطف التي تضطرم في قرارة نفسه أقوى تصوير! وما أكثر الأمور التي كان يعترف لي بها في تلك اللحظات! إليكم ما كان يحدث دائماً على وجه التقريب بعد هذه النوبات من الانتحاب: كان لا يأتي الغد إلّا وستيفان تروفيموفيتش مستعد لأن ينتحر معاقبة لنفسه على عقوقه وإنكاره للجميل، كان يرسل في طلبي على عجل، أو يهرع إلى بيتي بنفسه، لا لشيء إلّا ليخبرني بأن فرفارا بتروفنا "ملاك من ملائكة نبل الشرف ورهافة الشعور ورقة العاطفة، وأنه هو نقيض ذلك". وكان لا يكتفي بأن يسرّ إلي أنا بدخيلة نفسه، بل كان يبعث إليها

باعترافاته في رسائل يودعها غاية ما يطيقه من بلاغة. كان يعترف لها مثلاً بأنه بالأمس قد قصّ على أحد الناس أنها لا تحتفظ به إلّا حباً بالظهور، وأنها تنفس عليه علمه ومواهبه وتغار منها، وأنها تكرهه، وأنها إن كانت لا تُظهِرُ له هذا الكره، فما ذلك إلّا مخافة أن يتركها فيسيء بذلك إلى سمعتها كأديبة، ويضيف إلى ذلك أنه يحتقر نفسه، وأنه قرر أن ينتحر.. وأنه ينتظر منها كلمة أخيرة تحدد مصيره، وهلمّ جرّاً!... تستطيعون أن تتخيلوا بعد هذا مدى ما كانت تصل إليه الانفجارات العصبية لدى هذا الطفل الذي يفوق في براءته سائر من هم في الخمسين من العمر. لقد قرأت أنا نفسي، ذات يوم، رسالة من تلك الرسائل كتبها على إثر مشاجرة قامت بينه بين صاحبته لسبب تافه، وتفاقمت مع ذلك أشد التفاقم. لقد أرعبتني هذه الرسالة، فرجوته ألا يبعث بها إليها، فأجابني بما يشبه الهذيان قائلاً: "مستحيل... هذا أشرف... هذا واجبي... لسوف أموت إن لم أعترف لها بكل شيء، بكل شيء".

وبعث الرسالة.

إن الفرق بينه وبين فرفارا بتروفنا هو أنها لا يمكن أن تبعث رسالة كهذه الرسالة في يوم من الأيام. والحق أن صاحبنا كان يحب الكتابة كثيراً، ولقد كان يكتب إليها رسائل حتى حين كانا يقيمان في بيت واحد، وكان يكتب إليها رسالتين في اليوم الواحد حين تستبدّ به نوبات العصبية. وأنا أعلم علم اليقين أنها كانت تقرأ رسائله باهتمام كبير دائماً، حتى حين يصل إليها منه بريدان. فإذا انتهت من قراءة الرسائل نضّدتها في صندوق خاص بعد أن تذيّلها بالحواشي وتصنّفها. (كانت تنضّدها أيضاً في ذاكرتها)، ثم تدع صاحبها بلا جواب طوال يوم بكامله، ثم تلقاه بعد ذلك وكأن شيئاً لم يكن ولا حدث أمر من الأمور البتة. وشيئاً فشيئاً تكون قد بلغت من ترويضه أنه لا يجرؤ هو نفسه أن يذكر ما وقع بالأمس، ثم لا يزيد على أن يختلس النظر إلى عينيها. لكنها لا تكون قد نسيت شيئاً، بينما هو ينسى في بعض الأحيان كل شيء بسرعة كبيرة، يشجعه على ذلك ما يلاحظه فيها من فرط الهدوء، فإذا اتفق أن جاء بعض الأصدقاء في اليوم نفسه رأيته في كثير من الأحيان قد

أخـذ يضحك ويمزح كتلميذ مرح وهو يفرغ أقداح الشـمبانيا في جوفه دفعة واحدة. وما أمرّ النظرات التي كانت ترشـقه بها في مثل تلك اللحظات، دون أن يلقي إليها بالاً!

لكنه كان حين يتذكر فجأة على غير إرادة منه، بعد أسـبوع، أو بعد شـهر، أو حتـى بعد سـتة أشـهر، هذه العبـارات أو تلك مـن العبارات التـي ضمنتها رسـالة من رسـائله، أو حين كان يتذكر رسـالة بكاملها من تلك الرسـائل في أدق تفاصيلهـا، كان يحمرّ وجهـه خجلاً، وسـرعان ما يسـتحيل ألمه عندئذ إلى عذاب شـديد، فإذا هو يصاب بنوبة إسـهال حاد. لقد كانت هذه النوبات العجيبة التي تشـبه مرض الكوليرين ترجع في بعض الأحوال إلى اضطراباته العصبية وتصوّر صفة غريبة من صفات بنيانه.

والحـق أن فرفـارا بتروفنا كانـت تكرهه في كثير جداً مـن الأحيان، ما في ذلـك من ريب. غير أن هناك شـيئاً ظل إلى النهاية لا يسـتطيع أن يدركه فيها، وهـو أنهـا كانت من طول صحبتها له قد انتهت إلى اعتباره ابنا لها هي خالقته بل هي مبدعته إن صحّ التعبير. لقد أصبح جزءاً منها، فإذا احتفظت به وعالته، فليـس يرجع ذلك إلى "غيرتها من مواهبه". وما كان أشـد ألمها من مثل هذه الافتراضات! حتى لقد كانت تشعر نحوه بحب عنيف يمازجه كره في جميع اللحظات، كما تخالطه غيرة ويخالطه احتقار. لقد سهرت عليه ودلّلته خلال عشـرين عاماً كما تسـهر الأم على طفلها وتدلّله. ولا شـك أنهـا أرقت ليالي طويلة حين كانت تُمَسُّ سمعته كشاعر وعالم ومواطن. إنها هي التي خلقته، وهـي أول من خلقـه. هذا ما كانت تعتقد به. لقـد كان عندها بمثابة حلم لها. لكنهـا كانـت في مقابل ذلك تطالبـه بأمور كثيرة، حتى لقـد كانت تقتضيه في بعض الأحيان أن يكون لها عبداً. وكانت حقودة إلى درجة لا نظير لها. وإني لأحرص في هذه المناسبة على أن أروي هاتين القصتين الصحيحتين:

4

فـي ذات يـوم، إبـان رواج أولى الشـائعات عـن تحرير الفلاحيـن، بينما

أصبحت روسيا كلها في نشوة وفرح على حين فجأة، وبينما كانت تتهيأ لأن تبعث بعثاً جديداً، زار فرفارا بتروفنا بارون من بطرسبرج، كان ماراً بمدينتنا، وهو رجل ذو علاقات رفيعة وله بالحكومة صلات وثيقة. لقد كانت فرفارا بتروفنا تحرص على مثل هذه الزيارات أشدّ الحرص، لأن علاقاتها بالمجتمع الراقي كانت منذ وفاة زوجها تهن مزيداً من الوهن يوماً بعد يوم، إلى أن انقطعت في النهاية انقطاعاً تاماً.

قضى البارون عندها ساعة واحتسى الشاي. ولم يكن معهما أحد إلّا ستيفان تروفيموفيتش الذي دعته فرفارا بتروفنا لتعرضه. وكان البارون قد سمع عنه، لكنه لم يكد يخاطبه أثناء تناول الشاي بكلمة. ولا شك أن ستيفان تروفيموفيتش كان يحسن التصرف أيما إحسان، ولقد كانت له آداب رفيعة. إنه على وضاعة محتدِّه قد أتيح له أن ينشأ منذ طفولته في منزل أسرة نبيلة بموسكو، فهو إذن قد تربّى تربية حسنة. وكان لذلك يتكلم اللغة الفرنسية كما يتكلمها باريسي. وكان على البارون إذن أن يدرك منذ النظرة الأولى نوع هؤلاء الناس الذين يحيطون بفرفارا بتروفنا حتى في عزلتها بالريف. غير أن شيئاً من هذا لم يحدث. فحين أعلن البارون أن الشائعات التي أخذت تروج عن الإصلاح الكبير صحيحة كل الصحة، لم يستطع ستيفان تروفيموفيتش أن يسيطر على نفسه فصاح يقول فجأة: "مرحى!" وأرفق الصيحة بحركة تعبِّر عن حماسته. ولقد أطلق صيحته هذه بصوت معتدل، حتى ليمكن أن نقول إنها لم تكن تخلو من رشاقة وأناقة، بل إن من الجائز أيضاً أن الحماسة كانت محسوبة وأن الحركة قد درست أمام المرآة قبل الشاي بنصف ساعة. ولكن أغلب الظن أن ستيفان تروفيموفيتش لم يوفق فيها. لذلك سمح البارون لنفسه بابتسامة خفيفة، وأسرع يدس مع ذلك جملة مهذبة مؤدّبة يعبّر فيها عن أن الانفعال القوي الذي تحسه القلوب الروسية إزاء الحدث الكبير أمر مفهوم جداً ومعقول جداً. ثم لم يلبث أن استأذن بالانصراف، ولم ينس حين ذهب أن يمد إلى ستيفان تروفيموفيتش إصبعين. فلما عادت فرفارا بتروفنا إلى الصالون لزمت الصمت بضع دقائق متظاهرة بأنها تبحث عن شيء على

المنضدة، ثم التفتت نحو ستيفان تروفيموفيتش فجأة ودمدمت تقول له من بين أسنانها، شاحبة الوجه متقدة العينين:

- لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام!

ولقيته في الغداة فكأن شيئاً لم يحدث، ثم لم تشر إلى هذا الحادث أية إشارة. ولكنها تذكرته بعد ثلاثة عشر عاماً في لحظة أليمة، وأخذته عليه، ممتقعة اللون كما في المرة الأولى تماماً. إن فرفارا بتروفنا لم تقل لصديقها هذه الجملة "لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام" إلّا مرتين في حياتها. فالحادث الذي وقع أثناء زيارة البارون كان هو المرة الثانية. أما المرة الأولى فقد وقعت قبل زيارة البارون بمدة طويلة. وهي تبلغ من التميز ومن خطورة الشأن في حياة ستيفان تروفيموفيتش أنني أعزم أمري على أن أرويها.

كان ذلك في ربيع سنة 1855، في شهر أيار (مايو)، بُعيدَ أن عُلم في سكفورشنيكي نبأ موت الليوتنان جنرال ستافروجين، العجوز المتحلل الطائش الذي توفي من آثار اضطراب في المعدة أثناء ذهابه إلى القرم التي عُيّن في جيشها العامل. لقد لبست فرفارا بتروفنا ملابس الحداد. ولكن حزنها لا يمكن أن يكون عميقاً جداً، لأنه بسبب فقدان التوافق في الزواج بينها وبين زوجها كانت تعيش منفصلةً عنه انفصالاً تاماً منذ أربع سنين، وتقدم له ماهو في حاجة إليه من نفقة (كان الجنرال ينتمي إلى أعلى طبقة نبيلة)، وكانت له علاقات كبيرة، لكنه كان لايملك إلّا خمسمائة نفس ومرتَّب الوظيفة. أما الثروة كلها، وكذلك سكفورشنيكي، فقد كانت لفرفارا بتروفنا، وهي الابنة الوحيدة لتاجر غني من تجار الخمور). ومع ذلك فقد هزّها الحادث هزاً قوياً، فانزوت في عزلتها، ولم يتركها ستيفان تروفيموفتش طبعاً.

كان شهر أيار (مايو) في تمام ازدهاره. الأماسي جميلة رائعة. أزهار الكرز البرّي قد بدأت تتفتح براعمها. والصديقان يمضيان إلى الحديقة كل مساء عند هبوط الليل، ويظلان جالسين تحت قبة من أغصان الشجر يفضي كل منهما إلى صاحبه بعواطفه وأفكاره. إنهما يعيشان لحظات شعرية

حقاً. وكانت فرفارا بتروفنا، بسبب التغير الذي أصاب حياتها، تتكلم أكثر مما اعتادت أن تتكلم قبل ذلك. فهي تبدو منجذبة إلى قلب صاحبها انجذاباً قوياً. هكذا انقضت ليال كثيرة. وفجأة خطر ببال ستيفان تروفيموفتش فكرة غريبة: تُرى أليست تطمع فيه هذه المرأة الحزينة التي لايجد العزاء إلى نفسها سبيلاً؟ ألا تنتظر منه أن يخطبها متى انتهت سنة الحداد؟ فكرة عجيبة، لكن رهافة البنيان النفسي تشجّع في المرء أحياناً بعض الميل إلى مثل هذه الأفكار العجيبة، فعلى قدر نمو النفس يكون الاستسلام لجموح الخيال. وقد أخذ الرجل يتعمق في دراسة الأمر فوجد أن افتراضه جائز. فجعل يفكر: "صحيح أن الثروة طائلة، ولكن...!". الواقع أن فرفارا بتروفنا لم تكن على أي حظ من جمال: امرأة طويلة القامة، صفراء الوجه، بارزة العظام، يشبه وجهها من فرط طوله أن يكون وجه حصان. وأصبح ستيفان تروفيموفيتش يزداد تردداً. وغزت رأسه الشكوك، حتى لقد هطلت دموعه مرتين من شدة حيرته (كانت دموعه سريعة الانسكاب). لكنه في المساء، أي تحت قبة الشجر، كان وجهه يعبر، رغم إرادته، عن النزوة إلى جانب شيء من الكبر والصلف. إن مثل هذا التعبير يظهر ظهوراً غير متوقع، وكلما كان المرء رفيعاً بدا هذا التعبير في وجهه واضحاً.

وإذا كنا لا نستطيع أن نقطع برأي في ما كان يعتلج في قلب فرفارا بتروفنا فأغلب الظن أن قلبها لم ينبت فيه شيء مما يسوغ ظنون ستيفان تروفيموفيتش. ثم إنها ما كان لها أن ترضى أن تستبدل باسمها ـ ستافروجين ـ اسم ستيفان تروفيموفيتش مهما يكن هذا الاسم مجيداً. ولعل الأمر كله لا يعدو أن يكون عندها تسلية صغيرة من تسليات النساء، وثمرة حاجة لا شعورية، طبيعية في المرأة في بعض الظروف الخاصة. ومهما يكن من أمر فإني لا أستطيع أن أقطع برأي حاسم. ولقد ظل قلب هذه المرأة مغلقاً حتى يومنا هذا. ولكن فلنتابع القصة.

أغلب الظن أن فرفارا بتروفنا لم تلبث أن أدركت معنى هذا التعبير الغريب الذي يظهر في وجه صاحبنا. فلقد أوتيت موهبة الحدس وقوة الملاحظة،

في حين أن ستيفان تروفيموفتش كان في بعض الأحيان ساذجاً مسرفاً في السذاجة. ومع ذلك ظلت الأمسيات تنقضي على عادتها وظلت الأحاديث بين الصديقين تجري شعرية شائقة. وفي ذات مرة، عند هبوط الليل، بعد حديث من أكثر الأحاديث امتلاء بالحياة وتضمخاً بروح الشعر، افترق الصاحبان على مودة عند عتبة الجناح الذي يقيم فيه ستيفان تروفيموفيتش، بعد أن تصافحا بحرارة. لقد كان ستيفان تروفيموفيتش في مطلع كل صيف، يترك الدار الواسعة المريحة، ويستقر في هذا البيت الصغير الذي يكاد يثوي في قلب الحديقة.

دخل الرجل إلى بيته، وتناول سيجاراً في تردد مهموم واجم، ووقف أمام النافذة قبل أن يشعل السيجار. وقف متعباً ساكناً يحدق بنظره إلى الغمامات الصغيرة البيض، الخفيفة كندف الثلج، التي تحوم حول القمر الهادئ... وفيما هو كذلك إذا به يسمع على حين فجأة ضجة صغيرة، فيرتعش ويلتفت... كانت فرفارا بتروفنا التي تركها منذ أربع دقائق، واقفة هنالك أمامه. إن وجهها الشاحب قد ضرب إلى زرقة، وإن شفتيها المنقبضتين ترتعشان عند الزاويتين. وظلت المرأة تنظر إليه خلال عشر ثوان نظرة قاسية، دون أن تنبس بكلمة، ثم دمدمت تقول على عجل: "لن أغفر لك هذا في يوم من الأيام!".

حين قص علي ستيفان تروفيموفيتش هذه القصة بعد عشر سنين، بصوت خافت، وقد أغلق الأبواب، حلف أنه بلغ من الانشداه في تلك اللحظة أنه لم يسمع ولا رأى كيف اختفت فرفارا بتروفنا. ولأن فرفارا بتروفنا لم تشر إلى هذا الحادث مرة واحدة بعد ذلك، ولأن كل شيء قد جرى بعدئذ في مجراه الطبيعي، فقد ظل صاحبنا طوال حياته يعتقد أنه كان فريسة وهم من الأوهام التي تسبق المرض عادة، لا سيما وأنه في تلك الليلة قد مرض فعلاً، وظل مريضاً طوال خمسة عشر يوماً، وهذا ما قطع لقاءهما كل يوم في المساء تحت قبة الأشجار. ومع ذلك رغم رغبته في الاعتقاد بأن الأمر لا يعدو أن يكون وهماً، فقد ظل خلال حياته كلها، وفي كل يوم من الأيام، ينتظر تتمة

هـذا الحـادث أو ينتظر خاتمة هـذه المغامرة إن صح التعبير. كان لا يسـتطيع أن يصـدق أن القصة قـد انتهت! وإذا كان الأمر كذلك حقـاً، فلك أن تتصور النظرات الخاصة التي كان يلقيها على صديقته من حين إلى حين.

5

كانـت فرفارا بتروفنـا قد بلغت من الاهتمام بأمره أنهـا تخيلت له ملابس ظـل يرتديهـا طـوال حياته، وهي ملابـس أنيقة متميزة تشـتمل علـى ما يلي: ردنجوت أسـود طويـل الجانبين، مزرر حتـى العنق تقريباً ولكنه يناسـبه إلى أبعد حد، وقبّعة لينة واسـعة الحافـة (هي في الصيف قبعة من القش)، وربطة عنـق من حرير أبيـض، كبيرة العقـدة متوَّجة الطرفين، وعصـا ذات قبضة من فضة، هذا إلى شعر طويل متهدّل حتى الكتفين. إن شعره الكستنائي لم يبيض قليلاً إلّا في السـنين الأخيرة. وكان يحلق شـاربيه ولحيته. ويقال إنه كان في شـبابه فتى وسيماً إلى أبعد حدود الوسـامة. وفي رأيي أنه ظل يحتفظ بمظهر مهيب حتى شـيخوخته. وهل يعد المرء شيخاً وهو في الثالثة والخمسين من عمـره؟ على أن صاحبنـا كان، من قبيل التزيين البطولـي، لا يحاول أن يظهر بمظهر الشـباب، بل يسـتمد من تقدّمه في السن زهوّاً أيّ زهو. وكان بملابسه الغريبـة وقامتـه الطويلة النحيلة وشـعره المتهدل على كتفيه أشـبه ببطرك من البطاركة، أو قل كان أشبه بصورة الشاعر كوكولنيك[1] كما تراها منقوشة على طبعة مؤلفاته التي ظهرت بين عام 1830 وعام 1840.

وكان هذا الشـبه يبـرز بروزاً خاصاً حين كان صاحبنـا يجلس في الصيف علـى مقعد بالحديقة، في ظل أشـجار الليلك المزهرة، وقد أسـند يديه على عصـاه وإلـى جانبه كتـاب مفتوح، وغاب في أحلام شـعرية يوحـي بها منظر الشـمس الغاربـة. وعلـى ذكر الكتـب يجب أن ألفـت النظر إلـى أن صاحبنا

---

(1) نستور كوكولنيك (1868ـ 1809): شاعر وكاتب خصب أصبح الآن منسياً، وقد ألف تراجيديات تاريخية تناصر الاتجاه الملكي.

قـد انتهـى بمضي الزمن إلـى النفور من القـراءة. غير أن ذلك لـم يحدث إلّا في السـنين الأخيرة مـن حياته. هذا إلى أنه كان يواظـب على قراءة الصحف والمجـلات التـي كانـت فرفارا بتروفنـا تكثر مـن اسـتحضارها. وكذلك لـم ينقطـع عن الاهتمـام بانتصارات الأدب الروسـي، ولكن دون أن يفقد شـيئاً من رصانته. وقد شغف بدراسة سياستنا المعاصرة، الداخلية والخارجية، في وقـت من الأوقـات. لكنه لم يلبث أن عدل عن مشـروعه هـذا. وكذلك كان يتفـق له حين يمضي إلى الحديقة أن يحمل كتاباً من كتب توكفيل[1] وإن كان يضـع في جيبه مؤلفاً من مؤلفات بول دوكـوك. على أن هذه تفاصيل لا قيمة لها.

وعلى ذكر صورة كوكولنيك أحب أن أشـير مستطرداً إلى أن هذه الصورة قـد وقعـت لأول مرة بيـن يدي فرفـارا بتروفنا حيـن كانت طالبـة داخلية في "معهد البنات النبيلات بموسكو". فما إن رأتها حتى افتتنت بها، على عادة جميـع الفتيات فـي المدارس الثانوية، اللواتي يعشـقن أي شـيء، ويعشـقن أساتذتهن في الوقت نفسه، وأساتذة الخط والرسم خاصة. على أن هذا ليس أهم ما في الحكاية، فهو شـيء لا يكاد يلفت النظر في فتاة صغيرة، وإنما أهم ما في الحكاية أن فرفارا بتروفنا ظلت وهي في الخمسـين من عمرها تحتفظ بهـذه الصورة بين أعز ما تحتفظ به من ذكرياتها الخاصة الحميمة. ولعل هذا هو السـبب الوحيد في أنها فصّلت لسـتيفان تروفيموفيتش رداء شـبيهاً برداء الشاعر كما يُرى في الصورة. على أن هذا أمر لا قيمة له أيضاً بطبيعة الحال.

وفي إبان السـنين الأولى، أو قل في خلال الشطر الأول من إقامة صاحبنا عنـد فرفـارا بتروفنا، كان ما يزال يفكـر في تأليف كتـاب لا أدري ما هو، فما من يوم إلّا وهو يتهيأ لمباشـرة عمله جاداً. ولكن في خلال الشـطر الثاني من إقامته هذه، هجر المشـروع فيما يظهر. وكثيراً ما كنا نفاجئه يقول: "يلوح لي

---

(1) توكفيل (1805- 1859) : الصحفي الشهير والسياسي الفرنسي، مؤلف كتاب "النظام القديم" وكتاب "الثورة"، وقد كان مقروءاً في روسيا.
أمّا روايات بول دوكوك فقد كانت رائجة في روسيا رواجاً كبيراً.

دائماً أنني سأشرع في الكتابة، بعد أن جمعت المواد اللازمة... ولكنني أنظر فأرى أن لا سبيل إلى ذلك، ولا شيئ كما ينبغي".

وكان إذ يقول ذلك يخفض رأسه مرهقاً. ولا شك أن هذا الوضع كان ينبغي أن لا يزيده في نظرنا إلّا عظمة ومهابة، فهو شهيد من شهداء العلم. أما هو فكان يرغب في شيء آخر. لقد أفلت منه غير مرة قوله: "لقد نُسيت، ولا حاجة لأحد بي بعد الآن." غير أن هذا الشعور بالأسى العميق القوي إنما استبد به استبداداً خاصاً حوالي عام 1860. وأدركت فرفارا بتروفنا أخيراً أن الأمر في هذه المرة خطير. هذا إلى أنها كانت لا تستطيع أن تسلّم بأن صاحبها قد نسيه الناس وأصبحت حياته غير ذات جدوى. فمن أجل أن تسلّيه قليلاً، ومن أجل أن تعيد إلى شهرته شيئاً من النضارة في الوقت نفسه، ذهبت به إلى موسكو، المدينة التي لها فيها علاقات طيبة بعالم العلم والأدب. ولكن اتضح لها أن موسكو غير كافية البتة.

إنه لعصر عجيب ذلك العصر!... إن شيئاً جديداً يهم أن يولد، شيئاً لا شبه بينه وبين الهدوء القديم، شيئاً غريباً كل الغرابة، ولكن الناس يستنشقونه في كل مكان، حتى في أراضي سكفورشنيكي. إذ كانت أصداء منه قد وصلت إلينا. إننا نعرف الوقائع. لكن الوقائع تجر وراءها عدداً كبيراً من الأفكار الجديدة. كان هذا ينشر الحيرة والاضطراب في العقول. وكان يستحيل علينا أن ندرك المعنى الصحيح والدلالة الصادقة لهذه الأفكار. لذلك قامت في نفس فرفارا بتروفنا، بحكم طبيعتها النسوية، رغبة قوية في إدراك السر. فأخذت تقرأ جميع ما يأتون به إليها من الجرائد والمجلات، والنشرات الأجنبية الممنوعة في روسيا، وحتى الدعوات الثورية التي أخذت تنتشر حينذاك (كان هذا كله يرسل إليها) لكن ذلك لم يزد رأسها إلّا اضطراباً. وشرعت كذلك في كتابة رسائل. إلّا أن الأشخاص الذين تكتب إليهم لا يجيبون إلّا قليلاً، وكلما استمرت المراسلة أصبح فهمها أعسر. واتجهت إلى ستيفان تروفيموفيتش ترجوه أن "يعرض لها هذه الآراء عرضاً كاملاً" مرة واحدة. لكنها ظلت غير راضية عن شروحه صراحةً. كان رأي ستيفان

تروفيموفيتش في الحركة العامة القائمة متعالياً أشد التعالي. كان كل شيء يرتد عنده إلى هذا: أنه قد نُسي، وأن أحداً لا يذكره الآن. وأخيراً ذكره الناس هو أيضاً. ذكروه أول الأمر في المجلات الأجنبية التي عدّته شهيداً من شهداء المنفى. وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه في بطرسبرج أيضاً، كنجم كان في الماضي واحداً من طائفة من الكواكب الكبرى. حتى لقد شبّهه بعضهم برادشتشيف[1] دون أن يدرك أحد لماذا. وبعد فترة وجيزة أشيع أنه مات، وأعلن أحدهم أنه سيكتب نبذة عن حياته وأعماله. فانتعش ستيفان تروفيموفيتش مرة واحدة، واكتسى وجهه على حين فجأة أرفع معاني العظمة التي يعبّر عنها. واختفى من نفسه كل ما كان يعلن عنه من احتقار لمعاصريه، واشتعل في قلبه لهيب جديد: إنه يفكر الآن في الانضمام إلى الحركة وفي إظهار مدى ما يملكه من قوى. واستردت فرفارا بتروفنا ثقتها وأصبحت غارقة في عالم من المشاغل. لقد قرر الصديقان أن يذهبا إلى بطرسبرج فوراً، ليستطلعا الأمور، وليقضيا كل شيء بنفسيهما، ولينخرطا في الحركة الجديدة انخراطاً كاملاً إذا أمكن ذلك. وأعلنت أرملة الجنرال، فيما أعلنته، أنها مستعدة لإنشاء مجلة، ولأن تنذر لهذه المجلة ما تبقى من أيام حياتها. وحين لاحظ ستيفان تروفيموفيتش ما وصلت إليه الأمور أصبح يصطنع من مظاهر العلو والرفعة أكثر مما كان يصطنع منها قبل ذلك، حتى لقد أصبح يقف من فرفارا بتروفنا موقفاً يشبه أن يكون موقف من يحميها ويرعاها، وقد لاحظت هي ذلك وسجلته في ذاكرتها. ثم إن هناك باعثاً هاماً آخراً قد حثّها على مباشرة مشروعها، هو أنها كانت تريد تجديد علاقتها بالدوائر العليا من أوساط المجتمع. كان لا بد لها، أن تذكّر المجتمع الراقي بها ما وسعها ذلك، أو أن تحاول هذا في أقل تقدير.

أما الحجة الرسمية التي تذرعت بها للقيام بهذه الرحلة، فهي أنها تريد رؤية ابنها الوحيد الذي كان أيامئذ ينهي دراسته في ثانوية سان بطرسبرج.

---

(1) نيقولا رادشتشيف: مؤلف كتاب ثورتي عنوانه "رحلة من سان بطرسبرج إلى موسكو" ظهر الكتاب سنة 1790.

6

قضـى الصديقان في بطرسـبرج فصل الشـتاء كلـه تقريباً. ومـا أتى صوم الفصـح فـي أثناء ذلـك إلّا وكان كل شـيء قد تبـدّد كفقاعة صابـون. ذهبت الأحـلام، وأصبـح الوضع المبهم أشـد إبهاماً بدلاً مـن أن يتضح. العلاقات بالطبقات العليا من المجتمع لم يمكن أن تنعقد، اللهم إلّا في حدود ضيقة كل الضيق وبمسـاع ذليلة. وقد جرحت من ذلك كبرياء فرفارا بتروفنا فانخرطت انخراطاً قوياً في الدعوة إلى الأفكار الجديدة، وراحت تهيء في بيتها أمسيات دعـت إليها عدداً من الأدباء الذين سـرعان ما قُدّمـت إليها طائفة كبيرة منهم، وأصبحـوا بعـد ذلك يفـدون من تلقاء أنفسـهم بلا دعـوة، ويصحب بعضهم بعضـاً. إنهـا لم تر قبـل الآن أدباء من هذا النـوع. لقد كانوا جميعـاً مغرورين إلى أبعد حدود الغرور، ولكن غرورهم كان يبلغ من الوضوح والظهور أنهم يوشـكون أن يعدوه واجباً. وكان بعضهـم (لا جميعهم) يمضون في هذا إلى حـد لمجيء سـكارى، وكأنهم يـرون في ذلـك فضيلة خاصة اكتشـفوها في الوقت المحدد. إن لهم طريقة عجيبة في الاختيال كالطواويس حين يذكرون مواهبهم، حتى لتسـتطيع أن تقرأ في وجه كل واحد منهم أنه قد اكتشـف سراً خطيـراً إلى أبعد حدود الخطورة. وكانوا يختصمون ويناقشـون ويتنافسـون. ولئـن كان يصعـب على المـرء أن يعرف ماذا أنتجوا في حياتهـم الأدبية، لقد كان بينهم نقاد، وروائيون، ومؤلفو مسـرحيات، وكتّاب سـاخرون، ومدبّجو مقالات. واستطاع ستيفان تروفيموفيتش أن ينفذ إلى القلب من هذه الحلقة، أي إلـى النقطـة التي تنطلق منها قيـادة الحركة، ومن أجل أن يسـتطيع مقاربة القادة اضطر إلى أن يجتاز عدداً لا نهاية له من درجات السلم. على أن هؤلاء القـادة قـد اسـتقبلوه في مودة وحـرارة، رغم أن أحداً لم يسـمع بـه من قبل، ولا عرف عنه إلّا أنه "يجسّد الفكرة". وقد عرف ستيفان تروفيموفيتش كيف يداورهم في براعة، حتى اسـتطاع أن يجتذبهم إلى بيت فرفارا بتروفنا مرتين، رغـم عظمتهم الأولمبيـة. وكان هؤلاء الناس رجالاً جادّيـن إلى أبعد حدود

الجد، وكانوا على جانب عظيم من التهذيب وسلامة السلوك. وكان يبدو أن الآخرين يخشونهم. ولكن كان واضحاً أنهم أناس لا يملكون من الوقت ما يبددونه سدى. وقد وفد إلى بيت فرفارا بتروفنا كذلك أديبان أو ثلاثة أدباء من ذوي الشهرة القديمة، وكانوا يومئذ في بطرسبرج، وكان لفرفارا بتروفنا بهم صلة من أحلى الصلات يرجع عهدها إلى زمن قديم. ولكن ما كان أشد دهشتها حين لاحظت أن هؤلاء الأدباء المشهورين كانوا، رغم ما يتصفون به من أصالة ومن مواهب لا سبيل إلى إنكارها "أهدأ من الماء، وأكثر تواضعاً من أعشاب الأرض"، وكان بعضهم يجد أن خير ما يفعله هون أن يتشبث بهذه العصبة الجديدة طالباً جودها وكرمها. وقد واتى الحظ ستيفان تروفيموفيتش بعض المواتاة في أول الأمر، فقد تعلقوا به، وأخذوا يظهرونه في الاجتماعات الأدبية. وحين صعد المنبر أول مرة، في حفلة أدبية اشترك فيها، استقبله الجمهور بتصفيق جنوني استمر خمس دقائق طوال. إنه بعد عشر سنين، ظل يتذكر تلك اللحظة وعيناه مخضلّتان بالدموع (لا عرفاناً بالجميل، بل من فرط حساسيته الفنية)، فقال لي (وحدي سراً): "أقسم لك أن أحداً من الحضور لم يكن قد سمع بي في حياته قبل ذلك".

وهذا اعتراف جدير بأن يلاحظ. فإذا صح أن صاحبنا قد أدرك وضعه هذا الإدارك الواضح، في تلك اللحظة نفسها، رغم شدة الانفعال التي كان يعانيها من فوق المنبر، فلقد كان إذنْ إلى جانب من رهافة الذكاء. لكن الواقع أنه لم يكن على قدر عظيم من الذكاء المرهف، فإنه بعد تسع سنين، كان لا يستطيع بعث تلك الذكرى إلّا ويشعر من ذلك بإهانة. لقد أجبروه على أن يوقع على اثنتين أو ثلاثاً من عرائض الاحتجاج الجماعية (على ماذا كان الاحتجاج؟ إنه هو نفسه لم يكن يدري)، فوقّع كل ما شاؤوا له أن يوقعه. وقد حُملت فرفارا بتروفنا أيضاً على توقيع عريضة من تلك العرائض احتجاجاً على "عمل من الأعمال الشائنة". ويجب أن نذكر من جهة أخرى أن أكثر هؤلاء "الناس الجدد" رغم ترددهم على فرفارا بتروفنا، كانوا يشعرون أن من واجبهم (لا ندري لماذا) أن ينظروا إليها نظرة احتقار وأن لا يكلفوا أنفسهم

عناء إخفاء سخرهم منها. وقد ذكر لي ستيفان تروفيموفيتش بعد ذلك، في ساعات مرارته، أن فرفارا بتروفنا إنما أخذت تغار منه ابتداء من تلك اللحظة. لقد أدركت، ولا شك، أنها لا تستطيع أن تعقد صلات بهؤلاء الناس. لكنها كانت تستقبلهم في نهم وشراهة، يدفعها إلى ذلك ما يتصف به أفراد جنسها من فرط حب الاطلاع ونفاد الصبر، بالإضافة إلى أنها كانت ما تنفك تتوقع حدوث حدث ما. وكانت فرفارا بتروفنا لا تتكلم في أثناء هذه الاجتماعات إلّا قليلاً، رغم أنها كانت قادرة على أن تتكلم كثيراً لو أرادت. لقد كانت تؤثر أن تصغي إلى كلامهم. وكانت الأحاديث تدور على إلغاء الرقابة، وعلى قواعد الإملاء، وعلى إحلال الألفباء اللاتينية محل الأحرف الروسية[1] وعلى ترحيل فلان أو فلان من الناس، وعلى آخر فضيحة حدثت، وعلى فائدة تقسيم روسيا إلى قوميات يضمها اتحاد فدرالي حر[2]، وعلى إلغاء الجيش والبحرية، وعلى إعادة قيام بولونيا حتى نهر دنيبر، وعلى الإصلاح الزراعي والبيانات الثورية، وعلى إلغاء حق الإرث، وعلى الأسرة والأولاد والكهنة، وعلى حقوق المرأة، وعلى بيت كرايفسكي[3] وما لم يغفره أحد لكرايفسكي، إلخ.. إلخ. ولئن ضم هذا الخليط من "الناس الجدد" أفراداً صالحين لقد ضم كذلك كثيراً من الرجال الصالحين، بل ومن الرجال اللطاف المحبين، على ما هناك من صفات خاصة تجعل الأمر مختلطاً مشتبهاً. أما "الصالحون" فقد كانوا أكثر استعصاء على الفهم من الطالحين الجفاة الغلاظ، ولكن المرء لا يعرف أي الفريقين كان يقود الآخر. وحين أُعلن أن فرفارا بتروفنا تفكر في إنشاء مجلة، هرع إليها عدد أكبر، لكنها لم

(1) في سنة 1862 كانت تُعقد في بطرسبرج اجتماعات تناقش مشكلات تربوية، منها تبسيط قواعد الإملاء. حتى لقد اقترح رجل يقال له كاوفسكي إحلال الألفباء اللاتينية محل الألفباء الروسية. وقد نشرت مجلة دوستويفسكي "الزمان". سنة 1862، مقالة عن هذه المشاجرة حول الإملاء.

(2) نشرت مجلة "روسيا الفتاة "سنة 1862 مقالة بقلم زايتشنفكي نداء تطالب فيه بتحويل روسيا إلى اتحاد جمهوري فدرالي لمقاطعات، وتطالب بإحلال ميليشيا وطنية محل الجيش، وباستقلال بولنده، وبإلغاء الحواجز وحق الإرث، وبالمساواة في الحقوق بين الرجال والنساء، إلخ..

(3) آندره كرايفسكي (1889ـ 1810). هو ناشر ورئيس تحرير مجلة "حوليات الوطن".

تلبث أن اتُّهمت بأنها رأسمالية، وبأنها مستغلة، وقد قُذف الاتهام في وجهها قذفاً. ولئن كانت هذه الاتهامات حادة عنيفة، لقد كانت كذلك مفاجئة. ففي أمسية من الأمسيات التي كانت تنعقد في بيت فرفارا بتروفنا، تناقش الجنرال العجوز إيفان إيفانوفتش دروزدوف مع شاب شهير من الشباب (والجنرال العجوز صديق قديم من أصدقاء المرحوم الجنرال ستافروجين وأحد رفاقه في الجيش، وهو شخصية من أكرم الشخصيات مقاماً ـ على طريقته الخاصة ـ يعرفه جميع الناس، ويتصف بالعناد والحنق، ويأكل كثيراً، ويخاف من الإلحاد خوفاً رهيباً). فما إن بدأت المناقشة بين الجنرال والشاب حتى قال له هذا: "لا بد أن تكون جنرالاً حتى تقول هذا الكلام" يريد بذلك أن يشير إلى أنه مامن شتيمة أقذع من وصف بأنه جنرال، فما كان من إيفان إيفانوفتش إلّا أن قال وقد استشاط غيظاً: نعم، أنا جنرال، بل أنا ليوتنان جنرال، وقد خدمت قيصري، أما أنت أيها الشاب فلست إلّا فتى غراً وملحداً" وتبعت ذلك جرصة كبيرة، وفي الغد أشارت الصحافة إلى الحادث، وشرع بعضهم في توقيع عريضة جماعية يحتجون فيها على "السلوك الشائن" الذي صدر عن فرفارا بتروفنا إذ رفضت أن تطرد الجنرال من بيتها فوراً. ونشرت إحدى المجلات المصورة صورة كاريكاتورية ساخرة تمثل فرفارا بتروفنا والجنرال وستيفان تروفيموفتش على أنهم ثلاثي رجعي. وقد نشرت الصورة الكاريكاتورية بضعة أبيات لشاعر شعبي نظمها خصيصاً لهذا الغرض. وأحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة إلى أن كثيراً من الذين وصلوا إلى رتبة جنرال قد درجوا على هذه العادة المضحكة، عادة قولهم "لقد خدمت قيصري"... كأن قيصرهم ليس قيصرنا، نحن رعاياه البسطاء المخلصين، وكأنه قيصرهم الخاص الذي خُلق لهم وحدهم من دون غيرهم.

وأصبح من المستحيل طبعاً أن يبقى الصديقان في بطرسبرج، لا سيما وأن ستيفان تروفيموفيتش قد مني هو أيضاً بإخفاق حاسم، ذلك أنه لم يستطع أن يمنع نفسه من الكلام باسم الفن، فجلب له ذلك مزيداً من السخريات. وأراد في أثناء محاضرة أخيرة ألقاها أن يؤثر في مستمعيه بالضرب على وتر

الحقـوق المدنية، آملاً بهز قلوبهم، معتمداً على ما يجب أن يوقظه "نفيه" في نفوسهم من احترام له، فأعلن صراحة أن كلمة "الوطن" كلمة باطلة سخيفة، وأيّـد الفكـرة القائلة بـأن للدين تأثيراً ضـاراً، ولكنه قال بصـوت عال ولهجة قاطعة إن حذاءين أقل قيمة بوشـكين، أقل كثيراً. فإذا بصيحات السخر تنهمر عليـه مـن كل جانب في غير رحمـة، حتى انفجر باكياً أمـام الناس من قبل أن ينزل على المنبر.

وقـد قادته فرفارا بتروفنا يومئذ إلـى البيت وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، فكان يدمدم كالمجنون قائلاً "لقد عاملوني كما تعامل طاقية عتيقة من القطن". وسـهرت عليه صديقته طوال الليل، وهي تسـقيه قطرات من الآس، وتردد على مسامعه حتى مطلع الفجر قولها: "إنك ما تزال مفيداً. ستعود إلى الظهور من جديد، وسيعرف الناس قدرك وقيمتك... في مكان آخر."

وفـي سـاعة مبكرة من صبـاح الغد جـاء إلى بيـت فرفارا بتروفنا خمسـة أدباء، ثلاثة منهم غرباء لـم يسـبق لها أن رأتهم يوماً، فقالوا لها، وقد تجهمت وجوههم، إنهم قد درسـوا مسـألة المجلـة وانتهوا إلى قرار فـي هذا الصدد. والحـق أن فرفـارا بتروفنـا لـم تعهـد إلـى أحـد البتة بدراسـة مسـألة المجلة المذكـورة، ولا كلفـت أحـداً باتخاذ أي قرار بشـأنها. وإليكـم قرارهم الذي انتهو إليه:

إن عليها، وهي مؤسسـة المجلة، أن تتنـازل لزمرتهم عن المجلة وأموال المجلـة حـالاً، ثم أن تعود إلـى سكفورشـنيكي وأن لا تنسـى أن تأخذ معها سـتيفان تروفيموفتـش الذي أصبـح الآن "عتيقاً بالياً". ومـن قبيل اللطف في المعاملة وافقوا على الاعتراف لها بحقها في ملكية المجلة، وعلى أن يرسلوا إليها سـدس الأرباح في كل عام. وأجمل ما في الأمر كله أن أربعة من هؤلاء الخمسـة على الأقل كانوا لا يسعون إلى تحقيق غرض خاص أو منفعة معينة ولا يريدون إلى خدمة "القضية المشتركة".

قـال سـتيفان تروفيموفتـش، فيما بعـد، وهو يـروي القصة: "لقد سـافرنا ونحن فيما يشبه الخبل... كنت لا أستطيع أن أربط بين فكرتين ولا أزيد على

أن أتمتم مردداً مع ضجة القطار ـ مازلت أذكر هذا:

ليف كامبيك وفييك وفييك[1]

ليف كامبيك وفييك وفييك

وما لا أدري أيضاً، حتى وصلنا إلى موسكو. وهناك إنما ملكت أن أثوب إلى رشدي كأن في وسع المرء أن يجد في موسكو شيئاً آخر!

وكان يقول لنا أحياناً بلهجة الملهم: آه يا أصدقائي! إنكم لا تستطيعون أن تتخيلوا مدى الألم والحنق اللذين يغزوان نفوسكم حين تعبرون عن فكرة عظيمة قدّستموها طوال حياتكم، فإذا بأفراد جهلة يجرونها على أرض الشارع وسط أناس لا يقلون عنهم غباء وحماقة، ثم إذا أنتم ترونها فجأة في السوق وقد تغيرت سحنتها حتى لا تكاد تُعرف، وتمرغت في الوحل وتشوهت وتكسرت، وتغيرت أبعادها وفقدت انسجامها، كلعبة بين أيدي أطفال.... لا! لم يكن الأمر كذلك في عهدنا، ولا إلى هذا صبونا. لقد أصبحت أنكر كل شيء ولا أعرف شيئاً. يجب أن يعود زماننا فيرد إلى الطريق القويمة كل ما يترنح اليوم ويهتز. وإلا فما عسى يحدث؟

7

ما إن عادت فرفارا بتروفنا إلى بطرسبرج حتى صرفت صاحبها إلى خارج روسيا "ليستجم"، ولشعورها كذلك بأنهما في حاجة إلى فترة من الانفصال. ولقد سافر ستيفان تروفيموفتش في حماسة، وصاح يقول: "لسوف أُبعث هنالك بعثاً جديداً، لسوف أنقطع هنالك للعلم."

لكنه استأنف شكاواه الأبدية منذ الرسائل الأولى التي أرسلها من هناك. كتب إلى فرفارا بتروفنا يقول: "قلبي محطّم. أصبحت لا أستطيع أن أنسى شيئاً. كل ما أراه هنا في برلين يذكّرني بماضيّ القديم، باندفاعاتي الأولى

---

(1) "ليف كامبيك" ناشرُ جريدة رسول بطرسبرج من 1861 إلى 1862 أمّا "فييك" (العصر) فهي جريدة يومية كانت تصدر في ذلك الأوان نفسه. وهنا يسخر دوستويفسكي سخراً قائماً على التقفية كما كان ذلك رائجاً أيامذاك.

وآلامي الأولى. أين هي؟ أين هما الآن كلتاهما؟ أين أنتما يا ملاكيّ اللتين لم أكن جديراً بكما في يوم من الأيام؟ أين هو ابني، أين هو ابني الحبيب؟ وأين أنا، أين أنا نفسي، أين نفسي القديمة، الصلبة كالفولاذ، الصلدة كالصخر، إذا كان يستطيع رجل اسمه آندرييف، إذا كان يستطيع مهرّج أرثوذكسي ذو لحية "أن يحطم وجودي نصفين"، إلخ إلخ. أما ابنه فقد رآه مرتين في حياته لا أكثر، الأولى حين ولد، والثانية في الآونة الأخيرة، ببطرسبرج، حيث كان الفتى يتهيأ لدخول الجامعة. ولقد سبق أن قلت إن الصبي قد نشأته خالات له طوال حياته، على نفقة فرفارا بتروفنا، في مقاطعة "أو..." التي تبعد حوالي سبعمائة فرسخ عن سكفورشنيكي. وأما آندرييف فهو تاجر بسيط بمدينتنا، غريب الأطوار، مولع بالآثار، علّم نفسه بنفسه، وكان يميل إلى جمع الآثار الروسية القديمة، ويحلو له أحياناً أن يناقش ستيفان تروفيموفتش، في علم الآثار وخاصة في السياسة. إن هذا التاجر المحترم، ذا اللحية البيضاء، والنظارتين الكبيرتين اللتين لهما إطار من فضة، كان لا يزال مديناً لستيفان تروفيموفتش بمبلغ أربعمائة روبل، وذلك ثمن أشجار غابة قطعها من الأرض الصغيرة التي يملكها ستيفان. ورغم أن فرفارا بتروفنا قد زوّدت صديقها بمال كثير حين أرسلته إلى برلين، فقد كان ستيفان تروفيموفتش يأمل أن يسترد هذا الدين قبل سفره، ربما لنفقاته السرية، فلما استمهله آندرييف شهراً، كاد يبكي من فرط ألمه. ثم إنه كان من حق التاجر أن يطلب هذه المهلة، فإن الدفعات الأولى من المال، التي أخذها منه ستيفان تروفيموفتش قد سبقت الشراء ستة اشهر، وذلك في الأيام الأولى التي كان ستيفان تروفيموفتش يعاني فيها عسراً. قرأت فرفارا بتروفنا هذه الرسالة الأولى باهتمام واستطلاع، ووضعت خطاً أحمر تحت قول صاحبها: "أين هما الآن كلتاهما؟" ثمّ أرّخت الرسالة وأودعتها الصندوق. لا شك أنه يشير إلى امرأتيه الراحلتين. أما الرسالة الثانية فقد كان فيها أغنية أخرى: "إنني أعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم (دمدمت فرفارا بتروفنا تقول: يكفي إحدى عشرة): أنبش المكتبات، أفتش في النصوص، أدوّن ملاحظات، أقوم

بجولات، أزور الأساتذة. جدّدت صِلاتي بأسرة دونداسوف الرائعة. ما تزال إلى الآن فاتنة تلك الناديجدا ـ نيقولايفنا! إنها تبلّغك تحياتها. زوجها الشاب وأبناء أختها الثلاثة يقيمون في برلين. في المساء أتحدث مع هؤلاء الشباب حتى الفجر. سهرات أثينية[1] لكنها ليست أثينية إلاّ من ناحية رهافة الذوق وجمال الحديث. كل شيء فيها رفيع الطراز نبيل الأسلوب: موسيقى كثيرة، ألحان إسبانية، أحلام في بعث الإنسانية كلها، فكرة الجمال الأبدي، صورة العذراء في كنيسة سكستين، الضوء المنساب من خلال الظلمات. لكن الشمس نفسها لا تخلو من بقع! أواه يا صديقتي، يا صديقتي النبيلة الوفية! إنني لك، وبقلبي معك، معك وحدك دائماً، في كل بلد من البلاد، وحتى في "بلاد ماكار وعجولها" التي طالما تحدثنا عنها في بطرسبرج ونحن نرتعش قبل رحيلنا عن تلك المدينة ـ تذكرين ذلك ـ إن ذكرى هذا لتطوف الآن في خيالي فترتسم على شفتي ابتسامة. إنني ما كدت أجتاز الحدود حتى شعرت أنني بعدت عن الخطر... إحساس غريب جديد، شعرت به لأول مرة منذ سنين"، إلخ إلخ..

قالت فرفارا بتروفنا وهي تطوي الرسالة وتضعها في الصندوق مع الرسائل الأخرى:

ـ كلام فارغ... إذا كانت السهرات الأثينية تستمر حتى الفجر فإنه غير منقطع إلى كتبه اثنتي عشرة ساعة في اليوم. هل كان ثملاً حين كتب هذا الكلام؟ وهذه المرأة دونداسوف، كيف تجرؤ أن تبعث إليّ بتحياتها؟ على كل حال، فليسرِّ عن نفسه!...

أما قوله "في بلاد ماكار وعجولها" فقد حرص ستيفان تروفيموفتش على أن يترجم به إلى الفرنسية الأمثال والأقوال المأثورة الروسية مشوهة رغم أنه كان قادراً على أن يؤولها على نحو أحسن، لكنه يفعل ذلك تظرّفاً، وكان يجد فيه فكاهة جميلة.

---

(1) "سهرات أثينية" إشارة إلى المناقشات الفلسفية في حدائق أثينا عند هبوط المساء، وهي السهرات التي تكلم عنها أفلاطون.

على أن سلوى ستيفان تروفيموفتش لم تدم طويلاً. فما هي إلّا أربعة أشهر، حتى فقد صبره وعاد مسرعاً إلى سكفورشنيكي. إن رسائله الأخيرة التي لم تكن إلّا ذوباناً عاطفياً تجاه صديقته الغائبة كانت مبللة بدموع حقة يذرفها حزناً على فراقها. إن هناك بشراً لا يقلون عن الكلاب الصغيرة تمسّكاً بمساكنهم وحنيناً إليها. لقد التقى الصديقان في حماسة وحرارة. غير أن كل شيء عاد إلى مجراه الطبيعي بعد يومين، بل أصبح أشدّ إملالاً. قال لي ستيفان تروفيموفتش بعد خمسة عشر يوماً: "يا صديقي، لقد اكتشفت شيئاً.. شيئاً رهيباً بالنسبة إلي... ما أنا إلّا طفيلي... طفيلي.. لا.. أكثر.. من.. ذلك.."

8

بعد هذا دخلنا في مرحلة من الركود دامت تسع سنوات، ولم يحدث خلالها أي تبدّل تقريباً. كانت الانفجارات العصبية والدموع السخية تُستأنف على كتفي من حين إلى حين، لكنها لا تُفْسِد سعادتنا البتة.

إنه ليدهشني أن ستيفان تروفيموفتش لم يسمن في أثناء هذه الفترة. كل ما هنالك أن أنفه احمرّ، وأن حركاته اكتسبت مزيداً من اللطف والتحضر. وقد تكونت من حوله، شيئاً بعد شيء، حلقة من الأصدقاء، حلقة صغيرة والحق يقال. وكنا نعد فرفارا بتروفنا راعيتنا الجليلة، رغم أنها كانت لا تتصل بهذه الحلقة إلّا قليلاً. إنها بعد الدرس الذي تلقنته في بطرسبرج، قد استقرت في مدينتنا نهائياً، ففي الشتاء تسكن قصرها، وفي الصيف تمضي إلى منزلها الريفي. ولم تحظ طوال حياتها في مجتمعنا الريفي بما حظيت به من احترام ونفوذ في السنين السبع الأخيرة، إلى أن عُيّن الحاكم الحالي. إن حاكمنا القديم، اللطيف، الوديع، إيفان أوسيبوفتش الذي لا يُنسى، كان يمت بقرابة قريبة إلى فرفارا بتروفنا التي أحاطته في الماضي بكثير من الرعاية وأغدقت عليه كثيراً من النعم. لقد كانت امرأة الحاكم ترتعد فرقاً متى تصورت أنها توشك أن تفقد رضا فرفارا بتروفنا عنها، وكان الاحترام الذي يشعر به الناس

في مجتمعنا الريفـي نحو فرفارا بتروفنا يكاد يكون نوعاً من العبادة. وواضح أن ستيفان تروفيموفتش كان من ذلك في خير. لقد كان عضواً في النادي وكان يخسر في لعب الورق بوقار وجلال، واستطاع أن يحظى باعتبار الناس جميعاً، رغم أن كثيراً من الأفراد كانوا لا يعدّونه أكثر من "عالم" في أحسن تقدير. وحين سمحت له فرفارا بتروفنا فيما بعد، أن يقيم في منزل مستقل، تمتعنا بمزيد من الحرية، فكنا نجتمع عنده مرتين في الأسبوع، ونتسلى خاصة حين يغدق علينا الشمبانيا في غير قصد ولا اعتدال. وكان الخمر يأتي من دكان ذلك التاجر نفسه، آندرييف، وكان فرفارا بتروفنا هي التي تدفع فاتورة الحساب كل ستة أشهر، وكان يوم الدفع هو يوم المرض، دائماً على وجه التقريب.

إن أقدم أفراد حلقتنا الصغيرة رجل يقال له ليبوتين[1]، وهو موظف ريفي متقدم في السن قليلاً، يعتنق مبادئ الحرية، ويعدّه الناس في المدينة ملحداً. وكان قد تزوج للمرة الثانية من فتاة جميلة ذات بائنة كبيرة. وكان، إلى ذلك، أباً لثلاثة بنات بلغن سن الرشد، وكانت أسرته كلها تعيش سجينة البيت حياة منعزلة، وتخشاه خشية كبيرة. وكان بخيلاً إلى أبعد حدود البخل، فاستطاع بالتوفير من رواتبه، أن يملك بيتاً صغيراً وأن يجمع قدراً من المال. ولأنه كان قليل الانصياع والطاعة، فقد ظل في الدرجات الدنيا من سلّم الوظائف. وكان الناس في المدينة لا يحترمونه كثيراً وكانت أسر الطبقة الراقية لا تستقبله في بيوتها زد على ذلك أن ليبوتين كان شديد الغيبة والنميمة، وقد عوقب على ذلك عقاباً قاسياً غير مرة، عاقبه أولاً ضابط من الضباط، وعاقبه بعد ذلك رجل من أصحاب الأملاك ورب أسرة شريف. لكننا كنا نحب فكاهته اللاذعة وشغفه بالمعرفة وتندّره المر. أما فرفارا بتروفنا فكانت لا

(1) ليبوتين: تدل مسودات رواية الشياطين على أن دوستويفسكي قد استخدم في تصوير هذه الشخصية شخصية صديقه ألكسندر ميليوكوف (1817 ـ 1897) وهو مؤرخ أدب وعالم تربية عرفه في حلقة بتراشفسكي. لقد كان ميليوكوف من المعجبين باشتراكية فورييه وكان في الوقت نفسه طاغية في منزله.

تحبه قط، ومع ذلك كان يستطيع دائماً أن يحصل منها على حسن المعاملة وكرم الوفادة.

وكانت زوجة الجنرال لا تحب كذلك شاتوف[1] الذي لم يصبح عضواً من أعضاء الحلقة إلّا في السنة الأخيرة. إن شاتوف هذا طالب قديم طُرد من الجامعة على إثر إساءة مدرسية ارتكبها، وكان في طفولته تلميذ ستيفان تروفيموفتش. لقد ولد شاتوف قِنّا من أقنان فرفارا بتروفنا، لأب كان خادماً من خدمها هو المرحوم بافل فيدوروفتش، وهو مدين لها بنعم كثيرة، لكنها كانت لا تحبه لصلفه وكبريائه وإنكاره المعروف، ولا تستطيع أن تفغر له بحال من الأحوال أنه لم يأت إليها فور طرده من الجامعة، وأنه لم يجب عن الرسالة التي بعثت بها إليه عندئذ من أجل أن يأتي إليها، وآثر على ذلك أن يرزح تحت عبء العمل في تعليم الأطفال عند أسرة نكرة من أسر التجار "المثقفين"، وسافر مع هذه الأسرة إلى الخارج أقرب إلى الخادم منه إلى المعلّم. لقد كان شاتوف يحترق في ذلك الوقت شوقاً إلى زيارة البلاد الأجنبية. وقد صحبت الأطفال أيضاً مربية من المربيات هي آنسة روسية ذات طبع حاد، دخلت في خدمة تلك الأسرة قبل السفر بيوم واحد، ومما أغرى الأسرة في تشغيلها أن مطامعها متواضعة. وبعد شهرين طردها التاجر بسبب "أفكارها التحرّرية"، فتبعها شاتوف وتزوّجها بعد قليل بجنيف. وعاش الزواجان معاً ثلاثة أسابيع ثم افترقا افتراق شخصين حرين لا يربطهما شيء، ولكن أغلب الظن أن الفقر كان أحد أسباب هذا الانفصال أيضاً. وبعد ذلك ظل شاتوف يطوّف وحيداً خلال مدة طويلة في أوروبا، فلا يعلم إلّا الله كيف كان يدبّر رزقه. قيل إنه كان ينظف الأحذية في أركان الشوارع وقيل إنه عمل شيّالاً في أحد المرافئ. وأخيراً، منذ سنة، عاد إلى المدينة التي ولد فيها معنا، وأقام عند عمته العجوز التي دفنها بعد ذلك بشهر واحد. وكانت أخته داشا، التي نشّأتها فرفارا بتروفنا أيضاً تعيش بالقرب منها، وتحظى بحبها، وتتمتع في بيتها باعتبار

---

(1) شاتوف: اسم لعل المؤلف اشتقه من كلمة شاتات بمعنى اهتزاز أو تأرجح. فربما كان في هذا إشارة إلى ما تتصف به آراء هذه الشخصية من عدم الاستقرار.

واحترام. ولم يكن لشاتوف بأخته إلّا علاقات ضعيفة جداً. وكان شاتوف يبدو في حلقتنا متجهم الوجه صموتاً. غير أنه، حين يمس أحد معتقداته، من حين إلى حين، يندفع في غضب جارف مرضي، فيفقد سيطرته على لسانه. كان ستيفان تروفيموفتش يقول في بعض الأحيان مازحاً: "من أراد أن يناقش شاتوف، فعليه أن يوثقه أولاً". وكان ستيفان تروفيموفتش يحبه مع ذلك. كان شاتوف قد غير بعض معتقداته الاشتراكية القديمة أثناء إقامته في الخارج تغييراً جذرياً، حتى انزلق إلى نقيضها في تطرف شديد. إن شاتوف واحد من أولئك الروس المثاليين الذين متى أشرقت في نفوسهم فكرة قوية كبيرة، بُهِروا بها، وتسلطت عليهم تسلطاً تاماً قد يدوم في بعض الأحيان إلى الأبد، فلا يصلون يوماً إلى السيطرة على هذه الفكرة التي أصبحوا يعتنقونها اعتناقاً عنيفاً. فحياتهم كلها تنقضي بعد ذلك في ما يشبه التشنجات الكبرى تحت وطأة تلك الصخرة التي سقطت عليهم ذات يوم فحطمتهم نصف تحطيم.

وكان مظهر شاتوف يناسب معتقداته تماماً: فهو أخرق الحركات، صغير القد، كثّ الشعر، قصير القامة، عريض الكتفين، أشقر اللون، ذو حاجبين أبيضين ثخينين، وجبين مغضّن، وعينين مطرقتين في عناد، يبدو أن نظرتهما القلقة تخفي وراءها خجلاً مستتراً. وكان يبقى على رأسه دائماً خصلةً عصية من شعر تنتصب قائمة. أما عمره فقد يكون سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين عاماً. وقد قالت فرفارا بتروفنا ذات يوم، بعد أن تفرّست فيه: "أصبحت لا أستغرب أن امرأته هجرته". وكان شاتوف رغم فقره المدقع، يحاول أن يكون حسن الهندام. وفي هذه المرة أيضاً لم يشأ أن يستعين بفرفارا بتروفنا، بل عاش مما كان يرزقه به الله.

لقد اتفق له أن عمل عند بعض التجار. وعُيّن بعض الوقت موظفاً في محل تجاري، وأوشك أن يسافر على إحدى البواخر التجارية مساعد ممثل لهذا المحل التجاري، لولا أنه مرض قبل السفر بيوم واحد. إنه ليصعب على المرء أن يتصور مقدار البؤس الذي يستطيع شاتوف أن يتحمّله حتى دون أن يفكّر فيه. وحين أبلَّ من مرضه أرسلت إليه فرفارا بتروفنا مائة

روبل دون ذكر اسم المرسل، لكنه عرف الحقيقة مع ذلك، حتى إذا فكر في الأمر قرر الاحتفاظ بالمال ومضى إلى فرفارا بتروفنا يشكر لها صنيعها. وقد استقبلته استقبالاً حاراً، لكنه خيّب ظنها مرة أخرى. فإنه لم يمكث في بيتها إلّا خمس دقائق ظل خلالها صامتاً مطرقاً إلى الأرض وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة بلهاء، وفجأة نهض عن مقعده قبل أن تتم حديثها، بل في أهم لحظة من لحظات هذا الحديث، فحيّاها بخراقة شديدة، حتى لقد صدم من فرط خراقته منضدة صغيرة ثمينة مرصعة فانقلبت المنضدة على الأرض وتهشمت محدثةً ضجة قوية. وخرج من عندها وهو يوشك أن يكون ميتاً من شدّة الخجل. وقد أخذ عليه ليبوتين فيما بعد أنه لم يرفض المائة روبل في احتقار، وأنه رضي أن يأخذ هذا المبلغ من هذه الطاغية، سيدته القديمة. وأفدح من ذلك أنه ذهب إليها يشكرها.

كان شاتوف يقيم في ظاهر المدينة منعزلاً منزوياً، ويكره أن يزوره زائر ولو كان الزائر واحداً منا. وكان يحضر سهرات ستيفان تروفيموفتش باضطراد، ويستعير منه جرائد وكتباً.

وكان يشترك في هذه السهرات أيضاً شابٌّ من مدينتنا اسمه فرجنسكي[1] هو موظف في مؤسسة تجارية، يشبه شاتوف بعض الشبه وإن بدا نقيضه من جميع النواحي. ولكنه كان" رب أسرة". إنه شاب في الثلاثين من العمر، له وجه يثير في نفسك الشعور بالشفقة، وله طبع دمث إلى أبعد حدود الدماثة وهو على جانب كبير من الثقافة، لكنّها ثقافة من يعلّمون أنفسهم بأنفسهم. وكان فقيراً متزوجاً، وهو يزاول مهنته عائلاً خالته وأخت زوجته. كانت زوجته مأخوذة بالأفكار الحديثة كسائر هاته السيدات، لكن هذه الأفكار كانت تكتسي عندها طابعاً عامياً حتى ليصدق عليها ما قاله ستيفان تروفيموفتش ذات يوم: "فكرة أُلقيت في الشارع". إن الذخيرة الفكرية لدى هاته النساء مستعارة، فيكفي أن تروج في الأوساط التقدمية بالعاصمة

(1) فرجنسكي: اسم مشتق من الكلمة اللاتينية فيرجو/ فيرجينيس (العذراء)، ولا بد أن يدل على أن صاحب هذا الاسم ينتمي إلى فئة أبناء رجال الدين.

شـائعة من الشـائعات حتى تراهنّ مستعدات لطرح كل شـيء من النافذة عند أول إيحـاء. وكانت السـيدة فرجنسـكي تزاول فـي مدينتنا مهنـة القابلة. وقد أقامـت قبل زواجها زمناً طويلاً ببطرسـبرج. أما فرجنسـكي نفسـه فهو رجل يمتاز ببراءة نادرة ونقاء غير شـائع، وقلما أُتيح لي أن لقيت نفسـاً تفوق نفسـه فـي الاندفاع النبيل. كان يقول لي وقد أشـرقت نظراتـه: "لن أتخلى يوماً، لن أتخلـى يومـاً عن هذه الآمـال المضيئـة". وكان يتكلم بصوت خافـت وبرقّة وعذوبة، حتى ليكاد يتمتم تمتمة، كأنه يفضي إليك بسـرّ. وكان طويل القامة بعض الشـيء، لكنه شـديد النحـول، ضيـق المنكبين، قليل الشـعر، يضرب لـون شـعره إلى حمـرة. وكان يقبل في مذلـة جميع السـخريات التي يتفضل سـتيفان تروفيموفتش فيوجههـا إلى بعض آرائه. لكنـه كان مع ذلك يعترض على ستيفان تروفيموفتش اعتراضات قوية جداً تفحمه وتسقط في يده. ومن الواجب أن نذكر مع ذلك أن ستيفان تروفيموفتش الذي يتصرف معنا جميعاً تصرف الأب مع أبنائه كان يعامله في مودّة ولطف. كان يخاطب فرجنسـكي بقوله:

ـ أنـت وأمثالـك "فقس سـابق لأوانه"، رغم أنك شـخصياً مبـرَّأ من ذلك الضيق العقلي الذي رأيته ببطرسـبرج لدى أولئك التلاميذ. لكن هذا لا ينفي أنك من ذلك "الفقس السـابق لأوانه". إن شاتوف يتمنى لو يكون من الفقس الذي يتم في حينه، لكنه فقس سابقاً لأوانه هو أيضاً.

فيقول له ليبوتين:

ـ وأنا؟

ـ أنـت الوسـط تماماً، الوسـط الـذي يعرف كيـف يدبر أمـوره في جميع الظروف... بطريقته الخاصة.

فيغضب ليبوتين.

وقد شاع في المدينة ـ ويظهر أن الشائعة قائمة على أساس صحيح للأسف ـ أن زوجـة فرجنسـكي قد أعلنت له "اسـتقالتها" ولمّا يمـضِ على زواجهما حـول كامـل، قائلـة إنها تؤثـر عليه عليـه لبيادكيـن. ولبيادكين هـذا ليس من

مدينتنا. وقد اتضح بعد ذلك أنه من الأشخاص المشبوهين جداً، حتى إنه لم يكن ضابطاً متقاعداً كما كان يلقب نفسه بهذا اللقب كاذباً. كل ما كان يجيده هو أن يعقف شاربيه ويشرب الخمرة ويروي أسخف المغامرات التي يمكن أن يتصورها الخيال. وكان يرضيه أن يعيش عالة على الآخرين، فلم يتحرّج من أن يقيم فور وصوله عند أسرة فرجنسكي، آكلاً شارباً نائماً، ناظراً إلى رب الدار آخر الأمر نظرة احتقار. وقد ادّعى بعضهم أن فرجنسكي قال لامرأته حين أعلنت له "استقالتها": "يا عزيزتي، كنت لا أشعر نحوك إلّا بالحب، أما الآن فأنا أحترمك"[1] ولكن من المشكوك فيه أن يكون فرجنسكي قد نطق حقاً بهذه العبارة الرائعة التي تليق بأن تصدر عن روماني من الرومان القدماء. وقال آخرون: بل إنه حين "استقالت" امرأته أجهش باكياً منتحباً. وفي ذات مرة ـ حدث ذلك بعد "الاستقالة" بخمسة عشر يوماً ـ مضى الجميع في زيارة "عائلية" إلى منزل بعض الأصحاب في ضاحية من ضواحي المدينة لاحتساء الشاي، فكان فرجنسكي يُظهِرُ نوعاً من المرح العنيف، ويشارك في الرقص، ثم إذا هو ينقض على العملاق لبيادكين فجأة، وبدون أي تشاجر سابق، بينما كان هذا يرقص رقصة الكانكان منفرداً، فيمسك شعره بكلتا يديه، ويثنيه نصفين، ويأخذ يهزه هزاً قوياً، وهو يبكي ويصرخ صرخات حادة، فبلغ العملاق من شدة الخوف أنه لم يدافع عن نفسه. لا، ولا نطق بكلمة واحدة طوال هذا الاشتباك. لكن لبيادكين أظهر عند انتهائه كل ما يمكن أن يظهره سيد مهذب من غضب واستياء.

وقضى فرجنسكي الليل كله راكعاً عند قَدَمَيْ امرأته يضرع إليها أن تصفح عنه، لكنها لم تصفح، لأنه لم يقبل، رغم كل شيء، أن يعتذر إلى لبيادكين. وقد أخذوا عليه فيما بعد أن عقيدته فاترة وأن ذكاءه ضعيف، لأنه حين أراد أن يعتذر لامرأة ركع على ركبتيه. وقد اختفى ذلك "الضابط المتقاعد" بعد قليل، ولم يعد إلى مدينتنا إلّا في المدة الأخيرة تصحبه أخته، ومضى يلاحق

(1) محاكاة لرأي من آراء تشيرنشفسكي عن الحب الحر، وهي الآراء التي عرضها في كتابه "ما العمل؟".

عندئذ أهدافاً أخرى. وسـأعود إلى الحديث عنه في فرصة ثانية. لا غرابة إذن في أن "رب الأسـرة" المسـكين قد احتاج إلى صحبتنا ينشد لقلبه عزاء. على أنه لم يحدّثنا في يوم من الأيام عن شؤونه الخاصة. وفي مرة واحدة، بينما كنا عائديـن معاً من بيت سـتيفان تروفيموفتش، بدأ يتكلم عن حاله في غموض، لكنه لم يلبث أن صاح يقول في توهج وقد أمسك بيدي:

ـ ليـس لهـذا قيمة... هي حالة فردية لا أكثر... لن يضع هذا أي عقبة أمام "القضية المشتركة" لن يكون له أي قيمة؟

وكان نادينا الصغير يسـتقبل كذلك ضيوفاً طارئين، مثل اليهودي ليامشين والكابتـن كارتـوزوف. وفي وقت من الأوقـات أخذ يجيء إلـى نادينا رجل طيب عجوز يرغب في التثقف. وفي ذات يوم قاد إلينا ليبوتين كاهناً محكوماً عليـه بالترحيل، اسـمه سلوفزفسـكي، وقد اسـتقبلناه بعض الوقـت من قبيل التمسك بالمبدأ، ولهذا السبب نفسه كففنا عن استقباله فيما بعد...

9

سَرَت في المدينة، في وقت من الأوقات، شائعة تقول إن حلقتنا بؤرة فساد أخلاقـي وزندقة وإلحـاد. ثم إن هذه الشـائعة قد وجدت لدى سـكان المدينة شيئاً من التصديق دائماً. والحق أن الأمر كله كان لا يتعدى حدود ثرثرة ليبرالية ظريفة، ولا يحمل في طياته أي أذى أو خطر، على الطريقة الروسـية تماماً. إن "الليبرالية النبيلة الرفيعة"، أي الليبرالية التي لا ترمي إلى تحقيق أي هدف محدد أو غاية معينة شيء ليس ممكناً إلّا في روسيا. كان ستيفان تروفيموفتش، ككل رجل من رجال الفكر، يحتاج إلى سـامعين، وكان يشـعر عـدا ذلك بأنه يحقق بنشـر أفكاره واجباً أسـمى، كما أن الشـمبانيا أخيراً يطيب للمرء أن يشربها مع صحبة طيبة وأن يبادل أفراد هذه الصحبة أثناء ذلك بعض الملاحظات اللاذعة المعروفة، عن روسـيا وعن "الفكر الروسـي" وعن "الإله" عامـةً، وعن "الإله

الروسي" خاصةً[1]، وأن يكرر للمرة المائة بعض الحكايات الفاضحة التي ذاع نبؤها وانتشر خبرها في كل مكان. وكنا كذلك لا نهمل الحكايات والأقاويل التي تجري في المدينة، وكنا في بعض الأحيان نصدر في حقها أحكاماً تتصف بأرفع الأخلاقية. وكان لكبريات المشكلات الإنسانية نصيب من اهتمامنا أيضاً: فكنا نتناقش عن مستقبل أوربا والإنسانية، ونتنبأ بأن فرنسا ما إن يزول عهدها القيصري حتى تسقط إلى مستوى أمة من الدرجة الثانية. وكنا مقتنعين بأن ذلك سوف يحدث ببساطة، وفي أقصر مدة. أما البابا[2] فكنا قد حددنا له منذ زمن طويل دور أسقف بسيط في إيطاليا الموحدة، مقتنعين بأن هذه المسألة التي عمرها أكثر من ألف عام لم يبق لها من قيمة في عصرنا هذا الذي نعيش فيه، عصر الصناعة والسكك الحديدية. ولكن ألم يكن هذا هو موقف "اللبرالية النبيلة الرفيعة" الروسية دائماً وكان ستيفان تروفيموفتش يتكلم أحياناً عن الفن، فيفيض في الكلام ويجيد الحديث، ولكن كلامه كان يتصف أحياناً بأنه مجرد بعض التجريد. وكان يستحضر في بعض الأحيان أيضاً، بحنان واحترام، ولكن مع شيء من الحسد، ذكرى أصدقاء شبابه الذين كان لهم جميعاً شأن في إنماء ثقافتنا. حتى إذا مللنا مللاً شديداً وسئمنا سأماً مفرطاً قام ليامشين (وهو موظف بمصلحة البريد) الذي يجيد العزف على البيانو إجادة ممتازة، فأخذ يعزف مقلداً أصوات الخنزير، وهمهمات العاصفة، وأنّات المرأة أثناء المخاض، وصرخات الطفل الوليد، إلخ. ومن أجل هذا الغرض وحده إنما كان يدعى إلى حلقتنا على كل حال. فإذا أسرفنا في الشراب ـ وكان ذلك يحدث أحياناً، ولكن نادراً ـ استسلمنا للفرح والعربدة، حتى لقد اتفق لنا في ذات مساء أن أنشدنا نشيد المارسييز معاً، بمصاحبة عزف ليامشين. ولست أدري على كل حال هل وُفّقنا في الإنشاد كثيراً.

---

(1) "عن الإله الروسي خاصة": إشارة إلى قصيدة نقدية هجائية نظمها الأمير بطرس فيازمسكي (1792ـ 1878) وظهرت سنة 1828 بعنوان "الإله الروسي".

(2) بعد الحملة المهزومة التي قام بها غاريبالدي سنة 1862 كثُر الكلام على تجريد البابا من سلطته الزمنية.

أمـا اليوم العظيم[1]، يوم التاسـع عشـر من شـباط (فبراير) فقـد احتفلنا به في حماسـة. ويا طالما سـبق أن أفرغنا الكؤوس تكريماً لذلك اليوم على كل حال. ولكن هذا أمر قديم: ففي ذلك العهد لم يكن شاتوف ولا فرجنسكي قد أصبحا من حلقتنا، وكان سـتيفان تروفيموفتش ما يزال يقيم في نفس المنزل الـذي تقيم فيه فرفـارا بتروفنا. وقبيل حلـول ذلك اليوم العظيم كان سـتيفان تروفيموفتـش قد أخذ يدندن مغنيـاً، بصوت خافت، أبيات الشـعر المعروفة جداً، ولكن على نحو غير صحيح، وهي أبيات لعل ناظمها سيد قديم لبرالي من مالكي الأطيان:

الفلاحون يتقدمون

حاملين فؤوسهم بأيديهم

إن أموراً هائلة تتهيأ

أو شـيء من هذا القبيل. فإنني لا أتذكر النص تذكراً دقيقاً. وحين سمعت فرفارا بتروفنا صديقها يدندن مغنياً هذا الغناء صاحت تقول: "سخافات، كل هذا سـخافات!"، وانصرفت غاضبة. لكن ليبوتين الذي حضر المشـهد، قال لستيفان تروفيموفتش بلهجة ساخرة:

ـ لسوف تكون خسارة حقاً أن يسبب الأقنان القدامى، أثناء فرحتهم بعض الإزعاج للسادة المالكين.

قال ليبوتين ذلك وهو يرسم بإبهامه خطاً حول عنقه.

فأجابه ستيفان تروفيموفتش يقول ببساطة وطيبة:

ـ يا صديقي، صدقني إذا قلت لك إن هذا (وكرر حركة ليبوتين) لن يكون له أي نفع لا للمالكين، ولا لنا جميعاً بشكل عام. فرغم أن رؤوسنا هي نفسها التي تمنعنا من فهم ما يجري، فإننا إذا قطعت رؤوسنا لن نزداد فهماً.

أحب أن ألفت النظر في هذه المناسبة إلى أن عدداً منا كانوا يتصورون أن أموراً ستحدث يوم نشر البيان، ولا سيما أموراً من نوع الأمور التي أشار إليها

---

(1) هو يوم إلغاء الرق أو القنانة (19 شباط فبراير 1861).

ليبوتين في كلامه. فما أغرب أن يتصور هؤلاء الناس أنفسهم رجال سياسة، وأن يدّعوا أنهم يفهمون الشعب! وكان ستيفان تروفيموفتش يشارك في هذه المخاوف فيما يبدو. حتى إنه في عشية ذلك اليوم العظيم تقريباً طلب من فرفارا بتروفنا فجأة أن ترحّله إلى الخارج، وكان يشعر بقلق. ولكن اليوم العظيم حلَّ ومضى، واسترد ستيفان تروفيموفتش ابتسامته المتعالية بعد فترة قصيرة من الوقت. وألقى علينا في ذات مرة بضع ملاحظات وتأملات عن طبع الروس عامةً، وطبع الفلاحين خاصة. وختم كلامه بقوله:

ـ نحن أناس متعجّلون، تسرَّعنا كثيراً مع فلاحينا الطيبين، جعلناهم "موضة"، وانصبّ جزء كبير من أدبنا عليهم كانصبابه على كنز تم اكتشافه حديثاً، وظل متوفراً عليه خلال سنين. كنا نتوَّج بأكاليل الغار رؤوساً مقمّلة. وماذا أعطانا الفلاح الروسي منذ وُجد منذ قرابة ألف سنة؟ لقد أعطانا "الكامارنسكايا"[1] إن شاعراً روسياً مرموقاً لا يخلو من ذكاء وفكر قد هتف يقول متحمساً حين رأى راشيل[2] العظيمة أول مرة: "إنني لا أشتري راشيل بفلاح". ولكنني أنا أذهب أبعد من ذلك فأقول: "إنني لا أبيع راشيل بجميع الفلاحين الروس!". لقد آن لنا أن نرى الأشياء كما هي، وأن لا نمزج قطراننا بعطر "أزهار الإمبراطورة"[3].

فسرعان ما وافقه ليبوتين على رأيه، ولكنه لاحظ أنه في ذلك الزمان، كان لا بد، باسم الفكرة، من التمثيل والتظاهر وتمجيد الموجيك. وأضاف أن سيدات من المجتمع الراقي قد سكبن دموعاً غزاراً لدى قراءة "أنطون جوريميكا"[4] حتى أن بعضهن قد كتبن من باريس رسائل إلى وكلاء أملاكهن

---

(1) "الكارامنسكايا": رقصة روسية شعبية يصاحبها غناء فخر.

(2) راشيل العظيمة: إيليزا راشيل (1858ـ 1821) الممثلة الدرامية الشهيرة المولودة بروسيا. ولقد قامت بجولة في روسيا 1853ـ 1854 ولقيت نجاحاً كبيراً.

(3) "أزهار الامبراطورة": عطر كان على الموضة، وقد سمي كذلك تكريماً للامبراطورة أوجينيا.

(4) "أنطون جوريميكا": قصة كتبها ديمتري جريجوروفتش (1899ـ 1822)، صديق شباب دوستويفسكي كما نعلم. وقد نشرت القصة سنة 1847، وفيها يصف المؤلف بطريقة واقعية عاطفية في آن واحد آلام فقير.

طالبـات منهـن أن يُعامَـل الأقنان في المسـتقبل معاملة إنسـانية إلى أبعد حد ممكن.

ومع ذلك حدث بمصادفة تشبه أن تكون عمداً أن أحداثاً مؤسفة لم تلبث أن وقعت في مقاطعتنا، على مسـافة خمسة عشر فرسخاً من سكفورشنيكي، بعد الشائعات التي سرت عن أنطون بتروف[1] فأرسلت الحكومة إلى المكان فـي لحظـة الانفعـال الأول فصيلة مسـلحة. وسـرعان ما اسـتبد الاضطراب بسـتيفان تروفيموفتش، وبلغ هذا الاضطراب من القـوة أننا خفنا نحن أيضاً. فكان سـتيفان تروفيموفتش يصرخ قائلاً في نادينا أنه كان من الواجب إرسال فصيلة أكبر وأضخم، واستقدام تعزيزات من المقاطعة المجاورة برقياً. وهرع إلى الحاكم يؤكد له أنه لا شأن له في الأمر، وأنه غير ضالع فيه، ويتوسل إليه ألا يقحمـه فـي هذه القصـة، كما قد يغريه أن يفعل ذلك بسـبب ماضيه. حتى لقد اقترح على الحاكم أن ينقل تصريحه هذا إلى من يعنيهم الأمر ببطرسبرج. ومـن حسـن الحظ أن الأحداث انتهت بسـرعة ولم يكن لهـا عواقب. ولكن ستيفان تروفيموفتش قد أدهشني في تلك المناسبة أشد الدهشة.

بعـد ذلـك بنحو ثلاث سـنين أخذ النـاس يتحدثون في "الوعـي القومي" وفي "الرأي العام"، فكان سـتيفان تروفيموفيتـش يضحك كثيراً من هذا كله، ويقول لنا:

ـ يـا أصدقائي لوأن وعينا القومي قد "نشـأ" فعلاً، كما تؤكد الصحف في هذه الأيام، فإنه ما يزال على مقاعد المدرسـة، على مقاعد مدرسـة ألمانية[2]، يقـرأ كتابـاً ألمانياً ويلثـغ في تعلّم درسـه الأبدي باللغـة الألمانية أمـام معلّم ألماني يجعله يركع على ركبتيه عند الحاجة. وأنا من جهتي أؤيد هذا المعلّم

(1) "أنطون بتروف": فلاح من قرية بزدنا في إقليم قازان. زعيم عصيان قام به الفلاحون في تلك القرية. لقد كان الفلاحون مستائين من أن إصلاح 1861 لم يعطهم كل أراضي المالك. وقد أعدم بتروف رمياً بالرصاص سنة 1861.

(2) هي المدرسة الألمانية التي تأسست ببطرسبرج في القرن الثامن عشر، وكانت ما تزال تقدَّر تقديراً عظيماً حتى سنة 1918، وهو العام الذي ألغيت فيه.

الألماني، ولكن الأرجح هو أن لا شيء قد حدث، وأن لا جديد، وأن كل شيء يسير كما كان يسير من قبل، أي بتيسير الله. وفي رأيي أن هذا يكفي كل الكفاية روسيا "بلادنا المقدسة روسيا"[1]. ثم إن هذه الأقوال كلها عن الوحدة السلافية والوعي القومي[2] أقدم من أن تُعدَّ جديدة. ونستطيع أن نقول على وجه الإجمال إن فكرة "القومية" لم توجد يوماً في بلادنا إلّا اختراعاً من تلفيق سادة عاطلين عن العمل، من سادة موسكو خاصة. ولست أتكلم طبعاً عن عهد الأمير إيجور[3] الخلاصة أن مصدر هذا كله إنما هو فراغنا. وكذلك فإن كل ما هو لطيف ومحبّب عندنا إنما مرجعه إلى الفراغ، إلى ذلك الفراغ اللذيذ الذي نَعِمَ به المثقفون سادتنا أصحاب النزوات والبدوات! إنني ما برحت أكرر هذا منذ سنين. إننا لا نعرف أن نعيش من عملنا. ما بالهم يحدثون جميعاً كل هذه الجلبة الآن حول ما يسمونه "الرأي العام"، ومايزعمون أنه نشأ الآن وكأنه هبط علينا فجأة من السماء، هكذا، دفعة واحدة!... ألا تفهمون أن على المرء من أجل الحصول على رأي أن يعمل قبل كل شيء، أن يعمل هو نفسه، وأنه في حاجة إلى ممارسة، إلى تجربة؟ لا يستطيع أحد في يوم من الأيام أن يمتلك شيئاً دون أن يدفع شيئاً. ألا فلنشرع في العمل فيمكن أن يكون لنا رأي خاص بنا. ولكننا أناس لن نعمل أبداً، لذلك فإن الآخرين هم الذين سيكوّنون لنا رأياً، وهؤلاء الآخرون هم أوربا أيضاً ودائماً، هم الألمان أيضاً ودائماً، الألمان الذين يعلموننا منذ قرنين. يُضاف إلى ذلك أن روسيا لغز يبلغ من الضخامة أننا لن نتوصل يوماً إلى أن نحله وحدنا، بدون مساعدة الألمان، وبدون عملهم الدائب. إنني ما برحت، منذ عشرين عاماً، أقرع الجرس لأوقظ الناس وأهيب بهم إلى

---

(1) "بلادنا المقدسة روسيا" إن هذا القول: "بلادنا المقدسة روسيا" نجده في الأغاني الملحمية الروسية منذ عام 1861. وكان رائجاً في الأوساط المنادية بالسلافية في ذلك الأوان.

(2) كان دعاة الوحدة السلافية والوعي القومي يتكلمون حينها كثيراً عن يقظة القوميات السلافية في امبراطورية النمسا_ المجر وفي تركيا يحلمون بوحدة سلافية بقيادة روسيا المقدسة.

(3) "عهد الأمير إيجور: إيجور، ابن روريك، الأمير الأكبر لروسيا من سنة 1912 إلى سنة 1945

العمل. لقد ضحّيت بحياتي كلها في سبيل هذا النداء، وكنت ـ لجنوني!... ـ أظن أنني سأفلح. أما الآن فقد فقدت الإيمان والثقة، ولكنني ما زلت أقرع الجرس، وسأظل أفعل حتى النهاية إلى أن أوارى في التراب. سأظل أشد الحبل إلى أن يدق ناقوس موتي أنا!

وا أسفاه! كنا لا نزيد على أن نرد على هذه الكلمات بغير الموافقة والتأييد. كنا نصفّق لمعلّمنا، وكنا نصفّق له بحرارة شديدة! ومع ذلك، أيها السادة، ألا ترون أن هذه الثرثرة الروسية القديمة، الذكية هذا الذكاء، الفتانة هذه الفتنة، اللبرالية إلى هذه الدرجة ما تزال تترجّع في آذاننا إلى اليوم، وفي كثير من الأحيان؟

وكان معلّمنا يؤمن بالله.

فكان يقول في بعض الأحيان:

ـ لست أدري حقاً لماذا اشتهرت هنا بأنني ملحد. إنني أؤمن بالله. ولكن "يجب أن نفرّق": إنني أؤمن بالله إيماني بموجود لا يعي ذاته إلّا فيّ أنا. ليس في وسعي طبعاً أن يكون إيماني كإيمان خادمتي ناستاسيا، أو كإيمان سيد من السادة يؤمن كيفما اتفق له أن يؤمن، أو كإيمان صاحبنا اللطيف شاتوف. على أن شاتوف يجب ألا يُحسب، لأن شاتوف يجبر نفسه على الإيمان إجباراً، كما يفعل واحد من أنصار السلافية في موسكو. أما المسيحية، فإنني رغم كل ما أحمله لها من احترام، أنتمي إليها، فأنا لست مسيحياً. إنني أقرب إلى أن أكون وثنياً من الزمان القديم، على طراز جوته العظيم أو الإغريق القدماء. على الأقل لأن المسيحية لم تفهم المرأة، كما بينتْ ذلك جورج صاند[1] أروع بيان، في إحدى رواياتها العبقرية. أما عن العبادات، كالصوم

---

(1) في سنة 1847 كان بيلنسكي في الخارج فكتب إلى جوجول رسالة حامية مضطربة سنة 1847 بمناسبة نشر جوجول لمراسلاته. وفي تلك الرسالة يهاجم الناقد مسيحية جوجول مؤكداً أن الشعب الروسي هو بين الشعوب أكثرها إلحاداً.

أمّا الرواية التي بينت فيها جورج صاند أن المسيحية لم تفهم الدين فلعلها رواية "ليلى" التي نشرت سنة 1839 وعالجت فيها قضية المرأة.

والصلاة وما إلى ذلك، فإنني لا أفهم لماذا يتدخل الناس في ما لا يعنيهم؟ مهما يبذل الوشاة هنا من جهود، فلا أحب أن أصبح يسوعياً. في عام 1874، حين كان بيلنسكي في الخارج، كتب إلى جوجول رسالته الشهيرة التي يؤاخذه فيها على أنه يؤمن بذلك "الإله الذي لا أدري ما هو!". اسمعوا ما سأقوله لكم "سرّاً بيننا: إنني لا أستطيع أن أتخيل شيئاً أبعث على الضحك من تلك الدقيقة التي قرأ فيها جوجول "جوجول ذلك العهد" تلك العبارة، و... بقية الرسالة! ولكن كفانا مزاحاً. وما دمنا رغم كل شيء متفقين على جوهر المسألة، فسأقول: أولئك الرجال! أولئك كانوا يعرفون كيف يحبون شعبهم، كانوا يعرفون كيف يتألّمون من أجله، ويضحون بكل شيء في سبيله. ولكنهم كانوا في القوت نفسه، يعرفون كيف يقاومونه في بعض الشؤون إذا اقتضى الأمر ذلك، فلا يتملقونه ولا يخادعونه. ما كان بيلنسكي ليستطيع أن يبحث عن السلامة في الصيام عن الطعام، وفي إشعال الشموع!...

ولكن هنا كان يتدخل شاتوف:

ـ إن أولئك الرجال لم يحبوا الشعب في يوم من الأيام، ولا تألموا من أجله ولا ضحوا بشيء في سبيله، وإنما كانوا يتسلون بأخيلتهم...

بذلك كان يجمجم شاتوف مكفهرّ الوجه، مطرقاً إلى الأرض، مضطرباً على كرسيه. فكان ستيفان ترفيموفتش يزأر سائلاً:

ـ كانوا لا يحبون شعبهم؟ هم؟ آه... لشدّ ما كانوا يحبون روسيا!

فيعول شاتوف قائلاً بدوره وقد سطعت نظراته وحميت عيناه:

ـ لا، لا الشعب ولا روسيا. إن المرء لا يستطيع أن يحب ما لا يعرف. وأولئك كانوا لا يعرفون عن الشعب الروسي شيئاً البتة، ولا يفهمونه إطلاقاً. إنهم جميعاً، وأنت معهم، قد مرّوا بالشعب مروراً دون أن ينظروا إليه، ولا سيما بيلنسكي. إن رسالته إلى جوجول تبرهن على ذلك برهاناً كافياً. إنه يشبه تماماً ذلك "المستطلع"[1] الذي تحدّثنا عنه حكاية كريلوف، ذلك

---

(1) "المستطلع" حكاية شهيرة من الحكايات التي كتبها كريلوف عن الحيوانات. فالمستطلع يتحدث عن زيارة قام بها لمتحف التاريخ الطبيعي فأعجب بحشرات كثيرة، لكنه لم يلتفت إلى الفيل.

"المستطلع" الذي لم يلاحظ الفيل الموجود في المتحف، لأن عينيه كانتا منصرفتين انصرافاً تاماً إلى رؤية الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا. ولم يذهب إلى أبعد من ذلك. ومع هذا فلعله كان أذكاكم جميعاً. فأنتم لا تجهلون الشعب فحسب، بل لا تشعرون نحو الشعب إلّا بأبشع الاحتقار والازدراء، لأن الشعب الوحيد في نظركم إنما كان هو الشعب الفرنسي، بل وشعب باريس وحدها، وكأنما يُخجلكم أن الشعب الروسي لا يشبه الباريسيين. تلك هي الحقيقة صافية خالصة. ومن لم يكن له شعب لم يكن له إله. فاعلموا أن جميع أولئك الذين أصبحوا لا يفهمون شعبهم، وأصبحوا على غير صلة به، يفقدون إيمان آبائهم بذلك المقدار نفسه، ويصبحون ملاحدة أو غير مكترثين بالدين. إن ما أقوله صحيح. إنه واقع يسهل البرهان عليه. ذلك هو السبب في أنكم جميعاً، في أننا جميعاً الآن ملاحدة أشرار أو أشقياء غير مكترثين بالدين، ذلك هو السبب في أننا لسنا الآن شيئاً على الإطلاق. هذا يصدق عليك أنت أيضاً يا ستيفان تروفيموفتش. إنني لا أستثنيك. بالعكس: لقد قصدتك أنت، فاعلم هذا.

كان من عادة شاتوف، حين يندفع في حديث طويل من هذا النوع، أن يتناول قبعته، وأن يهرع إلى الباب، مقتنعاً بأن كل شيء قد انتهى الآن، وأن علاقات الصداقة بستيفان تروفيموفتش قد انقطعت إلى الأبد. ولكن ستيفان تروفيموفتش عرف كيف يستوقفه في الوقت المناسب. فقال له بلهجة طيبة وهو يمد إليه يده:

ـ حسناً يا شاتوف! ما رأيك في أن نتصالح بعد أن تبادلنا هذه العبارات اللطيفة؟!...

وكان شاتوف امرءاً أخرق التصرف شديد الحياء، لا يحب الاندفاعات العاطفية، وهو خشن المظهر لكن له نفساً رقيقة مرهفة فيما أعتقد. لقد كان يتفق له في كثير من الأحيان أن يفقد حس القصد والاعتدال، ولكنه كان أول

أمّا قول دوستويفسكي "الحشرات الاجتماعية الآتية من فرنسا". فلعله ينصرف إلى أنبياء الاشتراكية الطوباويّة من أمثال فورييه وكبييه وغيرهما.

مـن يتألـم من ذلك ويندم عليه. فها هـو ذا يرد على كلمـات المصالحة التي وجهها إليه سـتيفان تروفيموفتش ببضعة ألفاظ مبهمة غير متميزة جمجم بها جمجمة، ثم أخذ يرقص في مكانه كما يرقص دب، ثم إذا هو يبتسـم ابتسـامة خرقاء على حين فجأة، ويعيد قبعته، ويرجع إلى كرسـيه مطرقاً إلى الأرض. وجـيء عندئذ بخمـرة طبعاً، واقتـرح سـتيفان تروفيموفتش أن يشـربوا نخباً يناسـب الظرف، كأن يكون نخب ذكرى واحد من أولئك الذين لمع نجمهم في الماضي.

الفصل الثاني
الأمير هاري. عرض زواج

1

ما يزال يوجد في العالم شخص ترتبط به فرفارا بتروفنا ارتباطاً لا يقل عن ارتباطها بستيفان تروفيموفتش. ذلك هو ابنها الوحيد نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين. ومن أجل ابنها هذا إنما كانت فرفارا بتروفنا قد دعت ستيفان تروفيموفتش إلى الإقامة في سكفورشنيكي، ليشرف على تربيته. كان الولد يومئذ في نحو الثامنة من عمره. وكان أبوه الجنرال ستافروجين قد انفصل عن فرفارا بتروفنا من قبل، فكانت فرفارا بتروفنا وحدها تتولى أمر ابنها وتهتم بشؤونه. ويجب أن ننصف ستيفان تروفيموفتش فنقول أنه أفلح في اكتساب مودة تلميذه. وسرّه كله في هذا أنه كان هو نفسه طفلاً. لم أكن قد عرفته في ذلك الحين بعد. وكان في حاجة مطلقة إلى أن يكون له بقربه صديق. لذلك لم يتردد في أن يتخذ الصبي نيقولاي ستافروجين صديقاً له، منذ خرج الصبي من مرحلة طفولته الأولى. وكانا يحسان كلاهما أنهما متساويان تساوياً تاماً. وكثيراً ما اتفق لستيفان تروفيموفتش أن أيقظ في الليل صديقه الصغير، البالغ من عمره عشر سنين أو إحدى عشرة، لا لشيء إلّا أن يعبّر له عما يجيش في نفسه من مشاعر المرارة والحسرة، أو أن يكشف له عن سر عائلي ما، دون أن يدرك أن مثل هذا البوح لا محلّ له. فكان الطفلان يتعانقان ويبكيان. كان الولد يعرف مدى ما تحمله له أمه من حب، ولكن الأرجح أنه كان لا يحمل لها هذه العواطف نفسها. كانت لا تكلمه إلّا نادراً. ورغم أنها كانت

تدعه حراً، فلقد كان يؤلمه أن يشعر بنظراتها المنتبهة تلاحقه في كل مكان. ثم إنها في كل ما يتعلق بتعليم ابنها وتهذيب نفسه كانت تعتمد على ستيفان تروفيموفتش اعتماداً تاماً، لأنها كانت في ذلك الأوان تثق به ثقة مطلقة.

يجب أن نعتقد أن المربي قد شوّش أعصاب تلميذه في آخر الأمر فحين بلغ الولد السادسة عشرة وأُدخل المدرسة الثانوية كان مراهقاً شاحب اللون ضعيف الجسم "لسوف يكتسب في المستقبل قوة جسمية خارقة". ويجب أن نعتقد أيضاً أن الصديقين كانا يتعانقان ويبكيان في الليل لا بسبب حوادث عائلية فحسب. لقد استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يمسّ من نفس الصبي أوتاراً خفية، وأن يوقظ فيه الإحساس المتنبئ الغامض بذلك الحزن المقدّس الذي متى ذاقته نفس من نفوس الصفوة أصبحت ترفض أن تستبدل به أية لذة من اللذات العادية (بل إن ثمة هواة يحبون هذا الحزن أكثر مما يحبون الرضا الكامل، إذا كان للرضا الكامل وجود). مهما يكن من أمر فقد أحسنوا حين فصلوا الربيب عن مربيه، ولو في وقت متأخر قليلاً.

في السنتين الأوليين من دراسته بالمدرسة الثانوية، جاء الفتى يقضي عطلته بالمنزل. وفي أثناء إقامة فرفارا بتروفنا وستيفان تروفيموفتش ببطرسبرج، شهد بعض السهرات الأدبية التي كانت تقيمها أمه فكان يقتصر على الإصغاء والملاحظة. كان قليل الكلام لطيفاً خجولاً على عهدنا به في الماضي. وكان ما يزال يلتزم تجاه ستيفان تروفيموفتش موقف الثقة والمحبة، ولكن على شيء من التحفظ مع ذلك. كان واضحاً أنه يتحاشى أن يخوض معه في الحديث عن أمور رفيعة، ويتجنب إثارة ذكرى الماضي. حتى إذا أنهى دراسته اختار المهنة العسكرية تلبية لرغبة أمه، وسرعان ما دخل ألمع كتيبة من كتائب فرسان الحرس. لكنه لم يأتِ لزيارة أمه في زيه العسكري، وأصبحت رسائله إليها قليلة نادرة. وكانت فرفارا بتروفنا ترسل إليه المال بسخاء، ليعيش في بحبوحة، رغم أن عائدات أملاكها قد بلغت من الهبوط بعد إلغاء الرق أنها أصبحت لا تقبض حتى نصف المبالغ التي كانت تقبضها من قبل. وإنما ينبغي أن نذكر أنها بفضل اقتصادها وتوفيرها كانت

قد ادخرت رأس مال كبير. وكانت تتابع بكثير من الاهتمام والشغف ما كان يحققه ابنها في المجتمع الراقي ببطرسبرج من نجاح تلو نجاح. فالضابط الشاب، الغني، المليء بالآمال والوعود، استطاع أن ينجح نجاحاً باهراً حيث أخفقت هي. فعقد صلات كانت هي قد انقطعت حتى عن أن تحلم بمثلها، وأصبح يُستقبل بترحيب شديد حيثما يذهب. ومع ذلك، سرعان ما أخذت تصل إلى مسامع فرفارا بتروفنا شائعات غريبة كل الغرابة: لقد أخذ الشاب يلهو لهواً مسعوراً على حين فجأة. ليس معنى ذلك أنه يقامر ويسكر وإنما هو على ما يقال يقوم بأعمال عنيفة ويرتكب أفعالاً وحشية: فمرة يدوس أناساً بحصانه، ومرة يهين سيدة من المجتمع الراقي كانت له بها علاقة، يهينها على مرأى ومسمع من الناس. إن هذه الحادثة الأخيرة تتصف بخسة ودناءة خاصة. وقيل أيضاً إنه يسلك سلوك امرىء يهوى مشاجرة الناس، ويسعى إلى الاقتتال معهم، ويتلذذ بإهانتهم. إن هذه الأنباء تغرق فرفارا بتروفنا في قلق شديد وغم بالغ. وقد أكد لها ستيفان تروفيموفتش مع ذلك أن هذه الأمور ليست إلّا اندفاعات عارمة لطبيعة غنية المواهب جداً، وأن البحر سيهدأ حتماً وأن هذا كله، على وجه العموم، إنما يذكّر بشباب الأمير هاري[1] الذي كان، كما يصوّره لنا شكسبير، يندفع اندفاعات مفرطة شتى في صحبة فالستاف وبوانس ومسز كوكلي. ففي هذه المرة لم تصرخ فرفارا بتروفنا قائلة لصديقها: "سخافات، هذه كلها سخافات!"، على عادتها في الآونة الأخيرة، وإنما أخذت أقواله مأخذ الجد، وطلبت منه شروحاً فيها مزيد من التفاصيل، وتولّت بنفسها قراءة القصة الخالدة بأكبر انتباه وأعظم اهتمام. ولكن شكسبير لم يدخل الهدوء والطمأنينة إلى قلبها، وكان من رأيها أن التشابه ليس قوياً إلى الحد الذي زعمه ستيفان تروفيموفتش. وانتظرت جواباً على الرسائل التي أرسلتها مستفسرة مستطلعة، انتظرت جواباً وهي على أحرّ من الجمر.

---

(1) يذكر بشباب الأمير هاري: في مسرحية شكسبير التاريخية "هنرى الرابع"، نقرأ أن ابن الملك، الأمير هاري، عاش حياة ماجنة في صحبة فالستاف. لكنه حين أصبح ملكاً باسم هنري الخامس تكشف عن شخصية ملك عاقل حكيم نير.

ولم تتأخر الأجوبة كثيراً. وعُلم أن «الأمير هاري» قد أجرى مبارزتين كان فيهما كلتيهما هو المخطئ كل الخطأ. ففي الأولى قتل خصمه، وفي الثانية جُرح خصمه جرحاً بليغاً. ومَثُلَ الشاب ستافروجين في أعقاب ذلك أمام المحكمة العسكرية، فحُكم عليه بتجريده من رتبته، وأُرسل جندياً بسيطاً إلى كتيبة مدفعية بعد أن رأف به القضاة رأفة كبيرة وتسامحوا معه تسامحاً خارقاً.

واستطاع سنة 1863[1] أن يتميز وأن يلمع، فنال وساماً، ورُقّي إلى رتبة صف ضابط، ثم لم تنقض إلّا فترة قصيرة جداً، حتى رُدّت إليه رتبته وعاد ضابطاً. إن فرفارا بتروفنا، في أثناء تلك المدة، كتبت ما يقرب من مائة رسالة تتوسل فيها لابنها وتتضرع من أجله. حتى أنها في تلك الظروف الاستثنائية قد عمدت إلى مساع فيها مَذَلّة.

ما إن ردّت إلى الشاب رتبته فعاد ضابطاً حتى قدّم استقالته. ولكنه لم يرجع إلى سكفورشنيكي، حتى لقد انقطع عن الكتابة إلى أمه انقطاعاً تاماً. وعُلم أخيراً بطرق ملتوية أنه عاد إلى بطرسبرج، ولكنه أصبح لا يرتاد المجتمع الذي كان يختلف إليه من قبل. حتى لكأنه كان يختفي فيما يبدو. وسرعان ما اكتُشف أنه يعيش بين أناس عجيبة أنواعهم، أناس هم سقط الرعاع وحثالة البشر بمدينة بطرسبرج، أناس هم خليط من فقراء أشقياء، وموظفين بؤساء، وعسكريين محالين على التقاعد، يتعاطون الاستجداء ويدمنون الخمرة. ويظهر أنه كان يتردد إلى أسرهم الشقية، ويقضي أيامه ولياليه في أكواخ مظلمة، وفي أماكن مشبوهة لا يدري إلّا الله ما هي، ولا يعتني بنفسه أي اعتناء، وكأنه يجد لذة في هذا النوع من المعيشة. وكان لا يطلب من أمه مالاً. إن له أرضاً صغيرة ورثها عن أبيه، فلا بد أن هذه الأرض كانت تدر عليه بعض المال مهما يكن ضئيلاً، فهي مؤجرة لألماني أصله من ساكس.

واستطاعت فرفارا بتروفنا أخيراً، بالتوسلات والتضرعات، أن تحمله

---

(1) "واستطاع سنة 1863 أن يتميز وأن يلمع": (هو الأمير هاري أيضاً)، ولعل الإشارة هنا إلى فترة قمع الثورة في بولنده.

على العودة إليها، فظهر الأمير هاري في مدينتنا. وحينذاك إنما استطعت أن أراه أول مرة، لأنني لم أكن قد لقيته قبل ذلك قط.

إنه شاب في الخامسة والعشرين من عمره، جميل إلى أقصى حدود الجمال، قد خطف منظره بصري منذ اللحظة الأولى والحق يقال. لقد كنت أتوقع أن أرى فتى رثّ الأسمال، قذر الهيئة، تفوح منه رائحة الخمرة، ويعبر وجهه عن التبذّل والفجور، فإذا أنا أرى سيداً من أرفع من لقيت في حياتي من السادة، حُسْنُ هندام وأناقة ملبس ومهابة مظهر ولطافة وضع ورقة آداب، فهو بهذا كله ينتمي إلى أرقى بيئة. ولم أكن الشخص الوحيد الذي دهش من ذلك، وإنما كانت الدهشة عامة شاملة في مدينتنا التي كانت مطلعة على سيرة السيد ستافروجين كلها اطلاعاً يبلغ من كثرة التفاصيل أن المرء يتساءل عن مصدرها ولا يفهم من أين أتت. وأغرب ما في الأمر أن نصف هذه المعلومات على الأقل قد ثبتت صحته.

سرعان ما جُنّت سيداتنا جميعاً بضيفنا الجديد، وانقسمن طائفتين: فأما الطائفة الأولى فهي تعبده عبادة، وأما الطائفة الثانية فهي تكرهه كرهاً قاتلاً. ولكنهن جميعاً قد جُنّ جنونهن. إن عدداً منهن كن يشعرن بانجذاب خاص قوي نحوه، لأنهن يتصورن أن نفسه تنطوي حتماً على سر حاسم من الأسرار العجيبة. وكان يحلو لبعضهن أن يرين فيه قاتلاً وقد اتفق أنه كان مثقفاً، حتى أنه يملك معارف واسعة. صحيح أنه لم يكن بحاجة إلى أشياء كثيرة حتى يبهرنا. ولكنه كان في الواقع قادراً على أن يتحدث في أخطر القضايا وأهم المسائل التي كانت تلهب العقول والنفوس في ذلك الأوان، وأن يتحدث عنها في كثير من سداد الرأي وسلامة الحس، وذلك أمر يستحق أكبر التقدير. هناك أمر عجيب: إن جميع الناس، منذ اليوم الأول تقريباً، قد رأوا أنه شاب عاقل جداً. إنه لا يكثر من الكلام، وهو أنيق الهندام بغير تكلُّف، وهو متواضع تواضعاً مدهشاً وهو في الوقت نفسه أكثر جرأة وأكثر ثقة بنفسه من أي واحد بيننا. كان المتأنقون المتطرفون ينظرون إليه نظرة غيرة وحسد، ويمّحون أمامه امّحاء كاملاً. وقد كان وجهه مما خطف

بصري أيضاً. إن شعره أسود، أسود سواداً يوشك أن يكون مفرطاً، وإن عينيه واضحتان مسرفتان في الوضوح والهدوء، وإن وجهه الناعم أبيض مسرف في النقاء والتورّد، أضف إلى ذلك أسناناً كأنها اللؤلؤ وشفتين كأنهما من مرجان. الخلاصة: رجل جميل جداً، لكن فيه مع ذلك شيئاً منفراً. كان يُقال إن وجهه يشبه قناعاً. أما ما كان يذكر عن قوته الجسمية الخارقة، فهو من الأمور المذهلة! وكانت قامته أطول من قامة وسط.

إن فرفارا بتروفنا تتأمله بزهو وفخر، ولكنهما زهو وفخر يخالطهما شيء من قلق. عاش بيننا قرابة ستة أشهر، حياة خالية، وادعة، أقرب إلى الجهامة، يرتاد المجتمع إذا اقتضى الأمر ذلك، ويراعي قواعد آدابنا الريفية مراعاة دقيقة صارمة. وكان الحاكم، وهو يمت إلى أبيه بقرابة بعيدة، يستقبله استقبال صديق حميم. ولكن ما إن انقضت بضعة أشهر حتى كشف الحيوان الكاسر عن مخالبه.

يجب أن أشير هنا، إلى أن حاكم مقاطعتنا، وهو ذلك الطيب العزيز، إيفان أوسيبوفتش، كان أشبه بامرأة عانس، ولكنه من أسرة ممتازة، وله علاقات رفيعة. وذلك ما يفسر بقاءه في منصبه تلك المدة الطويلة كلها رغم الإهمال الذي كان يعالج به شؤون الإدارة. إنه كريم مضياف، يصلح لأن يكون ماريشال الطبقة النبيلة في الزمان القديم أكثر مما يصلح لأن يكون حاكم مقاطعة في عهد يبلغ من الاضطراب ما بلغه ذلك العهد. كان يقال عندنا أن الذي يحكم المقاطعة ليس هو الحاكم، بل فرفارا بتروفنا. تلكم مزحة شريرة، ولكنها في الوقت نفسه ظالمة غير عادلة. ألا ما كان أكثر التفاهات التي كان الناس يطلقونها عن هذا الموضوع متندرين!... والحق أن الواقع كان نقيض ذلك تماماً: إن فرفارا بتروفنا، في خلال هذه السنين الأخيرة، قد انسحبت، عامدة، من جميع الشؤون التي تهم الناس (رغم الاحترام العظيم الذي لم ينقطع المجتمع كله عن محضها إياه)، وحبست نفسها حبساً تاماً في الحدود التي رسمتها لنشاطها بإرادتها. لقد تنازلت عن الأهداف العليا والغايات السامية التي كانت ترمي إليها من قبل، وانصرفت إلى إدارة أملاكها

فجأة، فما انقضت سنتان أو ثلاث سنين حتى كانت أراضيها تغل لها نفس ما كانت تغله تقريباً في عهد القنانة. لقد تركت تطلعاتها القديمة (الأسفار إلى بطرسبرج، إنشاء مجلة، إلخ)، وأخذت تجمع المال وتكنزه، وأصبحت بخيلة. حتى ستيفان تروفيموفتش، أُبعد وأُذن له بأن يشتري شقة في منزل آخر (وذلك أمر سعى إلى الحصول عليه متذرعاً بحجج شتى). وشيئاً فشيئاً، أخذ ستيفان تروفيموفتش يصفها بأنها امرأة عامية، أو يسميها مازحاً باسم "الصديقة العامية". ولكنه لم يسمح لنفسه طبعاً بمثل هذه الأمازيح إلّا مع كثير من الاحترام، وبعد أن ارتقب اللحظة المناسبة زمناً طويلاً.

وكنا ندرك نحن أبناء بيئته التي تحيط به - وكان ستيفان تروفيموفتش أكثرنا إحساساً بهذا - أن نيقولاي فسيفولودوفتش تتركز فيه كل آمال أمه، وأنه أصبح محلّ جميع تطلعاتها. إن تعلقها الشديد به يرجع عهده إلى فترة النجاحات التي حققها في المجتمع البطرسبرجي، فلما علمت بانحدار الفتى لم يزدها ذلك إلّا تعلقاً به. ومع ذلك كان واضحاً أن فرفارا بتروفنا تخاف ابنها وتتصرف أمامه تصرف عبد تقريباً. كان المرء يلاحظ أنها تخشى من جانبه شيئاً ما، شيئاً غامضاً غريباً سرياً لا تدركه هي نفسها. وكثيراً ما كانت تلقي على نيقولايس نظرات خاطفة، لكنها نافذة، كأنها تحاول سبر غوره لتعرف كيف تتصرف... وها هو ذا الأيّل الأشقر يظهر مخالبه.

2

فجأة، بدون سبب ظاهر، أباح أميرنا لنفسه أن يرتكب في حق عدة أشخاص وقاحات لا يصدقها العقل: إن الشيء الخاص الذي تتميز به هذه الوقاحات هي أنها وقاحات لا يتصورها الخيال حقاً، فهي لا تشبه الاستفزازات التي تجري عادة، ولا تمت إليها بصلة من الصلات. أصبح الشاب يرتكب في آن واحد أعمالاً صبيانية وأفعالاً دنيئة دون أي باعث أو دافع، لا يدري إلّا الشيطان لماذا! من ذلك أن واحداً من عمداء نادينا اسمه بافل بافلوفتش جاجانوف، وهو رجل مسنّ يُجْمِعُ الناس على تقديره، كان

قد اعتاد عادة بريئة وهي أن يقول في كل مناسبة بثقة واضحة: "لا، لن أسمح لأحد بأن يجرني من طرف أنفي!" ففي ذات يوم، ما كاد يقول هذه الجملة في نادينا بعد مناقشة من المناقشات أمام جمع من الناس يكادون ينتمون كلهم إلى الأرستقراطية المحلية، حتى وقف نيقولاي فسيفولودوفتش الذي كان منتحياً في ركن من الأركان، والذي لم يكن قد اشترك في المناقشة، فإذا هو يقترب فجأة من بافل بافلوفتش، فيمسك طرف أنفه بإصبعيه إمساكاً قوياً ويجره فيحمله على أن يمشي وراءه خطوتين أو ثلاث خطوات في الصالة. إن الشاب لا يمكن أن يكون حاملاً أية عداوة للسيد جاجانوف. وكان يمكن أن يُظن أن عمله هذا عمل صبياني لا أكثر، عمل لا يغتفر طبعاً، لولا أنهم أكّدوا فيما بعد أن نيقولاي فسيفولودوفتش، في لحظة قيامه بهذه "العملية" كان حالم الهيئة شارد الفكر "كأنما هو فقد عقله". ولكن هذا الأمر التفصيلي لم يتذكره أحد ولم يفكر فيه أحد إلّا بعد ذلك بمدة طويلة. أما في تلك اللحظة نفسها فإن الحاضرين لم يحفظوا إلّا وضع نيقولاي فسيفولودوفتش بعد وقوع الحادث فوراً، حين أدرك ما فعله إدراكاً تاماً، فرأوا أنه لم يضطرب أي اضطراب، بل ابتسم مرحاً، في خبث، "دون أي ندم". وأحاط الناس به وأخذوا يصرخون جميعاً. فكان نيقولاي فسيفولودوفتش يلتفت يمنة ويسرة دون أن يقول شيئاً، وكان يبدو عليه أنه يتأمل هؤلاء الناس الذين يصرخون مستغرباً. وأخيراً، شرد فكره من جديد (أو هذا ما حُكي فيما بعد، على الأقل)، وقطب حاجبيه، واتجه نحو بافل بافلوفتش بخطى ثابتة وتمتم يقول له وهو ظاهر التململ:

ـ سوف تعذرني حتماً... إنني لا أدري حقاً لماذا شبّت في نفسي هذه الرغبة فجأة... لقد كان ذلك سخفاً مني...

قال ذلك بلهجة فيها إهمال واضح، فكان ذلك بمثابة إهانة جديدة، وازداد اللغط. فهزّ نيقولاي فسيفولودوفتش منكبيه وانصرف.

ذلك كله كان غباء تاماً، وكان خسةً مقصودة متعمدة محسوبة (فيما بدا من أول نظرة) وكان إذن إهانة أراد الشاب أن يوجهها إلى مجتمعنا كله. على هذا

النحو إنما فهم جميع الناس الحادثة. فقرروا مجمعين أن يبدؤوا أولاً بشطب اسم السيد ستافروجين على الفور من قائمة أعضاء نادينا. ثم اتفقوا على أن يرفعوا شكوى باسم النادي إلى الحاكم راجين منه أن يستعمل سلطاته الإدارية (دون أن ينتظر مثول القضية أمام المحاكم) فيردّ إلى الصواب هذا المجنون الخطر، هذا "المشاجر" الهائج، ويصون بذلك شرفاء الناس من أي "عدوان غاشم يفسد عليهم صفو حياتهم"، واتفقوا على أن يضيفوا إلى ذلك قولهم، بسذاجة زائفة، إنهم يأملون أن "يوجد قانونٌ ما يعاقب حتى السيد ستافروجين"، وإنما اختاروا هذه العبارة ليخزوا الحاكم بالإلماح إلى فرفارا بتروفنا. ولكن شاءت المصادفة بما يشبه العمد أن يكون الحاكم غائباً عن المدينة في تلك الآونة: كان قد ذهب إلى قرية مجاورة ليمسك فوق جرن المعمودية ابن أرملة لطيفة كان زوجها قد مات عنها منذ مدة قصيرة وتركها في وضع شائن. وبانتظار عودته التي يعرفون أنها قريبة كرّموا الضحية أكبر التكريم واحتفوا بها أشد الاحتفاء، فجاءت المدينة كلها تزور الرجل المحترم بافل بافلوفتش، وتشد على يديه، وتعانقه وتقبله. حتى لقد اقترح بعضهم أن تقام له مأدبة يشارك في دفع نفقاتها مكتتبون، ثم لم يعدلوا عن هذه الفكرة إلّا بإلحاح منه، ولعلهم أدركوا أخيراً من جهة أخرى أن المسكين، مهما يكن من أمر، قد جُرّ من أنفه، فلا محل لأن تقام له حفلة باهرة.

كيف حدث هذا مع ذلك؟ كيف أمكن أن يحدث أمر كهذا؟ إن أعجب ما في القضية أن أحداً من مدينتنا كلها لم ينسب هذا الفعل الهمجي إلى الجنون. فيجب أن نعتقد إذن أنهم كانوا ميّالين إلى أن يعدّوا أمثال هذه الأفعال طبيعية من جانب نيقولاي فسيفولودوفتش. أما أنا فإنني إلى هذا اليوم أشعر بعجزي عن تفسير الواقعة رغم أن حادثة أخرى قد وقعت بعد قليل فبدا أنها توضح كل شيء، وهدّأت جميع النفوس. وأضيف إلى هذا أنني حين اتفق لي بعد ذلك بأربع سنين أن اسأل نيقولاي فسيفولودوفتش، محاذراً عن حادثة النادي، فقد سمعت منه هذا الجواب وهو يقطب حاجبيه: "نعم، لم تكن صحتي جيدة حينذاك". ولكن لا نستبقنّ الأمور.

ومما خطف انتباهي أيضاً أن كرهاً إجماعياً قد انصبّ فجأة على "المجنون"، على "المشاجر". لقد كانوا يصرون على أن يعدوا فعلته تحدياً مقصوداً متعمداً، وإهانة رشق بها المجتمع كله هادئاً من دون أن يتأثر. حقاً إن هذا الإنسان لم يظفر بأن يحمل أحداً على أن ينظر إليه نظرة حسنة. بالعكس: إن جميع الناس قاموا عليه وناصبوه العداء. وما هو السبب أخيراً؟ إنه قبل ذلك الحادث لم يكن قد شاجر أحداً قط، ولا كان أحد منا قد تلقّى منه أية إهانة، وكان يبدو دائماً مهذّباً تهذيب سيد من السادة الذين نرى صورهم في مجلات "الموضة" إذا أوتي أحد من هؤلاء السادة أن ينطق. إنني أفترض أنهم كانوا يكرهونه لزهوه وكبريائه. حتى سيدات من اللواتي عبدنه عبادة في البداية أصبحن الآن أكثر من الرجال سخطاً عليه وزعيقاً ضدّه.

وكانت فرفارا بتروفنا مضطربة أشد الاضطراب. وقد اعترفت لستيفان تروفيموفتش في ما بعد أنها قد أوجست ذلك كله منذ زمن طويل، وأنها خلال الأشهر الستة الأخيرة كانت في كل يوم تتوقع حدوث شيء ما، شيء "من هذا النوع" بعينه. هذا اعتراف له شأنه من جانب أم.

حدّثت الأم نفسها قائلة وهي ترتعش: "لقد بدأ الأمر...". وفي غداة وقوع الحادث حاولت أن تناقش ابنها بلباقة ولكن بثبات. ورغم ما كانت تتصف به من عزيمة، فلقد كانت المرأة المسكينة ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها. لم تكن قد نامت طوال الليل، ولما طلع الصباح جاءت تستشير ستيفان تروفيموفتش، حتى لقد بكت عنده، هي التي لم يسبق لها أن بكت أمام أحد في يوم من الأيام. تمنت لو يقول لها نيقولاي أي شيء، تمنت لو يقدم لها أي شرح. ولكن نيقولاي الذي ظل على عهدنا به أدباً وتهذيباً واحتراماً في معاملته، أخذ يصغي إليها في البداية جادّ الهيئة عابس الوجه، ثم إذا هو ينهض على حين فجأة، فيقبّل يدها، ويخرج دون أن يقول كلمة واحدة. وفي ذلك المساء نفسه انفجرت فضيحة جديدة بما يشبه العمد، وهي فضيحة إن تكن أقل خطورة من سالفتها، فإنها فضيحة خارقة كالأولى سواء بسواء، جعلت الاستياء العارم يبلغ ذروته ويصل إلى تمامه.

إن صديقنا ليبوتين هو الذي تناولته الفضيحة في هذه المرة. لقد جاء إلى نيقولاي فسيفولودوفتش بعد الحديث الذي جرى بين الشاب وأمه فوراً، ورجاه ملحاً أن يشرّفه بحضور السهرة التي يقيمها في ذلك المساء نفسه بمناسبة عيد ميلاد زوجته. إن فرفارا بتروفنا كانت قد نظرت، مرتاعة مشمئزة، إلى العلاقات المبتذلة التي يعقدها ابنها مع بعض الناس، ولكنها كانت لا تجرؤ أن تفاتحه في هذا الأمر وأن تحدّثه فيه. كان الشاب قد تعرّف بأشخاص حقيرين من مجتمعنا، بل هبط إلى ما دون ذلك أيضاً... رغم أنه لقيه مراراً. وأدرك فسيفولودوفتش أن ليبوتين إنما يدعوه بسبب الفضيحة التي أثارها حادث النادي، وهي فضيحة لا بد أن ليبوتين قد سُرّ بها سروراً عظيماً وافتتن بها افتتاناً، من حيث هو رجل لبرالي، لاعتقاده بأن هذه المعاملة هي التي يجب أن يُعامل بها عمداء النادي، وبأن الشاب قد أحسن التصرف. انفجر نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكاً، ووعد بحضور الحفلة.

كان بيت ليبوتين يضم جمهوراً غفيراً، ولئن لم يكن الحضور من علية القوم، فقد كان جو الحفلة زاخراً بالحياة والنشاط. إن ليبوتين، المغرور الحسود، لا يستقبل إلّا مرتين في السنة، ولكنه حين يستقبل يعرف كيف يرتب الأمور وكيف يجيد تدبيرها. إن ستيفان تروفيموفتش، وهو أعلى المدعوين مقاماً، لم يستطع أن يحضر الحفلة لأنه كان مريضاً. وقُدّم الشاي وكانت المقبّلات كثيرة، والخمرة وافرة. وكانت قد حُجزت ثلاث موائد للمقامرين. وبانتظار موعد العشاء أخذ الشباب يرقصون على أنغام البيانو. وجاء نيقولاي فسيفولودوفتش إلى زوجة ليبوتين يدعوها إلى الرقص، وهي امرأة صغيرة بارعة الجمال شديدة الخوف من هذا الشاب، فبعد أن رقص معها رقصتين أو ثلاثاً على أنغام الفالس جلس إلى جانبها وأخذ يروي لها حكايات سلّتها كثيراً. وإذ لاحظ مدى جمالها أثناء ضَحِكها، أمسك بقامتها على حين فجأة، وأطبق بفمه كلّه على شفتيها فقبّلها قبلتين أو ثلاثاً على مرأى من جميع الناس. فما كان من المسكينة إلّا أن أُغمي عليها من شدّة ما أصابها من روع. فتناول نيقولاي فسيفولودوفتش قبعته واقترب من الزوج

خجلاً أشد الخجل، وسط الانفعال العام الذي أثارته فعلته في الجمهور، فتأمله لحظة، ثم فقد سيطرته على نفسه، فتمتم قائلاً له بسرعة: "لا تزعل!". وخرج.

أسرع ليبوتين يجري وراءه إلى حجرة المدخل، وساعده في ارتداء معطفه، وصحبه إلى أسفل السلّم وهو يشيّعه بتحيات كثيرة.

غير أن هذه الحكاية البريئة نسبياً قد كانت لها في الغداة تتمة مسلية رفعت قدر ليبوتين منذ ذلك الحين رفعاً عرف كيف يستفيد منه.

ففي الساعة العاشرة من الصباح جاءت أجافيا خادمة ليبوتين، وهي فتاة لبيبة في نحو الثلاثين من العمر، حمراء الوجه، جاءت إلى عند السيدة ستافروجين موفدة من مولاها الذي حمّلها رسالة إلى نيقولاي فسيفولودوفيتش يجب أن "تبلغه إياها شخصياً" وكان الشاب يشعر بصداع، لكنه استقبل الفتاة بحضور فرفارا بتروفنا التي اتفق أن كانت هناك.

ـ لقد أمرني سرجي فاسيلفتش (هذا هو اسم ليبوتين) أن أنقل إليك أولاً تحياته، وأن أستفسر بعد ذلك عن صحتك، وأن أسألك كيف نمت في الليلة البارحة وكيف حالك الآن بعد الذي جرى أمس.

كذلك قالت الفتاة. فابتسم نيقولاي فسيفولودفتش، وأجابها قائلاً:

ـ سلّمي على مولاك واشكريه. وقولي له على لساني يا أجافيا إنه أذكى رجل في المدينة.

فاستأنفت أجافيا كلامها بمزيد من الانطلاق قائلة:

ـ وقد أمرني مولاي أن أرد على كلامك هذا بأنه يعرف ذلك دون أن تقوله أنت، وأنه يتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء.

ـ هه! هه! ولكن كيف أمكنه أن يعرف ما قد أقوله لك؟

ـ لا أدري كيف، لكنني بعد أن خرجت وعبرت الشارع سمعته يركض ورائي دون قبعة، ويصرخ قائلاً لي: "إذا اتفق أن أجابك يا أجافيا: "قولي لمولاك أنه ليس في المدينة كلها رجل أذكى منه"، فلا يفوتنّك أن تجيبيه قائلة: "نحن نعرف هذا دون أن تقوله، ونتمنى لك مثل هذا القدر من الذكاء...".

3

وتمـت مفاتحـة الحاكم بالأمر أخيـراً. فما إن عـاد صاحبنـا العزيز إيفان أوسـيبوفيتش، حتى أُطلع على شـكوى أعضـاء النـادي. وكان بديهياً أن من الواجـب فعل شـيئ مـا، غير أن إيفـان أوسـيبوفتش الرقيق شـعر بحرج كبير وارتبـاك شـديد. إن هـذا الشـيخ المضياف، الرقيـق الحديـث، كان هو أيضاً يخـاف مـن قريبه الشـاب بعض الخوف،كمـا يبدو. ومع ذلك قـرر أن يدفعه إلى الاعتذار للنادي وللمُهان، شـريطة أن يكون شـكل الاعتذار مناسـباً، بل وأن يكـون الاعتذار مكتوباً إذا اقتضى الأمر ذلك. ثم قد يحضّه بعدئذ بلطف ورِقّـة على السـفر، والقيام برحلة، إلى إيطاليا مثلاً، لإغنـاء ثقافته، أو إلى أي بلد آخر في الخارج.

وفـي الصالة التي اسـتُقبل فيها نيقولاي فسـيفولودوفتش (وكان نيقولاي فـي العـادة يتجول حراً طليقاً فـي المنزل كله بصفته مـن الأقرباء)، كان هناك موظف شـاب مؤدب جداً هو محل ثقة الحاكم، اسـمه أليوشـا تلياتنيكوف، إنه جالس أمام منضدة في أحد الأركان يفضّ رسائل. وفي الغرفة المجاورة، عند نافذة قريبة من الباب، كان كولونيلٌ ضخم الجسم قوي البنية، هو صديق لإيفان أوسـيبوفتش ورفيق قديم من رفاقه، يقـرأ جريدة "الصوت"[1] دون أن يلتفـت أي التفـات طبعاً إلى مـا كان يجري فـي الصالة، حتى أنـه كان مديراً ظهره إلى الباب.

أخذ إيفان أوسـيبوفتش يتكلم بصوت خافت. حتـى إذا قارب الموضوع قليـلاً ارتبك بعض الارتبـاك وأخذ يلف ويدور في كلامـه. إن وجه نيقولاي خال من البشاشة، لا يرى فيه المرء أثراً لعاطفة عائلية. وكان نيقولاي جالساً، شاحب اللون، خافض العينين، يصغي ويقطب حاجبيه كأنه يقاوم ألماً حاداً.

قال له الحاكم فيما قال:

---

(1) "الصوت": هي الجريدة اللبرالية التي كان يصدرها كرايفسكي في بطرسبرج من سنة 1863 إلى سنة 1883.

ـ إن قلبـك طيب نبيل يـا نيقولاي، وإنك رجل مثقـف، وقد ترددت على أرقى البيئات الاجتماعية، وحتى هنا كان سـلوكك إلى الآن سـلوكاً يسـتحق أن يُضـرب به المثل، فكنت فرحةً لأمك التي نقدّرها جميعاً ونحمل لها أكبر الإعزاز... ولكن ها أنت ذا الآن تطلع علينا بسلوك يحيّر العقل ويشكل خطراً على الناس كافة. إنني أكلمك كصديق لأسرتكم، وكقريب يحبك حباً صادقاً خالصـاً، فما ينبغي أن تسـوءك أقوالـي. قل لي: ما الذي دفعـك إلى ارتكاب أفعـال تبلغ هذا المبلغ مـن الهمجية، وتخالف الأصول والآداب الاجتماعية إلـى هذا الحد؟ ما معنى هذا الشـذوذ الذي يحمل المـرء على أن يفترض أن بك هذياناً.

كان نيقـولاي يصغـي إلـى كلام الحاكـم وقـد لاح فـي وجهـه الضجـر والتململ في آن واحد. ثم إذا بشـيء فيه مكر وسـخر يسـطع في نظرته على حين فجاة. قال للحاكم مظلم الهيئة:

ـ طيب... سأقول لك ما الذي يدفعني...

ثـم مال على إيفان أوسـيبوفتش بعـد أن ألقى نظرة حذر. فارتأى أليوشـا تلياتنيكـوف، الموظف المؤدب، أن يبتعد نحو النافذة بضع خطوات أخرى. وكان الكولونيل يتنحنح من وراء جريدته. ووثق الحاكم المسـكين واطمأن، فأسـرع يقـرّب من فم نيقولاي أذنـه. لقد كان على أحر من الجمر شـوقاً إلى سـماع كلام نيقولاي. وعندئذ إنما حدث شيء لا يصدقه خيال المرء، ولكنه ذو دلالة واضحة بليغة. لقد أحس الشيخ فجأة أن نيقولاي، بدلاً من أن يفضي إليه بسـر هام، قد قبض بأسـنانه على الجزء الأعلى من أذنه وأخذ يعضه عضاً قويـاً. وارتجف إيفان أوسـيبوفتش، وانقطع تنفسـه، ثم قـال في أنين بصوت مشوه:

ـ كفى مزاحاً يا نيقولاي!

إن أليوشـا والكولونيـل لا يفهمان حتى الأن ماذا يجـري، كان يبدو لهما من المكان الذي هما فيه أن الرجلين يتحدثان بصوت خافت. غير أن ما كان يلـوح في وجه الشـيخ من ألم شـديد قد أقلقهمـا. لذلك نظـر كل منهما إلى

صاحبه محملقاً، متسائلاً هل يجب أن يتدخل وفقاً لما تم الاتفاق عليه، أم يجب أن ينتظر قليلاً. ولعل نيقولاي قد لاحظ ترددهما فها هو ذا يعض بمزيد من القوة. وعاد الشيخ المسكين يئن قائلاً من جديد:

ـ نيقولاي.. نيقولاي.. كفى مزاحاً!

فلو انقضت دقيقة أخرى لمات الشيخ المسكين من الخوف حتماً. ولكن جلّاده رأف به وعفا عنه فأرخى أذنه. ولبث الحاكم تحت وطأة الذعر دقيقة كاملة لا يتحرك، ثم اعتراه ما يشبه أن يكون نوبة صرع. وبعد نصف ساعة كان نيقولاي قد اعتقل، واقتيد إلى هيئة الحرس، ووُضع في زنزانة تحت مراقبة حارس. إن هذا الإجراء قوي شديد، ولكن حاكمنا الرقيق كان قد بلغ من شدة الغضب أنه قرر أن يتحمل تبعة هذا الإجراء أمام فرفارا بتروفنا. وما كان أشد دهشة الناس جميعاً حين أسرعت فرفارا غاضبة تطلب إيضاحات من إيفان أوسيبوفتش، فما كان من الحاكم إلّا أن رفض استقبالها! وقد صُعقت فرفارا بتروفنا من شدة الدهشة، ولم تصدّق عينيها، لكنها اضطرت أن ترجع إلى البيت حتى دون أن تنزل من مركبتها.

واتضح أخيراً كل شيء. ففي الساعة الثانية من الصباح أخذ السجين الذي بدا إلى ذلك الحين هادئاً حتى لقد نام، أخذ يُجن جنونه على حين فجأة: فهو يضرب الباب بقبضة يده ضربات مسعورة، وهو يخلع قضبان الباب الحديدي بقوة فوق قوة البشر، ويحطم الزجاج فتصاب يداه بجراح. فلما أسرع ضابط الحرس مع رجاله ففتحوا باب الزنزانة ليقبضوا على السجين ويوثقوه، وجدوه يعاني نوبة حُمّى حارذة شديدة. فنقلوه إلى أمه. واتضح عندئذ كل شيء. إن الأطباء الثلاثة بمدينتنا قد أجمع رأيهم على أن المريض ربما كان قبل انفجار النوبة بثلاثة أيام في حالة قريبة من الهذيان، فهو واع وقادر على أن يتصرف بحيلة ومكر، ولكنه كان منذ ذلك الوقت لا يسيطر على عقله ولا على إرادته، كما تدل على هذا الوقائع. وهكذا إذن يكون ليبوتين أول من أدرك الحقيقة. وقد ارتبك إيفان أوسيوفتش، الرقيق العاطفة، المرهف الشعور، فأصبح حائراً لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول.

إن من الأمور الغريبة أنه هو أيضاً كان يرى أن نيقولاي فسيفولودوفتش لا يتورّع عن ارتكاب أشد الأعمال طيشاً وجنوناً ولو ملك عقله كاملاً. وخجل أعضاء النادي أيضاً. وأظهروا دهشتهم من أنهم لم ينتبهوا إلى ما كان ينبغي لهم أن ينتبهوا إليه، وأنهم لم يفطنوا إلى ذلك التفسير الوحيد الذي يمكن أن يعلّل تلك الأفعال الشاذة. ولئن أظهر بعضهم شيئاً من شك وريب، فإنهم سرعان ما انقادوا للاقتناع بأن ذلك هو التفسير.

لزم نيقولاي سريره مدة شهرين. وقد جيء له من موسكو بطبيب شهير يشارك في فحصه. وتوافدت المدينة كلها على فرفارا بتروفنا تقف إلى جانبها وتعرب لها عن احترامها، فغفرت للجميع وسامحتهم. حتى إذا جاء الربيع، وأبلّ نيقولاي إبلالاً تاماً، ورضي دون أي اعتراض أن يسافر إلى إيطاليا كما طلبت منه أمه، اقترحت عليه أمه أيضاً بأن يقوم ببعض زيارات الوداع، وأن ينتهز فرصة هذه الزيارات فيعتذر لمن أساء إليهم. فوافق الشاب على ذلك راضياً. وعُلم في النادي أن نيقولاي قد أجرى مع بافل بافلوفتش جاجانوف حديثاً لبقاً إلى أبعد حدود اللباقة أرضى جاجانوف إرضاء تاماً. وكان نيقولاي أثناء جولة الزيارات هذه، يبدو عليه كثير من الجد، بل ويبدو عليه أيضاً شيء من الحزن. ويظهر أنه قد استُقبل في كل مكان بأكبر المودة وأحرِّ العاطفة. ومع ذلك كان الناس ـ لا يدري المرء لماذا ـ يلوح عليهم شيء من الضيق والانزعاج ويلوح عليهم أنهم سعداء برحيله. أما إيفان أوسيبوفتش فقد ذرف بعض العبرات أثناء وداعه، ولكنه لم يعزم أمره على أن يقبله. يجب أن نذكر أن عدداً منا قد ظلوا، رغم كل شيء، مقتنعين بأن هذا "الشقي" إنما ضحك على الناس، وأن حكاية المرض هذه ليست واضحة.

وقد ذهب ستافروجين إلى ليبوتين أيضاً. وسأله:

ـ قل لي: كيف استطعت أن تتنبأ سلفاً بما سأقوله عن ذكائك فكلفت آجافيا بأن تجيبني؟

فأجابه ليبوتين ضاحكاً:

ـ الأمر بسيط جداً. أنا أيضاً أعدّك رجلاً ذكياً، فكنت أعرف جوابك سلفاً.

ـ تلك مع ذلك مصادفة عجيبة. ولكن اسمح لي: أكنت إذن تعدني رجلاً ذكياً لا مجنوناً حين أرسلت إليّ آجافيا؟

ـ نعم، كنت أعدّك من أذكى الناس وأعقلهم. ومع ذلك تظاهرتُ بالاعتقاد بأنك لم تكن تملك عقلاً كاملاً. وأنت نفسك، من جهة أخرى، قد فهمت فكرتي فوراً فبعثت إليّ مع آجافيا بشهادة ذكاء.

تمتم نيقولاي فسيفولودوفتش يقول مقطباً حاجبيه:

ـ مع ذلك أنت مخطئ قليلاً في هذه النقطة... فلقد كنت مريضاً... حقاً!

ثم صاح يقول:

ـ أتُراك تظن أنني يمكن أن أهجم على الناس هذا الهجوم وأنا في حالة سليمة؟

فصغّر ليبوتين عينيه ولم يعرف بماذا يجيب. واصفرّ نيقولاي فسيفولودوفتش قليلاً. أو هذا على الأقل ما لاح لصاحبنا ليبوتين.

وأردف ستافروجين يقول:

ـ طريقة تفكيرك مضحكة على كل حال. أنا أدرك طبعاً أنك إنما أرسلت إليّ آجافيا لتهينني.

ـ لم يكن في إمكاني أن أدعوك إلى مبارزة.

ـ آ... نعم... لقد سمعت عنك أن المبارزة ليست أقوى ما فيك!

قال ليبوتين وهو يصغّر جسمه كثيراً من جديد:

ـ ما حاجتنا إلى تقليد الفرنسيين؟

فسأله ستافروجين:

ـ أأنت من أنصار العادات القومية؟

فغطس ليبوتين في مقعده مزيداً من الغطس.

ورأى نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين في مكان بارز على المائدة كتاباً من تأليف كونسيدران[1] فجأة، فهتف يقول:

---

(1) "كونسيدران": هو فكتور كونسيدران (1893 ـ 1808)، أحد مريدي فورييه، فيلسوف واقتصادي فرنسي.

ـ هاه! ماذا أرى؟ أتُراك من أتباع مذهب فورييه؟ لم لا، على كل حال!

ثم أضاف يقول ضاحكاً وهو ينقر الكتاب بإصبعه:

ـ ولكن أليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية؟

فأجاب ليبوتين محتجاً قائلاً بشيء من الغضب:

ـ لا، ليس هذا ترجمة عن اللغة الفرنسية، بل هو ترجمة عن اللغة الشاملة، المشتركة بين جميع البشر، هو ترجمة عن لغة الجمهورية الاجتماعية الشاملة والانسجام الإنساني الكامل. ذلك هو هذا!

أجاب الشاب قائلاً وهو ما يزال يضحك:

ـ غريب! ولكن هذه اللغة لا وجود لها.

يتفق أحياناً أن يخطف انتباه المرء شيء تفصيلي تافه لا قيمة له يبقى في الذاكرة بعد ذلك زمناً طويلاً. هناك أمور كثيرة أخرى يمكن أن أقولها عن السيد ستافروجين. ولكنني أحرص الآن على أن أذكر، ولو لطرافة الواقعة، أن بين جميع الانطباعات التي خلّفتها في نفسه إقامته بمدينتنا كانت صورة هذا الموظف الريفي الصغير هي التي انحرفت في فكره أعمق من أية صورة أخرى. نعم صورة هذا الموظف الريفي الصغير، هذا الإنسان التافه، هذا المخلوق الذي يكاد يكون دنيئاً، هذا الطاغية في بيته، هذا الغيور القاسي البخيل، هذا المرابي الذي يقفل بالمفتاح على بقايا وجبات الطعام، وأعقاب الشموع، والذي كان في الوقت نفسه رسولاً يدعو إلى ما لا أدري من "انسجام اجتماعي شامل" وينتشي وجداً أمام اللوحة الرائعة التي ترتسم في خياله عن تعاونيات فورييه في المستقبل، مؤمناً بأنها ستتحقق قريباً في روسيا، في مقاطعتنا، كإيمانه بوجوده، وذلك في هذه المدينة التي اشترى لنفسه فيها بالتوفير والحرمان "منزلاً" وتزوج امرأة ثانية ذات بائنة كبيرة، هذه المدينة التي ربما كان لا يوجد حولها ولو على مسافة مائة فرسخ فرد واحد يشبه حتى من ناحية المظهر عضواً مقبولاً في تلك "الجمهورية الاجتماعية الشاملة"، ولا ليبوتين نفسه.

"لا يعلم إلّا الله كيف خلق هؤلاء الناس!". كذلك كان يقول ستافروجين

لنفسه مدهوشاً إذ يتذكر أحياناً ذلك النصير الغريب من أنصار فورييه.

4

دامت رحلة أميرنا أكثر من ثلاث سنين، حتى لقد كاد الناس أن ينسوه تقريباً في مدينتنا. ومع ذلك كنا نعرف من ستيفان تروفيموفتش أنه طاف أوروبا كلها، بل وأنه زار مصر والقدس، وأنه بعد ذلك مضى حتى جزيرة ايسلندة في بعثة علمية ألحق نفسه بها. وقد قيل أيضاً أنه خلال فصل من فصول الشتاء تابع محاضرات جامعة ألمانية.

ولم يكتب لأمه إلّا قليلاً، مرةً كل ستة أشهر، أو أقل من ذلك أيضاً. لكن فرفارا بتروفنا كان لا يبدو عليها أنها تضيق بذلك أو تتألم منه. لقد ارتضت هذا النوع من العلاقات التي قامت بينهما دون تذمر أو تململ. ولكن لا شك طبعاً في أنها خلال هذه السنين الثلاث لم تنقطع يوماً واحداً عن أن تفكر في ابنها نيقولاي، وعن أن تحلم بعودته، حزينة قلقة. على أنها كانت لا تبوح لأحد بما يعتلج في نفسها من مخاوف وما يراود خيالها من أحلام، حتى لقد ابتعدت بعض الابتعاد عن ستيفان تروفيموفتش. ولا شك في أنها كانت تبني بعض المشاريع، وكان يبدو أنها تزداد بخلاً، ولذلك أصبحت تظهر مزيداً من التبرم بالخسارات التي كان يمنى بها ستيفان تروفيموفتش في القمار.

وفى شهر نيسان من ذلك العام تلقت أخيراً رسالة من باريس بعثتها إليها صديقة طفولتها براسكوفيا إيفانوفنا دروزدوف، وهي أرملة جنرال. لقد كتبت هذه المرأة التي غابت عن عيني فرفارا بتروفنا غياباً تاماً منذ نحو ثماني سنين، كتبت تقول لها إن نيقولاي فسيفولودوفتش قد أصبح يتردد على منزلها كثيراً، وأن بينه وبين ليزا (ابنتها الوحيدة) صدا١قة كبيرة، حتى إنه ينتوي أن يصحبهم هذا الصيف إلى سويسرا، إلى فرنيه مونترو، مع أنه يستقبل استقبال الإبن في أسرة الكونت ك... (شخصية عظيمة الشأن جداً في بطرسبرج) الذي يقيم الآن بباريس.

إن الرسالة قصيرة تكشف عن غايتها كشفاً واضحاً، رغم اقتصارها على

الوقائع دون سـواها. لم تفكر فرفارا بتروفنا مدة طويلة، وسـرعان ما اتخذت قرارهـا، فمـا كاد ينتصـف شـهر نيسـان (ابريـل) حتى سـافرت إلـى باريس فسويسـرا مصطحبة ربيبتها داشـا (أخت شـاتوف). ورجعت في شـهر تموز (يوليه)، لكنها رجعت وحيدة، تاركة داشـا عند آل دروزدوف. وقالت فرفارا بتروفنا إن هاتين السيدتين ستأتيان إلينا في آخر شهر آب (أغسطس).

وكان لآل دروزدوف أرض في مقاطعتنا هم أيضاً. لكن ضرورات وظيفة الجنـرال إيفـان إيفانوفتـش (الصديق القديـم لفرفارا بترونـا، ورفيق زوجها فـي السـلاح) كانت قد منعته دائماً من أن يعيش فـي أرضه الرائعة. فلما مات الجنـرال في السـنة الماضية، سـافرت أرملتـه الحزينة إلى الخـارج مع ابنتها منتويـةً، فيمـا كانت تنتويه مـن أمور أخرى أيضاً، أن تصيـب حظاً من العلاج بالعنب في فرنيه مونترو. وتعتزم أن تقيم في مقاطعتنا إقامة نهائية متى عادت إلى روسيا. وكانت براسكوفيا إيفانوفنا تملك أيضاً في المدينة منزلاً كبيراً لم يُسكن منذ زمن طويل فنوافذه ظلت مغلقة دائماً. إن آل دروزدوف أغنياء. إن براسـكوفيا إيفانوفنا كرفيقتها في المدرسة فرفارا بتروفنا، هي بنت تاجر كبير مـن تجار الخمـور في النظام القديم. وقد حملت إلـى زوجها مهراً كبيراً هي أيضاً. وضابط سـلاح الفرسـان توشـين الذي تزوجته زواجاً أول كان يملك هو نفسه ثروة لا بأس بها. وكان لا يخلو كذلك من مواهب. وحين مات ترك لابنته الوحيدة ليزا، التي كان عمرها عندئذ سـبع سـنين، ثروة ضخمة. والآن وقـد بلغـت ليزافتا نيقولايفنا من العمـر قرابة اثنين وعشـرين عاماً، يمكن أن تُقدَّر ثروتها الشـخصية بمائتي ألف روبل، ناهيك عن المال الذي سـترثه من أمها، لأن أمها لم تنجب من زوجها الثاني.

إن فرفـارا بتروفنـا تبـدو راضيـة جـداً عـن رحلتها. ففـي رأيهـا أنها، هي وبراسـكوفيا إيفانوفنـا، قـد انتهتا إلى اتفـاق. فما إن عـادت، حتى قصّت كل شـيء على سـتيفان تروفيموفتش، وأفاضـت في الكلام والبـوح، وذلك أمر كانت قد كفّت عنه منذ زمن طويل.

صاح ستيفان تروفيموفتش قائلاً وهو يصفق بأصابعه:

- مرحى! عظيم!

كان مسروراً أعظم السرور، مفتتناً أشد الافتتان، لا سيما وأنه أثناء غياب صديقته قد عاش حياة حزينةً جداً.

وكانت فرفارا بتروفنا، حين سافرت، قد ودعته وداعاً فاتراً، وحاذرت أن تخبر هذا "النَمَّام" عن مشاريعها، خشية ثرثراته طبعاً. يُضاف إلى ذلك أنها كانت غاضبة منه حانقة عليه حين علمت أنه خسر في القِمار مبلغاً ضخماً. ولكنها حتى قبل أن تغادر سويسرا أحسّت أن من واجبها أن تعوّض صديقها المهجور الذي كانت تعامله منذ مدة طويلة بكثير من الشدة والصرامة. وكان سفرها المفاجئ السرّي قد أثّر تأثيراً عميقاً في قلب ستيفان تروفيموفتش الوجل، لا سيما وأنه اتفق أن كان في تلك الآونة يعاني من مصاعب أخرى كثيرة. لقد كان عليه أن يواجه التزاماً مالياً قديماً كبيراً ما كان له أن يستطيع سداده بدون مساعدة فرفارا بتروفنا. زد على ذلك أن حاكمنا الطيب، إيفان أوسيبوفتش، قد ترك منصبه في شهر أيار (مايو) من تلك السنة نفسها، إذ اضطر إلى الاستقالة في ظروف مؤسفة. وقد تم استقرار الحاكم الجديد، آندره أنطونوفتش فون لمبكه كمبلـه أثناء غياب فرفارا بتروفنا. وكان من شأن هذا أن بدّل وضع فرفارا بتروفنا في بيئتنا الريفية تبديلاً محسوساً جداً، وسرعان ما بدّل وضع ستيفان تروفيموفتش تبعاً لذلك، وهذا ما استطاع ستيفان تروفيموفتش أن يقتنع به من ملاحظة علامات مزعجة لكنها ذات بال. لذلك أخذ يراوده الخوف أثناء غياب فرفارا بتروفنا. ثم إنه قد علم من مصدر مطلع أن عدداً من سيداتنا قد قررن أن لا يرين فرفارا بتروفنا بعد الآن. وكان لا يُنتظر أن تصل امرأة الحاكم الجديد إلّا في مطلع الخريف، وكان يُقال إنها إن كانت متعجرفة جداً، فهي أرستقراطية حقيقية على الأقل، تختلف عن صاحبتنا "المسكينة فرفارا بتروفنا" اختلافاً كبيراً. لا أدري كيف كان جميع الناس يعلمون، بكثير من التفصيل، أن السيدة فون لمبكه وفرفارا بتروفنا كانتا قد التقتا في المجتمع سابقاً، وأنهما افترقتا متعاديتين، حتى إن ذكر اسم زوجة الحاكم كان يكفي وحده لأن يزعج فرفارا بتروفنا. وها هي

ذي فرفارا بتروفنا تصل، فإذا بهيئتها المنتصرة، وإذا بالإهمال الذي أظهرته حين علمت بعداوة هاته السيدات، وإذا بالازدراء الذي بان عليها حين عرفت الشائعات التي هزت مجتمعنا، إذا بهذا كله ينعش شجاعة ستيفان تروفيموفتش ويرد إليه صفاء مزاجه. وأراد أن يكسب حظوة صديقته فأخذ يصف لها وصول الحاكم الجديد وصفاً ساخراً.

قال وهو يمط كلماته متغنجاً:

ـ لا شك أنك تعلمين، "يا صديقتي العظيمة" (قالها بالفرنسية)، كيف يكون حاكمٌ روسي على وجه العموم، وكيف يكون حاكمٌ روسي حديث التعيين على وجه الخصوص، ولكنني أشك في أن تكوني قد أتيح لك أن تعرفي بالتجرية ما هي "نشوة الحكم"!

ـ نشوة الحكم؟ ما نشوة الحكم هذه؟

ـ اسمعي... "أنت تعلمين أن الناس في بلادنا... الخلاصة" (بالفرنسية).. إذا وُضع أحدهم وراء شباك قطع التذاكر في محطة من محطات القطار، وكُلّف بأن يبيع تذاكر، لا يلبث التافه أن يعتقد أن من حقه أن يصطنع وضع جوبيتر "إظهاراً لسلطته" (بالفرنسية) إذا جئت تشترين منه تذكرة سفر، فكأنه يقول: "انتظري قليلاً.. سوف ترين ما لي عليك من سلطة". هذا نوع من نشوة الحكم... "الخلاصة" (بالفرنسية)... لقد قرأت أن خادم إحدى كنائسنا في الخارج... "ولكنه أمر عجيب جداً" (بالفرنسية) قد طرد... نعم طرد طرداً... من الكنيسة... أسرة مرموقة جداً... "سيدات فاتنات" (بالفرنسية) قبل بدء صلاة العيد الكبير... تعرفين... تلك الأناشيد، وسفر أيوب... طَرَدَ الأسرة بحجة وحيدة هي أن "الأجانب الذين يتسكعون في الكنائس الروسية يحدثون فيها فوضى، وما عليهم على كل حال إلّا أن يأتوا في غير أوقات الصلاة..." ذلك ما قاله، حتى إن إحدى السيدات قد أغمي عليها. إن خادم الكنيسة هذا قد أصابته أيضاً "سكرة حكم"، "وأظهر سلطته" (بالفرنسية).

ـ أوجز إذا استطعت يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ إن السيد فون لمبكه يزور الآن مقاطعته. بكلمة واحدة: إن هذا السيد آندره أنطونوفتش هو ألماني روسي، أرثوذكسي الديانة، لا أنكر أنه رجل جميل جداً، في نحو الأربعين من عمره...

ـ من قال لك إنه رجل جميل جداً؟ إن له عينين كعيني كبش.

ـ نعم، كعيني كبش، ولكنني أوافق سيداتنا على رأيهن...

ـ لننتقل إلى موضوع آخر يا ستيفان تروفيموفتش، أرجوك. بالمناسبة: أأنت تضع ربطة عنق حمراء منذ مدة طويلة؟

ـ اليوم... فقط...

ـ هل تتريض؟ هل تمشي كل يوم مسافة الفراسخ الستة التي أمرك بها الطبيب؟

ـ ليس دائما...

ـ قدّرتُ هذا. خمّنته وأنا بسويسرا.

قالت له ذلك صائحة غاضبة. وأردفت:

ـ طيب... لن تمشي بعد اليوم ستة فراسخ بل عشرة. إنك لم تشخْ فحسب، بل هرمت هرماً شديداً. لقد دُهشت حين رأيتك منذ قليل، رغم ربطة عنقك الحمراء. ما هذه الفكرة السخيفة التي راودتك: ربطة عنق حمراء؟ طيب... أكمل حديثك عن فون لمبكه إذا كان عندك شيء تقوله حقاً، ولكن اختم قصتك، أرجوك. إنني متعبة.

ـ "الخلاصة" (بالفرنسية) أنا إنما أردت أن أقول إنه واحد من حكامنا أولئك الذين يبدؤون في الأربعين من العمر. يعيشون قبل ذاك حياة بائسة خاملة، ثم إذا هم يصبحون على حين فجأة شخصيات مرموقة، بفضل زواج لم يكن في الحسبان، أو بأية وسيلة أخرى لم يكونوا يأملونها... لقد سافر الآن... ولكن يجب أن أقول لك إنهم أسرعوا يدسون في أذنه أنني أفسد الشبيبة وأنشر الإلحاد... لقد استطلع وسأل فوراً.

ـ ولكن هل هذا صحيح؟

ـ لقد اتخذت احتياطاتي. وحين نقلوا إليه أنك كنت أنت "تحكمين

المقاطعة"، أباح لنفسه أن يقول: "لن تجري الأمور على ذلك النحو بعد الآن".

ـ هل قال هذا حقاً؟

ـ نعم، قال "لن تجري الأمور على ذلك النحو بعد الآن"، وقد قال ذلك "بتلك العجرفة" (بالفرنسية)... أما زوجته جوليا ميخائيلوفنا فسوف نشرف برؤيتها هنا في آخر شهر آب (أغسطس). سوف تصل رأساً من بطرسبرج.

ـ خطأ. سوف تصل من الخارج. لقد التقينا هناك.

ـ "حقاً؟" (بالفرنسية).

ـ في باريس، وفي سويسرا. إنها قريبة آل دروزدوف.

ـ يالها من مصادفة خارقة! ويقال إنها طموحة، وإن لها علاقات قادرة...

ـ سخافات! ليس لها إلّا علاقات صغيرة لا تُذكر. لقد ظلت حتى الخامسة والأربعين من العمر عانساً لا تملك قرشاً. ثم اصطادت هذا السيد فون لمبكه، وهي تريد الآن أن تصنع منه شخصية مرموقة، طبعاً كلاهما دساس صاحب مكائد.

ـ ويظهر أنها أكبر منه بسنتين؟

ـ بل بخمس سنين. كانت أمها في موسكو تكنس عتبة منزلي بحافات ثوبها. كانت تستجدي أن أدعوها إلى حفلات الرقص التي كنت أقيمها في أيام فسيفولود نيقولايفتش[1]. وكانت ابنتها هذه تقضي ليالي بكاملها قابعةً في ركن من الأركان لا تجد مَنْ يراقصها، مزدانة الجبين بقرص فيروزي اللون، حتى إذا دقت الساعة الثالثة من الصباح أخذتني بها شفقة فأرسلت إليها أول مَنْ يرقص معها. كان عمرها حينذاك خمسة وعشرين عاماً، ولكن أهلها كانوا ما يزالون يلبسونها فستاناً قصيراً كفتاة صغيرة، حتى أصبح المرء يستحي أن يستقبلهم.

ـ إني لأكاد أراه، ذلك القرص الذي كانت تزيّن به جبينها.

---

(1) هو الجنرال المتوفي ستافروجين، والد نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين.

ـ أقول لك إنني ما إن وصلت حتى وجدت نفسي في وسط مكيدة. لقد أطلعتك منذ لحظة على رسالة السيدة دروزدوف. هل يمكن أن يكون ثمة ما هو أوضح من هذا؟ ماذا اكتشفت؟ إن دروزدوف الحمقاء هذه ـ ولقد كانت حمقاء دائماً ـ قد نظرت إليّ كأنما لتسألني لماذا جئت. فتصور دهشتي! لقد نظرت فرأيت لمبكه تلك تدور حولنا، ومعها ذلك الشاب، ابن أخت الشيخ دروزدوف. لقد اتضح لي عندئذ كل شيء. أدركت الموقف في طرفة عين طبعاً، ولم تلبث براسكوفيا أن انحازت إلى جانبي من جديد. ولكن ما قولك في هذه المكيدة؟

ـ التي انتصرت عليها مع ذلك! أوه، إنك لبسمارك![1]

ـ دون أن أكون بسمارك، أستطيع أن أميّز الزيف والحماقة اللذين أصادفهما في طريقي. إن لمبكه هي الزيف، وإن براسكوفيا هي الحماقة. قلّ أن رأيت في حياتي امرأة تفوقها رخاوة، وهي عدا ذلك متورمة الساقين، ولكنها فوق كل شيء طيبة. فهل ثمة أغبى من إنسان أحمق طيب؟

أجاب ستيفان تروفيموفتش:

ـ الأحمق الشرير أغبى يا "صديقتي العزيزة" (بالفرنسية).

ـ قد تكون على حق. لا شك أنك تتذكر ليزا، هه؟

ـ "طفلة فاتنة" (بالفرنسية).

ـ ما هي الآن بطفلة، هي الآن امرأة، بل امرأة قوية الشخصية. إنها حارة الطبع كريمة النفس. إن ما يعجبني فيها هو أنها تقاوم أمها، تلك الحمقاء السر يعة التصديق. لقد قامت بينهما مشكلة كبيرة، بسبب ابن الأخت ذاك.

ـ ها... فعلاً... إنه لا يمت بأية قرابة إلى ليزافتا نيقولايفنا. أيكون طامعاً فيها؟

ـ اسمع! هو ضابط شاب، قليل الكلام، بل ومتواضع. إنني أحرص دائماً على أن أكون منصفة. أظن أنه هو نفسه ضد هذه المكيدة، وأنه لم

---

(1) كان أوتو فون بسمارك الذي سيصبح مستشار ألمانيا، سفيراً ببطرسبرج وباريس، وكان يعد دبلوماسياً بارعاً جداً.

يكن يطمع في شيء. إن السيدة لمبكة هي التي تدبر الحيلة كلها. لقد كان يحمل لنيقولاي تقديراً عظيماً. إن كل شيء متوقف على ليزا. وحين تركتهم كانت على صلات ممتازة بنيقولاي الذي وعدني بأن يجيء إليها حتماً في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وإذن فإن زوجة لمبكة وحدها تدبر الحيلة، أما براسكوفيا فهي عمياء لا أكثر. ألم تصرّح لي بأن الشبهات التي تراودني ليست إلّا هواجس خيالية؟ لقد أجبتها رأساً بأنها امرأة حمقاء. وأنا مستعدة لأن أكرر قولي هذا إلى أن ألفظ آخر أنفاسي. ولولا أن نيقولاي قد رجاني أن لا ألحّ الآن، لما كنت تركتهم قبل أن أزيح القناع عن وجه تلك المرأة المنافقة المرائية. إنها بواسطة نيقولاي تحاول أن تظفر بالحظوة لدى الكونت ك... إنها تريد استعداء الابن على أمه. ولكن ليزا إلى جانبنا. أما براسكوفيا فقد اتفقت معها أخيراً. أنت تعلم أن كارمازينوف قريبها، أليس كذلك؟

ـ كيف؟ قريب السيدة فون لمبكة؟

ـ نعم، قريبها، ولكنها قرابة بعيدة.

ـ كارمازينوف، الكاتب؟[1]

ـ نعم، الكاتب. لماذا يدهشك هذا؟ إنه يعد نفسه رجلاً عظيماً. إنه منتفخ غروراً. سيصلان معاً. وهي تحدث الآن من أجله جلبة كبيرة في الخارج. إنها تنوي أن تنظّم هنا شيئاً ما، تنوي أن تنظّم اجتماعات أدبية لا أدري ما هي! سيجيء شهراً واحداً. إنه يريد أن يبيع آخر قطعة من الأرض يملكها هنا. أوشكت أن ألقاه في سويسرا، ولم أكن أحرص على ذلك البتة. آمل على كل حال أن يتنازل فيتعرفني أنا على الأقل. كان في الماضي يكتب إليّ، وكان يزورني في البيت. أحب أن تعتني بملابسك اعتناء أكبر ياستيفان تروفيموفتش. إنك تزداد إهمالاً لمظهرك يوماً بعد يوم... آه... ما أشد ما تعذبني! ماذا تقرأ الآن؟

---

(1) "كارمازينوف الكاتب؟": هذه صورة كاريكاتورية للروائي الروسي الكبير تورجنيف. إن اسم كارمازينوف يذكر بالكاتب العاطفي كارامزين، ولكن من الجائز أن دوستويفسكي قد اشتقه من كلمة بولندية تعني الأرستقراطية. فيكون ذلك إشارة إلى العادات الأرستقراطية عند تورجنيف.

ـ أنا الآن... أنا الآن...

ـ أعرف. مازلتَ على عهدي بك: الأصدقاء، جلسات الشراب، النادى، اللعب بالورق، وتلك السمعة، سمعة الإلحاد! إن هذه التسمية لا تعجبني يا ستيفان تروفيموفتش. لا أحب أن تُعدّ ملحداً. لا، لا أحب هذا، ولا سيما الآن. وفي الماضي أيضاً كان ذلك لا يعجبني، فما هو في آخر الأمر إلّا ثرثرة. يجب عليّ أن أقول هذا أخيراً.

ـ "ولكن يا عزيزتي..." (بالفرنسية).

ـ اسمع يا ستيفان تروفيموفتش: في كل ما يتعلق بالمعارف العلمية، ما أنا إلّا جاهلة بالقياس إليك. ومع ذلك، فإنني عند عودتي إلى هنا، فكرت فيك كثيراً وانتهيت إلى اقتناع.

ـ ما هو هذا الاقتناع؟

ـ هو أننا، أنت وأنا، لسنا أذكى الناس فى هذا العالم. هناك من هم أذكى منا.

ـ هذا كلام صحيح. وهناك إذن من يرون رؤية أصدق، ويترتب على هذا أن من الممكن أن نخطئ. أهذا ما تريدين قوله؟ "ولكن يا صديقتي الطيبة" (بالفرنسية)، لنفترض أنني مخطىء. إنني مع ذلك أملك حرية الاعتقاد، وذلك حق عام مقدس. إن من حقى أن لا أكون متعصباً للدين وأن لا أكون متظاهراً بالتقوى إذا كان هذا لا يرضيني. ولكني أتعرض طبعاً في هذه الحالة للبغضاء يحملها لي عدد من الناس إلى الأبد. "ثم إن عدد الرهبان أكبر من عدد العقول" (بالفرنسية)... ولما كنت أوافق على هذا الرأي كل الموافقة...

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟

ـ قلت: "إن عدد الرهبان أكبر من عدد العقول"، ولما كنت...

ـ ليس هذا القول قولك أنت حتماً. لا شك أنك اقتبسته...

ـ هو قول للفيلسوف باسكال.

ـ قدّرت ذلك... أنه ليس قولك أنت. لماذا لا تعبّر عن فكرك أبدا بهذه

الطريقة، بطريقة فيها هذه القوة وهذا الإيجاز، بدلاً من الإطالة دائماً؟ هذا أفضل كثيراً مما كنت تقوله منذ قليل عن نشوة الحكم.

ـ "والله... ياعزيزتي..." (بالفرنسية)... لماذا؟ أولاً، ربما لأنني لست باسكال، على كل حال، "ثم" (بالفرنسية) ثانياً، لأننا معشر الروس لا نجيد التعبير عن شيء بلغتنا... أو أننا لم نصل إلى هذا حتى الآن على الأقل...

ـ هم... قد لا يكون هذا صحيحاً كل الصحة. مهما يكن من أمر، فإنه ينبغي لك أن تدوّن هذه التعابير على الأقل، وأن تحفظها لتستعملها في المناسبات. آه... ستيفان تروفيموفتش، كنت أتهيأ لأن أكلمك بجد، بجد كبير...

ـ "صديقتي العزيزة، صديقتي العزيزة!" (بالفرنسية).

ـ الآن وأنا أرى جميع هؤلاء الذين أسماؤهم لمبكه، وكارمازينوف... آه! يا إلهي! ما أشد إهمالك لنفسك! إنك لتعذبني تعذيباً كبيراً يا ستيفان تروفيموفتش!... أود أن يحترمك هؤلاء الناس، لأنهم جميعاً لا يساوون خنصرك. فانظر إلى سلوكك أنت! ما الذى سوف يرونه؟ ما عساني أريهم فيك؟ إنك بدلاً من أن تكون قدوة للآخرين، وبدلاً من أن تلتزم وضعاً نبيلاً، تحيط نفسك بجمع غفير من أوغاد، وتكتسب عادات سيئة، وتهمل نفسك، وتصبح مدمناً على الخمرة والقمار، ولا تقرأ إلّا بول دوكوك، وتضيع وقتك في ثرثرات. هل يجوز أن تعقد صلة صداقة برجل وبش كصاحبك ليبوتين الذي لا تفارقه ولا يفارقك؟

ـ لماذا تقولين إننى لا أفارقه ولا يفارقني؟

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش محتجاً في خجل ووجل.

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها بلهجة قاسية قاطعة، فسألته:

ـ أين هو الآن؟

ـ إنه... إنه يحترمك إلى أبعد حدود الاحترام، وقد سافر إلى س....ك، لاستلام الميراث الذى آل إليه من أمه.

ـ يخيّل إليّ أنه لا يفعل شيئاً غير أن يرث. وشاتوف؟ أما يزال على حاله؟

ـ "سريع الاهتياج، لكنه طيب القلب" (بالفرنسية).

ـ إنني لا أطيق احتمال صاحبك شاتوف هذا. إنه شرير، وإنه ممتلىء غروراً بنفسه.

ـ كيف حال داريا بافلوفنا؟

ـ تقصد داشا؟ ما هذه الفكرة الغريبة التي واتتك؟

كذلك سألته فرفارا بتروفنا، وهي تنظر إليه متعجبة مستطلعة. وتابعت كلامها فقالت:

ـ هي بخير. لقد تركتها عند آل دروزدوف... سمعتُ حديثاً عن ابنك حين كنت في سويسرا، بشرٍّ لا بخير.

ـ "أوه، هذه حكاية سخيفة جداً. كنت أنتظر وصولك ياصديقتي الطيبة لأقص عليك..." (بالفرنسية).

ـ كفى ياستيفان تروفيموفتش، دعني وشأني هادئة البال. إنني متعبة مرهقة. سوف يتسع وقتنا للكلام على مهل كما نشاء، ولا سيما عن أمور مزعجة. إنك حين تضحك ترشق من فمك رذاذاً غزيراً من اللعاب. هذا وحده دليل شيخوخة وهرم. ثم إنك الآن تضحك ضحكاً غريباً جداً. ما أسوأ هذه العادات التي تأصلت فيك! إن كارمازينوف لن يأتي إليك! والناس يعبثون الآن بكل شيء ويبتهجون لكل شيء... لقد كشفت الآن عن نفسك كلها. هيا، كفى كفى! أنا متعبة. هلّا أشفقت على كائن إنساني آخر الأمر!

"أشفق ستيفان تروفيموفتش على كائن إنساني" آخر الأمر. ولكنه انصرف مضطرباً أشد الاضطراب.

5

كان صاحبنا قد اعتاد كثيراً من العادات السيئة فعلاً، ولا سيما في هذه الآونة الأخيرة. واضح أنه أصبح قليل الاكتراث، وأنه أخذ يهمل مظهره مزيداً من الإهمال يوماً بعد يوم. وهو الآن يشرب أكثر مما كان يشرب، وقد صار سخيّ الدموع يذرفها بسهولة، وصارت أعصابه تثور في كل مناسبة.

واكتسب وجهه سرعة في الحركة غريبة، حتى إنه ينتقل فوراً من التعبير عن أعظم الأبهة والفخامة إلى التعبير عن أتفه الهزل المسفّ المضحك، بل وإلى التعبير عن أبلغ الحماقة البلهاء. وقد غدا عاجزاً عن احتمال العزلة والوحدة، فلا بد له دائماً من أحد يجيء إليه فيسلّيه. وكان ينبغي أن تنتقل إليه النمائم والأقاويل، وأن تروى له الحكايات التي تشيع في المدينة، وكان يطالب دائماً بجديد. فإذا لم يأت إليه أحد، طفق يطوف من غرفة إلى غرفة حزيناً، واقترب من النافذة فى كل لحظة، وتنهد وزفر، وحرّك شفتيه حالم الهيئة شارد اللب، ثم إذا هو يكاد يبكي. وأصبحت تساوره هواجس ومخاوف مستمرة، فهو فى كل وقت يخشى وقوع حادث غير منتظر، وهو دائم الجفول والتخوّف كثير الاهتمام يما يراه فى النوم من أحلام.

قضى ستيفان تروفيموفتش النهار والليل حزيناً مكتئباً، ثم بعث يستدعيني. فلما جئت إليه وجدته مضطرباً أشد الاضطراب، وأخذ يتحدث طويلاً، ولكن حديثه مشوّش مبهم. إن فرفارا بتروفنا تعرف منذ مدة طويلة أنه لا يخفي عني شيئاً. وبدا لى فى النهاية أن ثمة شيئاً يقلقه ويبث فى نفسه الاضطراب، وأنه ربما كان هو نفسه لا يدرك هذا الشيء إدراكاً واضحاً، ولا يعيه وعياً كاملاً. وقد جرت العادة، حين نكون وحيدين فيفرغ من الإفضاء إليّ بهمومه وآلامه، أن نؤتى على الفور بزجاجة خمرة تسري عنا قليلاً. ولكن الخمرة في هذه المرة لم تكن موجودة، وكان واضحاً أنه يكبح رغبته فى طلب شيء منها.

إنه لا يفتأ يكرر شاكياً كطفل:

ـ ما الذى يغضبها دائماً؟ إن رجال العبقرية والتقدم في روسيا كانوا وما يزالون وسيظلون إلى الأبد" (بالفرنسية) مقامرين وسكّيرين... وأنا لست مقامراً ولا سكّيراً إلى هذا الحد... إنها تأخذ عليّ أنني لا أكتب شيئاً... يالها من فكرة غريبة!... لماذا أظل مضطجعاً؟ هي تقول لي: "عليك أن تكون قدوة، وأن تقف أمام الجميع صورة مجسدة للوم والرفض". فقل لي ـ وليكن

الكلام سـراً بيننا ـ ما عسـى يفعل رجل يجب أن يكون صورة مجسّـدة للوم والرفض، إلّا أن يبقى مضطجعاً؟ كيف لا تفهم هي هذا؟

وأدركت أخيراً سـبب هذا القلق الخاص الذى كان يعذبه في ذلك اليوم. إنه في أثناء تلك السـهرة قد اقترب من المرآة مراراً ليتأمل وجهه طويلاً. وفى النهاية التفت نحوي وقال فى كرب شديد:

ـ "يا عزيزي" (بالفرنسية) لقد سقطت...

الواقع أنه كان حتى ذلك الحين، حتى ذلك اليوم، محتفظاً باعتقاد جازم لا يتزعزع، رغم "وجهات النظر الجديدة" ورغم "الأفكار الجديدة" التي انتهت إليهـا فرفـارا بتروفنا، بأنه ما يزال يحظى من صديقتـه ياعتبار عظيم من حيث هو رجل وسـيم جميل، لا من حيث هو رجل منفيّ أو عالم شـهير فحسـب. إن هذا الاعتقاد المبهج المطمئن كان قد تأصّل فيه وترسّخ منذ عشرين عاماً، ولعله كان هو الاعتقاد الذى يصعب عليه أن يتنازل عنه أكثر مما يصعب عليه أن يتنازل عن أى اعتقاد آخر. ترى، هل وافاه في ذلك المسـاء إحسـاس يتنبأ بالمحنة الرهيبة التي كان يهيئها له مستقبل قريب؟

6

الآن أصل من قصتي إلى الجزء الذي هو بدايتها حقاً، وهو جزء مضحك بعض الشيء.

فى آخر شـهر آب (أغسـطس)، وصلـت السـيدتان دروزدوف أخيراً إلى مدينتنـا. فكان لوصولهما الـذي أعقبه بعد برهة وجيزة وصول قريبتهما امرأة الحاكـم التـي طالما انتظر وصولهـا، كان له دوي كبير. سـأعود فيما بعد إلى هذه الأحداث الطريفة جداً. أما الآن فأذكر فقط أن براسـكوفيا إيفانوفنا التي انتظرتها فرفارا بتروفنا بصبر فارغ قد حملت إلى فرفارا نبأ غريباً مشوشاً: هو أن نيقولاى ترك آل دروزدوف منذ شهر تموز (يوليه) وأنه وقد التقى على نهر الراين بالكونت ك وأسـرته قد تبعهم إلى بطرسبرج (ملاحظة: إن للكونت ك ثلاث بنات للزواج).

قالت براسكوفيا إيفانوفا:

ـ ولم أستطع أن أستخرج من ليزافتا شيئاً بسبب كبريائها وسوء مزاجها، لكنني رأيت بعينيّ أن شيئاً ما قد جرى بينها وبين نيقولاي فسيفولودوفتش. لا أدري ما هو هذا الشيء، ولكن يخيّل إليّ يا صديقتي العزيزة أن عليك أن تسألي عن هذا الأمر صاحبتك داريا بافلوفنا. في رأيي أن ليزا قد أحست بأنها أهينت. إني ليسرني أعظم السرور أن أرد إليك أثيرتك أخيراً، وأن أضعها بين يديك: فهأناذا أتخلص منها.

هذه الكلمات المليئة بالمرارة والضغن قد نطقتها براسكوفيا إيفانوفا بكثير من الغيظ والحنق. كان واضحاً أن "المرأة الرخوة" قد حضّرت هذه الكلمات منذ مدة طويلة متلذذةً بتأثيرها سلفاً. لكن فرفارا بتروفنا ليست امرأة يمكن التأثير فيها بجمل عاطفية وألغاز. فلم تلبث أن تكلمت بلهجة قاسية تطلب إيضاحات دقيقة كاملة، فخفضت براسكوفيا إيفانوفنا نبرة صوتها، وانتهت أخيراً إلى الإفضاء بمشاعرها والبوح بعواطفها بوحاً حميماً، حتى لقد بكت أثناء ذلك. إن هذه السيدة تشبه ستيفان تروفيموفتش، فهي سريعة الاهتياج لكنها عاطفية تشعر دائماً بالحاجة إلى "صداقة صادقة مخلصة"، وكان كل تأذيها من ابنتها ليزافتا نيقولايفنا أنها "لم تشأ أن تكون صديقةً" لأمها.

لم يخرج من جميع إفضاءاتها وإيضاحاتها إلّا شيء واحد جلي، هو أنه قد حدث خلاف فعلاً بين ليزا ونيقولاى. أما ما هو هذا الخلاف، فإن براسكوفيا إيفانوفنا لم تستطع أن تدركه حق إدراكه وأن تفهمه حق فهمه. وأما الاتهامات التي ألقتها على داريا بافلوفنا فإنها انتهت لا إلى العدول عنها فحسب، بل ألحت كذلك على فرفارا بتروفنا أن لا تكترث أي اكتراث بتلك الأقول التي خرجت من فمها في لحظة "غيظ". الخلاصة أن كلامها كله كان قليل الوضوح، بل كان فيه ما يشوِّش ويحيّر. هى ترى أن الخلاف ناشئ عن أن ليزا لها "طبع ساخر نزق شرس". ومن جهة أخرى فإن نيقولاي فسيفولودوفتش، لم يستطع لشدة كبريائه أن يحتمل تلك السخريات، فاصطنع لهجة ساخرة هو أيضاً، رغم الحب الشديد الذى يحمله لها. وأضافت براسكوفيا إيفانوفيا

تقـول: "وبعد قليل، تعرفنا بشـاب هو ابـن أخ صاحبك "الأسـتاذ" فيما أظن وهو يحمل نفس اسمه على كل حال...".

صححت فرفارا بتروفنا كلام صديقتها قائلة:

- بل هو ابنه لا ابن أخيه.

إن براسكوفيا إيفانوفنا لم تستطع في يوم من الأيام أن تحفظ اسم ستيفان تروفيموفتش، فكانت تسميه دائماً باسم "الأستاذ". قالت تسأل:

- هو ابنه؟ طيب. لا فرق. هو شـاب كسـائر الناس، شديد الحيوية منطلق السـلوك، ولكـن ليس له شـيء يميزه عن غيـره على و جه الإجمـال. إن ليزا هـي المذنبة في هذه المرة: فمن أجل أن تثير غيرة نيقولاي فسـيفولودوفتش لاطفت هذا الشـاب. إنني لا ألومها كثيراً، فهذا شـيء طبيعي في فتاة، بل هو شـيء محبب. ولكـن نيقولاي فسـيفولودوفتش، بدلاً من أن يغـار، عقد بينه وبيـن الشـاب صداقـة، ظاهـراً بمظهر من لا يكتـرث أو من لا يلاحظ شـيئاً. فاسـتعر حنق ليزا من ذلك طبعاً. وما لبث الشـاب أن سافر (كان على عَجَلة، لا أدري لماذا)، وأخذت ليزا تناكد نيقولاي فسـيفولودوفتش فى كل مناسبة. حتـى إذا لاحظـت أن نيقولاي يتحدث مع داشـا أحيانـاً ازداد أوار غيظها. يا لهـا من حيـاة! إن الأطباء يحظرون عليّ أن تثور أعصابي. ثم إن تلك البحيرة التي طالما كالوا لها المديح قد أخذت تزعجني أخيراً: أوجاع أسـنان، وآلام روماتيـزم، ذلك كل ما جنيته منهـا. يظهر أن هذا من خصائص بحيرة جنيف. إنها تهيء لأوجاع الأسنان. وها هو ذا نيقولاي فسيفولودوفتش يتلقى رسالة من الكونتيسـة. فسرعان ما أعد عدته للسـفر، ثم بارحنا في ذلك اليوم نفسه. علـى أنهما افترقا صديقين. حتى أن ليزا أظهرت، وهى تصحبه إلى المحطة، كثيـراً من المرح فكانت تضحك طول الوقـت. لكن ذلك لم يكن إلّا تمثيلاً. فما إن سـافر حتـى أصبحت حالمة شـاردة الفكـر، وكفت عـن الإتيان على ذكره تماماً، بل لقد منعتني من أن أمس هذا الموضوع. وإني لأنصحك، أنت أيضـاً، يا عزيزتي فرفـارا بتروفنا، بأن لا تتعرضي لهذه المسـألة مع ليزا، وإلا فيمكـن أن تفسـدي كل شـيء. أما إذا التزمـت الصمت فإنها سـتكون البادئة

بالحديث معك فى الأمر، فتستطيعين عندئذ أن تعلمي ما لا تعلمين. فى رأيي أنهما سوف يتصالحان، على شرط أن يصل نيقولاي فسيفولودوفتش بأقصى سرعة، كما وعد.

ـ سأكتب إليه فوراً. إذا كان كل شيء قد جرى كما تصفين، فعلاً يعدو الأمر أن يكون شقاقاً طارئاً ليس بذي بال. تلك كلها سخافات! ثم إننى أعرف داريا جيداً. سخافات!

ـ فيما يتعلق بداشا أعترف أنني أخطأت. لم تجر بينهما إلّا أحاديث تافهة مبتذلة، وكانا يتكلمان دائما بصوت مرتفع. ولكن تلك المشكلات كلها كانت قد أثارت أعصابي. ثم إنني قد رأيت أن ليزا عادت تعاملها بمودة وصداقة، كما كانت تفعل من قبل.

في ذلك اليوم نفسه كتبت فرفارا بتروفنا إلى نيقولاي فسيفولودوفتش ضارعة إليه أن يرجع قبل الموعد الذي حدّده لرجوعه ولو بشهر واحد. وكان هناك شيء ما يزال مع ذلك غير واضح لها في تلك الحكاية. فكّرت في الأمر طول السهرة والليل. إن رأي راسكوفيا إيفانوفنا يبدو لها بسيطاً مسرفاً في البساطة، عاطفياً مسرفاً في العاطفية. قالت تحدّث نفسها: "إن براسكوفيا تميل دائماً إلى العاطفيات، حتى منذ كانت في المدرسة الداخلية. ليس نيقولاي بالرجل الذي تهزمه سخريات طفلة. فإذا كان قد حدث شقاق بينهما فعلاً، فلا بد أن يكون هناك سبب آخر غير هذا تماماً. ومهما يكن من أمر، فإن ذلك الضابط هو هنا، اصطحبنه معهن وأقام في منزلهن بصفته قريباً. ثم إن براسكوفيا قد كفت عن مهاجمة داريا بسرعة: لا شك أنها كتمت في نفسها أشياء لم ترد أن تقولها لي..".

ما إن طلع الصباح حتى كانت فرفارا بتروفنا قد وضعت خطة يجب أن تتيح لها أن تحلّ واحدة، على الأقل، من المسائل التي أوقعتها في تلك الحيرة كلها وتلك البلبلة كلها، وهي خطة غريبة، غير منتظرة ولا متوقعة. ترة ما الذي كان في قرارة قلبها حين تصورت هذه الخطة؟ ذلك امر يصعب على المرء أن يعرفه، ولست أتحمل عبء توضيح التناقضات التي تشتمل عليها

تلك الخطة. إنني، بصفتي قاصاً، أقتصر على عرض الوقائع كما حدثت، بأكبر صدق ممكن وأكبر دقة ممكنة، فإذا لاح إنها غير معقولة فليس الذنب في ذلك ذنبي. يجب أن اشهد مرة أخرى مع ذلك أن شكوك فرفارا بتروفنا فيما يتعلق بداشا كانت قد تبددت تبدداً تاماً في الصباح. والحق أنها لم تأخذها مأخذ الجد في وقت من الأوقات، لأنها كانت عظيمة الثقة بربيبتها. ثم إنها كان يستحيل عليها أن تصدّق أن ابنها نيقولاي يمكن أن يعشق... داريا. وفي الصباح، بينما كانت داريا تسكب الشاي، تاملتها فرفارا بتروفنا طويلاً بانتباه شديد، فقالت لنفسها ربما للمرة العشرين منذ البارحة، قالت لنفسها بثقة واطمئنان: "تلك كلها سخافات!".

كل ما هناك أنها لاحظت أن داشا تبدو متعبة قليلاً وأنها تبدو كذلك أكثر صمتاً وأكثر برودة مما كانت من قبل. وبعد الشاي جلستا تطرزان، على عادتهما. فطلبت فرفارا بتروفنا من داريا أن تحدّثها عن رحلتها في الخارج، عن الطبيعة، والمدن، والسكان وعاداتهم، والفنون، والصناعة، وعن كل ما لاحظته. ولم تلق عليها سؤالاً واحداً عن آل دروزدوف وعن الحياة التي عاشتها مع هاته السيدات. وكانت داشا جالسة أمام منضدة صغيرة للشغل تتحدث بصوتها المتساوي، الرتيب، الضعيف، الذي يجري على وتيرة واحدة، فإذا بالسيدة تقاطعها فجأة بعد نصف ساعة من كلامها سائلة إياها:

- داريا، أليس لديك أي شيء خاص تريدين أن تفضي به إليّ؟

فأجابت الفتاة بعد لحظة تفكير وهي ترفع نحو فرفارا بتروفنا عينيها الواضحتين:

- لا، لا شيء البتة!

- لا في فكرك، ولا في قلبك، ولا في ضميرك؟

فكررت داشا تقول بصوت أجش، ولكن بنوع من تصميم متجهّم:

- لا شيء.

كنت أقدّر هذا. اعلمي يا داريا أنني لن يراودني أي شك فيك أبداً. والآن، كوني هادئة وأصغي إليّ. اجلسي على هذا الكرسي أمامي. أريد أن

أراك كلك. نعم... هكذا... اسمعي. هل تريدين أن تتزوجي؟

فألقت عليها داشا نظرة طويلة مستفهمة، ولكنها نظرة ليس فيها استغراب كبير. قالت فرفارا بتروفنا:

ـ انتظري. اسكتي. هناك فرق في السن، بل فرق كبير جداً. لكنك أعلم الناس بأن هذا أمر لا قيمة له. أنت عاقلة. وما ينبغي أن يكون في حياتك خطأ. ثم إنه رجل جميل على كل حال. الخلاصة أنه ستيفان تروفيموفتش الذي كنت دائماً تقدّرينه حق قدره. ما رأيك؟

ألقت داشا نظرة فيها مزيد من الاستفهام. وبدت عليها الدهشة في هذه المرة، حتى لقد احمرّ وجهها.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ انتظري. اسكتي. لا تستعجلي. رغم أنك تملكين بعض المال ـ لأنني خصصتك في وصيتي بمبلغ ـ فما عسى تصيرين إليه بعد موتي، ولو ملكت ذلك المال؟ سوف تُخدعين فيُسرق مالك، فإذا أنت تضيعين. أما إذا تزوجت فإنك تصبحين زوجة رجل معروف. وانظري إلى الجانب الآخر من الموقف: لقد كفلت له حياته، ولكن ما الذي سيحدث له إذا أنا توفيت؟ أما إذا كنت أنت معه، فإنني أكون واثقة مطمئنة. انتظري. لم انته من كلامي: إنه خفيف، متقلب، أناني، ولعله قاسٍ، وإن له عادات عامية مبتذلة، ولكن يجب عليك أن تقدّريه، ولكن هناك من أهم أسوا منه. إنك لا تتصورين طبعاً أنني أريد التخلص منك وتسليمك لوغد من الأوغاد، هه؟ لكنك ستقدرينه خاصة لأنني أطلب منك ذلك هل تسمعينني؟ ما بالك تعنّدين؟

كذلك قالت بلهجة حانقة.

وكانت داشا صامتة تصغي إلى كلامها. وأردفت فرفارا بتروفنا تقول:

ـ انتظري أيضاً. إنه يشبه امرأة عجوزاً. ولكن هذا أفضل لك. إنه يثير الشفقة في النفس. إنه غير جدير حتى بأن تحبه امرأة. لكنه يستحق أن يُحبّ لأنه أعزل من كل سلاح، ويجب عليك ان تحبيه لانه أعزل من كل سلاح. هل تفهمينني؟ أليس ما اقوله صحيحاً؟ هل تفهمينني؟

هزت داشا رأسها بحركة تعني الموافقة على كلام محدّثها. فقالت فرفارا بتروفنا تصيح بصوت حاد حدة غريبة:

ـ كنت واثقة بهذا. لم اكن أتوقع منك شيئاً آخر. سوف يحبك، لأنه يجب عليه أن يحبك، يجب عليه أن يحبك. سيكون عليه أن يعبدك عبادة، بل إنه سيهيم بحبك دون ان تتدخل فكرة الواجب. إنني اعرفه حق معرفته. ثم إنني سأكون موجودة. لا تقلقي. سأكون موجودة دائماً. سوف يتشكى منك، وسوف يغتابك ويشي بك، وسوف يبوح بأسراره لأول قادم، سوف يئن ويتوجع بغير انقطاع، وسوف يبعث إليك برسائل من غرفة إلى أخرى، رسالتين في يوم واحد، ولكنه لن يستطيع أن يعيش بدونك، وذلك هو الشيء الأساسي. توصلي إلى جعله طيّعاً. فإذا لم تتوصلي إلى ذلك كنتِ حمقاء لا أكثر: سوف يزعم لك أنه سيشنق نفسه، سوف يهددك، ولكن لا تصدقي شيئاً من ذلك. ما هذا كله إلّا هذر وثرثرة! لا تصدقي ما يقول. ومع ذلك عليك أن تكوني مفتّحة العينين دائماً: فقد يشنق نفسه. يمكن أن يتوقع المرء كل شيء من أمثال هذا الإنسان. إنهم يشنقون أنفسهم لا لأنهم أقوياء، بل لأنهم ضعفاء مسرفون في الضعف. لذلك ينبغي لك أن لا تستفزيه إلى آخر الحدود أبداً. تلك أولى القواعد التي يجب على المرأة أن تراعيها في معاملة زوجها. تذكري أيضاً انه شاعر. اسمعي يا داشا! ما من سعادة أعظم من السعادة التي يشعر بها الإنسان حين يضحّي بنفسه. ثم إنك ستسعدينني سعادة كبيرة، وهذا هو الشيء الأساسي. لا تتخيلي أن حماقة قد أفلتت من لساني الآن: إنني أعي ما أقول، وأدركه حق إدراكه. أنا أنانية، فكوني أنت أيضاً أنانية. لكنني لا أجبرك البتة. كل شيء رهن بإرادتك. افعلي ما يستقر عليه رأيك. فماذا؟ ما بالك تصمتين؟ تكلمي!

قالت داشا بصوت ثابت:

ـ إذا كان لا بد حتماً من أن أتزوج، فأنا موافقة يا فرفارا بتروفنا. يستوي عندي...

سالتها فرفارا بتروفنا بلهجة قاسية وهي تلقي عليها نظرة فاحصة:

ـ إذا كان لا بد حتماً؟ إلى ماذا تلمّحين؟

صمتت داريا وهي تغرز إبرتها في نسيجها الذي تطرزه.

قالت فرفارا بتروفنا:

أنت ذكية، ولكن أفلتت منك الآن جملة سخيفة. صحيح أنني أحرص حرصاً مطلقاً على تزويجك. ولكن هذا لا يرجع إلى ضرورة، وإنما هو فكرة وافتني. ولن أزوّجك إلّا ستيفان تروفيموفتش. فلولا أن هناك ستيفان تروفيموفتش لما خطر ببالي أن ازوّجك أحداً، رغم أنك بلغت العشرين من العمر. هيه، ما رأيك؟

ـ سأفعل ما تشائين يا فرفارا بتروفنا.

ـ إذن توافقين. انتظري. اسكتي. لا تستعجلي. لم أنته بعد: لقد خصّصتك في وصيتي بخمسة عشر ألف روبل، لكنني ساعطيك المبلغ منذ الآن، بعد الزفاف فوراً. سوف تعطينه من هذا المبلغ ثمانية آلاف روبل. لا، لن تعطيه هو، بل تعطينني أنا. إنه مدين بثمانية آلاف روبل سوف أتولى سدادها عنه. ولكن يجب أن يعلم أنني أسدّدها من أموالك أنت. واحتفظي بالآلاف السبعة التي ستبقى لك. لا تعطه منها شيئاً البتة. ولا يخطر ببالك يوماً أن تسدّدي عنه ديناً. فلو فعلت ذلك ولو مرة واحدة لتقاطرت عليك المضايقات من كل جهة. على كل حال، سوف أكون موجودة. وسوف أكفل نفقات معيشتك، ألفاً ومائتي روبل في السنة، بل ألفاً وخمسمائة روبل، عدا النفقات الطارئة، وسأكفل المسكن والطعام، كما أفعل له الآن. ولكن ستدفعين أنت أجر الخادمة. سأدفع المعاش السنوي مرة واحدة، أضعه بين يديك أنت. ولكن كوني طيبة: أعطه شيئاً من حين إلى حين، واسمحي له أن يستقبل أصدقاءه مرة في الأسبوع. فإذا جاؤوا أكثر من ذلك، اطرديهم. سأكون موجودة على كل حال. وإذا مت فإن المعاش السنوي سيظل يُدفع لك إلى أن يموت، هل تفهمين؟ إلى أن يموت "هو". ذلك إن هذا المعاش ليس لك، بل له. أما أنت فبالإضافة إلى السبعة آلاف روبل التي ستأخذينها الآن والتي ستحافظين عليها إذا لم تكوني حمقاء، سوف أخصّك في وصيتي بثمانية آلاف روبل.

ولكن لا تنتظري مني شيئاً آخر. اعلمي هذا. هل توافقين؟ هلّا اجبتني اخيراً؟

ـ لقد أجبتك يا فرفارا بتروفنا.

ـ تذكري أنك حرة تماماً، تفعلين ما تشائين.

ـ ولكن اسمحي لي يا فرفارا بتروفنا: هل سبق أن كلّمك ستيفان تروفيموفتش في هذا الموضوع؟

ـ لا، لم يقل لي شيئاً، حتى أنه لا يعلم شيئاً، ولكن انتظري قليلاً. سوف يتكلم.

ونهضت فرفارا بتروفنا فجأة، ووضعت على كتفيها شالها الأسود. فاحمرّ وجه داشا من جديد وهي تتابعها بنظرة مستفهمة. والتفتت فرفارا بتروفنا نحو ربيبتها فجأة، وقد تخضّب وجهها بحمرة شديدة من فرط الغضب، وانقضّت عليها انقضاض الصقر تقول صائحة:

ـ أنت حمقاء! حمقاء وعقوق! ما هي الفكرة التي خطرت ببالك؟ أتتصورين أنني يمكن أن أعرّضك لمهانة مهما تصغر؟ إلّا أنه هو الذي سيزحف على ركبتيه زحفاً طالباً يدك. يجب أن تعلمي أنني لا أرضى قط أن تُهاني. أم تراك تتخيلين أنه سيتزوجك من أجل الثمانية آلاف روبل، وأنني سأركض إليه الآن لأبيعه إياك؟ حمقاء! حمقاء! أنتنّ جميعاً حمقاوات عاقّات! ناوليني مظلتي!

وأسرعت إلى عند ستيفان تروفيموفتش سيراً على قدميها، سالكة الأرصفة الرطبة والجسور الخشبية المبتلة.

7

صدقت فرفارا بتروفنا: ما كان لها أن تطيق أن تُهان داريا أية إهانة، وهي في هذه اللحظة خاصة تعد نفسها إليها المحسنة المنعمة عليها. لذلك ثار في نفسها أنقى استياء وأنبل استياء حين لاحظت أثناء وضعها شالها على كتفيها نظرة قلق وريبة لدى الفتاة. إن فرفارا بتروفنا قد أحبت داشا دائماً أصدق الحب، ومن أجل هذا إنما وصفتها لها براسكوفيا إيفانوفنا حين

حدّثتهـا عنها بأنـك "أثيرتها". كانت فرفارا بتروفنا قد استقر رأيها استقراراً حاسماً علـى أن طبع داريا لا يشـبه في شـيء طبـع أخيها (إيفان شـاتوف)، وعلـى "أنها فتـاة هادئة رقيقة عذبة قـادرة على التضحية مخلصـة، متواضعة إلـى أقصى حـدود التواضـع، عاقلة حصيفـة الـرأي، زاخرة النفس بالشـكر والامتنـان خاصة". وقد جاء سـلوك داشـا حتى الآن مصدّقاً لما اسـتقر عليه رأي فرفـارا بتروفنـا. لقد قالت فرفارا بتروفنا مرة حيـن كانت الفتاة في الثانية عشـرة مـن عمرها: "لن يكـون في حياة هـذه الفتاة أخطـاء". وإذا كانت هذه السـيدة تتشبث تشبثاً عنيداً جارفاً بكل مشـروع أو كل حلم أو كل رأي يفتنها فقـد قـرّرت على الفور أن تربي داشـا كأنها ابنتها. فسـرعان ما خصّتها برأس مال، واستقدمت لها مربية هي مس كريجز التي ظلت في البيت إلى أن بلغت الفتاة السـنة السادسـة عشـرة من عمرها، ثم صُرفت الانكليزية مشـكورة في ذات يوم على حين فجأة، لا يدري أحد لماذا! وأخذت فرفارا بتروفنا تكلّف بإعطاء دروس لربيبتها أساتذة من أساتذة المدارس الثانوية كان بينهم فرنسي أصيـل. وهذا أيضاً صُرف بغتة بما يشـبه الطرد. وقامت بإعطاء دروس للفتاة في العزف على البيانو أرملة فقيرة تنتمي إلى أسـرة نبيلة، وتقيم بمدينتنا إقامة عابرة. غير أن الأستاذ الرئيسي الذي علّم الفتاة إنما هو ستيفان تروفيموفتش. والحق أنه هو أول من اكتشـف داشـا. فـكان يُعنى بتعليم الفتـاة حتى قبل أن تنتبـه إليهـا فرفـارا بتروفنا أي انتبـاه. أعود فأقـول: إن الأطفال كانـوا يحبون سـتيفان تروفيموفتش حباً خاصـاً. وقد عملت معه ليزافتا نيقولايفنا توشـين منذ سـنتها الثانية حتى سنتها الحادية عشرة (وكانت الدروس بالمجان طبعاً، فمـا كان له بحال من الأحوال أن يقبل أن يتقاضى من السـيدة دروزدوف أي مكافـأة). كان هو نفسـه يعبد تلـك الطفلة الفاتنة ويروي لها تاريخ الإنسـانية في صورة قصص، ويحكي لها كيف نشـأ الكـون وتطوّرت الأرض. وكانت دروسـه عن الإنسـان البدائي والشـعوب المتوحشـة تخلب الألباب أكثر من الحكايـات العربية نفسـها. فكانت ليزا تفرح بأقاصيصه أشـد الفرح. ولكنها متى خلت إلى نفسها في البيت شرعت تقلده تقليداً مضحكاً إلى أبعد حدود

الإضحـاك. وقد فاجأها سـتيفان تروفيموفتش على هـذه الحال في ذات مرة علـى حين بغتة، فمـا كان منها إلّا أن ارتمت بين ذراعيه باكية. وقد أخذ يبكي هـو أيضـاً، ولكنه بكـى حنانـاً وحباً. فلما سـافرت ليـزا لم يبق له مـن تلميذ إلّا داشـا، حتـى إذا عُهد بتعليمها إلى أسـاتذة من المـدارس الثانوية قطع هو دروسـه، ثم انتهى اهتمامه بعد ذلك بالفتاة انتهاء تاماً. وانقضت السـنون فإذا هـو يلاحظ فجأة فـي ذات يوم ـ بينمـا كان على المائدة عند فرفـارا بتروفنا ـ ما تتمتع به الصبية من فتنة وقد بلغت السـابعة عشـرة. فأخذ يكلمها، ورضي كل الرضـا عـن أجوبتها، واقتـرح عليها أخيـراً أن يعطيها دروسـاً مفصّلة في تاريخ الأدب الروسـي، فشـكرت له فرفارا بتروفنا هذه الفكرة. أما داشـا فقد سُرّت أعظم السرور وافتتنت افتتاناً وأعدّ ستيفان تروفيموفتش دروسه بعناية خاصة جداً، وكان درسه الذي وقفه على أقدم عهد من العهود شائقاً إلى أبعد الحـدود. ولكن حين أبلغ سـتيفان تلميذته في نهاية الدرس انه سـيتناول في المـرة القادمة "حملة إيجور"[1]، نهضت فرفـارا بتروفنا فجأة وأعلنت أن هذا الـدرس هو الأخير. فصعّر سـتيفان تروفيموفتش وجهـه، لكنه لزم الصمت. واحمرّت داشـا احمراراً شـديداً. وقفت الأمور عند ذلـك الحد. لقد حدثت هذه القصة منذ ثلاث سنين تماماً.

كان سـتيفان تروفيموفتش المسـكين وحيداً، وكان لا يتوقع شيئاً. إنه كان غارقاً في أحلام كئيبة، ينظر من النافذة بين الفينة والفينة عسى أن يجيئه زائر. ولكـن ما مـن أحد يأتي. وكان يتسـاقط على الأرض في الخـارج رذاذ مطر، وكان البرد في بدايته، فكان ينبغي إشعال المدفأة. تنهد ستيفان تروفيموفتش. وإنـه لكذلـك إذا هو يـرى أمامه ما بثّ الرعب في نفسـه: إنها فرفـارا بتروفنا قد جاءته في مثل هذا الجو الماطر البارد، سـائرة على القدمين أيضاً!... بلغ

(1) "حملة إيجور": إن القصيدة الروسية التي يرجع عهدها إلى القرن الثاني عشر والتي تصور حملة الأمير إيجور دي سيفيريا على القومانيين سنة 1185 هي من أجمل القصائد الغنائية الوطنية الملحمية الروسية. وقد استخرج منها المؤلف الموسيقي بورودين موضوعاً للأوبرا التي وضعها بعنوان "الأمير إيجور". أمّا الجنرالة ستافروجين فكانت تعد هذا الأثر من آثار القرون الوسطى باعثاً على الملل والضجر.

ستيفان تروفيموفتش من الدهشة أنه نسي أن يبادر إلى تغيير ملبسه، فاستقبلها كما هو، بصديرته المعتادة، الوردية اللون، المبطنة بالقطن.

هتف يقول بصوت ضعيف وهو يتقدم للقائها:

ـ "صديقتي الطيبة!..." (بالفرنسية).

ـ أنت وحيد، يسعدني هذا. إنني أكره أصدقاءك. ما أكثر ما تدخّن! رباه! ما أفسد هذا الهواء! لم تشرب الشاي حتى الآن والساعة قد تجاوزت الحادية عشرة. إنك تسعد بالفوضى ولا تجد لذة إلّا في القذارة. ما قطع الأوراق الممزقة هذه التي تتناثر على أرض الغرفة؟ ناستاسيا، ناستاسيا! ماذا تفعل خادمتك ناستساسيا؟ افتحي النوافذ، يا عزيزتي، والأبواب والطاقات، افتحي كل شيء إلى آخر مداه! وبانتظار أن تفعلي ذلك سننتقل إلى الصالون. لقد جئت لعمل. هلّا كنست قليلاً ولو مرة واحدة في حياتك يا عزيزي!

صرخت ناستاسيا تقول بصوت شاك غاضب في آن واحد:

ـ سيدي يوسّخ طوال الوقت!

ـ وظيفتك أن تكنّسي، ولو خمس عشرة في اليوم إذا لزم الأمر.

ثم أضافت تخاطب ستيفان تروفيموفتش وهي تدخل إلى الصالون:

ما أبشع صالونك. أغلق الباب جيداً فقد تتجسّس ناستاسيا علينا. يجب تغيير ورق الجدران هذا حتماً. لقد بعثت إليك بعامل مختص مع عيّنات، فلماذا لم تختر شيئاً؟ اجلس، وأصغ إلى كلامي. اجلس، أرجوك! إلى أين أنت ذاهب؟ إلى اين أنت تمضي؟

فصاح ستيفان تروفيموفتش يجيبها من الغرفة المجاورة:

ـ سوف... سوف أرجع حالاً.

وسرعان ما عاد بعد أن غير ملبسه وقال:

ـ ها أنذا رجعت.

قالت وهي تفحصه ساخرة:

ـ آ... غيّرت ملبسك! حقاً إن هذا الرداء يناسب طبيعة حديثنا أكثر. اجلس، تفضل اجلس.

وكان ستيفان تروفيموفتش قد ارتدى فوق صدرته ردنجوتاً.

شـرحت له فرفارا بتروفنا القضية كلها دفعة واحدة، بلهجة قاطعة مقنعة. فأشـارت إلـى الثمانيـة آلاف روبـل التـي كان فـي حاجـة مسـتعجلة إليهـا، وفصّلـت القول في مسـألة المهر أيضـاً. فكان سـتيفان تروفيموفتش يحملق بعينيه ويرتعش في داخله. كان يسـمع ما تقوله سـمعاً جيـداً، ولكنه لا يفهمه فهمـاً واضحـاً. وأراد أن يتكلم لكن صوته اختنق في حلقـه. إنه لا يعرف إلّا شـيئاً واحداً هو أن كل شـيء سوف يتم على نحو ما تقول فرفارا بتروفنا، وأن الجدال والرفض جهد ضائع، وأنه سيتزوج لا محالة.

قـال أخيراً: "ولكـن يا صديقتـي الطيبة" (بالفرنسـية) أللمـرة الثالثة وفي سنّي... ثم مع طفلة كهذه الطفلة؟ "إنها طفلة" (بالفرنسية).

ـ طفلـة في العشـرين من عمرهـا ولله الحمد. لا تجـل بنظرك على هذا النحـو. ما أنت فوق مسـرح. أنت ذكـي جداً وأنت عالـم، لكنك لا تفهم من شـؤون الحياة شـيئاً. إنك في حاجة إلى خادمة تكون بقربك على الدوام. ما عسـى تصيـر إليه بعد موتـي؟ إنها هي التي سـتكون خادمتـك، وإنها لخادمة ممتـازة. هي فتـاة متواضعة، ثابتة، عاقلة. ثم إنني سـوف أكـون موجودة. لن أمـوت فـوراً. إنهـا تحب ان تعيش حياة اسـرة، وإنهـا في رقّتهـا كملاك. لقد وافتنـي هـذه الفكرة الموفقة وأنا في سويسـرا! هل تفهم حيـن أقول لك أنها في رقّتها كملاك؟

بهذا صاحت فرفارا بتروفنا غاضبة على حين فجأة. وتابعت كلامها تقول:

ـ إن بيتك تسـوده القذارة والوساخة، فستأتيك هي بالترتيب والنظافة فإذا بمنزلـك يلمـع كمرآة... هيه! أتراك تتخيل أنني سـأضرع إليـك أن تقبل كنزاً كهـذا وأنا أنحني لك إجلالاً، وأعدّد لـك جميع المزايا والفوائد، وأفعل كما تفعـل خاطبة؟ ألا إنك أنت الذي يجب أن تتوسـل إلـيّ راكعاً على ركبتيك! يالك من رجل طائش جبان!

ـ لكنني عجوز...

ـ إن سـنك ثلاثـة وخمسـون عامـاً. مـا ثلاثـة وخمسـون عاماً؟ ليسـت

الخمسون نهاية الحياة بل وسطها. وإنك رجل جميل. أنت نفسك تعرف هذا. وتعرف أيضاً أنها تقدّرك حق قدرك. ما عسى تصير هي إليه بعد موتي؟ لعلها تكون معك هادئة البال، وسوف أكون أنا هادئة البال قريرة العين. إن لك مركزاً، وإسماً، وقلباً محباً. سوف تستمر على قبض المعاش الذي أرى أن من واجبي أن أقدّمه إليك. قد تكون أنت منقذها، نعم، سوف تكون منقذها. وعلى كل حال، سوف يكون هذا شرفاً لها. سوف تتولى تهذيب طبعها، وإغناء قلبها، وتوجيه عقلها وفكرها. ما اكثر الذين يهلكون في هذا الزامن لأن أحداً لم يحسن توجيههم! وإلى ذلك الحين تكون قد فرغت من تاليف كتابك، وتذيع شهرتك ويتحدث عنك الناس من جديد.

تمتم ستيفان تروفيموفتش وقد أثّر فيه هذا المديح الذي تزجيه له فرفارا بتروفنا:

ـ نعم، لقد فكرت فعلاً في الشروع في تأليف كتابي "أقاصيص من تاريخ إسبانيا"[1].

ـ أرأيت؟ لقد جاء الأمر في حينه.

ـ ولكن... ما قولها هي؟ هل كلّمتها؟

ـ لا يقلقنّك هذا الأمر. ولا تسرف في الفضول. سوف يكون عليك طبعاً ان تطلب منها وأن تضرع إليها أن توليك هذا الشرف. هل فهمت؟ ولكن لا تقلق. سأكون موجودة. ثم إنك تحبها...

شعر ستيفان تروفيموفتش بدوار. أخذت الجدران تهتز حوله. إن خاطرة رهيبة قد ساورت فكره واستولت عليه فهو لا يستطيع السيطرة عليها والتحكم فيها.

قال بصوت مرتجف: "صديقتي العظيمة" (بالفرنسية)... إنني... إنني... ما كنت لأتخيّل أن تقرري أن تزوّجيني أخرى... أن تزوّجيني امرأة أخرى...

فأجابته فرفارا بتروفنا قائلة بصوت مسموع:

---

(1) هذه نقطة تقوي التشابه أو التوازي بين فرخوفنسكي وبين الأستاذ خرانوفسكي الذي نشر سنة 1854 بحثاً بعنوان: "الملحمة الإسبانية".

ـ ما أنت بفتاة يا ستيفان تروفيموفتش. الناس لا يزوّجون إلّا الفتيات. أما أنت فإنك تزوّج نفسك بنفسك.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يثبت عليها نظرة زائغة: "نعم، استعملت كلمة بدلاً من كلمة أخرى... ولكن... سيان عندي..." (بالفرنسية).

قالت له باحتقار:

ـ أرى فعلاً أن الأمرين عندك سيّان.

ثم صاحت تقول مستنجدة على حين فجأة:

ـ رباه! لقد أغمي عليه! ناستاسيا، ناستاسيا! هاتي ماء!

لكنه لم يكن بحاجة إلى ماء. فقد عاد إليه وعيه. وتناولت فرفارا بتروفنا مظلتها وقالت:

ـ أرى أن ليس هذا أوان التحدّث إليك في كل هذا...

ـ نعم، نعم، إنني عاجز عن...

ـ لكنك ستكون في الغد قد ارتحت وفكرت. ابقَ في البيت. وإذا حدث شيء فابلغني ولو في الليل. ولكن لا تبعث إليّ برسائل، فالرسائل لن اقرأها. غداً، في مثل هذه الساعة تماماً سأجيء لأحصل على جوابك النهائي الذي أرجو أن يكون مرضياً. وافعل ما يجب حتى نكون وحيدين، وليكن البيت نظيفاً. انظر، انظر إلى هذه الوساخة كلها! ناستاسيا، ناستاسيا!

وجاءته في الغد، فوافق طبعاً. كان يستحيل عليه ألا يوافق. لقد كان ثمة ظرف خاص جداً.

8

إن الأرض التي كانت تسمى عندنا أملاك ستيفان تروفيموفتش (وهي تجاور سكفورشنيكي وتقدّر بنحو خمسين، "نفساً" كما كان يقال في الماضي) كانت في الواقع ملكاً لزوجته الأولى، وصارت إذن ملكاً لابنها بطرس ستيفانوفيتش فرخوفنسكي. أمّا ستيفان تروفيموفتش فقد أدارها كَوَصي على الابن، حتى إذا بلغ الابن رشده أناب عنه أباه في إدارتها بتوكيل

رسـمي. وكان هـذا الإجراء مفيداً للشـاب فهو يتلقى من أبيـه ألف روبل في السـنة عـن أرض أصبحت منذ تحريـر الفلاحين لا تغل إلّا خمسـمائة روبل (وربمـا أقل من ذلك أيضاً). أمّـا كيف تم اتفاق كهذا، فذلك أمر لا يعلمه إلّا الله! على أنَّ الألف من الروبلات إنما كانت ترسـلها فرفارا بتروفنا كل سنة، دون أن يشـارك سـتيفان تروفيموفيتش في دفع كوبك واحد. لقد كان يحتفظ بإيـرادات الأرض، حتـى لقـد انتهى به الأمر إلـى تخريبها تمامـاً: فقد أكراها لرجلٍ من رجال الصناعة وباع أخشـاب غابتهـا جزءاً بعد جزء، دون أن تعلم بذلك فرفارا بتروفنا، وكانت أخشـابها هذه هي التي تشكل قيمتها الأساسية. وكان في وسـعه أن يجني ثمن هذه الأخشـاب ثمانيـة آلاف روبل، ولكنه لم يحصـل فـي الواقع إلّا على خمسـة آلاف. غير أنه كان يتفق له أن يخسـر في النـادي مبالغ تبلغ من الضخامة أنه يخشـى أن يسـتعين في سـدادها بفرفارا بتروفنـا. فلمّـا علمت فرفـارا بتروفنا بالأمر أخيراً، صرّت بأسـنانها من شـدة الغضب. وهذا هو بطرس ستيفانوفتش يبلغ أباه أنه سيصل إلى مدينتنا ليتولى بنفسـه بيع أرضه، ويكلف أباه بأن يجد له مشـترياً في أقرب وقت ممكن. وإذ إن سـتيفان تروفيموفتـش رجل نبيـل كريم منزّه عـن المنفعة فقد شـعر طبعاً بحرج كبير وارتباك شديد تجاه "هذا الابن الغالي" (بالفرنسية) (لقد رآه آخر مرة قبل تسـع سـنوات في بطرسـبرج، حين كان الشـاب مايزال طالباً. كانت الأرض في البداية يمكن أن يقدَّر ثمنها بثلاثة عشر ألف روبل أو بأربعة عشر ألف. أمّا الآن فيصعب إيجاد مشـترٍ لها بخمسسـة آلاف. صحيح أن سـتيفان تروفيموفتش كان يملك كل الحق في بيع الغابة بحكم التوكيل الرسمي. كما أنه إذا أدخل في حسابه أن مبلغ الألف روبل الذي كان يُدفع لابنه كلَّ سنة في موعده كان مبلغاً ضخماً يفوق ما يسـتحقه الابن، فإن في إمكانه أن يعدَّ نفسه بـريء الذمـة تجاه ابنه. ولكـن سـتيفان تروفيموفتش رجل نبيـل الطبع عالي النفـس. لذلك خطـرت بباله فكرة بدت لـه جميلة جداً، وهـي أن يضع على المائدة أمام ابنه أكبر مبلغ يمكن أن يأمل المرء أن تباع به الأرض، أي خمسة عشـر ألف روبل، ثم دون أن يشـير أية إشـارة إلى المبالغ المرسلة حتى ذلك

الحين، يضم "هذا الابن الغالي" (بالفرنسية) إلى صدره ضماً قوياً، دامع العينين، وينهي بذلك كل حساب. حتى لقد شرع في وصف المشهد لفرفارا بتروفنا، ولكن بشيء من الحذر وبعبارات فيها تلميح جعلها تستشف منها أن عملاً كهذا العمل سوف يضفي طابعاً خاصاً على الصداقة التي تربطهما و"الفكرة" التي تجمع بينهما، وسوف يظهر الترفع عن المنفعة وعظمة النفس لدى "الآباء"، ولدى الجيل القديم عامة بالقياس إلى ما تتصف به الشبيبة المولعة بالاشتراكية من خفة وطيش. وقد قال لها أشياء أخرى كثيرة أيضاً، ولكن فرفارا بتروفنا أهملت الحديث وأشاحت عنه، ومع ذلك أعلنت له أخيراً بخشونة أنها مستعدة لأن تشتري الأرض وأنها ستدفع ثمنها الحد الأقصى الذي تستحقه، أي سبعة آلاف روبل أو ثمانية آلاف (والواقع أن من الممكن شراؤها بأربعة آلاف)، أمّا عن الثمانية آلاف التي أضاعها ببيع الأخشاب فإنها لم تنبس بكلمة واحدة.

حدث ذلك قبل مشروع الزواج بشهر. وقد ذُهل ستيفان تروفيموفتش من جواب صديقته وبقي مضطرباً اضطراباً شديداً. لقد كان من الممكن في الماضي أن يأمل أن لا يجيء الفتى (حين أقول "يؤمل" فإنني أستعمل كلمة يمكن أن يستعملها غريب، لأن ستيفان تروفيموفتش من حيث هو أب، ما كان له إلّا أن يرفض تصور مثل هذا الأمل مستاءً). ولقد كانت الشائعات التي تصل إلينا عن بتروشكا[1] عجيبة. فقيل إنه بعد أن أنهى دراسته (منذ ست سنين)، عاش ببطرسبرج حياة فراغ، ثم علمنا فجأةً أنه شارك في نشر نداء ثوري، وأن القضاء أخذ يلاحقه فوراً. ثم عرفنا أنه قد أقام في الخارج، في سويسرا، بجنيف، فأدركنا أنه هرب.

كان ستيفان تروفيموفتش يقول لنا في ذلك الوقت متحيراً أشد التحير:

- إنني لمستغرب حقاً. إن بتروشا "دماغ فقير" (بالفرنسية). صحيح أنه طيب، وشهم، وحساس جداً. وما كان أسعدني في بطرسبرج حين كنت

(1) "بتروشكا": تصغير اسم بطرس تحبباً وتدليلاً.

أقارنه بغيره من الشباب. ولكنه "دماغ فقير جداً مع ذلك!" (بالفرنسية). الحق أن مرد هذا كله إلى ذلك النقص في النضج، إلى تلك العاطفية نفسها. إن الشيء الذي يخلب ألبابهم في الاشتراكية إنما هو جانبها العاطفي، المثالي، وليس واقعيتها. إن الشيء الذي يغتنم فيها هو نوع من الروح الشعرية، نوع من الروح الدينية إن صح التعبير، وهم لا يعرفونها إلّا سماعاً. ولكن انظروا إلى المأزق الذي يضعني فيه. إن لي هنا أعداء، و "هناك" لي أعداء أكثر. ولسوف ينسبون أخطاءه إلى التأثير السيء الذي يحدثه أبوه فيه. رباه! أبتروشا يصبح زعيماً؟ في أي زمان نعيش؟

ولكن بتروشا لم يلبث أن أرسل عنوانه بسويسرا، حتى لا ينقطع إرسال معاشه إليه: إنه لم يهاجر تماماً. وهاهو ذا الآن يعود إلى بلاده، بعد إقامة أربع سنين في الخارج، ويبلغنا أنه واصل قريباً. إذن ليس هناك أي اتهام موجه إليه. حتى لكأن ثمة أحداً يهتم به ويحميه. إنه يكتب الآن من جنوب روسيا، حيث ذهب لشأن هام جداً لكنه خاص. هذا كله حسن. ولكن من أين يؤتى بالسبعة آلاف أو الثمانية آلاف روبل لإكمال المبلغ الذي كان ستيفان تروفيموفتش يريد أن يقدمه لابنه؟ إن شيئاً ما يلقى في نفس ستيفان تروفيموفتش أن بتروشا الحساس سوف يدافع عن مصالحه دفاعاً قوياً وسوف يطالب بالمبلغ مطالبةً عنيفة. قال لي ستيفان تروفيموفتش يوماً: "لقد لاحظت أن جميع هؤلاء الاشتراكيين المسعورين وهؤلاء الشيوعيين هم في الوقت نفسه أناس بخلاء، وأن نفوسهم نفوس رجال يحبون الكسب والربح، نفوس مالكين، فعلى قدر ما يُظهرون من التمسك بالاشتراكية يكونون نهمين شرهين. ما مصدر هذا؟ أيكون نتيجةً لعاطفيتهم أيضاً؟". لا أدري هذه الملاحظة صادقة أم هي غير صادقة لكنني أعرف أن بتروشكا كان قد علم ببيع أخشاب الغابة وعلى علم بأشياء أخرى أيضاً. وكان ستيفان تروفيموفتش يعلم أن ابنه عالم بالحال. ولقد اتفق لي أن قرأت رسائل بتروشا إلى أبيه. كان لا يكتب إليه إلّا نادراً، مرة في السنة، أو أقلَّ من ذلك أيضاً. ولكنه في الآونة الأخيرة، بعد أن أبلغ عن وصوله، بعث رسالتين متتاليتين، كانتا قصيرتين جافتين على عهدنا

به، وكانتا لا تشتملان إلّا على تعليمات. وكان الأب والابن يتخاطبان بصيغة المفرد دون كلفة، منذ أن كانا ببطرسبرج، وذلك جرياً على "الموضة"، فكانت رسائل بتروشا أشبه بالمكاتيب التي كان السادة في الزمان القديم يبعثونها إلى أقنانهم المكلَّفين بإدارة أموالهم.

ها هي ذي الثمانية آلاف روبل التي يجب أن تذلل كل مصاعب ستيفان تروفيموفتش وأن تحل كل مشكلاته، ها هي تهبط عليه من السماء فجأة بفضل العرض الذي قدمته فرفارا بتروفنا، حتى أن فرفارا بتروفنا قد أفهمته بوضوح أن المبلغ لن يهبط من السماء إلّا على هذا الشرط. وقد قبل ستيفان تروفيموقتش عرضها طبعاً.

وقد أرسل يستدعيني بعد انصراف صديقته فوراً، وحرص على إيصاد بابه دون سائر أصدقائه طوال النهار. وبكى أمامي قليلاً بطبيعة الحال، وأفاض في الكلام و أجاد، مرتبكاً مع ذلك من حين الي حين، وألقى نكتة قائمة على الجناس مصادفة، فسُرَّ بها سروراً عظيماً، ثم وافته نوبة مغص خفيفة. الخلاصة أن كل شيء جرى وفقاً للقواعد والأصول. وفي النهاية، استل من أحد الأدراج صورة زوجته الألمانية الحبيبة التى توفيت منذ عشرين عاماً، وأخذ يخاطبها بلهجة شاكية: "هل ستغفرين لي ؟". كان يبدو على وجه العموم ضائعاً كل الضياع. ومن أجل أن نسرِّي عن نفسينا شربنا زجاجة خمرة، ثم لم يلبث أن نام نوماً عميقاً. وفي صباح الغد، عقد ربطة عنقه عقداً فنياً، وعني بهندامه عناية كبيرة، متوقفاً أمام المرآة مراراً ومراراً. وقد عطَّر منديله، عطَّره خفيةً، ولكنه ما إن رأى فرفارا بتروفنا من النافذة حتى أسرع يأخذ منديلاً آخر، وأخفى المنديل الأول تحت الوسادة.

قالت فرفارا بتروفنا محبذةً حين أعلن لها موافقته:

- عظيم. إنك بهذا تتخذ قراراً نبيلاً. ذلك من جهة أولى. ومن جهة ثانية تسمع صوت العقل الذي قلّما تكترث به حين يتصل الأمر بشؤونك الشخصية.

ثم أضافت تقول وهي تنظر إلى عقدة ربطة عنقه البيضاء:

ـ على كل حال، لا داعي إلى السرعة. احفظ السر الآن، وسوف أصمت أنا أيضاً فلا أقول شيئاً. في القريب يحين عيد ميلادك، فأصطحبها معي. سوف تقيم حفلة شاي في المساء. ولكن أرجوك. لا خمر ولا مقبِّلات. على أنني سأتولى تدبير هذا كله بنفسي. ادعُ أصدقاءك. سنشترك أنا وأنت في اختيار من سندعوهم. وقبل الحفلة بيوم تُجري حديثاً بينك وبينها إذا لزم الأمر. وفي أثناء السهرة نلمح أنا وأنت إلى الزواج تلميحاً دون أن نعلنه إعلاناً رسمياً. وبعد ذلك، بعد خمسة عشر يوماً، نحتفل بالزفاف احتفالاً متواضعاً إلى أبعد حدٍ ممكن... فإذا انتهى الاحتفال كان في إمكانكما أن تسافرا معاً إلى مكان ما، إلى موسكو مثلاً. وقد أصحبكما... وإنما الشيء الأساسي الآن هو أن لا تقول لأحد شيئاً.

دهش ستيفان تروفيموفتش. وحاول أن يبيِّن لصديقه أنه لا يمكنه أن يتصرف على هذا النحو، فلا بد له من حديث مع خطيبته، ولكن فرفارا بتروفنا غضبت فجأة وقاطعته غاضبة تقول:

ـ ما حاجتك إلى التحدث معها؟ أولاً، من الممكن أن لا يتم الأمر...

فدمدم الخطيب يقول مذهولاً:

ـ كيف هذا؟

ـ نعم، سوف أرى. على أن كل شيء سيتم على نحو ما قلت لك. لا تقلق. سوف أهيء داشا. لا حاجة بك إلى التدخل في هذا. سيُقال وسيُفعل كل ما يجب أن يُقال وأن يُفعل. ليس هذا شأنك. لماذا تهتم بهذا الأمر؟ ما عسى يكون دورك فيه؟ لا تجيء إليَّ ولا تكتب. تظاهر بأنك لا تعرف شيئاً، أرجوك. وسأصمت أنا أيضاً.

هكذا رفضت فرفارا بتروفنا أن تفصح عما بنفسها، وخرجت مضطربة اضطراباً واضحاً. لكأن موافقة ستيفان تروفيموفتش بهذه السرعة الكبيرة قد شدهتها. وا أسفاه! لقد كان ستيفان تروفيموفتش لا يعرف الوضع الذي هو فيه، وما يزال لا يميز بعض جوانب المسألة. بالعكس: لقد لاحظتُ لديه نبرة جديدة فيها استعلاء واستخفاف. إنه يصطنع التكبّر. لقد هتف يقول لي ذات مرة وقد وقف أمامي رافعاً ذراعيه إلى السماء:

ـ يعجبني هذا. هل سمعت؟ سوف تفعل ما من شأنه أن يجعلني أرفض في آخر الأمر. إن من الممكن أن ينفد صبري أنا أيضاً... فأقول لا. "ابق في بيتك، ليس هذا شأنك". ولكن لماذا يجب أن أتزوج حتماً؟ ألأن هواها شاء ذلك لا أكثر؟ ولكنني رجل جاد، ويمكنني أن أرفض الخضوع لنزوات سخيفة تقوم في نفس امرأة شاذة! إن عليَّ واجبات نحو ابني... نحو نفسي. إنني أضحي. ألا تفهم هي هذا؟ لعلني إنما وافقت لضجري من الحياة ولأن الأمور عندي سواء. لكنها ستثير حنقي في النهاية إلى حيث لا تستوي عندي الأمور، فأغضب وأرفض. " ثم إن المسألة مضحكة... (بالفرنسية) ما عسى يقولون في النادي؟ ما عسى يقول... ليبوتين؟ "من الممكن أن لا يتم الأمر".. ما رأيك. هذا ما ينقص.. ذلك.. ذلك.. أراني عاجزاً عن العثور عن الكلمة المناسبة.. "إنني كرجل محكوم عليه بالأشغال الشاقة، إنني أشبه برجل مثل بانديجيه[1] (بالفرنسية)... إنني رجل حُصر عند حائط!...

وفي الوقت نفسه، من خلال جميع هذه الشكاوي، كان يلوح نوع من غرور يتصف بالنزوة وقلة الاكتراث. وشربنا في المساء زجاجة خمرة أخرى

---

(1) "بانديجيه": هو رجل حرفته النساء، أعار ملابسه للأمير لويس نابليون ليسهِّل له الهرب من سجنه سنة 1846، يريد فرخوفنسكي أن يقول إذ يشبه نفسه ببانديجه إنه ليس إلا شخصاً لا قيمة له.

الفصل الثالث

خطايا الغير

1

انقضت ثمانية أيام، واتسعت القضية مزيداً من الاتساع. يجب أن أذكر عابراً أنني عرفت في أثناء هذا الأسبوع التعس لحظات أليمة جداً. لقد كان عليّ، بصفتي نجياً حميماً لستيفان تروفيموفتش، أن أقضي كل وقتي تقريبا بقرب هذا الخطيب الشقيّ الحزين. ورغم أننا لم نر أحداً طوال ذلك الأسبوع الذي قضيناه في وحدة تامة وعزلة كاملة، فإن الشيء الذي يعذّبه أكثر من أي شيء آخر هو الشعور بالخزي والعار حتى تجاهي أنا، حتى أنه كلما صارحني مزيداً من المصارحة أصبح يحقد عليّ بسبب ذلك مزيداً من الحقد. وكان من فرط وجله يتخيل أن المدينة كلها على علم بالموقف، فكان يخشى أن يظهر لا لأعضاء النادي فحسب، بل لأصدقائه الحميمن أيضاً. لذلك كان لا يحرج ليقوم بنزهته الصحية إلّا في المساء حين يخيم الظلام حالكاً.

انقضت ثمانية ايام وهو ما يزال يجهل أهو خطيب أم لا. لقد ظل الموقف غامضاً رغم كل ما فعل. لم يستطع أن يرى خطيبته، حتى لقد كان يتساءل: هل يجب عليه أن يعدّها خطيبته فعلاً؟ هل يجب أن يأخذ أقوال فرفارا بتروفنا مأخذ الجد؟ إن فرفارا بتروفنا مصرة على أن لا تستقبله، لا يدري أحد لماذا! وقد أجابت على إحدى الرسائل الأولى التي بعثها إليها (وقد كتب إليها عدداً كبيراً من الرسائل) أجابت ترجوه أن يجنّبها زياراته ورسائله إلى حين، لأنها

مشغولة جداً، وتقول له إن هنالك أشياء هامة كثيرة تريد أن تنقلها إليه، لكنها تنتظر للقيام بهذا دقيقة من فراغ، وإنها متى "حان الحين" (بالفرنسية) ستبلغه الموعد الذي تستطيع أن تستقبله فيه، أما الرسائل فإنها تنبه إلى أنها سوف تردّها إليه دون أن تفضّها، لأنها تعدّها "عبثاً صبيانياً محضاً". لقد قرأت أنا هذه البطاقة: فهو الذي أطلعني عليها.

ومع ذلك، كانت هذه الفظاعات كلها وكانت حالة الشك والبلبلة التي هو فيها، كان ذلك كله لا يُعد شيئاً مذكوراً بالقياس إلى الهم الأكبر الذي كان يعذّبه عذاباً رهيباً بلا رحمة ولا هوادة. فبسبب ذلك الهم الفظيع إنما نحل جسمه وتثبطت عزيمته وخارت قواه، ومع ذلك الهم إنما كان يأتي شعوره بالخزي والعار. لكنه كان لا يريد أن يبوح لي به مهما يكن من أمر، ويؤثر أن يكذب وأن يراوغ كصبي صغير إذا دعا الداعي. ومع ذلك كان يستدعيني كل يوم، عاجزاً عن البقاء ساعتين دون أن يراني، محتاجاً إلى حضوري كاحتياجه إلى الهواء أو الماء.

وكان هذا التصرف يؤذي شعوري بعض الإيذاء. وكنت قد اكتشفت سره الكبير منذ مدة طويلة طبعاً، ونفذت إلى دخيلة نفس ستيفان تروفيموفتش. كنت مقتنعاً أعمق الاقتناع حينذاك أن إزاحة النقاب عن ذلك السر، عن ذلك الهم الرئيسي الذي يعذّب صاحبنا، ليس يشرّفه، وكنت، وأنا في عنفوان شبابي في ذلك الوقت، أستاء من عامية عواطفه وبشاعة شكوكه وشبهاته. ولعلني كنت لحماستي، وربما لتعبي من دور النجي ذاك الذي كنت أقوم به، أبالغ في اتهامه وأغلو في إدانته. حتى لقد قسوت فدفعته إلى أن يعترف لي بكل شيء، وأدركت مع ذلك أن هناك أشياء يصعب الاعتراف بها. وكان هو أيضاً قد نفذ إلى دخيلتي، أي أنه أدرك أنني نفذت إلى دخيلته وأنني مستاء منه ناقم عليه، وكان حانقاً من أنني ناقم عليه وأنني نفذت إلى دخيلته. لعل غيظي كان أحمقاً مسكيناً، ولكن خلوة شخصين تسيء إلى الصداقة الحقيقية أحياناً وتنالها بأذى. ولقد كان يدرك بعض جوانب وضعه إدراكاً واضحاً، وكان يحكم عليها بكثير من رهافة الفكر حتى لا يكون الأمر أمر النقطة التي يرى

أنه مضطر أن يبقيها سراً لا يبوح به.

كان يقول لي في بعض الاحيان متكلماً عن فرفارا بتروفنا:

ـ آه... لشدّ ما تغيرت! لقد كانت تبدو في محادثاتنا شخصاً آخر تماماً!... تصور أنها كانت تجيد الحديث حينذاك! هل يمكن أن يصدق أحد أنها كانت لها أفكار، أفكار شخصية؟ لقد تغير الآن كل شيء. إنها تقول إن ذلك كله لم يكن إلّا ثرثرة أصبحت اليوم بالية. إنها تحتقر الماضي. ما هي الآن إلّا تاجرة، إلّا مديرة أعمال. لقد قست نفسها... وهي لا تنفك تغضب وتسخط بغير انقطاع...

سألته:

ـ ولكن ما الذي يغضبها ويسخطها الآن ما دمت قد قبلت مطالبها؟

فألقى علي نظرة ماكرة وقال:

ـ "يا صديقي العزيز" (بالفرنسية)، لو لم أقبل مطالبها لزعلت زعلاً شديداً، شد..يداً! أقل شدة مع ذلك منه الآن وقد قبلت.

وارتاح ستيفان تروفيموفتش لهذه الكلمة الموفقة التي اهتدى إليها، وشعر بتحسن في حالته النفسية، وأفرغنا في المساء زجاجة خمر أخرى. لكن مزاجه الحسن لم يدم طويلاً، فما جاء الغد حتى كان صاحبنا أشدّ تهجماً وانهياراً مما كان في أي وقت مضى.

والشيء الذي كان يضايقني أكثر مما يضايقني أي شيء آخر مع ذلك هو أنه لم يعزم على ما كان يجب أن يعزم أمره عليه، وهو أن يمضي يزور السيدة دروزدزف وابنتها اللتين وصلتا منذ مدة قصيرة وكانتا ترغبان من تلقاء نفسيهما، كما قيل لنا، في رؤية ستيفان تروفيموفتش. إنهما لا تبرحان تسألان عن أخباره، فكان هذا يفاقم عذابه. إنه يتكلم دائماً عن ليزافتا نيقولايفنا بحماسة تدهشني وتثير في نفسي الاستغراب. صحيح أنه كان لا يزال يرى فيها الطفلة التي طالما أحبها كل الحب. ولكنه كان يتصور ايضاً ـ لا أدري لماذا ـ أنه سيجد بقربها سكينة لنفسه وراحة من تباريح عذابه، بل وأنها سوف تساعده في تبديد شكوكه وحل مشكلاته. كان يتوقع أن يجد

في ليزافتا نيقولايفنا إنسانة خارقة. ورغم ذلك لم يستطع أن يعزم أمره على زيارتها، مع أنه كان ينتوي أن يفعل ذلك كل يوم. وكنت من جهتي أرغب أشد الرغبة في أن أقدِّم إليها وأن أُزكّى عندها، وكنت لا أستطيع أن أعوّل في ذلك إلّا على ستيفان تروفيموفتش. كنت أراها أحياناً كثيرة، في الشارع طبعاً، حين كانت تتنزه على الحصان مرتدية ملابس الفرسان (كانت تمتطي صهوة جواد رائع)، في صحبة ضابط شاب جميل يقال أنه قريبها، فهو ابن أخت الجنرال دروزدوف. كانت هذه اللقاءات تملأ نفسي بإحساس خارق، ولكن عماوتي لم تدم زمناً طويلاً، فسرعان ما أدركت بنفسي مدى ما يشتمل عليه حلمي من خيال. على أن هذا الحلم قد هزني هزاً عميقاً مهما تكن مدته قصيرة. فمن الممكن أن يدرك القارئ مدى ما كنت أشعر به من حنق على صديقي حين أراه يصر على حبس نفسه في البيت لا يخرج منه أبداً.

إن جميع أعضاء حلقتنا الصغيرة قد أُبلغوا منذ البداية أن ستيفان تروفيموفتش لن يستطيع أن يستقبل احداً، وأنه يرجوهم أن لا يزعجوه. وقد أصرّ رغم نصائحي على أن يضفي على هذا الإبلاغ شكلاً رسمياً. فطُفتُ على جميع الأصدقاء تنفيذاً لطلبه، شارحاً لكل واحد منهم أن فرفارا بتروفنا قد كلفت شيخنا (فكذلك كنا نلقب ستيفان تروفيموفتش فيما بينا) بعمل مستعجل جداً هو أن يرتب مراسلات لها قديمة تمتد على عدة سنين. لذلك أوصد باب بيته دون جميع الناس إلّا أنا الذي أقوم بمساعدته في هذا العمل. وكان ليبوتين هو الشخص الوحيد الذي لم يتسع وقتي لإبلاغه. فكنت أرجئ زيارتي له من يوم إلى يوم، لأنني كنت أخشى أن أذهب إليه في حقيقة الأمر. كنت أعرف سلفاً أنه لن يصدّق كلمة واحدة مما سوف أذكره له من إيضاحات وشروح، وأنه لن يلبث أن يتصور أن هذه الإيضاحات والشروح تخفي سراً من الأسرار. فما إن أخرج من عنده حتى يمضي يستطلع ويستعلم ويملأ المدينة بالنمائم والأقاويل والشائعات. وفيما كنت أحدّث نفسي بهذا الكلام ذات مرة، إذا أنا ألقاه في الشارع مصادفة. فأدركت أن أصدقاءنا الذين أبلغتهم الأمر كانوا قد أطلعوه عليه. شيء غريب: إنه لم يظهر أي رغبة في

الاطلاع، بل ولا سألني على ستيفان تروفيموفتش، ولكن حين أخذت أعتذر له عن تأخري في إبلاغه، قاطعني وغيّر مجرى الحديث فوراً. الحق أن هناك أشياء كثيرة كان يريد أن يقصها علي، كان يبدو مهتاجاً اهتياجاً شديداً، وقد سرّه أعظم السرور أن عثر على مستمع. أطلعني في البداية على أخبار المدينة فحدّثني عن وصول امرأة الحاكم، وعن "مشاريعه الجديدة" ثم قال لي إنه تشكّل في النادي حزب معارضة، وأن الناس في كل مكان أصبحوا لا يتحدثون إلّا عن الأفكار الجديدة التي تسوء بعض الفئات كثيراً من جهة أخرى، وهلم جرّاً... ظل يتحدث طوال ربع ساعة، وبلغ من الإجادة والبراعة في الحديث أنني لم أستطع أن أعزم أمري على مقاطعته. لقد كنت أكرهه. ولكن يجب أن أعترف أنه يملك موهبة حمل الآخرين على الإصغاء إليه، ولا سيما حين يطلق العنان لغضبه. في رأيي هذا الرجل جاسوس بطبيعته، بفطرته. إنه مطّلع دائماً على آخر الأنباء، وعلى جميع أسرار مدينتنا، وعلى الحكايات الفاضحة خاصة. وكان الناس يدهشون حين يرون مدى اهتمامه بأمور لا تعنيه في شيء. لقد خيّل إليّ دائماً أن السمة الأساسية في طبعه هي الحسد. فلما رويت لستيفان تروفيموفتش في المساء أنني لقين ليبوتين، وقصصت عليه الحديث الذي جرى بيننا اضطرب اضطراباً شديداً دُهشت له، وألقى عليّ سؤالاً غريباً. قال: "ايعلم ليبوتين أم لا؟" فحاولت أن أبيّن له أن من المستحيل أن يعلم ليبوتين بالأمر، وأن أحداً لا يمكن أن يكون قد حدّثه عن مشروع فرفارا بتروفنا. ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يصدّق. وختم كلامه قائلاً على نحو غير متوقع:

ـ قد لا تصدّقني، ولكنني مقتنع بأنه ليس مطّلعاً على "وضعنا" بجميع تفاصيله فحسب، بل هو يعرف أكثر من ذلك أيضاً، يعرف أشياء لا نعرفها نحن بعد، لا أنا ولا أنت، وربما لن نعرفها في يوم من الأيام، او نعلم بها حين يكون الأوان قد فات، وحين تكون الجسور قد قُطعت.

لم أقل كلمة واحدة. رغم أن هذه الكلمات كانت زاخرة بالدلالة. وخلال الأيام الخمسة التي أعقبت ذلك لم يشر ايّ إشارة إلى لوشين. وكنت أرى

رؤية واضحة أن ستيفان تروفيموفتش نادم كل الندم على أنه انجرّف في الكلام فكشف لي عن شكوكه وشبهاته.

2

في ذات صباح، حوالي الساعة الحادية عشرة (كان ذلك بعد قبول ستيفان تروفيموفتش عرض فرفارا بتروفنا بسبعة أيام أو ثمانية)، بينما كنت على عادتي مسرعاً إلى بيت صديقي المسكين، وقعت لي حادثة صغيرة.

لقد لقيت كارمازينوف، "الكاتب الكبير"، كما كان يلقبه ليبوتين. كنت قد قرأت كارمازينوف منذ طفولتي. إن الجيل الماضي، وحتى الجيل الحاضر يعرفان رواياته وقصصه معرفة جيدة. أما أنا فكنت أجد فيها لذتي. لقد كانت فرحة طفولتي ومراهقتي. ثم فترت حماستي بعض الفتور بعد ذلك. إن الرواية المشتملة على رأي، التي أخذ ينشرها، تعجبني أقل مما كانت تعجبني كتبه الأولى الزاخرة بالصدق والشعر. أما كتبه الاخيرة فقد أصبحت لا تهزّ في نفسي شيئاً البتة.

أستطيع أن أقول بوجه عام ـ مع أنني لا أجرؤ أن أفصح عن رايي في موضوع حرج إلى هذه الدرجة ـ إن جميع هؤلاء الكتّاب الذين هم من كتّاب الطبقة الثانية والذين يُعدّون أثناء حياتهم عباقرة تقريباً، يغيبون فجأة دون أن يتركوا أثراً في الذاكرة حين يموتون. لا هذا فحسب، بل إنهم كثيراً ما يرون أنفسهم مهجورين منسيين حتى أثناء حياتهم، متى جاء جيل جديد فحلّ محلّ الجيل الذي صنع نجاحه. وهذا يحدث في بلادنا على نحو مفاجئ عجيب: فكأن الأمر أمر تغير في ديكور المسرح. لكن الأمور لا تجري هذا المجرى بالنسبة إلى كتّاب مثل بوشكين أو جوجول أو موليير أو فولتر، أو سائر أولئك الرجال العظماء الذين قالوا أقوالاً جديدة أصيلة. ويجب أن نقول من جهة أخرى إن كتّاب الطبقة الثانية يسفون في أواخر أيامهم المجيدة إسفافاً يدعو إلى الرثاء لهم والإشفاق عليهم، ويموتون وهم ما زالوا أحياء. وكثيراً ما يحدث لكاتب ظل الناس ينسبون إليه أفكاراً عميقة منذ مدة طويلة،

وظلوا يعتقدون أنه سيؤثر في المجتمع تأثيراً قوياً، أقول: كثيراً ما يتفق لمثل هذا الكاتب أن ينكشف أمره عن فقر وفراغ يبلغان من القوة أن أحداً لا يأسف بعد ذلك على أنه نضب بتلك السرعة الكبيرة. غير أن هؤلاء الشيوخ الشائبين لا يلاحظون ذلك، ويغضبون. إن غرورهم، ولا سيما في أواخر ايام حياتهم الأدبية يبلغ في بعض الأحيان أبعاداً تدعو إلى أشد الدهشة والاستغراب. فهم يعدّون أنفسهم آلهة على الأقل!

كان يروى عن كارمازينوف أنه يحرص على علاقاته بأصحاب المراكز العالية وبالمجتمع الأرستقراطي حرصاً أشد من حرصه على سلامة روحه. يقال إنه يستقبلك فاتحاً ذراعيه ويمدحك ويتملقك ويفتنك بلطفه وطيبته إذا كان بحاجة إليك أو إذا كان أحد قد أوصاه بك أخيراً. ولكنه ما إن يلتقي أول امير أو أول كونتيسة أو أول شخص يخشى رأيه فيه، حتى يرى أن من أقدس واجباته أن يظهر لك أعمق احتقار وأن يبعدك على الفور كإبعاد قشة أو ذبابة قبل أن يتسع وقتك للابتعاد من تلقاء نفسك. إنه يتصور جاداً كل الجد أن ذلك برهان على أعظم الامتياز والرقي. وهو رغم قوة إرادته ورغم قدرته على السيطرة على نفسه ورغم اختلاطه بالناس ومعرفته بالبشر، يبلغ من الغرور وحب الظهور في نفسه أنه يستحيل عليه أن يخفي سرعة تأذيه ككاتب، حتى في البيئات التي لا تهتم بالأدب، فإذا اتفق مصادفة أن أظهر له أحد شيئاً من قلة الاكتراث، فإن غيظه يبلغ من الشدة أن يحتفظ بذكرى ذلك إلى الأبد ويبحث عن فرصة للانتقام.

كنت قد قرأت له، منذ عام، مقالة في إحدى المجلات، إنها مقالة تشتمل على ادّعاء وسذاجة في آن واحد، فهو يصطنع فيها مظهر الشاعر ومظهر عالم النفس معاً. كان يصف في هذه المقالة غرق باخرة قرب الساحل الإنكليزي. لقد شهد بنفسه جهود رجال الإنقاذ وموت عدد كبير من ركاب الباخرة غرقاً في الأمواج. ولكن تلك المقالة، وهي مقالة طويلة فيها كثير من الإسهاب والإفاضة، لم يكن لكتابتها من هدف إلّا حمل الناس على الإعجاب بكاتبها، فكأن كل سطر من سطورها يقول لهم: "انظروا إليّ. إليكم ما شعرت به في

تلك اللحظات. ما لكم ولذلك البحر الهائج وتلك الصخور وذلك المركب المحطّم؟ ألم ترسم لكم ريشتي لوحة رائعة؟ ما بالكم تنظرون إلى تلك المرأة الغريق التي تضم بذراعيها طفلاً ميتاً؟ احرى بكم أن تعجبوا بي أنا، أنا الذي لم أستطع احتمال رؤية ذلك المشهد فأشحت عنه. ها أنذا أدير له ظهري وقد استبد الرعب والهول بنفسي، فلا أقوى على إلقاء نظرة إلى وراء، وأغمض عيني... أليس هذا كله شائقاً؟"[1]. حين عبّرت عن انطباعي هذا لستيفان تروفيموفتش وافقني على رأيي.

لما انتشرت في المدينة شائعة وصول كارمازينوف قريباً، شعرت طبعاً بأقوى الرغبة في أن ألقاه وأن أتعرف إليه إذا أمكن ذلك. وكنت أعلم أنني أستطيع التوصل إلى ذلك بفضل ستيفان تروفيموفتش، لأنهما كانا في الماضي صديقين. وها أنذا أراني أمامه فجأة في مفرق طرق، فسرعان ما أتعرفه: كانوا قد دلوني عليه قبل ثلاثة أيام بينما كان ماراً في عربة مع زوجة حاكمنا.

إنه شيخ يتكلف العظمة (على أن عمره لا يزيد على خمسين سنة)، زاهي المحيّا، تحفّ بوجهه عقفات شعر شائبة تخرج من تحت قبعة عالية وتتلفّف حول أذنيه الصغيرتين المتوردتين. إن هذا الوجه الذي عني صاحبه بحلاقته لم يكن على جانب كبير من الجمال بشفتيه الطويلتين الرقيقتين اللتين تنمان عن الحيلة والمكر، وبأنفه البدين وعينيه الصغيرتين النافذتين الذكيتين. وكانت ملابسه تبدو مهترئة. إنه يرتدي نوعاً من معطف خاص ربما كان يرتديه الناس في هذا الفصل بسويسرا بشمال إيطاليا. ولكن جميع ملحقات زينته الصغيرة، كأزرار الأكمام، او الياقة المضافة، أو النظارة المعلقة بشريط أسود، كل ذلك كان كما يكون لدى أناس يعنون بحسن هندامهم أشدّ العناية. إني لعلى يقين من أنه ينتعل في الصيف جزمتين رقيقتين زاه لونهما مع أزرار

(1) بين يوري نيكولسكي.في كتيب أصدره بعنوان "تورجنيف ودوستويفسكي" في صوفيا سنة 1921، أن دوستويفسكي يحاكي في هذه الصفحة تورجنيف الذي يلح خاصة على مشاعره الخاصة، والذي أشاح وجهه أثناء "تعذيب تروبمان"، توقية لأعصابه.

من عروق الؤلؤ على جانبيهما.

حين صادفته كان واقفاً في ركن شارع ينظر في ما حوله بانتباه. فلما لاحظ أنني أتأمله بكثير من الاهتمام، سألني بصوت مترفق متكلف لكنه مع ذلك حاد كالصراخ:

ـ من فضلك، ما أقصر طريق للذهاب إلى "شارع الأبقار"؟

فهتفت أجيبه فجأة وقد انفعلت انفعالاً قوياً:

ـ "شارع الأبقار"؟ إنه قريب جداً من هنا. اسلك هذا الشارع مستقيماً حتى الشارع الثاني على اليسار.

ـ أشكرك كثيراً.

لعن الله تلك الدقيقة! أعتقد حقاً أنني كنت وجلاً، وأنني كنت أتأمله كالمتعبد. وسرعان ما لاحظ هو ذلك، وأدرك طبعاً أنني عرفته، وانني أعلم من هو، وأنني قرأت كتبه، وأنني أحترمه منذ طفولتي، وأنني أشعر أمامه بوجل شديد، وأنني أتأمّله بحب يبلغ العبادة. فابتسم، وحيّاني بحركة من رأسه، وسلك الشارع الذي دللته عليه.

لا ادري لماذا عدت أدراجي لأتبعه. لا أدري لماذا سرت إلى جانبه قرابة عشر خطوات. وها هو ذا يسألني بصوت حاد:

ـ هل في وسعك أن تدلني على أقرب محطة للعربات؟

ياله من صوت مزعج!

ـ محطة عربات؟ إن اقرب محطة للعربات توجد... قرب الكاتدرائية... والعربات موفورة دائماً في الميدان.

قلت له ذلك وأوشكت أن اسرع لآتيه بعربة. أظن أن هذا ما كان ينتظره مني. ولكنني ثبت إلى صوابي في تلك اللحظة نفسها فلم أتحرك. لكنه لاحظ حركتي التي لم أكد أهم بها، وظل ينظر إليّ مبتسماً ابتسامته السيئة تلك. وعندئذ إنما حدث شيء لن أنساه ما حييت.

لقد سقطت منه، على حين فجأة، حقيبة صغيرة كان يحملها بيده اليسرى. والحق أنها لم تكن حقيبة بمعنى الكلمة، فهي أقرب إلى أن تكون علبة أو قل

محفظة من نوع المحافظ التي كانت تحملها السيدات في الزمان القديم. على أنني لا أدري ماذا كانت تلك الحقيبة على وجه الدقة. ولكنني أعرف أنني أسرعت أهمّ أن أرفعها له عن الأرض فيما يبدو.

إنني على ثقة تامة بأنني لم أرفعها، ولكن لا يمكن للمرء أن لا يدرك معنى الحركة التي قمت بها، لقد استحال علي أن أخفي معنى هذه الحركة. فاحمرّ وجهي كأبله. وسرعان ما استمد ذلك الرجل الماكر من هذه الظروف كل ما كان يمكن أن يستمده منها. قال لي برقّة حين رأى أنني لن أنحني على الأرض لأرفع الحقيبة بنفسي:

ـ لا تزعج نفسك. سأرفعها أنا.

ولكنه رفع الحقيبة كما لو أنه يسبقني إلى ذلك سبقاً، وحيّاني مرة أخرى بإشارة من رأسه، وتابع طريقه وقد تركني مسحوقاً. الخلاصة: لكأنني رفعت له حقيبته فعلاً. ولبثت خمس دقائق أعدّ نفسي مجللاً بالخزي والعار إلى الأبد. لكنني حين وصلت إلى قرب بيت ستيفان تروفيموفتش انفجرت ضاحكاً. لقد بدا لي هذا اللقاء، على حين فجأة، باعثاً على أكبر الضحك، فسرعان ما قررت أن أتّخذ منه موضوع تسلية لصاحبنا، فأقصّ عليه المشهد كله مقلّداً تفاصيله، مسرّياً به عنه.

3

ما كان أشدّ دهشتي حين رأيت ستيفان تروفيموفتش في هذه المرة متغيراً كل التغير. صحيح أنه ما إن رآني حتى أسرع إليّ بنوع من النهم، وأخذ يصغي إليّ. ولكنه كان زائغ النظرة شارد الفكر بحيث كان واضحاً أنه لم يفهم ما كنت أقوله له. ومع ذلك فما كدت انطق باسم كارمازينوف حتى غضب فجأة، وصرخ يقول حانقاً:

ـ لا تكلّمني عنه، لا تنطق اسمه. خذ. انظر. اقرأ هذا.

قال ذلك وهو يفتح درجاً ويلقي على المائدة ثلاث قطع من ورق هي ثلاث رسائل من فرفارا بتروفنا كتبتها على عجل بالقلم الرصاص كيفما

اتفـق. فأمـا الأولى فهي من أمس الأول، وأما الثانيـة فقد وصلت أمس، وأما الثالثة فقد جيء بها قبل وصولي بسـاعة. والرسـائل الثـلاث كلها تتكلم عن كارمازينوف. إنها خالية من أي قيمة وشأن، وهي تكشف عن القلق السخيف الطمـوح الذي تعانيه فرفارا بتروفنا خائفة أن لا يزورها كارمازينوف. وإليكم نص الرسالة الأولى (ولعل رسائل أخرى كانت قد سبقتها).

"إذا تنازل أخيراً فزارك اليوم فلا تقل عني كلمة واحدة، أرجوك. لا تُشر إليّ أية إشارة. لا تأتِ على ذكري. لاتذكّره بوجودي."

"فرفارا ستفروجين"

وتقول رسالة الأمس ما يلي:

"إذا صح عزمه أخيراً على أن يزورك هذا الصباح، فالأكرم في رأيي أن لا تستقبله. تلك هي وجهة نظري. لا أدري ما رأيك أنت".

"فرفارا ستفروجين"

وهذا نص الرسالة الأخيرة:

"أنـا واثقة بأن بيتـك مليء بالغبار والتراب الآن، وأن دخان التبغ يجعل الهواء فاسـداً يسـتحيل استنشـاقه. سـوف أرسـل إليك ماريا وفومـا. فيُرتّب كل شـيء بعـد نصف سـاعة. لا تزعجهما، اذهـب إلى المطبخ إلـى أن تنهيا عملهما. أبعث إليك بسجادة من بخارى، وبإناءين من الخزف الصيني. كنت أنتوي إهداء هذه الأشياء إليك منذ مدة طويلة. وأبعث إليك عدا لوحة تينييه[1] (إلى وقت محدود). أما الإناءان ففي وسـعك أن تضعهما على النافذة، وأما لوحـة تينييـه فعلّقها على يمين صورة جوته. فهناك تبـرز، لأن الضوء في هذا المـكان يكون سـاطعاً علـى الدوام فـي الصباح. فـإذا جاءك أخيراً فأحسـن اسـتقباله وأكـرم وفادتـه وعامله بتهذيب مرهـف، ولكن حـاول أن لا تتكلم إلّا فـي أمور تافهـة، في موضوع علمي مثلاً، وتصرف تصرفـاً عادياً فكأنكما

(1) "لوحة تينييه": كانت لوحات دانييل تينييه (1690ـ1610) مقدرة تقديراً عظيماً في ذلك في الأوان بروسيا، كسائر آثار المدرسة الفلمنكية على كل حال.

لـم تفترقا إلّا أمـس. لا تقل كلمة واحدة عني. قد أجـيء إليك لحظة في هذا المساء"

"فرفارا ستفروجين"

"حاشية: إذا لم يجئ اليوم، فلن يجيء أبداً"

أذهلتني قراءة هذه الرسائل: لم أستطع أن أفهم كيف يصير في حالة كهذه الحالة لأمور تافهة هذه التفاهة كلها. ولكن حين رفعت إليه نظرة مستفهمة، لاحظت أنه انتهز فرصة انشغالي بالقراءة فأبدل ربطة عنقه العادية البيضاء بربطة حمراء. وكانت قبعته وعصاه موضوعتين على المائدة. وكانت يداه ترتجفان، وكان وجهه شديد الشحوب والاصفرار.

صاح يقول خارجاً عن طوره، ردّاً على نظرة الدهشة التي رآها في عيني:

ـ لا يهمني قلقها هذا كله البتة! "إنني لا أعبأ به إطلاقاً" (بالفرنسية). تتجاسر أن تضطرب من أجل كارمازينوف بينما لا ترد على رسائلي أنا. هذه رسالة أعادتها إلي دون أن تفضها. إليك الرسالة. هي على المائدة تحت هذا الكتاب، تحت كتاب "الرجل الذي يضحك".[1] ليس يعنيني أن تتعذب من أجل نيقو.. لنكا. "أنا لا أبالي بهذا كله، وأطالب بحريتي! ليذهب كارمازينوف إلى الشيطان! لتذهب لمبكه إلى الشيطان!" (بالفرنسية). لقد خبأت إنائيها في حجرة المدخل، ودسّست لوحة تينييه في الصندوق، وطالبت بأن تستقبلني فوراً. هل سمعت؟ طالبت باستقبالي مطالبة. أرسلت إليها مع ناستاسيا ورقة صغيرة على عادتها هي، وكتبت بالقلم الرصاص، ولم أضع الورقة في ظرف. وأنا الآن أنتظر. أريد أن تعلن داريا بافلوفنا رغبتها بلسانها هي، أمام السماء، أو بحضورك على الأقل. "سوف تدعمني أنت، صديقاً وشاهداً، أليس كذلك؟" (بالفرنسية). لا أريد أن أشعر بخجل، لا أريد أكاذيب، لا أريد أسراراً. لن أقبل أسراراً في هذه القضية! يجب أن

---

(1) "الرجل الذي يضحك": رواية فكتور هوجو التي ظهرت سنة 1869. وكان دوستويفسكي يحب روايات فكتور هوجو كثيراً.

يُعترف لي بكل شيء، بصراحة، ببساطة، بنبل... وعندئذ... عندئذ قد أدهش الجيل كله بشهامتي، بعظمة نفسي!... أأنا جرو يا سيد؟

بهذا السؤال ختم كلامه وهو يرشقني بنظرة تهديد، كأنني أنا الذي أعدّه جرواً.

ألححت عليه أن يشرب قليلاً من الماء. إنني لم أره في مثل هذه الحالة قبل ذلك قط. كان وهو يتكلم يركض من طرف من الغرفة إلى طرفها الآخر. ولكنه تسمّر أمامي فجأة على وضع فيه غطرسة، وقال وهو يشملني من القدمين إلى الرأس:

ـ هل تظن حقاً، هل تستطيع أن تفترض أنني، أنا ستيفان تروفيموفتش، لن أملك من القوة النفسية ما يمكّنني من أن أحمل كيسي، كيس التسول، وأن أضعه على كتفي، وأن أعبر الباب، منصرفاً إلى الأبد، إذا كان الشرف ومبدأ الحرية العظيم هما اللذان يقتضيان ضلك؟ ليست هذه أول مرة يحدث فيها لستيفان فرخوفنسكي أن يقاوم الطغيان بعزة النفس، ولو كان هذا الطغيان طغيان امرأة لا إحساس لها، أي أشد أنواع الطغيان والاستبداد إهانة وقسوة على وجه هذه الأرض. أظن أيها السيد أنك سمحت لنفسك منذ برهة أن تبتسم! آه... إنك لا تصدّق أنني قادر على أن أجد في نفسي قدراً كافياً من القوة الروحية لأمضي أيامي لدى تاجر من التجار معلّماً لأولاده، أو أهلك جوعاً تحت سياج من الأسيجة. أجبني، أجبني فوراً: أأنت تصدّق هذا أم لا تصدّقه؟

لزمت الصمت. حتى لقد تظاهرت بالتردد كأنني أخشى أن أجرح شعوره بجواب بالنفي مع عجزي عن أن أعزم أمري على أن أجيبه بنعم. لقد كان في وضعه الحانق الساخط شيء يؤذي كرامتي، لا من الناحية الشخصية، لا، لا... لكنني سأشرح شعوري فيما بعد.

اصفرّ وجهه. ثم قال بلهجة الصقيع تلك التي تسبق في العادة انفجاراً رهيباً:

ـ لعلك تعبت مني يا "جـ... فـ" (ذلك هو اسمي)، فأصبحت تريد أن لا تأتي إليّ.

فنهضت فجأة وقد انتابني ذعر شديد. ولكن في تلك اللحظة نفسها دخلت ناستاسيا، ومدّت إلى ستيفان تروفيموفتش، دون أن تقول كلمة واحدة، مدّت إليه ورقة هي رسالة مكتوبة بالقلم الرصاص. فألقى على الرسالة نظرة. ورشقها إلي من فوق المائدة: كانت الورقة لا تضم إلّا هذه الكلمات بخط فرفارا بتروفنا: "ابقَ في البيت".

تناول ستيفان تروفيموفتش عصاه وقبعته دون أن ينطق بحرف. وخرج من الغرفة مسرعاً، فتبعته آلياً. ودوت في الدهليز على حين فجأة اصوات وضجات. فتوقف ستيفان تروفيموفتش كأن صاعقة قد نزلت عليه. وقال هامساً وهو يمسك ذراعي:

ـ هذا ليبوتين. لقد هلكت.

وفي تلك اللحظة نفسها دخل ليبوتين الغرفة.

4

أما كيف يمكن أن "تهلكه" زيارة ليبوتين، فهذا ما أجهله. والحق أنني لم أقم وزناً كبيراً لهذه العبارة التي نسبتها إلى اضطراب أعصابه. غير أن رعبه كان غريباً، فآليت على نفسي أن ألاحظه عن كثب.

إن مجرد مظهر ليبوتين، حين دخل، كان يدل دلالة واضحة على أن من حقه فى هذه المرة أن يلج المنزل رغم جميع الأوامر. وكان في صحبته سيد لا أعرفه، لعله وصل إلى مدينتنا منذ مدة قصيرة.

رد ليبوتين على النظرة المبهوتة التي رآها في ستيفان تروفيموفتش بأن صاح على الفور قائلاً:

ـ جئتك بزائر، زائر فذ. أبحت لننفسي أن أعكّر عليك صفو عزلتك. السيد كيريلوف، مهندس مدني مرموق. وهو يعرف ابنك خاصة، ابنك المحترم جداً بطرس ستيفانوفتش. إنه يعرفه معرفة حميمة وهو مكلف بإبلاغك رسالةً منه. لقد وصل منذ قليل.

قال الزائر يخاطب ليبوتين بلهجة جافة:

ـ أما فيما يتعلق بالرسالة فأنت الذي أضفت هذا. ليس هناك أية رسالة. لكنني أعرف فرخوفنسكي فعلاً. لقد تركته في مقاطعة س... منذ عشرة أيام.

مد إليه ستيفان تروفيموفتش يده آلياً، وأومأ إلى مقعد يسأله أن يجلس عليه. ثم نظر إليّ، ونظر إلى ليبوتين، وكأنما ثاب إلى رشده فجأة، فإذا هو يسارع إلى الجلوس هو أيضاً، دون أن يلاحظ أنه مايزال حاملاً عصاه وقبعته بيده.

ـ ها... كنت تتأهب للخروج! ولكن قيل لي أن صحتك متوعكة من فرط العمل.

ـ نعم، إنني مريض قليلاً. وكنت أريد أن أخرج للنزهة... إنني...

وانقطع ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة، وأسرع يرمي عصاه وقبعته، واحمرّ وجهه.

وكنت أراقب الزائر في أثناء ذلك. إنه شاب في نحو السابعة والعشرين من العمر، حسن الهندام، أسمر، نحيل، ممشوق. وجهه شاحب أغبر، وعيناه سوداوان كابيتان، وهو حالم الهيئة ذاهل، كلامه موجز مقطّع، لا يهمه كثيراً أن يلتزم قواعد النحو، فهو يبدل ترتيب الكلمات في الجملة ترتيباً غريباً. ومتى كان عليه أن ينطق جملة طويلة بعض الطول، رأيته يرتبك.

لاحظ ليبوتين، بوضوح كامل، الاضطراب الشديد الذي اعترى ستيفان تروفيموفتش، وكان واضحاً أنه سُرّ به سروراً عظيماً، واغتبط له اغتباطاً كبيراً. وقد جلس على كرسي من قش جرّه إلى وسط الغرفة تقريباً ليكون على مسافة واحدة من صاحب البيت والزائر. وكان هذان قد جلسا على ديوانين يقابل أحدهما الآخر. إن عينيه النافذتين الثاقبتين تتحركان إلى جميع الجهات تفتشان كل ركن من الأركان بفضول شديد.

قال ستيفان تروفيموفتش بجهد شاق:

ـ منذ زمن طويل... لم أر بتروشا... هل لقيته في الخارج؟

ـ هنا وفي الخارج.

تدخل ليبوتين في الكلام فقال:

ـ إن أليكس نيلتش يعود الآن من الخارج بعد غياب دام أربع سنين. لقد سافر من أجل أن يعمّق اختصاصه الهندسي، وهو يعود آملاً ـ وهذا أمل في محله ـ أن يشارك في بناء الجسر الذي ننوي بناءه لسكتنا الحديدية. وقد عرف آل دروزدوف، ولا سيما ليزافتا نيقولايفنا، بواسطة بطرس ستيفانوفتش.

كان المهندس جالساً، متجهم الهيئة، يصغي بنوع من الضيق والتبرم والتململ. كان يبدو عليه أنه غاضب من شيء ما.

ـ وهو يعرف أيضاً نيقولاي فسيفولودوفتش.

قال ستيفان تروفيموفتش سائلاً:

ـ حقاً؟

ـ نعم أعرفه أيضاً.

ـ منذ زمن طويل... طويل جداً... لم أر بتروشا... وفي اعتقادي أنني لا أستحق كثيراً اسم الأب... "وهذه هي الكلمة" (بالفرنسية)... على أي حال تركته؟

أجاب كيريلوف متململاً وهو يرغب رغبةً واضحة في إنهاء الحديث:

ـ سوف يجيء بنفسه قريباً.

إن كيريلوف زعلان حتماً.

ـ آ... سيجيء قريباً! آه... أخيراً.. إنني منذ مدة طويلة جداً لم أر بتروشا.

كذلك كرر ستيفان تروفيموفتش عاجزاً عن الخروج من هذه الجملة. ثم أضاف يقول:

ـ إنني أنتظر ابني المسكين.. الذي أشعر نحوه.. نعم... أشعر نحوه بأنني آثم في حقه كثيراً. أقصد... حين تركته ببطرسبرج، كنت... الخلاصة: كنت أعده تافهاً لا قيمة له البتة... "شيء من هذا القبيل" (بالفرنسية). كان طفلاً عصبياً جداً، حساساً، خوّافاً. كان قبل أن ينام يصلي ساجداً أمام الأيقونة، ويرسم إشارة الصليب على وسادته، مخافة أن يموت في الليل. "أذكر هذا" (بالفرنسية). لم يكن يملك أي إحساس بالجمال، بالروعة، لم تكن نفسه تضم أية بذرة لفكرة عظيمة ما... "كان كأبله صغير" (بالفرنسية). ولكن يخيل

إليّ أنني أرتبك وأخلط... معذرة... لقد فاجأتموني في اللحظة التي...

سأله المهندس مهتماً على حين فجأة:

ـ كان يرسم إشارة الصليب على وسادته حقاً؟

ـ نعم.

ـ أردت أن أستعلم أكمل.

نظر ستيفان تروفيموفتش إلى ليبوتين سائلاً. ثم قال:

ـ أشكر لك زيارتك كثيراً، ولكنني في هذه اللحظة لست في حالة يمكنني فيها أن... ولكن هل تأذن لي بمعرفة عنوانك؟

ـ شارع أبيفانيا، عمارة فيليبوف.

قلت على غير إرادة مني:

ـ آ... وهناك أيضاً يسكن شاتوف.

فهتف ليبوتين يقول:

ـ تماماً. في العمارة نفسها. شاتوف يشغل الطابق الصغير الأوسط. أما السيد كيريلوف فقد أقام تحت، عند الكابتن لبيادكين. إنه يعرف شاتوف أيضاً، ويعرف زوجته. عرفها في الخارج عن كثب.

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل منقاداً لعاطفته:

ـ كيف! (بالفرنسية)... إذن أنت تعرف شيئاً عن ذلك الزواج التعيس الذي وقع فيه "هذا الصديق المسكين" (بالفرنسية)! إنك أول واحد بين أصحابنا يعرف هذه المرأة شخصياً، فلو...

فقال المهندس جازماً قاطعاً وقد احمرّ احمراراً شديداً:

ـ ما هذه السخافة يا ليبوتين؟ لماذا تضخّم دائماً ما يقال لك؟ أنا لا أعرف زوجة شاتوف أبداً، لم أرها إلّا مرة واحدة، وقد رأيتها من بُعد لا من قرب. أما شاتوف فأعرفه. لماذا توشّي الكلام دائماً؟

واضطرب على ديوانه، وتناول قبعته، ثم ردّها إلى مكانها، حتى إذا عاد يجلس أخذ يحدّق إلى ستيفان تروفيوفتش بنوع من التحدي يسطع في عينيه السوداوين اللتين اشتعلتا فجأة. لم أستطع أن أفهم سبب حنقه.

أجاب ستيفان تروفيموفتش يقول بلهجة ذات دلالة:
ـ معذرة. لعل الأمر حساس جداً...
ـ بتاتـاً. ولكـن هـذا مخجل حقاً! إنني لـم أتجه بكلامي إليـك حين قلت "ما هذه السـخافة"؟ وإنما توجهت بكلامي إلى ليبوتين. لماذا يبالغ دائماً؟ إذا كنت ظننت أنك كنت المقصود بصيحتي، فمعذرة! إنني أعرف شـاتوف، ولكنني لا أعرف زوجته البتة... البتة!...
ـ فهمـت، فهمت. ولئـن ألححت، فلأنني أحب كثيـراً صديقنا، "صديقنا النزق" (بالفرنسية)، وقد اهتممت دائماً بـ... في رأيي أن هذا الرجل قد غيّر، بشيء من المباغتة والمفاجأة، أفكاره السابقة التي قد تكون فتية كثيراً ولكنها مع ذلك صادقة صحيحة. وهو ينطق الآن بأقوال شاذة عن "روسيا المقدسة" (بالفرنسـية)... أقـوال تبلغ من الغرابة أنني أصبحـت منذ مدة طويلة لا أعزو هـذا التغير في بنية جسـمه ـ هذا هـو التعبير الذي لا تعبير سـواه ـ إلى الأزمة التـي طرأت على حياتـه العائلية، أو قل الأزمة التي أصابـت زواجه التعيس. أنا الذي أعرف بلدي روسـيا كما أعرف أصابع يدي، والذي وهبت للشـعب الروسي حياتي كلها، أستطيع أن أؤكد لك أنه لا يعرف الشعب الروسي، وأنه عدا ذلك...
قال المهندس مقاطعاً وهو يتحرك على ديوانه من جديد:
ـ أنا أيضاً لا أعرف الشعب الروسي... ليس في وقتي متسع لدراسته...
فلم يحر ستيفان تروفيموفتش جواباً، وانقطعت سلسلة حديثه.
قال ليبوتين مقاطعاً:
ـ بلى! إنه يدرسـه، أؤكد لك أنه يدرس الشـعب الروسـي. حتى إنه يهيىء مقالـة شـائقة جداً عـن تزايد عـدد الانتحارات في روسـيا، وبوجـه عام، عن الأسباب التي تسهل أو تقلل عدد الانتحارات. وقد وصل إلى نتائج باهرة.
احتد كيريلوف، وهمهم يقول غاضباً:
ـ ليس من حقك أن تقول هذا. أنا لا أهيّئ مقالة، ولا تخطر ببالي سـخافة من هذه السـخافات. وإنما أنا حدثتك في هـذا الموضوع عرضاً. ليس الأمر

أمر مقالة...أنا لا أنشر شيئاً... ليس من حقك أن تقول هذا الكلام.

سرّ ليبوتين سروراً كبيراً واضحاً كل الوضوح. وقال:

- معذرة. لعلني أخطأت حين أسميت عملك الأدبي مقالة. إنه يكتفي بجمع ملاحظات، ولا يمس جوهر المسألة، أعني جانبها الأخلاقي إن صح التعبير. حتى إنه ينكر الأخلاق إنكاراً تاماً، وهو من أنصار المبدأ الجديد القائل بالتدمير الشامل في سبيل تحقيق الانتصار الكامل للأفكار السليمة. إنه يطالب بقطع أكثر من مائة مليون رأس لإقامة النظام الصحيح في أوروبا، وهو في هذا يتجاوز ما طُلب في مؤتمر السلام الذي عُقد أخيراً[1]. إن ألكسي نيلتش قد مضى في هذا المضمار إلى أبعد مما مضى إليه أي إنسان آخر.

كان المهندس يصغي وهو يبتسم ابتسامة صفراء فيها احتقار. ولزمنا الصمت جميعاً خلال لحظات.

واستأنف كيريلوف كلامه أخيراً، فقال بشيء من الرصانة:

- هذا كله غباء يا ليبوتين. إذا كنت قد رويت لك بعض الأمور عرضاً فاستوليت عليها، فأنت حر في ما تفعل. ولكن ليس من حقك أن... لأنني لا أقول لأحد شيئاً في يوم من الأيام. إنني أحتقر الكلام... إذا كان للمرء اقتناعات، فالأمر يكون واضحاً. حماقة ما فعلت... أنا لا أناقش في مسائل هي عندي محلولة. إنني أكره المناقشة، ولا أجادل أبداً.

لم يستطع ستيفان تروفيموفتش إلّا أن يقول له:

- ولعلك تحسن بهذا صنعاً.

تابع المهندس كلامه يقول بنوع من الإصرار:

- إنني أعتذر أمامك، ولكنني لا أحقد على أحد هنا. أنا لم ألق إلّا قليلاً من الناس. خلال أربع سنين لم أتكلم، لم أتكلم إلّا قليلاً جداً. كنت أحاول

---

(1) "مؤتمر السلام..." هو مؤتمر "عصبة السلام والحرية" الذي عقد في جنيف سنة 1867 وحضره دوستويفسكي، فسمع خطب غاريبالدي وفكتور هوجو وهرتسن وباكونين. وإن أفكار باكونين الفوضوية هي التي يقصدها المؤلف هنا حين يذكر أن المؤتمر قد غيب آماله. لقد كتب دوستويفسكي إلى س. إيفانوفنا يقول لها في 11 تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1867: "بدؤوا بأن قالوا أنه لا بد من استئصال المسيحية للحصول على السلام في العالم. وفي رأيهم أنه متى انعدم كل شيء فإن السلام يولد".

أن لا أقابل أحداً... نعم... خلال أربع سنين. لست سريع التأذي، لكن عدم تحرّجه يزعجني.

وختم كلامه فجأة وهو يلقي علينا جميعاً نظرة واثقة، قائلاً:

ـ إذا كنت لا أعرض عليكم أفكاري وآرائي، فليس ذلك خوفاً من أن تشوا بي إلى الحكومة، أبداً. لا يذهبن بكم الظن إلى شيء من هذا، أرجوكم.

لم يجبه أحد منا عن هذه الكلمات. واكتفينا بأن تبادلنا نظرة سريعة. ليبوتين نفسه نسي أن يضحك ساخراً.

قال ستيفان تروفيموفتش بلهجة ثابتة وهو ينهض عن ديوانه:

ـ أنا آسف جداً أيها السادة، ولكنني أشعر بأنني مريض. معذرة. فهتف السيد كيريلوف يقول وهو يتناول قبعته:

ـ آ... معنى هذا أن علينا أن ننصرف. أحسنت إذ قلت لي هذا. فأنا كثير النسيان.

قال ذلك ونهض فاقترب من ستيفان تروفيموفتش ومدّ إليه يده بحركة طلقة. وأضاف يقول:

ـ يؤسفني أنك مريض، وأنني جئتك وأنت على هذه الحال...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو يصافحه هاشاً باشاً، على مهل بدون تعجل:

ـ أتمنى لك كل النجاح عندنا. إنني أفهم أن تنظر إلينا، نحن الروس الحقيقيين، بشيء من الدهشة، بعد أن عشت في الخارج مدة طويلة كما تقول، معتزلاً الناس، دون أن تفكر في روسيا. ومن الطبيعي جداً أن نحس نحن تجاهك هذا الإحساس نفسه. "ولكن ذلك سينقضي" (بالفرنسية). ليس هناك إلّا شيء واحد يضايقني: إنك تريد أن تساهم في بناء جسرنا، وتعلن في الوقت نفسه أنك من أنصار التدمير الشامل. فلن يعهدوا إليك ببناء جسرنا.

صاح كيريلوف يقول مشدوهاً:

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟

وانفجر يطلق ضحكة مرحة صريحة على حين فجأة. لقد اتخذ وجهه

تعبيراً طفولياً رأيته مناسباً له أروع مناسبة. وكان ليبوتين يفرك يديه مفتتناً بمزحة ستيفان تروفيموفتش. أما انا فلم أنقطع عن التساؤل لماذا خاف ستيفان تروفيموفتش من ليبوتين ذلك الخوف كله، ولماذا صاح يقول حين رآه: "لقد هلكت".

5

كنا واقفين جميعاً على عتبة الباب. إنها اللحظة التي يتبادل فيها الزائرون والمودّعون كلمات سريعة فيها كل الملاطفة والتودّد قبل أن يفترقوا مسرورين.

وفجأة قال ليبوتين، بإهمال، وهو يهم أن يخرج:

ـ إذا كان اليوم متجهماً فلأنه تشاجر مع الكابتن لبيادكين بسبب أخت الكابتن. إن الكابتن لبيادكين يجلد بالسوط كل يوم، مساء وصباحاً، أخته الفاتنة المجنونة (ناجايكا). حتى لقد قرر ألكسي نيلتش أن ينتقل إلى جناح بقرب المنزل كي لا يشهد مناظر التعذيب هذه. هيا! إلى اللقاء!

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل كأنما تلقى هو نفسه جلدة سوط.

ـ أخته؟ مجنونة؟ يجلدها بسوط؟ أي أخت؟ أي لبيادكين؟

وعاد الرّعب يستولي عليه من جديد.

قال ليبوتين:

ـ لبيادكين؟ لبيادكين؟ كابتن محال على التقاعد. وكان في الماضي يقول إنه كابتن مساعد...

ـ ما شأني ورتبته؟ من هي أخته هذه؟ يا إلهي!... أتقول لبيادكين؟ ولكن لقد كان عندنا هنا في الماضي رجل يقال له لبيادكين، أليس كذلك؟

ـ هو ذاته. هو "صاحبنا" لبيادكين نفسه. هل تتذكر، عند فرجنسكي؟

ـ ولكن لبيادكين ذاك قد سرّب أوراقاً نقدية مزوّرة، أليس كذلك؟

ـ رجع. رجع منذ ثلاثة اسابيع، في ظروف خاصة جداً.

ـ ولكنه وغد حقير.

ـ وهل من المستحيل أن يوجد في مدينتنا وغد؟

قال ليبوتين ذلك مبتسماً، وكانت عيناه الصغيرتان الماكرتان كأنما تجسّان ستيفان تروفيموفتش.

ـ ليس هذا ما أردت أن أقوله، يا رب! فيما يتعلق بالأوغاد أنا متفق معك كل الاتفاق، متفق معك أنت. ولكن ماذا بعد؟ ماذا بعد؟ ماذا تريد أن تقول؟ لأن من المحقق أنك لم تتكلم عن لبيادكين بدون نية مبيتة؟

ـ أوه! ذلك كله لا قيمة له!... أغلب الظن أن هذا الكابتن لم يتركنا بسبب الأوراق النقدية المزورة، وإنما ليقبض على أخته التي يقال إنها كانت مختبئة في مكان ما. وقد اقتادها الآن إلى هنا. هذه هي القصّة كلها. ما لي أراك مرتاعاً هذا الارتياع كله يا ستيفان تروفيموفتش؟ على كل حال، انا لا أزيد الآن على أن أكرر ثرثراته وهو سكران. إنه يحفظ لسانه حين لا يشرب. هو إنسان شرس، وفاسد الذوق جداً، رغم أنه يصطنع مظهر عسكري راقٍ. أما أخته فهي مجنونة، وهي فوق هذا عرجاء. يظهر أن أحداً قد أغواها، وأن السيد لبيادكين يتقاضى من الرجل الذي أغواها مبلغاً من المال بانتظام منذ عدة سنين، تعويضاً عن الإساءة التي أُلحقت بشرفه العائلي. ذلك هو، على كل حال، ما يستخرجه المرء من ثرثرته. ولكنني أعتقد ان هذا الكلام كله ليس إلّا أقاويل سكّير. فهو لا يزيد على أن يتباهى. إن الشؤون التي من هذا النوع لا تكلف مبالغ باهظة إلى هذا الحد. ولكن لا شك في أن معه مالاً: فمنذ ستة أسابيع كان حافي القدمين، والآن أرى بعينيّ في يديه أوراقاً نقدية من فئة المائة روبل. إن الأخت تصاب كل يوم تقريباً بنوبات لا ادري ما هي. فهي تطلق صرخات حادة، فيجلدها بالسوط تأديباً، وهو يقول: يجب أن تُعلّم النساء الاحترام. إنني لا أفهم حقاً كيف يحتمل شاتوف هذا الأمر، فيبقى مقيماً في هذا المنزل. لقد ضاق ألكسي نيلتش ذرعاً بعد إقامته ثلاثة أيام فحسب، فانتقل إلى الجناح المجاور هرباً من الضجة. هو يعرفهم منذ كان ببطرسبرج.

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل المهندس:

ـ هل صحيح هذا كله؟

فجمجم كيريلوف يقول غاضباً غضباً شديداً:

ـ أنت تثرثر كثيراً جداً يا ليبوتين.

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد أصبح عاجزاً عن السيطرة على نفسه:

ـ دائماً أسرار وألغاز! ما هذه الأسرار والألغاز كلها التي تنبجس من حولنا!

قطّب المهندس حاجبيه، واحمرّ وجهه، ورفع منكبيه، واتجه نحو الباب.

قال ليبوتين مضيفاً:

ـ حتى إن ليبوتين انتزع من بين يديه السوط، ثم حطّمه ورماه من النافذة. لقد تشاجرا تشاجراً قوياً لهذا السبب.

قال ليبوتين وهو يستدير فجأة:

ـ لماذا تروي هذه الأمور كلها يا ليبوتين؟ ما حاجتك إلى ذلك؟ لماذا؟

ـ ولماذا أكتم بالتواضع الهزات النبيلة التي قامت في نفسه؟ أقصد تواضعك أنت، لا تواضعي أنا.

ـ ما أغبى هذا كله! وما أقل جدواه وفائدته! إن لبيادكين غبي وحقير، ولا حيلة لنا في الأمر... بل إنه ضار! لماذا تهذر هذا الهذر كله؟ أنا ذاهب.

هتف ليبوتين يقول وهو يبتسم ابتسامة ساذجة:

ـ آه... خسارة! كنت أريد أن أسلّيك يا ستيفان تروفيموفتش، بأن أقصّ عليك حكاية أخرى صغيرة. حتى لقد كان هذا هدف زيارتي. ولكن أغلب الظن أنك سمعتها. فإلى المرة القادمة: إن ألكسي نيلتش مستعجل جداً. إلى اللقاء. تلك القصة الصغيرة تتعلق بفرفارا بتروفنا. لقد سلّتني كثيراً أمس. استدعتني خصيصاً. شيء يفطّس من الضحك! إلى اللقاء.

ولكن ستيفان تروفيموفتش لم يشأ عندئذ أن يدعه. فأمسك بكتفيه، وأداره، وأعاده إلى الغرفة، وأجلسه على كرسي. حتى لقد خاف ليبوتين قليلاً.

بدأ ليبوتين يتكلم فقال وهو يلقي على ستيفان تروفيموفتش نظرة محاذرة:

ـ لقد استدعتني ذات يوم، وسألتني أن "أُسرَّ إليها" برأيي في نيقولاي فسيفولودوفتش: أهو سليم العقل أم لا؟ أليس هذا مثيراً للدهشة؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول:

ـ أنت مجنون!

ثم إذا هو ينفجر قائلاً:

ـ أنت تعلم جيداً يا ليبوتين أنك لم تجئ إلّا لتقصّ عليّ قصة دنيئة من هذا النوع... أو أسوأ من ذلك...

سرعان ما تذكرت الشبهات القائمة في ذهن ستيفان تروفيموفتش، وهي أن ليبوتين يعرف من أمرنا أكثر مما نعرف، بل ويعرف أموراً لن نعرفها نحن في يوم من الأيام.

جمجم ليبوتين يقول مصطنعاً الرعب:

ـ رحماك يا ستيفان تروفيموفتش. ما هذا الذي تقول؟

ـ كفى! قل كل شيء. أرجوك ملحاً يا كيريلوف أن تعود فتشهد حديثنا. ارجوك! اجلس. والآن ابدأ يا ليبوتين، هيا، وبلا تمهيد!

ـ لو كنت أعلم أن الأمر سيفجؤك إلى هذا الحد، لما قلت شيئاً. لكنني كنت أتخيل أن فرفارا بتروفنا لا بد أن تكون قد أطلعتك على كل شيء.

ـ أنت تعلم تماماً أن لا شيء من هذا البتة. هيا ابدأ!

ـ ولكن اجلس أنت أيضاً، أرجوك. لو بقيت أنا جالساً وبقيت أنت تجري في الغرفة ثائر الأعصاب فسوف أرتبك...

سيطر ستيفان تروفيموفتش على نفسه وجلس برصانة على مقعد. وأطرق المهندس إلى الأرض عابس الوجه. وكان ليبوتين ينظر إليهما بتلذذ كبير.

ـ كيف أتكلم الآن؟ إنني أشعر باضطراب شديد...

6

أمس الأول زارني خادم من عند فرفارا بتروفنا وقال لي: "مولاتي تطلب

منك أن تجيء إليها غداً في الظهر" تخيل هذا! تركت جميع مشاغلي، وفي الظهر كنت أقرع بابها، أُدخلت إلى الصالون. وظهرت هي بعد دقيقة. فأجلستني، وجلست قبالتي. لم أصدّق عينيّ. أنت تعلم كيف كانت تعاملني دائماً. قالت لي: "إنك تتذكر أن نيقولاي فسيفولودوفتش قد ارتكب، منذ أربع سنين، بضعة أعمال غريبة أدهشت جميع الناس، إلى اليوم الذي اتضح فيه كل شيء. إن أحد تلك الأعمال قد تناولك أنت شخصياً. وما إن أبلّ نيقولاي فسيفولودوفتش من مرضه حتى ذهب ليزورك تلبية لرغبتي. وإني لأعلم من جهة أخرى أن أحاديث كثيرة كانت قد جرت بينكما من قبل. فقل لي إذن بصراحة، بصدق كامل، ماذا كان... (هنا اضطربت قليلاً)... ماذا كان رأيك عندئذ في نيقولاي فسيفولودوفتش؟... ماذا قام في ذهنك عندئذ عنه؟... وما رأيك فيه الآن؟...".

هنا اضطربت اضطراباً كاملاً، حتى لقد بلغت من الاضطراب أنها صمتت دقيقة كاملة واحمرّت، وانتابني أنا من ذلك رعب. ثم استأنفت كلامها فقالت بلهجة لا أصفها بأنها مؤثرة (فهذا الوصف لا يناسبها) وإنما أصفها بأنها ذات دلالة. قالت:

"أريد أن تفهمني جيداً، وألا يقوم بيننا أي سوء تفاهم. لقد استدعيتك لأنني أعدّك رجلاً حصيف الرأي ذكياً قادراً على أن ترى الأمور كما هي. وإنك لتدرك أيضاً أن أماً هي التي تتوجّه إليك وتعتمد عليك (انظر إلى هذه الملاطفات والمجاملات!). إن نيقولاي فسيفولودوفتش قد قاسى أثناء حياته من بعض المصائب، وعرفت حياته أنواعاً من الاضطرابات. فمن الجائز أن يكون هذا قد أثّر في حالته النفسية. أنا لا أتحدّث عن الجنون طبعاً. فالأمر لا يمكن أن يكون جنوناً (قالت ذلك بقوة وكبرياء). ولكن لعل فيه شيئاً من الشذوذ في الآراء والتفرّد في الأفكار، لعل له ميلاً غريباً إلى مواجهة الأمور من زاوية خاصة وإلى رؤية الأشياء رؤية فريدة. (هذه هي أقوال فرفارا بتروفنا بألفاظها، ولم يسعني إلّا أن أُدهش يا ستيفان تروفيموفتش من وضوح شروحها!).

وقد لاحظت فيه أنا نفسي اضطراباً مستمراً وميولاً غريبةً. ولكنني أمه، أما أنت فغريب عنه. لذلك أتوسل إليك (نعم، هذا بعينه هو ما قالته: "أتوسل إليك") أن تقول لي الحقيقة كلها دون أي تكلّف. وإذا وعدتني عدا ذلك بأن لا تنسى بأن حديثي إليك سر ما ينبغي أن تبوح به لأحد، كان في وسعك أن تكون على يقين من أنني سأكون مستعدة لأن أبرهن لك على امتناني وشكري متى سنحت المناسبة". فما رأيك؟

قال ستيفان تروفيموفتش مدمدماً:

ـ إني قد بلغت من الاندهاش أنني لا أصدّقك.

قال ليبوتين وكأنه لم يسمع جملة ستيفان تروفيموفتش:

ـ لا، ولكن لاحظ مدى الانفعال الذي لا بد أنه كان يهزّ نفسها ومدى التعلق الذي لا بد أنه كان يعذّبها حتى تتنازل فترضى أن توجه سؤالاً كهذا السؤال إلى رجل مثلي، وتتواضع فتقبل أن تطلب السرّ مني أنا. ما معنى هذا؟ أتراها تلقت أنباء جديدة عن نيقولاي فسيفولودوفتش؟

ـ لا أدري... لا أنباء... إنني لم أرها منذ بضعة أيام.

نطق ستيفان تروفيموفتش بذلك ثم جمجم يقول، وكان واضحاً أنه أصبح في تلك اللحظة عاجزاً عن ترتيب أفكاره:

ـ ولكنني ألفت نظرك يا ليبوتين... نعم... ألفت نظرك إلى أنها أفضت إليك بهذا سرّاً من الأسرار، ثم ها أنت ذا تقصّه علينا جميعاً...

ـ نعم، أفضت إليّ سرّاً من الأسرار! ولكن ألا فلينزل عليّ الله صاعقة في هذه اللحظة نفسها إذا كنت قد... أما ما قلته الآن هنا فلا قيمة له. لقد قلته بيننا، وليس ألكسي نيلتش غريباً.

ـ لا أشاركك رأيك. إن بيننا ثلاثة سيحفظون السر حتماً، لكنني أخشى الرابع وهو أنت. إنني لا أثق بك أية ثقة.

قال ليبوتين:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ إنني أحرص من اي واحد آخر على كتمان السر، لانني وُعدت بأن أُكافأ إلى الأبد. ولكنني في هذه المناسبة أريد أن أشير

لك إلى واقعة شائقة إلى أبعد حد، شائقة من الناحية السيكولوجية. في مساء أمس، وأنا تحت تأثير الحديث الذي جرى بيني وبين فرفارا بتروفنا (تستطيع بسهولة أن تتصور الانطباع الذي خلّفه ذلك الحديث في نفسي)، سبرت غور ألكسي نيلتش على نحو خفي قائلاً له: إنك قد عرفت نيقولاي فسيفولودوفتش في الخارج وفي بطرسبرج، فما رايك في ذكائه وفي قدراته؟ فأجابني ألكسي نيلتش بإيجاز: هو رجل مرهف الذكاء سديد الرأي. فسألته: ألم تلاحظ فيه مع ذلك شيئاً من ميل غريب شاذ في أفكاره، ألم تلاحظ فيه نوعاً من تفكير خاص، أو قل على الجملة ضرباً من جنون؟ لقد كررت السؤال التي كانت فرفارا بتروفنا قد ألقته عليّ. فتصوّر! لقد شرد ذهن ألكسي نيلتش لحظة وقطّب حاجبيه كما يقطّبهما الآن تماماً، ثم قال: نعم، لقد بدا لي غريب الأطوار أحياناً. فكّر في نفسه: إذا بدت بعض الأشياء غريبة عجيبة حتى لألكسي نيلتش، فما عسى أن يكون الأمر في الواقع؟

قال ستيفان تروفيموفتش يسأل كيريلوف:

ـ أهذا صحيح؟

فأجاب ألكسي نيلتش فجأة رافعاً رأسه وقد سطعت عيناه:

ـ أفضّل أن لا أتكلم في هذا. ليس لك حق يا ليبوتين. لا يجوز لك أن تذكر هذه الحادثة. إنني لم أعبّر عن رأيي كلّه ابداً. لقد عرفت نيقولاي فسيفولودوفتش في بطرسبرج، ولكن منذ زمن بعيد، ورغم أنني التقيت به الآن من جديد، فإنني لا أعرفه إلّا قليلاً جداً. وإن كلامك كله يشبه أن يكون نمائم.

رفع ليبوتين ذراعيه إلى السماء كأنما يستشهدها على براءته التي طعن فيها صاحبه وقال:

ـ أنا نمّام؟ ولماذا لا أكون جاسوساً كذلك؟ سهل عليك أن تنتقد الآخرين يا ألكسي نيلتش بعد أن سحبت يدك من الأمر، وتنصّلت! لعلك لن تصدّق ما سأقوله لك الآن يا ستيفان تروفيموفتش، ولكن اسمعه: إن الكابتن لبيادكين ـ وأنت تعلم أنه غبي مثل... لا أجرؤ أن أنطق بالكلمة

ولكنك تعرف المثل الروسي[1] ـ اقول إن الكابتن لبيادكين، رغم أنه يجلّ ذكاء نيقولاي فسيفولودوفتش، يرى أن هذا الشاب قد اعتدى عليه وأساء إليه. وهو يقول: "هذا الرجل يذهلني: إنه أفعوان بارع كل البراعة" (هذه ألفاظه نفسها). وها أنا ذا أسأله (وكنت ما أزال تحت تأثير لقائي مع فرفارا بتروفنا، بعد حديثي مع نيقولاي نيلتش): "ما رأيك في صاحبك الذي تصفه بأنه أفعوان بارع كل البراعة، أليس مجنوناً؟"، فكأنني بهذا السؤال قد لسعته بسوط، فإذا هو يثب قائلاً "نعم، نعم، ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر.." "يؤثر في ماذا؟ هو لم يكمل جملته. ثم غرق في نوع من أحلام كئيبة مظلمة حتى أن سكره تبدّد أخيراً. كنا في الحانة عند فيليبوف. وبعد نصف ساعة، ضرب المائدة بقبضة يده فجأة وهتف يقول: "نعم، جائز جداً أنه مجنون. ولكن ذلك لا يمكن أن يؤثر...". وصمت مرة أخرى فلم يكمل جملته. لست أنقل إليك طبعاً إلّا الشيء الأساسي من الحديث الذي جرى بيننا. ولكن الأمر واضح وضوحاً تاماً: اسأل مَنْ شئت من الناس يجيبوك هذا الجواب نفسه، حتى أولئك الذين لم يسبق ان خطرت لهم هذه الفكرة على بال: "نعم، هو مجنون. إنه ذكي جداً، ولكن من الجائز أيضاً أن يكون مجنوناً".

كان ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن يفكر في شيء ما تفكيراً عميقاً.

ـ وكيف علم لبيادكين؟

ـ عن هذا اسأل أليكسي نيلتش الذي وصفني منذ هنيهة بأنني جاسوس. أنا جاسوس، ولكنني لا أعرف شيئاً، أما ألكسي نيلتش فإنه يعرف كل شيء ويسكت.

أجاب المهندس قائلاً بتلك اللهجة الغاضبة نفسها:

ـ لا أعرف شيئاً، أو لا أعرف شيئاً ذا بال. إن تسكر لبيادكين لتحمله على أن يثرثر. وقد جئت بي إلى هنا لأتكلم فانت إذن جاسوس.

ـ أنا لم أسقه بعد، ثم إنه هو وأسراره كلها لا يساويان في رأيي ثمن

---

(1) يظهر أن الإشارة هنا إلى مثل روسي ترد فيه ألفاظ قاسية..

الشـراب. لا أدري مـا قيمة هذه الأسـرار عنـدك، أما عندي أنا فليـس لها أية قيمة. بالعكس: إنه هو الذي يبدّد المال الآن، بعد أن كان منذ اثني عشـر يوماً يتضـرّع إلـيّ أن أعطيه خمسـين كوبـكاً. إنه هو الذي يسـقيني الآن شـمبانيا. ولكنك تلهمني فكرة طيبة: سوف أسكره إذا احتاج الأمر، من أجل أن أعرف الحقيقة. ومن الجائز جداً أن أكتشف حينذاك... جميع أسرارك الصغيرة.

كذلك أجب ليبوتين فجأة بلهجة شرسة.

كان سـتيفان تروفيموفتـش يتأمـل الخصميـن متحيـراً كل التحيـر. إنهما يفضحـان نفسـيهما، وأكثـر مـن ذلك أنهمـا لا يحـاولان حتى إخفـاء ذلك. وسـرعان مـا خطر ببالي أن ليبوتيـن إنما جاء بكيريلوف هذا لا لشـيء إلّا أن يسـتدرجه إلى حديث مع شـخص ثالـث فيحمله بذلك علـى الكلام، وتلك كانت طريقته المفضّلة.

وتابع ليبوتين كلامه في حنق:

ـ إن ألكسـي نيلتـش يعرف نيقـولاي فسـيفولودوفتش كل المعرفة، لكنه يخفي ذلك. أما الكابتن لبيادكين فإنني أجيب عن سؤالك بأنه عرف نيقولاي فسـيفولودوفتش ببطرسـبرج، قبلنـا جميعاً بمدة طويلة، منذ خمس سـنين أو سـت، أثنـاء تلك الفترة الغامضة مـن حياة نيقولاي، إن جاز هـذا التعبير، أي حيـن كان نيقولاي لا يخطر بباله أن يشـرفنا بزيارته. يجب أن نعتقد ان أميرنا كان في ذلك الحين يحيط نفسه بأناس عجيبين. وفي ذلك الحين، فيما أظن، إنما انعقدت الصلة بينه وبين ألكسي نيلتش.

ـ حذار يا ليبوتين. إنني أنبهك إلى أن نيقولاي فسـيفولودوفتش قادم إلى هنا قريباً، وهو رجل يعرف كيف يدافع عن نفسه.

ـ وما شأني أنا؟ إنني أول من يصيح قائلاً في كل مكان إنه من أرهف الناس ذكاء وأكثرهـم ثقافة، حتى لقد طمأنت فرفـارا بتروفنا تماماً من هذه الناحية، وأضفت أقول لها: "لكنني لا أسـتطيع أن أجيب بشيء عن طبعه"، ولبيادكين يرى هذا الرأي نفسه. لقد قال لي: "إن طبعه هو ما عانيت منه وكنت ضحيته". آه يا سـتيفان تروفيموفتش! سهل عليك ان تتهمني بأنني نمّام وجاسوس بعد

أن استخرجت مني كل شيء بكثير من الاستطلاع والفضول. لقد استطاعت فرفارا بتروفنا أن تضع إصبعها على النقطة الحساسة فقالت: "إنني أتوجه إليك لأن الأمر يهمك شخصياً". نعم، أعتقد أن الأمر يهمني! لا داعي إلى البحث عن بواعث أخرى، ما دام قد أهانني إهانة شخصية اضطررت أن أبلعها أمام المجتمع كله. يبدو لي إذن أنني كنت أهتم لأسباب هامة جداً لا حباً بالنميمة والتقوّل. هو اليوم يصافحك، ثم إذا به في الغد، إذا استبدت به النزوة، يشكر لك حسن ضيافتك وكرمك بأن يصفعك على وجهك أمام مجتمع محترم. وما ذلك كله إلّا لأنه يشعر بسأم وضجر ولا يعرف ماذا يفعل بقواه. على أن الأمر الأساسي عند أمثال هؤلاء الناس إنما هو النساء. إنهم ديكة، يطير أحدهم من واحدة إلى أخرى بأجنحة صغيرة كأجنحة عشّاق الأساطير القديمة. سهل عليك يا ستيفان تروفيموفتش، وأنت عازب قاسي القلب، أن تدافع عن "معاليه" وان تصفني بأنني نمّام. ولكن إذا تزوجت امرأة شابة وجميلة ـ وذلك أمر قد يحدث طبعاً، لأنك ما تزال رجلاً ـ فمن الجائز أن توصد بابك بمزلاج في وجه أميرنا، وأن تقيم حول بيتك أسواراً. سأقول لك بصراحة: إن هذه الآنسة لبيادكين التي تُجلد بالسوط، لو لم تكن مجنونة وعرجاء لاعتقدت أنها كانت ضحية أهواء أميرنا وأن هذه هي الإهانة التي أُلحقت "بالشرف العائلي" للبيادكين، على حد تعبير الكابتن نفسه. صحيح أن الذوق المرهف لدى "معاليه" يتعارض مع هذا الافتراض ولكن... هه.. ما أظن أن هذا أمراً يمكن أن يصدّه! إن جميع الثمار تطيب له متى كان مهيّأ النفس لاقتطافها. أنت تقول إنني أُذيع نمائم كاذبة. فاعلم إذن أن المدينة كلها لا حديث لها الآن إلّا في هذا الموضوع. وأنا أكتفي بأن أسمع وأؤيد. أظن أن التأييد غير محظور!

ـ المدينة كلها تتحدّث في الموضوع؟ في أي موضوع؟

ـ الأصح أن الكابتن لبيادكين هو الذي يعلن ذلك جهاراً نهاراً حين يسكر. ولكن الأمرين واحد. فأي ذنب أرتكب أنا؟ أنا لا أتكلم في الموضوع إلّا بين أصدقاء. ألسنا هنا أصدقاء على كل حال؟

قال ليبوتين ذلك وهو ينظر إلينا ببراءة. وتابع كلامه يقول:

ـ إليـك الأمر: يظهر أن "معاليه" قد استودع بسويسـرا آنسـة محترمة هي يتيمة يشرّفني أنني أعرفها، استودعها ثلاثمائة روبل طالباً منها أن توصلها إلى الكابتـن لبيادكين. ثم عرف لبيادكين بعد فترة من الوقت، عرف من شـخص محترم هو أيضاً، جدير بالثقة إذن (ولن أسمّي هذا الشخص) أن المبلغ الذي أُرسـل إليـه ليس ثلامائـة روبل بل ألـف روبل. وهـا هـو ذا لبيادكين يمضي يصرخ في كل مكان أنّ الفتاة التي اؤتمنت على المال لتوصله إليه قد سرقت منه سبعمائة روبل، بل ها هو ذا يريد أن يشكو الفتاة إلى الشرطة. وقد هدّدها بذلك على كل حال، واثار فضيحة في المدينة كلها.

صاح المهندس قائلاً وهو ينهض على حين فجأة:

ـ هذه دناءة منك، هذه دناءة!

ـ ولكنك أنت ذلك الشـخص المحترم الجدير بالثقة الذي أبلغ لبيادكين، نقـلاً عـن نيقـولاي فسـيفولودوفتش أن المبلـغ ألـف روبـل لا ثلاثمائة. إن الكابتن هو الذي قال ذلك في حالة سكر.

ـ هـذا خطـأ في الفهم... خطأ مؤسـف محزن.. لقد وقع خطأ، فنشـأ عن ذلك الخطأ أن... على كل حال، لا قيمة لهذا كله. وتلك دناءة منك!...

ـ هذا كله لا قيمة له فعلاً، وأنا حزين لتلك الشـائعات كلها ولك أن تقول عـن كلامي ما تشـاء، أولاً أن فتاة محترمة قد أُقحمـت في هذه القضية، وثانياً لأن هـذه الفتاة مقتنعة بأن بينها وبين نيقولاي فسـيفولودوفتش صلة حميمة. إن "معاليـه" لن يتورّع طبعاً عن الإسـاءة إلى سـمعة فتاة نبيلـة، أو عن تلطيخ شـرف زوجـة رجل آخـر، كما حدث لي أنـا؟ وإذا وقع علـى رجل ذي نفس سـمحة كريمة، فسيرتب أمره بحيث يجعل هذا الرجل يغطي باسمه المحترم خطايا غيره. ذلك بعينه هو ما حدث لي إنني أتكلم عن نفسي...

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض عن مقعده شاحباً كل الشحوب:

ـ حذار يا ليبوتين!

وصرخ المهندس يقول مضطرباً:

ـ لا تصدّقـه، لا تصدّقـه! إن أحداً قد أخطـأ، وليس لبيادكين إلّا سـكّيراً! سوف يتضح كل شيء... ولكنني لا أقدر الآن... هذه دناءة... كفى! كفى!...

وأسرع يخرج من الغرفة. فهتف ليبوتين يقول مدهوشاً:

ـ هيه! ماذا تفعل؟ انتظرني! سأصطحبك!

واندفع يركض وراء ألكسي نيلتش.

7

لبث ستيفان تروفيموفتش شارد الذهن لحظة، ثم نظر إليّ، ولكن دون أن يراني إن صح التعبير، ثم تناول قبعته وعصاه وخرج من الغرفة صامتاً. فتبعته كما تبعته منذ برهة. حتى إذا صار عند باب المدخل لاحظ وجودي فقال:

ـ آ.. نعم.. تستطيع أن تكون شاهداً... على "ما حدث" ستصحبني، أليس كذلك؟ (بالفرنسية).

ـ كيـف يا سـتيفان تروفيموفتش؟ أتذهب إلى هناك؟ هـلّا فكرت فيما قد ينجم عن ذلك؟

فتوقف عندئذ، وجمجم مبتسـماً ابتسامة زائغة تثير الشفقة، ابتسامة خزي وعـار، وكمـد ويأس، ولكن فيها مع ذلك نوعاً من حماسـة غريبة فيما تراءى لي. قال:

ـ لا أستطيع أن أتزوج لأغطي "خطايا الغير"...

كنـت أتوقع هـذه الكلمات. هـا هو ذا يفصح لـي أخيراً، بعد أسـبوع من التلميحـات، هـا هـو ذا يكشـف لي عـن فكرتـه الخفيـة التـي أخرجتني عن طوري، فهتفت أقول له:

ـ كيـف يمكـن أن تراودك فكرة تبلغ هذا المبلغ مـن القذارة... وتبلغ هذا المبلغ من الخسـة، أن تراودك انت يا ستيفان فرخوفنسكي، انت الذي تملك كل مـا تملكه مـن ذكاء واضح وقلب طيب! ولقد راودتـك هذه الفكرة حتى قبل زيارة ليبوتين! فكيف يحدث هذا؟ كيف؟

نظر إليّ دون أن ينطق بكلمة وتابع سـيره. ولكنني لم اشـأ أن أتركه. كنت

أريد أن أشهد أمام فرفارا بتروفنا بما جرى. وقد كان يمكن أن أغفر له، بسبب ضعفه الذي يشبه ضعف النساء، لو أن الفكرة التي ساورته قد جاءته من كلام ليبوتين، ولكن كان واضحاً الآن أنه فكر في الأمر قبل زيارة ليبوتين بكثير، فليبوتين لم يزد على أن ثبّت شكوكه وصبّ على النار زيتاً، إنه لم يتردّد عن الاشتباه في الفتاة منذ اليوم الأول، ولم ينسب القرارات المستبدة التي اتخذتها فرفارا بتروفنا إلّا إلى رغبتها في أن تغطي خطايا ابنها الحبيب نيقولاي بزواج محترم يتم بأقصى سرعة. وتمنيت لو يعاقب على هذه الفكرة.

بعد نحو مائة خطوة هتف ستيفان تروفيموفتش يقول وهو يتوقف على حين فجأة:

ـ اللهم يا كريم يا رحيم! أين لي من يهدّئ قلبي ويدخل السكينة إلى نفسي؟

قلت له وأنا أديره إلى الوراء:

ـ لنرجع إلى البيت وسأشرح لك كل شيء.

وهنا رنّ في مسمعنا صوت كالموسيقا، صوت فتيّ مرح ندي طري يقول:

ـ إنه هو! ستيفان تروفيموفتش؟ ألست هو؟

ـ لم نكن قد لاحظنا فتاة على صهوة جواد قد توقفت بالقرب منا. إنها ليزافتا نيقولايفنا مع صاحبها الوفي.

ونادت تقول بفرح:

ـ تعال، تعال، أسرع! عرفته رغم أنني لم أره منذ اثنتي عشرة سنة، وهو... ألم تعرفني حقاً؟

تناول ستيفان تروفيموفتش اليد التي مدّتها إليه الفتاة، وقبّلها باحترام. ونظر إلى الفتاة كالمتعبّد، عاجزاً عن النطق بكلمة واحدة.

قالت:

ـ نعم، عرفني، وهو سعيد. إنه مسرور برؤيتي أعظم السرور يا مافريكي نيقولايفتش. أتكون هنا منذ خمسة عشر يوماً ولا تزورنا؟ كيف هذا؟ كانت عمتي تؤكد لي أنك مريض، وأنه ما يجب إزعاجك. لكنني كنت أعلم أنها

تكـذب. وكنـت أتميّز غيظاً، وأشـتمك، ولكنني كنت أحـرص حرصاً مطلقاً علـى أن تكون أنـت البادئ، على أن تخطـو أنت الخطوة الأولـى. لذلك لم أرسل أحداً في طلبك.

ثم قالت وهي تنحني من على سرجها وتتأمله متفرّسة:

ـ ربـاه! إنه لم يتغير البتة. حتى ليكاد يكـون ذلك مضحكاً. ولكن غضوناً كثيرة توجد مع ذلك حول عينيه وعلى خدّيه، كم أن شـعره قد ابيضّ، غير أن عينيـه ما تزالان على عهدي بهما. وأنا، هل تغيّرت؟ قل لي.. هل تغيرت؟ ما لي أراك صامتاً لا تتكلم؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بصوت كسّره الفرح:

ـ أنـت... لقـد هتفت منـذ لحظة قائـلاً: "أين لي من يهـدئ قلبي ويدخل السـكينة إلى نفسـي؟..." ثم إذا أنا أسـمع صوتك... إنني أعـدّ هذا معجزة، "وبدأت أؤمن" (بالفرنسية).

ـ "بالله؟ بالله العلي القديـر الرحيم؟" (بالفرنسـية). أرأيـت كيف أنني ما زلت أحفظ دروسـك عـن ظهر قلب. ليتك تعلم يـا مافريكي نيقولايفتش كـم كان يغرس في نفسـي الإيمان "بالله العلي القدير الرحيم!" (بالفرنسـية) هـل تتذكر أقاصيصـك عن كريسـتوف كولومبس واكتشـاف أمريكا، وكيف صرخـوا جميعـاً يقولـون: "أرض! أرض!"؟ تقـول خادمتي أليونـا فرولوفنا إننـي حلمت في الليلة التاليـة، فكنت أتكلم أثناء النـوم بصوت عال صارخة "أرض! أرض!". وهـل تذكـر كيـف كنـت تقـصّ علـيّ قصـة هاملت؟ ثم كنت تشـرح لي أيضاً كيف كانـوا ينقلون المهاجرين التعسـاء من أوروبا إلى أمريـكا. وكان كلامك غير صحيح. عرفت ذلك فيما بعد. ما كان أحلى كذبه يـا مافريكي نيقولايفتـش! كان كذبه أحسـن من الحقيقة! ما بالـك تتأمل في مافريكي نيقولايفتش هذا التأمل؟ هذا أحسـن إنسان وأوفى إنسان على وجه الأرض، ويجـب عليـك حتماً أن تحبه بقدر ما تحبني. "إنه يفعل كل ما أريد" (بالفرنسـية). ولكـن ها أنت إذن شـقي من جديد يا سـتيفان تروفيموفتش ما دمت قد سمعتك تصيح في الشارع: من لي بمن يهدّئ قلبي ويدخل السكينة إلى نفسي؟ أأنت شقي؟ قل!

ـ أنا الآن سعيد...

ـ عمتي هي التي تعذبك... هذه العمة السيئة، الظالمة، العزيزة مع ذلك! هل تذكر كيف ارتميت بين ذراعي في الحديقة، وكيف واسيتك فيما كنت تبكي؟ لا تتحرّج أمام مافريكي نيقولايفتش! إنه يعرف كل شيء عنك، كل شيء تماماً، منذ مدة طويلة. في وسعك أن تبكي على كتفه ما اشتهى قلبك البكاء، فيبقى واقفاً في مكانه لا يتحرك... ارفع قبعتك قليلاً، بل وانزعها تماماً لحظة وقرّب رأسك، وتطاول على رؤوس الأصابع، لاقبل جبينك كما قبلتك في آخر مرة يوم افترقنا. انظر إلى هذه الآنسة التي تنظر إلينا معجبة من النافذة! هيا! اقترب! أيضاً! رباه! ما اكثر ما ابيضّ شعره!

ومالت من على سرجها فقبّلت جبينه.

ـ والآن، عد إلى البيت! أنا اعرف أين تقيم، وسآتي إليك فوراً، بعد دقيقة. سأكون البادئة بزيارتك أيها العنيد، ثم يكون عليك بعد ذلك أن تأتي إلينا فتقضي عندنا نهاراً بكامله. هيا! استعد لاستقبالي!

ومضت تجري بحصانها بصحبة فارسها جرياً سريعاً. وعدنا إلى البيت.

جلس ستيفان تروفيموفتش على الديوان، وطفق يبكي وهتف يقول:

ـ "يا رب! يا رب! هذه أخيراً دقيقة من سعادة!" (بالفرنسية).

وبعد دقيقتين وصلت بارّة بوعدها، يصحبها مافريكي نيقولايفتش أيضاً.

قال ستيفان تروفيموفتش وهو ينهض لاستقبالها:

ـ "أنت والسعادة تصلان في آن واحد" (بالفرنسية).

قالت:

ـ هذه باقة أزهار لك، أتيتك بها من عند مدام شوفالييه. إن عندها أزهاراً طرية طوال الشتاء لأيام الأعياد وحفلات الميلاد. وهذا مافريكي نيقولايفتش. تعارفا، ارجوكما! خطر ببالي أن آتيك بقرص جاتوه بدلاً من باقة الأزهار، ولكن مافريكي نيقولايفتش يؤكد أن هذا ليس من "الموضة" في روسيا.

إن مافريكي نيقولايفتش، وهو كابتن في المدفعية، يجب أن يكون

في نحو الثالثة والثلاثين من العمر. رجل فارع القامة وسيم مهيب يوحي بالاحترام، في وجهه رصانة تكاد تبدو في النظرة الأولى قسوة. غير أن المرء سرعان ما يلاحظ، حين يعرفه، أنه طيب القلب إلى أقصى حد، وأنه رقيق الشعور كل الرقة. فهو قليل الكلام، يبدو مسيطراً على نفسه، ولا يحاول أن يلتمس صداقة أحد. وقد قيل عنه فيما بعد أنه ليس على جانب كبير من الذكاء، ولكن هذا القول ليس صحيحاً كل الصحة.

لن أحاول أن أصف جمال ليزافتا نيقولايفنا التي كانت المدينة كلها تتكلم عن جمالها، رغم احتجاج بعض سيداتنا وبعض آنساتنا. إن بعضهن يكرهن ليزافتا نيقولايفنا منذ الآن، ويأخذن عليها كبرياءها قبل كل شيء: آل دروزدوف لمّا يزوروا أحداً بعدُ، تقريباً، فكان الناس في المدينة مستائين من ذلك، رغم أن هذا التأخر ليس له من سبب غير سوء صحة براسكوفيا إيفانوفنا. وكنّ يكرهنها أيضاً لأنها قريبة زوجة الحاكم، وكنّ يكرهنها أخيراً لأنها تقوم بنزهة على الحصان في كل يوم. لم يكن أحد عندنا يرتدي لباس الأمازون بعد، فكان طبيعياً أن يغتاظ مجتمعنا حين يرى ليزافتا نيقولايفنا تتنزه على الحصان، رغم أنها لم تقم بزيارات بعد. وكان معروفاً مع ذلك أن هذه النزهات إنما نصحها بها الأطباء، ولكن الناس كانوا يستغلون هذا لإبداء ملاحظات لاذعة حول صحّتها. والحق أن صحتها لم تكن جيدة، حتى إن المرء يرى فيها منذ أول نظرة نوعاً من الاضطراب المَرَضي المستمر المتصل. وا حزناه! لقد كانت الصغيرة المسكينة تقاسي كثيراً، وقد اتضح كل شيء فيما بعد. الآن، حين أستحضر ذكريات الماضي، لن أقول إنها جميلة جمالاً رائعاً كما بدت لي حينذاك. ولعلها لم تكن جميلة البتة. إنها طويلة، نحيلة، ولكنها مرنة قوية، وهي تخطف البصر بما في خطوط وجهها من قلة الاتساق. عيناها تعلوان نحو الصدغين مواربتين. وهي إلى ذلك هزيلة الجسم ناتئة الوجنتين، شاحبة اللون. غير أن في هذا الوجه كذلك شيئاً يخلب اللب ويأسر القلب، وثمة قوة عجيبة تنبع من عينيها الكحلاوين، الحارّتين. إذا رآها المرء قال لنفسه إنها قد اعتادت الفوز حتماً. فهي متكبرة، حتى إنها في

بعض الأحيان متغطرسة. لا أدرى هل كان في وسعها أن تكون طيبة، لكنني أعلم أنها كانت تريد ذلك كثيراً، وكانت تبذل جهوداً هائلة للتوصل إليه. لا شك أنها زاخرة بتطلعات كريمة وإرادات نبيلة، لكنها تحاول أن تهتدي إلى توازنها دون أن تظفر بذاك، وكان كل شيء فيها مضطرباً مشوَّشاً. لعلها كانت تسرف في القسوة على نفسها، ولكنها لا تجد القوة التي تمكنها من تحقيق هذه المطالب.

جلست على الديوان، وأجالت بصرها في الغرفة. ثم قالت:

ـ لماذا أحس دائماً بالحزن في مثل هذه اللحظات؟ اشرح لي هذا وأنت العالم! لقد تخيلت دائماً أنني سأسعد سعادة جنونية حين أراك ثانية فأتذكر كل شيء، ثم ها أنذا أحس أنني لست سعيدة البتة. وإني مع ذلك لأحبك. رباه! لقد علّق صورتي على الحائط. أعطني هذه الصورة! إنني أتذكر! كيف لا؟

إنها صورة ليزا وهي في الثانية عشرة من عمرها، هي صورة رائعة صغيرة مرسومة بالألوان المائية، أرسلها آل دروزدوف إلى ستيفان تروفيموفتش من بطرسبرج. ومنذ ذلك الحين لم تبارح الصورة حائط غرفته.

ـ هل ممكن أنني كنت جميلة هذا الجمال كله في طفولتي؟ أهذا وجهي حقاً؟

قالت ذلك ونهضت حاملة الصورة بيدها، ونظرت إلى نفسها في مرآة. ثم هتفت تقول وهي تمد الصورة إلى ستيفان تروفيموفتش:

ـ خذها. أسرع. ولا تعلقها الآن. علقها فيما بعد. لا أريد أن أراها.

وعادت تجلس على الديوان. ثم تابعت كلامها تقول:

ـ حياة تمضي، وأخرى تبدأ، ثم تمضي الثانية لتحل محلها ثالثة... وهكذا دواليك إلى غير نهاية. النهايات كلها تشبه أن تكون مقطوعة بمقص. هذا كلام معاد مكرر أقوله لك. ولكن ما أصدق ما يعبّر عنه!

ونظرت إلي مبتسمة. وكانت قد رشقتني قبل ذلك بنظرات خاطفة مراراً. ولكن ستيفان تروفيموفتش كان قد نسي، من شدة انفعاله، وعده بأن يقدمني إليها.

قالت:

ـ ولمـاذا تعلق صورتي تحت هذه الخناجر؟ ولمـاذا عندك هذه الخناجر والسيوف كلها؟

لا أدري لمـاذا كان سـتيفان تروفيموفتش قد علّق علـى الحائط خنجرين متصالبيـن عليهمـا سـيف شركسـي، فعـلاً. وحين ألقـت الفتاة هذا السـؤال اتجهت إلي بنظرة مباشرة حتى كدت أجيبها، ولكنني أمسكت. وانتبه ستيفان تروفيموفتش إلى الموقف أخيراً، فقدمني إليها.

قالت:

ـ أعـرف، أعرف.. أنا سـعيدة بمعرفتـك. ماما أيضاً سـمعت كثيراً عنك. تعـرّف إلى مافريكي نيقولايفتش. إنه رجـل ممتاز. لقد قامت في ذهني فكرة مضحكـة عنـك: أنت نجيّ سـتيفان تروفيموفتش ومسـتودع أسـراره، أليس كذلك؟

احمرّ وجهي. فاستدركت تقول:

ـ أوه! سـامحني، أرجـوك. ليسـت هـذه الكلمـة هـي التي كنـت أريد أن أسـتعملها. لا أقصـد: مضحكة، بـل... (واحمرّت واضطربـت).. على كل حال، هل يضيرك أن تكون رجلاً شهماً؟ هيّا يا مافريكي نيقولايفتش! لقد آن لنا أن ننصرف. بعد نصف ساعة يا ستيفان تروفيموفتش يجب أن تكون عندنا. يا إلهي! ما أكثر الأشـياء التي سـنتحدث فيها! سـأكون أنا نجيّتك ومسـتودع أسرارك الآن، وستحكي لي كل شيء. هل فهمت؟ كل شيء (بالفرنسية).

فما إن سمع ستيفان تروفيموفتش هذا الكلام حتى قام بحركة تقهقر على الفور. قالت:

ـ أوه! إن مافريكي نيقولايفتش يعلم كل شيء، فلا تتحرّج أمامه!

ـ ماذا يعلم؟

فصاحت تقول مذهولة:

ـ ولكن ماذا بك؟ آ... حقاً إذن إنهم يجعلون من الأمر سراً! كنت لا أريد أن أصدق. وهم يخفون داشا أيضاً. لقد منعتني عمتي من الدخول على داشا

منذ قليل، بحجة أن داشا تعاني من صداع.

ـ ولكن... ولكن كيف عرفت؟

ـ كما عرف جميع الناس!... ليس هذا بالأمر الصعب!

ـ ولكن هل جميع الناس...؟

ـ كيف لا؟ ماما عرفته من أليونا فرولوفنا، خادمتي. لقد هرعت خادمتك ناستاسيا تحكي لها كل شيء. أنت الذي حكيت لناستاسيا، أليس كذلك؟ إن ناستاسيا تؤكد أنك أنت الذي قلت لها...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

ـ أنا... أنا... قلت لها ذات يوم.. ولكنني لمحت تلميحاً لا أكثر... كنت ثائر الأعصاب جداً وكنت مريضاً، ثم...

أخذت الفتاة تضحك.

ـ ثم إن نجيّك لم يكن عندك، فوجدت أمامك ناستاسيا، فحكيت لها، وهي تعرف جميع نمّامات المدينة. ولكن أي ضير في أن يعلم الناس؟ بل إن من الأفضل أن يعلموا. لا تتأخر عن الحضور إلينا. إننا نتعشى في ساعة مبكرة.

ثم أضافت تسأله وهي تعود إلى الجلوس:

ـ ها.. نعم.. نسيت. قل لي: مَنْ هو شاتوف؟

ـ شاتوف؟ هو أخو داريا بافلوفنا...

فقاطعته تقول:

ـ أعرف أنه أخوها. حقاً إنك تفقد الإنسان صبره! أنا أريد أن أعرف أي رجل هو؟

ـ "رجل سريع الغضب هو أحسن شرسٍ في الناس كافّة" (بالفرنسية).

ـ نعم سمعت أنه غريب الأطوار قليلاً. يظهر أنه يعرف ثلاث لغات منها الانجليزية، ويستطيع أن يتولى القيام بأعمال أدبية. وأنا عندي عمل كثير أريد أن أعهد إليه به: إنني في حاجة إلى معاون بمعنى من المعاني، في حاجة إليه بأقصى سرعة ممكنة. هل تقدّر أنه يقبل؟ لقد نُصحتُ به...

ـ آ... طبعاً... حتماً! "وأنت بذلك تسدين صنيعاً حسناً" (بالفرنسية).
ـ ليس الأمر أمر "صنيع حسن" إنني أبحث عن أحد يعاونني.
قلت:
ـ إنني أعرف شاتوف معرفة جيدة، فإن شئت ذهبت إليه في هذا اليوم نفسه.
ـ قل له أن يجيئني غداً، في الظهر. عظيم! أشكرك. مافريكي نيقولايفتش، أأنت مستعد؟
وانصرفا. وأسرعت أمضي إلى شاتوف على الفور طبعاً.
قال لي ستيفان تروفيموفتش وهو يدركني على درجات المدخل:
ـ ياصديقي، (بالفرنسية)... تعال إليّ حتماً في نحو الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، حين أرجع. آه... أنا مذنب كثيراً في حقك!... وفي حق جميع الناس، نعم، في حق الناس كافة.

8

لم يكن شاتوف في البيت. وحين رجعت بعد ساعتين، لم يكن قد عاد. ورجعت مرةً ثالثة في نحو الساعة الثامنة آملاً أن أترك له رسالة إذا وجدت أنه ما يزال غائباً. وفي هذه المرة لم أجده أيضاً. وكان مسكنه مقفلاً بالمفتاح. إن شاتوف يعيش وحيداً، بلا خادم. خطر ببالي أن أقرع باب بيت الكابتن لبيادكين، لأسأل عن شاتوف. ولكن كل شيء في الطابق السفلي كان مغلقاً كذلك. وما من ضجة تُسمع من خلال الباب ولا من ضوء يتسرب من أي مكان. لكأن المنزل خال. وإذ تذكرت ما رواه لنا ليبوتين، شعرت بشيء من حب الاستطلاع والفضول. وقررت أخيراً أن أعود غداً في ساعة مبكرة. ولم تكن تراودني أوهام عن الأثر الذي يمكن أن تحدثه رسالتي: إن شاتوف، العنيد الخجول، قادر على أن لا يوليها أي انتباه، وأن لا يكترث بها البتة.
وفيما كنت أجتاز بوابة العمارة لاعناً إخفاقي، إذا بي أرى نفسي أمام كريلوف. كان عائداً إلى بيته، وقد عرفني قبل أن أعرفه. وجواباً عن أسئلته،

ذكرت له سبب مجيئي، وقلت إنني أود لو أترك لشاتوف رسالة. فقال لي:

ـ تعال معي. سأدبّر الأمر كله.

تذكرت أن كيريلوف، كما قال ليبوتين، كان قد انتقل من مسكنه في هذا الصباح إلى جناح من خشب يقع في فناء المنزل. لقد كانت تسكن في هذا الجناح، وهو أوسع مما يحتاج إليه، امرأة عجوز صماء تقوم على خدمة البيت. أظن أن هذه العجوز قريبةٌ للمالك، قد عهد إليها بحراسة العمارة ومضى يقيم بمنزل جديد ليفتح فيه مطعماً. إن غرف الجناح نظيفة، ولكن ورق جدرانها بدا لي وسخاً. وكانت الغرفة التي دخلناها تضم أثاثاً متنوعاً يحس من يراه أنه اشتُري من دكان لبيع الأثاث العتيق: فهناك مائدتان من موائد اللعب، ومنضدة من خشب الحور، ومائدة كبيرة من خشب أبيض لو وُضعت في كوخ أو في مطبخ لكانت في مكانها، وكراسي وكنبة ذات مسند من قش وعليها وسائد من جلد. ولمحت في ركن من الأركان أيقونة قديمة كانت المرأة العجوز قد أشعلت أمامها قبل دخولنا سراجاً صغيراً. وعلى جدارين من الغرفة عُلّقت صورتان كبيرتان مرسومتان بالزيت، لكن ألوانها قد بهتت على مرّ السنين: فأما الأولى فهي صورة للامبراطور نيقولا الأول، يدل مظهرها على أن تاريخها يرجع إلى بداية حكمه، وأما الثانية فهي تمثل لا أدري أي أسقف.

أشعل كيريلوف شمعة، وأخرج من حقيبته التي لم يكن قد فضّها بعد، ظرفاً وعوداً من شمع الأختام وختماً من كريستال. وقال لي:

ـ اختم رسالتك بالشمع، واكتب عليها الاسم.

فاعترضت قائلاً إن ذلك لا داعي له، ولكنه أصرّ. فلما انتهيت من عملي، تناولت قبعتي لأخرج، فقال لي:

ـ كنت أظن أنك قد تحتسي شيئاً من الشاي. فهل تريد؟ لقد اشتريت شاياً.

فلم أرفض. ولم تلبث العجوز أن جاءت بالشاي، أي بإبريق ضخم ممتلئ ماء بغلي، وإبريق صغير فيه شاي قوي جداً، وفنجانين كبيرين من

خـزف مطلي عليه رسـوم غليظـة، وخبزٍ أبيض قُطّع قطعـاً ووضع في صحن عميق.

قال:

ـ أحب الشاي ليلاً. كثيراً. أمشي وأشرب شاياً. حتى الفجر. في الخارج، ليس مناسباً أن يشرب المرء شاياً في الليل.

ـ ألا تنام إلّا في الفجر؟

ـ دائمـاً. منذ زمـن طويل. آكل قليلاً. لا شـيء إلّا الشـاي. ليبوتين ماكر، لكنه نافذ الصبر.

أدهشني أنه يريد الكلام. وقررت أن أستغل الفرصة.

قلت:

ـ في هذا الصباح، حدث سوء تفاهم مؤلم.

فقطب حاجبيه. ثم قال:

ـ سـخافات. سفاسـف. ما هذا كله إلّا سفاسـف، لأنّ ليبوتين سـكير. أنا لم أقل شـيئاً لليبوتين. أوضحت له أن ذلك كله ليس له أية قيمة. لكنه اخترع لا يـدري إلّا اللـه ماذا... إن ليبوتين ذو خيال واسـع، فهو يبني من الحبة قبة. أمس، كنت أثق به...

قلت ضاحكاً:

ـ واليوم تثق بي أنا.

ـ ولكنك مطلع على كل شيء منذ هذا الصباح. إن ليبوتين ضعيف، أو هو نافذ الصبر... أو خطر... أو حسود...

فجأتني هذه الكلمة الأخيرة. قلت:

ـ لقد ذكرت من العيوب عدداً كبيراً بحيث لا بد أن يَصْدق أحدها عليه.

ـ أو تصدق كلها دفعة واحدة.

ـنعم، ربما كان هذا صحيحاً كذلك. إن ليبوتين خليط مشوش. هل كذب اليوم حين أكّد أنك تؤلف كتاباً؟

ـ لماذا يكون هذا كذباً؟

بذلك أجابني وهو يعبس من جديد ويخفض عينيه.

فاعتذرت له مؤكداً أنني لم أشأ أن أستدرجه إلى الكلام. فاحمرّ وجهه. وقال:

ـ لقد صدق. إنني أكذب. ولكن ليس لهذا من قيمة.

وصمتنا دقيقة. ثم إذا هو يبتسم تلك الابتسامة الطفولية نفسها التي سبق أن لاحظتها فيه.

ـ فيما يتعلق بالروس، تلك حكاية أخذها من الكتب. إنه هو الذي حدّثني في هذا الموضوع. ولكنه قد أساء الفهم على كل حال. أما أنا فإنني أبحث فقط في الأسباب التي تجعل الناس لا يجرؤون أن يقتلوا أنفسهم. وليس لهذا قيمة.

ـ لا يجرؤون؟ ما هذا الذي تقول؟ هل الانتحارات قليلة إلى هذا الحد من القلّة؟

ـ نعم، قليلة جداً.

ـ أهذا رأيك؟

لم يجب، بل نهض وأخذ يمشي في الغرفة طولاً وعرضاً، شارد الذهن. سألته:

ـ وما الذي يمنع الناس من قتل أنفسهم في رأيك؟

ـ فنظر إليّ ذاهلاً، كأنه يحاول أن يتذكر ما كنا نتكلم فيه. ثم أجاب بقوله:

ـ لا أدري بعدُ على وجه اليقين. غير أن هناك وهمين شائعين يمنعاننا من ذلك.. شيئين لا ثالث لهما، أحدهما صغير جداً، والثاني كبير جداً. ولكن الصغير كبير أيضاً.

ـ فما هو الصغير؟

ـ الألم.

ـ الألم؟ أهو هام إلى هذا الحد... في مثل هذه الحالة؟

ـ نعم، هام جداً. هناك فئتان من الناس: الذين ينتحرون بسبب عذاب كبير، أو ينتحرون غضباً، أو يكونون مجانين، أو ينتحرون لأي سبب آخر..

وهـؤلاء ينتحرون فجأة. وهم لا يخطر الألم ببالهـم كثيراً. ففي دقيقة واحدة ينتهي كل شيء. أما الذين يفكرون، فهؤلاء يحسبون حساب الألـم كثيراً.

ـ هل هناك أناس ينتحرون وهم يفكرون؟

ـ كثيرون. ولولا الأوهام الشائعة، لكانوا أكثر، ولكان عددهم كبيراً جداً، ولكانوا كل الناس.

ـ كل الناس؟ حقاً؟

لم يجب بكلمة.

ـ ولكن أليس هناك وسيلة للانتحار بدون ألم؟

قال وهو يقف أمامي:

ـ تخيـل صخـرة في حجم عمـارة كبيرة. وتخيّـل أنها بارزة فـوق الطريق وأنك تحتها. هل تحس بألـم إذا هي سقطت على رأسك؟

ـ صخرة في حجم عمارة؟ سوف أخاف طبعاً.

ـ لا أتكلـم عـن خوفك، ولكن هل يمكن أن تشـعر بألـم إذا هي سـقطت على رأسك؟

ـ صخرة كالجبل، وزنها مليون طن؟ لن أحس بشيء طبعاً.

ـ ومع ذلك فإنك إذا وُجدت في هذا الموقف ستظل تخاف من أن يصيبك ألـم، ما بقيت تحت الصخرة. وأكبر العلماء، وأعظم دهاقنة العلم، سيخافون جميعـاً، جميعاً، سـيخافون خوفاً كبيراً مـن أن يتألموا. هـم يعلمون أنهم لن يتألموا، ولكنهم سيخافون من أن يتألموا.

ـ وما هو السبب الثاني؟ السبب الأكبر؟

ـ الحياة الآخرة؟

ـ أي العقاب؟

ـ العقاب ليس له شأن كبير. بل الحياة الآخرة. الحياة الآخرة فقط.

ـ أليس هناك ملحدون لا يؤمنون بالحياة الآخرة؟

لزم الصمت. قلت:

ـ لعلك تقضي في الأمر على أساس شعورك أنت؟

أجاب وقد احمرّ وجهه:

ـ كل إنسان لا يستطيع أن يحكم في الأمر إلّا على أساس شعوره. سوف تكون الحرية كاملة متى استوى عند الإنسان أن يعيش وأن يموت. تلك غاية كل شيء.

ـ هدف؟ ولكن من الممكن إذن أن أحداً لا يرغب في أن يعيش؟

ـ نعم.

كذلك أجاب بلهجة قاطعة. قلت:

ـ إن الإنسان يخاف الموت لأنه يحب الحياة. هكذا أفهم أنا الأمور. ذلك ما أرادته الطبيعة.

صاح يقول وقد التمعت عيناه:

ـ هذا جبن. وتلك هي الخدعة. الحياة ألم. الحياة رعب. الإنسان شقي. كل شيء الآن ليس إلّا عذاباً ورعباً. الإنسان يحب الآن الحياة لأنه يحب العذاب والرعب. ذلك ما حصل. الحياة ثمنها العذاب والرعب. تلك هي الخدعة. اليوم ليس الإنسان إنساناً بعد. سيجيء إنسان جديد، سعيد فخور. الإنسان الذي سيستوي عنده أن يعيش وأن يموت، سيكون هو الإنسان الجديد. الإنسان الذي سينتصر على الألم والرعب، سيكون هو نفسه الإله. أما الإله الآخر فلن يكون له وجود بعد ذلك.

ـ فهذا الإله موجود إذن في رأيك؟

ـ ليس موجوداً، ولكنه موجود. إن الصخرة ليس فيها ألم، ولكن الألم هو في الخوف من الصخرة. الإله هو عذاب الخوف من الموت. فالإنسان الذي سينتصر على الألم والخوف، سيكون هو نفسه الله. وسوف تبدأ عندئذ حياة جديدة. عندئذ سوف يظهر الإنسان الجديد. سيكون كل شيء جديداً... وسوف يقسمون التاريخ عندئذ إلى عهدين: عهد يمتد من الغوريللا إلى انعدام الإله، وعهد يمتد من انعدام الله...

ـ إلى الغوريللا؟

ـ إلى التحول الجسمي الذي يطرأ على الإنسان والأرض. سيصبح

الإنسان إلهاً، وسيتبدل جسمه. والكون سيتحول، والأعمال ستتحول، والعواطف والأفكار. ألا تعتقد أن الإنسان يتبدل عندئذ جسمه؟

ـ إذا استوى عند الإنسان أن يحيا وأن يموت، فسوف ينتحر جميع الناس، وربما كان هذا هو التبدل...

ـ ما لهذا من قيمة. سوف يُنحر الكذب. إن الذي يريد الوصول إلى الحرية القصوى، عليه أن يملك الشجاعة اللازمة للانتحار، والذي يملك الشجاعة اللازمة للانتحار، فسوف ينفذ إلى سر الخدعة. ليس ثمة حرية أعلى. كل شيء يثوي هنا، وليس وراء هذا شيء. من يجرؤ أن ينتحر فهو الله. كل إنسان يستطيع الآن أن يفكر أن ثمة إله، ولكن أحداً لم يفصل ذلك في يوم من الأيام حتى الآن.

ـ غير أن ملايين الناس قد انتحروا مع ذلك.

ـ ولكن لأسباب أخرى دائماً. انتحروا دائماً برعب. لم ينتحروا أبداً لهذا السبب. لم ينتحروا أبداً لينحروا الرعب. إن الذي سيقتل نفسه من أجل أن يقتل الرعب فقط، سيكون في تلك اللحظة نفسها إلهاً.

قلت:

ـ ولكن قد لا يملك الوقت اللازم لهذا.

فأجاب برفق وكبرياء هادئة، وبما يشبه أن يكون احتقاراً:

ـ لا ضير!

وأضاف بعد لحظة:

ـ يؤسفني أن يبدو عليك أنك تضحك.

ـ وأنا يدهشني أن أراك الآن هادئاً هذا الهدوء، بينما كنت في الصباح غاضباً حانقاً.

قال وهو يبتسم:

ـ هذا الصباح؟ كان هذا الصباح مضحكاً جداً. أنا لا أحب أن أتشاجر.

ثم أضاف بأسىً وكآبة:

ـ ولا أضحك أبداً.

ـ نعم، ليست لياليك مرحة.

ونهضت وتناولت قبعتي لأنصرف.

فسألني وهو يبتسم ابتسامة فيها شيء من دهشة:

ـ أهذا ماتراه؟ لماذا ذلك؟... لا... لا أدري..

وأمسك عن الكلام مضطرباً متحيراً على حين فجأة. ثم أضاف:

ـ لا أدري كيف تجري أحوال الآخرين، وأشعر أنني لا أستطيع أن أكون كسائر الناس. جميع الناس يفكرون في شيء، ثم ينتقلون فوراً إلى التفكير في شيء آخر. أما أنا فلا أستطيع أن أفكر في غير هذا. أنا أفكر في شيء واحد طوال حياتي. طوال حياتي عذبتني فكرة الله.

بهذا ختم كلامه فجأة باندفاعة صدق غريب.

ـ اسمح لي أن أسألك: لماذا لا تتكلم اللغة الروسية على نحو صحيح؟ أتراك نسيتها أثناء غيابك في الخارج خمس سنين؟

ـ هل لغتي غير سليمة؟ لا أدري! لا، لم أنس أثناء غيابي في الخارج! هكذا كنت أتكلم طول حياتي!...

ـ سؤال آخر قد يكون أكثر إحراجاً: إنني أصدقك حين تقول إنك لا تحب أن ترى الناس، وإنك لا تكلمهم إلّا قليلاً. فلماذا كلمتني أنا في هذا المساء مختاراً راضياً؟

ـ أنت؟ في هذا الصباح، كان وضعك حسناً جسداً، وإنك... ما لهذا من قيمة على كل حال. إنك تشبه أخي كثيراً، كثيراً جداً، تشبهه شبهاً خارقاً. لقد مات منذ سبع سنين. هو أخي الأكبر. تشبهه كثيراً.

ـ لا بد أن تأثيره في تفكيرك كان كبيراً.

ـ لا، كان يتكلم قليلاً. كان لا يقول شيئاً. سأوصل رسالتك إلى شاتوف.

وشيعني حتى الباب الكبير، وهو يحمل فانوساً، وذلك ليغلق الباب. قلت لنفسي جازماً "إنه مجنون. هذا واضح لا ريب فيه".

وهذا لقاء آخر يفاجئني لحظة خروجي.

9

مـا إن اجتـزت الباب حتى أمسـكتني يدٌ قويـة من صـدري. وزأر صوت يسأل:

ـ من هنا؟ أصديق أم عدو! هيا اعترف!

خرج صوت حاد عرفت فيه صوت ليبوتين، صرخ يقول:

ـ هو من أصحابنا. إنه السـيد "جـ...ف"، شـاب تثقف ثقافة كلاسـيكية، واستُقبل في أرقى مجتمع.

ـ آ... هذا ما يعجبني... إذن تشـقف ثقافة كلاسيكية.. أنا الكابتن المتقاعد إجنـاس لبيادكيـن، في خدمة الناس جميعاً والأصدقـاء... إذا كانوا أوفياء... إذا كانوا أوفياء، هؤلاء الأوغاد!

إنه الكابتن لبيادكين، وهو رجل طويل القامة بدين الجسـم سـمين، أجعد الشـعر، أحمـر الوجـه، كان قـد بلـغ غاية السـكر، حتـى إنه لا يكاد يسـتطيع الوقوف، ولا يكاد يسـتطيع النطق إلّا في كثير من الغباء. وقد سبق أن أُتيحت لي فرصة رؤيته من بعيد.

وحيـن التفت الكابتن فلمح كيريلوف الذي كان لا يزال واقفاً هناك وبيده الفانوس، أعول يقول من جديد:

ـ آ... وهذا هو الآخر...

ورفع قبضة يده على المهندس، لكنه لم يلبث أن أنزلها قائلاً:

ـ إنني أعفو عنك، لأنك عالِم. إجناس لبيادكين، أثقف رجل بين...

في صدر إجناس

توقد الحب، تحطم القلب

وكان يتطوع الذراع، من حرب سيباستوبول

فعاد يبكي ذراعه

ودمدم يقول لي وهو يقرِّب مني وجهه المتورد من السكر: "أنا لم أكن في

سيباستوبول[1]، ولا قُطعت ذراعي. ولكن ما أجملها أشعاراً!

وتدخل ليبوتين يقول له:

ـ لا يتسع وقته، لا يتسع وقته. إنه عائد إلى بيته. سيقص غداً كل شيء على ليزافتا نيقولايفنا:

فصاح السكران من جديد قائلاً:

ـ ليزافتا...

ثم قال لي:

ـ اسمع. لا تتحرك. هذه أبيات أخرى من الشعر:

تعدو على حصانها كنجمة

بين صويحباتها الفارسات

ومن على فرسها الجميل

تبعث لي البسمة تلو البسمة

فتاتي الفاتنة النبيلة

وتابع كلامه:

ـ عنوان القصيدة "إلى الفارسة النجمة!". أليس هذا نشيداً جميلاً؟ هو نشيد جميل، إلّا أن تكون أنت حماراً. إن هؤلاء الأغبياء لا يفهمون شيئاً.

ثم صاح يقول وهو يتمسك بمعطفي رغم جميع ما أبذله من جهود لأفلت منه:

ـ قف! قل لها إنني فارس الشرف، أما داشا... أما تلك "الداشا" فسوف أمسكها بين إصبعين... ما هذه إلّا عبدة، وما ينبغي أن تسمح لنفسها بأن...

قال هذه الكلمات وسقط، لأنني استطعت أن أنتزع نفسي من بين يديه. وهربت يتبعني ليبوتين.

ـ سوف يُنهضه ألكسي نيلتش. هل تدري ماذا علمت منه الآن؟

كذلك قال بصوت لاهث. وتابع كلامه:

---

(1) الإشارة هنا إلى حصار سيباستوبول سنة 1854 وسنة 1855 من قبل الجيش الإنجليزي ـ الفرنسي ـ التركي.

ـ هل سمعت تلك الأبيات من الشعر؟ فاعلم أنه قد وضعها في ظرف وأنه سيرسلها غداً موقعة باسمه إلى ليزافتا نيقولايفنا؟ ما رأيك؟

ـ أراهن أنك أنت الذي دفعته إلى هذا.

ـ سوف تخسر الرهان. إنه مولّه حباً بها. وهل تعلم؟ لقد بدأ حبه هذا بكره. كان في البداية يكرهها كرهاً شديداً بسبب نزهاتها على الحصان، حتى لقد أوشك أن يشتمها في الشارع. بل إنه قد أهانها أمس الأول بينما كانت مارّة. من حسن الحظ أنها لم تسمعه. وها هو ذا اليوم يرسل إليها أشعاراً. هل تعلم أنه يريد أن يجازف بنفسه فيعرض عليها قلبه ويده؟ فعلاً! فعلاً!

صرخت أقول غاضباً:

ـ عجيب آمرك يا ليبوتين! إنك تدور دائماً حول أوباش من هذا النوع، فتحرّضهم وتوجّههم.

ـ إنك تبالغ يا سيد "جـ...ف"، أليس قلبك هو الذي يرجف خوفاً من تصور وجود منافسٍ لك؟ هه؟

هتفت أقول وأنا أتوقف فجأة:

ـ ماذا؟

ـ طيب. مادام الأمر كذلك، فإنني سأعاقبك فلا أحكي لك بعد اليوم شيئاً. ومع ذلك، لو عرفت ما قد أقصه عليك، لاحترقت شوقاً إلى سماعه! أعلم مؤقتاً أن هذا الغبي ليس الآن مجرد كابتن محال على التقاعد بل قد أصبح من مالكي الأطيان، بل ومن كبارهم، لأن نيقولاي فسيفولودوفتش باعه أرضه منذ قليل، وهي تقدّر في الحساب القديم بمائتي نفس. لست أكذب. ليَشهد الله أنني صادق. لقد عرفت هذه الحقيقة من مصدر موثوق تماماً. والآن حاول أن تدبّر أمرك بنفسك:

لن أقول بعد اليوم شيئاً. إلى اللقاء.

10

كان ستيفان تروفيموفتش ينتظرني وقد نفد صبره على نحو يكاد يكون

هستيرياً. كان قد رجع إلى البيت منذ ساعة. فوجدته في حالة غريبة حتى إنني ظللت، مدة خمس دقائق على الأقل، أظن أنه سكران. مسكين! إن زيارته لآل دروزدوف قد أجهزت عليه.

ـ "يا صديقي" (بالفرنسية)... ماذا أقول لك؟ لقد فقدت ترابط أفكاري تماماً... ليزا... مازلت أحب وأقدر هذه الملاك كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي، نعم، كما كنت أحبها وأقدرها في الماضي. ولكن يخيّل إليّ أنهم كانوا لا ينتظرونني إلّا ليعلموا مني شيئاً ما، أي ببساطة ـ ليستدرجوني إلى الكلام، ثم... بارك الله فيك!... مع السلامة! نعم، هذه حقيقة الأمر!

صحت أقول نافذ الصبر:

ـ كيف! ألا تستحي؟

ـ ياصديقي، أنا الآن وحيد تماماً. "الخلاصة.. أمر مضحك" (بالفرنسية). تصوّر: هناك أيضاً كل شيء محشوٌ أسراراً! سرعان ما أخذن يمطرنني بوابل من الأسئلة عن حكايات الأنوف والآذان تلك، وكذلك عن أحداث سرية وقعت في بطرسبرج. ذلك أنهن في الواقع، لم يسمعن إلّا الآن عن الحوادث التي أثارها هنا نيقولاي منذ أربع سنين. قلن يسألنني: "كنت أنت حاضراً، فرأيت كل شيء، فهل صحيح أنه مجنون؟". من أين جاءتهن هذه الفكرة؟ حقاً إنني لا أفهم. لماذا تصرّ براسكوفيا هذه، لماذا تصر هذا الإصرار كله على أن يكون نيقولاي مجنوناً؟ إنها تحرص على ذلك، تحرص عليه حرصاً مطلقاً. وهذا المافريكي... ما اسمه؟... نعم... مافريكي نيقولايفتش... "إنه رجل شهم على كل حال" (بالفرنسية). أيكون هذا من مصلحته؟... ولكنها هي التي كانت البادئة في الكتابة من باريس إلى "هذه الصديقة المسكينة" (بالفرنسية). الخلاصة: إن براسكوفيا، كما تسميها "الصديقة المسكينة"، هي نموذج غريب من البشر، إنها كوروبوتشكا[1] الخالدة التي صوّرها

(1) "كوروبوتشكا" شخصية من شخصيات كتاب "النفوس الميتة" لجوجول، ومعنى الاسم "العلبة الصغيرة"، والشخصية هي شخصية مالكة بخيلة محدودة تؤمن بالخرافات وتتسلط عليها الأوهام.

جوجـول، ولكنهـا كوروبوتشـكا شـريرة، كوروبوتشـكا مشـاجرة مقاتلة قد تضخمت تضخماً كبيراً.

ـ هي إذن برميل حقيقي؟ أهي مضخّمة إلى هذا الحد فعلاً؟

ـ طيب... لنسـلم بأنها أصغر من كوروبوتشـكا أيضاً. ما قيمة هذا! ولكن لا تقاطعني. إن رأسي يدور. الصلات بينهن سيئة جداً، باستثناء ليزا: فهذه ما تزال تكرر: "عمتي، عمتي...". ولكن ليزا ماكرة، وإن وراء ذلك لسـراً خفياً. أسـرار! أما مع العجوز فالشـقاق قائم. هذه "العمة" المسكينة تسوم الجميع سـوء العذاب حقاً... ثم هناك امرأة الحاكم أيضـاً، والمجتمع المحلي الذي لا يبدي قدراً كبيراً من الاحترام، وهناك "قلة أدب" كارمازينوف، وهناك عدا ذلـك أيضـاً، تلك الآراء عن جنون نيقولاي، وهناك هـذا الـ "ليبوتين"... أمر لا أفهمـه" (بالفرنسـية)... و... ويقـال إنهـا تضع كمادات خل على رأسـها. ثم هناك نحن، أنا وأنت، وشـكاياتنا ورسـائلنا. أوواه! ما أكثر ما عذبتها! وفي فتـرة كهذه الفتـرة! "إنني عقوق" (بالفرنسـية). تصور: لقد عـدت إلى البيت فوجدت رسالةً منها، اقرأها، اقرأ! آه... ما كان أقل سماحتي وكرمي تجاهها!

مـدّ إليّ الرسـالة التـي وصلته من فرفـارا بتروفنا. يظهر أن فرفـارا بتروفنا قـد أحزنهـا أن قالت لـه: "ابق في بيتك" فها هي ذي تبعث إليه برسـالة مهذبة رقيقـة، وإن تكـن موجزة وقاطعـة: إنها تطلب مـن سـتيفان تروفيموفتش أن يجيئهـا غـداة غد، يوم الأحد، ظهـراً، وتنصحه بأن يصطحـب أحد أصدقائه (وقد ذكرت اسمي بين قوسين)، وتعد بأن تدعو من جهتها شاتوف بصفته أخ داريا بافلوفنا. "سوف يمكنك أن تحصل منها على جواب قطعي. هل يكفيك هذا؟ أهذا هو الإجراء الشكلي الذي كنت تحرص عليه ذلك الحرص كله؟".

ـ لاحـظ هـذه الجملة الغاضبـة التي ترد في نهاية رسـالتها عـن "الإجراء الشـكلي". مسـكينة، مسـكينة، صديقة عمري كلـه! إنني أعترف بـأن القرار المباغت الذي يحدد مصيري قد سـحقني سـحقاً إن صح التعبير... كنت ما أزال أحتفـظ ببعض الأمل. أعترف لك بذلك. أما الآن فقد انتهى كل شـيء. أنـا أعلم أنه قد انتهى كل شـيء. "شـيء فظيع!" (بالفرنسـية). آه... ليت يوم

الأحـد هذا لا يحين أبـداً، ليت بالإمكان أن تجري الأمـور كما كانت تجري في الماضي: تظل أنت تجيء إلى هنا، وأظل أنا...

ـ إن الدنـاءات التـي يرويهـا ليبوتين والنمائـم الكاذبة التـي يلفّقها هي ما أدخل الاضطراب والبلبلة في نفسك.

ـ يـا صديقـي، لقد وضعت إصبعـك الآن، إصبعك الصديقـة، على نقطة أخرى موجعة أليمة. إن الأصابع الصديقة على وجه العموم قاسـية لا ترحـم، بـل قـد تنقصها اللباقة والكياسـة في بعض الأحيان. سـامحني. ولكن تصور أننـي كنت قد نسـيت هـذا كله تقريباً، كنت قد نسـيت كل هـذه الدناءات. أو قـل إننـي لم أنسـها، ولكنني لغباوتي كنـت أحاول طوال مدة بقائـي عند ليزا أن أكون سـعيداً، وكنت أقنع نفسي بأنني سعيد. والآن... آه... الآن أفكر في تلـك المـرأة التي بلغـت ذلك المبلغ كله مـن الكرم والتسـامح والصبر تجاه عيوبي الكريهة! الحق أنها ليسـت على قدر كبير من الصبر. ولكن هل يجوز لي أن أتشكّى من ذلك أنا السيء الطبع؟ أنا الذي أُشبه الطفل بكثرة النزوات وشـدة الأنانيـة ولكـن دون أن أملـك ما يملـك الطفل مـن براءة! إنهـا تُعنى بأمري وتسهر على شؤوني منذ عشرين عاماً كخادمة، هذه "العمة المسكينة" (بالفرنسـية) كمـا تطلق عليهـا ليزا هذا اللقـب بكثير من الخفة والرشـاقة... وها هو ذا الطفل، بعد عشـرين عاماً، يريد أن يتزوج. إنه يطالب بتزويجه. إنه يكتب الرسـالة تلو الرسـالة، بينما هي ترش رأسـها بالخل... وها هو ذا يبلغ هدفـه: ففي يوم الأحد سـأكون رجلاً متروجاً. مـا كان أغناني عن الإلحاح؟ لماذا كتبت تلك الرسائل كلها؟ نعم، نسيت أن أقول لك: إن ليزا تحب داريا إيفانوفنـا حـب العبـادة. أو هذا مـا تقوله على الأقـل. هي تقـول عنها: "هذه ملاك" (بالفرنسـية) ولكنها ملاك منطوٍ على نفسـه". لقد نصحتاني كلتاهما، حتى براسـكوفيا نصحتني... لا، لم تنصحني براسـكوفيا.. آه! ما أكثر ما في نفـس الـ"كوروبوتشـكا" من سـم! على كل حـال، إذا شـئنا الدقة، وجب أن نقول إن ليزا لم تنصحني أيضاً، وإنما قالت لي: "ما حاجتك إلى الزواج؟ إن لديك متعاً عقلية كافية!"، وضحكتْ. لقد غفرتُ لها هذا الضحك، لأن قلبها

هـي ليس هادئاً كذلـك. قالتا لي: ليس في وسـعك مع ذلك أن تسـتغني عن امرأة. إن سـن الأمراض والعجز قد اقتربت، فسوف تُعنى بأمرك وتسهر على علاجك. لم أنقطع عن أن أحدّث نفسـي بأن العناية الإلهية هي التي ترسـلها إلـيّ فـي مغرب حياتـي العاصفة، وأنها ستسـهر على العناية بـي كما يقال... وسوف تنفعني في مسكني على كل حال. انظر إلى هذه الفوضى! ما من شيء فـي مكانه! لقد أمرت في هذا الصبـاح بترتيب الغرفة. فانظر إلى هذا الكتاب الملقى على الأرض! لطالما اسـتاءت صديقتي المسـكينة، (بالفرنسـية) من الوساخة في بيتي... وا أسفاه! بعد الآن لن يدوي صوتها هنا! "عشرون عاماً" (بالفرنسية). و... هنّ أيضاً قد تلقّين، فيما أعتقد، رسائل لم يوقّعها مرسلوها. تخيل هذا! يؤكد الناس أن نيقولاي قد باع لبيادكين أرضه. "هذا إنسـان شـاذ عجيب!" (بالفرنسية). ثم ما لبيادكين؟ إن ليزا تصغي، وتصغي! آه... ما أكثر ما تصغي! لقد غفرت لها ضحكها. رأيت بأي وجه كانت تصغي. ومافريكي ذاك... لست أتمنى الآن أن أكون في مكانه.. "هو رجل طيب على كل حال" (بالفرنسية)، لكنه خجول قليلاً. مهما يكن من أمر، فليباركه الله...

وصمـت. إنـه الآن متعـب مرهـق حائر، وظل جالسـاً فـي مكانه خافض الـرأس مطرقاً بعينيه إلى الأرض. فانتهـزت فرصة صمته لأقصّ عليه زيارتي لعمـارة فيليبوف على نحو موجز، وعبّرت له باقتضاب وبخشـونة عن رأيي فـي أن أخـت لبيادكيـن (التـي لم أرها علـى كل حـال) من الجائـز أن تكون سـقطت ضحية بين يدي نيقولاي على نحو من الأنحاء في فترة عجيبة خفية مـن فتـرات حياته، كما قال ليبوتين، وأن من الممكـن جداً أن يكون لبيادكين يتلقـى مـالاً مـن نيقـولاي لهذا السـبب. ولا شـيء غير هـذا. أما الشـائعات المنتشرة عن داريا بافلوفنا، فما هي إلّا أقاويل كاذبة، ونمائم لفقها هذا الوغد الدنيء ليبوتين، فذلك ما يؤكده ألكسـي نيلتش بحماسـة وحرارة، ولا داعي إلى تكذيبه البتة.

كان ستيفان تروفيموفتش يصغي إليّ ذاهل الهيئة، كأن أقوالي لا تمت إليه بصلة من الصلات، وليس له بها علاقة. وذكرت أيضاً حديثي. مع كيريلوف،

واضفت قائلاً إن كيريلوف ربما كان مجنوناً. فقال ستيفان تروفيموفتش برخاوة، كأنما على مضض:

ـ ليس مجنوناً، ولكنه من أولئك الناس الذين لهم آراء محدودة. "يتصورون الطبيعة والمجتمع الإنساني على غير ما خلقهما الله، وعلى غير ما هما في الواقع" (بالفرنسية). إن بعض الناس يمدحونهم ويتملقونهم. ولكن ستيفان فرخوفنسكي لن يفعل ذلك! لقد رأيتهم ببطرسبرج في الماضي مع هذه "الصديقة العزيزة" (بالفرنسية) (آه... لشدّ ما كنت جارحاً في معاملتها!)، فلم تخفني شتائمهم، لا ولا مدائحهم. وسيبقى الأمر على هذا النحو دائماً. ولكن دعنا من هذا ولنتكلم في شيء آخر... أظن أنني ارتكبت حماقات فظيعة: تصور أنني بعثت أمس رسالة إلى داريا بافلوفنا. إنني لألعن نفسي الآن لأنني بعثت إليها تلك الرسالة.

ـ ماذا قلت في تلك الرسالة؟

ـ صدّق يا عزيزي أن نيتي كانت من أكرم النيّات. أبلغتها أنني كتبت رسالة إلى نيقولاي قبل خمسة أيام، بنية نبيله كل النبل كذلك.

صحت قائلاً في غضب:

ـ الآن فهمت. كيف يجوز لك أن تقرن بين اسميهما هكذا؟

ـ لا تحطّمني تحطيماً يا عزيزي، لا تصرخ في وجهي هذا الصراخ. إنني بدون ذلك مهشّم منذ الآن كما يُهشّم صرصور! ثم إني أعتقد أن تصوري كان نبيلاً كل النبل. لنتصور أن شيئاً ما قد حدث فعلاً في سويسرا.. بل وأنه لم يكن ثمة إلّا بداية.. أفلا يكون من واجبي أن أسأل قلبيهما قبل كل شيء.. وذلك حتى لا أتعرض لسد الطريق أمامهما إذا.. لقد كانت نيتي نبيلة.

ـ يا إلهي! ما أغبى هذا التصرف!

أسرع ستيفان تروفيموفتش يوافقني قائلاً:

ـ نعم، هو تصرف غبي. لم تقل كلمة أصدق من هذه الكلمة. "كان تصرفي غبياً، ولكن ما العمل؟ لقد فعلت وانتهى الأمر!" (بالفرنسية). سأتزوج رغم كل شيء، ولو كان عليّ أن أغطّي "خطايا الغير". ما كانت حاجتي إلى

الكتابة؟ أليس كذلك؟

- أتعود أيضاً إلى هذه الفكرة؟

- أوه! لن يخيفني صراخك. إن أمامك الآن ستيفان فرخوفنسكي آخر. إن ستيفان فرخوفنسكي الذي كنت تعرفه قد دُفن. "انتهى الأمر" (بالفرنسية). ولماذا تصرخ؟ لا لسبب سوى أن الذي سيتزوج وسيزدان رأسه بقرنين ليس أنت. هل ساءك هذا الكلام من جديد؟ يا صديقي المسكين، إنك لا تعرف المرأة. أما أنا فلم أفعل شيئاً غير دراسة المرأة. "إذا أردت أن تنتصر على العالم بكامله، فانتصر على نفسك". ذلك هو الشيء الوحيد الذي أحسن قوله شاتوف "أخو زوجتي، وهو رومانسي آخر من نوعك". يسرني أن أستمد منه هذه القاعدة الحكيمة. فها أنذا مستعد لأن أنتصر على نفسي فأتزوج. فما الذي سأصل إليه بدلا من أن أغزو العالم؟ يا عزيزي، إن الزواج موت روحي لكل نفس مستقلة ذات كبرياء. الزواج سوف يحللني ويفسدني، سوف يحرمني من القدرة والطاقة، سوف يحرمني من الهمة اللازمة لتحقيق مهمتي. سيكون لنا أولاد. وأكثر من ذلك أن هؤلاء الأولاد قد لا يكونون مني أنا. ماذا أقول؟ بل إنهم لن يكونوا مني حتماً. إن الرجل الحكيم لا يخشى أن ينظر إلى الحقيقة مواجهةً. لقد نصحني ليبوتين بأن أبني سدوداً لأحمي نفسي من نيقولاي. إن ليبوتين رجل أحمق. فالمرأة قادرة على أن تخادع حتى عين الله التي ترى كل شيء. حين خلق الله المرأة فقد كان يعرف حتماً ما ينبغي له أن يتوقعه. ولكنني على يقين من أن المرأة قد تدخلت هي نفسها في خلقها، فأجبرت الله على أن يخلقها كما هي الآن... بكل صفاتها وخصائصها. وإلا فمن ذا الذي يقبل أن يهيئ لنفسه متاعب كهذه المتاعب بغير ضرورة؟ أنا أعلم أن ناستاسيا ستغضبها مني هذه الآراء الجريئة... ولكن "انتهى الأمر" (بالفرنسية).

ما كان لستيفان تروفيموفتش أن يكون ستيفان تروفيموفتش نفسه لو أنه استطاع أن يقاوم إغراء هذا النوع من الأمازيح والألاعيب اللفظية التي كانت شائعة شيوعاً كبيراً بين أحرار التفكير في زمانه. غير أن ذلك لم يدم

مـدة طويلة. فقد اكتفى من تلـك الأمازيج والألاعيب اللفظية بما قال، ثم إذا هو يصرخ قائلاً وقد بلغ ذروة الكرب في هذه المرة:

ـ آه... ليت يوم الأحد لا يحين أبداً. لماذا يسـتحيل أن يوجد أسـبوعٌ بغير يـوم أحـد، ولو مرة واحـدة، "إذا كان ثمة معجزة"؟ (بالفرنسـية). لن يصعب علـى العنايـة الإلهية مع ذلك أن تلغي من التقويم يوم أحدٍ لتبرهن على قوتها للملاحدة، و"لينتهي الأمر"! آه... لكم أحببتها! عشرون عاماً! خلال عشرين عاماً! ولم تفهمني في يوم من الأيام!

ـ سألته مدهوشاً:

ـ ولكن عمّن تتكلم الآن؟ أنا أيضاً أصبحت لا أفهمك.

ـ "عشـرون عاماً" (بالفرنسية). ولم تفهمني مرةً واحدة! آه... ذلك قاس. أهـي تتصور حقاً أنني أتزوج عن خوف، حتـى لا أكون في عوز وفاقة؟ آه... هذا عار! عمتاه! عمتاه! أنا من أجلك إنما... ألا فلتعلم هذه العمة أنها المرأة الوحيدة التي أحببتها حب العبادة طوال حياتي! عشرون عاماً! يجب أن تعلم ذلك، وإلا فلن يتم شـيء، وسـوف يكون عليهم أن يستعملوا القوة ليجروني فيضعوا رأسي تحت "مايسمونه" (بالفرنسية) إكليل الزواج.

تلـك أول مرة أسـمع فيهـا هذا الاعتراف، وأسـمعه بألفـاظ فيها كل هذه القسـوة القاطعة. لا أكتمكم أنني قد استبدت بي رغبة في الضحك لا تقاوَم ولا تغالَب. لكنني أخطأت.

هتـف يقول فجأة وهو يضم يديـه إحداهما إلى الأخرى كمن فجأته فكرة جديدة:

ـ لم يبق لي الآن أحد غيره! هو أملي الوحيد. وحده يستطيع بعد اليوم أن ينقذني، ابني الصغير المسكين! ولكن... آه... لماذا تأخر؟ آه، يابني! حبيبتي بتروشـكا!... رغم أنني لا أستحق أن أُسـمّى أباً بل نمراً، فإنني... "اتركني يا صديقي" (بالفرنسـية). سوف أضطجع قليلاً لأسـتجمع أفكاري. أنا مكدود جـداً، جـداً!... ومن جهة أخرى يُخيّل إليّ أنه قد آن لك أنت أيضاً أن تمضي إلى النوم. أترى؟ لقد انتصف الليل...

الفصل الرابع

العرجاء

1

لم يكن شاتوف عنيداً في هذه المرة: لقد لبى الرجاء الذي أعربت له عنه في رسالتي، فجاء في ظهر الغد إلى عند ليزافتا نيقولايفنا. وصلنا في وقت واحد تقريباً. هذه زيارتي الأولى للسيدة دروزدوف وابنتها. كانت ليزافتا نيقولايفنا وابنتها ومافريكي نيقولايفتش جالسين في الصالون الكبير يتناقشون. كانت السيدة دروزدوف قد طلبت من ابنتها أن تعزف لها على البيانو لا أدري أي لحن من ألحان الفالس. ولكن حين أخذت ليزايفنا تعزف أعلنت الأم أن هذا اللحن ليس هو اللحن المطلوب. ولبساطته وسذاجته، تحيز مافريكي نيقولايفتش للفتاة، فأكد أن اللحن الذي عزفته هو بعينه الفالس الذي طلبته الأم. فاغتاظت براسكوفيا إيفانوفنا، وأخذت تبكي من شدة الغضب: كانت ساقاها متورمتين، وهي منذ بضعة أيام كثيرة النزوات والأخيلة، سريعة إلى المشاجرة، تختصم مع الجميع وإن تكن ليزا تخيفها دائماً.

سُرّوا برؤيتنا سروراً عظيماً. واحمرّت ليزا غبطة وابتهاجاً، وقالت لي "شكراً" (من أجل شاتوف طبعاً) ومضت نحوه تنظر إليه مستطلعة.

وقف شاتوف على العتبة وقد بدا عليه الارتباك، وظهرت في هيئته الخراقة. وشكرت له ليزا مجيئه، وقادته إلى قرب أمها.

ـ هو السيد شاتوف الذي حدّثتك عنه. وهذا هو السيد (جـ. ف) الصديق الحميم لستيفان تروفيموفتش، وصديقي أنا أيضاً. لقد تعرف مافريكي

نيقولا يفتش إليه أمس.

ـ أيهما أستاذ؟

ـ ما من أحد منهما أستاذ يا ماما.

ـ بلى. أنت نفسك قلت لي إن أستاذاً سيأتي إلينا اليوم.

ثم أضافت تقول وهي تشير إلى شاتوف مشمئزة الهيئة:

ـ لا شك أن الأستاذ هو هذا.

ـ لم أقل لك أبداً أن أستاذاً سيأتي إلينا اليوم. إن السيد (جـ..ف) موظف، والسيد شاتوف طالب سابق.

ـ طالب أو أستاذ... المهم أنه من الجامعة. إنك لا تسعين إلّا للمجادلة والمناقشة. إن الذي رأيناه في سويسرا كان له شارب ولحية صغيرة.

قالت ليزا:

ـ إن ابن ستيفان تروفيموفتش هو الذي تسميه ماما دائماً باسم الأستاذ.

ثم اقتادت شاتوف إلى الطرف الآخر من الصالون حيث جلسا عل كنبة.

ودمدمت تقول لشاتوف وهي ما تزال تتفرس فيه مستطلعةً، وتنظر خاصة إلى شعره المتناثر خصلاً:

ـ حين تتورم ساقاها تصبح دائماً على هذه الحال. إنها مريضة.

سألتني العجوز التي تركتني لها ليزا بغير رحمة أو رأفة:

ـ أأنت عسكري؟

ـ لا إنني أعمل في..

فتدخلت ليزا على الفور قائلة:

ـ إن السيد (جـ..ف) صديق حميم لستيفان تروفيموفتش.

ـ أأنت تعمل في خدمة ستيفان تروفيوفتش. هو أيضاً أستاذ. أليس كذلك؟

صاحت ليزا تقول غاضبة:

ـ أوه! ماما! إنك لا تحلمين ليلاً ولا نهاراً إلّا بأساتذة!

ـ يكفيني الذين أراهم وأنا يقظى في النهار. إنك لا تفكرين إلّا في معارضة أمك. هل كنتَ هنا، منذ أربع سنين، أثناء إقامة نيقولاي فسيفولودوفتش؟

فأجبت بأنني كنت هنا فعلاً.

ـ هل كان معك رجل إنجليزي.

ـ لا، لم يكن ثمة رجل إنجليزي.

أخذت ليزا تضحك. فقالت الأم:

ـ هيه! أرأيت أنه لم يكن ثمة رجل إنجليزي. لم يكن ذلك إذن إلّا كذباً. إن فرفارا بتروفنا وستيفان تروفيموفتش يكذبان. هم جميعاً يكذبون على كل حال.

ـ إن عمتي وستيفان تروفيموفتش قد وجدا شيئاً من التشابه بين نيقولاي فسيفولودوفتش والأمير هاري في مسرحية هنري الرابع التي ألفها شكسبير. وها هي ذي ماما تقول الآن إن حكاية وجود ذلك الانجليزي كذب.

إذا لم يوجد هاري هنا، فمعنى ذلك أنه لم يكن ثمة رجل إنجليزي، وأن نيقولاي فسيفولودوفتش كان وحده يؤلف مهازل.

وجدت ليزا أن من الضروري أن تشرح لشاتوف فقالت له:

ـ أؤكد لك أن ماما تفعل هذا عامدة. إنها تعرف من هو شكسبير. وقد قرأت لها بنفسي الفصل الأول من مسرحية عطيل. ولكنها الآن مريضة جداً. ماما! اسمعي. دقّت الساعة الثانية عشرة. هذا وقت تجرعك الدواء.

ودخلت الخادمة تعلن:

ـ وصل الطبيب.

فنهضت السيدة العجوز، ونادت كلبها: "زيميركا، زيميركا، أنت على الأقل ستأتي معي!".

ولكن زيميركا، وهو كلب هرم خبيث، رفض أن يطيع، واندسّ تحت الكنبة حيث كانت ليزا جالسة.

قالت السيدة تخاطب الكلب:

ـ ألا تريد أن تأتي؟ طيب! لست في حاجة إليك.

ثم التفتت إليّ وقالت:

ـ إلى اللقاء أيها السيد. إنني لا أعرف اسمك ولا اسم أبيك.

ـ أنطون لافرنتيفتش...

ـ لا قيمة لهذا عندي. إن ما يدخل من إحدى الأذنين يخرج من الأخرى. لا ترافقني يا مافريكي نيقولايفتش. أنا لم أناد إلّا زيميركا. الحمد لله على أنني ما زلت أستطيع أن أمشي وحيدة، وغداً سوف أمضي أتنزه.

وخرجت ساخطة أشد السخط.

قالت ليزا وهي تبتسم لمافريكي نيقولايفتش ابتسامةً فيها كثير من الصداقة، حتى لقد أشرق وجه الشاب سروراً بنظرة الفتاة إليه:

ـ يا أنطون لافرنتيفتش، تحدث قليلاً مع مافريكي نيقولايفتش، بانتظار أن نفرغ نحن من حديثنا. أؤكد لكما أنكما كلاكما ستجنيان خيراً من مزيد من التعارف بينكما.

لم يبق لي من حيلة: بقيت أتحدث مع الضابط.

2

ما كان أشدّ دهشتي حين تأكدت من أن الغرض الذي استدعت الفتاة من أجله شاتوف إنما يتعلق بالأدب فعلاً! كنت قد تخيلت، لا أدري لماذا، أنها كانت تهدف إلى غاية أخرى حين استدعته. فحين لاحظنا أنا ومافكريكي نيقولايفتش أنهما يتكلمان بصوت عال، ولا يخطر ببالهما أن يتخاطبا في السر، أخذنا نصغي إليهما، وسرعان ما اتجها هما إلينا يسألاننا النصح في أمر المشروع الذي تعرضه ليزافتا نيقولايفنا: كانت ليزافتا نيقولايفنا قد تخيلت إصدار كتاب ترى أنه مفيد جداً، لكنها في حاجة إلى معاون لافتقارها إلى الخبرة. وقد أدهشتني اللهجة الجادة التي أخذت تشرح بها خطتها لشاتوف. فقلت لنفسي: "هذه فتاة متطورة. لم تذهب إقامتها بسويسرا هدراً". وكان شاتوف يصغي إليها بانتباه، مطرقاً إلى الأرض، ليس يدهشه في ما يبدو أن يرى فتاة من المجتمع الراقي، فتاة لاهية غير مكترثة، تهتم بأمور يلوح للمرء في الوهلة الأولى أنها لاتناسبها كثيراً.

وإليكم المشروع الأدبي[1] الذي تفكر فيه ليزا: إن عدداً كبيراً من المجلات والجرائد يُطبع في روسيا، سواء في الأقاليم أوفي العواصم، وهذه المجلات والجرائد تطلع قرّاءها على جميع الأحداث بانتظام، وتمضي السنة وتنكوم الجرائد في الخزائن، أو تُرمى، أو تُمزّق، أو تصنع منها أكياس، أو تستخدم في تغليف أشياء شتى. إن بعض الأحداث التي روتها المجلات والجرائد يكون قد أثار اهتمام الناس إثارة شديدة، فاحتفظ الناس بذكراه، لكن السنين تمر فينسونه. وإن كثيراً من الأفراد يحبون بعد ذلك أن يتذكروا تلك الأحداث، ولكن ما أصعب البحث بين تلك الأكوام من الأوراق عن أمر معين في موضوع حادثة خاصة وقعت لا ندري أين ولا متى!... فإذا استطعنا أن نكثّف في كتاب واحد جميع الوقائع التي حدثت خلال سنة كاملة، مرتبين إياها على الأيام والأشهر وفقاً لخطة موضوعة وفكرة موجهة، مضيفين إليها فهرساً ودليلاً أبجدياً، فإن كتاباً من هذا النوع سوف يصوّر السمات الأساسية للحياة الروسية خلال السنة المنصرمة، ومع ذلك لا تكون هذه المعلومات قد اشتملت إلّا على جزء يسير من الوقائع.

ـ بهذا تُحلّين محل الجرائد والمجلات الكثيرة عدداً من الكتب الضخمة! ذلك كل شيء.

لكن ليزافتا نيقولايفنا، رغم أنها لا تجيد التعبير عن أفكارها، دافعت عن مشروعها بحرارة مؤكّدة على علمها بالمصاعب التي ستتعرض تنفيذ هذا المشروع. قالت: ليس الأمر إلّا أمر كتاب واحد في مجلد واحد، ولن يكون ضخماً ضخامة كبيرة. وهبنا اضطررنا أن نجعله أسمك، فإن من الواجب أن يكون واضحاً على كل حال: إن كل شيء متوقف على الخطة المرسومة، وعلى طريقة عرض الوقائع. لن نستطيع طبعاً أن نجمع وننشر كل الوقائع. فالقرارات والمراسيم التي تصدرها الحكومة، والقوانين والأنظمة المتعلقة

---

(1) كان دوستويفسكي قد خطر بباله يوماً أن يجمع في كتاب طائفة من الوقائع المختلفة تصور الحياة الروسية وتستمد من الجرائد.

بـالإدارات المحليـة، هذه كلها هامة جداً، ولكن لا يمكـن أن يكون لها مكان فـي الكتـاب الذي أريد إصداره. يجـب علينا أن نقصـر اختيارنا على أحداث تميـز الحياة الرّوحية للشـعب الروسـي وتميّـز شـخصيته، في هـذه المرحلة بعينها خاصة. لا شـيء يجب إهمالـه: الطرائف، الحرائـق، التبرعات العامة، الأعمـال البطوليـة والإجراميـة، الخطـب، الفيضانـات، إلـخ، وربمـا بعض قـرارات الحكومة، على شـرط أن لا نختار إلّا الأحـداث التي تصوّر العصر، نجمعهـا على نيـة محددة، ونخضعهـا لفكرة موجِّهـة. فهذ الفكـرة الموجهة ستلقي نـوراً على المجمـوع، وتجعل منهـا كلاً مترابطاً. ثم إن هـذا الكتاب، عدا قيمته الوثائقية، يجب أن يسـتهوي محبي القراءات الخفيفة أيضاً. سـوف يكون نوعاً من لوحة كاملة تصوّر الحياة الروحية والأخلاقية في داخل روسيا خـلال عـام. "يجـب أن يشـتريه جميع النـاس. يجـب أن يوجد هـذا الكتاب علـى كل مائـدة. إنني أدرك أن كل شـيء متوقـف على المخطـط، ومن أجل ذلـك إنما أتوجـه إليك وأسـتعين بك". كذلك قالـت ليزا بحـرارة. ورغم أن شـروحها كانت غامضة وناقصة فقد بدأ شـاتوف يفهم. فقـال مدمدماً وهو ما يزال خافض الرأس:

ـ سـيكون للكتاب إذن اتجاه ومَيْل. سيتم اختيار الوقائع والأحداث على أساس مَيْل معيّن.

ـ لا، أبداً. يجب أن لا ننظر إلى الأمور من خلال رأي معين. لا داعي إلى اتباع اتجاه محدّد. سيكون اتجاهنا الوحيد هو عدم التحيز.

قال شاتوف وهو يمط جسمه قليلاً:

ـ ولكـن اتبـاع اتجاه معيّن ليـس بالأمر السـيء إلى هذا الحـد. وإنه لمن المسـتحيل على كل حال أن يسـتغني المرء عن مَيْل معيّن استغناء تاماً ما دام يختار. إن اختيار الوقائع نفسه سيشير للقراء إلى الطريقة التي يجب عليهم أن يفهموها بها. ليست فكرتك رديئة.

قالت ليزا سعيدة كل السعادة:

ـ أتعتقد إذن أن مثل هذا الكتاب ممكن؟

ـ يجب أن أدرس المسألة وأن أفكر فيها. هذا عمل ضخم. يستحيل على المرء أن يرى جميع جوانبه فوراً. إننا تعوزنا الخبرة. وحتى بعد إصدار المجلد الأول، لن نكون قد علمنا أشياء كثيرة ولن تكون خبرتنا قد اكتملت. ربما بعد عدة تجارب من هذا النوع.. ولكن الفكرة شائقة هامة، وهي نافعة مفيدة.

ورفع عينيه أخيراً، كانتا تلمعان، وكان مفتوناً.

وسألها أخيراً بلهجة فيها خجل وحنان معاً:

ـ أأنت ابتكرت هذه الفكرة وحدك من تلقاء نفسك؟

أجابت ليزا مبتسمة تقول:

ليس ابتكار الفكرة أمراً صعباً. وإنما الصعب وضع المخطط. إن أموراً كثيرة تفوتني. أنا لست ذكية جداً، ولكنني لا ألاحق إلّا ما أراه رؤية واضحة.

ـ تقولين "لا ألاحق"؟

ـ لا شك أنني استعملت كلمة بدلاً من كلمة؟ أليس كذلك؟

هكذا أسرعت تسأله ليزا بحرارة. فأجابها بقوله:

ـ لا. الكلمة مناسبة. لم أشأ أن أقول شيئاً.

ـ حين كنت ما أزال في الخارج، أقنعت نفسي بأنني أستطيع أنا أيضاً أن أكون نافعة. إنني أملك مالاً، ولا أصنع به شيئاً. فلماذا لا أكون قادرة على أن أساهم أنا أيضاً في العمل العام؟ على أن الفكرة قد جائتني من تلقاء نفسها. لم أبحث عنها، لم أسعَ إليها. لكنني سعدت باكتشافها. ومع ذلك سرعان ما رأيت أنني لا أستطيع الاستغناء عن معاون لأنني لا أجيد القيام بعمل وحدي. طبعاً سيكون هذا المعاون شريكاً في إصدار الكتاب. إننا نقتسم إصدار الكتاب: فمنك المخطط والعمل، ومني الفكرة الأولى والمال. ألا تعتقد أن ريع الكتاب سيغطي نفقاته؟

ـ إذا أحسنّا الاهتداء إلى مخطط جيد فسوف يباع الكتاب.

ـ لاحظ أنني لا أفعل هذا بغية الحصول على فوائد. ولكنني أتمنى أن يروج الكتاب رواجاً كبيراً، وأن يعود علينا ببعض الربح.

ـ وأنا ما شأني في الأمر؟

ـ أنت المعاون الذي أدعوه إلى مشاركتي في إصدار الكتاب مناصفةً. أنت تضع المخطط.

ـ كيف عرفت أنني قادر على تخيل هذا المخطط؟

ـ حُدّثت عنك. وهنا سمعت... إنني أعرف أنك ذكي جداً، و... أنك تعمل، وأنك تفكر كثيراً. كلمني عنك بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي في سويسرا...

كذلك أسرعت تضيف هذه الجملة الأخيرة. وتابعت كلامها تقول:

ـ إنه رجل ذكي جداً أليس كذلك؟

ـ شملها شاتوف بنظرة عجلى، وسرعان ما عاد يخفض عينيه.

قالت ليزا:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، هو أيضاً، حدّثني عنك كثيراً.

فاحمرّ وجه شاتوف فجأة.

قالت ليزا وهي تتناول عن الكرسي حزمة من الجرائد كانت قد أعدّتها ووضعتها هناك:

ـ إليك الجرائد على كل حال. لقد حاولت أن أتخيّر من بين الوقائع بعضها، فأشرت إليه ووضعت له أرقاماً... سوف ترى.

تناول شاتوف حزمة الجرائد.

ـ خذها معك، وادرسها في بيتك. أين تسكن؟

ـ عمارة فيليبوف، شارع إيبيفانيا.

ـ أعرف. وهنالك أيضاً إنما يسكن، فيما أظن، رجل يُدعى لبيادكين.

لبث شاتوف جالساً، خافض العينين، ممسكاً حزمة الجرائد بيده، صامتاً لا يجيب خلال دقيقة كاملة. ثم قال بصوت منخفض انخفاضاً غريباً حتى ليكاد يكون تمتمة:

ـ الأفضل أن تختاري لمثل هذه الأمور شخصاً آخر. أنا لن أنفعك.

فاحمرت ليزا احمراراً شديداً، ثم هتفت تقول:

ـ أي أمور تقصد؟ ثم نظرت إلى الضابط: يا مافريكي نيقولايفتش، جئني من فضلك بالرسالة التي وصلت منذ مدة قصيرة.

وتبعت الضابط إلى المائدة.

قالت مضطربة أشد الاضطراب وهي تلتفت نحوي فجأة وتفضّ الرسالة:

ـ انظر! هل رأيت في حياتك شيئاً كهذا؟ اقرأ الرسالة بصوت عال، أرجوك. إنني في حاجة إلى أن يسمعها السيد شاتوف أيضاً.

فقرأت الرسالة التالية مندهشاً أشد الاندهاش:

إلى الآنسة توشين الكاملة أعظم الكمال

إلى المحترمة جداً ليزافتا نيقولايفنا!

آه ما أروعها

ليزافتا توشين،

حين تعدو مع قريبها

على صهوة جوادها الكريم

فتلاعب الريح ضفائر شعرها.

أو حين تسجد في الكنيسة

فيتخضب وجهها بجمرة حلوة.

عندئذ أتطلع إلى أفراح الزواج المشروعة

وأتابع آثارها بآليا...

"نظمها جاهل أثناء مناقشة"

"سيدتي..

"أكثر من أي إنسان آخر، يؤسفني ويحزنني أنني لم أفقد ذراعاً في سيباستوبول، لأنني لم أكن في سيباستوبول في يوم من الأيام، وإنما قضيت مدة الحرب أعمل في مصلحة التموين الخسيسة، وذلك ما أعدّه صَغاراً. أنت إلهة من آلهة الأساطير القديمة، أما أنا فلست شيئاً، ولكنني أحس سلفاً باللانهاية. اعتبري هذا قصيدة، فهو ليس أكثر من ذلك. وما

الشعر في النهاية إلّا حماقة، لكنه يسوغ ما لو قيل نثراً لعُـدّ وقاحة. هل يمكن أن تغضب الشمس من دويبة الماء إذا خاطبتها الدويبة بقصيدة من قرارة قطرة المـاء التي يكتشـف فيها المِجهَر عـدداً كبيراً من هـذه الدويبات؟ حتى نادي حمايـة الحيوانات[1] الكبيرة الذي أُنشـئ ببطرسـبرج، فـي المجتمع الراقي، رغم ما يشـعر به من عطف على كلـب أو حصان، وهو عطف في محله، إنما يحتقر دويبة الماء الرقيقة ولا يشـير إليها أي إشـارة، لأنها غاية في الصغر. أنا أيضاً في غاية الصغر. وفكرة الزواج يمكن أن تبدو سـخيفة مضحكة. لكنني سـأملك بعـد قليل أرضاً تُقـدّر في الحسـاب القديم بمائتي نفـس[2]، وذلك بواسطة رجل كاره للبشر لا بد أنك تحتقرينه. إن في إمكاني أن أطلعك على أشياء كثيرة، بل إنني مستعد لأن أواجه احتمال النفي إلى سيبريا، لأنني أستند إلى وثائق. لا تحتقري ما أعرضه عليك. اعتبري رسالة دويبة الماء شعراً".

هتفت أقول مستاءً:

ـ هذه الرسالة قد كتبها وغد حقير سكّير. إنني أعرفه.

قالت ليزا متدفقةً في كلامها وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة:

ـ تلقيتها أمس. فسـرعان ما أدركت أنها صادرة عن معتوه! لم أُظهر عليها مامـا حتى الآن، حتـى لا تضطرب مزيداً من الاضطـراب. ولكن إذا تمادى، فإنني لا أدري ماذا أفعل. إن مافريكي نيقولايفتش يريد أن يمضي إليه فيؤدبه ويرده إلى الصواب.

ثم قالت لشاتوف:

ـ لما كنت أعدّك معاوني، وما دمت تقطن في نفس العمارة، فقد أردت أن أسألك عما ينبغي أن أتوقع منه.

فدمدم شاتوف يقول كمن يتكلم على مضض:

ـ سكّير ودنيء!

---

(1) تأسست جمعية لحماية الحيوانات سنة 1875 ببطرسبرج.

(2) قبل إصلاح 1861 كانت قيمة الأرض تقدر بعدد "النفوس" الأقنان.

ـ أهو غبي إلى هذا الحد؟

ـ لا يكون غبياً إذا لم يشرب فيسكر.

قلت ضاحكاً:

ـ أعرف جنرالاً كان ينظم أشعاراً كهذه تماماً.

وانبرى مافريكي نيقولايفتش الصموت دائماً فقال على حين فجأة:

ـ هذه الرسالة وحدها تدل على أنه يبيّت أمرًا.

سألت ليزا:

ـ سمعت أنه يعيش مع أخته، أهذا صحيح؟

ـ نعم.

ـ يظهر أنه يضطهدها ويسومها سوء العذاب. أهذا صحيح؟

مرة أخرى رفع شاتوف عينيه نحو ليزا، وقطب حاجبيه، وتقدم خطوة نحو الباب وهو يدمدم قائلاً:

ـ ذلك لا يعنيني!

صاحت ليزا تقول مضطربة كل الاضطراب:

ـ انتظر! إلى أين تذهب؟ ما يزال علينا أن نتفق على أمور كثيرة!

ـ على ماذا يجب أن نتفق؟ سأبلغك غداً بردّي...

ـ لم نتحدث حتى الآن عن الشيء الأساسي، عن المطبعة. صدّق أن مشروعي ليس مزاحاً. إنني أريد أن أعمل فيه جادةً.

كذلك ألحت ليزا وهي تضطرب مزيداً من الاضطراب. وتابعت كلامها تقول:

ـ إذا قررنا إصدار هذا الكتاب، فأين سنطبعه؟ ذلك أهم شيء. لن نمضي نقيم بموسكو خصيصاً لهذا الغرض. ومن جهة أخرى لا نستطيع أن نعتمد على المطبعة الموجودة هنا لإنجاز عمل من هذا النوع. لذلك قررت منذ مدة طويلة أن تكون لي مطبعة خاصة بي، تُسجّل باسمك طبعاً. أنا أعلم أن ماما لن تسمح لي بامتلاك المطبعة إلّا على شرط أن تُسجّل باسمك...

سألها شاتوف مربدّ الوجه:

ـ كيف عرفت أن في وسعي أن أتولى أمر مطبعة؟

ـ إن بطرس ستيفانوفتش هو الذي حدثني عنك في سويسرا، فأكد لي أنك قادر على إدارة مطبعة، لمعرفتك بالمهنة. حتى لقد أراد أن يحمّلني رسالةً إليك، لكنني نسيت.

تغير وجه شاتوف لدى سماع هذه الكلمات (أتذكر هذا الآن). ولبث صامتاً لحظة، ثم فتح الباب فجأة وخرج.

زعلت ليزا.

وسألتني: ـ هل يتصرف دائماً على هذا النحو؟

وبينما كنت أرفع كتفيّ جواباً على سؤالها، إذا هو يعود بغتة، فيتوجه نحو المائدة رأساً، فيضع عليها حزمة الجرائد التي كان قد حملها. وقال:

ـ لن أتعاون معك. لا يتسع وقتي...

فهتفت ليزا تقول بصوت متألم متضرع:

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟ يبدو عليك أنك زعلان!

فظهر عليه أن نبرة صوتها قد فاجأته، فتأملها ملياً بضع لحظات، كأنه يريد أن ينفذ إلى قرارة نفسها. ثم قال بصوت خافت:

ـ ليس هذا مهماً. لا أريد.

وخرج جازماً في هذه المرة.

بدا لي في تلك اللحظة أن ليزا قد تشوشت تشوشاً كبيراً تجاوز الحدود المعقولة.

وقال مافريكي نيقولايفتش: ـ إنه غريب الأطوار حقاً.

3

"غريب الأطوار" فعلاً. ولكن الأمر كله ليس واضحاً، ولا بد أن له أسباباً خبيئة. رفضت، بيني وبين نفسي، أن آخذ مشروع نشر الكتاب مأخذ الجد. ثم إن هناك تلك الرسالة الحمقاء التي يعرض فيها كاتبها، وذلك أمر واضح كل الوضوح، أن يشي بشخص ما بالاستناد إلى وثائق. ولم ينطق

أحـد بكلمة حول هـذا الموضوع، وجعلـوا يتكلمون في شـيء آخر. وهناك أخيـراً حكاية المطبعة، وانصرف شـاتوف على حين فجـأة مدفوعاً إلى ذلك بكلمـات معينـة قالتها ليزا بهذا الصدد. ذلك كلـه حملني على التفكير في أن أمراً أجهله كان قد حدث قبل وصولي، وأن وجودي إذن كان زائداً، وأن ذلك كلـه لا يعنيني علـى كل حال. ثم لقد آن أوان الانصـراف. وما يجوز أن تمتد زيارة أولى وقتاً أطول. فاقتربت من ليزا نيقولايفنا لأودّعها.

كانـت كأنها نسـيت وجودي، وهي ما تزال واقفة أمـام المائدة، غارقة في أفكارها، خافضة الرأس، محدّقة بعينها إلى السجادة.

دمدمت تقول بصوتها الذي ما يزال ودوداً:

ـ آ... أتنصـرف أيضـاً. انقـل تحيتـي إلـى سـتيفان تروفيموفتـش وقل له أن يجيئنـي فـي أقـرب وقـت ممكـن. يـا مافريكـي نيقولايفتـش، إن أنطون لافرونتيفتش ذاهب. اعذر ماما، فإنها لا تستطيع أن تجيء لتودعك.

وخرجت. فلما وصلت إلى أدنى السلم أدركني خادم وقال لي:

ـ السيدة ترجوك أن تعود.

ـ أهي السيدة أم ليزافتا نيقولايفنا؟

ـ ليزافتا نيقولايفنا.

فلما رجعت وجدت ليزا انتقلت من الصالون الكبير إلى صالة الاسـتقبال المجـاورة. وكان الباب الذي يفصل هذه الصالـة عن الصالون الذي بقي فيه مافريكي نيقولايفتش مغلقاً.

ابتسـمت لي ليزا وهـي مصطبغة الوجه بصفرة شـديدة. كانـت واقفة في وسـط الغرفـة على وضـع متـردد، وكان واضحـاً أنها تعانـي صراعـاً داخلياً عنيفـاً. وفجأة تناولت يـدي دون أن تقول كلمة واحدة، وقادتني نحو النافذة. ودمدمت تقول لي وهي تصوّب إليّ نظرة حارة آمرة نافذة الصبر، لا تقبل أي اعتراض:

ـ أريد أن أراها حالاً. أريد أن أراها بعينيّ، وأرجوك أن تساعدني في هذا.

سألتها مرتاعاً:

ـ مَنْ التي تريدين أن ترينها يا ليزافنا نيقولايفنا؟
ـ أخت لبيادكين، تلك العرجاء... أصحيح أنها تعرج؟
ذُهلت وشُدهت، وأسرعت أجيبها بصوت خافت أيضاً:
ـ لم أرها في حياتي، ولكن قيل لي إنها عرجاء، قيل لي هذا أمس.
ـ يجب أن أراها حتماً. هل يمكن أن يتم هذا اللقاء اليوم؟ هل تستطيع أن تدبّر ذلك؟
وشعرت نحوها بشفقة على حين فجأة. قلت:
ـ مستحيل. حتى إنني لا أعرف كيف أحتال على الأمر. سأرى شاتوف...
ـ إذا لم تتوصل إلى تدبير هذا اللقاء حتى الغد، فسأذهب أنا إلى عندها، سأذهب وحدي، لأن مافريكي نيقولايفتش يرفض أن يصحبني. أملي الوحيد فيك أنت. لا أستطيع أن أعتمد على أحد غيرك. لقد كلمتُ شاتوف بكثير من الحماقة والغباوة منذ قليل. إنني على يقين من أنك رجل شريف كل الشرف، وأنك ربما كنت مخلصاً لي. دبّر لي هذا اللقاء، أرجوك!
أحسست فجأة برغبة قوية كل القوة في مساعدتها. فقلت لها بعد لحظة من تأمل:
ـ إليك ما سوف أفعله: سأذهب بنفسي، وسأظفر برؤيتها حتماً، حتماً، لك عليّ عهد الشرف لأظفرنّ بذلك. ولكن اسمحي لي بأن أكاشف في شاتوف بالأمر.
ـ قل له إن هذه رغبتي، وإنني أصبحت لا أطيق الانتظار ولكن قل له أيضاً أنني لم أخدعه منذ قليل. فلعله انصرف لأنه صريح جداً، ولأنه تخيّل أنني أردت أن أخدعه. لا، لم أكذب. إنني عازمة فعلاً على إصدار ذلك الكتاب وعلى إنشاء مطبعة.
قلت ملحّاً بحرارة:
ـ نعم، إنه صريح وشريف.
ـ ولكن إذا لم يتم الأمر غداً فسوف أذهب إليها بنفسي مهما يحدث من أمر، سوف أذهب إليها ولو عرف بذلك جميع الناس.

قلت وقد استرديت هدوئي:

ـ لن أستطيع أن أجيئك غداً قبل الساعة الثالثة.

قالت وهي تبتسم:

ـ طيب. أنتظرك في الساعة الثالثة. لم يخطئ ظني إذن بالأمس حين قدّرت أنك مخلص لي.

وشدت على يدي بسرعة، وجرت تدرك مافريكي نيقولا يفتش.

خرجت مرهقاً بثقل الوعد الذي قطعته على نفسي. لم أفهم ماحدث. رأيت امرأة قد بلغت ذروة الكمد والحزن، ولا تخشى أن تعرّض نفسها لسوء باعتمادها على رجل لا تكاد تعرفه. إن ابتسامتها الملاطفة، في لحظة تبلغ هذا المبلغ من الخطورة، واعترافها هي ذاتها بأنها لاحظت عواطفي، ذلك كله قد هزّ قلبي هزّة قوية. ولكنني لم أشعر نحوها إلّا بالشفقة. وأصبحت أسرارها في نظري مقدسة إن صح التعبير، فلو أراد أحد أن يفضي بها إليّ الآن لسددت أذنيّ رافضاً سماعها وكنت مع ذلك لا أدري حقاً كيف عسى أتصرف لأفي بوعدي. بل هناك ما هو أكثر من ذلك: كنت لا أعرف على وجه الدقة ما المطلوب مني. إن عليّ أن أهيء لقاءً، ولكن أي لقاء؟ وكيف أتصرَّف من أجل أن أجمعهما؟ كان أملي كله في شاتوف. ولكنني كنت على ثقة بأنه لن يساعدني البتة. ومع ذلك هرعت إليه.

4

لم يعُدْ إلى البيت إلّا في نحو الساعة الثامنة مساءً. وما كان أشد دهشتي حين رأيت عنده زوّاراً، هم ألكسي نيلتش وسيد لا أكاد أعرفه، رجل يقال له شيجالوف، هو أخو زوجة فرجنسكي.

إن شيجالوف هذا قد وفد إلى مدينتنا منذ قرابة شهرين، إذا لم يخطئ تقديري. لا أدري من أي بلد جاء. كان يقال إنه نشر مقالات في مجلة تقدمية ببطرسبرج. وقد قام فرجنسكي بتعريف أحدنا بالآخر في الشارع ذات يوم. لم أر في حياتي وجهاً كوجه هذا الرجل عبوساً وتجهماً بل وحداداً. لكأنه

يتوقـع دمار العالـم وخراب الكون لا في وقت قريـب أو بعيد، وفقاً لنبوءات يمكن أن تتحقق ويمكن أن لا تتحقق، بل في وقت محدد معين، بعد غد مثلاً، في السـاعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشـرين من المساء. لم نكد نتبادل كلمتين في ذلك اللقاء الأول، وإنما اكتفينا بأن نتصافح كما يتصافح شريكان فـي مؤامرة. وقد لفتـت نظري فيه خاصةً أذناه الضخمتان ضخامة غير عادية، الطويلتان العريضتان السميكتان، المتباعدتان عن رأسه تباعداً غريباً. وكانت حركاتـه بطيئـة خرقاء. إذا كان ليبوتيـن يتخيل أننا قد نتوصل يوماً إلى إنشـاء تعاونية على طريقة فورييه في مقاطعتنا، فإن شـيجالوف كان يحدد لك اليوم والساعة اللذين سيتحقق فيهما قيام هذه التعاونية. لقد أحدث شيجالوف في نفسي إحساساً يشتمل على شؤم. وفاجأني أن ألقاه عند شاتوف، لاسيما وأن شاتوف كان لا يحبّ الزيارات كثيراً.

لقد سـمعتهم يتناقشون هم الثلاثة مناقشـة حامية جداً منذ أن كنت أصعد السـلّم. كان يبـدو أنهم يتشـاجرون. ولكن ما إن دخلت حتـى صمتوا. كانوا يتشـاجرون وهـم واقفون، ولكنهم حيـن رأوني عادوا يجلسـون، فكان عليّ أن أجلـس أنـا أيضـاً. وران على الغرفة صمـت أبله امتدّ ثـلاث دقائق كاملة. وتظاهـر شـيجالوف بأنه لا يعرفني رغم أنه قد تعرّفنـي فعلاً، تظاهر بذلك لا بدافع عداوة، بل بدون أي سـبب حتماً. أما ألكسي نيلتش فقد حياني وحييته مـن بعيـد صامتَيْن، دون أن نتصافح، لا أدري لماذا! أخذ شـيجالوف يرمقني بنظرة قاسـية، مسـتاءة، مقتنعاً بأنني سـأنهض وأنصرف. وقام شاتوف أخيراً، وقام بعده الآخران. وخرجا دون أن يودّعا. ولكن شـيجالوف قال عند العتبة لشاتوف الذي كان يشيّعهما إلى الباب:

ـ تذكّر أن عليك حساباً لنا ستؤديه.

ـ أنا لا أبالي بهذا كله، وليس عليّ حساب أؤديه لأحد.

قـال شـاتوف ذلك وأغلق البـاب وراءهما، وأحكم شـدّ مزلاجه. ثم قال وهو ينظر إليّ ويبتسم ابتسامة تشبه أن تكون تكشيرة:

ـ يا للمعتوهين!...

كان يبدو غاضباً، وأدهشني منه أن يكون هو البادئ بالكلام. لقد عوّدني، حين كنت أجيء إليه (وذلك نادر جداً) أن أراه يجلس في ركن من الأركان عابساً، وأن يجيب عن أسئلتي على مضض، ثم لا ينتعش ويتحمس إلّا بعد وقت، فإذا هو يتحدث عندئذ راضياً مسروراً. ولكنه حين يشيّعك مودّعاً ويفتح الباب، يسترد هيئة من ظفر أخيراً بالتخلص من عدو شخصي.

قلت: ـ لقد تناولت الشاي عند ألكسي نيلتش. أعتقد أن الإلحاد قد جعله مجنوناً.

فدمدم شاتوف يقول وهو يضع شمعة جديدة محل شمعة ذائبة:

ـ إن الإلحاد الروسي لم يتجاوز في يوم من الأيام حدود التلاعب اللفظي.

ـ لا، لا يبدو لي أن كيريلوف واحد من الذين يتلاعبون بالألفاظ. إنه عاجز حتى عن التعبير البسيط. فأنى له أن يقدر على أمازيح قوامها التلاعب بالألفاظ.

قال بهدوء:

ـ هؤلاء رجال من كرتون. تفكيرهم مستعبد. ذلك مصدر كل شيء.

وجلس على كرسي في ركن، باسطاً يديه فوق ركبتيه.

ثم قال بعد لحظة صمت:

ـ ثم إن في ذلك كله كرهاً وبغضاً. ألا إنهم ليصبحون تعساء تعاسةً رهيبة لو قُيّض لروسيا أن تتبدل فجأة وفقاً لما تقتضيه آراؤهم، فإذا هي تصبح بلداً غنياً مزدهراً يرفرف عليه الرخاء دفعةً واحدة. ذلك أنهم، إذا تحقق ذلك، لا يبقى ثمة من يكرهونه ويبغضونه، لا يبقى ثمة من يبصقون عليه، لا يبقى ثمة من يسخرون منه ويستهزئون به. إن مردّ ذلك كله إلى كره وبغض يشعرون بهما نحو روسيا، كره وبغض حيوانيين إن صح التعبير، يملآن شعاب نفوسهم ويشيعان في خلايا أجسامهم... ليس الأمر عندهم أمر إخفاء دموعهم وراء ابتسامة[1].

---

(1) الإشارة إلى جملة لجوجول يقول فيها إنه في نقده يضحك من خلال الدموع.

وختم كلامه بقوله صائحاً بحنق شديد:

ـ ما من جملة أكذب من هذه الجملة قيلت في يوم من الأيام!

قلت: ـ الله يعلم ما هذا الذي تقول!

وأخذت أضحك.

قال شاتوف مبتسماً هو أيضاً:

ـ أما أنت فلست إلّا "لبرالياً معتدلاً".

ثم استأنف كلامه:

ـ أظن أنني قد أفلتت مني كلمة سخيفة حين تكلمت عن "تفكيرهم المستعبد" لعلك ستقول: "أنت ابن عبد خادم، أما أنا فلم أكن خادماً في يوم من الأيام".

ـ ما خطر ببالي أن أقول كلاماً كهذا الكلام في لحظة من اللحظات... ما هذا الذي تقول؟!...

ـ لا تعتذر. لست خائفاً منك. أنا لم أكن في الماضي إلّا ابن خادم ولكنني اليوم خادم أنا أيضاً، مثلك تماماً. إن اللبرالي الروسي خادم قبل كل شيء، خادم يبحث عن أحذية يلمّعها.

ـ أية أحذية؟ ما معنى هذا المجاز؟

ـ مجاز؟... أرى أنك تضحك... لقد صدق ستيفان تروفيموفتش حين قال إنني مهشَّم تحت صخرة، ولكن ليس إلى حد الموت، وإنني أحاول عبثاً أن أنهض. إن تشبيهه هذا صحيح.

قلت ضاحكاً:

ـ ستيفان تروفيموفتش يقول إنك لا همّ لك إلّا الألمان. لقد أخذنا منهم شيئاً على كل حال.

ـ نعم، أخذنا خمسين كوبكا، ولكننا أعطيناهم مائة روبل من أموالنا.

ولبثنا صامتين دقيقة كاملة.

ـ في أمريكا إنما نشأ عنده هذا.

ـ من هو؟ ماذا نشأعنده؟

ـ كيريلوف. لقد قضينا معاً في أمريكا أربعة أشهر، راقدين جنباً إلى جنب في كوخ حقير.
ـ ماذا؟ كنتما في أمريكا؟ لم تذكر لي ذلك في يوم من الأيام.
ـ ما الداعي إلى ذكره؟ منذ سنتين، جازفنا بآخر ما نملك من قروش، فسافرنا ثلاثة أشخاص إلى الولايات المتحدة على سفينة مهاجرين[1] "لنتذوق حياة العامل الأمريكي، ولندرك بتجربة شخصية خاصة بنا حالة إنسان يوجد في ظروف اجتماعية شاقة قاسية". تلك كانت الغاية من رحلتنا.
صحت أقول وأنا أضحك:
ـ يا سلام! علام السفر إلى أمريكا لمعاناة تلك التجربة الشخصية؟ كان الأفضل لكم أن تذهبوا إلى ريفنا في فترة الحصاد.
ـ دخلنا هنالك عمّالاً لدى مستثمر. كان مجموع عدد الروس عنده ستة، منهم الطالب، ومنهم مالك الأطيان جاء من أراضيه، بل ومنهم الضابط، وكانت غاية الجميع هي تلك الغاية السامية نفسها. عملنا، وعرقنا، وتعبنا حتى كدنا نموت، وأخيراً انصرفنا أنا وكيريلوف مكدودين متعبين وقد عيل صبرنا وأصبحنا لا نستطيع احتمال المزيد. وقد خدعنا صاحب العمل حين دفع لنا أجرنا: فبدلاً من أن ينقدنا الثلاثين دولاراً المتفق عليها، أعطاني أنا ثمانية، وأعطى كيريلوف خمسة عشر. وقد حدث أن ضُربنا غير مرة. هكذا أصبحنا بدون عمل، فلبثنا راقدَيْن في كوخ حقير جنباً إلى جنب. كان هو يجتر أفكاره، وكنت أنا أجتر أفكاري.
ـ هل يعقل أن يكون صاحب العمل قد ضربكما؟ وفي أمريكا؟ إنني أتخيل الحنق الذي كان يستعر عندئذ في قلبيكما، وأتخيل كيف كنتما تلعنانه.
ـ لا، أبداً! بالعكس: لقد اتفق رأينا أنا وكيريلوف فوراً على أننا "معشر الروس لسنا إلّا أطفالاً صغاراً بالقياس إلى الأمريكان، وإن على المرء

(1) بين آ. دولينين في تعليقه على رسالتين من دوستويفسكي أن قصة شاتوف عن سفره إلى أمريكا تستمد بعض عناصرها من مقالة كتبها آ. أوجورودفيكوف وظهرت في مجلة الفجر سنة 1870، وفيها يتحدث الكاتب عن انطباعات رحلته إلى أمريكا.

أن يكون قد ولد بأمريكا أو عاش فيها زمناً طويلاً حتى يرقى إلى مستوى الأمريكان". بل أقول لك أكثر من ذلك: حين كان يؤخذ منا دولار كامل ثمناً لشيء لا يساوي قرشاً، كنا ندفع الدولار راضين، بل وكنا ندفعه مسرورين مفتونين. كان كل شيء يفتننا: تحضير الأرواح، قانون لنتش[1]، المسدسات، المشردون. وفي ذات يوم، أثناء سفر، دسّ أحدهم يده في جيبي، فاستل منه فرشاة شعرى، وأخذ يصفف شعره. فلم نزد أنا وكيريلوف على أن تبادلنا نظرة: واستقر رأينا على أن الرجل قد أحسن صنعاً، وأن هذا قد أعجبنا كثيراً.

قلت: ـ الشيء الغريب أن مثل هذه الأفكار تنتقل عندنا من نطاق النظرية إلى حيز العمل.

عاد شاتوف يكرر: ـ قلت لك: أناس من كرتون!

ـ ومع ذلك... أن يقطع المرء المحيط على سفينة مهاجرين، مسافراً إلى بلد مجهول لا لشيء إلّا أن "يعاني تجربة شخصية"، إلخ، فإن في ذلك لشيئاً عظيماً بالفعل!... وكيف خرجتم بعد ذلك من المأزق؟

ـ كتبت إلى صديق لي بأوروبا فأرسل إليّ مائة روبل.

كان شاتوف، وهو يتكلم، محدقاً إلى الأرض في عناد، على عادته حتى حين يتحمس. ومع ذلك رفع رأسه في تلك اللحظة قائلاً:

ـ هل تريد أن تعرف اسم ذلك الصديق؟

ـ ما اسمه؟

ـ نيقولاي ستافروجين.

ونهض بغتة، واتجه نحو منضدة الكتابة المصنوعة من خشب الزيزفون، وبدا عليه أنه يبحث عن شيء ما. كان يُقال في المدينة ـ دون الدخول في تفاصيل واسعة ـ أن امرأة شاتوف قد كانت لها قبل سنتين علاقة بنيقولاي ستافروجين في باريس. فهذه العلاقة إنما قامت إذن أثناء فترة إقامة شاتوف بأمريكا، وبعد أن تركت المرأة زوجها بجنيف.

---

(1) "قانون لنتش": من الإجراءات التي كانت معروفة في أمريكا، فالجمهور حين يقبض على مجرم يستطيع أن يحكم عليه بالإعدام وأن ينفذ الحكم فوراً.

قلت لنفسي: "إذا كان الأمر صحيحاً، فما الذي دفعه إلى ذكر اسم ستافروجين، وإلى الإفاضة في سرد هذه القصة؟".

قال وهو يلتف نحوي من جديد: ـ وحتى الآن لم أردّ إليه دينه.

ونظر إليّ محدقاً، ثم مضى يجلس ثانية في ركنه، وسألني على حين بغتة بصوت قد تغير تغيراً كاملاً:

ـ أنت إنما جئت لأمر من الأمور حتماً، فما الذى تريده؟ فشرعت أقصّ عليه القصة كلها فوراً، على حسب تسلسل الوقائع في الزمان، وأضفت إلى ذلك قولي إنني وقد هدأ الانفعال الأول قد أصبحت أشد ارتباكاً وحيرة: فأنا أدرك أن الأمر يهم ليزافتا نيقولايفنا كثيراً، وأنا عازم على مساعدتها عزماً أكيداً، ولكن البلية هي أنني لا أعرف كيف أتدبر المسألة، بل ولا أعي ما وعدتها به وعياً تاماً. وأكدت له أخيراً أن ليزافتا نيقولايفنا لم تشأ أن تخدعه، بل وأن فكرة الخديعة لم تخطر لها ببال قطّ، وأن كل ما في الأمر أنه قد وقع سوء تفاهم، وأنها آسفة أشدّ الأسف لانصرافك المباغت.

كان يصغي إليّ بانتباه. وقال:

ـ ربما كنت قد ارتكبت غلطة بالفعل، على عادتي... وإذا كانت لم تفهم سبب انصرافي فلعل في هذا خيراً لها...

ونهض، واقترب من الباب، وفتحه، وأخذ يصغي إلى ما قد يسمعه من أصوات في السلّم. ثم سألني:

ـ أأنت حريص على رؤية تلك الإنسانة بنفسك؟

ـ فهتفت أجيبه مسروراً مفتوناً:

ـ نعم، ولكن كيف يمكن تدبير الأمر؟

ـ مسألة بسيطة. فلنذهب إليها معاً مادامت وحيدة. حين يعود، فسيضربها إذا علم أننا جئنا إليها. إنني كثيراً ما ألقاها خفيةً. وفي هذا الصباح كلمت لبيادكين لأنه عاد يضربها.

ـ ماهذا الذي تقوله؟

ـ وشددته من شعره. وقد أراد أن يتعارك معي، لكنه تراجع. ووقفنا عند

ذلـك الحـد. لذلك أخشـى إذا رجـع ثملاً، أن يتذكـر ما وقع فيأخـذ يضربها انتقاماً.

5

كان بـاب بيـت لبيادكيـن مغلقـاً ولكنـه ليـس مقفـلاً بالمفتـاح، فدخلنا. إن المسـكن يتألـف مـن غرفتيـن صغيرتين حقيرتيـن قد اسـودّت حيطانهما بالدخـان، وبليـت أوراق جدرانهمـا حتى لترى الورق المتسـخ البالي يتدلى مزقاً بالفعل. في هذا المكان إنما كان فيليبوف قد أقام حانته خلال سنين قبل أن ينقلهـا إلى منزله الجديـد. فلما انتقل أقفل جميع الغرف إلّا غرفتين اثنتين همـا اللتان يسـكنهما الآن لبيادكين وأخته. إن الأثـاث يتألف من مقعد عتيق فقـد مسـنديه، ودككٍ وموائد من خشـب أبيض، وفي الغرفـة الثانية مع ذلك سـرير يغطيه غطاء من قطن، فعلى ذلك السـرير إنما تنام الآنسة لبيادكين. أما الكابتن فإنه حين يرجع إلى البيت في المساء يسقط على الأرض كتلةً واحدة دون أن يخلع ثيابه في أكثر الأحيان.

كل شـيء هنا قذر رطب. في وسـط الغرفة ترقد خرقـة كبيرة مبللة، وإلى جانبها فردة حذاء مهترئة مثنية تسـبح في تلك البركة نفسـها من الماء. واضح أنه ما من أحد يعنى هنا بنظافة المسكن، والمدفأة لا تشعل في يوم من الأيام، وطبـخ الطعـام غير معروف البتة، حتى إن بيت لبيادكين ـ فيما قال شـاتوف ـ ليس فيه سماوراً للشاي.

حيـن وصل الكابتـن إلى مدينتنا كان في حالة عوز شـديد وبؤس رهيب، فـكان يقرع الأبواب مسـتجدياً هنا وهناك. ولكنه مـا إن أخذ يتلقى مالاً حتى أخذ يشرب، وفقد صوابه تماماً، ولم يفكر في مسكنه طبعاً.

إن الآنسة لبيادكين التي حرصتُ على رؤيتها كل ذلك الحرص، هي الآن جالسة على دكة أمام مائدة في ركن من الغرفة الثانية. هادئة ساكنة صامتة. لم توجه إلينا الكلام حين دخلنا، بل إنها لم تقم بحركة واحدة. قال لي شـاتوف إن باب المسـكن لا يقفل بالمفتاح في يوم من الأيام، حتى إنه ظل في إحدى

الليالي مفتوحاً على وسعه كلها طول الوقت.

استطعت بفضل نور كابٍ تنشره شمعةٌ نحيلةٌ مغروسةٌ في شمعدان من حديد، أن أرى الآنسة لبيادكين. إنها نحيلة نحولاً مَرَضياً، ولعلها في الثلاثين من عمرها. وهي ترتدي فستاناً عتيقاً من نسيج قطني قاتم اللون، يكشف عن رقبتها الطويلة. شعرها الأسمر القليل مفتول عند قفا الرأس كبةً لا يزيد حجمها على حجم قبضة يد طفل في السنة الثانية من عمره.

نظرتْ إلينا مرحة الهيئة. وكان أمامها على المائدة، إلى جانب الشمعدان، مرآة صغيرة من المرايا التي يرى المرء مثيلاتها عند القرويين، ومجموعة قديمة من ورق اللعب، وكراسة أغانٍ مهترئة، ورغيف صغير من خبز أبيض كانت قد عضت منه لقمةً أو لقمتين.

كان واضحاً أن الآنسة لبيادكين تستعمل المساحيق وتصبغ شفتيها وتكحّل حاجبيها الدقيقين الطويلين القاتمين. وكانت ثلاثة أخاديد طويلة تغضّن جبينها الضيق العالي تغضيناً واضحاً رغم طلائه بالبياض. وكنت أعلم أنها تعرج، لكنها لم تنهض أثناء وجودنا. ولعل هذا الوجه الذي أصبح الآن ناحلاً هزيلاً قد كان في أيام صباه الأول حلواً جميلاً. وما تزال عيناها الشهباوان العذبتان اللطيفتان محتفظتين بجمالهما. إن نظرتهما الوادعة، التي تكاد تكون فرحة، تشتمل على تعبير صادق حالم. وقد فاجأني هذا الفرح الهادىء الذي يشعّ أيضاً من ابتسامتها، بعد كل ما عرفته عن قسوة أخيها في معاملتها وعن ضربات السوط التي كان يهوي بها عليها. ولم أشعر تجاهها بما يشعر به المرء حين يلقى أمثال هذه المخلوقات التعيسة من اشمئزاز أليم وجل، وإنما شعرت في الوهلة الأولى بإحساس غريب، يكاد يكون سروراً بالنظر إليها، وهذا الإحساس قد حلّت محلّه الشفقة بعد ذلك، ولم يحلّ محلّه الاشمئزاز قط.

قال لي شاتوف وهو يومئ إليها من الباب:

ـ أترى؟ إنها تظلّ جالسةً هذه الجلسة أياماً بكاملها، وحيدة لا تتحرك، فإما أن تسحب ورقاً من مجموعة أوراق اللعب التي أمامها، وإما أن تنظر

إلى وجهها في المرآة. إن أخاها لا يأتيها حتى بطعام. والمرأة العجوز التي تخدم كيريلوف هي التي تحمل إليها بعض الغذاء بين الحين والحين من باب الشفقة والرحمة والإحسان. إنني لا أفهم كيف يتركها هكذا وحيدة مع شمعة.

قالت الآنسة لبيادكين بصوت ودود:

ـ يومك سعيد يا شاتوشكا[1].

ـ فقال لها شاتوف:

ـ لقد جئت بزائر يا ماريا تيموفئفنا!

ـ مرحبا بالزائر. بمن جئتني؟ يخيّل إليّ أنني لا أعرفه.

ونظرت إليّ طويلاً في ضوء الشمعة، ثم التفتت نحو شاتوف، ولم تنظر إليّ بعد ذلك البتة، ولا اكترثت بي أي اكتراث، فكأنني غير موجود.

سألت شاتوف ضاحكةً، كاشفةً عن صفين من الأسنان كأنها حبات اللؤلؤ جمالاً:

ـ لا شك أنك سئمت التجول وحيداً في غرفتك طولاً وعرضاً، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولقد أردت كذلك أن أسلّم عليك.

قال شاتوف ذلك وقرّب دكة من المائدة وأجلسني إلى جانبه.

قالت الآنسة لبيادكين:

ـ إنني ليسرّني الحديث كثيراً في جميع الأحيان. ولكنك تضحكني ياشاتوشكا. لكأنك راهب حقاً. منذ متى لم تصفف شَعرك؟ اقترب مني، سأصفّف لك شعرك.

قالت ذلك وهي تستل من جيبها مشطاً صغيراً. وأضافت:

ـ أنا واثقة بأنك لم تمشط شعرك منذ أن مشطته لك آخر مرة.

أجابها شاتوف ضاحكاً:

ـ ليس عندي مشط.

---

(1) "شاتوشكا" تصغير لاسم شاتوف من باب التودد والتدليل.

ـ حقاً؟ إذن سأعطيك مشطي. ليس هذا، بل مشطاً آخر. ذكّرني.

وأخذت تصفّف شعره وقد لاح في وجهها كل الجد والاهتمام، حتى لقد فرقته من جانب، وتقهقرت قليلاً إلى وراء لتمعن النظر إليه وتحسن الحكم عليه. ثم أعادت المشط إلى جيبها. وقالت لشاتوف:

ـ هل تعرف ماذا أريد أن أقول لك يا شاتوشكا؟ إنك قد تكون رجلاً عاقلاً ولكنك تشعر بضجر. إنني أنظر إليكم جميعاً فلا يسعني إلّا أن أُدهش: كيف يمكن أن يشعر الناس بالضجر. وليس الحزن هو الضجر. أما أنا فإنني مرحة.

ـ حتى حين يكون أخوك هنا؟

ـ أتقصد لبيادكين؟ إنه خادمي. ويستوي عندي وجوده وغيابه. إنني أصرخ قائلةً له: "لبيادكين، جئني بماء!" ـ "لبيادكين، ائتني بحذائيّ!" فيأتيني بهما. ولا أملك في بعض الأحيان أن أنهى نفسي عن الضحك، رغم أن ذلك من جانبي شر.

قال لي شاتوف، بصوت عالٍ أيضاً وبدون تحرّج:

ـ هذا ما يحدث فعلاً. إنها تعامله كما يعامل خادم، ولقد سمعتها بأذنيّ تصرخ قائلةً له: "لبيادكين، جئني بماء!". وكانت تضحك.

الفرق الوحيد هو أنه لا يجيئها بماء بل يضربها، ومع ذلك فهي لا تخاف منه البتة. وهي تصاب بنوبات عصبية، كل يوم تقريباً، نوبات تشوّش ذاكرتها، فإذا هي تنسى ما حدث منذ قليل، وتخلط بين الأيام وتخلط بين الساعات. هل تظن أنها تتذكر الآن كيف دخلنا عليها؟ لعلها تتذكر، ولكنها منذ الآن قد رتبت جميع الأمور على طريقتها الخاصة، ولا شك في أنها تحسبنا أشخاصاً آخرين، رغم أنها تذكر أنني "شاتوشكا". ولا يدهشنْك أنني أكلّمك بصوت عالٍ: إنها تنقطع فوراً عن الإصغاء إلى من لا يخاطبونها مباشرة، وتندفع عندئذ في أحلامها اندفاعاً مستميتاً. نعم، تندفع. هذه هي الكلمة. وتظل في مكانها مسترسلة في أحلامها ثماني ساعات كاملة دون أن تتحرك. هل ترى هذا الرغيف الصغير من الخبز الأبيض: لعلها لم تأكل منه إلّا لقمة واحدة منذ الصباح، ولعلها لن تنهيه إلّا في الغد. ها هي ذي الآن قد أخذت تسحب

من أوراق اللعب...

ـ نعم يا شاتوشكا، إنني أسحب من أوراق اللعب طوال الوقت، ولكن أوراق اللعب لا تنبئني بأي خير..

كذلك تدخلت فجأةً ماريا تيموفئفنا التي التقطت كلمتي "أوراق اللعب" عرضاً. ولعلها أيضاً قد سمعت كلاماً عن الخبز، فها هي ذي تمد يدها إلى الرغيف،فتتناوله دون أن تنظر فيه، وظلت ممسكة به في يدها بضع لحظات، ثم انصرفت بانتباهها إلى الحديث فأعادته إلى مكانه على المائدة بحركة آلية دون أن تذوقه. قالت:

ـ أوراق اللعب تقول لي شيئاً واحداً على الدوام: سفرة، رجل شرير، خيانة، مرض مميت، رسالة لا أدري ممن، نبأ غير متوقّع. تلك كلها أكاذيب فيما أظن. ما رأيك أنت يا شاتوشكا؟ إذا كان البشر يكذبون فلماذا لا تكذب أوراق اللعب أيضاً؟

قالت ذلك، وخلطت أوراق اللعب. ثم تابعت كلامها:

ـ ذلك ما كنت أقوله للأم براسكوفيا، وهي امرأة محترمة كانت تأتيني للسحب من أوراق اللعب في حجرتي مختبئة عن الأم الرئيسة. على أنها لم تكن الوحيدة في هذا. فهنّ هناك جميعاً يتنهدن، ويهززن رؤوسهن، ويناقشن. وكنت أنا أضحك وأقول لها: "من أين تريدين أن تصلك رسالة أيتها الأم براسكوفيا، أنت التي لم تتلقي رسالة واحدة منذ اثنتي عشرة سنة؟". كان صهرها وابنتها قد سافرا إلى تركيا، ولم يصل عنهما أي نبأ منذ اثني عشر عاماً. وفي مساء الغد، كنت أنا أتناول الشاي عند الأم الرئيسة (وهي من أسرة أمراء)، وكان هناك سيدة أخرى، سيدة مفرطة في الخيال كثيراً، وكان هناك راهب صغير من جبل آثوس، وهو في رأيي رجل طيب عبيط. فهل تتصور يا شاتوشكا، أن ذلك الراهب الصغير كان قد حمل من تركيا، في ذلك الصباح نفسه، إلى الأم براسكوفيا، رسالةً من ابنتها؟ نعم، هذا ماحدث! صَدَقَ إذن ورق اللعب: لقد تنبأ بنبأ غير متوقع. كنا هنالك نشرب الشاي حين قال راهب جبل آثوس للأم الرئيسة: "لا شك أن ديرك مبارك أيتها الأم الرئيسة

المقدسة، لأنه يضم بين جدرانه كنزاً ثميناً جداً. سألته الرئيسة: "أي كنز؟" فأجابها الراهب: "الأم ليزافتا المباركة". والأم ليزافتا هذه كانت تعيش في قفص بالجدار طوله سبع أقدام وعلوّه خمس... وهي هناك وراء القضبان الحديدية منذ ستة عشر عاماً، لا ترتدي في الشتاء ولا في الصيف إلّا قميصاً من القنب كانت تخزه أحياناً بإبر من القش. وهي صامتة دائماً. وهي لم تمشط شعرها ولا غسلت نفسها مرةً واحدة منذ ستة عشر عاماً. كانوا في الشتاء يعطونها جلد خروف. وفي كل يوم يمدّون إليها من خلال القضبان كسرة خبز وجرة ماء. وكان الحجاج يتأملونها متنهدين متعجبين، ويضعون لها قرشاً في طاسة. أجابت الأم الرئيسة: "ياله من كنز!" (لقد غضبت الأم الرئيسة، لأنها كانت تكره ليزافتا). وأضافت قولها: "إن ليزافتا لم تحبس نفسها إلّا بدافع الشر. ما ذلك منها إلّا عناد وتظاهر!". لم يعجبني هذا الكلام، لأنني كنت أفكر في أن أحبس نفسي أنا أيضاً. قلت: "في رأيي أن الله والطبيعة واحد..." فصاحوا جميعاً يقولون: "اسمعوا إلى هذا الكلام العجيب!...". وأخذت الرئيسة تضحك، وقالت للسيدة ما لا أدري بصوتٍ خافت، ثم نادتني إليها وكلمتني بلطف. أما السيدة فقد أعطتني شريطاً وردي اللون. هل تريد أن أريك الشريط؟ وطفق الراهب يعظني بخطبة طويلة، فكان رقيقاً كل الرقة، متواضعاً كل التواضع، ولا شك أنه كان ذكياً جداً، فلبثت أصغي إليه طول الوقت. وسألني: "هل فهمت؟" فأجبته قائلة: "لم أفهم شيئاً. ودعني وشأني". ومنذ ذلك الحين تركوني وشأني يا شاتوشكا. وفي ذلك الأوان تقريباً كانت هناك امرأة عجوز قد اعتكفت في ديرنا مكفّرة عن نبوءات زعمتها، فهمست تسألني وهي تخرج من الكنيسة: "وأم الرب، ما هي في رأيك؟". فأجبتها: إن أم الرب هي أمل النوع الإنساني. فقالت: "نعم، هذه هي الحقيقة. إن أم الرب هي أمنا جميعاً، هي الأرض المخضلة، وهذه الحقيقة تشتمل على فرح عظيم للنوع الإنساني. وكل عذاب أرضي، كل دمعة أرضية هي لنا فرح. وحين تبلل الأرض بدموعك إلى مسافة قدم في التراب، فلن يكون شيء بعدئذ إلّا فرحاً لك، ولن تعرف الألم بعدئذ في يوم من الأيام. كذلك قالت النبوءة".

حفـظ قلبي هـذا الكلام. ومنـذ ذلك الحيـن، أصبحت إذا صليت وسـجدت أقبّل الأرض، أقبلها وأبكي. وإليك ما سـأقوله لك يا شاتوشكا: ليس في هذه الدمـوع أي بأس، حتى إذا كنت لا تتألم فإنها تتسـاقط من عينيك فرحاً، فرحاً فقط. تتساقط من تلقاء نفسها. الحق أقول لك. كنت أذهب أحياناً إلى ضفاف البحيـرة: كان ديرنا في جهة، وفي الجهة الأخرى كان ينتصب جبلنا المدبب. كذلك كانوا يصفونه. كنت أصعد ذلك الجبل، وأتوجه نحو المشـرق وأنكب على الأرض، فأظل أبكي وأبكي وأبكي، فإذا أنا لا أتذكر بعد ذلك شيئاً البتة، ولا أعرف شيئاً البتة. ثم أنهض، وألتفت إلى وراء، فأرى الشمس وهي تغرب كبيـرة رائعة مجيـدة. هل تحب أن تنظر إلى الشـمس ياشاتوشـكا؟ إنه لمنظر جميـل جداً، وحزين جـداً!... ثم ألتفت مرة أخرى نحو المشـرق، فأرى ظل جبلنا يركض على البحيرة سـريعاً كسـهم، ضيقاً طويلاً، إلـى أن يبلغ الجزيرة التي توجد في البحيرة، فتشـطره هذه الجزيرة الحجرية شـطرين اثنين. فما إن تشطره الجزيرة شطرين حتى تغيب الشمس وينطفىء كل شيء. فأشعر عندئذ بأننـي حزينـة كل الحـزن، وإذا بالذاكرة تعود إليّ فجأة، فأخـاف من الظلمة يا شاتوشكا. غير أن ما كنت أبكيه خاصة، إنما هو ابني...

سـألها شـاتوف وهو يلكزني بكوعه قليلاً بعد أن لـم ينقطع عن الإصغاء إليها بانتباه:

ـ ولكن هل كان لك ولد حقاً؟

ـ كيـف لا؟ لقـد كان صغيـراً جـداً، وكان بلـون الورد، وكانـت له أصابع صغيرة. وحسـرتي كلها ناشئة عن أنني لا أستطيع أن أتذكر أكان صبياً أم كان بنتـاً. فتارة يبدو لي أنه كان صبيـاً، وتارة يبدو لي أنه كان بنتاً. وأنا ما إن ولدته حتـى لففته بالدانتيللا والباتيسـته التي عقدتها بأشـرطة وردية اللون، وغطيته بالأزهـار. ثـم صليت لله وحملته وسـرت به فـي الغابـة دون تعميد. وكنت خائفـة من الغابة، وكنت أرتعش رعباً. وكنـت أبكي خاصة لأنني ولدته دون أن أعرف زوجي.

سألها شاتوف محاذراً:

ـ ربما كان لك زوج، أليس كذلك؟

ـ إنـك تضحكنى بتفكيرك يا شاتوشـكا. جائز أنـه كان لي زوج. ولكن ما فائدتي من هذا إذا كنت كمن لم يكن لها زوج في يوم من الأيام؟

ثم أردفت تقول وهي تبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ هذه أحجية. هلّا حزرت!

ـ إلى أين أخذت ابنك؟

ـ إلى الغدير.

لكزني شاتوف بكوعه من جديد. ثم سألها:

ـ فماذا إذا لم يولد لك ولد يوماً، وكان هذا كله هذياناً لا أكثر، هه؟

قالت بلهجة تنم عن ذهول وتفكير، ولكن ليس فيها دهشة واستغراب:

ـ إنـك تلقي عليّ سـؤالاً صعبـاً. حقاً إن من الجائـز أن لا أكون قد ولدت ولداً في يوم من الأيام. وأظن على كل حال أنك لا تلقي هذا السـؤال إلّا من بـاب حب الاطـلاع. مهما يكن مـن أمر، فلن أكـف عن البكاء عليـه. أتراني رأيت حلماً؟

والتمعـت دموع سـخية فـي عينيها. ثم هتفت تسـأل شـاتوف فجأة وهي تضع يديها على كتفيه وتتأمله مشفقة عليه رحيمة به:

ـ شاتوشـكا، شاتوشـكا؟ هل صحيـح أن زوجتك تركتـك؟ لا تزعل! أنا أيضاً أحمل في قلبي حملاً ثقيلاً. هل تعلم يا شاتوشـكا أنني رأيت في منامي حلمـاً؟ رأيتـه يعود إليّ، و يومئ لي، ويناديني بقولـه: "قطتي الصغيرة، قطتي الصغيرة، تعالي بسرعة!". وقد فتنني قوله "قطتي الصغيرة" أكثر من أي شيء آخر. قلت في نفسي: إنه يحبني.

دمدم شاتوف يقول:

ـ قد يرجع في يوم من الأيام.

ـ لا ياشاتوشـكا، لـم يكـن ذلـك إلّا حلماً. إنـه لن يأتي أبـداً. أنت تعرف الأغنية:

ما بي حاجة إلى قصر[1].
حسبي هذه الحجرة
لأحيا وأنقذ روحي،
وأدعو الله لك.

آه ياشاتوشكا، يا عزيزي شاتوشكا، لماذا لا تسألني أبداً؟

ـ أعرف أنك لن تقولي شيئاً. لذلك لا أسألك.

قالت بحماسة وقوة:

ـ نعم، لن أقول شيئاً. لن أقول شيئاً ولو هدّدوني بقطع عنقي، لن أقول شيئاً ولو هددوني بإحراق جسمي. ومهما أذق من ألوان العذاب والألم، فسأظل صامتةً، فما يعرفون من الأمر شيئاً!

قال شاتوف وهو يخفض صوته، و يحني رأسه:

ـ أرأيت؟ إن لكل امرئ أسراره.

ـ ولكن لو ألححت في السؤال، فقد أقول لك.

وكررت تقول بحميّا:

ـ نعم، قد أقول لك. لماذا لا تسألني أن أقول لك؟ ألحْ ياشاتوشكا، اضرع إليّ، فقد أقول لك. اعمل ما من شأنه أن يجعلني أوافق على الكلام... شاتوشكا... شاتوشكا!.

لكن شاتوشكا ظل صامتاً. ومضت دقيقة دون أن ينطق أحد بكلمة. وكانت دموع بطيئة تجري على خدّي العرجاء المبرّجين بالمساحيق والأصباغ. وكانت يداها ما تزالان متكئتين على كتفي شاتوف، غير أنها قد انقطعت عن النظر إليه.

قال شاتوف:

ـ فيم يهمني هذا كله على كل حال. ثم إن الإلحاح قد يكون آثماً.

وقام فجأة. وقال لي:

ـ هيّا انهض.

---

(1) هذه أغنية دينية شعبية.

وردّ الدكة التي كنا جالسين عليها إلى حيث كانت، قائلاً:

ـ حين يعود، يجب أن لا تراوده شبهة فيعتقد أننا كنا هنا. وقد آن لنا نحن أن ننصرف.

هتفت ماريا تيموفئفنا تقول وهي تنفجر ضاحكة:

ـ آ... تقصد خادمي. أأنت خائف منه؟ طيب... وداعاً يا صديقيّ الطيبين. ولكن اسمعا ما سأقوله لكما. منذ قليل، حضر الرجل الذي يقال له نيلتش، حضر مع فيليبوف، مالك البيت، الذي له لحية كبيرة حمراء، وذلك في اللحظة التي هجم فيها عليّ خادمي. فما كان من مالك البيت إلّا أن قبض عليه وأخذ يجره في الغرفة، فكان الآخر يصرخ قائلاً: "أنا لا ذنب لي. أنا أتألم من ذنب غيري". فهل تصدق؟ لقد طفقنا جميعاً نضحك حتى لنكاد نتدحرج على الأرض من شدة الضحك.

ـ ماريا تيموفئفنا! ليس الأحمر الملتحي هو الذى انتزعه وأبعده عنك وجرّه من شعره منذ قليل. إنما أنا الذي فعلت ذلك. أما مالك البيت، فقد جاء إلى هنا أمس الأول ليلغط ويصخب. أرى أنك تخلطين بين الأمور.

ـ انتظر قليلاً. نعم. لقد خلطت بين الأمور... ربما كنت أنت، فعلاً... فيم المناقشة على كل حال؟

ثم قالت ضاحكة:

ـ ما الفرق عنده بين أن تجره أنت من شعره وبين أن يجره الآخر؟

قال شاتوف فجأة وهو يدفعني:

ـ لننصرف. لقد صرّ باب مدخل العمارة. سوف يضربها إذا وجدنا هنا.

وفعلاً، ما إن صرنا في أعلى السلّم حتى سمعنا صراخ سكران، وعاصفة من الشتائم.

أدخلني شاتوف غرفته، وأقفل بابها بالمفتاح.

ـ يجب أن تلبث هنا قليلاً، إذا أردت أن تتحاشى جرصة. هل تسمعه يصرخ كصراخ خنزير يُذبح. لعله تعثر بالعتبة. هذه القصة تتكرر كل مرة.

ولكن الجرصة حدثت رغم احتياطاتنا.

6

وقف شاتوف قرب الباب يصغي إلى ما يجري في السلّم. وإنه لكذلك إذا هو يقفز متراجعاً إلى وراء، ويدمدم قائلاً في حنق:

ـ هـا هو ذا يصل. قد لا نتخلص منـه الآن إلّا في منتصف الليل. وأخذت طرقات قوية تهوي بها على الباب قبضة شديدة. وزأر الكابتن يقول:

ـ شاتوف! شاتوف! افتح الباب! شاتوف، صديقي!

إنما جئت لأتمنى لك يوماً سعيداً[1]

ولأقول لك إن الشمس قد طلعت

وإن الغابات ترتعش ملتهبة

تحت أشعتها الحارة

وأريد أن أقول لك أيضاً إنني يقظان...

وإنني أتمنى أن يأخذك الشيطان...

نعم يقظان، يقظان يقظان

تحت الأغصان...

كما لو كنت تحت السياط، هأ هأ...

كل طائر ظمآن

ظمآن!... وأنا حيران

لا أدري أي شراب أحتسي...

علـى كل حـال، لعن الله هذا الفضولي الغبي! يا شـاتوف، هل تعرف كم في الحياة من جمال؟

قال لي شاتوف هامساً:

ـ لا تجب!

ـ أقـول لك افتح! هل تدرك أن في العالم شـيئاً أسـمى من ضربات قبضة اليد؟ إن في حياة الإنسـانية لحظات نبيلة. شاتوف، أنا أغفر لك!... شاتوف،

---

(1) هنا ينشد لبيادكن قصيدة جميلة (لكنه يشوهها) الشاعر الغنائي آتانازي شنشين، نشرت سنة 1843.

لتذهب المنشورات إلى الجحيم!... هه!

وساد صمت سُمع صوت لبيادكين بعده يُعول فجأة وقد عاد يخبط الباب بقبضة يده:

ـ هل تدري، يا حمار، أنني مولّه حبّاً؟ لقد اشتريت رداء فراك. انظر إليه. فراك الحب. خمسة عشر روبلاً. إن غرام كابتن يكلف غالياً.

قال شاتوف:

ـ اذهب إلى الجحيم.

ـ عبد! عبد ذليل! وأختك أيضاً ما هي إلّا جارية... ما هي إلّا لصـ... لصة!...

ـ وأنت، أنت قد بعت أختك!

ـ أنت كاذب. أنا أتألم ظلماً، أنا أتألم نيابة عن غيري، ويكفي أن أقول كلمة واحدة حتى... هل تدرك من هي؟

ـ هيه، من هي؟

كذلك سأله شاتوف وهو يقترب من الباب.

ـ أأنت قادر على أن تفهم هذا؟

ـ قل أولاً، ثم أفهم أنا بعد ذلك.

ـ لا أخاف أن أقول. أنا لا أخاف أبداً أن أتكلّم أمام الناس...

قال شاتوف ساخراً ضاحكاً وهو يشير لي أن أصغي:

ـ لا بل إنك لن تجرؤ حتماً.

ـ أتقول إنني لا أجرؤ؟

وساد صمت دام نصف دقيقة في أقل تقدير.

وأخيراً صاح الكابتن يقول وهو يتراجع نافخاً كفوهة سماور، متعثراً على كل درجة من درجات السلّم:

ـ سافل!

قال شاتوف:

ـ إنه ماكر جداً، ولن يفضح نفسه رغم أنه سكران.

سألته:

ـ ما معنى هذا كله؟

فهزّ شاتوف منكبيه، وفتح الباب، وأخذ يصيخ بسمعه إلى جهة السلّم. ولبث يصغي مدة طويلة، حتى لقد هبط بضع درجات. وأخيراً عاد.

ـ لا يُسمع شيء. إنه لم يضربها. لا بد أنه نام كتلةً واحدة. آن لك أن تنصرف.

ـ اسمع يا شاتوف! ما الذي يجب أن أستخلصه من هذا كله؟

فأجاب شاتوف بلهجة مكدودة مشمئزة:

ـ استخلص ما شئت.

وجلس إلى مكتبه.

انصرفت. إن فكرة غير معقولة تستولي على فكري مزيداً من الاستيلاء شيئاً بعد شيء. وفكرت في الغد قلقاً خائفاً.

7

ذلك "الغد"، أعني يوم الأحد الذي سيتقرر فيه مصير ستيفان تروفيموفتش قراراً محتوماً لا رادّ له، هو من أهم الأيام التي يجب أن تسجلها قصتي. إنه يوم مفاجآت أتاح لنا أن نحل بعض الألغاز، ولكنه ألقى علينا ألغازاً جديدة، إنه يوم قدّم لنا إيضاحات تثير الدهشة والاستغراب، ولكنه زاد البلبلة العامة وفاقم الاضطراب الشامل...

يذكر القارئ أنه كان يجب عليّ في الصباح، تلبية لطلب فرفارا بتروفنا، أن أصحب ستيفان تروفيموفتش في زيارته لصديقته، وأن أكون في الساعة الثالثة بعد الظهر عند ليزافتا نيقولايفنا لأقول لها... لا أدري ماذا، ولأساعدها لا أدري كيف!

ولكن الأمور جرت مجرى ما كان لأحد أن يتنبأ به. الخلاصة أن ذلك اليوم كان حافلاً بالمصادفات الخارقة والأحداث العجيبة.

ولأبدأ من البداية: حين ذهبنا أنا وستيفان تروفيموفتش إلى فرفارا

بتروفنا في الظهر تماماً، كما طلبت منا ذلك، لم نجدها في بيتها: لم تكن قد رجعت من الصلاة بعد. كان صديقي المسكين في حالة نفسية خاصة من شأنها أن تجعل غيابها هذا ينزل عليه نزول الصاعقة، فإذا هو يضطرب أشد الاضطراب، ويتهاوى على مقعد في الصالون.. وقد جئته بكأس من الماء، ولكنه رفض تناول الكأس بإباء، رغم أنه كان شديد شحوب الوجه، وكانت يداه ترتعشان. يجب أن أشير، عابراً، إلى أن ثيابه كانت في هذه المرة أنيقة إلى أبعد حدود الأناقة: قميص من الباتيسته البيضاء المطرزة (يكاد يكون قميص حفلة رقص)، ورباط عنق أبيض، وقبعة جديدة من الكستور، وقفازان جديدان بلون العاج، وشيء من العطر إلى ذلك كله.

وما كدنا نستقر في مكاننا حتى جاء الخادم يُدخل علينا شاتوف. كان واضحاً أنه هو أيضاً قد تلقى دعوة رسمية. وقد همّ ستيفان تروفيموفتش أن ينهض ليصافحه، ولكن شاتوف بعد أن تفرس فينا ملياً، مضى يجلس في أحد الأركان حتى دون أن يحيينا بانحناءة من رأسه. فرشقني ستيفان تروفيموفتش مرة أخرى بنظرة مروّعة.

انقضت بضع دقائق على هذه الحال في صمت كامل. وأخذ ستيفان تروفيموفتش يكلمني بصوت خافت، لكنني لم أستطع أن أفهم من كلامه شيئاً.. وكان على كل حال قد بلغ من الاضطراب أنه لم يتمكن من إتمام الكلام فصمت. وعاد الخادم كأنما ليرتّب المائدة، لكنني أظن أنه إنما عاد ليرى ماذا كنا نفعل.

سأله شاتوف بصوت قوي:

ـ ألكسي إيجورتش، هل خرجت داريا بافلوفنا معها؟

فأجاب الخادم يقول بلهجة فخمة وهو يشد على كل كلمة من كلماته:

ـ إن فرفارا بتروفنا قد مضت بالعربة إلى الكاتدرائية وحدها. أما داريا بافلوفنا فقد بقيت في غرفتها، لأنها مريضة قليلاً.

رشقني صاحبي المسكين مرةً أخرى بنظرة قلقة، حتى اضطررت أن أشيح وجهي عنه. وفجأةً سمعنا أصوات جري عربة قرب بوابة المدخل، ثم

قامـت في المنزل ضجة أدركنا منها أن فرفارا بتروفنا قد عادت. فنهضنا نحن الثلاثة بسرعة، غير أن مفاجأة جديدة كانت تنتظرنا: إن ربّة الدار لم تكن عائدة وحدهـا، وإنما كان يرافقها عدد من الأشـخاص كما تدل على ذلك أصوات وقع الأقدام على الأرض. ذلك كله كان أمراً عجيباً، لأنها التي حددت بنفسها سـاعة لقائنا. وكانت الخطوات مسـرعة، فكأن القادميـن يركضون ركضاً. لا يمكن أن تكون فرفارا بتروفنا هي القادمة... وفجأةً رأينا فرفارا بتروفنا تقتحم الصالـون اقتحامـاً إن صـح التعبير، وهي تلهث لهاثاً شـديداً، وقد اسـتبد بها انفعال خارق. وكانت تتبعها، على مسـافة منهـا، ليزافتا نيقولايفنا التي تتقدم في سـيرها هادئة، وتمسـك بيدهـا ماريا تيموفئفنا لبيادكيـن. لو قد رأيت هذا المشهد في حلم أثناء النوم، لما صدّقته لحظة واحدة.

ومن أجل أن أوضّح هذا الظهور المثير للدهشـة يجب أن أعود قليلاً إلى وراء، وأن أروي المغامـرة الخارقة التـي وقعت لفرفارا بتروفنا عند خروجها من الكنيسة.

فـي ذلـك اليوم، كانـت المدينة كلها تقريبـاً ـ أعني المجتمـع الراقي ـ قد ذهبت إلى الكاتدرائية. فقد عُـلم أن امرأة الحاكم سـتحضر الصلاة في ذلك اليـوم، لأول مـرة منذ وصولها إلى مدينتنا. وينبغي أن أذكر في هذه المناسـبة أن الشـائعات التي سَـرَت في المدينة كانت تنسـب إلى امـرأة الحاكم أنها لا تؤمـن بالدين، وأنهـا تتبنى الآراء الجديـدة. وكانت سـيداتنا جميعاً من جهة أخرى تعلم أن امرأة الحاكم سـترتدي أجمل ملابسـها وأنها ستظهر في أبهى حلـة وأعظـم أناقة. لذلك لبسـن جميعاً في هـذه المرة أفخر الثيـاب، وعُنين بهندامهن وزينتهن أشـد العناية. فرفارا بتروفنـا وحدها كانت ترتدي ملابس سـوداء، علـى عهدنا بها منذ أربع سـنين. وقد مضت تحتـل مكانها المألوف المعتـاد فـي الصـف الأول، على اليسـار، وجاء خـادم مرافق حسـن الهندام فوضع أمامها وسـادة من المخمل للسـجود. الخلاصـة أن كل الأمور جرت كمـا تجـري في العـادة. ومع ذلـك لوحظ أنها كانـت طوال القـداس تصلي بحـرارة خارقة. وقد أُكّـد فيما بعد، حين تم تذكّر جميع التفاصيل، أن عينيها

كانت ملأى بالدموع. حتى إذا انتهت الصلاة أخذ أسقفنا، الأب بولس، يلقي موعظة فخمة. ودامت خطبته في هذه المرة مدة طويلة.

ولم يكن قد أنهى خطبته حين نزلت سيدةٌ من عربة قرب الكاتدرائية. إنها عربة من عربات الأجرة القديمة التي يقال لها درويكي، والتي لا تستطيع النساء أن يجلسن فيها إلّا على جانب، متشبثات بحزام الحوذي، مهتزات في كل لحظة اهتزاز عشبة في مهب الريح. إن المرء ما يزال يرى عدداً من عربات الدرويكي هذه في مدينتنا. وإذا كانت مركبات كثيرة وأعداد من الدرك مرابطة أمام الباب، فقد وقفت العربة في ركن من الميدان. وحين نزلت السيدة من العربة ووضعت قدميها على الأرض مدّت إلى الحوذي أربعة كوبكات من فضة. فلما رأته يصمِّر وجهه قالت له:

ـ المبلغ قليل يا فانيا[1]، أليس كذلك؟

ثم أضافت تقول شاكية:

ـ هذا كل ما أملك.

فقال لها الحوذي وهو يرفع منكبيه ويتأملها تأملَ من يقول لها: "إنه لإثم أن يؤلمك الإنسان":

ـ طيب.. طيب.. عليك بركة الله!..

ثم دس كيسه الجلدي تحت ثوبه، وانصرف تشيّعه مزحات الحوذيين الذين كانوا هناك. وشقت المرأة طريقاً لها نحو أبواب الكنيسة بين العربات والخدم المرافقين الذين ينتظرون خروج أسيادهم، شقت طريقها مشيّعة هي أيضاً بالتعليقات، مثيرةً بمرورها فضول الجميع. والحق أن الظهور المفاجئ لامرأة من هذا النوع في الشارع وسط الجمهور كان فيه غرابة تثير الدهشة. كانت نحيلة نحولاً مَرَضياً، وكانت تعرج. وكانت مثقلة الوجه بالمساحيق والأصباغ، وعارية العنق، لا ترتدي خماراً ولا معطفاً، ولا يسترها من الملابس إلّا ثوب عتيق قاتم اللون، مع أن ذلك اليوم من شهر أيلول

---

(1) "فانيا" تصغير اسم إيفان. وهو لقب يلقب به الحوذيون. وكانوا يلقبون أيضاً بلقب فانكا.

(سبتمبر) كان بارداً رغم الشمس، وكانت رياحه شديدة. ولم يكن على رأسها قبعة. وفي شعرها المعقوف عند القفا كبةً صغيرة، قد غُرست وردة من ورق، كالتي تزيّن بها تماثيل الشمع التي تمثّل الكروبيين في عيد الشعانين. وكنت قد لاحظت بالأمس عند ماريا تيموفيئفنا، تحت الأيقونات، واحداً من تلك التماثيل المتوّجة بالورود. وأغرب ما في الأمر أن السيدة رغم أنها كانت خافضة العينين تواضعاً، فإنها لم تنقطع عن التبسم تبسماً مرحاً ماكراً. ولو أنها تأخرت قليلاً لكان من الجائز أن لا يُسمح لها بالدخول، ولكنها استطاعت أن تلج الكاتدرائية وأفلحت في أن تتسلل إلى الأمام شيئاً بعد شيء دون أن يشعر بها أحد.

ورغم أن الأب بولس واصل إلقاء خطبته، وأن الجمهور الذي كان يملأ الكنيسة كان يصغي إليه بانتباه وتركيز وصمت، فإن عدداً من الأشخاص قد ألقوا على المرأة المجهولة نظرات استطلاع مختلسة مدهوشة. وجثت المرأة على ركبتيها وسجدت حتى لامس وجهها المخضّب الأرض. ولبثت على هذا الوضع مدة طويلة تبكي بكاءً غزيراً فيما يظهر. ولكنها حين نهضت، عادت إلى حالها الأولى بسرعة، واستردت مرحها. وجالت ببصرها على وجوه المحيطين بها وعلى جدران الكاتدرائية، مسرورة سروراً واضحاً، متفرّسةً بانتباه خاص في بعض تلك السيدات، رافعةً جسمها على رؤوس أصابع قدميها في بعض الأحيان لترى رؤية أوضح، وفي مرة أو مرتين انطلقت منها ضحكة صغيرة غريبة حادة. وانتهت الخطبة في أثناء ذلك، وقدّم الأسقف الصليب للمصلين فتقدمت منه زوجة الحاكم أول المتقدمين، لكنها توقفت حين أصبحت على مسافة خطوتين، مُظهرةً بذلك أنها تريد أن تتنازل عن المكانة الأولى لفرفارا بتروفنا التي كانت من جهتها قد مشت نحو الصليب قُدُماً لا تلوي على شيء، كأن ليس أمامها أحد. وكان واضحاً أن هذا الاحترام الشديد من جانب زوجة الحاكم كان يخفي وراءه نية السخرية. فهذا ما فهمه الجميع، وهذا ما فهمته فرفارا بتروفنا مثل سائر الناس حتماً، ولكنها تظاهرت بأنها لم تلاحظ أحداً، فقبّلت الصليب بوقار ثابت ومهابة

رصينة، ثم اتجهت بعد ذلك رأساً نحو باب الكنيسة لتخرج. وكان خادمها المرافق يفسح لها ممراً أمامها، رغم أن جميع الناس كانوا يتقهقرون سلفاً من أجل أن تستطيع المرور في سهولة ويسر. ولكن جمعاً من الناس قد سدّوا طريقها لحظةً عند باب الخروج، تحت سقيفة المدخل. فتوقفت فإذا بإنسانة عجيبة هي المرأة المزدانة بوردة الورق تشق طريقاً بين الجمهور على حين فجأة، وتجثو على ركبتيها أمام فرفارا بتروفنا. فنظرت إليها فرفارا بترونا التي يصعب أن تضطرب، ولا سيما على مرأى من الناس، نظرت إليها بهيئة وقورة رصينة مهيبة.

أسارع فأذكر هنا، بأكبر إيجاز ممكن، أن فرفارا بتروفنا إن تكن قد أصبحت في هذه السنين الأخيرة حريصة بل وبخيلة قليلاً، فلقد كان يتفق لها في بعض الأحيان أن تكون مبسوطة الكف، ولا سيما في أعمال البر والإحسان. لقد كانت عضوةً في جمعية للبر والإحسان بالعاصمة. وفي إبان المجاعة الكبرى الأخيرة[1]. أرسلت إلى اللجنة المركزية لإغاثة الجياع خمسمائة روبل، وذلك أمر تحدّث عنه الناس كثيراً في مدينتنا. كما إنها في الآونة الأخيرة، حتى قبل تعيين الحاكم الجديد، قد فكرت في مشروع تأسيس لجنة من السيدات تتولى مساعدة الحوامل الفقيرات بالمدينة والأقاليم. ولقد كان يؤخذ عليها كثيراً أنها شديدة الطموح، ولكن الحماسة التي اشتهرت بها فرفارا بتروفنا، وكذلك دأبها وصبرها ومثابرتها قد أوشكت أن تذلل جميع المصاعب وأن تتغلب على جميع العوائق. وكادت اللجنة أن تتشكل، حتى أن المشروع قد اتسع مزيداً من الاتساع في نفس صاحبته الزاخرة بالحماسة، فكانت تحلم بأن يشمل روسيا كلها. ولكن تغير الحاكم أنهى جميع هذه المشروعات: فزوجة الحاكم الجديد، قد أبدت في أوساط المجتمع الراقي ملاحظات لاذعة فيما يظهر، والأنكى من ذلك أن تلك الملاحظات كانت صائبة سديدة، إذ وصفت تشكيل لجنة من هذا النوع بأنه مشروع غير عملي، وسرعان ما نقل الناس هذه الملاحظات لفرفارا بتروفنا موسّعةً مضخّمة. إن

(1) عرفت بعض مناطق روسيا بعض المجاعات أثناء 1867

الله وحده يعرف قرارة القلوب، ولكنني أظن أن فرفارا بتروفنا قد سرّها أن تقف تحت سقيفة مدخل الكاتدرائية، فهي تعلم أن امرأة الحاكم التي تتبعها جميع السيدات ستمر فوراً فقالت لنفسها: "ألا فلترَ بعينيها أنني لا أعبأ بما قد تقوله عن برّي وإحساني اللذين تزعم أنهما لا غناء فيهما وأنهما يشتملان على طموح كبير. وهذا درس لكم جميعاً!".

نظرت فرفارا بتروفنا بانتباه إلى المرأة الراكعة أمامها وسألتها:

ـ ماذا يا عزيزتي؟ ماذا تريدين؟

فتأملتها المرأة الراكعة بنظرة فيها اضطراب وخشية وعبادة في آن واحد، ثم أخذت تضحك فجأة ضحكتها الصغيرة الحادة تلك نفسها.

ألحت فرفارا بتروفنا سائلةً وهي تجيل من حولها نظرة صارمة مستفهمة:

ـ ماذا تريد؟ من هي؟

فلم يجبها أحد.

ـ أأنت بائسة؟ هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟

ـ بحاجة... لقد جئت...

كذلك دمدمت "المسكينة" بصوت يقطّعه الانفعال. وتابعت تقول:

ـ لقد جئت لأقبّل يدك.

وأخذت تضحك. وبنظرة ساذجة بريئة، بنظرة من نظرات الأطفال الذين يلاطفونك لينالوا حظوتك، همّت أن تتناول يد فرفارا بتروفنا، لكنها وقد اعتراها ما يشبه الخوف تقهقرت فجأة إلى وراء.

قالت فرفارا بتروفنا وهي تبتسم ابتسامة شفقة:

ـ ألم تجيئي إلّا من أجل هذا؟

ولكنها سرعان ما استلت من محفظة نقودها ورقة بعشرة روبلات ومدّتها إلى المرأة المجهولة. فتناولت المرأة المجهولة الورقة. كان يبدو على فرفارا بتروفنا اهتمام شديد بالمرأة الشابة، وكان واضحاً أنها لا تعدّها متسولة عادية.

قال صوت في الجمهور:

ـ هل رأيت؟ لقد أعطتها عشرة روبلات!

تمتمت "المسكينة" تقول وهي تشد بأصابع يدها اليسرى على طرف ورقة العشرة روبلات التي كانت تهزّها الريح:

ـ يدك، أرجوك!

فقطبت فرفارا بتروفنا حاجبيها قليلاً، ومدت يدها بوقار ورصانة بل وبما يشبه القسوة في قسمات وجهها. فقبّلت المرأة المجهولة اليد باحترام وإجلال. وسطع في نظرتها الملأى بالعرفان نوعٌ من نشوة.

وفي تلك اللحظة نفسها إنما ظهرت زوجة الحاكم تحت باب الكاتدرائية، تتبعها جمهرة من السيدات وكبار الموظفين. فاضطرت أن تتوقف. وفعل الآخرون مثلما فعلت.

ـ أترتجفين؟ هل تشعرين ببرد؟

كذلك سألت فرفارا بتروفنا فجأة، ثم نضت عنها معطفها الذي تناوله الخادم المرافق طائراً، ونزعت عن كتفيها شالاً أسوداً غالي الثمن، وتولت بنفسها خلعه على العنق العاري، عنق المرأة المجهولة التي ما تزال راكعة.

ـ انهضي، انهضي، أرجوك!

نهضت المرأة الشابة.

ـ أين تعيشين؟ هل يعقل أن لا يعرف أحد أين تعيش؟

وأجالت فرفارا بتروفنا بصرها على من حولها مرة أخرى نافدة الصبر. ولكن الوجوه التي رأتها الآن غير الوجوه التي رأتها منذ قليل: إنها محاطة الآن بأشخاص تعرفهم، وأناس من المجتمع الراقي كانوا يرقبون المشهد، فبعضهم يرقبه باستغراب قاس، وبعضهم يرقبه باستطلاع خبيث وفضول ماكر، ويأمل أن تقع فضيحة، حتى أن بعضهم قد أخذ يضحك ساخراً منذ ذلك الحين.

وأخيراً وُجد رجل شهم يجيب عن سؤال فرفارا بتروفنا، قال واحد من تجارنا المعتبرين، واسمه آندرييف:

ـ أظن أن اسمها لبيادكين.

كان الرجل ذا نظارتين، وكان أبيض اللحية، وكان يرتدي ثياباً على الطراز الروسي، وله قبعة أسطوانية كان يمسكها في تلك اللحظة بيده.

وأضاف يقول:

ـ إنها تسكن في عمارة فيليبوف، شارع إيبيفانيا.

ـ لبيادكين؟ في عمارة فيليبوف... سمعت عن شيء من هذا فعلاً... شكراً يا نيكون سيمونتش. ولكن من هو لبيادكين هذا!

ـ رجل يسمي نفسه كابتن. هو امرؤ مريب! أظن أن هذه المرأة أخته.

وأضاف آندرييف يقول خافضاً صوته، ناظراً إلى فرفارا بتروفنا بهيئة ذات دلالة:

ـ لعلها خادعت رقابته وخرجت.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ فهمت. شكراً يا نيكون سيميونتش.

ثم قالت تسأل المرأة المسكينة:

ـ أأنت السيدة لبيادكين يا عزيزتي؟

ـ لا، لست السيدة لبيادكين.

ـ إذن أخوك هو لبيادكين؟

ـ نعم، أخي هو لبيادكين.

ـ إليك ما سأفعله يا عزيزتي: سوف آخذك إلى بيتي، ومن هناك يوصلونك إلى مسكنك. هل تريدين أن تجيئي معي؟

ـ نعم نعم، أريد أريد!

كذلك هتفت الآنسة لبيادكين وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى ضارعة.

وفجأة دوّى صوت ليزافتا نيقولايفنا يقول:

ـ عمتي، عمتي، خذيني معك!

كانت ليزافتا نيقولايفنا قد جاءت إلى القداس مع زوجة الحاكم، بينما كانت براسكوفيا إيفانوفنا تقوم، تنفيذاً لأمر الطبيب، بنزهة في العربة

مصطحبة مافريكي نيقولا يفتش لتتسلى. تركت ليزا امرأة الحاكم بغتةً وهرعت نحو فرفارا بتروفنا.

بدأت فرفارا بتروفنا تكلمها فقالت وهي تصطنع غاية الأبهة والجلال:

ـ إنك لتعلمين يا عزيزتي إنني يسعدني دائماً أن أراك... ولكن ما عسى أمك قائلة...

ولكن فرفارا بتروفنا توقفت عن الكلام مضطربة أشد الاضطراب حين لاحظت ما تعانيه ليزا من بلبلة وتشوش وقلق. قالت ليزا ملحّةً وهي تقبل فرفارا بتروفنا:

ـ عمتي، عمتي، يجب أن أذهب معك.

وهنا تدخلت امرأة الحاكم فقالت باللغة الفرنسية في دهشة ملحوظة:

ـ ولكن ماذا دهاك يا ليزا؟ (بالفرنسية).

ـ معذرةً يا ابنة العم العزيزة، إنني ذاهبة مع عمتي.

كذلك قالت ليزا لابنة العم العزيزة المندهشة اندهاشاً أليماً، وهي تقبلها على عجل. وأضافت:

ـ وقولي لماما أيضاً أن تدركني فوراً في بيت عمتي. وهي عازمة على ذلك عزماً أكيداً على كل حال. ذكرت لي هذا هي نفسها، لكنني نسيت أن ابلغك. سامحيني. لا تزعلي "يا جوليا، يا ابنة العم العزيزة" (بالفرنسية)... عمتي أنا مستعدة!

كذلك قالت ليزا متدفقة في كلامها. ثم دمدمت تقول هامسةً في أذن فرفارا بتروفنا وقد استبد بها حزن شديد:

ـ إذا لم تأخذيني معك، فلأركضنّ وراء عربتك صائحة!

من حسن الحظ أيضاً أن أحداً لم يسمع ما قالت. وقد تقهقرت فرفارا بتروفنا خطوةً إلى وراء، وألقت نظرة ثابتة نافذة قوية على الفتاة التي طاش صوابها. وكان من شأن هذه النظرة أن قررت كل شيء: لقد عزمت فرفارا بتروفنا على أن تصطحب ليزا.

وأفلت من لسانها قولها:

ـ يجب أن نضع حداً لهذا كله. طيب. سآخذك معي راضيةً مسرورة يا ليزا، على شرط أن توافق جوليا ميخائيلوفنا طبعاً.

وقد أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الأخيرة وهي تلتفت نحو امرأة الحاكم بهيئة صريحة وقورة.

فتمتمت جوليا ميخائيلوفنا وقد أصبحت متوددة لطيفة على حين فجأة:

ـ آ... طبعاً، حتماً، لا أريد أن أحرمها من هذه المسرة، لا سيما وأنني أنا نفسي أعرف الرأس الصغير الخيالي المستبد الذي تحمله فوق كتفيها.

قالت امرأة الحاكم ذلك وابتسمت ابتسامة عذبة.

فأجابت فرفارا بتروفنا وهي تحييها تحيةً فيها تودد وإجلال:

ـ أشكرك كثيراً.

وتابعت جوليا ميخائيلوفنا كلامها تقول مفتتنةً حتى لقد احمرّ وجهها سروراً وانفعالاً:

ـ ومما يزيد مسّرتي أن ما يحض ليزا على مصاحبتك هو أنها أولاً تريد أن تسعد بلقائك وأنها ثانياً مدفوعة بعاطفة رائعة كل الروعة، سامية كل السمو إن صح التعبير، وهي عاطفة الشفقة... و... عند مدخل الكنيسة...

قالت جوليا ميخائيلوفنا ذلك ونظرت إلى "المرأة المسكينة".

فأجابت فرفارا بتروفنا مؤيدةً كلام جوليا ميخائيلوفنا بكرم وسخاء:

ـ هذه أقوال تشرّف قائلها...

فانبرت جوليا ميخائيلوفنا تمد إليها يدها بحماسة، فسرَّ فرفارا بتروفنا أن تمس تلك اليد بأصابعها. وكان الأثر العام رائعاً، فالوجوه تشرق بهجةً، وكان بعضهم يبتسمون، لكن ابتسامتهم كاذبة تصطنع الرقة والعذوبة اصطناعاً.

الخلاصة أن المدينة كلها قد أدركت إدراكاً واضحاً أن جوليا ميخائيلوفنا ليست هي التي ازدرت فرفارا بتروفنا حتى الآن، مهملةً زيارتها، وأن الحقيقة هي نقيض ذلك، ففرفارا بتروفنا هي التي "جفت جوليا ميخائيلوفنا، فلولا ذلك لهرعت جوليا ميخائيلوفنا إلى السيدة ستافروجين سيراً على الأقدام إذا وثقت فقط بأنها ستستقبلها". وسرعان ما علت مكانة فرفارا بتروفنا علواً

كبيراً، وازدادت مهابتها وسطوتها.

قالت فرفارا بتروفنا وهي تشير للآنسة لبيادكين إلى العربة التي وقفت فى تلك اللحظة أمام الكاتدرائية:

ـ اركبي يا عزيزتي.

فهرعت المسكينة نحو المركبة فرحةً، وبينما ساعدها الخادم المرافق على الركوب. هتفت فرفارا بتروفنا تقول وقد بدا عليها الذعر واصفر و جهها اصفراراً شديداً:

ـ ماذا؟ أتعرجين؟ (وقد لوحظ ارتياعها، غير أن أحداً له يفهم سببه).

وانطلقت المركبة. إن منزل فرفارا بتروفنا قريب جداً من الكاتدرائية. وقد روت لي ليزا فيما بعد أن الآنسة لبيادكين، خلال الدقائق الثلاث التي استغرقها قطع الطريق، كانت تضحك ضحكها الهستيري بغير توقف، بينما لبثت فرفارا بتروفنا ساكنة جامدة "كالغارقة في نوم مغناطيسي" على حد تعبير ليزا.

الفصل الخامس

الأفعوان البارع

1

شدّت فرفارا بتروفنا حبل جرس صغير وتهاوت على كرسي قرب النافذة. وقالت لماريا تيموفيئفنا وهي تشير إلى كرسي في وسط الغرفة بقرب مائدة كبيرة مستديرة:

ـ اجلسي هنا يا عزيزتي. ياستيفان تروفيموفتش، ما معنى هذا؟ انظر إلى هذه المرأة! نعم، انظر إليها، ما معنى هذا؟

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول متلعثماً:

ـ أنا... أنا...

ولكن خادماً دخل في تلك اللحظة.

ـ هات فنجان قهوة، فوراً، بأقصى سرعة، ولا تفكوا الخيل.

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية بصوت محتضر:

ـ ولكن، يا صديقتي العظيمة العزيزة، ما أشد هذا القلق! (بالفرنسية).

فصاحت ماريا تيموفيئفنا تقول وهي تصفق يديها وتتهيأ مفتونةً لشهود حديث باللغة الفرنسية:

ـ آ... تتكلمون بالفرنسية! تتكلمون بالفرنسية!

فتأملتها فرفارا بتروفنا بما يشبه الرعب.

ولزمنا الصمت ننتظر ما سيحدث. لم يرفع شاتوف رأسه. أما ستيفان تروفيموفتش فكان يبدو منقلب النفس رأساً على عقب كأنه يشعر أنه هو

المذنب في هذا كله. وكانت قطرات من عرق تتلألأ على صدغيه.

ألقيت نظرة على ليزا. كانت جالسةً في ركن إلى جانب شاتوف تقريباً. وكانت تنقّل نظرتها الفاحصة المتفرسة من فرفارا بتروفنا إلى العرجاء، ومن العرجاء إلى فرفارا بتروفنا. وكانت ابتسامة تقلّص شفتيها، لكنها ابتسامة خبيثة. لاحظت ذلك فرفارا بتروفنا. وكانت ماريا تيموفيئفنا أثناء ذلك تبدو مفتونة: إنها تنظر بمسرة واضحة ودون أي ارتباك إلى صالون فرفارا بتروفنا الجميل، وأثاثه الفاخر، وسجاده النفيس، ولوحاته المعلقة بالجدران، ونقوشه التي تزين السقف، والتمثال البرونزي الذي يمثل المصلوب منتصباً في ركن من الأركان، والمصباح الخزفي، ودفاتر الصور، والتحف الموضوعة على المائدة.

وهتفت تقول فجأة:

ـ كيف؟ أأنت أيضاً هنا يا شاتوشكا! تصور أنني رأيتك منذ مدة ولكنني قلت لنفسي: لا، ليس هو، أنّى له أن يكون هنا؟

وضحكتا في فرح.

قالت فرفارا بتروفنا تسأل شاتوف وهي تلتفت إليه بقوة:

ـ أتعرف هذه المرأة؟

فجمجم شاتوف يقول وهو يتحرك مضطرباً على مقعده:

ـ نعم، أعرفها.

ـ ماذا تعرف عنها؟ أسرع في الإجابة قليلاً، أرجوك.

ـ ماذا أقول لك؟

قال شاتوف ذلك وابتسم ابتسامة غامضة لا تتناسب كثيراً مع الموقف. وتابع كلامه فقال:

ـ إنك لترين بنفسك...

ـ ماذا أرى؟ ولكن هلّا قلت شيئاً...

ـ إنها تقيم في نفس العمارة التي أقيم فيها... مع أخيها... الضابط...

ـ وماذا أيضاً؟

تردد شاتوف. ثم دمدم يقول متلعثماً:

ـ لا حاجة إلى الكلام.

وعاد إلى صمته الكامل وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً من الجهد الذي بذله. قالت فرفارا بتروفنا مستاءةً:

ـ طبعاً لا يمكن أن يتوقع المرء منك غير هذا.

لقد كانت ترى رؤية واضحة أننا جميعاً نعلم شيئاً ما، لكننا نوجس خوفاً ونحاول أن نتحاشى أسئلتها، أي أن ثمة سراً...

ودخل الخادم وقدّم إليها، على صينية صغيرة من فضة، فنجان القهوة الذي كانت قد أمرت به، ولكنها أومأت إليه فاتجه نحو ماريا تيموفيئفنا.

قالت فرفارا بتروفنا لماريا تيموفيئفنا:

ـ منذ قليل كنت تشعرين ببرد يا عزيزتي، فاشربي هذه القهوة بسرعة، فتدفئي.

فقالت ماريا تيموفيئفنا وهى تتناول القهوة:

ـ "شكراً" (بالفرنسية).

وانفجرت تضحك فجأة، إذ تصورت أنها قالت للخادم "شكراً" بالفرنسية. لكنها، وقد التقت نظرتها بنظرة قاسية تسطع في عيني فرفارا بتروفنا، خافت ووضعت الفنجان على المائدة.

ثم تمتمت تقول بشيء من المرح:

ـ أتراك زعلت يا عمتي؟

فإذا بفرفارا بتروفنا تصبح مستهجنة:

ـ ماذا؟

وإذا هي ترتعش وتقوم عن كرسيها متابعة كلامها فتقول:

ـ أنا لست عمتك؟ ماذا تعنين بهذا الكلام؟

ودُهشت ماريا تيموفيئفنا من هذا الغضب المفاجئ، فتقهقرت إلى وراء، وأخذت ترتعش كأن بها حمى. وقالت متلعثمة وهي تنظر إلى فرفارا بتروفنا محملقة:

ـ كنت... كنت أظن أن عليّ أن أناديك هكذا. فهكذا تناديك ليزا.

ـ ما هذا الذي تقولينه أيضاً؟ من هي ليزا هذه التي تتحدثين عنها؟

فأشارت ماريا تيموفيئفنا إلى ليزا بإصبعها قائلة:

ـ هي هذه الآنسة؟

ـ كيف؟ أتسمينها ليزا أيضاً؟

ـ أنت نفسك سميتها هكذا منذ قليل.

كذلك قالت ماريا تيموفيئفنا متجرئةً قليلاً، وتابعت كلامها تقول ضاحكة كأنها تفكر في شيء آخر:

ـ رأيت في منامي آنسة جميلة شبيهة بها كل الشبه.

فكّرت فرفارا بتروفنا لحظة، وهدأت قليلاً، حتى لقد تبسمت تبسماً خفيفاً حين سمعت كلمات ماريا تيموفيئفنا الأخيرة. وحين لاحظت ماريا هذه الابتسامة، اقتربت منها خجلة وجلة وهي تعرج. وقالت وهي تنزع عن كتفيها الشال الأسود الذي كانت فرفارا بتروفنا قد لفعتها به:

ـ خذيه، نسيت أن أرده إليك، اغفري لي قلة أدبي.

ـ بل ردّيه إلى كتفيك فوراً، واحتفظي به لنفسك. هيّا اجلسي، واشربي قهوتك، ورجائي إليك يا عزيزتي أن لا تخافي مني. هدئي روعك. لقد بدأت أفهمك.

سمح ستيفان تروفيموفتش لنفسه أن يتدخل فقال يخاطب فرفارا بتروفنا بالفرنسية:

ـ "صديقتي العزيزة"...

فما كان من فرفارا بتروفنا إلّا أن قالت متململة:

ـ آه... ستيفان تروفيموفتش، إن الموقف معقد تعقيداً كافياً دون أن تزيده بكلامك أنت تعقيداً.. شدّ حبل هذا الجرس الموجود بقربك، أرجوك.

وساد صمت.

كانت تجيل غلينا جميعاً نظرة حانقة مرتابة. ودخلت آجاشا، خادمتها الأثيرة. فقالت لها فرفارا بتروفنا:

ـ هاتي لي الشـال ذا المربعات، الذي اشتريته من جنيف. ماذا تعمل داريا بافلوفنا؟

ـ إنها متوعكة الصحة يا سيدت.

ـ اصعـدي إليهـا واطلبي منها أن تجيء. وأضيفي إلـى ذلك أنني أرجوها ملحةً أن تجيء ولو كانت مريضة.

وفي تلك اللحظة نفسها سمعنا أصوات وقع أقدام غير مألوفة، فما هي إلّا هنيهة حتى ظهرت في عتبة الباب، على حين فجأة، براسكوفيا إيفانوفنا لاهثة الأنفاس زائغة الهيئة، يسندها مافريكي نيقولايفتش.

صرخت براسكوفيا إيفانوفنا تقول بصوت حاد، معبّرة بهذا الصراخ، على عـادة الأشـخاص الضعاف المهتاجين، عن كل الغضـب الذي كان قد تراكم فيها:

ـ آه... ربـاه! لقـد نفـد صبري! ليزا، أنـت مجنونة! انظـري كيف تعاملين أمك! يا فرفارا بتروفنا، لقد جئت لآخذ ابنتي.

فألقـت عليها فرفـارا بتروفنـا نظرة من تحـت، وأنهضت جسـمها قليلاً، وقالت وهي تحاول بجهد كبير أن تخفي امتعاضها:

ـ نهارك سـعيد يا براسـكوفيا إيفانوفنا. اجلسـي، أرجوك. كنت أعلم أنك لا بد آتية.

2

ليس في هذا الاستقبال شيء كان يمكن أن لا تتوقعه براسكوفيا إيفانوفنا. إن فرفارا بتروفنا تعامل رفيقة مدرستها هذه معاملته تشتمل دائماً على استبداد وطغيـان يختفيـان تحت سـتارة الصداقة، بـل لقد كانت تعاملها بما يشـبه أن يكون ازدراء. غير أن ذلك اليوم كان يبدو استثناءً من القاعدة مع ذلك.

لقد سـبق أن ذكـرت عرضاً أن القطيعة بين السـيدتين أصبحت شـبه تامة منـذ بضعـة أيام. ومع ذلك فإن أسـباب هذه القطيعة كانت ما تزال سـراً خفياً فـي نظر فرفـارا بتروفا، فكان ذلك يؤلـم فرفارا بتروفنا إيلامـاً خاصاً. غير أن

براسكوفيا إيفانوفنا تتخذ الآن إزاءها وضعاً فيه تعال عجيب وغطرسة. وكان طبيعياً أن يصيب هذا فرفارا بتروفنا بجراح بليغة عميقة. زد على ذلك أن شائعات غريبة كانت قد أخذت تصل إلى مسامعها، وهي شائعات غامضة جداً، كانت تحنقها لهذا السبب إلى أبعد حدود الحنق. إن من طبيعة فرفارا بتروفنا أنها مستقيمة ذات كبرياء، بل وأنها تميل إلى النزال والقتال. وهي لا تكره شيئاً كما تكره الاتهامات الملتوية والغمزات الخفية، وتفضّل أن تكون الحرب سافرة صريحة. إنّ هاتين السيدتين لم تلتقيا منذ خمسة أيام، أي منذ آخر زيارة قامت بها فرفارا بتروفنا لهذه "السيدة دروزدوف"، وهي زيارة عادت منها فرفارا بتروفنا مضطربة أشد الاضطراب، حانقة أكبر الحنق. وفي وسعي أن أقول غير خائف من الخطأ أن براسكوفيا إيفانوفنا حين دخلت الآن كانت مقتنعة بأن فرفارا بتروفنا لا بد أن تخاف منها. كان ذلك واضحاً في تعبير وجهها. ولكن فرفارا بتروفنا ما إن يحملها باعث من البواعث على افتراض أن من الممكن أن تُظنّ مُذلّة حتى يركبها عفريت العجب ويستولي عليها شيطان العجرفة.

وكانت براسكوفيا ايفانوفنا، ككثير من الأشخاص الضعاف الذين يتحملون سوء المعاملة مدة طويلة دون أي احتجاج، تعمد إلى الهجوم العنيف متى أتيحت لها فرصة الهجوم العنيف. هذا إلى أنها مريضة، وقد جعلها المرض أكثر اهتياجاً وأشد تأذياً بطبيعة الحال. ويجب أن أضيف إلى ذلك أخيراً أن وجودنا نحن في الصالون لا يمكن أن يحرج هاتين الصديقتين إذا وجب أن تنشب بينهما مشاجرة: فهما تعدّاننا جزءاً من الأسرة، وتعدّانا كذلك أدنى مستوى وأهون شأناً. وقد خطرت ببالي هذه الفكرة وأنا أشعر بغير قليل من القلق. وحين سمع ستيفان تروفيموفتش صوت براسكوفيا إيفانوفنا الحاد الصارخ، ولم يكن قد جلس منذ وصول فرفارا بتروفنا، تهاوى على كرسيه خائر القوى، وحاول أن يقع بصره على نظرتي وقد بدا في وجهه كمد شديد. وتحرك شاتوف مضطرباً على كرسيه، وجمجم ينطق بضع كلمات من بين أسنانه. فخيّل إليّ أنه يهمّ أن ينهض وينصرف. وهمّت

ليـزا أيضـاً أن تنهـض، ولكنها سـرعان ما عـادت تجلس حتـى دون أن تولي صرخـات أمها ما توجبه الظروف من انتبـاه واهتمام. ولم يكن ذلك ثمرة من ثمرات "عناد رأسها" قط، وإنما كان نتيجة فكرة استولت على نفسها استيلاء كاملاً، واستغرقت نفسها استغراقاً واضحاً. إنها تنظر إلى أمام كالذاهلة، حتى لقد انقطعت عن الاهتمام بماريا تيموفيئفنا.

3

هتفت براسكوفيا إيفانوفنا تقول وهي تستقر بمعاونة مافريكي نيقولايفتش على مقعد قرب المائدة:

ـ آه... أخيراً أجلس!

ثم أضافت تقول بصوت محطّم:

ـ لولا آلام شديدة في ساقيّ لما جلست عندك يا عزيزتي.

فرفعـت فرفارا بتروفنا رأسـها قليلاً، وضغطت بأصابـع يدها اليمنى على صدغها الذي كان واضحاً أنها تحس بأوجاع فيه، وقالت:

ـ لماذا يا براسـكوفيا إيفانوفنا؟ لماذا ترفضيـن الجلوس عندي؟ لقد كان المرحـوم زوجك يحمل لي دائماً أكبر الصداقة، وطالما لعبنا معاً، أنا وأنت، لعبة العروسة، أيام كنا صبيتين صغيرتين في المدرسة الداخلية!

حركت براسكوفيا إيفانوفنا يدها بإشارة تململ وقالت:

ـ هذا ما كنت أتوقعه. كلما انتويت أن تأخذي عليّ المآخذ، اسـتحضرت ذكرياتنـا فـي المدرسـة الداخليـة. هذا أسـلوبك وهذه خطتك. فـي رأيي أن مـا تقولينـه هنا ليـس إلّا جملاً منمّقـة. اعلمي أننـي أكرههـا وأحتقرها، هذه المدرسة الداخلية التي تجيئين على ذكرها!

ـ يبـدو لي أنك معتكرة المزاج. كيف حال سـاقيك؟ ها... إليك القهوة.. اشربيها.. أرجوك.. وكفّي عن الغضب!

ـ إنك تعاملينني كما يُعامَـل طفل صغير. لا أريد قهوتك.

قالت براسـكوفيا إيفانوفنا ذلك، وأبعدت بإشـارة حانقة سـاخطة الخادم

الـذي جـاء يقـدم لهـا فنجاناً مـن القهـوة. وما مـن أحد شـرب قهـوة إلّا أنا ومافريكـي نيقولايفتش. وقد أخذ سـتيفان تروفيموفتـش فنجاناً، ولكنه تركه على المائدة دون أن يرشـف منه رشـفة واحدة. أما ماريا تيموفيئفنا فقد ودّت لـو تأخذ فنجاناً ثانياً حتى لقد مدّت يدها إلى الصينية، لكنها فكّرت في الأمر فأسرعت ترفض بوقار، راضيةً عن حركتها هذه رضىً واضحاً.

ابتسمت فرفارا بتروفنا ابتسامة مقهورة، وقالت:

ـ لا بد أنك تخيلت شيئاً من الأشياء يا عزيزتي براسكوفيا إيفانوفنا، وأنك إنما دخلت إلى هنا ممتلئة بما ذهب إليه خيالك. لقد عشـت دائماً في وسـط أخيلتـك وأوهامك. إنـك تغضبين إذا أنا جئت على ذكر مدرسـتنا الداخلية، ولكـن هـل تتذكرين أنـك حين عدت من إجـازة الصيف زعمـت لتلميذات الصف كله أن الضابط في سلاح الفرسان، شابكيلين، قد خطبك من أهلك؟ إن السـيدة ليفيبور قد أقنعتك فوراً بأنك تكذبين، والحق أنك لـم تكذبي، إنما أنـت تخيلت هذه القصة تخيلاً من باب التسـلية. فقولي لنا: ماذا هناك الآن؟ ماذا تخيلت أيضاً؟ ممّ أنت مستاءة!

ـ وأنت أيضاً وقعت في غرام القس الذي كان يعلّمنا الدين. ذلك أنت، ما دمت حقودة إلى هذا الحد. هأ هأ هأ!...

وانطلقت تضحك ضحكة مُـرةً تحولت إلى نوبة سعال شديد.

قالت فرفارا بتروفنا وهي تلقي عليها نظرة زاخرة بالبغض:

ـ آ... إذن لم تنسي حكاية القس...

وانكفأ لون وجهها حتى صار ضارباً إلى خضرة. فإذا ببراسكوفيا إيفانوفنا تنهض فجأة متجهمة الوجه وتقول:

ـ لسـت الآن في حالة نفسـية تسـاعدني علـى الضحك يـا عزيزتي. لماذا أقحمـت ابنتي في فضائحك على مرأى ومسـمع مـن المدينة كلها؟ من أجل أن أعرف هذا إنما جئت.

فمـا إن سـمعت فرفـارا بتروفنـا هـذا الكلام حتـى صاحت تقـول بلهجة التهديد: ـ فضائحي؟

فإذا بليزافتا نيقولايفنا تتدخل فتقول مخاطبةً أمّها:

ـ أنا أيضاً أطلب منك أن تلتزمي الاعتدال والحقّ يا أماه.

ـ ماذا تقولين؟

كذلك سألت الأم وهي تستعد لأن تنفجر صائحة منتحبة، لكنها وقد رأت ما يسطع في عيني ابنتها من نظرات ملتهبة مستعرة، أمسكت على حين فجأة. فقالت ليزا وقد احمرّت احمراراً شديداً:

ـ كيف يمكنك أن تتحدثي عن فضائح يا ماما؟ لقد جئت بمحض إرادتي، واستأذنت جوليا ميخائيلوفنا، لأنني أردت أن أعرف قصة هذه المسكينة وأن أساعدها.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا تكرر جملة ابنتها وهي تضحك ضحكة خبيثة:

ـ "قصة هذه المسكينة!" ما شأنك أنت وهذه القصص يا عزيزتي؟

والتفتت نحو فرفارا بتروفنا ساخطة سخطاً شديداً، وقالت لها:

ـ يا عزيزتي! لقد ضقنا ذرعاً بطغيانك واستبدادك! يقال هنا، خطأً أو صواباً، أنك تسيّرين المدينة كلها بإشارة من إصبعك أو غمزة من عينك، ولكن آن الأوان لأن ينتهي هذا كله. لن يحدث شيء من هذا بعد اليوم!

كانت فرفارا بتروفنا منتصبة الجذع كسهم يهمّ أن ينطلق من القوس. وألقت على براسكوفيا إيفانوفنا نظرة ثابتة طويلة قاسية، ثم قالت لها أخيراً بهدوء مخيف:

ـ احمدي الله يا براسكوفيا على أنه ليس هنا إلّا أصدقاء. لقد نطقت بأقوال كثيرة لا داعي إليها.

ـ أنا لا أخشى رأي الناس. ولكنك أنت التي ترتعشين خوفاً من الناس، تحت ستار من الكبرياء الباطلة والزهو الكاذب. فإذا كان هؤلاء أصدقاء، فذلك من حسن حظك.

ـ أتراك أصبحت أكثر ذكاء في خلال هذه الأيام الثمانية؟

ـ لا، ليس الأمر هذا. كل ما هنالك أن الحقيقة قد تكشفت ساطعة باهرة في هذا الأسبوع.

ـ أية حقيقة؟ اسمعي يا براسكوفيا إيفانوفنا، لا تحنقيني، اشرحي ما بنفسك فوراً. ما هي تلك الحقيقة؟ ماذا قصدت من ذلك الكلام؟

ـ الحقيقة هي هذه! إنها موجودة أمامك!

كذلك هتفت براسكوفيا إيفانوفنا، مشيرةً بإصبعها إلى ماريا تيموفيئفنا عازمةً ذلك العزم المستميت الذي لا يحفل بالعواقب، راغبة في أمر واحد لا ثاني له، هو أن تضرب ضربة قوية. وكانت ماريا تيموفيئفنا تتفرس فيها باهتمام يسلّيها، فلما رأت إصبع الزائرة تمتد نحوها مشيرةً إليها، انطلقت ضحكة فرحة، وطفقت تتقلقل على كرسيها مرحة.

هتفت فرفارا بتروفنا تقول:

ـ يا يسوع المسيح، لقد أصبحوا جميعاً مجانين!

واصفرّ وجهها اصفراراً شديداً، وتهالكت في مقعدها. حتى لقد بلغت من الاصفرار أننا خفنا خوفاً كبيراً، وكان ستيفان تروفيموفتش أول من هرع نحوها. واقتربت أنا منها. ونهضت ليزا أيضاً، ولكنها سرعان ما توقفت. على أن براسكوفيا إيفانوفنا كانت أشد ارتياعاً على الإطلاق، فقد انطلقت من صدرها صرخة، ونهضت من مكانها في مشقة وعناء، وقالت بصوت دامع له أنين:

ـ فرفارا بتروفنا، عزيزتي الغالية، اغفري لي حماقتي وشرّي. ولكن هاتوا لها قليلاً من الماء.

ـ لا تئني يا براسكوفيا إيفانوفنا، أرجوك! وابتعدوا أيها السادة، رحماكم! لست في حاجة إلى ماء يا براسكوفيا إيفانوفنا!

أضافت فرفارا بتروفنا هذه الجملة الأخيرة بصوت ثابت وإن يكن أجش. وكانت شفتاها قد ذهب عنهما لونهما تماماً.

استأنفت براسكوفيا إيفانوفنا كلامها فقالت وقد هدأت قليلاً:

ـ فرفارا بتروفنا، صديقتي. لقد أفلتت مني كلمات حمقاء حقاً، لكنني قد أخرجتني عن طوريَ رسائل غير مذيلة بأسماء مرسليها، قصفني بها أوغاد لا أدري من هم. كان عليهم أن يرسلوها إليك أنت، فهي تتناولك، أما أن

يرسلوها إليّ فهذا ما أحنقني، إن لي بنتاً يا فرفارا بتروفنا، وأنا مسؤولة عنها.

كانت فرفارا بتروفنا تصغي إليها بانتباه محملقةً. وفي تلك اللحظة فُتح باب صغير بغير ضجة، ودخلت داريا بافلوفنا الغرفة. ولكنها سرعان ما توقفت ونظرت إلينا جميعاً وقد فجأها مارأت في وجوهنا من اضطراب. جائز أنها لم تلاحظ في الوهلة الأولى ماريا تيموفيئفنا التي لم ينبهها أحد إلى حضورها. وكان ستيفان تروفيموفتش أول من رأى دخول داريا الصامت. فقام بحركة من يده، واحمرّ وجهه، وقال معلناً لا يدري أحد لماذا: "داريا بافلوفنا"، فإذا بالأنظار جميعها تتجه إلى الفتاة دفعةً واحدة.

هتفت ماريا تيموفيئفنا تقول:

ـ ماذا؟ أهذه هي داريا بافلوفنا؟ إن أختك لا تشبهك ياشاتوشكا. كيف يجوز لخادمي أن يصف فتاة جميلة هذا الجمال بأنها عبدة، وأن يلقبها داشكا؟

وفي أثناء ذلك كانت داريا بافلوفنا قد اقتربت من فرفارا بتروفنا. لكنها وقد أدهشتها صيحة ماريا تيموفيئفنا التفتت فجأة، وتوقفت، وألقت على العرجاء نظرة ثابتة طويلة.

قالت فرفارا بتروفنا بهدوء فيه تهديد:

ـ اجلسي. اقتربي مزيداً من الاقتراب. نعم هكذا. تستطيعين أن تري هذه المرأة وأنت جالسة. هل تعرفينها؟

أجابت داشا بصوت رقيق عذب:

ـ لم أرها قبل اليوم.

ثم أضافت بعد لحظة صمت:

ـ لا بد أنها الأخت العرجاء لرجل يسمى لبيادكين.

هتفت ماريا تيموفيئفنا تقول وهي في ذروة الافتتان:

ـ أنا أيضاً يا عزيزتي أراك اليوم أول مرة، رغم شوقي إلى معرفتك منذ مدة طويلة، لأن كل حركة من حركاتك تدل على تربية ممتازة. أما عن خادمي وشتائمه، فهل يُعقل أن تسرق منه مالاً فتاةٌ لها ما لك من روعة الفتنة وحسن النشأة والتربية؟ ذلك أنك فاتنة، نعم فاتنة. أنا أقول لك ذلك.

بهذا ختمت العرجاء كلامها بحماسة وهي تحرك يديها أمام داريا بافلوفنا.
قالت فرفارا بتروفنا لداريا تسألها بوقار وكبرياء:
ـ هل تفهمين شيئاً من هذا الكلام كله؟
ـ نعم، أفهم كل شيء.
ـ فما حكاية المال المسروق؟
ـ لعلها تقصد المال الذي تكفلت في سويسرا، تلبيةً لطلب نيقولاي فسيفولودوفتش، أن أحمله إلى السيد لبيادكين، أخيها.
ساد صمت.
ـ هل نيقولاي فسيفولودوفتش هو الذي كلفك بحمل ذلك المال؟
ـ كان يرغب كثيراً في إيصال مبلغ ثلاثمائة روبل إلى السيد لبيادكين. وإذ كان لا يعرف عنوانه، وكان كل ما يعرفه أنه سيجيء إلى هنا، فقد عهد إليّ بالمبلغ لأسلّمه للبيادكين عند وصوله إلى مدينتنا.
ـ وما ذلك المال المفقود؟ ماذا تعني تلك الكلمات التي قالتها هذه المرأة منذ برهة؟
ـ لا أدري. ولكن بلغتني شائعة تقول إن السيد لبيادكين أخذ يزعم في كل مكان أنني لم أوصل إليه المبلغ كاملاً، ولم أفهم معنى أقواله. لقد أُعطيت ثلاثمائة روبل، فأرسلتها إليه.
كانت داريا بافلوفنا قد استردت هدوءها كاملاً. ويجب أن أقول من جهة أخرى أنه كان صعباً على وجه العموم أن تُباغَت هذه الفتاة وأن تُحمل على الاضطراب مهما تكن العاطفة التي تعتمل في قرارة نفسها. لقد أجابت عن جميع الأسئلة بدقة ووضوح، دون تعجّل، بصوت رقيق متساوٍ، من غير أن يبقى أي أثر من انفعالها الأول، وبدون أي ارتباك يمكن أن يحمل أحداً على أن يظن فيها الإحساس بارتكاب ذنب.
ولم تحوّل فرفارا بتروفنا بصرها لحظة واحدة عنها أثناء هذا الاستجواب. وها هي ذي تفكر لحظة ثم تعلن بلهجة جازمة، موجهةً كلامها إلينا جميعاً رغم أنها لم تنظر إلّا إلى داشا:

ـ ما دام نيقولاي فسيفولودوفتش لم يستعن بي أنا، وإنما رأى من الخير أن يعهد إليك أنت بهذه المهمة، فلا شك أن هناك أسباباً تدعوه إلى ذلك. وعندي أنني لا يجوز لي أن أبحث عن هذه الأسباب ما دامت تُخفى عني. ولكن ثقي أن مجرد اشتراكك في هذه المسألة يطمئنني عن تلك الأسباب، يا داريا. ولكنك يا بنيّتي، لجهلك بالناس، ورغم كل طهارة نيّاتك، يمكن أن تقومي بعمل يعوزه التبصر بالعواقب، ولقد قمت بهذا العمل فعلاً إذ اتصلت بوغد دنيء. والشائعات التي أذاعها في الناس تبرهن لك على ذلك برهاناً واضحاً. لكنني سأسأل عنه، وما دام واجب الدفاع عنك يقع على عاتقي أنا، فسوف أعرف كيف أحميك. والآن يجب أن نضع حداً لهذا كله.

تدخلت ماريا تيموفيئفنا فقالت بحماسة وحرارة وهي تتحرك على كرسيّها:

ـ أفضل شيء نفعله حين يأتي هو أن نرسله إلى المطبخ، فيلعب هناك بالورق مع الخدم بينما نشرب نحن هنا قهوتنا. في وسعنا على كل حال أن نرسل إليه فنجاناً، ولكنني أكرهه كرهاً عميقاً.

بهذا ختمت ماريا تيموفيئفنا كلامها وهي تهز رأسها بحركة ذات دلالة.

ردّدت فرفارا بتروفنا بعد أن أصغت إلى ماريا تيموفيئفنا بانتباه:

ـ نعم، يجب أن ننتهي من هذا كله! ستيفان تروفيموفتش، إقرع الجرس، من فضلك.

قرع ستيفان تروفيموفتش الجرس، ثم إذا هو يتقدم فجأة وقد احمرّ وجهه احمراراً شديداً، ودمدم يقول متلعثماً متأتئاً، بنوع من الحمى:

ـ لو أنني... لو كنت... لو قد سمعت هذه القصة الدنيئة، بل هذه الوشاية الكاذبة... لاستأت استياء شديداً فـ... "الخلاصة هي أنه رجل ضائع يشبه أن يكون سجيناً هارباً..." (بالفرنسية).

وأمسك ستيفان تروفيموفتش عن الكلام فجأة. لقد نظرت إليه فرفارا بتروفنا مغضّنة جفنيها. ودخل ألكسي إيجورتش، بأبهة على عادته. فقالت فرفارا بتروفنا:

ـ فلتُهيّـأ العربة. وأنت يا ألكسي إيجورتش استعدّ لإيصال الآنسة لبيادكين إلى بيتها. ستدلك هي على المكان الذي تسكنه.

ـ إن السـيد لبيادكين ينتظرها منذ بعض الوقت تحت. وقد ألحّ عليّ كثيراً أن أبلغ عن حضوره.

فتدخـل مافريكـي نيقولايفتش الـذي كان حتى ذلك الحيـن يلتزم صمتاً كاملاً لا يتزعزع، تدخل يقول منتبهاً إلى سوء دخول لبيادكين:

ـ مسـتحيل. اسـمحي لي أن أقول لك إن هذا الشخص لا يمكن استقباله في مجتمع. هذا... هذا إنسان غير معقول يا فرفارا بتروفنا.

قالت فرفارا بتروفنا تأمر ألكسي إيجورتش:

ـ فلينتظر.

وسرعان ما خرج ألكسي إيجورتش.

تمتم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية:

ـ "هـذا رجل منحط. حتى إنني أعتقد أنه سـجين هـارب أو رجل من هذا القبيل" (بالفرنسية).

ولكنه احمرّ وأمسك عن الكلام من جديد.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا بلهجة مشمئزة وهي تنهض عن مقعدها:

ـ ليزا، آن لنا أن ننصرف.

كان يبـدو عليهـا أنها نادمة على أن وصفت نفسـها بالحماقة أثناء انفعالها منـذ برهة. لقد اسـتردت هيئة التعالـي والاحتقار أثناء اسـتجواب داريا. غير أن الشــيء الذي خطف انتباهي أكثر من كل ما عداه هو ما كان يعبّر عنه وجه ليزافتـا نيقولايفنـا: إنها منذ دخول داريا بافلوفنا سـطع فـي عينيها لهيب كره واضح وازدراء صارخ يعلن عن نفسه سافراً.

قالت فرفارا بتروفنا بذلك الهدوء الشديد نفسه:

ـ انتظري دقيقة، من فضلك يا براسـكوفيا إيفانوفنا. اجلسي. إنني أريد أن أقول كل شـيء، وأنت تشـعرين بآلام في سـاقيك، فاجلسـي، أرجوك. نعم، هكـذا، شـكراً. منذ قليل، اسـتبد بـي الانفعـال فاندفعت فأفلتت من لسـاني

كلمـات حانقـة. فمعذرة. لقـد تصرفت تصرفـاً أحمقاً، وأنـا أول من يعترف بذلـك، لأننـي أحب العدل والإنصاف في كل شـيء. ولا بـد أنك كنت أنت خارجة عن طورك حتماً، منذ برهة، حين ألمحتِ إلى رسائل بعثها مرسلوها دون أن يذكروا أسماءهم. إن كل رسالة من هذا النوع لا تستحق إلّا الاحتقار، لمجرد أنها غير مذيلة بتوقيع صاحبها. فإذا كنت لا ترين هذا الرأي، فهذا من سـوء حظـك، ومهما يكن مـن أمر فإنني لو كنـت في مكانك لمـا التفت إلى هذه الدناءات، ولأبيتُ أن أوسّـخ بها نفسـي. ولكن ما دمت قد بدأت، فإنني مضطرة أن أذكر لك أنني أنا أيضاً قد تلقيت منذ ستة أيام رسالة فظة مضحكة لا تحمل اسـم مرسـلها. لا أدري من هو ذلك الوغد الحقيـر الذي ينبئني في تلـك الرسـالة أن نيقولاي فسـيفولودوفتش قـد أصبح مجنونـاً، وأن عليّ أن أحـذر امـرأة عرجاء "سـتلعب في حياتـي دوراً خطيراً" هذا هـو التعبير الذي اسـتعمله كاتب الرسـالة أتذكره الآن كلمة كلمة. فلمـا فكرت، وكنت أعرف أن نيقولاي فسـيفولودوفتش له أعداء كثيرون، اسـتدعيت شخصاً من هنا هو واحد من أعدائه المتسـترين المتخفيـن الحاقدين الحقيرين، فلم تنقض على حديثي معه لحظة حتى أدركت من هو كاتب تلك الرسالة. فإذا كنتِ "بسببي أنا" تُطارَدين أو تُقصفين، على حد تعبيرك، برسائل غفلٍ من أسماء مرسليها، فإنني ليؤسـفني طبعاً أن أكون أنا سبب ذلك، رغم براءتي. ذلك كل ما أردت أن أقوله لك شارحة معتذرة. إنني أرى أنك متعبة مرهقة وأنك مضطربة أشد الاضطـراب. ولكنني من جهة أخرى عازمة عزمـاً قاطعاً على "إدخال" ذلك الرجل المشـبوه المريب الذي استعمل مافريكي نيقولايفتش في حقه ألفاظاً غير مناسبة، إذ قال إنه لا يمكن استقباله. إن ليزا خاصةً لن يكون لها شأن هنا. تعالي إليّ يا ليزا، يا بنيّتي، لأقبّـلك مرة أخرى.

اجتـازت ليـزا الغرفة، ووقفت أمام فرفـارا بتروفنا صامتـة. فقبّـلتها هذه، وأمسـكت يديهـا، وردّتها قليلاً إلى وراء لتراها رؤيـة أكمل، وتأملتها بعاطفة وانفعال. ثم رسمت على الفتاة إشارة الصليب، وقبّـلتها من جديد.

ـ هيـا، مع السـلامة يا ليزا (وأوشـكت أن تخالط صوتها دمـوع). اعلمي

أنني لن أكف عن حبك يوماً، مهما يخبئ لك القدر. كان الله معك. إنني أبارك إرادته دائماً...

وأرادت فرفارا بتروفنا أن تضيف شيئاً آخر، لكنها ثابت إلى نفسها وأمسكت عن الكلام. وسارت ليزا راجعة إلى مكانها وهي ما تزال صامتةً وكأنها في حلم، فلما وصلت إلى أمام أمها توقفت فجأة وقالت لها بصوت رقيق لكنه يشف عن إرادة صلبة وعزم من حديد:

ـ لن أنصرف يا ماما، سأبقى الآن عند عمتي.

فقالت براسكوفيا إيفانوفنا في أنين وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى بحركة خوف وقلق:

ـ ما هذا أيضاً يا رب؟

لكن ليزا لم تجبها. حتى لقد بدا عليها أنها لم تسمعها. وعادت تجلس في ركنها وهي ما تزال تائهة النظرة في الفراغ.

وأشرق في وجه فرفارا بتروفنا تعبير عن العجب والانتصار. وقالت تخاطب مافريكي نيقولايفتش:

ـ مافريكي نيقولايفتش، أريد أن أسألك خدمةً هامة: أرجوك أن تذهب إلى تحت فتلقي نظرة على ذلك الرجل، فإن رأيت أن هناك أي إمكان "لإدخاله"، فجئ به إلى هنا.

فأطاع مافريكي نيقولايفتش وخرج. وما هي إلّا دقيقة حتى رجع مع السيد لبيادكين.

4

سبق أن تكلمت عن مظهر هذا الشخص: رجل طويل القامة ضخم الجسم، في نحو الأربعين من العمر، مجعد الشعر، أحمر الوجه متورّمه، ترتجف خداه الرخوتان عند كل حركة من رأسه، وعيناه الصغيرتان المحتقنتان لا تخلوان من معنى الدهاء والمكر. وله شاربان ولحيتان في العارضين. وتبرز تفاحة آدم في عنقه سمينة بشعة المنظر. والشيء الذي

خطـف انتباهـي فيه أكثر من كل ما عداه هو أنه كان في هذه المرة يرتدي رداء "فـراك"، وقميصـاً نظيفاً. "إن هناك أناسـاً يكاد يكـون القميص النظيف في نظرهم خروجاً على اللياقة والحشمة"، كذلك أجاب ليبوتين ذات مرة، حين لامه سـتيفان تروفيموفتش على إهمالـه هندامه. وكان للكابتن كذلك قفازان أسـودان، يحمل أحدهما بيده اليمنـى، بينما الثاني الذي لم يفلح في أن يعقد زره، يشـد يسـراه الضخمة شـداً قويـاً دون أن يغطيها تغطية كاملـة مع ذلك، وبهذه اليد اليسـرى كان يمسـك قبعـة مدوّرة جديدة كل الجـدة، لامعة. إذن فلقد كان "فراك الحب" الذي تحدث عنه الكابتن إلى شـاتوف أمس موجوداً بالفعـل. وهذا اللباس كله، أي الفراك والقميص النظيف، إنما حصل عليهما الكابتـن تنفيذاً لنصيحة ليبوتين (كما عرفت ذلـك فيما بعد) لأغراض خفية. وممـا لا شـك فيه أيضاً أنه جـاء إلى منزل فرفـارا بتروفنا (راكبـاً عربة أجرة) بتحريـض ومسـاعدة أحد الناس. فهذه الفكرة مـا كان لها أن تخطر بباله قط، وما كان له بمفرده أن يعزم أمره وأن ينفق ثلاثة أرباع السـاعة في العناية بزينته وهندامه، حتى ولو افترضنا أنه علم فوراً بالمشـهد الذي حدث تحت مدخل الكاتدرائيـة. ولـم يكن الكابتن سـكراناً، لكنه كان متبلـداً متبلهاً، كما يحدث ذلـك لأناس صحوا فجأة من سـكر دام عدة أيـام دون انقطاع. فلو هززته من كتفيه هزاً خفيفاً، مرةً أو مرتين، لعاد يهوي إلى حالة السكر فوراً.

دخـل الكابتـن إلى الصالون شـبه راكـض، لكنه تعثر بالسـجادة منذ صار في العتبة. فأخذت ماريا تيموفيئفنا تتلوى ضحكاً. فألقى عليها نظرة وحشـية كاسرة، واتجه نحو فرفارا بتروفنا بخطى سريعة.

قال بصوت رنان:

ـ جئت يا سيدتي!

فقالت فرفارا بتروفنا وهي تنتصب بجذعها في مقعدها:

ـ يـا سـيد، تفضل فاجلس هنـاك على ذلك الكرسـي. إن في وسـعك أن تسمعنا صوتك من هناك، وأنا يناسبني أن أنظر إليك من هنا.

فتوقـف الكابتـن فوراً وهـو ينظر إلى أمـام، أبلهَ الهيئة. ولكنه اسـتدار مع

ذلك، وجلس على الكرسي الذي حدّدته له فرفارا بتروفنا قرب الباب تماماً. إن تعبير وجهه يكشف عن فقدان الثقة بنفسه فقداناً كاملاً، ولكنه يكشف في الوقت نفسه عن نوع من الوقاحة ونوع من الغيظ المكظوم. كان خائفاً خوفاً رهيباً. ذلك واضح كل الوضوح. ولكنه كان يعاني من جرح في كرامته، فمن السهل على المرء أن يتنبأ أن كرامته الجريحة يمكن عند الاقتضاء أن تدفعه إلى الإقدام على إهانة أحد الناس رغم جبنه. كان واضحاً أنه يخشى أن يتحرك، لشعوره بخراقته. إنكم تعلمون أن أكبر عذاب يشعر به أشخاص من هذا النوع حين يدخلون إلى المجتمع الراقي بمصادفة تشبه أن تكون معجزة، إنما مصدره أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بأيديهم، وأنهم لا ينفكون يفكرون في هذا الأمر. لبث الكابتن جالساً على كرسيه كالمتجمد، حاملاً قبعته وقفازيه بيده، مثبتاً نظرته البلهاء على وجه فرفارا بتروفنا القاسي. لعله كان يود أن يرى ماذا يجري حوله، ولكنه لم يجرؤ أن يعزم أمره على ذلك. ولعل ماريا تيموفيئفنا قد رأت أن وضع الكابتن مضحك جداً، فإذا هي تطفق ضاحكة من جديد. ولكن الكابتن لم يتحرك. وتركته فرفارا بتروفنا التي لا ترحم، تركته على هذه الحال برهة طويلة، دقيقة كاملة، تحت نظرتها الفاحصة، وقالت له أخيراً بلهجة وقورة ذات دلالة:

ـ قبل كل شيء، أريد أن أعرف اسمك منك أنت.

فصاح الكابتن يقول:

ـ الكابتن لبيادكين، لقد جئت يا سيدتي...

وتحرك على كرسيه مضطرباً.

قاطعته فرفارا بتروفنا تقول:

ـ اسمح لي. هذه الإنسانة المسكينة التي همّني أمرها كثيراً، أهي أختك حقاً؟

ـ نعم يا سيدتي، هي أختي، وقد هربت من حراستي، فهي في حالة...

وأمسك عن إتمام جملته، واحمرّ وجهه احمراراً شديداً.

ثم جمجم يقول متلعثماً:

ـ لا تسيئي فهمي ياسيدتي، فأنا لا يخطر ببالي أن ألطخ سمعة أختي... فحين أقول إنها في حالة... لا أقصد أنها في حالة.. أقصد في حالة تسيء إلى السمعة... إنها في هذه الآونة الأخيرة...

وانقطع عن الكلام فجأة.

قالت فرفارا بتروفنا وهي ترفع رأسها مزيداً من الرفع:

ـ يا سيد...

ـ إليك ما أريد أن أقوله...

ولطم جبينه بإصبعه. وساد صمت.

ـ سألته فرفارا بتروفنا بصوت بطيء:

ـ أهي مصابة بهذا منذ مدة طويلة؟

ـ سيدتي، لقد جئت لأشكر لك ما أظهرته نحوها تحت مدخل الكنيسة، من كرم، من كرم روسي، أخويّ...

ـ أخويّ؟

ـ لا، لا أقصد ذلك... وإنما أقصد أنني أنا أخوها يا سيدتي.

ثم استأنف كلامه يقول متعجلاً وقد احمرّ احمراراً شديداً من جديد:

ـ صدّقي يا سيدتي أنني لست قليل الأدب إلى الحد الذي يمكن أن يظهر عليّ من الوهلة الأولى في صالونك. إننا، أنا وأختي، لا نُعَدّ شيئاً يا سيدتي بالقياس إلى ما نرى هنا من صنوف الروعة. يضاف إلى ذلك أن لنا أعداء، أن هناك وشاة يتقولون علينا كاذبين. أما عن السمعة يا سيدتي فإن لبيادكين يمكنه أن يعتز... وإن له كبرياءه... و... و... ولقد جئت لأزجي لك الشكر... إليك المال يا سيدتي!

وفيما كان يقول هذا الكلام أخرج محفظة نقوده واستل منها حزمة أوراق مالية وأخذ يعدها بأصابعه المرتجفة نافد الصبر حانقاً. كان واضحاً أنه يريد أن يشرح شيئاً ما بأقصى سرعة ممكنة، والحق أن الناظر إليه كان يشعر بضرورة ذلك. لكن لبيادكين، وقد أدرك في أغلب الظن أن وضعه في تلك اللحظة جعله مضحكاً، أضاع صوابه تماماً، فكانت الأوراق ترفض أن تُعَد، وكانت أصابعه لا تطاوعه، وزاده خزياً أن ورقة بثلاثة روبلات انسلت

من محفظته وسقطت على السجادة.

ـ إليك عشرين روبلاً يا سيدتي!

كذلك هتف وهو ينهض على حين فجأة، حاملاً حزمة الأوراق بيده، والعرق يتصبب منه خجلاً واضطراباً. وفي تلك اللحظة لمح الورقة التي كانت قد سقطت على الأرض، فطأطأ ليتناولها، لكنه شعر بخزي من هذه الحركة لا أدري لماذا، فقال وهو يُجرى يده بإشارة ازدراء:

ـ بل أتركها لخدمك يا سيدتي، للخادم الذي سيرفعها عن الأرض حتى يتذكر أختي.

فسرعان ما قالت فرفارا بتروفنا محتجةً وهي تشعر في الوقت نفسه بشيء من الرعب:

ـ لا يمكنني أن أرضى بهذا.

عندئذ طأطأ الكابتن من جديد، فتناول الورقة النقدية، واحمرّ وجهه احمراراً شديداً جداً، وسار بضع خطوات نحو فرفارا بتروفنا ومدّ إليها المال الذي عدّه قائلاً:

ـ ففي هذه الحالة إذن...

صرخت فرفارا بتروفنا تقول مرتاعة في هذه المرة:

ـ ما هذا؟

حتى لقد تقهقرت قليلاً في كرسيها. وهرعنا نتقدم إليها أنا ومافريكي نيقولايفتش وستيفان تروفيموفتش.

صات الكابتن يقول وهو يلتفت يمنةً ويسرة:

ـ هدئوا روعكم، هدئوا روعكم، ما أنا بمجنون، أقسم لكم إنني لست مجنوناً.

ـ بلى يا سيد. أنت قد فقدت عقلك.

ـ سيدتي، ليس الأمر ما تفترضين. ما أنا طبعاً إلّا حلقة تافهة لا قيمة لها. آه... سيدتي!... غنيٌّ مسكنك، وفقير مسكن "ماريا المجهولة"، أختي التي وُلدت باسم لبيادكين، ولكننا سنسميها مؤقتاً باسم "ماريا المجهولة"، مؤقتاً ياسيدتي، مؤقتاً فقط، لأن الله نفسه لا يرضى أن يستمر الأمر على هذه

الحال. سيدتي، لقد أعطيتها عشرة روبلات، فقبلتها، ولكنها لم تقبلها إلّا لأنك "أنت" التي أعطيتها إياها. هل تسمعين يا سيدتي؟ إن "ماريا المجهولة" ما كان لها أن تقبل مالاً من أحد في هذا العالم، ولو فعلت ذلك لاهتزّ من العار في قبره جدّها، الضابط أركان حرب، الذي قُتل في القوقاز على مرأى من بارمولوف. إيرمولوف[1]. أما منك أنت يا سيدتي، منك أنت، فإنها تقبل كل شيء. لكنها بيد تقبل، وبيد أخرى تقدّم هذه العشرين روبلاً تبرعاً لإحدى لجان البر والإحسان التي تشرّفينها بعضويتك في العاصمة... لقد أعلنت أنت نفسك في "جريدة موسكو" أن عندك هنا سجلاً للتبرعات، وأن أي إنسان يستطيع أن يتبرع.

وتوقف الكابتن عن الكلام. كان يزفر زفيراً مسموعاً كأنه قام بعمل مجهد. لعل هذا الحديث الطويل كله عن لجنة البر والإحسان إنما كان مهيّأ من قبل. حتى إن من الممكن أن يكون قد كتبه ليبوتين. وكان الكابتن يتصبب عرقه بمزيد من الغزارة: إن قطرات العرق تسيل على صدغيه سيلاناً بالفعل. وكانت فرفارا بتروفنا تتأمله بانتباه.

قالت بلهجة جافة:

ـ ما يزال السجل موجوداً تحت، عند بواب منزلي. فهناك إنما تستطيع أن تسجل تبرعك إذا شئت. أرجوك إذن أن ترتب أوراقك النقدية وأن لا تلوّح بها أمامي. يؤسفني كثيراً يا سيد أنني أخطأت الظن في أختك فأعطيتها صدقة، بينما هي غنية هذا الغنى كله. ليس هناك إلّا شيء واحد لا أفهمه: لماذا لن تقبل في يوم من الأيام أن تأخذ شيئاً من أحد غيري. لقد بلغت من الإلحاح على هذه النقطة أنني أريد أن تشرح لي ما بنفسك.

أجاب الكابتن يقول:

ـ سيدتي، هذا سر سأحمله معي إلى القبر.

فسألته فرفارا بتروفنا بصوت أقل ثقة في هذه المرة:

---

(1) ألكسي إيرمولوف (1861ـ 1772): جنرال شهير برز أثناء حملة 1812، ثم أصبح بعد ذلك قائداً للجيش الروسي بالقوقاز.

ـ لماذا؟

ـ سيدتي! سيدتي!

وصمتَ مظلّم الوجه، وخفض عينيه، ووضع يده اليمنى على قلبه. فكانت فرفارا بتروفنا تنتظر دون أن تحوّل عنه نظرها.

صاح يقول:

ـ سيدتي، هل تسمحين لي بأن ألقي عليك سؤالاً، سؤالاً لا أكثر، ولكن بصراحة، بصراحة تامة، صراحة روسية، من أعماق القلب؟

ـ قل ما تريد.

ـ هل تألمت في هذه الحياة يا سيدتي؟

ـ هذا يعني أنك تألمت أو ما تزال تتألم بسبب ذنب اقترفه غيرك.

ـ سيدتي، سيدتي!

ونهض مرة أخرى بحركة مباغتة، ربما دون أن يشعر بذلك، ولطم صدره. وأضاف يقول:

ـ هنا، في هذا القلب، تراكمت أشياء كثيرة سيُدهش منها الإله نفسه حين سينكشف كل شيء في يوم الحساب.

ـ همْ... إنك تستعمل تعابير قوية.

ـ سيدتي، ربما كنت أتكلم بلهجة تشتمل على إسراف في الغضب والحنق.

ـ لا تهتم، سأعرف كيف أوقفك عن الكلام حين يجب أن أوقفك عنه.

ـ هل يمكنني أن ألقي عليك سؤالاً آخر يا سيدتي؟

ـ افعل!

ـ هل يمكن أن يتعذب المرء لا لسبب غير نبل نفسه؟

ـ لا أدري. لم ألقِ على نفسي هذا السؤال يوماً!

فهتف الكابتن يقول بلهجة فيها سخرية وتأثر:

ـ لا تدرين! ولم تلقي على نفسك هذا السؤال يوماً! طيب، فإذا كان الأمر

كذلك، فاصمت يا قلبي اليائس[1]

قال ذلك ولطم صدره بقوة وعنف.

كان يسير في الغرفة طولاً وعرضاً. إن السمة المميزة لهؤلاء الناس هي أنهم عاجزون عجزاً مطلقاً عن إخفاء رغباتهم، وإن بهم حاجةً لا تقاوم إلى التعبير عنها فوراً بكل ما فيها من بشاعة. فإذا وُجدوا في مجتمع غير مجتمعهم شعروا في أول الأمر بضيق وحرج، ولكنهم ما إن يُسمح لهم بتثبيت أقدامهم حتى يصبحوا وقحين.

كان الكابتن قد أخذ يندفع. إنه يسير بخطى كبيرة، محرّكاً ذراعيه، وقد أصبح لا يصغي إلى الأسئلة التي تلقى عليه، ويتكلم من تلقاء نفسه بتدفق يبلغ من القوة في بعض الأحيان أنّ لسانه يعصيه، فإذا هو يترك الجملة قبل أن ينهيها ويشرع في جملة أخرى. يجب أن نذكر أيضاً أنه ربما كان قد شرب كأساً في ذلك الصباح. أضف إلى ذلك وجود ليزافتا نيقولايفنا. إنه لم ينظر إلى جهتها مرة واحدة، ولكن لا شك أن وجود الفتاة كان قد أدار رأسه. على أن هذا ليس إلّا افتراضاً مني. ومهما يكن من أمر، فلا شك أن فرفارا بتروفنا كانت تملك من الأسباب ما يجعلها تتغلب على تقززها، وتصغي إلى إنسان كهذا الإنسان. وكانت براسكوفيا إيفانوفنا، من جهتها، ترتعش خوفاً، رغم أنها كانت لا تفهم كثيراً ما هو الأمر الذي يدور عليه الكلام، فيما يبدو لي. أما ستيفان تروفيموفتش فكان يرتجف هو أيضاً، ولكن لأنه، على عكسها، كان مؤهّلاً لأن يدرك أشياء كثيرة مسرفة في الكثرة. وكان مافريكي نيقولايفتش يلتزم وضع امرئ مستعد لأن يتدخل من أجل أن يحمي الجميع. وكانت ليزا شاحبة الوجه جداً، لا تحول عينيها المحملقتين عن الكابتن لحظة واحدة. وظل شاتوف جالساً على وضعه نفسه لم يغيره. وأغرب ما في الأمر أن ماريا تيموفيئفنا لم تنقطع عن الضحك فحسب، بل أصبحت كذلك حزينة حزناً

(1) بيت من الشعر مستمد عن قصيدة كوكولنيك "الشك"، وقد وضع ميشيل جلنكا موسيقى لهذه القصيدة، فاشتهرت كثيراً.

رهيباً. كانت واضعة كوعيها على المائدة تتابع بنظرتها الحالمة الأسيانة أخاها الذي كان يتدفق في الكلام. وكانت داريا بافلوفنا الشخص الوحيد الذي بدا لي هادئاً كل الهدوء.

قالت فرفارا بتروفنا وقد أخذ صبرها ينفد:

ـ ما هذه الرموز كلها إلّا سخافات! إنك لم تجب عن سؤالي، "لماذا؟". وأنا أصرّ على أن أنال جواباً.

ـ لم أجب عن سؤالك "لماذا"؟ تنتظرين جواباً عن سؤالك "لماذا"؟

كذلك ردّد الكابتن كلامها غامزاً بطرفه. وتابع كلامه يقول:

ـ إن هذه الكلمة الصغيرة "لماذا"، منتشرة في الكون كله منذ أول يوم وُجدت فيه الخليقة يا سيدتي، والطبيعة كلها تصيح في كل لحظة سائلةً خالقها "لماذا؟". والناس ينتظرون الجواب منذ سبعة آلاف سنة. فهل على الكابتن لبيادكين وحده أن يتحمل التبعة نيابةً عن جميع البشر. أهذا عدل وإنصاف يا سيدتي؟

هتفت فرفارا بتروفنا تقول وقد أخذ غضبها يزداد:

ـ هذه كلها سخافات لا شأن لها بالسؤال. هذه كلها رموز. ثم إنك تسمح لنفسك بأن تتكلم لغةً متنفخةً كثيراً، وذلك أمرٌ أعدّه أنا وقاحة.

استأنف الكابتن كلامه دون أن يصغي إليها فقال:

ـ سيدتي، وددت لو يكون اسمي "آرنست"، ولكن ها أنذا أُسمّى بهذا الاسم الغليظ، اسم "أجناس". فلماذا في رأيك؟ وددت لو أكون الأمير مونتبارد، ولكنني لست إلّا لبيادكين، المشتق اسمه من كلمة "البجعة"، فلماذا؟ أنا شاعر يا سيدتي، شاعر في أعماق روحي، وكان يمكن أن أقبض مالاً من ناشر شعري، ومع ذلك فإنني مضطر أن أعيش في إسطبل، فلماذا؟ لماذا يا سيدتي؟ سيدتي، ليست روسيا في رأيي إلّا ألعوبة في يد الطبيعة، لا أكثر!

ـ ألا تستطيع حقاً أن تعبّر عما في نفسك تعبيراً أدق وأوضح؟

ـ أستطيع أن أنشدك مقطوعة شعرية عنوانها "الخنفسة"، يا سيدتي.

ـ هيه!...

ـ سيدتي، لم أصبح مجنوناً بعد، سأصبح مجنوناً في المستقبل، سأصبح مجنوناً ليس في ذلك ريب، لكنني لم أصبح كذلك حتى الآن. سيدتي، إن واحداً من أصدقائي، وهو رجل محـ..تـ..ر..م جداً، قد كتب حكاية من حكايات كريلوف، عنوانها "الخنفسة"، فهل تسمحين لي بأن أتلوها عليك؟

ـ تريد أن تنشدنا قصيدة من قصائد كريلوف عن الحيوانات؟

ـ لا، ليست هي حكاية من حكايات كريلوف يا سيدتي، بل هي حكاية من نظمي، من نظمي أنا. صدّقي يا سيدتي ـ ولا يسوءنَّك هذا ـ إنني لست عديم الثقافة ولا منحط العقل إلى الحد الذي يجعلني أجهل أن روسيا تملك شاعراً كبيراً نظم حكايات عن الحيوانات هو كريلوف الذي شاد له وزير التعليم العام نصباً تذكارياً في حديقة الصيف حتى يلعب الأطفال حوله[1]. إنك ياسيدتي تسألينني "لماذا". والجواب عن هذا السؤال مدوّن في هذه القصيدة بأحرف من نار.

ـ اقرأ القصيدة!

أخذ الكابتن يتلو القصيدة:

كانت خنفسة تعيش وادعة في هذا العالم،
هي خنفسة منذ ولدت.
فيوماً سقطت في كأس
مليء بذباب يموت

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ ما هذا الكلام يا رب!

فأسرع الكابتن يشرح لها محركاً ذراعيه، حانقاً متململاً كأي مؤلف قوطع في الموضع المؤثر من كلامه:

(1) "... إن كريلوف الشاعر الكبير الذي نظم حكايات عن حديقة الحيوانات، قد أقام له وزير العام نصباً تذكارياً في "حديقة الصيف": إن هذا النصب الذي شاده المثال البارون كلودت قد أقيم سنة 1856.

ـ معنـى هـذا أن الذباب حين يسـقط صيفاً في كأس فإنـه يهلك. إن أغبى الأغبياء يدرك ذلك. لا تقاطعيني، لا تقاطعيني، سترين...

قال ذلك وهو ما يزال يحرك ذراعيه. وتابع ينشد القصيدة:

احتلت الخنفسة مكاناً صغيراً

لكن الذباب ثار منادياً جوبيتر:

كأسنا ملأى كثيراً.

ولكن بينما كان الذباب يحتج

مَرَّ هناك نيكيفور

الشيخ المحترم جداً...

هنـا اضطررت أن أتوقف عن النظم، ولكن لا ضير، فسـوف أقص عليك القصة نثراً.

كذلك قال الكابتن متوفقاً، وتابع يسرد القصة فقال:

ـ تنـاول نيكيفور الـكأس، ورغم احتجاجات الذبابـات، رمى الجمع كله في سـلة الزبالة، الذبابات والخنفسـة على حد سـواء، وذلك أمـر كان ينبغي أن يُـفعـل منذ مدة طويلة. ولكن لاحظي يا سـيدتي، لاحظي أن الخنفسـة لا تتشـكى ولا تتذمر. هذا هو جوابي عن سؤالك "لماذا؟": الخنفسة لا تتشكى ولا تتذمر.

بهذا صاح الكابتن منتصراً. ثم أسرع يضيف قوله:

ـ وإن نيكيفور يمثل الطبيعة.

وعاد يسير في الغرفة راضياً مسروراً.

اغتاظت فرفارا بتروفنا واستبد بها حنق شديد. وقالت تسأله:

ـ اسـمح لي أن أسـألك: ما قصة ذلك المال الذي كان يجب أن تتلقاه من ابنـي نيقولاي فسـيفولودوفتش، ثم لم يصلك كامـلاً؟ لقد تجرأت، فاتهمت شخصاً ينتمي إلى أسرتي.

فزأر الكابتن يقول وهو يرفع يده بحركة من يمثل دوراً في مأساة:

ـ وشاية!

ـ لا ليس هذا وشاية!

ـ سيدتي، ربّ ظروف تجبر المرء على أن يتحمل تلطخ سمعة أسرته بالعار، مفضّلاً ذلك على أن يجهر بالحقيقة. إن لبيادكين لن يقول كلمة واحدة، زيادةً على ما قال، يا سيدتي.

كان لبيادكين كمن عميَ بصره من النشوة. كان يحس بخطورة شأنه. كان واضحاً أنه يحسب كل شيء مباحاً له. إنه يريد أن يهين أحداً ما، إنه يريد أن يرتكب سفالة ما، ليظهر للجميع قوته وسطوته.

قالت فرفارا بتروفنا تخاطب ستيفان تروفيموفتش:

ـ اقرع الجرس، من فضلك يا ستيفان تروفيموفتش، أرجوك.

قال لبيادكين وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ويغمز بعينه:

ـ إن لبيادكين ماكر يا سيدتي. إنه ماكر. لكنه هو أيضاً فيه ضعف. إنه هو أيضاً له هوى. وهذا الهوى هو... هو الزجاجة المعتقة التي يشربها الفرسان والتي تغنّى بها دافيدوف[1]. فحين تكون هذه الزجاجة في يده ياسيدتي، يمكنه أن يبعث رسالة من شعر، رسالة رائعة، لكنه سرعان ما يتمنى أن يدفع جميع دموع مآقيه ثمناً لاسترداد هذه الرسالة، لأنها تدمّر شعوره بالجمال. لكن العصفور يكون قد طار فلا سبيل إلى اللحاق به. فمن الممكن ياسيدتي أن يكون لبيادكين، في هذه الحالة، قد تكلم عن فتاة محترمة، منقاداً لاستياء نبيل نشب في نفسه ثورةً على الظلم، فاستفاد الوشاة النمامون من ذلك. لكن لبيادكين ماكر ياسيدتي. عبثاً يتربص به ذئب كاسر لا ينفك يصب له شراباً، متوقعاً أن يكشف عن نفسه أخيراً. إن لبيادكين لن يتكلم. وفي قرارة الزجاجة لن يجد إلّا مكر لبيادكين بدلاً من أن يعثر على السر الذي ينتظر أن يعثر عليه. ولكن كفى! أوه! كفى يا سيدتي! إن منزلك الرائع كان يمكن أن يكون ملكاً لأنبل الكائنات، ولكن الخنفسة لا تتذمر ولا تحتج. لاحظي هذا، لاحظيه جيداً! إن الخنفسة لا تتشكى! فاعترفي بعظمة نفسها!

---

(1) دينيس فاسيليفتش دافيدوف (1839ـ 1781): ضابط من سلاح الفرسان، قاد حرب أنصار سنة 1812، ونظم شعراً في الحرب والخمرة.

في تلك اللحظة سُمع صوت جرس تحت، ثم لم نلبث أن رأينا دخول ألكسي إيجورتش الذي كان قد تأخر عن الظهور استجابة لنداء ستيفان تروفيموفتش. وكان الخادم العجوز المهيب يبدو منفعلاً انفعالاً غريباً.

وإذ ألقت عليه فرفارا بتروفنا نظرة سائلة مستفهمة، قال:

- وصل نيقولاي فسيفولودوفتش.

إنني ما أزال أتذكر حالة فرفارا بتروفنا في تلك اللحظة: لقد شحب لونها شحوباً شديداً، والتمعت عيناها، ثم انتصبت في مقعدها وقد بانت في هيئتها قوة العزيمة. أما نحن فقد ذهلنا جميعاً. إن وصول نيقولاي فسيفولودوفيتش على حين بغتةً، بينما كان لا يُنتظَر وصوله قبل شهر آخر، قد فجأنا لا بمباغتته فحسب، بل أيضاً بكونه قد تمّ في هذه الدقيقة. وظل الكابتن نفسه متجمداً في وسط الغرفة، فاغر الفم، مثبتاً نظرته البلهاء على الباب.

وهذه أصوات خطى صغيرة متعجلة تدوّي في الغرفة المجاورة: إن شخصاً يصل راكضاً. وداهم هذا الشخص الصالون، ولكنه لم يكن نيقولاي فسيفولودوفتش، بل كان شاباً لا نعرفه.

5

أتوقف هنا لحظة لأرسم بعض ملامح هذه الشخصية التي ظهرت على حين فجأة.

إنه شاب في نحو السابعة والعشرين من عمره، أطول قليلاً من متوسط طول الرجال، شعره أشقر قليل لكنه طويل، له شاربان مشعثان ولحية ضئيلة، لائق الهندام، حتى إنه يرتدي ثياباً على الموضة، ولكن بغير أناقة. يبدو من النظرة الأولى أخرقاً، محدَّب الظهر قليلاً، غير أنه في حقيقة الأمر ليس محدَّب الظهر، وإنما هو يقف منطلقاً بغير تكلّف. يمكن أن يعد شاذاً بعض الشذوذ، لكن جميع الناس قد وجدوا بعد ذلك أنه حسن الآداب عاقل اللسان.

لا يمكن أن يقال إنه دميم، ومع ذلك لا يرضي وجهه أحداً. إن رأسه

المسطَّح في الجانبين، المتطاول إلى خلف، يُظهر وجهه مستدقاً كثيراً. وجبينه عالٍ ضيق. وقسماته صغيرة. وعيناه حادتان. وأنفه صغير مدبّب. وشفتاه طويلتان رقيقتان.

إذا رأيت تعبير وجه حسبته ضعيفاً مريضاً. وليس الأمر كذلك بتاتاً. إن خديه تغضّنهما تحت الوجنتين غضون جافة تضفي عليه مظهر رجل خرج من مرض خطير، ومع ذلك كان صحيح البنية قوي الجسم، حتى إنه لم يمرض في يوم من الأيام.

خطواته وحركاته سريعة دائماً، ومع ذلك فهو لا يتعجل شيئاً. لا شيء فيما يبدو يمكن أن يربكه ويشوشه. فمهما تكن الظروف ومهما يكن المكان، يظل هو نفسه على الدوام. وهو راضٍ عن ذاته، لكنه لا يشعر بذلك.

إنه يتكلم متدفقاً بغزارة، ولكنه يتكلم بثقة كبيرة، دون أن يبحث عن الألفاظ. أفكاره واضحة رغم سرعته، واضحةٌ دقيقة محدّدة، وقد خطفت هذه الصفة انتباه مستمعيه. نطقه بيِّن جليٌّ، كلماته تتساقط كحبات كبيرة متساوية، قد أحسن اختيارها دائماً وهيأها سلفاً لجميع المناسبات.

ذلك يعجبك في البداية، لكنك تشعر بعدئذ بانزعاج، ولا سيما من ذلك النطق المسرف في الوضوح، ومن ذلك التدفق الغزير السريع المطّرد على وتيرة واحدة. حتى ليخيَّل إليك في النهاية أن هذا الرجل لا بد أن لسانه له شكل خاص جداً، فهو طويل طولاً خارقاً، نحيل نحولاً هائلاً، مزوَّد برأس ذي أهداب، أحمرٌ قاني الحمرة، متحركٌ أبداً.

ذلكم هو الشاب الذي سقط في وسط الصالون سقوط الصاعقة. ويخيَّل إليّ الآن أنه كان قد بدأ الكلام وهو في الحجرة المجاورة، فلمَّا دخل علينا كان في منتصف جملة يقولها. وسرعان ما انغرس أمام فرفارا بتروفنا، وقال لها مسرعاً:

ـ تخيلي يا فرفارا بتروفنا: لقد دخلت وأنا أتصور أن أجده. كان ينبغي أن يكون هنا منذ ربع ساعة. لقد وصل منذ ساعة ونصف. كنا معاً عند كيريلوف. وانصرف منذ نصف ساعة ليأتي إلى هنا رأساً، وطلب مني أن أجيء أيضاً بعد ربع ساعة.

سألته فرفارا بتروفنا:

ـ ولكن من هو؟ من هو الذي طلب لك أن تجيء إلى هنا؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش! كيف؟ ألا تعرفين، بعدُ، أنه وصل؟

لا بد أن حقائبه قد أصبحت هنا مع ذلك منذ مدة! لماذا لم ينبئوك؟ أأنا الذي أحمل إليك هذا الخبر؟ من الممكن أن يُرسَل أحد ليجيء به. على كل حال، سيصل بين لحظة وأخرى، وأظن أنه سيُسرُّ كثيراً بهذا الاجتماع الذي يطابق رغباته، كما يطابق. ـ فيما أعلم ـ بعض مشاريعه. (قال ذلك ونظر حواليه وتفرس في الكابتن لبيادكين بانتباه خاص). آ... ليزافتا نيقولايفنا! ما أسعدني بأن ألقاك منذ وصولي! إنني مسرور حقاً بمصافحة يدك (قال ذلك راكضاً نحو ليزا ليتناول يدها التي مدتها إليه ليزا مبتسمةً في فرح). وها أنذا أرى أن المحترمة جداً، براسكوفيا إيفانوفنا، لم تنسَ، هي أيضاً، صاحبها "الأستاذ"، ولا هي غاضبة منه الآن كما كانت غاضبة منه في سويسرا! كيف حال ساقيك يا براسكوفيا ايفانوفنا؟ هل كان الأطباء السويسريون على حق حين وصفوا لك هواء بلادك؟ ... كيف؟ تقولين إنك تستعملين كمادات؟ لا بد أن هذا يفيدك كثيراً. ولكن لشد ما أسفت يا فرفارا بتروفنا (هنا التفت نحو ربة المنزل من جديد) لشد ما أسفت لأنني لم أستطع أن أراك في الخارج وأن أقدم إليك احتراماتي بنفسي! لا سيما وأن هناك أشياء كثيرة كان ينبغي أن أنقلها إليك... صحيح أنني أبلغت أبي العجوز، ولكنني أعتقد أنه، على عادته...

وهتف ستيفان تروفيموفتش يقول وقد عاد من ذهوله وشدهه فجأة:

ـ بتروشا!

وضمَّ يديه ووثب نحو ابنه. وتابع يقول:

ـ "بطرس، ابني" (بالفرنسية) ! هل تصدق أنني لم أتعرفك؟

واحتضنه بذراعيه، وسالت على خديه دموع.

جمجم بتروشا يقول وهو يحاول أن يتخلص من عناق أبيه:

ـ هيَّا! لا تضطرب! لا تضطرب! كفى! أرجوك!

ـ أنا أذنبت دائماً في حقك، دائماً، دائماً!

ـ كفى! ستتكلم عن هذا فيما بعد. كنت أعلم أنك ستردد هذه الحكاية... كفى! عليك بمزيد من الوقار، أرجوك!

ـ ولكنني لم أرك منذ عشر سنين.

ـ هذا أدعى إلى أن لا تسترسل في الكلام...

ـ ابني!

ـ نعم، أنت تحبني، صدَّقتك... ولكن انزع يديك. ألا ترى أنك تزعج الآخرين؟ آ... هذا نيقولاي فسيفولودوفتش! هيَّا... هدىء نفسك، أرجوك!...

كان نيقولاي فسيفولودوفتش قد وصل فعلاً بصمت، فتلبث على عتبة الصالون لحظةً، وراح يتأملنا جميعاً بنظرة هادئة.

وكما حدث لي قبل ذلك بأربع سنين، حين رأيته أول مرة، خطف منظره اهتمامي فوراً. لم أكن قد نسيت محياه. غير أن هنالك وجوهاً لا تراها مرةً أخرى إلّا وتنكشف لك فيها سمة جديدة لم تكن قد لاحظتها قبل ذلك، رغم أنك تعرف هذه الوجوه منذ زمن طويل. لم تكن يبدو عليه أنه تغير خلال تلك السنين الأربع: مايزال أنيقاً كما كان، رصيناً كما كان، ما تزال مشيته وحركاته موسومة بالوقار، وما يزال على غضارة شبابه نفسها تقريباً، ما تزال ابتسامته الخفيفة ودوداً فاترة على عهدك بها، وما تزال تنمّ عن تلك الثقة ذاتها التي كانت تنمّ عنها. ما تزال نظرته على ما عرفت فيها من قسوة، وتفكير، وشيء من ذهول. الخلاصة: كان في إمكاني أن أعتقد أننا لم نفترق إلّا بالأمس. غير أن هناك أمراً فجأني مع ذلك: كان المرء يراه في الماضي جميلاً، ولكن وجهه كان في تلك الأيام "أشبه بقناع" في الواقع، على حد تعبير بعض سيداتنا. أمَّا الآن فهو جميل جمالاً كاملاً، جمالاً لا سبيل إلى الجدال فيه. لا شك أن أحداً لايستطيع أن يقول الآن إن وجهه يشبه قناعاً. أيكون مرد ذلك إلى أنه شحب قليلاً ونحل قليلاً؟ أم أن فكراً جديداً قد أصبح يضيء نظرته؟

صاحت فرفارا بتروفنا تقول وقد انتصبت في مقعدها دون أن تبارحه، وأوقفت ابنها بإشارة آمرة صارمة:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش! نيقولاي فسيفولودوفتش! قف!

ولكن لكي تفسر السؤال الرهيب الذي أعقب هذه الإشارة وهذه الصيحة، وهو سؤال ما كان لي أن أتخيل أن تلقيه فرفارا بتروفنا، أرجو من القارىء أن يتذكر طبع هذه السيدة، وأن يتذكر مدى ما تتصف به من اندفاع في بعض الظروف. إنها رغم قوة نفسها ورغم ما تملكه من حسٍّ عملي واضح، قد اتفق لها في بعض لحظات حياتها أن انقادت لعنف مزاجها انقياداً تاماً، ولم تعرف كيف تكبح جماح نفسها وكيف تقف عند حد. ويجب أن نُدخل في حسابنا أيضاً أن هذه الدقيقة التي كنا فيها يمكن أن تكون واحدة من تلك اللحظات الحرجة الدقيقة التي يتركز فيها، كتركز الأشعة بواسطة عدسة، كلُّ الماضي وكل الحاضر وربما كل المستقبل من حياة بكاملها. وينبغي أن أشير عابراً كذلك إلى تلك الرسالة الخالية من اسم كاتبها، التي تحدثت عنها فرفارا بتروفنا منذ برهة إلى براسكوفيا إيفانوفنا، كاتمةً العنصر الأساسي من مضمونها فيما يبدو لي. فلعل تلك الرسالة أن تكون هي السبب الحقيقي الذي دفع فرفارا بتروفنا إلى إلقاء ذلك السؤال بغتةً على ابنها.

قالت تسأله مفصِّلة كل كلمة من كلماتها بصوت قوي مثقل بالتهديدات:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، أرجوك أن تقول لي فوراً، دون أن تترك مكانك، هل صحيح أن هذه العرجاء ـ انظر إليها، هذه هي... هل صحيح أن هذه العرجاء هي زوجتك الشرعية؟

إنني أتذكر تلك اللحظة تذكراً واضحاً مسرفاً في الوضوح. إن نيقولاي فسيفولودوفتش لم ترفَّ عيناه، وحدَّق إلى أمه بنظرة ثابتة. لم يظهر على وجهه شيء. وأخيراً ابتسم ابتسامة متسامحة، واتجه نحو أمه بخطى هادئة دون أن يقول كلمة واحدة، فتناول يدها وحملها إلى شفتيه باحترام، ولثمها. ولقد كانت سيطرته على أمه ما تزال تبلغ من القوة أنها في هذه المرة أيضاً لم تجرؤ أن تسحب يدها، واكتفت بأن راحت تنظر إليه سائلة مستفهمة، ولكن وضعها كله كان يقول إن هذا الشك إذا لم يقطعه اليقين في لحظة، فلن تستطيع له احتمالاً.

ولكـن ابنهـا صمـت. وبعد أن لثـم يد أمه أجـال بصره علينا مـرة أخرى، وتقدم نحو ماريا تيموفيئفنا بتلك الخطى الهادئة نفسها. إنه لمن الصعب جداً وصف وجه الناس في بعض اللحظات. فمما أتذكره مثلاً أن ماريا تيموفيئفنا قد نهضت تستقبله وهي ترتعش خوفاً، وضمت يديها إحداهما إلى الأخرى كأنمـا لتضرع إليه. وأتذكر في الوقت نفسـه الافتتان الذي سـطع في نظرتها، وهو افتتان مجنون شـوّهها تشويهاً بمعنى من المعاني، افتتان ربما كان أقوى من أن يحتمله كائن إنسـاني. لعل صراعاً قد نشـب في نفسـها بين عاطفتين، الخـوف والافتتـان. لكنني أذكر أنني أسـرعت أقتـرب منها (ولـم أكن بعيداً عنها): إذ تراءى لي أنها ستسقط مغشياً عليها.

قال لها بصوت مؤثر رخيم، وكان في عينيه التماع حنان رائع:

ـ يجب أن لا تبقي هنا.

كان واقفاً أمامها على وضع يفيض احتراماً، وكانت كل حركة من حركاته تنم عمَّا يحمل لها من اعتبار صادق.

قالت المسكينة مثأثئةً بصوت متقطع:

ـ هل يمكنني.. هنا.. الآن.. أن أركع أمامك؟

فأجابها يقول:

ـ لا... مستحيل.

وابتسـم ابتسـامة بلغت من الروعة أن انطلقت من صدر العرجاء ضحكةً صغيرة فرحة.

وأضاف يقـول بذلك الصوت المؤثر الرخيم المقنع نفسـه، أضاف يقول بجدٍ كمن يخاطب طفلاً:

ـ تذكـري أنك فتاة، وأنني مهما أكن لك صديقاً مخلصاً، فلسـت بالنسـبة إليـك إلّا رجـلاً أجنبيـاً، فما أنا زوجـك، ولا أبوك، ولا خطيبـك. هاتي يدك ولننصرف. سأشيعك إلى العربة، وإن شئت أوصلتك إلى بيتك.

أصغت إليه بانتباه، وأحنت رأسها شاردة الفكر حالمة الهيئة.

وقالت أخيراً وهي تتنهد وتمد إليه يدها:

ـ لننصرف!

غيـر أن مصيبـة صغيـرة قد وقعت في تلـك اللحظة، لعل الفتـاة قد قامت بحركة خطأ، فاسـتندت إلى سـاقها المريضة. المهم أنها سـقطت إلى جانب علـى مقعد. فلو لا أن كان ذلك المقعـد هناك، لتدحرجت على الأرض. وقد سـندها نيقولاي فسـيفولودوفتش، ووضع ذراعه تحت ذراعها، ثم أمسـكها بقوة، وقادها نحو الباب بكثير من العناية والاحتياط.

كان واضحـاً أنها خجلت من سـقوطها، لأن وجهها احمـرّ، وظهر عليها الاضطراب. مهما يكن من أمر فقد تبعته خافضةً عينيها، صامتةً لاتقول شيئاً، عارجـةً عرجـاً قوياً حتـى لكأنها معلقـة بذراعه. وهكذا غابا عـن أعيننا. وقد رأيت ليزا التي نهضت عن كرسيها فجأةً لحظةَ سارا ليخرجا، رأيتها تتابعهما بنظرة ثابتة إلى أن اجتازا عتبة الباب. حتى إذا غابا عادت تجلس صامتةً، غير أن وجههـا كان قد تقبّضَ تقبُّض الاشـمئزاز، كأنما هي قد لمسـت حية أو ما أشبه الحية من الزواحف.

ولقد لبثنا جميعاً، طوال المدة التي استغرقها هذا المشهد كالخُرس صمتاً من فرط الذهول. فلو طارت في الغرفة ذبابة لسُمع صوت طيرانها. ولكن ما إن خرجـت ماريا تيموفيئفنا مع نيقولاي فسـيفولودوفتش حتى أخذ الجميع يتكلمون معاً في آن واحد.

6

والحق أن الكلام لم يكن كلاماً بقدر ما كان صيحات تعجب. لقد نسيت قليـلاً كيف تسلسـلت الأحداث، لأن ذلك كله كان مضطرباً مشوشـاً. صرخ سـتيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسـية لا أدري ماذا، ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى. ولكن فرفارا بتروفنا كانت تملأ رأسها همومٌ أخرى. حتى مافريكي نيقولايفتـش نطق بضع كلمات بصوت لاهث. ولكن أكثر الحضور اضطراباً وتحـركاً إنمـا كان بطرس سـتيفانوفتش. كان يحـرِّك يديه بإشـارات عريضة محـاولاً أن يقنـع فرفـارا بتروفنا. ولـم أستطع أن أدرك مدار حديثـه إلّا بعد

برهة طويلة. وكان يلتفت أيضاً نحو براسكوفيا إيفانوفنا ونحو ليزا، حتى لقد خاطب والده أثناء حركته واضطرابه ببضع كلمات. الخلاصة: كان يسعى هنا وهناك متخبطاً أكبر التخبط. وها هي ذي فرفارا بتروفنا تنهض من مقعدها وقد احمرَّت احمراراً شديداً، وتصرخ سائلةً براسكوفيا إيفانوفنا: "هل سمعت؟ هل سمعت ماذا قال لك؟". لكن براسكوفيا إيفانوفنا كانت قد نفذ صبرها وخارت عزيمتها فلم تزد على أن دمدمت ببضع كلمات وهي تحرك يدها بإشارة تململ. لقد كان للمسكينة هموم خاصة بها: فهي تلتفت نحو ابنتها في كل لحظة، وتنظر إليها مرتاعة. ومع ذلك لا يخطر ببالها أن تنهض وتنصرف قبل أن تومئ لها ابنتها بإشارة الانصراف. أمَّا الكابتن فكان يتمنى لو يفر دون أن يراه أحد، لاحظت ذلك واضحاً. إنه منذ وصول نيقولاي فسيفولودوفتش يبدو فريسة رعب شديد وذعر هائل. لكن بطرس ستيفانوفتش قد أمسكه من ذراعه ومنعه من الهروب.

كان بطرس ستيفانوفتش ما ينفك يكرر على مسامع فرفارا بتروفنا محاولاً إقناعها:

ـ لا بد من هذا، لا غنى عن هذا.

كان واقفاً أمامها، وكانت هي قد عادت فجلست في مقعدها، وراحت تصغي إليه في شراهة ونهم. أتذكر هذا. لقد بلغ غاياته وتمكن من جذب انتباهها.

ـ هذا لا بد منه، هذا لا غنى له. إنك لترين بنفسك يا فرفارا بتروفنا أن في الأمر سوء فهم. إن الموقف يبدو غريباً، لكنه في الواقع واضح وضوح ماء الصخر، بسيط بساطة تحية الصباح. إنني أعلم حق العلم أن أحداً لم يكلفني بأن أقصَّ هذه القصة، وأنني قد أبدو مضحكاً حين أقوم بهذه المبادرة من تلقاء نفسي. ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش لايولي هذه القضية أي اهتمام، ذلك من جهة أولى، ومن جهة أخرى هناك حالات يصعب فيها على صاحب الشأن نفسه أن يشرح سلوكه. فلا بدّ أن يتولى شخص ثالث يستطيع أن يعرض بعض الوقائع الحرجة بسهولة أكبر. صدِّقي يا فرفارا بتروفنا أننا لا نستطيع أن

نأخذ على نيقولاي فسيفولودوفتش أنه لم يجب عن سؤالك بشروح وافية. ومع ذلك فإن هذه القضية لا تكاد تستحق أن يتكلم المرء عنها. إنني أعرفها منذ كنت ببطرسبرج. وهي تشرِّف نيقولاي فسيفولودوفتش إذا كان لا بدّ من استعمال هذه الكلمة الغامضة: "الشرف..."

سألته فرفارا بتروفنا:

ـ هل تقصد أنك كنت شاهداً على حادث هو السبب في سوء الفهم ذاك؟

ـ بل كنت شاهداً وفاعلاً في آن واحد.

بهذا أسرع بطرس ستيفانوفتش يصحح سؤال فرفارا بتروفنا.

ـ إذا كنت تعاهدني على أن قصتك لن تخدش عواطف نيقولاي فسيفولودوفتش الذي لم يكتم عني شيئاً في يوم من الأيام... وإذا كنت على يقين من أنك إذ تفعل ذلك تسرُّه...

ـ لا شك عندي في هذا، وذلك بعينه هو السبب في أنني يسعدني أن أقدم لك هذه الشروح. إنني مقتنع بأنه يمكن أن يصرَّ هو نفسه على أن أتكلم.

إن إلحاح هذا السيد الذي هبط من السماء على أن يروي لنا شؤون غيره كان أمراً غريباً لا يطابق العادات المألوفة. ولكنه قد اصطاد فرفارا بتروفنا بصنارته إذ لمس منها موضعاً حساساً على نحو خاص. ولقد كنت في ذلك الحين، أجهل طبع هذا الشخص، وأجهل مراميه.

قالت فرفارا بتروفنا بلهجة رصينة متحفظة، وقد ضايقها تسامحها قليلاً:

ـ إنني أصغي إليك.

ـ ليست القصة طويلة. حتى أنها ليست حكاية. ولكن رُبّ كاتب من كتاب الروايات لا يجد شيئاً يفعله خيراً من أن يلفق منها رواية، فهي حالة شائقة. إني على ثقة بأن براسكوفيا إيفانوفنا وليزافنا نيقولايفنا ستصغيان إليَّ باهتمام، لأن في هذه القضية أشياء كثيرة إن لم تكن خارقة فهي على الأقل عجيبة. منذ خمس سنين عرف نيقولاي فسيفولودوفتش هذا السيد ببطرسبرج، نعم هذا السيد لبيادكين الذي يقف فاغر الفم، والذي يتمنى في هذه اللحظة أن يكون بعيداً إذا لم يخطىء ظني معذرة يا فرفارا بتروفنا. على

أنني لا أنصحك بالهروب يا عزيزي السيد الموظف المحال على التقاعد من مصلحة التموين (ها أنت ذا ترى أنني أعرفك جيداً). إننا، أنا ونيقولاي فسيفولودوفتش، على علم كامل بجميع أفعالك هنا، وهي أفعال ستُحاسَب عليها حساباً عسيراً، لا تنسَ هذا. مرةً أخرى أستغفرك يا فرفارا بتروفنا. في ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يطلق على هذا الشخص اسم فالستاف، أي يعدُّه إنساناً مضحكاً جداً يسخر منه جميع الناس ويستهزئون به ولا يحتج هو على ذلك شريطة أن يجني منه بعض المال (كذلك اعتقد بطرس ستيفانوفتش أن من واجبه أن يشرح). وفي ذلك الأوان كان نيقولاي فسيفولودوفتش يعيش في بطرسبرج حياة "ساخرة" إن صح التعبير. إنني لا أجد كلمةً غير هذه الكلمة لوصف الحياة التي كان يعيشها في ذلك الأوان، فهو إنسان لا يستسلم لليأس وهو من جهة أخرى يحتقر أن يشغل نفسه بأي شيء. إنني لا أتكلم عن ذلك العهد فقط يا فرفارا بتروفنا. وكان للبيادكين هذا أخت، هي تلك نفسها التي كانت هنا منذ هنيهة. والأخ والأخت لم يكن لهما ركن يأويان إليه، فكانا يسكنان تارةً عند هؤلاء وتارةً عند أولئك. كان، هو، يظل يطوِّف ببزته الرسمية تحت أروقة الدكاكين ويستوقف المارة، أحسن المارة طبعاً، ثم يمضي بكل ما يتصدقون به عليه إلى الخمارة. أمّا الأخت فكانت تعيش كما تعيش عصافير السماء. كانت تساعد الفقراء فيطعمونها. اغفروا لي أنني أصف لكم هذه الحياة التي جذبت نيقولاي فسيفولودفتش من باب "التفرد والشذوذ". إنني لا أتكلم إلّا عن تلك الفترة يا فرفارا بتروفنا. أمّا تعبير "الشذوذ والتفرد" هذا فهو من عنده: إنه تعبيره هو. لقد كان لا يخفي عني أشياء كثيرة. والآنسة لبيادكين التي أتيح لها كثيراً أن تراه في ذلك الأوان قد خطف بصرها وفتن لبَّها مظهره. لقد كان بمثابة قطعة من الماس تتلألأ على صفحة حياتها الوسخة المقززة. ولكن وصف العواطف ليس هو ما أبرع فيه، لذلك أصرف النظر عن هذا الأمر. ومع ذلك فقد وُجد أناس خبثاء أشرار أخذوا يسخرون منها، فجعلها ذلك حزينة كل الحزن. كانوا يستهزئون بها ويضحكون عليها بغير انقطاع، ولكنها كانت في أول الأمر لا

تلاحظ ذلك ولا تدركه. إنها منذ ذلك الحين لم تكن مالكة عقلها كاملاً، ولكن اختلال عقلها لم يكن قد بلغ الحد الذي بلغه الآن. وعلينا أن نفترض أنها، بفضل عناية ورعاية محسنةٍ ما، قد نُشِّئت في طفولتها تنشئة مكَّنتها من الإلمام بشيء من ثقافة. كان نيقولاي فسيفولودوفتش لا يوليها أي اهتمام في يوم من الأيام، وكان يقضي وقته في لعب "الويست" بورق عتيق متسخ على ربع كوبك للنقطة الواحدة مع أشخاص من صغار الموظفين. لكنه، في ذات مرة، وقد سخر أحدهم من المسكينة، أمسك الرجلَ من تلابيبه دون أي شرح ورماه من النافذة من الطابق الأول. ولم يكن ذلك منه تعبيراً عن غضب فروسي أثارته فيه رؤية الفتاة البريئة مهانة. فقد جرى المشهد كله بين ضحكات الحضور وصيحاتهم، حتى إن نيقولاي فسيفولودوفتش ضحك أكثر مما ضحك الآخرون. وحين تبيَّن أن الحادث لم يسفر عن عواقب أليمة، تمَّت المصالحة حول زجاجة من الخمرة. ولكن "البريئة المهانة" لم تنس ما فعله الفارس من أجلها. وكان طبيعياً أن ينتهي هذا بتشويش ملكاتها العقلية تشويشاً حاسماً. أكرر أنني لا أجيد وصف العواطف. ولكن كل شيء هنا كان يتم في نطاق خيالها. وكان نيقولاي فسيفولودوفتش ما ينفك يزيد هذا الخيال اضطراماً بما يشبه التعمّد. فبدلاً من أن يضحك على الآنسة لبيادكين كما يفعل الآخرون، أخذ يعاملها باحترام، مثيراً بذلك دهشة الجميع. حتى أن كيريلوف الذي شهد ذلك (وهو شخص على جانب كبير من الأصالة والصراحة الخارقة يا فرفارا بتروفنا، وقد ترينه لأنه الآن هنا) أقول أن كيريلوف هذا، الذي لا يتكلم أبداً، قد غضب مرةً وقال لنيقولاي فسيفولودوفتش ـ أتذكر هذا جيداً ـ إنه يرتكب خطأ كبيراً إذ يعامل الآنسة لبيادكين كما تعامَل مركيزة، لأن ذلك يفقدها عقلها تماماً. يجب أن أقول لك إن نيقولاي فسيفولودوفتش كان يقدّر كيريلوف. فهل تعرفين بماذا أجابه؟ لقد أجابه بقوله: "أتظن يا سيد كيريلوف أنني أسخر منها؟ إنك إذن لواهم: إنني أحترمها فعلاً، لأنها خير منا جميعاً". وقد قال ذلك بلهجة جادة. ومع ذلك فإنه خلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة التي عرفها خلالها لم يقل لها

كلمة واحدة عدا "يومك سعيد" و "إلى اللقاء". وإنـي لأذكر بوضوح كامل أنها انتهت من ذلك إلى أن عدَّته خطيبها تقريباً، ولكنه خطيب لا يجرؤ أن يختطفها لأن له أعداء كثيرين، ولأنه يخشى أن تجيئه متاعب من جهة أسرته، أو شيء من هذا القبيل. ما أكثر ما كنا نضحك من ذلك! وفي النهاية حين غادر نيقولاي فسيفولودوفتش مدينة بطرسبرج ليجيء إلى هنا، اتخذ تدابيره من أجل أن يكفل للفتاة المسكينة معاشاً سنوياً، معاشاً كبيراً فيما أعتقد، يساوي نحو ثلاثمائة روبل إن لم يكن أكثر. لنفرض أن ذلك لم يكن منه إلّا نزوة عارضة، إلّا نزوة جامحة، كما يمكن أن يحدث هذا لرجل سئم الحياة قبل الأوان. بل فلنفترض أن كيريلوف كان على حق، وأن الأمر لا يعدو أن يكون تجربةً يقوم بها امرؤ قليل المروءة يريد أن يرى إلى أين يمكن المضيّ بامرأة شوهاء نصف مجنونة. لقد قال له كيريلوف: "إنك تعمدت أن تختار أبشع مخلوقة، أن تختار امرأة عرجاء يسخر منها الناس ويسيئون معاملتها، وهي إلى ذلك تموت بك حباً مضحكاً، وأخذت تدير لها رأسها عامداً قاصداً لا لشيء إلّا أن ترى ما عسى ينتج عن ذلك.". ولكن هل ينبغي أن نعدَّ رجلاً من الرجال مسؤولاً عن جميع الأفكار المجنونة التي يمكن أن تساور ذهن امرأة لم يبادلها هذا الرجل جملتين. لاحظوا أنه لم يبادلها جملتين حقاً. هناك يا فرفارا بتروفنا أشياء لا يعجز المرء عن أن يقول فيها كلاماً معقولاً فحسب، بل يعجز كذلك حتى عن محاولة معالجتها معالجة جادة. لنفترض أن ذلك كان "تفرداً وشذوذاً" من جانب نيقولاي فسيفولودوفتش. إن هذا كل ما يمكن أن يقال عن هذه القصة. فانظري ماذا جعلوا منها! إنني على علم، إلى حدّ ما، بما يجري هنا يا فرفارا بتروفنا.

هنا قطع القاصُّ حديثه فجأة، وهمَّ أن يلتفت نحو لبيادكين، لكن فرفارا بتروفنا أوقفته. لقد كانت فرفارا بتروفنا تعاني انفعالات قوية شديدة.

سألته:

ـ هل أنهيت كلامك؟

ـ لا، فلكي أخرج القضية إلى النور يجب عليَّ أيضاً أن ألقي عدداً من

الأسئلة على هذا السيد، إذا أذنت لي بذلك. فلسوف ترين حقيقة الأمر يا فرفارا بتروفنا.

ـ كفى. أرجىء هذا إلى ما بعد. توقف عن الكلام لحظة، أرجوك. آه... لكم أحسنت صنعاً إذ تركت لك أن تتكلم!

أستأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه يقول بحرارة:

ـ ولاحظي يا فرفارا بتروفنا أنه كان يستحيل استحالةً مطلقةً على نيقولاي فسيفولودوفتش أن يذكر لك جميع هذه الإيضاحات جواباً عن سؤالك الذي لعله كان يشتمل على إسراف في الجزم والقطع.

ـ آ... نعم ... كان يشتمل على إسراف كثير في الجزم والقطع.

ـ أفلم يكن من حقي أن أقول أن ثمة ظروفاً يكون فيها تقديم الإيضاحات اللازمة أسهل على شخص آخر منه على صاحب الشأن نفسه؟

ـ نعم، نعم... ولكن هناك نقطة أخطأت فيها وما تزال تخطئ. إنني ألاحظ ذلك آسفة.

ـ حقاً؟ ما هو الخطأ الذي وقعت فيه؟

ـ اسمع... ولكن اجلس أولاً يا بطرس ستيفانوفتش.

ـ لك ما تشائين... أعترف بأنني منهوك القوى. شكراً.

وسرعان ما قرَّب مقعداً فجلس عليه بحيث يكون بين فرفارا بتروفنا من جهة وبراسكوفيا إيفانوفنا من جهة أخرى، مع بقائه قبالة الكابتن ليبادكين حتى لا يحوِّل عنه بصره.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ لقد أخطأت حين عددت ذلك "تفرداً وشذوذاً".

ـ أوه ... إذا لم يكن خطئي إلّا هذا...

فقاطعته فرفارا بتروفنا تقول:

ـ لا، لا، لا، انتظر قليلاً...

وكان واضحاً أنها تتأهب للاسترسال في حديث طويل جداً، مؤثر جداً. فما إن لاحظ بطرس ستيفانوفتش ذلك حتى أصبح كله آذاناً مصغية.

قالت فرفارا بتروفنا:

ـ لا، لم يكن ذلك تفرداً وشذوذاً، بل كان شيئاً أرفع كثيراً من ذلك، كان شيئاً مقدساً إن صح التعبير، أؤكد لك. إن نيقولاي فسيفولودوفتش رجل ذو كبرياء، جرحته الحياة فى سنٍ مبكرة، فانتهى من ذلك إلى أن ينظر إليها نظرة "سخرية"، على حد تعبيرك الموفق في شرحك الممتاز. إنه الأمير هاري كم أحسن ستيفان تروفيموفتش خلع هذا اللقب الرائع عليه، وكان يمكن أن يكون هذا اللقب صادقاً لولا أن هذا الرجل يشبه هاملت أكثر مما يشبه الأمير هاري، في رأيي أنا على الأقل.

تدخل ستيفان تروفيموفتش قائلاً بلهجة نافذة :

ـ "وإنك لعلى حق" (بالفرنسية).

ـ أشكرك يا ستيفان تروفيموفتش، أشكرك شكراً خاصاً على هذه الثقة التي لا تتزعزع، هذه الثقة بنيقولا، وبعظمة نفسه، وعظمة قدره. لقد أحييتَ في نفسي هذه الثقة حين فقدت أنا الشجاعة.

ـ "عزيزتي، عزيزتي..."

كذلك قال ستيفان تروفيموفتش وهو يتقدم نحو فرفارا بتروفنا، ولكنه سرعان ما توقف إذ قدَّر أن مقاطعتها ربما كانت خطرة.

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها فقالت بصوت كأنه الغناء:

ـ لو وُجد بقرب نيقولاي إنسان عطوف مثل هوراسيو[1]، العظيم جداً في تواضعه ومذلته ـ وهذا تعبير آخر من تعابيرك الجميلة يا ستيفان ترفيموفتش ـ فلربما كان منذ زمن طويل قد أُنقذ "من شيطان السخرية الحزين المشؤوم" الذي لم ينقطع عن تعذيبه (وتعبير "شيطان السخرية" هو من اكتشافاتك أيضاً يا ستيفان تروفيموفتش). ولكن نيقولاي لم يوجد إلى جانبه شخص مثل هوراسيو في يوم من الأيام، ولا إنسانة مثل أوفيليا. إنه لم يكن له أحد إلّا أمه. ولكن ما عسى تستطيع أن تفعله أم وحدها، وفي ظروف كتلك الظروف؟ الآن

---

(1) "هوراسيو" هو الصديق المخلص لهاملت في مسرحية شكسبير.

بدأت أفهم يا بطرس ستيفانوفتش كيف أمكن شخصاً مثل نيقولاي أن يعيش في مثل تلك الأماكن التي وصفتها لنا منذ برهة. إنني أتصور بوضوح كامل باهر "سخرية" تلك الحياة (ما كان أصدق تعبيرك هذا!)، وأتصور الظمأ المحرق، الناشئ عمّا يحمله في نفسه من تناقضات، وأتصور الصفحة الكالحة الحزينة من تلك اللوحة التي يبرز عليها نيقولاي بروز قطعة من الماس على حد تشبيهك يا بطرس ستيفانوفتش، وأتصوره يلقى في هذه البيئة تلك المخلوقة المثقلة بالإهانات، تلك الشوهاء نصف المجنونة، التي لعلها تزخر مع ذلك بأنبل العواطف!...

ـ همْ... لنسلِّم بهذا...

ـ أفتستغرب بعد هذا أن لا يسخر منها كما يسخر سائر الناس؟... آه من الرجال! إنكم لا تفهمون لماذا يدافع عنها ويحيطها باحترام "كما لو كانت مركيزة" (إن كيريلوف هذا لا بد أنه يعرف البشر معرفة رائعة، رغم أنه لم يفهم نيقولاي!). إن الشر كله قد نشأ عن هذا التضاد، إن شئت. فلو أن المسكينة قد وُجدت فى بيئة مختلفة، فلعلها ما كانت لتسترسل في أحلام مجنونة إلى ذلك الحد! لا يستطيع أحد أن يفهم هذه الأمور، إلّا امرأة. نعم المرأة وحدها قادرة على أن تفهم هذه الأمور يا بطرس ستيفانوفتش! ومما يؤسف له كثيراً أنك لست امرأة، وأنك لا تستطيع أن تصبح امرأة خلال لحظة من الزمان، من أجل أن تفهم...

ـ تريدين أن تقولي على وجه الإجمال إن المرء كلما ساءت حاله كان أشد توقاً إلى شيء آخر. إنني أفهم يا فرفارا بتروفنا، أفهم. مثل ذلك كمثل الدين: فكلما كانت حياة الإنسان شاقة أليمة، وكلما كان الشعب مضطهداً يائساً، كان أكثر استرسالاً في أحلام المكافآت التي سيلقاها في الجنة. فإذا جاء بالإضافة إلى هذا مائة ألف كاهن يتدخلون في الأمر ويضرمون نار هذه الأحلام مزيداً من الإضرام، ويزيدون عليها أفكاراً وتأملات، فعندئذ... إنني أفهمك يا فرفارا بترْوفنا، اطمئني...

ـ ليس هذا هو الأمر تماماً. ولكن قل لي يا بطرس ستيفانوفتش: هل كان

يجب على نيقولاي، من أجل أن يهدّئ نار الأحلام التي استرسلت فيها تلك العضوية المسكينة (لم أستطع أن أفهم لماذا استعملت فرفارا بتروفنا كلمة "العضوية") هل كان يجب عليه أن يسخر منها أيضاً، وأن يعاملها كما كان يعاملها أولئك الموظفون الصغار؟ هل يُعقل حقاً أن ترفض أنت قبول ذلك العطف العميق وتلك الرحمة البالغة وذلك الارتعاش النبيل في جسم نيقولاي كله، حين أجاب كيريلوف بقسوة: "إنني لا أسخر منها" ؟ ألا ما كان أعظمه وأقدسه من جواب!...

دمدم ستيفان تروفيموفتش يقول بالفرنسية:

- "رائع" (بالفرنسية).

- ولاحظْ أنه ليس غنياً إلى الحد الذي تفترضه. ليس هو الغني بل أنا الغنية. ولقد كان في ذلك الأوان لا يطلب مني شيئاً.

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من نفاذ الصبر:

- أفهم، أفهم هذا كله يا فرفارا بتروفنا.

- إنه أنا تماماً. إنني أتعرّف نفسي في نيقولاي. أتعرّف عهد الصبا، وتلك الاندفاعات العنيفة، وتلك الانفجارات... وإذا أتيح لنا أن نتعارف مزيداً من التعارف يا بطرس ستيفانوفتش - وذلك ما أتمناه من جهتي صادقة، لا سيما وإنني مدينة لك بأشياء كثيرة - فلعلك ستفهم عندئذ...

دمدم بطرس ستيفانوفيتش يقول بلهجة مقطَّعة:

- ثقي أنني أنا أيضاً من جهتي...

- ستفهم عندئذ تلك الاندفاعة التي تجرك بعماوتك السمحة الكريمة نحو إنسان لا يستحقك، إنسان غير جدير بك من أية ناحية، إنسان لا يفهمك ولا يني يسومك سوء العذاب، والتي تجعل من هذا الإنسان في نظرك، بالقياس إلى جميع الناس وعلى خلاف رأي جميع الناس، تجسداً للمثل الأعلى الذي تصبو إليه نفسك، وتهفو إليه أحلامك، ففيه تتركز جميع آمالك، فإذا أنت تحبه وتعبده دون أن تدري لماذا، وربما كنت لا تحبه ولا تعبده إلّا لأنه غير جدير بذلك... ليتك تعلم كم تألمت أنا يا بطرس ستيفانوفتش!

حاول ستيفان تروفيموفتش، وكان قلق الهيئة، أن يقع بصره على بصري، ولكنني أشحت وجهي في الوقت المناسب.

ـ وحتى في الآونة الأخيرة، نعم، في الآونة الأخيرة الأخيرة... آه... ما أكبر ذنبي في حق نيقولاي!... إنك لاتستطيع أن تتصور كم عذبوني جميعاً، جميعاً... الأعداء والأوغاد والأصدقاء. حتى إن الأصدقاء عذبوني أكثر من الأعداء. حين تلقيت آخر رسالة خالية من اسم كاتبها، لعلك لا تصدقني يا بطرس ستيفانوفتش، ولكن الحقيقة هي أنني لم أجرؤ أن أعامل بالاحتقار جميع تلك الدناءات... آه... لن أغفر لنفسي هذا الضعف ما حييت، لن أغفره ما حييت...

قال بطرس ستيفانوفتش وقد انتعش فجأة:

ـ سمعت عن تلك الرسائل الخالية من أسماء كاتبيها. ولسوف أكشفهم... اطمئني...

ـ لا تستطيع أن تتخيل المكائد التي حاكوها حولنا هنا. حتى صاحبتنا المسكينة براسكوفيا إيفانوفنا قد عانت منها أيضاً. وماذا كان هدفهم من تعذيبها هي؟

وأضافت فرفارا بتروفنا تقول مخاطبةً براسكوفيا إيفانوفنا منفعلةً انفعالاً لا يخلو مع ذلك من بعض الارتياح الساخر:

ـ لعلني أذنبت اليوم في حقك يا عزيزتي براسكوفيا إيفانوفنا.

فجمجمت براسكوفيا إيفانوفنا تقول كأنما على أسف:

ـ لندع هذا الآن. في رأيي أن الأفضل أن ننتهي من هذه المسألة كلها. لقد أسرفنا في الحديث عنها.

قالت براسكوفيا إيفانوفنا ذلك وعادت ترشق ليزافتا نيقولايفنا بنظرة وجلى. ولكن ليزافتا نيقولايفنا كانت تنظر إلى بطرس ستيفانوفتش.

وهتفت فرفارا بتروفنا تقول:

ـ أمّا تلك المخلوقة المسكينة، تلك المجنونة التي فقدت كل شيء ولم تحتفظ إلّا بقلبها، فإنني أنتوي الآن أن أحتضنها. ذلك واجبي وسأقوم به.

هي منذ الآن في حمايتي.

فصاح بطرس ستيفانوفتش يقول من جديد:

ـ وسيكون هذا من جهتك خيراً عظيماً بمعنى من المعاني. معذرة، إنني لم أنته من كلامي منذ قليل، وعن هذه "الحماية" إنما كنت أنتوي أن أحدثك. تصوَّري أن هذا السيد، هذا السيد لبيادكين الذي ترينه، ما إن سافر نيقوي فسيفولودوفتش (إنني أستأنف سرد القصة من حيث وقفت) حتى تصور أن من حقه أن يتصرف في معاش أخته كاملاً. وقد تصرف فيه فعلاً بحيث لم تر منه قرشاً. لا أدري على وجه الدقة. كيف رتَّب نيقولاي فسيفولودوفتش الأمور في البداية، ولكنه بعد ذلك بسنة، وقد عرف بما حدث، اضطر أن يتخذ إجراءات أخرى. أعود فأقول إنني غير مطلع على التفاصيل، وسيروي لك هو هذه التفاصيل. كل ما أعلمه هو أن الإنسانة التي همَّه أمرها قد وُضعت في دير بعيد، مريح جداً على كل حال، ولكن تحت رقابة حنون. هل تفهمين عني؟ فهل تتصورين ما تخيله السيد لبيادكين؟ لقد جهد بجميع الوسائل أن يكتشف أين خُبّئ مصدر وارداته، أعني أين خُبّئت أخته. حتى إذا توصل إلى معرفة ذلك ـ منذ مدة غير طويلة ـ استردها من الدير، مستنداً إلى حقوق له عليها، وجاء بها إلى هنا رأساً. وهو هنا لا يطعمها، وهو هنا يضربها، ويضربها بجميع الأساليب. فلما تلقى مبلغاً كبيراً من المال من نيقولاي فسيفولودوفتش أخذ يدمن على الشراب، وأخذ يسيء إلى المحسن إليه، وأخذ يطارده بمطالب جنونية، ويهدده بمقاضاته أمام المحاكم إذا لم يوضع المعاش بين يديه رأساً. فهو يرى إذن أن الهبة التي وهبها له نيقولاي فسيفولودوفتش بمحض إرادته، إنما هي ضريبة واجبة الدفع. هل تتخيلين هذا؟ يا سيد لبيادكين، هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح؟

ما إن سمع الكابتن هذا السؤال، وكان حتى ذلك الحين يقف صامتاً خافض العينين، حتى تقدم خطوتين إلى أمام، واصطبغ وجهه بحمرة شديدة، وقال بصوت متقطع:

ـ لقد عاملتني بقسوة يا بطرس ستيفانوفتش!

ـ بقسوة؟ ما معنى هذا؟ ولكن اسمح لي. لنرجئ مسألة القسوة هذه إلى بعد. أمّا الآن فإنني لا أطلب منك إلّا أن تجيبني عن سؤالي الأول: هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح، أم هو غير صحيح؟ إذا كنت ترى أنه كذب فلا شيء يمنعك من أن تعلن ذلك في هذه اللحظة نفسها.

بدأ الكابتن يغمغم متلعثماً فيقول:

ـ أنا... إنك تعلم أنت نفسك... يا بطرس ستيفانوفتش... ولكنه أمسك عن الكلام فجأة..

يجب أن نقول أن بطرس ستيفانوفتش كان جالساً في مقعد، واضعاً ساقاً على ساق، بينما كان الكابتن لبيادكين واقفاً أمامه، على وضع الاحترام والتعظيم.

وكان يبدو أن ترددات الكابتن تزعج بطرس ستيفانوفتش كثيراً، فإذا بالغضب يقبِّض قسمات وجهه فجأة. وها هو ذا يسأله قائلاً وهو يلقي عليه نظرة ذات دلالة:

ـ هل تريد أن تصرِّح بشيء حقاً؟ إذا كنت تريد، فهلمَّ افعل. إننا ننتظر.

ـ إنك تعلم أنت نفسك يا بطرس ستيفانوفتش إنني لا أستطيع أن أقول شيئاً.

ـ لا، لا أعلم. حتى أن هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلاماً عن مانع من هذا النوع. لماذا لا تستطيع أن تقول شيئاً؟

ظل الكابتن صامتاً خافض العينين. قال أخيراً بلهجة جازمة:

ـ اسمح لي أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش.

ـ لا أسمح لك بالانصراف قبل أن تجيب عن سؤالي الأول: هل "كل" ما قلته أنا الآن صحيح؟

أجاب الكابتن بصوت أجش، وهو يرفع عينيه نحو جَلّاده:

ـ نعم.

و كان جبينه مغطى بالعرق.

ـ "كل" شيء صحيح؟

ـ نعم، كل شيء.

ـ أليس لديك أي شيء تضيفه؟ أليس هناك أي شيء لتصححه؟ إذا كنت ترى أننا نظلمك فقل ذلك. احتجَّ. عبِّر جهاراً عن كل استيائك.

ـ لا، ليس عندي شيء أضيفه.

ـ هل هدَّدت نيقولاي فسيفولودوفتش في الآونة الأخيرة؟

ـ كان ذلك... كان ذلك من تأثير الخمرة يا بطرس ستيفانوفتش.

ورفع الكابتن رأسه، وأضاف يقول ناسياً نفسه من جديد:

ـ بطرس ستيفانوفتش، إذا أخذ شرفُ الأسرة والعار الذي يجلل المرء ظلماً، إذا أخذا يصرخان بين الناس، فهل يكون المرء آثماً مذنباً؟

فسأله بطرس ستيفانوفتش وهو يرشقه بنظرة حادة:

ـ ألست الآن سكران يا سيد لبيادكين؟

ـ أنا.. لا.. لست سكراناً .. لم أشرب شيئاً.

ـ إذاً فما معنى هذه العبارات التي تتكلم عن شرف الأسرة والعار الذي يجلل المرء ظلماً؟

ـ أنا لا ألمح إلى أي إنسان. أنا لم أشأ أن أسيء إلى أحد. أنا لم أقصد إلّا نفسي...

كذلك تمتم الكابتن وهو ينهار من جديد.

ـ يخيَّل إليَّ أنك تضايقت من التعابير التي استعملتُها في الكلام عنك وعن سلوكك. إنك سريع التأذي شديد الحساسية يا سيد لبيادكين. ولكن انتظر قليلاً. إنني لم أبدأ الكلام عن سلوكك بالمعنى الحق للكلمة. سأتكلم عنه بعد قليل. نعم، من الجائز أن أبدأ الكلام عن سلوكك، ولكنني لم أقل شيئاً على وجه الإجمال حتى الآن.

ارتعش لبيادكين، ونظر إلى بطرس ستيفانوفتش منقلب الهيئة.

ـ بطرس ستيفانوفتش، الآن فقط إنما أستيقظ!

ـ همْ... وهل أنا الذي أيقظتك؟

ـ نعم يا بطرس ستيفانوفتش... ولقد نمت خلال أربع سنين تحت سماء

مشحونة بالصاعقة. هل يمكن أخيراً أن أنصرف يا بطرس ستيفانوفتش؟

ـ نعم، اللهم إلّا أن يكون رأي فرفارا بتروفنا أن...

لكن فرفارا بتروفنا أسرعت تحرك يدها بإشارة النفي.

فسلَّم الكابتن، وخطا خطوتين، وتوقف، ووضع يده على قلبه، وأراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقله، وهُرع نحو الباب، فإذا هو يجد نفسه أمام نيقولاي فسيفولودوفتش. فتنحى له هذا ليفسح له مجال المرور. فصغَّر الكابتن جسمه تصغيراً شديداً، ولبث واقفاً كالمتجمد، محدقاً إلى الشاب بعينين ساكتين، كأرنب أمام أفعوان ضخم. انتظر نيقولاي فسيفولودوفتش لحظة، ثم أبعده بحركة خفيفة من يده، ودخل الصالون.

7

كان مرحاً وهادئاً كل الهدوء. لعل شيئاً ممتعاً جداً كان قد حدث له ولم يدر في خلدنا نحن. مهما يكن من أمر، فقد كان يبدو مرتاحاً كل الارتياح، راضياً أشد الرضى.

قالت فرفارا بتروفنا تسأله نافذة الصبر:

ـ هل ستغفر لي يا نيقولاي؟

ونهضت تلقاه بحركة نشيطة.

لكن نيقولاي انفجر ضاحكاً. وهتف يقول ببساطة وطيبة:

ـ قدَّرت هذا. توقعته. ولقد كنت أقول لنفسي وأنا في العربة: كان ينبغي لي أن أروي لهم قصة قصيرة، فليس حسناً أنني انصرفت على ذلك النحو... ولكنني حين تذكرت أن بطرس ستيفانوفتش قد بقي عندكم، لم أهتم بعد ذلك.

وكان وهو يتكلم يتفحص وجوهنا بسرعة.

هتفت فرفارا بتروفنا تقول بحماسة:

ـ لقد قصَّ علينا بطرس ستيفانوفتش قصة بطرسبرجية قديمة عن فترة من حياة شاب جامح الخيال عجيب الطبع طائش النزوات، لكنه يظل نبيل

العواطف ذا مشاعر فروسية...

ـ فروسية؟ هل وصلتم إلى هذا الحد؟ على كل حال، أنا أشكر للسيد بطرس ستيفانوفتش تعجّله وتسرّعه هذه المرة.

قال ذلك وبادل بطرس نظرة سريعة، ثم تابع كلامه يقول:

ـ يجب أن تعلمي يا ماما أن بطرس ستيفانوفتش يصالح دائماً بين جميع الناس: ذلك دوره، ذلك مرضه، ذلك جنونه، وأنا أنصحك نصحاً خاصاً في هذا المجال. إني أتخيل ما لا بد أن يكون قد رواه لكم وقصه عليكم مسهباً مطنباً! ذلك أنه يسهب ويطنب حين يروي أمراً من الأمور. إن رأسه أرشيف زاخر. لاحظي أنه، بصفته واقعياً، لايستطيع أن يكذب، وأن الحقيقة أغلى عنده من النجاح... باستثناء بعض الحالات الخاصة طبعاً، ففي تلك الحالات الخاصة يكون النجاح عنده أثمن من الحقيقة.

كان نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يقول هذا الكلام لا ينفك ينظر حواليه. وتابع حديثه يقول:

ـ فها أنت ذي ترين بوضوح يا ماما أنك لست أنت التي يجب تستغفريني، وأن التبعة تقع على عاتقي أنا إذا كان قد ارتُكب عمل جنوني ما. وهذا يدل في آخر حساب على أنني مجنون فعلاً... يجب عليَّ حقاً أن أؤيد السمعة التي شاعت عني هنا...

قال ذلك وقبَّل أمه برقة و حنان. ثم أضاف يقول بصوت ترن فيه نغمة جديدة، قاسية، خشنة:

ـ على كل حال، انتهت القضية الآن. لقد رُويت القصة، فأصبح لا يمكننا أن نعود إليها.

وقد سمعت فرفارا بتروفنا تلك النغمة الجديدة في صوت ابنها، لكن حماستها لم تهبط. بالعكس.

قالت:

ـ ما كنت أنتظر وصولك قبل شهر آخر.

ـ سأشرح لك كل شيء يا ماما طبعاً. أمَّا الآن...

واتجه نحو براسكوفيا إيفانوفنا.

لكن براسكوفيا إيفانوفنا لم تكد تلفت رأسها نحو نيقولاي فسيفولودوفتش. ومع ذلك كان ظهوره قبل نصف ساعة قد صعقها صعقاً كاملاً. غير أن هناك أسباباً أخرى لاضطرابها الآن. ففي اللحظة التي وجد فيها الكابتن نفسه أمام نيقولاي فسيفولودوفتش وجهاً لوجه، كانت ليزا قد أخذت تضحك، ضحكاً بدأ صامتاً ثم ما انفك يشتد شيئاً بعد شيء، وقد اصطبغ وجهها بحمرة شديدة. إن التضاد بين هذا المرح وبين تجهم وجهها منذ حين كان تضاداً يخطف البصر ويفجأ الانتباه. وبينما كان نيقولاي فسيفولودوفتش يتحدث مع فرفارا بتروفنا، أهابت ليزا مرتين بصاحبها مافريكي نيقولايفتش أن يدنو منها كأنها تريد أن تقول له شيئاً بصوت خافت. ولكن ما يكاد مافريكي نيقولايفتش يميل نحوها حتى تنطلق في ضحك صاخب مجلجل، حتى ليمكن أن يظن أنها إنما تضحك من المسكين مافريكي نيقولايفتش. وكان واضحاً من جهة أخرى أنها تبذل جهوداً في سبيل أن تخنق ضحكها، وما تنفك تحمل منديلها إلى شفتيها.

وحيَّاها نيقولاي فسيفولودوفتش بهيئة بريئة صريحة. فأسرعت تجيبه:

ـ اغفر لي. أرجوك. إنك... إنك قد رأيت مافريكي نيقولايفتش ولا شك. آه... إنه ليس مباحاً للمرء أن يكون طويلاً هذا الطول كله يا مافريكي نيقولايفتش!

وطفقت تضحك. ولقد كان مافريكي نيقولايفتش طويل القامة فعلاً، لكن طوله ليس مفرطاً البتة.

ودمدمت تقول وهي تحاول أن تسيطر على نفسها:

ـ هل وصلت منذ مدة طويلة؟

كانت تبدو خجلى مشوشة، لكن عينيها تسطعان.

أجابها نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر إليها بانتباه:

ـ منذ ساعتين تقريباً.

يجب أن أذكر أن وضعه كان يتسم بأقصى التهذيب والتحفظ، ولكن إذا

غضضنا النظر عن هذا التهذيب، وجب أن نلاحظ أن وجهه كان يعبِّر عن عدم الاكتراث بل وعن عدم الشعور.

ـ أين ستسكن؟

ـ هنا.

وكانت فرفارا بتروفنا تنظر أيضاً إلى ليزا بانتباه، غير أن فكرة قد راودتها بغتةً. فسألت ابنها:

ـــ فأين كنت إذن يا نيقولاي؟ أين قضيت هاتين الساعتين؟ إن القطار يصل في الساعة العاشرة.

ـ أولاً أوصلت بطرس ستيفانوفتش إلى عند كيريلوف. و كنت قد التقيت به في ماتفايفو (على مسافة ثلاث محطات من هنا)، فترافقنا في عربة واحدة من القطار.

تدخل بطرس ستيفانوفتش فوراً يقول:

ـ كنت أنتظر في ماتفايفو منذ الفجر. كانت العربات الأخيرة من القطار قد خرجت عن السكة الحديدية ليلاً، ولولا قليل لتكسرت سيقاننا.

هتفت ليزا صائحة:

ـ لتكسرت سيقانكم؟ ماما، ماما، ألم نكن نريد أن نذهب نحن إلى ماتفايفو في الأسبوع الأخير؟ لو ذهبنا لتكسرت سيقاننا!...

قالت براسكوفيا إيفانوفنا وهي ترسم إشارة الصليب:

ـ يا لطيف!

ـ ماما، ماما، ماما العزيزة! لا ترتاعي إذا تكسَّرت ساقاي. قد يحدث لي هذا بسهولة، مادمت تقولين أنت نفسك أنني أعدو بحصاني عدواً سريعاً كمجنون. يا مافريكي نيقولايفتش، هل ستظل تصحبني حين تتكسر ساقاي؟

وعادت تضحك من جديد. ثم تابعت كلامها تقول:

ـ إذا حدث لي هذا، فلن أسمح لأحد غيرك أن يصحبني، ثق بذلك. لنتصور أن ساقاً واحدة من ساقيَّ كُسرت... هيَّا، كن لطيفاً، قل لي أنك ستعد ذلك سعادة.

قال مافريكي نيقولايفتش بهيئة جادة:
- يا لها من سعادة أن تُكسر ساق المرء!
- في مقابل ذلك، ستقودني دائماً، أنت وحدك، ولا أحد سواك!
- حتى في هذه الحالة ستظلين أنت التي تقودينني يا ليزافتا نيقولايفنا.
هتفت ليزا تقول مرتاعة:

يا إلهي! أراد أن يلعب بالألفاظ! مافريكي نيقولايفتش، إنني أحظر عليك أن تندفع في هذا الطريق. ما أشد أنانيتك! ومع ذلك فأنا مقتنعة، وهذا يشرِّفك، بأنك تذم نفسك عامداً. بالعكس: حين أفقد أنا إحدى ساقيَّ فلن تكف أنت عن أن تؤكد لي أنني أصبحت بذلك أحلى وألذ. ولست أجد ثمة إلّا صعوبة واحدة هي أنك مسرف في الطول، وأنا حين سأفقد إحدى ساقيَّ سأكون قصيرة جداً. فكيف يمكنك والحال هذه أن تقودني من ذراعي؟ ستكون صحبتنا مضحكة.

قالت ذلك وهزَّتها ضحكة عصبية. لقد كانت مزحاتها وتلميحاتها باهتة، ولكن كان واضحاً أنها لا يخطر ببالها أن تحدث في من يسمعونها أثراً كبيراً.

همس بطرس ستيفانوفتش يقول لي:
- هذه نوبة عصبية. إليَّ بكأس ماء. بسرعة.

ولقد صدق تقديره. فما هي إلّا دقيقة واحدة حتى اضطرب الجميع. وجيء بالماء. وشدت ليزا أمها إلى حضنها، وغمرت وجهها بالقبل، وطفقت تبكي على كتفها، ثم ارتدّت إلى وراء وتأملتها من أمام، وعادت تضحك. وأخذت براسكوفيا إيفانوفنا تبكي قليلاً هي أيضاً. وأسرعت فرفارا بتروفنا تقتادهما كلتيهما إلى شقتها الخاصة من الباب الصغير الذي دخلت منه داريا بافلوفنا. ولكن غيابهن لم يدم طويلاً، فقد عدن إلينا بعد بضع دقائق...

أحاول أن أستحضر الآن جميع تفاصيل نهاية ذلك الصباح الذي لا يُنسى. فأذكر أننا حين صرنا وحدنا بغير سيدات (إلا داريا بافلوفنا التي لم تترك مكانها)، طاف نيقولاي فسيفولودوفتش على جمعنا، وصافح كل واحد منا، باستثناء شاتوف الذي ظل جالساً في ركنه يطرق إلى الأرض

مزيداً من الإطراق شيئاً بعد شيء. وشرع ستيفان تروفيموفتش في حديث فكه جداً مع نيقولاي فسيفولودوفتش، ولكن نيقولاي أسرع يتركه ليتجه نحو داريا بافلوفنا. لكنه ما إن صار في منتصف الطريق حتى استوقفه بطرس ستيفانوفتش، وجرّهَ نحو النافذة بالقوة تقريباً وأخذ يكلمه بصوت خافت. لعل الحديث كان يدور على شيء هام جداً، إذا صدق ما عبَّر عنه وجه بطرس ستيفانوفتش وعبَّرت عنه حركاته وإشاراته. وكان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي إليه ذاهل الهيئة عديم الشعور، مبتسماً ابتسامةً مصنوعة. ثم حرك يده بإشارة تململ، وظهر عليه أنه يريد التخلص من محدِّثه. حتى إذا عادت السيدات ابتعد عن النافذة. جلست ليزا في مكانها من جديد، وأصرَّت فرفارا بتروفنا على البقاء نحو عشر دقائق قبل الخروج، لأن الهواء في الخارج أقوى من أن تحتمله أعصابها المريضة. وكانت فرفارا بتروفنا تسعى حول الفتاة بمداراة ظاهرة ورعاية واضحة، ثم جلست إلى جانبها. وسرعان ما هُرع بطرس ستيفانوفتش قرب فرفارا بتروفنا وجعل يحدثها حديثاً زاخراً بالحرارة. وعندئذ إنما اتجه نيقولاي فسيفولودوفتش أخيراً نحو داريا بافلوفنا بخطى هادئة، فلما رأته داريا يقترب منها اضطربت في كرسيها ثم نهضت وقد استولى عليها ارتباك واضح واشتعل خداها احمراراً.

قال وقد طاف بوجهه تعبير غريب:

ـ أظن أن في الإمكان تهنئتك... أم أن الآوان لم يحن بعد؟

فأجابته داشا ببضع كلمات لم أستطع أن أميِّزها.

وتابع نيقولاي كلامه فقال وهو يرفع صوته:

ـ اغفري لي قلة تكتمي. ولكنني قد أُبلغت بالأمر صراحة. هل تعلمين ذلك؟

قالت: ـ نعم أعلم.

قال ضاحكا: ـ أرجو مع ذلك أن لا تفسد عليك تهنئاتي شيئاً، وإذا كان ستيفان ترفيموفتش...

فقاطعه بطرس ستيفانوفتش قائلاً على حين فجأة:

ـ لماذا هذه التهنئات؟ بأي شيء يهنئك يا داريا بافلوفنا؟ هه... أتراها تهنئات بخطبتك؟ إن حمرة وجهك تدل على أنني حزرت. وفعلاً، بماذا عسى يهنئ المرء آنساتنا الجميلات الفاضلات إن لم يهنئهن بالخطبة؟ طيب... اقبلي إذن تهنئاتي أنا أيضاً، إذا كنت قد حزرت، وادفعي الرهان: تذكري أنك راهنتني حين كنت في سويسرا على أنك لن تتزوجي أبداً.. آ.. نعم.. بمناسبة سويسرا... ماذا خطر ببالي؟ أوه... ها أنذا كدت أنسى الأمر مع أنه أحد أسباب رحلتي...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك والتفت نحو أبيه بحركة سريعة وقال يسأله:

ـ وأنت، متى تسافر إلى سويسرا؟

ـ أنا... إلى سويسرا؟

كذلك صاح ستيفان تروفيموفتش مدهوشاً مرتبكاً.

فقال له ابنه:

ـ كيف؟ ألا تسافر؟ ولكنك تتزوج... ألم تكتب لي ذلك؟

هتف ستيفان تروفيموفتش يقول:

ـ بطرس!...

ـ ماذا؟ ماذا تريد من بطرس؟ لقد جئت خصيصاً لأعلن لك أنني لا أعارض هذا الزواج، مادمت حريصاً ذلك الحرص كله على أن تعرف رأيي بأقصى سرعة ممكنة. وإذا كان يجب "إنقاذك" (كذلك تابع كلامه متعجلاً) كما كتبت إليَّ ذلك متوسلاً أن أسارع لإغاثتك ونجدتك فإنني في خدمتك. هل صحيح أنه سيتزوج يا فرفارا بتروفنا؟ (كذلك سأل فرفارا بتروفنا وهو يلتفت إليها بسرعة). أرجو أن لا أكون قليل الكتمان فاشياً للأسرار. لقد كتب يقول لي هو نفسه أن المدينة كلها على علم بالأمر، وإن الناس يهنئونه من كل حدب وصوب، حتى إنه من أجل أن يتحاشى التهنئات أصبح لا يخرج من البيت إلّا في الليل. إن رسالته في جيبي. ولكن هل تصدقين يا فرفارا بتروفنا؟ أنني من جهتي لم أفهم من الأمر شيئاً. قل لي نقطة واحدة يا ستيفان تروفيموفتش: أيجب مثلاً أن أهنئك أم أن "أنقذك" ؟ لن تصدقي يا فرفارا

بتروفنا! فهو تارةً يبدو مفتوناً، ثم إذا هو بعد سطرين يهوي إلى قاع الكمد واليأس. في البداية يأخذ يستغفرني. صحيح أنهم جميعاً هكذا... ومع ذلك يجب أن أقول هذه الحقيقة: إنه طوال حياته ـ تصوري! ـ لم يرني إلّا مرتين، وبالمصادفة! وها هو ذا يراني الآن مرةً ثالثة عشية زواجه. إنه يخاف أن يقصِّر فيما لا أدري من واجبات تقع على عاتقه، فيضرع إليَّ من على بعد ألف فرسخ أن لا أزعل وأن أمنَّ عليه بموافقتي. لا تنزعج ياستيفان تروفيموفتش، أرجوك. إنك تنتمي إلى عصرك، و إن لي فكراً واسعاً، فلست أحكم عليك، حتى أن هذا يشرفك، إلخ . ولكن الأمر الأساسي هو أنني لا أفهم جوهر القضية، إنك تلمِّح في رسالتك إلى ما لا أدري من "خطايا وآثام ارتكبت في سويسرا". لقد كتبت إليَّ تقول: "سوف تتزوج بسبب خطايا أو من أجل خطايا غيري"... لا أتذكر العبارة تماماً. المهم أن هناك كلاماً عن خطايا. إنه يقول: "إن الفتاة جوهرة، لؤلؤة" ، وإنه "لا يستحقها" طبعاً. ذلك هو أسلوب جيله. ولكنه بسبب ما لا أدري من آثام أو ظروف مضطر أن "يضع على رأسه إكليل الزواج وأن يسافر إلى سويسرا"... فهلمَّ "اترك كل شيء وأسرع إلى انقاذي". هل تفهمون شيئاً من هذا كله؟ ولكن... ولكنني أرى وأنا أنظر إلى ما تعبِّر عنه وجوهكم (قال ذلك وكان ينظر إلى من حوله مبتسماً ابتسامة بريئة، والرسالة في يده)... إنني على عادتي قد ارتكبت غلطة... بسبب صراحتي الحمقاء أو بسبب تسرعي كما يقول نيقولاي فسيفولودوفتش. لقد كنت أحسب أننا هنا بين أصدقاء، أقصد بين أصدقائك ياستيفان تروفيموفتش، بين أصدقائك... ذلك أنني أنا غريب عنكم... وإني لأرى... إني لأرى أنكم تعرفون شيئاً، وأنني لا أعرف أنا هذا الشيء...

وظل ينظر حواليه.

سألته فرفارا بتروفنا وهي تتقدم نحوه:

ـ هل كتب إليك ستيفان تروفيموفتش بالنص أنه يتزوج ليغطي خطايا غيره، خطايا ارتكبت في سويسرا، وإن عليك أن "تنقذه" ؟

كان وجه فرفارا بتروفنا أصفر، وكانت شفتاها تختلجان.

قال بطرس ستيفانوفتش بسرعة ما تنفك تشتد، متظاهراً بأنه قد تنبَّه إلى خطورة الموقف:

ـ أقصد... إذا كان هناك شيء لم أفهمه حق فهمه، فالذنب ذنبه هو طبعاً. لماذا يكتب بهذه الطريقة؟ إليك الرسالة. إن رسائله طويلة طولاً لا ينتهي يا فرفارا بتروفنا، وهو لا يكل من الكتابة ولا ينقطع عنها. إنني منذ شهرين أو ثلاثة أشهر أتلقى منه الرسالة تلو الرسالة، وأعترف بأنني كنت أحياناً أن لا أقرأها حتى نهايتها. اغفر لي هذا الاعتراف يا ستيفان تروفيموفتش، ولكن يجب أن تسلِّم لي بأن هذه الرسائل رغم أنها موجَّهة إليَّ إنما كتبتها للأجيال المقبلة، بحيث لا بد أن تستوي عندك الأمور... هيَّا، هيَّا، لا تزعل، لا داعي إلى أن يكون بيننا حرج. ولكن تلك الرسالة يا فرفارا بتروفنا، تلك الرسالة إنما قرأتها إلى آخرها. فهذه "الخطايا"، "خطايا الغير" هذه، لا شك أنها خطايانا الصغيرة نحن، وهي خطايا صغيرة جداً. أراهن على ذلك. لكننا بنينا منها قصة كاملة أتاحت لنا أن نستغيث بأنبل العواطف، بل إن هذا بعينه هو الذي حضنا على بنائها، على بناء تلك القصة. ذلك أن هناك في حساباتنا شيئاً لا يستقيم، شيئاً غير سليم. يجب أن نعترف بذلك. إننا نحب ورق اللعب كثيراً، كما تعلمين ... ولكن هذا الكلام زائد لا محل له، نعم زائد لا محل له، معذرة، إنني ثرثار مكثار، و لكنني أحلف لك أنه أخافني يا فرفارا بتروفنا، وإنني تأهبت "لإنقاذه". حتى لقد شعرت في النهاية بأنني مذنب. ولكن أأنا أضع له السكين على العنق؟ أأنا دائن لا يرحم؟ وهو يتكلم في رسالته أيضاً عن مهر ما. ولكن... عجيب!... هل ستتزوج حقاً ياستيفان تروفيموفتش؟ جائز أيضاً أن لا يكون هذا كله إلّا جملاً منمقة. وذلك من طبيعته أيضاً... آه... فرفارا بتروفنا، أنا واثق بأنك ترين فيَّ الآن رأياً سيئاً، بسبب طريقتي في الكلام خاصة...

فقالت فرفارا بتروفنا بلهجة حانقة:

ـ بالعكس، بالعكس، إنني أرى أنك إنما تتكلم لأن صبرك قد نفد، ولا شك أن هناك أسباباً تدعوك إلى الكلام.

كانت فرفارا بتروفنا قد أصغت بفرح خبيث إلى الثرثرة "الساذجة" التي استرسل فيها بطرس ستيفانوفتش الذي كان واضحاً أنه يمثل دوراً. (أمَّا ما هو ذلك الدور، فإنني لم أكن قد عرفته بعد، ولكن كان واضحاً أنه يمثِّل، تمثيلاً فيه كثير من المبالغة).

وتابعت فرفارا بتروفنا كلامها فقالت:

ـ بالعكس، إنني ممتنة كثيراً لأنك تكلمت. فلولاك لما عرفت شيئاً. لقد تفتحت عيناي لأول مرة منذ عشرين سنة. يا نيقولاي فسيفولودوفتش، لقد قلت منذ برهة أنك قد أُبلغت أنت أيضاً نبأ عن الزواج صراحة. فهل كتب إليه ستيفان تروفيموفتش بهذا الأسلوب نفسه؟

ـ تلقيت منه رسالة بريئة.. و.. و.. هي... رسالة نبيلة جداً.

ـ أرى أنك تتردد، وأنك تتخير تعابيرك. هذا كافٍ.

والتفتت فرفارا بتروفنا نحو ستيفان تروفيموفتش فجأة وقد أخذت عيناها تقدح شرراً، وقالت له:

ـ ياستيفان تروفيموفتش، إنني أسألك خدمة كبيرة جداً. أرجو أن تتركنا حالاً، وأن لا تضع قدميك على عتبة هذا الباب يوماً بعد الآن.

أرجو من القارىء أن يتذكر "حميَّاها" الأخيرة التي لم تكن قد تبددت بعد. ويجب أن نقول أيضاً أن ستيفان تروفيموفتش كان مذنباً بالفعل. غير أن الشيء الذي أذهلني أكثر من كل ما عداه هو وقار وضعه ورصانة موقفه سواء تجاه ما كشف عنه بتروشا الذي لم يحاول حتى أن يقاطعه، أو تجاه "اللعنة" التي صبتها عليه فرفارا بتروفنا. من أين أتى بقوة النفس هذه؟ لكنني أدركت أنه قد جُرح جرحاً بالغاً عميقاً منذ اللحظة الأولى التي استقبل فيها بتروشا، ولا سيما من طريقة بتروشا في التخلص من عناقه. كان الألم في قلبه هذه المرة عميقاً "حقيقياً"، في نظره هو على الأقل، غير أن ذلك الألم قد انضاف إليه ألم آخر: شعوره بأنه تصرف تصرفاً فيه جبن وحقارة. لقد اعترف لي بذلك فيما بعد بصراحة تامة .والألم "الحقيقي"، المؤكد، يمكن أن يبث الشجاعة في أكثر الناس خفة وطيشاً، ولو إلى حين. بل أكثر من ذلك إن الألم الحقيقي يمكن

أن يهب ذكاءً لغبي، إلى حين طبعاً. تلك واحدة من مميزات الألم. فإذا صدق هذا ففي وسعكم أن تتخيلوا التبدلات التي لا بد أنها حدثت في نفس إنسان مثل ستيفان تروفيموفتش. إن التبدل يكون عندئذ تحولاً كاملاً، لكنه مؤقت بطبيعة الحال.

انحنى ستيفان تروفيموفتش أمام فرفارا بتروفنا بوقار دون أن ينطق بكلمة واحدة، (وهل كان يمكنه أن يفعل غير هذا على كل حال)، واتجه نحو الباب، لكنه لم يملك أن يمنع نفسه من التوقف أمام داريا بافلوفنا. ويظهر أن داريا بافلوفنا كانت تتوقع ذلك، فها هي ذي ترتاع أشد الارتياع، وتقول له مادةً إليه يدها كأنها تريد الإسراع في تحذيره:

ـ أرجوك يا ستيفان تروفيموفتش، لا تقل شيئاً (وكان وجهها يعبِّر عن الألم)... كن على ثقة بأنني ما زلت أضمر لك نفس الاحترام... وإنني أقدرك كما كنت أقدرك من قبل... واحتفظ برأيٍ حسنٍ فيَّ يا ستيفان تروفيموفتش، فإنني أحرص على هذا كثيراً.

فانحنى ستيفان تروفيموفتش يحييها تحيةً عميقة.

قالت فرفارا بتروفنا تختم الحديث بلهجة فيها أبهة:

ـ أنت حرة يا داشا. إنك تعلمين أن اتخاذ القرار في هذا الأمر هو من شأنك أنت. لقد كنت دائماً حرة، وما تزالين حرة، و ستبقين إلى الأبد حرة.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يلطم جبينه:

ـ أف... الآن فهمت كل شيء. ما أسوأ وضعي إذن! معذرةً يا داريا بافلوفنا. أرجو أن تغفري لي...

وأضاف يقول وهو يلتفت نحو أبيه ستيفان تروفيموفتش:

ـ انظر إلى أي وضع دفعتني، وعلى أي فعل حملتني!

قال ستيفان تروفيموفتش بألم كبير:

ـ بطرس، في إمكانك أن تكلمني بغير هذه الطريقة. ألا ترى معي هذا الرأي يا صديقي؟

قال بطرس وهو يحرك ذراعيه:

ـ لا تصرخ، أرجوك. صدِّق أن مردَّ ذلك إلى أعصابك الهرمة المريضة، وليس يجديك الصراخ شيئاً. كان عليك أن تدرك أنني سأتكلم في هذا الموضوع فوراً، فلماذا لم تنبهني؟ لماذا لم تحذِّرني؟

ألقى عليه ستيفان تروفيموفتش نظرة حادة نافذة، وقال له:

ـ بطرس، هل يُعقل، وأنت المطّلع هذا الاطلاع كله على مايجري هنا، أن لا تكون قد علمت شيئاً ولا سمعت شيئاً عن هذه القضية؟

ـ انظروا إلى هؤلاء البشر! لست إذن ابنه فحسب، بل أنا أيضاً ابنه السيء الخبيث! هل تسمعين ما يقوله يا فرفارا بتروفنا؟

وأخذ الجميع يتكلمون في آن واحد معاً. ولكن في تلك اللحظة إنما حدث حادث لا شك في أن أحداً لا يمكن أن يكون قد توقعه.

8

يجب أن أقول قبل كل شيء إن ليزافتا نيقولايفنا قد بدا عليها منذ دقيقتين أو ثلاث دقائق أن اضطرابها عاد إليها واستبد بها. فهي تبادل أمها ومافريكي نيقولايفتش كلماتٍ سريعة بصوت خافت. إن وجهها ينم عن قلق وحزم في آن واحد. وها هي ذي أخيراً تنهض متعجلةً الانصراف، وتومئ بإشارة تدل على نفاد الصبر، لأمها التي هبَّ مافريكي نيقولايفتش يساعدها على ترك مقعدها. ولكن كان مقرراً أن لا تنصرفا قبل أن تريا كل شيء حتى النهاية.

إن شاتوف الذي كان قد نُسي تماماً في ركنه (قرب ليزافتا نيقولايفنا جداً)، والذي لعله كان هو نفسه لا يعرف لماذا بقي هناك ولماذا لا ينصرف، قد نهض على حين فجأة، فاجتاز الغرفة كلها بخطى بطيئة لكنها ثابتة، واتجه نحو نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر إليه وجهاً لوجه.

رآه نيقولاي ستيفانوفتش يدنو منه من بعيد فابتسم ابتسامة خفيفة. ولكن حين وصل شاتوف إلى قربه كفَّ عن الابتسام.

حتى إذا وقف شاتوف أمامه وهو ما يزال صامتاً دون أن يحوِّل عنه عينيه، أدرك الجميع أن شيئاً يحدث، وصمتوا، حتى بطرس ستيفانوفتش.

ووقفت ليزا وأمها في وسط الصالون جامدتين. وانقضت على هذه الحال بضع ثوان. وها هي ذي الدهشة المزدرية التي يعبر عنها وجه نيقولاي فسيفولودوفتش يحل محلها غضب، وها هو ذا يقطب حاجبيه، ثم فجأة...

ثم فجأةً يرفع شاتوف يده الطويلة الثقيلة ويهوي بها على وجه نيقولاي فسيفولودوفتش بكل ما أوتي من قوة، فيترنح ستافروجين من قوة الضربة.

ولقد هوى شاتوف بضربته على نحو خاص، لا كما يصفع أحد أحداً على وجهه (إذا جاز استعمال هذا التعبير): أي لم يضربه براحة اليد بل باليد مقبوضة مشدودة. وكانت يده ضخمة ثقيلة قوية العظام مغطاة بشعر أحمر وبقع حمراء. فلو سقطت هذه الضربة على الأنف لهشمته حتماً، لكن شاتوف أنزل ضربته على الخد، وانزلقت الضربة على الطرف الأيسر من الشفتين وعلى الأسنان العليا فسرعان ما نزف الفم دماً.

دوَّت صرخة أطلقتها فرفارا بتروفنا، إذا لم يخطئ ظني. لست أتذكر على وجه الدقة، إذ لم يلبث الصمت أن ساد الجوَّ من جديد: لقد أصبحنا كالمتجمدين من الدهشة. والمشهد كله لم يدم إلّا نحو عشر ثوان على كل حال.

غير أن أشياء كثيرة جداً قد حدثت خلال هذه الثواني.

يجب أن أذكر القارئ بأن نيقولاي فسيفولودوفتش له طبيعة من تلك الطبائع التي لا تعرف الخوف. إنه قادر، في مبارزة مثلاً، على أن يواجه رصاص خصمه بهدوء كامل ليسدد إليه بعد ذلك فيقتله بهدوء وحشي ضارٍ. ولو صفعه أحد فما أظن أنه يطلب المعتدي إلى المبارزة، وإنما يقتله على الفور. نعم إن له طبيعة من تلك الطبائع التي ترتكب القتل مدركةً فعلتها، لا منقادةً لعماوة الغضب. بل إنني لأعتقد أنه لم يعرف في حياته اندفاعات الحنق الشديد تلك التي تحرمنا من إمكان أي تفكير أو تأمل. ففي نوبات السخط التي كانت تستولي عليه أحياناً كان يستطيع دائماً أن يبقى مسيطراً على إرادته، وكان يدرك إذن أنه حين يقتل رجلاً في غير مبارزة فهو لا يستطيع أن يفلت من عقوبة السجن غير أن هذه الفكرة ما كان لها بأية حال

من الأحوال أن تمنعه من قتل الرجل الذي يكون قد أهانه، بغير أي تردد.

لقد درست طبع نيقولاي فسيفولودوفتش في هذه الآونة الأخيرة كثيراً، فأصبحت بفضل تضافر ظروف خاصة أعرف عنه وقائع كثيرة في هذه الساعة التي أكتب فيها عنه. إنني أشبِّهه ببعض شخصيات الزمان الماضي التي ما تزال ذكراها الأسطورية باقية بيننا حتى الآن. يُحكى مثلاً أن الديسمبري "لـ... ن"[1] كان طوال حياته يبحث عن الخطر، وأنه كان يتلذذ بهذا الإحساس الذي أصبح لديه احتياجاً حقيقياً. فحين كان شاباً كان يقتل في مبارزة لكلمة نعم أو كلمة لا. وفي سيبيريا كان يصطاد الدب بغير سلاح إلّا سكيناً، وكان يتسلى بأن يطارد في الغابات السجناء الهاربين الذين يجب أن نصفهم - عابرين - بأنهم أشد خطراً على الحياة من الدببة. مما لا شك فيه أن أولئك الأشخاص الأسطوريين كانوا يعرفون الخوف، بل ولعلهم كانوا يحسونه بقوة خاصة، وإلا لعاشوا حياة أكثر مسالمة وهدوءاً وموادعة، ولما قلبوا الإحساس بالخطر إلى حاجة طبيعية فيهم. وواضح أن الشيء الذي كان يثير حماستهم وحمياهم إنما هو الانتصار على ذلك الخوف. إن فرحم بالظفر والإحساس بقوتهم ليس لهما حدود. ذلكم ما كان يفتنهم ويخلب ألبابهم. إن "لـ... ن" ذاك نفسه، قد عرف الجوع قبل نفيه إلى سيبيريا، وعرف الحاجة إلى جني خبزه بعرق جبينه، لا لشيء إلّا لأنه رفض الخضوع للمطالب التي كان يريد أبوه الغني أن يفرضها عليه وكان هو يعدها ظالمة غير عادلة. كان إذن قد تصور كفاح الحياة في صور شتى، وكان قد عرف قوة مقاومته وقوة شكيمته لا في صيد الدب وفي المبارزات فحسب.

---

(1) هو ميشيل لونين (1787 ـ 1845) الضابط الذي كان أحد متمردي ديسمبر 1825. وقد نفي إلى سيبريا ومات فيها. لقد قام ديسمبري آخر هو سفستونوف بوصف طبع لونين. وذلك حين عاد من سيبريا سنة 1856، ولا شك أن دوستويفسكي قد اطلع على مذكرات هذا الديسمبري التي أودعت في "الأرشيف الروسي" عام 1871. يجب أن نشير هنا إلى اسم الديسمبرين كان يطلق على أعضاء جمعيات سرية تشكلت في روسيا في نحو نهاية حكم الكسندر الأول. فلما مات العاهل حاولوا في 14 ديسمبر 1825 تحريك جيش سان بطرسبرج. ولكن نيقولا الأول الذي خلف الاسكندر الأول استطاع أن يسحق الثورة. شنق خمسة منهم، ونُفي الباقون إلى سيبيريا.

لكـن ذلـك كلـه كان يجـري فـي زمـان بعيـد جـداً، والطبيعـة العصبيـة، المعنيـة المختلفـة، التـي يتصـف بهـا رجال اليـوم، لا تشـعر حتـى بالحاجة إلـى هـذه الإحساسـات البسـيطة القوية التـي كان يبحـث عنها ويسـعى إليها الرجـال المتحركـون الفعالـون الذيـن عرفهم الزمـان القديم. لعـل نيقولاي فسـيفولودوفتش أن ينظر إلى "لـ... ن" ذاك نظرة متعالية، بل متعالية، بل لعله يعده رجلاً متنفخاً وديكاً مشاكساً يحب القتال، لكنه لا يقول هذا إلّا بينه وبين نفسـه دون أن يعلن هذا الحكم جهاراً. إن نيقولاي فسـيفولودوفتش قد يقتل خصمـاً فـي مبارزة، وقـد يجابه دبـاً عند الحاجة، وقـد يقاتل قاطـع طريق إذا تعـرض له، وهـو يحقق في هذا كله انتصـارات لا تقل عن انتصـارات "لـ... ن" ويبرهـن على شـجاعة لا تقل عن شـجاعة "لـ...ن" ولكـن دون أن يجني مـن ذلك ليلـة لذة، وإنما يقوم بهـذه الأعمال كلها برخاوة وتواتر وكسـل بل وضجـر، كمن يمتثل لضـرورة مزعجة لا بد منها. ومع ذلك فقد كان نيقولاي فسـيفولودوفتش أشـد قسـوة وأعمق شـراً من "لـ... ن". لكن شـره فاتر بارد هادئ، بل هو شـر "عاقل" إن صح التعبير، وهو إذن شـر أدعى إلى الإشمئزاز وأبعـث على الشـعور بالهول من أي شـر آخر. أكـرر مرة أخـرى: لقد عددته حينـذاك، وما زلـت أعده الآن (بعد أن أنتهى كل شـيء علـى وجه الإجمال) رجـلاً قـادراً، إذا هو تلقى صفعـةً أو إهانة مماثلة، أن يقتـل المعتدي عليه في الحال دون أن يطلبه إلى مبارزة.

ومـع ذلـك فقد تصرف عندئـذ تصرفاً مختلفاً كل الإختـلاف، جمَّدنا من الدهشة جميعاً.

فمـا إن نصـب قامته بعـد أن انحنى انحنـاء مخجلاً بتأثيـر الضربة، ما إن انقطـع صـوت اللكمـة الفظيعـة الرهيبـة ـ إن صـح التعبير ـ عـن الترجع في آذاننا، حتى أمسك نيقولاي فسيفولودوفتش صاحبنا شاتوف من كتفيه بيديه. ولكنه سـرعان ما عاد يسـحب يديـه في نفس اللحظة تقريبـاً، ويضعهما وراء ظهـره. كان صامتاً ينظر إلى شـاتوف وقد شـحب لونه حتـى صارت صفرته أشـبه ببياض. ولكن ما أعجب ما لاحظناه: لكأن نظرته أخذت تنطفئ حدتها

شـيئاً بعد شـيء، فما انقضت عشـر ثوان حتى كانت عيناه باردتين، هادئتين. لسـت أكذب. إنني متأكد مما أقول. كل ماهنالك أن لون وجهه أصبح شاحباً شـحوباً رهيباً. إنني أجهل ما حدث في نفســه طبعاً: فأنا لم أر منه إلّا الظاهر. يخيَّل إليَّ أنه إذا أوتي إنسانٌ أن يقبض على قضيب من حديد محمرٍ من النار وأن يظل ممسكاً به ليمتحن قدرته على الاحتمال، وإذا تمكن هذا الإنسان أن يحقق النصر بعد أن قاوم الألم الرهيب خلال عشر ثوان، فإن ما يعانيه يكون شبيهاً بما تحمّله نيقولاي فسيفولودوفتش أثناء تلك الثواني العشر.

وكان شـاتوف أول من خفض بصره. وكان واضحاً أنه إنما خفض بصره لأنـه اضطر إلى ذلك اضطراراً. ثـم اسـتدار بهـدوء، واتجه نحو الباب، ولكن بخطوة مختلفة عن خطوته التي سـار بها من قبل. انصرف بغير جلبة، مقوَّس الظهر، داسّــاً رأسـه في كتفيه، كأنـه يفكر تفكيراً عميقاً. حتـى أنني أعتقد أنه دمدم يقول بضع كلمات. كان يتقدم محاذراً، محاولاً أن لا يصدم شـيئاً، وأن لا يقلب شـيئاً. حتى إذا وصل إلى الباب شـقّـه شـقاً صغيراً بحيث اضطر أن يخـرج مواربـاً حتى يسـتطيع أن ينسـل منـه. وفيما كان يخـرج لاحظت كتلة الشعر التي كانت منفوشة على جمجمته، لاحظتها خاصة.

وعندئـذ دوَّت صرخـة رهيبـة سـبقت جميـع الصرخـات. رأيـت ليزافتا نيقولايفنا تمسـك أمها من كتفها، وتمسـك مافريكـي نيقولايفتش من ذراعه وتبذل جهوداً كبيرة عنيفة لتجرهما وراءها إلى خارج الغرفة، ولكنها أطلقت مـن صدرهـا صرخة قويـة على حين فجأة، وسـقطت على الأرض مسـتلقية مغشياً عليها. يبدو لي أنني ما أزال أسمع اصطدام قفا رأسها بالسجادة.

الجزء الثاني

الفصل الأول

الليل

1

انقضى أسبوع. الآن وقد انتهى كل شيء، في الساعة التي أكتب فيها هذه القصة، أصبحنا نعرف الحقيقة. أمَّا في ذلك الحين فقد كنا نجهلها. لذلك كانت أشياء كثيرة تبدو لنا عجيبة جداً. في الآونة الأولى لزمنا البيت أنا وستيفان تروفيموفتش، مكتفين بملاحظة الأحداث من بعد، بشيء من الخشية. ومع ذلك كنت أخرج من حين إلى حين، وأنقل إلى صديقي كما كنت أفعل في الماضي، ما أستطيع أن أصل إلى جمعه من معلومات ما كان له أن يستغني عنها.

من نافل القول أن أذكر أن أغرب الشائعات قد سرت في المدينة بشأن الصفعة، وإغماء ليزا، والأحداث الأخرى التي وقعت في ذلك اليوم الذي لا يُنسى، يوم الأحد. وقد أدهشنا ذلك كثيراً: فكيف أمكن أن تُعرف هذه الوقائع بمثل تلك السرعة، حتى في أيسر تفاصيلها؟ لا أحد من الذين شهدوا تلك الأحداث يمكن أن يجني فائدة من إشاعتها وإذاعتها بين الناس فيما يبدو. أمَّا الخدم فإنهم لم يروا شيئاً. لبيادكين وحده كان يمكن أن يتكلم، لا عن خبث وشر (فقد كان مرتاعاً، والارتياع يقتل الكره) بل تلذذاً بالثرثرة فحسب. ولكن لبيادكين وأخته كانا قد اختفيا منذ الغد دون أن يتركا أثراً يدل على المكان الذي رحلا إليه: لقد تركا منزل فيليبوف ولا يعرف أحد أين هما. لقد حاولت أن أسأل شاتوف عن ماريا تيموفيئفنا، لكن شاتوف كان

قد سـجن نفسـه في بيته. وأظـن أنه لم يخرج من مسـكنه مـرة واحدة خلال ذلك الأسـبوع، متنازلاً عن كل مشـاغله بالمدينة. وهو على كل حال لم يشـأ أن يستقبلني. لقد صعدت إلى بيته يوم الثلاثاء، وقرعت بابه، فلما لم أحصل علـى جـواب، وإذ تأكـدت أنه موجود فـي البيت، قرعت البـاب مرةً أخرى. فسمعت عندئذ صوتَ حركة هي حركة من يثب عن سريره إلى الأرض، وها هو ذا يقترب من الباب بخطى ثقيلة ويصرخ: "شاتوف ليس بالبيت". فلم يبق عليَّ إلّا أن أمضي.

وقـد انتهينـا أنـا وسـتيفان تروفيموفتـش أخيـراً إلى التسـليم بـأن مروِّج الشـائعات التي كانت تسـري فـي المدينة (وذلـك افتراض روَّعنـا ما فيه من جرأة وتهور، ولكن كلّاً منا شجَّع صاحبه على قبوله) لا يمكن أن يكون أحداً غيـر بطرس سـتيفانوفتش. ومع ذلك فقد أكَّد بطرس سـتيفانوفتش لأبيه بعد مـدة قصيـرة أنه مدهوش جـداً من أن الحكاية كلَّها قـد انتقلت من فم إلى فم على الفور في المدينة كلها، وخاصةً في النادي، وأن الحاكم وامرأته يعرفانها بكل تفاصيلها. ولكن الأغرب من ذلك إنني علمت حين لقيت ليبوتين مساء يوم الإثنين أنه كان منذ ذلك الحين على علم كامل بكل ما جرى. فمعنى هذا أنه كان من أوائل من اطلعوا على الأمر.

إن كثيراً من السـيدات (وبينهن سيدات من أبرز أعضاء المجتمع الراقي) قد حيَّرهن أشدَّ الحيرة أمرُ تلك "العرجاء اللغز". كذلك كنَّ يلقبنها. حتى أن بعضهـن قد تمنين أن يعرفنها. معنى ذلك أن الذين أسـرعوا يخفون لبيادكين وأخته قد فعلوا ما يجب فعله في الوقت المناسب جداً.على أن إغماء ليزافتا نيقولايفنا هو الذي كان يشـغل الأذهان خاصة. ألم يكن هذا الحادث يخص جوليـا ميخائيلوفنا، امـرأة الحاكم، وقريبةَ الفتاة وحاميتهـا؟ ما أكثر ما قالوا! ثـم إن هذه الثرثرات كان يسـهِّلها ويشـجِّعها مـا يحيط بها من سـر: لقد بقي المنـزلان مغلقيـن. كان يقال علـى وجه التأكيـد أن ليزافتـا نيقولايفنا مصابة بحمى حـارة، ومثل هذا كان يُقـال عن نيقولاي فسـيفولودوفتش، بالإضافة إلى اختراع تفاصيل أخرى كثيرة منفِّرة، منها أن أسـنانه تكسـرت، وأن وجهه

تشـوه، وهلم جراً، وكانوا يرددون، تحت طابع السر، أن الأمور لن تقف عند هذا الحد، فليس ستافروجين رجلاً يمكن أن يغفر إهانةً كهذه، وأنه سيقتل شاتوف حتماً، ولكن بطريقة خفية سرية، كما يحدث في أعمال الثأر المعروفة في جزيرة كورسيكا. وكانت هذه الفكرة تخلب الألباب. ولكن أكثر شبابنا الأنيقين كانوا يصغون إلى هذه الأقاويل بازدرء خال من الاهتمام والإكتراث، وذلك أمر كانوا يصطنعونه اصطناعاً بطبيعة الحال. وعلى وجه العموم، فإن العداوة القديمة التي حملها مجتمعنا في الماضي لنيقولاي فسيفولودوفتش قد ظهرت الآن من جديد عنيفةً كل العنف، قويةً كل القوة، فحتى الأفراد الجادون قد أخذوا يتهمونه، دون أن يعرفوا لماذا على وجه الدقة. كان الناس يتهامسون بأنه لطخ شرف ليزافتا نيقولايفنا بالعار، وأن هناك مغامرة قد وقعت بينهما في سويسرا. صحيح أن الحكماء من الأفراد كانوا يتحفظون، ولكنهم كانوا يصغون إلى هؤلاء الثرثارين متلذذين. وقد راجت شائعات أخرى أيضاً. غير أن الشائعات الأخرى كان الناس لا يرددونها إلّا في خلوة وعلى حذر. ولست أذكر هذه الشائعات إلّا لأنبه القارئ، وأهيّئه للاطلاع على الأحداث التي أعقبت ذلك كله. كان بعضهم يؤكدون وهم يصطنعون هيئة الجد والوقار (الله وحده يعلم من أين استمدوا هذه الأنباء!) أن نيقولاي فسيفولودوفتش مكلَّف بمهمة خاصة، وأنه بواسطة الكونت ك... قد أصبح على صلة بشخصيات هامة جداً في بطرسبرج، بل وأنه يشغل منصباً عالياً. فكان الأفراد الجادون المتحفظون يبتسمون حين يسمعون هذه الأحاديث، مشيرين بحق إلى أن رجلاً يثير فضائح ويتلقى صفعة منذ بداية إقامته عندنا، لا يشبه موظفاً كبيراً في شيء، فكان الآخرون يجيبونهم قائلين إن ستافروجين لا يشغل مركزاً رسمياً، بل منصباً سرياً بمعنى من المعاني، وإن مهمته تقتضي منه والحالة هذه أن لا يشبه موظفاً من الموظفين إلّا أقل شبه ممكن. وقد أحدثت هذه الملاحظة أثراً ما: كان الناس لا يجهلون أن زمزتوف[1] مقاطعتنا

(1) "زمزتوف المقاطعة" أو هو مجلس للإدارة المحلية في الإقليم. وكثيراً ما كانت هذه المجالس تبدي في مناقشاتها آراء لبرالية. وذلك ما لفت نظر وزارة الداخلية.

كان قد لفت انتباه العاصمة مراراً وتكراراً، على أن هذه الشائعات لم تستمر. بل تبددت منذ عاد نيقولاي فسيفولودوفتش إلى الظهور بيننا. لكنني أحرص على أن أذكر أن هذه الأقاويل كلها إنما يرجع أصلها إلى بضع جملٍ كارهة مبغضة، لكنها غير صريحة جداً، قذفها ذات يوم في النادي آرتيمي بافلوفتش جاجانوف، الكابتن المتقاعد من ضباط الحرس. إن جاجانوف هذا، قد وصل من بطرسبرج منذ مدة قصيرة، وهو من كبار ملاكي الأطيان بمقاطعتنا، كما أنه رجل من رجال المجتمع الراقي، إنه ابن المرحوم بافل بافلوفتش جاجانوف الذي كان نيقولاي فسيفولودوفتش قد عامله منذ أربع سنين تلك المعاملة الفظة الغليظة، كما رويت ذلك في بداية قصتي.

عرفت المدينة كلها أن جوليا ميخائيلوفنا قد ذهبت إلى منزل فرفارا بتروفنا، فأرسلت فرفارا من يبلغها أنها لا تستطيع استقبالها لتوعك صحتها. وقد عُلم أيضاً أن جوليا ميخائيلوفنا قد بعثت بعد ذلك بيومين رسولاً يسأل عن أبناء السيدة ستافروجين، وأنها كانت من جهة أخرى تأخذ على عاتقها عبء "الدفاع" عنها. ويجب أن نفهم كلمة "الدفاع" هذه بأرفع معانيها طبعاً، أي بأغمض معانيها. لقد استقبلت بعبوس وفتور التلميحات الأولى التي أسرع الناس يسوقونها لها عن أحداث يوم الأحد. لذلك أصبح لا يجرؤ أحد أن يدير الحديث حول هذا الموضوع بعد ذلك بحضورها. وانتهى الناس إلى أن يسلِّموا بأن جوليا ميخائيلوفنا ليست على علم بالقصة كلها فحسب، بل وتعرف معناها الخفي وسرها المكتوم وتعرف أصغر تفاصيلها، بل هي مشاركةٌ فيها بعض المشاركة. يجب أن أذكر بهذه المناسبة أن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد أخذت تتمتع بيننا منذ ذلك الحين بذلك النفوذ الذي تتوق إليه، وكانت ترى نفسها منذ ذلك الحين "محاطة" كثيراً. إن قسماً كبيراً من المجتمع قد أصبح يعترف لها بذكاء عملي وكياسة وحسن تصرف... وسنرجع إلى الكلام عن هذا في ما بعد. وإلى حمايتها ورعايتها إنما يرجع أكبر الفضل فيما حققه بطرس ستيفانوفتش من نجاح سريع، وهو نجاح أدهش ستيفان تروفيموفتش إدهاشاً قوياً.

جائز أننا، أنا وستيفان تروفيموفتش، قد ضخمنا في خيالنا ذلك النجاح. مهما يكن من أمر، فإن بطرس ستيفانوفتش قد تعرف على جميع الناس في الأيام الأربعة الأولى التي أعقبت وصوله. كان قد وصل إلى مدينتنا يوم الأحد، فلما جاء يوم الثلاثاء رأيته يمر راكباً العربة التي يملكها آرتيمي بافلوفتش جاجانوف، وهو رجل متعجرف مزهو بنفسه حاد الطبع شرس مغرور، رغم ما يصطنعه من آداب راقية، فهو إذن امرؤ ليس التفاهم معه بالأمر السهل. وكذلك اسُتقبل بطرس ستيفانوفتش عند الحاكم وامرأته استقبالاً حسناً جداً، حتى إنه سرعان ما أصبح من أصدقائهما الحميمين، وسرعان ما أصبح الولد المدلَّل في منزلهما، إن صح التعبير. لقد أصبح يتغذى كل يوم تقريباً عند جوليا ميخائيلوفنا، التي سبق أن عرفها في سويسرا على كل حال.

ومع ذلك فإن الدور الذي يلعبه في ذلك المنزل كان يبدو دوراً غريباً. فلقد كان هذا الشاب يوصف في الماضي بأنه ثوري. لا أدري صحيح أم لا! ولكن كان يُقال على وجه التأكيد إنه في الخارج قد اشترك في عدة مؤتمرات وساهم في إصدار بعض النشرات الهدَّامة، "حتى ليمكن البرهان على ذلك بالرجوع إلى صحف ذلك الزمان"، كما قال لي ذلك، في غيظ وحنق، أليوشا تلياتنيكوف الذي هو اليوم ـ وا أسفاه! ـ موظف صغير محال على التقاعد، لكنه كان قبل ذلك أثير الحاكم السابق. ومع ذلك فهناك واقع قائم: هو أن هذا الثوري السابق لم يلق عند عودته إلى البلاد أية عقبة. حتى لقد اسُتقبل فيها استقبالاً يشتمل على كثير من اللطف والمودة. ألا يمكن أن نستخلص من ذلك أن الشائعات التي راجت في حقه كانت باطلة؟ لقد همس ليبوتين فى أذني يوماً أن بطرس ستيفانوفتش قد أدلى باعترافات كاملة، على ما يُقال، ونال عفواً بعد أن وشى بأسماء شتى، وإذ كفّر بذلك عن ذنوبه وعد بأن يستمر على السير في الطريق القويم. وقد نقلت هذه الجملة المسموعة إلى ستيفان تروفيموفتش، فإذا هو يصبح شارد الذهن، مع أنه كان في تلك الآونة عاجزاً عن استجماع أفكاره. وقد عُلم فيما بعد أن بطرس ستيفانوفتش كان

مزوَّداً عند وصوله إلينا برسائل توصية وتزكية، ممهورة بأسماء محترمة ذات شأن كبير، وأن إحدى هذه الرسائل كانت موجهة إلى جوليا ميخائيلوفنا من عرَّابتها، وهي سيدة عجوز يُعد زوجها من أعلى شخصيات العاصمة مقاماً وأسماهم منزلةً. لقد كتبت هذه السيدة إلى جوليا ميخائيلوفنا أن الكونت ك...، وقد تعرف إلى بطرس ستيفانوفتش بواسطة ستافروجين، قد استقبله بترحيب، وأنه يعدُّه "شاباً مليئاً بالسجايا الممتازة رغم أخطائه السابقة". وكانت جوليا ميخائيلوفنا تحرص حرصاً عظيماً على العلاقات النادرة التي عقدتها مع أصحاب الشأن الرفيع بجهود كثيرة. لذلك سرَّتها رسالة السيدة العجوز سروراً كبيراً. ومع ذلك كان موقفها من بطرس ستيفانوفتش يبدو لنا على جانب كبير من الغرابة. ألم تكن تسمح له بأن يعامل زوجها معاملة خالية من الكلفة، وذلك أمر كان فون لمبكه يشكو منه مرَّ الشكوى؟... على أنني سأعود إلى هذه النقطة فيما بعد. ويجب أن أضيف أيضاً، من باب الذكرى، أن كارمازينوف الشهير قد رحَّب أكبر الترحيب، هو أيضاً، ببطرس ستيفانوفتش، ودعاه أن يزوره. إن هذه الحفاوة من جانب رجل يتصف بما يتصف به كارمازينوف من زهو وغرور قد جرح ستيفان تروفيموفتش أكثر مما جرحه أي شيء آخر. ولكنني فسَّرت هذا الأمر لنفسي بسهولة: لقد تودد كارمازينوف إلى هذا الرجل الذي يدين بالمذهب العدمي، لما له من صلات بالشبيبة الثورية في العاصمتين. لقد كان هذا الكاتب الشهير يخاف من هذه الشبيبة خوفاً مرضياً، ويتخيل من جهله أنها قابضة بأيديها على مستقبل روسيا. لذلك كان يتملَّقها في كثير من الهوان والصغار، لا سيما وأنها كانت لا تحفل به ولا توليه أي اهتمام.

2

جاء بطرس ستيفانوفتش إلى أبيه مرتين. ومما أسفت له أسفاً كبيراً أنه جاء إليه أثناء غيابي عنه. فأمَّا المرة الأولى فبعد لقائهما عند فرفارا بتروفنا بأربعة أيام، ولم يكن لزيارته هذه من هدف إلّا تصفية الحسابات المتعلقة بأرض

بطرس ستيفانوفتش. وقد انتهت هذه القضية بغير ضجة أو جلبة: تكفلت فرفارا بتروفنا بكل شيء. دفعت المال للشاب، لكنها تملكت الأرض طبعاً، واكتفت بأن أبلغت ستيفان تروفيموفتش أن المسألة قد سُويت تسوية نهائية. لقد حمل إليه خادمها الذي تثق به، وهو ألكسي إيجوروفتش، حمل إليه ورقة عليه أن يمهرها بتوقيعه، فوقَّعها ستيفان تروفيموفتش صامتاً، بوقار شديد. يجب أن أقول بصدد الوقار أو الرصانة أو الكرامة أنني أصبحت لا أتعرف صاحبي القديم ستيفان تروفيموفتش: إن وضعه الآن يختلف عن وضعه السابق اختلافاً كبيراً. لقد أصبح شديد الصمت، وهو منذ يوم الأحد لم يكتب إلى فرفارا بتروفنا رسالةً واحدة، وذلك أمر لو حدث في الماضي لعددته معجزةً من المعجزات. غير أن الشيء الذي أدهشني أكثر من كل ما عداه، إنما هو هدوءه. كان ستيفان تروفيموفتش قد اتخذ قراراً حاسماً وثبت عليه ثباتاً عنيداً. وهذا هو مصدر هدوئه. إنه الآن يضمر فكرة، وينتظر الأحداث. على أنه قد شعر في البداية بأنه مريض. ففي يوم الإثنين اعترته نوبة إسهال يشبه أن يكون إسهال الكوليرا. ويجب أن أقول أيضاً أنه ظل لا يستطيع الاستغناء عن الأنباء التي كنت أنقلها إليه. ولكنه ما إن أترك الوقائع وأواجه جوهر المسألة وأجازف فأتصور بعض الافتراضات، حتى يومئ مهيباً بي أن أسكت.

ومع ذلك فإن اللقاءين اللذين تمَّا بينه وبين ابنه قد تركا فيه أثراً أليماً موجعاً، لكنهما لم يثنياه عن عزمه. فما يكاد بطرس ستيفانوفتش يتركه حتى يستلقي على ديوانه ملفعاً رأسه بمنشفة مبلولةٍ بالخل، محتفظاً مع ذلك بوضع هادئ وقور كريم.

وكان مع هذا يسمح لي أن أتكلم بعض الأحيان. حتى لقد كان يبدو لي عندئذ أن القرار السري الذي عقد عليه عزمه قد أخذ يضعف، وأن أفكاراً أخرى أخذت تفتنه وتغويه. وكان هذا التردد لا يدوم إلّا لحظة، ولكنني أحرص على الإشارة إليه. أظن أنه كان في تلك اللحظات يشتهي أن يخرج من عزلته وأن يتحدى وأن يخوض معركة أخيرة.

أفلت من لسانه في مساء يوم الخميس، بعد زيارة بطرس ستيفانوفتش الثانية:

ـ يا عزيزي، إنني أستطيع أن أبدِّدهم جميعاً!...

كان متمدداً على ديوانه، ملفعاً رأسه بمنشفة، ولم يكن قد وجَّه إليَّ كلمة واحدة طوال النهار. وتابع يقول:

ـ "ابني، العزيز"، وهلم جراً... أوافق على أن جميع هذه التعابير سخيفة فنية تليق بطباخة. أعترف بهذا أنا نفسي الآن. إنني لم أعطه شراباً ولا طعاماً. ولم يكن إلّا طفلاً رضيعاً حين شحنته من برلين بالبريد إلى ولاية ف... وهكذا! إنني أسلِّم بذلك. لقد قال لي: "أنت لم تُعنَ بها ولم تهتم بأمري، وشحنتني بالبريد كما تُشحن صرة، وزدت على ذلك فنهبتني هنا". صرخت أقول له: "ولكنني أيها الشقي، رغم أنني شحنتك بالبريد، لم ينقطع قلبي عن أن ينزف دماً من الألم لك والحسرة عليك!". فضحك! لكنني أسلِّم... أسلِّم ... نعم... بالبريد شحنته.

بهذا ختم كلامه كمن يهذي.

وعاد يتكلم بعد خمس دقائق فقال:

ـ "دعنا" (بالفرنسية). إنني لا أفهم تورجنيف. إن بازاروف[1] في روايته شخصية وهمية لم توجد في يوم من الأيام. ألم يكونوا أول من نبذوه معلنين أنه يشبه شيئاً؟ إن بازاروف هذا خليط غير مفهوم من نوزدريوف[2] ومن بايرون. "هذه الكلمة!" (بالفرنسية). انظر إليهم كيف يتدحرجون على الأرض مطلقين زعقات فرح، ككلاب صغيرة في الشمس! إنهم سعداء. إنهم ينتصرون. ما شأنهم وبايرون؟ ويالها من تفاهة لا مذاق لها فوق ذلك! وياله من غرور عامي سريع الاهتياج! ويا لها من حطة تزخر بها حاجة المرء هذه إلى "إحداث ضجة كبيرة حول اسمه" (بالفرنسية) دون أن يلاحظ أن "اسمه"

---

(1) "بازاروف": نموذج عدمي وصفه تورجنيف في كتابه "الآباء والأبناء".

(2) "نوزدريوف": أحد شخوص كتاب جوجول "النفوس الميتة". هو شخص كذاب مدع متبجح.

(بالفرنسية)... رباه! يا لها من رسوم كاركاتورية! لقد صرخت أقول له: "هل يُعقل أن تطمع، وأنت ما أنت، في أن تقدم نفسك للناس بديلاً للمسيح؟". " فضحك. إنه يضحك كثيراً. "إنه يسرف في الضحك" (بالفرنسية) إن له ابتسامة غريبة. لم تكن أمه تبتسم تلك الابتسامة. "إنه يضحك دائماً" (بالفرنسية).

وساد الصمت من جديد.

ثم عاد يتكلم فقال:

ـ إنهم ماكرون. لقد تواطؤوا يوم الأحد.

فهتفت أقول متلقّفاً الكرة بوثبة:

ـ حتماً! لا شك في ذلك! لقد كانوا على اتفاق وتواطؤ. لقد نسجوا مسرحيتهم نسجاً ثم أساءوا تمثيلها جداً.

ـ لا أقصد هذا. هل تعلم أنهم تعمدوا أن لا يجيدوا تمثيلها بغية أن يراها أولئك الذين يجب أن يروها؟ هل تفهم؟

ـ "أفضل. دعنا." (بالفرنسية).

ـ "فلماذا ناقشته يا ستيفان تروفيموفتش؟

ـ "أردت أن أغيِّر عقيدتي". (بالفرنسية).اضحك مني! "لسوف تسمع هذه العمة أشياء كثيرة جميلة!". آه ياصديقي، هل تصدِّق أنني شعرت منذ قليل بأنني وطني؟ على كل حال، لقد كنت أحس دائماً أنني روسي!... إن الروسي الحقيقي هو أنت، هو أنا. "إن ههنا شيئاً فيه عماوة، شيئاً مريباً" (بالفرنسية).

ـ قطعاً.

ـ يا صديقي، إن الحقيقة الصادقة تكون دائماً غير قابلة لأن تصدَّق. هل تعلم ذلك؟ فإن شئت أن تجعل الحقيقة قابلة لأن تصدق عليك أن تضيف إليها شيئاً من كذب حتماً. وذلك ما فعله الناس دائماً. ربما كان في ذلك كله شيء لا نفهمه. ما رأيك؟ ألا يمكن أن يكون في زعقات الانتصار هذه شيء لا نفهمه؟ أتمنى أن يكون الأمر كذلك. نعم أتمنى كثيراً.

لم أجبه. ولزم الصمت مدةً طويلة.

ثم دمدم يقول كأن به حمى:

ـ يقال إن المسؤول هو الفكر الفرنسي. كذبٌ ذلك. لقد كنا دائماً هكذا. لماذا نتجنّى على الفكر الفرنسي؟ إنه كسلنا الروسي وحده، إنه عجزنا المهين المشين عن أن نخلق فكرة، إنها طفيليتنا الكريهة المنفِّرة! "هؤلاء كسالى لا أكثر" (بالفرنسية). لا شأن للفكر الفرنسي بهذا. آه... يجب أن يُبادَ الروس لتحقيق خير الإنسانية لأنهم طفيليات ضارة. ليس هذا ما كنا نصبو إليه نحن، لا ليس هذا البتة! إنني لا أفهم شيئاً على الإطلاق. أصبحت لا أفهم. قلت له: هل تعلم أنك إذا جعلت القول الفصل للمقصلة، وبهذه الحماسة كلها أيضاً، فلا يكون ذلك إلّا لأن قطع الرقاب أسهل شيء، ولأنه لا شيء أصعب من أن يكون للمرء أفكار... "أنتم كسالى! رايتكم خرق بالية، شعاركم عجز..." (بالفرنسية). تلك العربات... أو ماذا يقولون؟... "جريان العربات التي تنقل الخبز الضروري للإنسانية" أنفع من مادونا كنيسة سيستو... "سخافة من هذا النوع" (بالفرنسية) . صرخت أقول له، ألا تفهم، ألا تفهم أن الإنسان لا يحتاج إلى السعادة فحسب، يحتاج كذلك إلى الشقاء، ويحتاج إلى الشقاء كاحتياجه إلى السعادة سواء بسواء؟ فضحك. وقال: "أنت راقد هنا على ديوان من مخمل تتلذذ بقول كلام منمَّق" (حتى لقد استعمل تعابير أشد فظاظة)... لاحظ أيضاً هذا التخاطب بصيغة المفرد بين أب وابنه. لقد كان يمكن التسامح في هذا لو كان ثمة وفاق، ولكن كيف يمكن التسامح فيه والأمر أمر شجار؟...

لزمنا الصمت لحظة.

ثم قال لي وهو ينتصب على حين بغتة:

ـ هل تعلم يا عزيزي أن هذا الأمر سينتهي حتماً بطريقة أو بأخرى؟

ـ لا شك في ذلك!

ـ "إنك لا تفهم. دعنا". العادة أن لاينتهي شيء في هذا العالم. ولكن في هذه الحالة سيكون ثمة نهاية، هذا مؤكد، مؤكد قطعاً.

ونهض، ومشى في الغرفة بضع خطوات مضطرباً أشد الاضطراب، ثم عاد إلى قرب الديوان فتهالك عليه مهدود القوى منهكاً.

في صباح يوم السبت ذهب بطرس ستيفانوفتش إلى مكان في المقاطعة لا أدرى أين يقع. ثم لم يعد إلّا مساء الإثنين. إن ليبوتين هو الذي أنبأني بذلك. وروى لي أيضاً أن لبيادكين وأخته قد أقاما في مكان ما على الضفة الأخرى بضاحية مصانع الفخار. وأضاف يقول: أنا الذي توليت نقلهما إلى هناك. وترك هذا الموضوع بعد ذلك فأبلغني أن ليزافتا نيقولايفنا ستتزوج مافريكي نيقولايفتش: ليس الأمر رسمياً بعد، ولكن الخطوبة حدثت وتمَّ الأمر. وقد قابلت الآنسة في الغداة راكبةً حصانها، يصحبها مافريكي نيقولايفتش. هذه أول مرة تخرج فيها بعد مرضها. التمعت عيناها حين رأتني، وابتسمت لي، وأومأت إليَّ برأسها محييةً تحيةً وديةً لطيفة. نقلت هذا كله إلى ستيفان تروفيموفتش، فلم يكترث بالأنباء المتعلقة بلبيادكين وأخته أي اكتراث ولم ينتبه إليها أي انتباه.

والآن وقد وصفت الوضع المضطرب المشوش الذي تخبطنا فيه خلال ذلك الأسبوع، حين كنا لا نعرف بعدُ شيئاً، استأنف سرد قصتي عالماً بحقائقها، فأعرض الأحداث كما تبدو لنا اليوم، بعد أن اتضح كل شيء، وبعد أن عرفنا أخيراً بواطن الأمور. سأبدأ باليوم الثامن الذي تلا ذلك الأحد المحتوم، أي بمساء يوم الإثنين، لأن ذلك المساء هو في الواقع بداية "القصة الجديدة".

3

هي الساعة السابعة من المساء. إن نيقولاي فسيفولودوفتش معتزل في حجرة مكتبه، الحجرة الأثيرة عنده. هي حجرة عالية السقف، تغطي أرضَها سجادة، ويزينها أثاث ثقيل قليلاً، قديم الطراز. إنه جالس على ديوان، مرتدٍ ثيابه كأنما ليخرج، ولكن لا شيء في وضعه يدل على أن في نيته أن يغادر الغرفة. وعلى المائدة الموجودة أمامه، مصباحٌ يتوَّجه طربوش يسقط النور

إلـى تحت. أمَّا أركان الغرفة الواسـعة وجدرانها فهـي غارقة في الظل. كانت نظـرة الشـاب مركزة مهمومـة. وكان وجهه الـذي نحل قليلاً ينـم عن تعب. وكانـت خـده متورمة بالفعل، لكـن الناس قد بالغوا حين زعموا أن شـاتوف كسـر له أحد أسنانه: إن السن لم تزد على أن تخلّعت قليلاً، ثم ثبتت وعادت إليها صلابتها. وكذلك الشـفة العليا التي شـقتها لكمـة قبضة اليد، فقد كانت تبدو ملتئمة التئاماً كاملاً، أمَّا التورم المتقرح فقد اسـتمر أسـبوعاً كاملاً، لأن المريـض رفض أن يعوده الطبيب الذي كان يمكن أن يفصد القرحة، وآثر أن ينتظـر انفتاحها من تلقاء ذاتها. وكان لا يـكاد يقبل أن تزوره أمه مرةً في اليوم إلّا بكثيـر مـن العنـاد، على شـرط أن لا تطـول زيارتها أكثر من بضـع دقائق، عنـد هبوط المسـاء قبل إشـعال المصباح. ورفـض أيضاً أن يسـتقبل بطرس سـتيفانوفتش الـذي جاء مع ذلـك إلى فرفـارا بتروفنا مرتيـن أو ثلاث مرات قبل سفره إلى الريف. وحين عاد بطرس ستيفانوفتش من سفرته قام بزيارات كثيرة، وتعشـى عند جوليا ميخائيلوفنا، وذهب في المسـاء إلى فرفارا بتروفنا التـي كانـت تنتظره نافـذة الصبر: لقـد رُفع الحظـر أخيراً، وأصبـح نيقولاي فسيفولودوفتش يستقبل الزائرين.

تولـت فرفـارا بتروفنـا بنفسـها اصطحاب الزائـر إلى باب حجـرة مكتب ابنهـا. لقـد كانت تحرص علـى لقائهما حرصاً شـديداً، واسـتقطعت بطرس سـتيفانوفتش عهـداً علـى نفسـه أن يمـرَّ بها حيـن خروجه من عنـد نيقولاي فسيفولودوفتش ليقصَّ عليها ما جرى بينهما. نقرت الباب في خجل ووجل، وإذ لم تسمع جواباً سمحت لنفسها بأن تشق الباب شقاً خفيفاً، وقالت تسأل ابنها بصوت خافت وهي تحاول أن تتبين تعبير وجهه وراء المصباح:

ـ نيقولاي، هل يمكنني أن أُدخل عليك بطرس ستيفانوفتش؟

فهتف بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً في مرح:

ـ طبعاً، طبعاً...

وفتح الباب ودخل.

إن النقـرات الخفيفـة علـى البـاب لـم تكـن قـد لفتـت انتبـاه نيقـولاي

فسيفولودوفتش. وهو لم يسمع إلّا السؤال الذي ألقته عليه أمه فرفارا بتروفنا. ولكن بطرس ستيفانوفتش دخل قبل أن يتاح لصاحبنا نيقولاي أن يجيب عن ذلك السؤال. وكان في تلك اللحظة يمسك رسالةً أنهى قراءتها منذ هنيهة، فأغرقته في تأملات عميقة. فيما سمع كلمات بطرس ستيفانوفتش ارتعش، وأسرع يخبئ الرسالة تحت كيس أوراق، ولكنه لم يفلح في إخفائها تماماً، فإن طرفاً من الرسالة ظل ظاهراً مرئياً مع ظرفها.

دمدم بطرس ستيفانوفتش يقول مسرعاً بسذاجة مدهشة:

ـ لقد تعمدت أن أصرخ بصوت عالٍ هذا العلو كله لأهب لك فرصة الاستعداد والتهيؤ.

وهرع نحو المائدة ونظر في طرف الرسالة بانتباه.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش بهدوء دون أن يتحرك من مكانه:

ـ وقد اتسع وقتك طبعاً لأن ترى أنني أخفيت رسالة تحت مكبس الأوراق.

فصاح الزائر يقول: ـ رسالة؟ ما شأني أنا بالرسالة؟

ثم أضاف يقول خافضاً صوته ملتفتاً نحو الباب الذي كانت فرفارا بتروفنا قد أغلقته:

ـ ولكن... ولكن الشيء الرئيسي...

فقاطعه نيقولاي فسيفولودوفتش يقول له مطمئناً في برود:

ـ إنها لا تتنصت وراء الأبواب أبداً.

ـ هبها تتنصّت... ليس لي أي اعتراض على هذا...

كذلك أسرع يجيب بطرس ستيفانوفتش في مرح، وهو يجلس على مقعد. ثم أضاف يقول:

ـ على أنني هُرعت إليك في هذه المرة لأكلمك على انفراد... أخيراً أراك! ولكن قل لي قبل كل شيء كيف حالك الآن؟ حسنة جداً فيما أرى. ولعلك تخرج غداً، هه؟

ـ ربما.

هتف بطرس ستيفانوفتش يقول بلهجة مضحكة وهو يحرك يديه:

ـ هدِّئهم أخيراً وخلصني! ليتك تعرف كل ما اضطررت أن أقوله لهم! على أنك تعرف...

وانفجر ضاحكاً.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ لا، لا أعرف شيئاً كثيراً. لكنني علمت من أمي أنك سعيت وتحركت كثيراً...

فأجاب بطرس ستيفانوفتش محتجاً بقوة كأنما ليدفع عن نفسه اتهاماً رهيباً:

ـ لا، أنا لم أذكر أي شيء معيَّن واضح . لقد تكلمت عن امرأة شاتوف، أعني عن الشائعات التي راجت عن علاقاتكما بباريس، وذلك أمر يمكن أن يفسر الحادث الذي وقع يوم الأحد... ألست غاضباً؟

ـ أنا واثق بأنك أرهقت نفسك كثيراً.

ـ ذلك ما كنت أخشاه. ولكن ماذا تعني هذه الجملة: "أرهقت نفسك كثيراً"؟ هذا لوم وتقريع. على كل حال فأنت تمضي إلى الموضوع رأساً. إن ما كنت أخشاه وأنا آتٍ إلى هنا، هو أن ترفض المضي إلى الموضوع مباشرة.

أجاب نيقولاي فسيفولودوفتش بشيء من السخط:

ـ لا يخطر ببالي قط أن أمضي إلى الموضوع رأساً.

ولكنه سرعان ما ابتسم ابتسامة خفيفة.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو يهز ذراعيه:

ـ لست أقصد هذا، لست أقصد هذا البتة. لا يخطئ ظنك!

وكان يتكلم بسرعة ما تنفك تزداد ويبدو كأنه سعيد جداً بحنق محدِّثه، وتابع كلامه:

ـ لن أضايقك بقضيتنا "نحن"، خاصة في ظرفك الراهن. وإنما هُرعت إليك لأكلمك عن حادث يوم الأحد، و بالقدر الضروري فقط، ذلك أنه

يستحيل ترك الأمور على هذه الحال. لقد جئت لأقدم إليك إيضاحات صريحة. لست أنت المحتاج إلى هذه الإيضاحات بل أنا المحتاج إليها. أقول هذا إرضاء لك، ولكنه هو الحقيقة على كل حال. لقد جئت لأكون بعد اليوم صادقاً معك كل الصدق، صريحاً كل الصراحة.

ـ هل يعني هذا أنك لم تكن صريحاً من قبل؟

ـ تعرف ذلك أنت نفسك. كم مرة مكرت بك!... لكنني أراك تبتسم، وهذا يسعدني كثيراً، لأنه يتيح لي ذريعة للإيضاح. لقد تعمدت أن أستعمل كلمة "المكر" لأغضبك: كيف أبحت لنفسي أن أظن أن في إمكاني أن أمكر معك! إن هذا يهب لي على الفور إمكان تقديم إيضاح. انظر كم أصبحت صادقاً! هل تريد أن تصغي إليَّ؟

رغم ما كان واضحاً من أن الزائر يريد إثارة حنق ستافروجين بوقاحته وبسذاجاته المصنوعة المهيأة المحضَّرة، فإن وجه نيقولاي فسيفولودوفتش ظل هادئاً هدوء الاحتقار والازدراء بل والسخرية. ولكنه حين سمع الكلمات الأخيرة من أقوال بطرس ستيفانوفتش ظهر عليه شيء من حب الاطلاع بل وشيء من القلق.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يتحرك مزيداً من التحرك:

ـ أصغ إذن إليَّ. حين وصلتُ إلى هنا، أقصد حين وصلت إلى هذه المدينة، منذ نحو عشرة أيام، كنت قد عزمت أمري طبعاً على أن أمثِّل دور شخصية ما. ولعله كان من الأفضل أن لا أمثل أي دور، وأن أكون أنا نفسي، ألا ترى هذا الرأي؟ لا شيء يساوي وجهك الخاص لأن أحداً لا يصدقه. أعترف لك بأنني كنت أنوي أن أمثِّل دور الأهبل، لأن تمثيل دور الأهبل أسهل على المرء من إظهار وجهه الخاص. ولكن ولمّا كان الهبل مبالغة سرعان ما تثير حب الاطلاع، فقد قررت أخيراً أن أظهر بوجهي الخاص. فماذا أنا على وجه الإجمال؟ أنا شخص عادي لست بالغبي ولا بالذكي، ولا أملك موهبة من المواهب، أي رجل من القمر كما يقول عقلاء الناس هنا، أليس هذا صحيحاً؟

أجاب ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ ربما!

ـ آ... ها أنت ذا توافقني على رأيي! إنني سعيد بذلك سعادة عظيمة كنت أعلم سلفاً أنك تفكر هذا التفكير وترى هذا الرأي... لا تقلق، لا تقلق، لست زعلاناً. ولئن قلت هذا الكلام في حق نفسي، فإنني لم أفعل ذلك لأحملك على الإنكار والاحتجاج ولتقول لي: "بل أنت رجل ذو موهبة، وأنت رجل ذكي". آ...ها أنت ذا تبتسم من جديد!... ها أنا ذا أُضبط مرةً أخرى!... إنك لم يخطر ببالك أن تقول لي "بل أنت ذكي". إنني أقبل هذا، أقبله. "دعنا" (بالفرنسية)، على حد تعبير أبي. وإني لأضيف إلى هذا مستطرداً بين قوسين: "لا يسوءنّك هذري. وفي هذه المناسبة، إليك مثالاً ممتازاً: إنني أكثر من الكلام دائماً، ورغم إكثاري هذا لا أصل إلى قول ما أريد قوله. ولماذا أستعمل كلمات كثيرة ثم لا أصل إلى أهدافي؟ لأنني لا أجيد الكلام. إن الذين يجيدون الكلام يتكلمون بإيجاز. ذلك يبرهن على أنني لست بذي موهبة، أليس هذا صحيحاً؟ ولكن لما كان فقدان الموهبة عندي هبةً طبيعية فلماذا يكون عليَّ أن لا أستعملها؟ إن الأفضل أن أستعملها. وذلك بعينه هو ما أفعله. صحيح أنني إذ وصلت إلى هنا كنت قد قررت في أول الأمر أن أصمت. ولكن الصمت يحتاج إلى موهبة كبيرة. فذلك إذن لا يناسبني. ثم إن الصمت خطر على كل حال. لهذا قررت أن الأفضل أن أتكلم، ولكن أن أتكلم بحماقة، أي أن أتكلم كثيراً، كثيراً، وأن أُراكمَ جميع أدلتي وبراهيني وحججي بأقصى سرعة ممكنة فإذا أنا في آخر الأمر أخلط الحابل بالنابل بغية أن يتركني محدثي دون أن يصغي إلى النهاية، رافعاً منكبيه من الحيرة، أو حتى باصقاً على الأرض من الغضب. وهكذا تكون أولاً قد توصلت إلى إقناعه بصدقك، وتكون ثانياً قد جعلته يملّ منك، وتكون ثالثاً قد أعجزته عن فهمك. جميع المزايا في آن واحد. فمن ذا الذي يستطيع بعد هذا أن يظن فيك إخفاء أهداف سرية وأغراض خبيثة؟ لسوف يشعر كل إنسان بأنه أُهين شخصياً إذا قيل له إن لي نيات خفية ومرامي مستترة. زد على ذلك أنني

أضحكهم من حين إلى حين، وذلك أمر له قيمة ثمينة. فإذا لاحظوا بذلك أن الرجل الخطر الذي كان يصدر في الخارج لا أدري أيَّ نشرات ثورية، هو أغبى منهم، غفروا له كل شيء، لهذا السبب وحده. أليس ذلك صحيحاً؟ أقدِّر من ابتسامتك أنك توافقني على رأيي.

ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش لم يكن يبتسم البتة، بل كان على نقيض ذلك متجهم الوجه لا يخلو من تململ ونفاد صبر.

ـ هيه؟ ماذا؟ أتقول "هذا لا يهم"!

كذلك استأنف بطرس ستيفانوفتش سائلاً بحرارة، مع أن نيقولاي فسيفولودوفتش لم يكن قد فتح فمه بكلمة واحدة. وتابع بطرس ستيفانوفتش يقول:

ـ أؤكد لك، نعم أؤكد لك أنني لا أقول هذا كله بغية تعريضك للإساءة إلى سمعتك بمصاحبتي. ولكن هل تعلم أنك اليوم شديد الاهتياج إلى حد رهيب؟ ما كان أغباني حين هرعت إليك سعيد النفس مفتوح القلب! ثم إذا أنت تشتبه في كل كلمة من كلماتي. أؤكد لك أنني لن ألامس اليوم أي موضوع حسّاس حرج. لك عليَّ عهد الشرف أن لا أفعل، وإنني أذعن سلفاً لجميع شروطك.

ظل نيقولاي فسيفولودوفتش ملتزماً الصمت في عناد.

ـ هيه؟ ماذا؟ هل قلتَ شيئاً؟ أرى أنني ارتكبت غلطة من جديد: إنك لم تفرض عليَّ أيَّ شرط. أصدِّقك! أطمئن بالاً أنا نفسي أعرف أنه لا حاجة إلى فرض شروط. أليس كذلك؟ ها أنت ذا ترى أنني أجيب عن كل أسئلتي نيابةً عنك. وأنا أتصرف هذا التصرف لأنني غير ذي موهبة طبعاً. إن الموهبة تعوزني تماماً... أتضحك؟ كيف؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش أخيراً وهو يبتسم:

ـ لا قيمة لهذا! لقد تذكرت أنني وصفتك فعلاً في ذات يوم بأنك غير ذي موهبة طبعاً. لكنِ ذلك كان في غيابي. أنقلوا إليك إذن هذا الكلام؟... أرجوك أن تنتقل إلى الموضوع بأقصى سرعة.

ـ ولكنني في قلب الموضوع. إنني أتكلم عما حدث يوم الأحد...

هكذا استأنف بطرس ستيفانوفتش كلامه بمزيد من النشاط. وتابع كلامه فقال:

ـ كيف كان تصرفي يوم الأحد في رأيك؟ لا شك أنه كان تصرف شخص رجل غبي عاجز، وذلك ما أتاح لي أن أستولي على الحديث. لكنهم غفروا لي كل شيء، أولاً لأنني هابط من القمر، فهذا شيء يجمع الناس عليه هنا فيما أعتقد. وثانياً لأنني رويت قصة صغيرة جميلة، فأخرجتكم جميعاً من الارتباك والحرج. أليس هذا ما حدث؟

ـ نعم، لكنك رويتها على نحو يدعو لبعض الشكوك أن تبقى، و يوهم بأن ثمة اتفاقاً وتواطؤاً بيننا، مع أنه لم يكن بيننا أي اتفاق أو تواطؤ، وأنني لم أكلفك بأن تتدخل أبداً.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول مفتتناً كل الافتتان:

ـ تماماً، تماماً. لقد تصرفت على نحو يمكّنكم من أن تروا جميع الخيوط. ومن أجلك أنت خاصة إنما أخذت أمثّل، لأنني أردت أن أضبطك وأن أربكك. وأردت على وجه الخصوص أن أدرك مدى ما كان يعتمل في نفسك من خوف.

ـ وددت لو أعرف أسباب صراحتك الآن!

ـ لا تغضب، لا تغضب، لا تنظر إليَّ بعينين ساطعتين (على أنهما لا تسطعان)! تود لو تعرف لماذا أصبحت صريحاً هذه الصراحة كلها؟ ألا فاعلم إذن أنني إنما أصبحت كذلك لأن كل شيء قد تغير الآن، فالماضي قد انتهى، الماضي قد دُفن. غيَّرت رأيي فيك فجأة. قطعت الصلة بمناهجي القديمة. لن أعرِّضك للارتباك بعد اليوم بطرائقي القديمة. إنني أسير في طريق جديدة.

ـ هل غيرت أسلوبك؟

ـ ليس الأمر أمر أسلوب. أنت الآن حر في أن تتصرف التصرف الذي يروق لك، أن تقول "نعم" أو أن تقول "لا". ذلك هو أسلوبي الجديد أمّا

"قضيتنا"، فإنني لن أتكلم عنها إلّا حين تأمرني بذلك. أتضحك؟ على رسْلك! أنا أيضاً أضحك. لكنني أتكلم الآن جاداً، جاداً، وإن يكن الرجل الذي يتسرع يوصف دائماً بأنه خال من كل موهبة! ولكن ليس يعنيني أن أكون ذا موهبة أو أن لا أكون ذا موهبة. إنني أتكلم جاداً، جاداً كل الجد.

لقد كان يتكلم جاداً بالفعل، كان يتكلم بلهجة مختلفة كل الاختلاف، وكان يبدو فريسةً لانفعال غريب عجيب، حتى أن نيقولاي فسيفولودوفتش ألقى عليه نظرة فيها كثير من الاستطلاع والدهشة.

ـ تقول إنك غيَّرت رأيك فيَّ؟

ـ نعم لقد تغيرت آرائي لحظةَ عقدتَ يديك وراء ظهرك بعد صفعة شاتوف. ولكن كفى كفى، أرجوك. لا تسألني، فلن أقول شيئاً.

ونهض وهو يحرِّك ذراعيه كأنما ليدفع عنه أسئلة محدِّثه، ولكن لم يُلق عليه محدِّثه أي سؤال، ولما كان بطرس ستيفانوفيتش لا يريد الانصراف بعد، فقد عاد يتهالك على مقعده هادئاً بعض الهدوء.

وسرعان ما عاد يتكلم فقال:

ـ بالمناسبة، يزعم بعضهم أنك سوف تقتله. حتى لقد قامت مراهنات حول هذا الموضوع. فخطر ببال السيدة لمبكه أن تبلغ الشرطة للتدخل في الأمر، غير أن جوليا ميخائيلوفنا منعتها من ذلك... ولكن كفى، كفى كلاماً عن هذا!... إن ما قلته الآن ليس إلّا من باب المعلومات. هناك في هذه المناسبة شيء آخر: لقد رحَّلتُ لبيادكين وأخته في ذلك اليوم نفسه. هل تعلم ذلك؟ هل تلقيت رسالتي مع عنوانها الجديد؟

ـ نعم.

ـ وذلك شيء لم أفعله إلّا من باب "الحماقة". غير أنني فعلته لأسرَّك، أقول هذا صادقاً كل الصدق. فلئن ارتكبت حماقة، لقد كانت نيتي مخلصة صادقة.

قال نيقولاي فسيفولودفتش شارد الذهن:

ـ لعل ذلك كان ضرورياً... ولكن لا تبعث إليَّ بعد الآن رسائل، أرجوك.

ـ كان يستحيل أن لا أفعل ما فعلت. وهذه آخر مرة.

ـ هل ليبوتين على علمٍ بالأمر إذن؟

ـ كان لا بـد أن أطلعـه. ولكنـك تعلـم أنت نفسـك حق العلـم أن ليبوتين لا يجرؤ... بالمناسـبة: يجب أن نذهب إلى "جماعتنـا"، أقصد "إليهم"، إلى "جماعتنـا"، فلـو قلتُ إلـى "جماعتنا" لعـدت تشاكسـني وتناكدني. ولكن اطمئـن بـالاً. ليس اليوم. بل فيما بعد. في يوم من الأيام. السـماء تمطر الآن، سـوف أنبئهم، فيجتمعون فنمضي نراهم في ذات مساء. إنهم هناك ينتظروننا فاتحيـن مناقيرهـم كأفراخ غربان في أعشاشـها، ليروا ما عسـى نجيئهم به أو نحمله إليهم من عجائب المفاجآت. ما أشـد حماستهم! إنهم يهيئون كتبهم، ويسـتعدون للمناقشـة. إن فرجنسـكي مـن أشـياع المذهب الإنسـاني. وإن ليبوتيـن مـن أنصار فوريـيـه مع ميل قوي إلى الأسـاليب البوليسـية. يجب أن أقـول إنـه رجل ثمين من بعـض النواحي، ولكـن يجب أن يراقـب. ثم هناك الرجل الطويل الأذنين: إن هذا يُعدُّ نفسـه لأن يشرح لنا مذهبه الخاص. وهم متضايقـون مـن أننـي أعاملهم معاملـة طلقة بغيـر تحرّج، وأننـي أصب على حماستهم ماءً بارداً. هيء هيء! ولكن سيكون علينا أن نذهب إليهم قطعاً.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش بإهمال وقلة اكتراث:

ـ لا شك أنك حدثتهم عني حديثك عن زعيم!

فألقـى عليـه بطرس سـتيفانوفتش نظرة سـريعة، ثـم قال متظاهـراً بأنه لم يسمع السؤال، منتقلاً إلى موضوع آخر على الفور:

ـ بالمناسـبة، لعلـك تعلم أنني ذهبت إلـى فرفارا بتروفنـا مرتين أو ثلاث مرات، وإنني اضطررت أن أحكي لها أموراً كثيرة.

ـ أتخيل هذا.

ـ لا، لا، لا تتخيل شـيئاً. كل ما قلته هو أنك لن تقتل شـاتوف، وقلت لها أشياء أخرى من هذا النوع. ولكن هل تتصور أنها منذ الغداة كانت تعلم أنني أسكنت ماريا تيموفيئفنا وراء النهر. أأنت الذي ذكرت لها هذا؟

ـ لم يخطر ببالي أن أفعل.

ـ قدَّرت ذلك. ولكن من عساه قال لها هذا الأمر؟
ـ ليبوتين طبعاً.
ـ لا، ليس ليبوتين.
كذلك دمدم يقول بطرس ستيفانوفتش وقد ظهرت في وجهه علائم انشغال الفكر على حين فجأة. وتابع يقول:
ـ ولكنني سأعرف من الذي قال لها ذلك. لعله شاتوف!... على كل حال، دعنا من هذه السخافات... ولكن الأمر خطير إلى أبعد حدود الخطورة مع ذلك!... بالمناسبة: كنت أنتظر طول الوقت أن تلقي عليك أمك السؤال الرئيسي فجأة... نعم!... لقد كانت تبدو في جميع هذه الأيام الأخيرة مهمومة البال مظلمة الوجه، فماذا وجدت حين وصلت إليها اليوم؟ رأيتها مشرقة المحيا منبسطة الأسارير. ما معنى هذا؟
ـ مرد ذلك إلى أنني وعدتها اليوم بأن أخطب ليزافتا نيقولايفنا بعد خمسة أيام.
هذا ما أفلت من لسان نيقولاي فسيفولودوفتش بصراحة لم تكن متوقعة.
تمتم بطرس ستيفانوفتش يقول متلعثماً كالمرتبك:
ـ آ... نعم... في هذه الحالة مهم حتماً.. هل تعلم أن الناس يتحدثون اليوم عن خطوبته؟ ولكنك على حق. لسوف تترك الآخر عند أول نداء منك، حتى ولو كانت في تلك اللحظة بالكنيسة أمام الكاهن الذي يعقد قرانها على الآخر. ألستَ مستاءً مني لأنني أقول هذا الكلام؟
ـ لا.
ـ ألاحظ أن إغضابك اليوم أمر صعب جداً، لقد بدأت أخاف منك. لشدة ما يشوقني أن أعرف ما هو الوضع الذي ستتخذه غداً حين تظهر.
لا بد أنك هيأت منذ الآن حيلاً كبيرة. هل تزعل من كلامي بهذه الطريقة؟
لم يجب نيقولاي فسيفولودوفتش، فكأن من شأن ذلك أن رفع حنق بطرس ستيفانوفتش إلى ذروته. قال:
ـ بالمناسبة: هل جدٌّ ما قلته لأمك في موضوع ليزافتا نيقولايفنا؟

فحدَّق إليه نيقولاي فسيفولودوفتش بنظرة باردة.
ـ آ... فهمت. أنت لم تقل لها ذلك إلّا لتهدئها.
ـ فماذا لو كان ما قلته جداً لا هزلاً؟
كذلك سأله نيقولاي فسيفولودوفتش بلهجة قاطعة.
قال بطرس:
ـ طيب. سأقول لك: كان الله في عونك، على حد التعبير الشائع. إن هذا لـن يلحق ضـرراً بالقضية (ها أنت ذا تـرى أنني لا أقـول "بقضيتنا"، فأنت لا تحـب هـذا الضمير "نا").. أمَّا أنـا... فإنني... فإنني.. فـي خدمتك... تحت أمرك.. كما تعلم...
ـ أتظن؟
ـ لا أظن شيئاً، لا أظن شيئاً على الإطلاق...
كذلك أسرع يقول بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً. وتابع كلامه يقول:
ـ لأنني أعلم أنك تتنبأ بجميع تفاصيل شـؤونك الشخصية، وأن كل شيء عندك معيَّن محدَّد. لكنني أريد ان أقول لك إنني تحت أمرك، صادقاً مخلصاً، في كل وقت وفي كل مكان، وفي جميع الظروف، والمناسبات، نعم، جميع الظروف والمناسبات، هل تفهم؟
تثاءب نيقولاي فسيفولودوفتش.
قال بطرس ستيفانوفتش وهو ينهض بغتةً:
ـ ضجرت مني.
وتنـاول قبعتـه المـدوَّرة، الجديـدة كل الجـدة، كأنما لينصـرف. لكنه لم ينصـرف وظل يتكلـم بغير توقف. وكان من حين إلى حين يمشـي في الغرفة بضع خطوات، لاطماً ركبته بقبعته.
وهتف يقول مرحاً:
ـ كنت أنوي أيضاً أن أروي لك بعض النوادر المضحكة عن أسرة لمبكه.
ـ لا، أرجـئ هـذا إلـى مرة أخـرى. ولكن بالمناسـبة: كيف صحـة جوليا ميخائيلوفنا؟

ـ ما أغرب العادات الاجتماعية الراقية؟ فيم تهمك صحة جوليا ميخائيوفنا؟ وها أنت ذا مع ذلك تسأل عنها. يعجبني هذا. إن صحتها حسنة، وهي تحمل لك احتراماً يمضي إلى حد الإيمان بالخرافات. إنها تنتظر منك أموراً عظيمة جليلة! أما عمَّا حدث يوم الأحد، فهي لا تقول كلمةً واحدةً، لاقتناعها بأنه يكفيك أن تظهر للناس حتى تنتصر على جميع أعدائك. يميناً إنها لتتخيل قدرتك غير ذات حدود. ثم إن شخصيتك أصبحت الآن أكثر إيغالاً في السر وأقرب إلى عالم الخيال والروايات مما كانت في الماضي أيضاً. ظرف ملائم جداً. جميع الناس ينتظرون وقد نفذ صبرهم إلى حد الجنون. كانت أذهانهم ملتهبة متأججة حين تركتهم. وهي الآن أكثر التهاباً وتأججاً. بالمناسبة: شكراً على الرسالة، مرةً أخرى. إنهم جميعاً يرهبون الكونت ك... رهبة فظيعة. هل تعلم أنهم ينظرون إليك، فيما أظن، نظرتهم إلى جاسوس؟ وأنا أشجعهم على هذا الظن. هل يسوءك هذا مني؟

ـ لا.

ـ هذا هام جداً للمستقبل. إن لهم هنا أفكارهم. وأنا أشجّعهم عليها طبعاً. في طليعتهم جوليا ميخائيلوفنا. ثم جاجانوف... أتضحك؟ إن لي خطتي وأسلوبي، إن لي "تكتيكي": أتكلم، وأتكلم، ثم أقذف بفكرة ذكية فجأة، في اللحظة التي يتوقعونها جميعاً. فيحتشدون حولي، وأستأنف ثرثرتي وهذري. لذلك لا يكرهني أحد الآن. هم يقولون: "هذا شاب موهوب، لكنه هابط من القمر، لمبكه يقترح عليَّ أن أتوظف، ليصلح حالي. ليتك تعلم كيف أعامله! إنني أعرِّضه للمشاكل فيُشده شدهاً شديداً حتى ليصعق صعقاً. أمَّا جوليا ميخائيلوفنا فإنها تشجعني. بالمناسبة: جاجانوف حاقد عليك جداً. أمس، في دوخوفو، قال لي عنك كلاماً سيئاً جداً. فشرحت له الحقيقة كلها فوراً، أقصد: جزءاً من الحقيقة طبعاً، قضيت عنده يوماً كاملاً. أطيان رائعة، منزل جميل!

ـ كيف؟ أما يزال إذن في دوخوفو؟

كذلك سأل نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينتصب على ديوانه فجأة بحركة قوية.

أجاب بطرس ستيفانوفتش بإهمال، متظاهراً بأنه لم يلاحظ الانفعال المفاجئ الذي اعترى ستافروجين:

ـ لا، عاد بي هذا الصباح. رجعنا معاً. هه. أسقطت كتاباً.

وانحنى على الأرض ليتناول الكتاب. وأردف:

ـ كتاب "النساء"، تأليف بالزاك، مع صور.

وفتح الكتاب قائلاً:

ـ لم أقرأ هذا الكتاب. إن لمبكه يكتب روايات أيضاً.

سأله نيقوي فسيفولودوفتش كأن الأمر يهمه:

ـ حقاً؟

ـ بالروسية؟ وخفيةً طبعاً. ثم إن جوليا ميخائيلوفنا تعرف ذلك وتسمح له به. يا للرجل العاجز! غير أن له مظهراً قوياً: إنها عادة السلطة. ما أشد حرص هؤلاء الناس على مهابة التقاليد. ما أقوى تقيدهم بالقواعد ومراعاتهم للأشكال! ذلك ما ينقصنا نحن.

ـ أتتغنى بمدح رجال الحكم؟

ـ هذا هو الشيء الوحيد المتقن في روسيا.

وأسرع يهتف:

ـ لكنني لن أضيف كلمة أخرى، لن أضيف كلمة أخرى، لن أقول كلمة واحدة في هذه الأمور الحرجة الشائكة!... وأنا منصرف على كل حال. ما هذا التجهّم في هيئتك؟

ـ بي حمّى.

ـ ظاهر هذا عليك. يجب أن ترقد. بالمناسبة: يوجد في المقاطعة أناس من "ملة الخصيان"[1] إن أمرهم لعجيب جداً. سوف أحدثك عنهم فيما بعد. ولكن هناك حكاية أخرى صغيرة. غيرَ بعيد من هنا، يوجد لواء مدفعية. ويوم الجمعة، في ب... ، سكرنا مع الضباط، إن بينهم ثلاثة من أصدقائنا، هل تفهم؟ تكلمنا

---

(1) "ملة الخصيان": ملة صوفية يسمى أصحابها بالروسية "سكوبتزي"، وهم يمارسون خصي أنفسهم نشداناً للكمال الأخلاقي.

في الإلحاد، فأجهزنا على الله طبعاً. بالمناسبة: يؤكد شاتوف أننا إذا أردنا أن تقوم ثورة في روسيا، فيجب أن نبدأ حتماً بالإلحاد. ربما كان هذا صحيحاً. كان هناك كابتن أشيب الشعر، جندي قديم عجوز، لم يكن يقول شيئاً. فها هو ذا ينهض فجاة، ويقف في وسط الغرفة كعمود، ويأخذ يقول كمن يخاطب نفسه، "إذا كان الله غير موجود، فما معنى رتبة الكابتن التي أحملها؟". وها هو ذا بعد ذلك يأخذ قبعته، و يرفع منكبيه متحيراً، و يخرج.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يتثاءب للمرة الثالثة:

ـ لقد عثر بذلك على فكرة صحيحة.

ـ حقاً؟ إنني لم أفهم وقد أردت أن أسألك. ماذا أحكي لك أيضاً؟ آ... نعم... إن مصنع آل شبيجولين هام جداً. إن فيه كما تعلم خمسمائة عامل. هو بؤرة كوليرا. إنه لم ينظف منذ خمسة عشر عاماً، وإن أصحابه، وهم من ذوي الملايين، يسرقون من أجور العمال. أؤكد لك أن بعض هؤلاء العمال عندهم فكرة عن "الأممية"[1] لماذا تبتسم؟ سوف ترى. أمهلني بعض الوقت فقط، بعض الوقت. سبق أن طلبت منك مهلة. وإني لأطلب منك مهلة ثانية، وعندئذ... معذرةً على كل حال. ها أناذا أصمت. ها أنذا أصمت، لا تقطِّب حاجبيك. وها أناذا أنصرف أيضاً. ولكن...

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وهو يعود أدراجه، وتابع كلامه:

ـ نسيت الشيء الأساسي: لقد أُبلغت منذ قليل أن صندوقنا وصل من بطرسبرج.

سأله نيقولاي فسيفولودوفتش مدهوشاً:

ـ صندوقنا؟

ـ أقصد صندوقك مع أمتعتك وثيابك وسراويلك وملابسك الداخلية.

ـ هل وصل؟

ـ نعم، قيل لي ذلك منذ قليل.

---

(1) هل من حاجة إلى التذكير بأن "الرابطة الأممية للعمال" ("الأممية الأولى")، إنها أسسها كارل ماركس بلندن سنة 1864؟

ـ ألا يمكننا والحالة هذه...
ـ اسأل ألكسي.
ـ إذن في الغد، أليس كذلك؟ إن بين أمتعتك سترة ورداء وثلاثة بنطلونات صنعها لي شارموف وفقاً لطلبك. هل تتذكر ذلك؟
قال نيقولاي فسيفولودوفتش مبتسماً:
ـ سمعت أنك تتأنق هنا وتتبع الموضة. هل صحيح أنك تريد أن تأخذ دروساً في ركوب الخيل؟
فتقلصت شفتا بطرس ستيفانوفتش بابتسامة. ودمدم يقول بصوت متقطع مختلج:
ـ اسمع يا نيقولاي فسيفولودوفتش، لا نصطنعنْ هنا أوضاع شخصيات. لنتفق على هذا مرةً واحدة إلى الأبد،هه؟ في وسعك أن تحتقرني ما شئت ما ظل ذلك يسرُّك ويسلِّيك، ولكن من الأفضل أن ندع هنا أدوار الشخصيات، ولو إلى حين على الأقل، أليس كذلك؟
أجابه نيقولاي فسيفولودوفتش بقوله:
ـ طيب. لن أفعل هذا بعد الآن.
فابتسم بطرس ستيفانوفتش ابتسامة صغيرة. ولطم ركبته بقعته، ومشى بضع خطوات، واسترد هيئته المعهودة.
ـ يذهب بعضهم حتى إلى اعتباري منافساً لك على ليزافتا نيقولايفنا. فكيف تريد مني أن لا أعنى بحسن هندامي؟
كذلك قال بطرس ضاحكاً ثم أضاف يسأل:
ـ ولكن من ذا الذي يأتيك بهذه الأخبار؟ هم... إن الساعة قد بلغت الثامنة تماماً. هيَّا! أنا ذاهب. لقد وعدت فرفارا بتروفنا بأن ألقاها. ولكنني أعدل الآن عن ذلك. وأنت، يجب عليك أن ترقد. ستتحسن غداً. الجو مظلم في الخارج، والسماء تمطر. ولكن عندي عربة. الطرقات في الليل غير مأمونة. آ... بالمناسبة: يحوم هنا حول المدينة رجل يقال له فدكا، هو سجين محكوم عليه بالأشغال الشاقة، هرب من سيبيريا. إنه أحد أقناني القدماء. تصور أن

أبي احتاج يوماً إلى مال فباعه جندياً منذ خمس عشرة سنة. شخص نادر حقاً.
سأل نيقولاي فسيفولودوفتش زائره وهو يرفع نحو عينيه:
ـ هل... هل كلمته؟
ـ نعم. إنه لا يختبىء عني. وهو مستعد لكل شيء، لكل شيء، في سبيل المال طبعاً. غير أن له اقتناعاته كذلك، على طريقته الخاصة بطبيعة الحال!... آ... نعم... بالمناسبة: إذا كان ما قلته منذ قليل عن مشاريعك المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا جَدّاً، لا هزلاً، فإنني أذكِّرك مرةً أخرى بأنني أيضاً مستعد لكل شيء في سبيلك، في جميع الظروف والمناسبات، على النحو الذي تتصوره وتريده. أنا في خدمتك... ماذا بك؟ أتبحث عن عصاك؟ آ... لا... تصوَّر أنني ظننت أنك تبحث عن عصاك.
لم يكن نيقولاي فسيفولودوفتش يبحث عن شيء ولا كان يقول كلمة واحدة، لكنه قد انتصب فجأة، وظهر في وجهه تعبير غريب.
قال بطرس ستيفانوفتش وهو يشير بغير تحرّج إلى الرسالة والظرف اللذين كانا تحت مكبس الورق:
ـ وإذا احتجت أيضاً إلى مساعدتي في مسألة جاجانوف، فأنا أنبئك بأنني أستطيع أن أرتب الأمور، وفي تقديري أنك ستستعين بي.
قال هذه الكلمات وخرج دون أن ينتظر جواب ستافروجين، ولكنه لم يلبث أطل برأسه من الباب المشقوق وصرخ يقول متعجلاً:
ـ أقول لك هذا لأن شاتوف لم يكن من حقه كذلك أن يجازف بحياته يوم الأحد حين اقترب منك، أليس كذلك؟ أحب أن تحفظ هذا جيداً.
وغاب.

4

لعل فرخوفنسكي كان يتخيل حين خرج أن نيقولاي فسيفولودوفتش متى خلا إلى نفسه، سيدمر كل شيء من حوله. و لعله تمنى أن يشهد نوبة الحنق المسعور هذه. لأن ظنه قد خاب: فإن نيقولاي فسيفولودوفتش ظل هادئاً.

وقد لبث واقفاً قرب المائدة دقيقة أو دقيقتين، على وضعه نفسه لم يغيِّره، شارد اللب ذاهل الهيئة. ثم تقلصت شفتاه بابتسامة جهمة باردة. وجلس على الديوان بهدوء، في ذلك المكان نفسه من ركن الغرفة وأغمض عينيه كأنه يشعر بتعب. وكانت الرسالة ما تزال تظهر من تحت مكبس الورق، لكنه لم يقم بأية حركة لإخفائها.

ولم يلبث أن غفا.

لم تستطع فرفارا بتروفنا التي كان يرهقها القلق منذ عدة أيام، لم تستطع أن تقاوم الرغبة في رؤية ابنها، فلما علمت أن بطرس ستيفانوفتش قد انصرف رغم الوعد الذي قطعه لها بأن يجيء، قررت أن تأتي لرؤية ابنها، رغم أن الوقت غير مناسب، فلعله يكلمها أخيراً بوضوح وحسم. نقرت على بابه وجلى، كما فعلت من قبل، فلمّا تفز بجواب، دخلت، فرأت ابنها جامداً جموداً غريباً، فاقتربت منه واجفة القلب بخطى خفيفة. إن الشيء الذي أدهشها هو أنه نام بمثل هذه السرعة بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش، وأنه استطاع أن ينام على وضع غير مريح، منتصب الجذع، ساكناً سكوناً تاماً، إن أنفاسه لا تكاد تُسمع، وإن وجهه شاحب قاس كأنه متجمِّد، وإن حاجبيه مقطبان تقطيباً خفيفاً. لقد كان في تلك اللحظة يشبه وجهاً من الشمع لا حياة فيه حقاً.

لبثت الأم مائلة على ابنها هكذا بضع لحظات، حابسةً أنفاسها، ثم إذا هي تشعر فجأة بخوف. فابتعدت سائرةً على رؤوس الأصابع، لكنها توقفت عند العتبة، والتفتت صوبه، ورسمت على النائم إشارة الصليب بسرعة، وتركت الغرفة مثقلة القلب بغمٍ جديد.

ظل نيقولاي فسيفولودوفتش غارقاً في هذا الغفو أكثر من ساعة. ما من عضلة في وجهه ارتجفت، ما من خلجة في جسمه ظهرت. وحافظ وجهه على عبوسه وقسوته. فلو بقيت فرفارا بتروفنا بضع دقائق أخرى لما استطاعت حتماً أن تحتمل هذا الشعور الساحق بأن ابنها جامد جمودَ الإغماء، ولأيقظته حتماً.

وها هو ذا يفتح عينيه من تلقاء نفسه، ولكنه يظل جامداً نحو عشر دقائق أخرى، محدِّقاً ببصره، في عناد وإصرار، إلى ركن من الغرفة كأنه يتبين فيه شيئاً غريباً ما، مع أنه ليس في ذلك المكان أي شيء يلفت النظر.

وأخيراً انطلقت ساعة الحائط الضخمة تدق بصوتها الرقيق العميق. فلفت نيقولاي فسيفولودوفتش رأسه إليها بشيء من القلق، ولكن الباب الذي يفضي إلى الدهليز انفتح في تلك اللحظة نفسها ودخل منه رئيس الخدم ألكسي ايجورتش. كان يحمل على ذراعه اليسرى معطفاً وشالاً وقبعة، ويمسك باليد اليمنى صينية من الفضة عليها رسالة.

قال ألكسي إيجورتش بصوت خافت وهو يضع الملابس على كرسي:

ـ الساعة هي التاسعة والنصف.

وقدَّم لمولاه رسالة غير مغلقة، لا تضم إلّا سطرين مكتوبين بالقلم الرصاص.

فلما قرأ نيقولاي فسيفولودوفتش الرسالة، تناول من على المائدة قلم رصاص، وخطَّ بضع كلمات في أسفل الرسالة ووضع الرسالة على الصينية، وقال لخادمه وهو ينهض عن ديوانه:

ـ سلِّمها بعد خروجي فوراً. والآن ساعدني في ارتداء ملابسي. وإذ لاحظ أنه يرتدي سترة خفيفة من مخمل، فكَّر لحظة، ثم أمر أن يؤتى بردنجوت من جوخ كان يرتديه ليخرج إلى المدينة في المساء. حتى إذا انتهى من العناية بزينته وهندامه، وضع على رأسه قبعته، وأغلق بالمفتاح الباب الذي كانت قد دخلت منه أمه، واستلَّ الرسالة التي كان قد خبأها تحت مكبس الورق، وخرج إلى الدهليز صامتاً، يتبعه ألكسي إيجورتش. وعن طريق سلَّم حجري ضيق، وصلا إلى مخرج يفضي رأساً إلى الحديقة وقد أُعدَّ فيه مصباح ومظلة كبيرة.

قال ألكسي إيجورفتش محاولاً بذلك، مرةً أخيرة، أن يثني عزم مولاه عن القيام بالرحلة التي كان يزمع القيام بها:

ـ لقد هطلت الأمطار غزيرة حتى ليكاد يستحيل المرور في الشوارع.

ولكـن نيقولاي فسـيفولودوفتش نشـر مظلته دون أن يجيب، ومشـى في الحديقـة العتيقـة المظلمـة كأنها كهف. وكانـت الريح تصفـر، وتهز رؤوس الأشـجار التي كادت تعرى من أوراقها منذ ذلـك الحين. والممرات الضيقة المفروشة بالرمل متزلقة لزجة.

وتبـع ألكسـي إيجورفتـش مـولاه ينيـر لـه الطريـق، سـائراً وراءه بثلاث خطوات، لابساً رداء الفراك، عاري الرأس، كما دخل عليه منذ برهة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش يسأل:

ـ لا يمكن أن نُرى؟

ـ يستحيل أن يُرى من النوافذ شيء. ثم إن جميع الاحتياطات قد اتخذت.

كذلك أجاب الخادم بصوت هادئ ولهجة موزونة .

قال نيقولاي:

ـ هل نامت أمي؟

فأجاب الخادم:

ـ اعتصمت بغرفتها في الساعة التاسعة تماماً، على عادتها منذ أيام.

ثم أضاف يسأل مولاه متجرئاً:

ـ في أي ساعة يجب أن أنتظر عودتك؟

ـ الواحدة، الواحدة والنصف، الثانية في أكثر تقدير...

ـ أمرك مطاع.

فبعـد أن قطعا الحديقة كلها تقريباً بطـرق متعرجة يعرفانها كلاهما معرفة جيـدة، وصـلا إلى السـور الحجري، ووجدا البـاب الذي يفضي إلى شـارع صغيـر مظلـم ضيق، وهو باب يظل مقفلاً بالمفتاح فـي جميع الأحيان ولكن هذا المفتاح موجود الآن في يدي ألكسي إيجورتش.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ آمل أن لا يُسمع للباب صرير.

فأجابـه ألكسـي إيجورتش بأنه قد زيّـته أمس، و "زيّـتـه اليوم أيضاً"، فهو مبتـل بالزيت ابتلالاً تاماً، فلا يمكن أن يكون له صرير. حتى إذا فتح ألكسـي

الباب بالمفتاح، مدَّه إلى نيقولاي فسيفولودفتش الذي أخذه منه.

ـ إذا كان مولاي ينتوي الذهاب إلى مكان بعيد، فإنني أسمح لنفسي بأن ألفت نظر مولاي إلى الناس هنا لا يؤمَن شرهم كثيراً، ولاسيما أولئك الذين يحومون في الشوارع الصغيرة النائية، وعلى الشاطئ الآخر من النهر خاصة.

كذلك قال الخادم وقد عجز عن الامتناع عن إبداء هذه الملاحظة. إنه خادم عجوز كان قد حمل نيقولاي فسيفولودوفتش على ذراعيه، وهو إنسان كثير الجد، بل هو أميل إلى الصرامة، ولا ينفك يقرأ الكتب المقدسة.

أجابه نيقولاي فسيفولودوفتش قائلاً:

ـ لا تقلق يا ألكسي ايجورتش!

ـ باركك الله يا سيدي، على شرط أن تفعل خيراً.

ـ كيف؟

كذلك قال نيقولاي فسيفولودوفتش متوقفاً على حين فجأة بعد أن اجتاز العتبة.

فكرر ألكسي إيجورتش كلامه بصوت ثابت، متمنياً له أن يباركه الله على شرط أن يفعل خيراً. لم يجرؤ ألكسي إيجورتش في يوم من الأيام قبل الآن أن يتمنى لمولاه أن يباركه الله، بعبارة كهذه العبارة.

أغلق نيقولاي فسيفولودوفتش الباب، ودسَّ المفتاح في جيبه، وسار متعثراً بالوحل في شارع صغير أفضى به إلى شارع طويل خال مقفر لكنه مرصوف. كان ستافروجين يعرف المدينة معرفة جيدة، غير أن شارع أبيفانا بعيد عن منزله كثيراً، لذلك كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة حين وقف أخيراً أمام بوابة منزل فيليبوف، المغلقة في تلك الساعة من الوقت. إن الطابق الأرضي غير مسكون منذ رحيل لبيادكين وأخته، ولقد سُدَّت نوافذه بألواح من خشب، غير أن المسكن الذي يقع تحت السقف، وهو المسكن الذي يقيم فيه شاتوف، كان مضاءً. وإذ لم يكن ثمة جرس فقد قرع نيقولاي فسيفولودوفتش الباب بقبضة يده عدة قرعات، ففتحت طاقة صغيرة أطل منها شاتوف محاولاً أن يتعرف الزائر. ولكن الظلمات كانت أكثف من أن

يستطيع شاتوف رؤية شيء. فقال بعد دقيقة يسأل:

ـ أهذا أنت؟

فأجابه الزائر غير المنتظر:

ـ نعم، أنا!

فأغلق شاتوف الطاقة، ونزل، وفتح الباب.

اجتاز نيقولاي فسيفولودوفتش العتبة، ومرَّ صامتاً أمام شاتوف، واتجه رأساً نحو الجناح الصغير الذي كان يشغله كيريلوف.

5

كل الأبواب هنا مفتوحة على آخر مداها. حجرة المدخل والغرفتان الأوليان مظلمتان، لكن الغرفة الأخيرة التي يسكنها كيريلوف، والتي يحتسي فيها الشاي الآن، كانت مضاءة، وكانت تخرج منها ضحكات وصيحات عجيبة. مضى نيقولاي فسيفولودوفتش نحو النور، ولكنه توقف على العتبة. كان الشاي مصبوباً في الفناجين. وفي وسط الغرفة كانت تقف امرأة عجوز هي قريبة فيليبوف. إنها حاسرة الرأس، عارية القدمين في حذاءيها، لا ترتدي إلّا تنورة وصديرة من جلد الأرنب، وعلى ذراعيها طفل في نحو الشهر الثامن عشر من عمره، يلبس قميصاً لكنه عاري الساقين. خداه حمراوان قرمزيان، وشعره الأشقر منفوش مشعث فكأنه رُفع الآن من مهده. لا بد أنه بكى كثيراً، فإن دموعاً صغيرة ما تزال تتلألأ على أهدابه. ولكنه في هذه اللحظة يحرِّك يديه الصغيرتين ويضحك ضحك الأطفال الصغار حتى ليكاد يختنق من شدة الضحك. ذلك أن كيريلوف كان واقفاً أمام الطفل يرمي على أرض الغرفة كرة كبيرة حمراء، فتنط الكرة إلى السقف، وتعود لتسقط على الأرض، فيصيح الطفل "بَهْ.. بَه!" فيلتقط كيريلوف ال "به"، ويناولها الطفل فيرميها الطفل بيديه الصغيرتين الخرقاوين، فيركض كيريلوف وراءها، ويلتقطها، حتى إذا تسللت الكرة مرةً تحت الخزانة، أخذ الطفل يصيح "بَهْ... بَه"، فانبطح كيريلوف على بطنه ومطَّ جسمه محاولاً التقاط الكرة، وعندئذ

دخل نيقولاي فسيفولودوفتش إلى الغرفة، فإذا الطفل يطفق منتحباً حين رآه، وإذا هو يندسّ في صدر العجوز التي أسرعت تنصرف به.

قال كيريلوف وهو ينهض عن الأرض والكرة بيده، دون أن يبدو عليه أي دهشٍ لهذه الزيارة غير المتوقعة:

ـ ستافروجين؟ هل تريد شاياً؟.

ـ لا أرفض، ولا سيما إذا لم يكن بارداً. إنني مبتل بالماء كل الابتلال.

قال كيريلوف بسعادة واضحة لا تخفى على الناظر:

ـ الشاي ساخن، بل هو محرق. اجلس. لقد حملت إلينا وحلاً. ولكن لا ضير. سأنظفه بخرقة مبلولة.

جلس نيقولاي فسيفولودوفتش، وشرب الشاي الذي صبَّه له كيريلوف، شربه جرعةً واحدة تقريباً.

سأله كيريلوف:

ـ هل لك بمزيد؟

ـ شكراً.

كان كيريلوف قد ظل حتى ذلك الحين واقفاً، فجلس عندئذ أمام الزائر وسأله:

ـ ماذا جاء بك؟

ـ جئت لشأن. اقرأ هذه الرسالة. لقد بعثها إليَّ جاجانوف. هل تتذكر؟ لقد سبق أن حدثتك عن هذا في بطرسبرج.

تناول كيريلوف الرسالة وقرأها ثم وضعها على المائدة ونظر إلى ستافروجين نظرة استفهام.

بدأ نيقولاي فسيفولودوفتش يتكلم فقال:

ـ تعلم أنني رأيت هذا الرجل أول مرة في بطرسبرج منذ شهر تقريباً. ثم التقينا في المجتمع مرتين أو ثلاث مرات. ولم نتعارف، ولم يوجه إليَّ كلمة واحدة في يوم من الأيام، ولكن هذا لم يمنعه من أن يكون وقحاً معي. ذكرتُ لك هذا في حينه. لكنك لا تعرف التتمة. فحين بارح بطرسبرج قبلي بمدة

قصيرة بعث إليَّ رسالة إن كانت أقل فظاظة من هذه فإنها شرسة جداً على كل حال، وقد أدهشتني كثيراً لا سيما وأنني حاولت أن أعثر فيها على الأسباب التي دفعته إلى كتابتها إليَّ فلم أظفر بطائل. وسرعان ما أجبته فأكَّدت له صادقاً كل الصدق أنه إذا كان الأمر أمر ذلك الحادث الذي وقع بيني وبين أبيه في النادي منذ أربع سنين، كما افترض ذلك، فإنني مستعد لأن أقدم إليه جميع اعتذاراتي، خاصة وأن فعلي لم يكن مقصوداً وأنني كنت في ذلك العهد مريضاً، وطلبت منه أن يُدخل في حسابه هذه الظروف. ولم يجبني وسافر. ثم ها أنذا أجده الآن هنا وقد جُنَّ جنونه حقداً عليَّ وكرهاً لي. وقد نُقل إلي أنه قذفني مراراً بشتائم مقذعة على مسمع من الناس، واتهمني بأمور لا يصدقها العقل. وأخيراً حُملت إليَّ اليوم هذه الرسالة. ما أظن أن أحداً تلقى في حياته رسالةً كهذه الرسالة. إنها رسالة ملأى بالشتائم والإهانات، كقوله مثلاً: "يا صاحب البوز الذي لا يصلح لغير الصفع واللكم". وقد جئت إليك آملاً أن لا ترفض أن تكون شاهدي في المبارزة التي سأطلبه إليها.

قال كيريلوف:

ـ تقول إنه ما من أحد تلقى في حياته رسالة كهذه الرسالة؟ أنت مخطئ. ذلك يحدث في نوبة من نوبات غضب شديد. ذلك يحدث كثيراً. إن بوشكين قد كتب إلى هكرن[1]. طيب. سأذهب إليه. ماذا يجب أن أقول له؟

طلب نيقولاي فسيفولودوفتش من كيريلوف أن يمضي غداً إلى جاجانوف، فيبدأ كلامه معه بأن يكرر اعتذارات ستافرجين، وأن يقول له إن ستافروجين مستعد حتى لأن يكتب إليه رسالة ثانية زاخرة بالاعتذارات، ولكن على شرط أن يقطع جاجانوف على نفسه عهداً من جهته بأن لا يبعث إليه بعد الآن رسائل سب وشتم. أمَّا الرسالة الأخيرة التي بعثها جاجانوف

(1) إن البارون هكرن، سفير هولاند في روسيا، قد تبنى شارل دانتيس الذي كان يغازل زوجة بوشكين. ففي 26 كانون الثاني (يناير) 1837، كتب الشاعر إلى البارون رسالة مهينة تشتمل على سب وشتم، وتتهم البارون بتهم بشعة عن علاقته بابنه المتبنى، وفي تلك الرسالة طلب بوشكين البارون إلى المبارزة. وقد أناب السفير عنه في المبارزة ابنه المتبني دانتيس الذي أصاب بوشكين بجرح قاتل كما هو معلوم.

فتعتبر في هذه الحالة كأنها لم تكن، وتعد ملغاة.

قال كيريلوف:

ـ هذه تنازلات كبيرة. لن يقبل.

ـ أريد أن أعرف أولاً أأنت مستعد لأن تنقل إليه هذه الشروط؟

ـ سأنقلها إليه. هذا شأنك أنت. لكنه لن يقبل.

ـ أعرف.

ـ إنه يريد أن ينتهي كل شيء غداً هذا هو الأمر الأساسي. ستكون عنده في الساعة التاسعة. وسيصغي إلى كلامك، سيرفض اقتراحاتك، ولكنه سيجعلك على صلة بشاهده، في الساعة الحادية عشرة مثلاً. فنتفق مع شاهده على أن نكون جميعاً في مكان المبارزة في نحو الساعة الواحدة أو الثانية. حاولْ، أرجوك، أن ترتب الأمور على النحو الذي أطلبه منك. سيكون السلاح هو المسدس طبعاً. وأنا أحرص على الشروط التالية: تكون المسافة بين الحاجزين عشر أقدام، وتتوليان أنتما وقف كل منا على مسافة عشر أقدام من حاجزه. فإذا انطلقت الإشارة المتفق عليها، مضى كل منا نحو الآخر، وكان عليه أن يسير إلى الحاجز، ولكن يحق له أن يطلق النار قبل أن يبلغه مشياً. ذلك كل شيء كما أظن.

قال كيريلوف:

ـ عشر أقدام بين الحاجزين؟ هذا قليل.

ـ فلتكن المسافة بين الحاجزين اثنتي عشر قدماً، ولكن لا أكثر. أنت تدرك أنه يريدها مبارزة جدّ لا هزل. هل تعرف كيف تحشو المسدسات.

ـ نعم. عندي مسدسات. وسوف أحلف يمين الشرف على أنك لم تستعملها في يوم من الأيام. وسيحلف شاهده هذه اليمين أيضاً بالنسبة إلى مسدساته. سيكون هناك أربعة مسدسات، اثنان لكل واحد. وسيُعيّن مسدسا كل متقاتل بالقرعة.

ـ هل تريد أن ترى مسدساتي؟

ـ أتمنى.

جثا كيريلوف أمام حقيبته التي لم يكن قد فضَّها بعد، وإنما كان يُخرج منها ما هو في حاجة إليه، متاعاً بعد متاع. فما هي إلّا برهة حتى أخرج منها علبة من خشب النخيل مزدانة في الداخل بنسيج من المخمل. كانت العلبة تضم مسدسين ممتازين لا بد أنهما غاليا الثمن.

ـ عندي كل ما يجب: بارود، رصاصات، خرطوشات. ثم إن عندي كذلك مسدساً يحمل عدة رصاصات. انتظر! وأخذ ينبش في حقيبته من جديد، إلى أن أخرج منها مسدساً أمريكياً ذا ستِّ طلقات في ظرفه.

ـ عندك أسلحة كثيرة، أسلحة غالية الثمن.

ـ نعم، غالية الثمن جداً، باهظة الثمن كثيراً.

كان واضحاً أن كيريلوف الفقير، المعدم، الذي كان لا يلاحظ فقره على كل حال، يعتز اعتزازاً كبيراً بأسلحته الجميلة التي لا شك أنه اشتراها بتضحيات ثقيلة.

سأله ستافروجين بعد صمت قصير، وبشيء من تردد:

ـ ألا تزال على رأيك؟

ـ نعم.

كذلك أجاب كيريلوف وقد أدرك فوراً، من لهجة الزائر، ماذا كان يقصد. وجعل يرتب أسلحته.

فسأله ستافروجين بعد صمت آخر بمزيد من التردد والحذر:

ـ ومتى؟

كان كيريلوف قد أرجع العلبة والصندوق إلى الحقيبة، وعاد إلى مكانه. فقال:

ـ ذلك لا يتعلق بي أنا كما تعلم. عندما يُطلب مني.

كذلك تمتم يقول كأن السؤال يحرجه قليلاً وكان واضحاً مع هذا أنه مستعد للإجابة عن جميع الأسئلة التي قد تتلو ذلك السؤال. وحدَّق إلى ستافروجين بعينيه السوداوين اللتين ليس فيهما بريق، وكانت نظرته هادئة، ولكنها رقيقة لطيفة بشوش.

وساد صمت طويل، ثم استأنف ستافروجين كلامه فقال حالمَ الهيئة:

ـ إنني أفهم هذا جيداً... الانتحار...

كان وجهه قد تجهّم واكفهرّ، وتابع كلامه يقول:

ـ كثيراً ما فكرت في هذا الأمر. ولكن كانت توافيني عندئذ فكرة جديدة: لو ارتكب المرء جريمة أو قل عملاً مشيناً أو دناءة حقيرة أو سفالة جبانة سخيفة، أي شيئاً يظل الناس يذكرونه خلال قرون ويظل يثير اشمئزازهم ألف عام... حتى إذا فرغ من ارتكاب ذلك العمل "أطلق رصاصة على رأسه، فزال كل شيء ولم يبق شيء" ما قيمة أقوال البشر عندئذ وما قيمة بصقاتهم؟ أليس هذا صحيحاً؟

ـ وأنت تسمي هذا فكرة جديدة؟

كذلك سأله كيريلوف بعد لحظة تأمل وتفكير.

أنا... لا أقول إنها فكرة جديدة، ولكنني أحسستها جديدة حين بدت لي.

ألحَّ كيريلوف يسأله:

ـ "أحسست" الفكرة؟ طيب. ما أكثر الأفكار التي وُجدت دائماً، ثم إذا هي تبدو جديدة على حين فجأة! ذلك صحيح. أشياء كثيرة أراها الآن كما لو كنت أراها أول مرة.

قال ستافروجين دون أن يصغي إليه، مستمراً في شرح فكرته:

ـ لنفترض أنك عشت في القمر، فارتكبت هناك عملاً من تلك الأعمال الحقيرة الخسيسة المضحكة. إنك وأنت تعيش الآن هنا تعلم حق العلم أن الناس سيضحكون عليك هنالك وأنهم سيلطخونك بالوحل خلال قرون، إلى الأبد، ما بقي القمر. ولكنك على الأرض، ومن الأرض إنما تنظر إلى القمر: فهل تعنيك عندئذ جميع القذارات التي اقترفتها هناك على القمر وهل يهمك أن يبصق عليك سكان القمر خلال قرون؟ أليس ما أقوله صحيحاً؟

أجاب كيريلوف:

ـ لا أدري.

ثم أضاف يقول دون أية نية ساخرة، بل لإثبات واقع لا أكثر:

ـ أنا لم أعش في القمر.

ـ لمن هذا الطفل؟

ـ لحماة العجوز... بل أقصد لامرأة ابنها... سيَّان! لقد وصلت أمه منذ ثلاثة أيام. وهي مريضة. في السرير. الطفل يصرخ كثيراً في الليل. آلام في البطن. أمه نائمة. جاءتني به العجوز. أخذت أرمي أمامه الكرة. إنها كرة من هامبورج. اشتريتها من هامبورج لأرميها وأتلقفها: هذا يقوي الظهر. والطفل بنت لا صبي.

سأل ستافروجين:

ـ هل تحب الأطفال؟

فأجاب كيريلوف، ولكن بلهجة ليس فيها اكتراث كثير:

ـ نعم.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين:

ـ فأنت إذن تحبّ الحياة أيضاً؟

ـ نعم. أحب الحياة... لماذا؟

ـ ولكنك عازم على الانتحار.

ـ وما العلاقة بين الأمرين؟ الحياة شيء، والموت شيء آخر. الحياة موجودة والموت غير موجود.

ـ أأنت تؤمن إذن بالحياة الآخرة الأبدية؟

ـ لا، ليس بالحياة الآخرة الأبدية، بل بالحياة الأبدية هنا على هذه الأرض. هناك لحظات... إن المرء يصل إلى لحظات يتوقف فيها الزمان فجأة، فيصبح الحاضر أبدية.

ـ هل تأمل أن تتوصل إلى هذه اللحظة؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش، بدون سخرية من جهته هو أيضاً:

ـ لا أظن أن هذا ممكن في زماننا. في رؤيا يوحنا يحلف الملاك أن الزمان

لن يوجد بعدئذ[1].

كان يتكلم ببطء، مستغرق الفكر.

قال كيريلوف:

ـ أعلم ذلك. وهذا صحيح. قيل بوضوح ودقة. حين يكون الإنسان بكامله قد بلغ السعادة، فإن الزمان لن يوجد بعدئذ، لأنه لن يكون ضرورياً بعد ذلك.

ـ أين عساه يختفي في أي مكان، ليس الزمان شيئاً له حيِّز، بل هو فكرة ستنطفئ.

ـ ما هذه إلّا أقوال فلسفية مبتذلة معادة مكرورة، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون.

كذلك دمدم يقول ستافروجين بنوع من أسف يمازجه ازدراء.

فهتف كيريلوف يقول وقد التمعت عيناه فجأة، كأن هذه الفكرة وحدها ضمانة للنصر:

ـ نعم، تتردد هي نفسها منذ بداية القرون، ولكن لن يكون هناك غيرها...

ـ إنك تبدو سعيداً جداً يا كيريلوف، هه؟

أجاب كيريلوف، وكأنه ينطق بكلمات عادية جداً:

ـ نعم، سعيد جداً.

ـ لكنك كنت معتكر المزاج منذ قليل، وكنت حانقاً على ليبوتين.

ـ همْ... الآن لست كذلك. لم أكن أعرف عندئذ أنني سعيد. هل رأيت ورقة، ورقة شجرة؟

ـ طبعاً.

ـ رأيت ورقة شجرة في الآونة الأخيرة، ورقة مصفرَّة، ما يزال فيها شيء من اخضرار، وكانت حواشيها قد تفسّخت. وكانت الريح تطردها. في العاشرة من عمري، أثناء الشتاء، كنت أغمض عينيَّ عامداً، وأتخيل ورقة

---

(1) من المعروف أن دوستويفسكي قد تأثر كثيراً بهذه العبارة الواردة في رؤيا القديس يوحنا. وقد تحدث عنها في كتابه "الأبله"

خضراء، متألقة بعروقها الملتمعة تحت أشعة الشمس. حتى إذا فتحت عيني لم أصدق الواقع. إن ما رأيته كان جميلاً جداً. وكنت أعود أغمض عينيَّ...

ـ أهذا رمز؟

ـ لا... لماذا؟ ليس هذا رمزاً. إنها ورقة لا أكثر. ورقة. شيء حسن. كل شيء حسن.

ـ كل شيء؟

ـ كل شيء.. الإنسان شقي لأنه لا يعرف أنه سعيد. لا لشيء غير هذا. ذلك سر الأمر كله، كله على الاطلاق. فمن عرفه لم يلبث أن يصبح سعيداً، على الفور. امرأة الابن ستموت. والطفلة ستعيش. كل شيء حسن. كل شيء بديع. اكتشفت هذه الحقيقة فجأة.

ـ وإذا مات المرء من الجوع، وإذا أوذيت بنت صغيرة، إذا لطخ شرفها بالعار، فهل هذا حسن أيضاً، هل هذا بديع أيضاً؟

ـ نعم. وإذا كسر أحدٌ جمجمةَ الشخص الذي ألحق أذى بالبنت الصغيرة فهذا حسن أيضاً. وإذا لم يكسر أحد جمجمته، فهذا حسن كذلك. كل شيء حسن، كل شيء بديع، كل شيء. وهم سعداء أولئك الذين يعرفون أن كل شيء حسن بديع. فإذا عرفوا أنهم سعداء. كانوا سعداء. لكنهم لا يكونون سعداء ما ظلوا يجهلون أنهم سعداء. تلك هي الفكرة كلها، الفكرة كاملةً، وليس هناك فكرة غيرها.

ـ متى اكشفت أنك سعيد؟

ـ في هذا الأسبوع، يومَ الثلاثاء، لا بل يوم الأربعاء، لأن الوقت كان في الهزيع الأخير من الليل.

ـ بأية مناسبة؟

ـ لا أذكر. كنت أمشي في الغرفة طولاً وعرضاً... لا قيمة لهذا... المهم أنني وقفت ساعتي. كانت تشير إلى الثانية وخمس وثلاثين دقيقة.

ـ فعلت هذا إشارةً إلى أن الزمان سيتوقف.

لم يجب كيريلوف.

ثم استأنف كلامه فجأة فقال:

- هم ليسوا طيبين لأنهم لا يعرفون أنهم طيبون. فمتى عرفوا ذلك في المستقبل، فسيصبحون طيبين، ولن يغتصبوا عفاف البنت الصغيرة. يجب أن يعرفوا أنهم طيبون، فإذا هم يصبحون طيبين على الفور، جميعهم، إلى آخر واحد منهم.

- طيب. أنت الآن تعرف أنك طيب، فهل أنت إذن طيب؟

- نعم أنا طيب.

فدمدم ستافروجين يقول مكفهر الوجه:

- على هذا أوافقك.

قال كيريلوف:

- والذي سيعلِّم الناس أنهم جميعاً طيبون أخيار، فذلك سوف يختم تاريخ العالم.

- إن الذي علَّم الناس ذلك قد صُلب.

- سوف يجيء، وسيكون اسمه الإله الإنسان.

- الإنسان الإله؟

- بل الإله الإنسان. ذلك هو الفرق كله.

- أتُراك أنت الذي أشعلت السراج أمام الأيقونة؟

- نعم، أنا.

- أتؤمن الآن؟

- العجوز تحب السراج... ولم يتسع وقتها اليوم.

كذلك دمدم كيريلوف.

- أنت، ألا تصلي بعد؟

- أصلِّي دائماً. انظر إلى هذا العنكبوت الذي يتسلق الجدار! إنني أنظر إليه فأشكره لأنه هنا.

وسقطت عيناه من جديد، وحدَّق إلى ستافروجين بنظرة فيها عزة وشمم،

نظرة لا تنصاع أو تنثني. فكان ستافروجين يتأمله بنوع من الاشمئزاز، ولكن دون أية سخرية. ثم قال وهو ينهض ويتناول قبعته:

ـ أراهن على أنك ستكون قد آمنت بالله حين أجيئك في مرة قادمة.

سأله كيريلوف: ـ لماذا؟

فأجاب ستافروجين وهو يضحك ساخراً:

ـ إذا كنت تعرف أنك مؤمن بالله، فسوف تؤمن به، ولكنك لا تؤمن الآن لأنك لمّا تعرف بعدُ أنك مؤمن.

أجاب كيريلوف بعد لحظة تفكير:

ـ ليس هذا هو الأمر البتة. أنت قلبتَ فكرتي. ما كلامك هذا إلّا مزاح رجل من المجتمع الراقي. تذكر، يا ستافروجين، المنزلة التي لك في نفسي، تذكَّر ماذا كنتَ لي.

ـ أستودعك الله يا كيريلوف.

ـ ارجع إليَّ ليلاً. متى؟

ـ أتُراك نسيت قضيتنا غداً؟

ـ آ... نعم... نسيت. اطمئن بالاً، لن أتأخر عن الموعد. في الساعة التاسعة. إنني أستطيع أن أستيقظ في الوقت الذي أشاء. أنام قائلاً لنفسي: سوف أستيقظ في الساعة السابعة، فإذا أنا أستيقظ في الساعة السابعة، وإذا قلت إنني سأستيقظ في الساعة العاشرة، استيقظت في الساعة العاشرة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر إلى وجه كيريلوف الشاحب:

ـ تلك موهبة ثمينة جداً.

ـ سأفتح لك البوابة.

ـ لا تزعج نفسك. سوف يفتحها لي شاتوف.

ـ آ... شاتوف... طيب... أستودعك الله.

6

إن المنزل المقفر الذي يسكنه شاتوف لم يكن مغلقاً. ولكن حين دخل

ستافروجين، وجد نفسه في ظلام حالك، واضطر أن يتلمس السلم الذي يفضي إلى مسكن شاتوف تلمساً. وفجأة فُتح باب هذا المسكن الذي يقع تحت سطح المنزل، فُتح على مصراعيه، وأُضيء السلَّم. ولكن شاتوف لم يخرج من غرفته. فلما بلغ ستافروجين الفسحة الأخيرة من فسحات السلَّم رأى شاتوف واقفاً في ركن من الغرفة قربَ المائدة ينتظره.

فسأله وهو يقف على عتبة الباب:

ـ هل ترضى أن تستقبلني لعمل؟

فأجابه شاتوف:

ـ ادخل واجلس. أغلق الباب. لا بل انتظر. سأغلقه أنا.

وأقفل شاتوف الباب بالمفتاح وجلس قبالة نيقولاي فسيفولودوفتش، وراء المائدة. كان قد نحل خلال هذا الأسبوع، وكان كأنه يعاني من حُمّى.

قال بصوت أجش وهو يخفض عينيه:

ـ لشد ما عذبتني! لماذا لم تجئ إليَّ؟

ـ أكنت واثقاً هذه الثقة كلها بأنني سأجيء؟

ـ انتظر... لقد أصابتني حُمّى فكنت أهذي... ولعلني ما زلت أهذي...

ونهض، وتناول شيئاً كان موجوداً على حافة الرف الثالث من خزانة كتبه. إنه مسدس. ثم قال:

ـ حلمت ذات لية أنك ستجيء تقتلني، حتى إذا استيقظت في الغد أعطيت ذلك الوغد ليامشين آخر ما كنت أملك من قروش، ثمناً لهذا المسدس. لقد أردت أن أدافع عن نفسي. وبقي المسدس على هذا الرف منذ ذلك الحين.

وفتح طاقة النافذة.

فقال نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ لا ترمه. علام ترميه؟ إنه باهظ الثمن، وغداً يقول الناس إنهم وجدوا مسدساً تحت نوافذ شاتوف. أعده إلى مكانه. نعم، هكذا، اجلس الآن. قل لي: لماذا يبدو عليك أنك تعتذر عن أنه خطر ببالك أنني سأجيء أقتلك؟ لا يذهبن بك الظن إلى أنني جئت أصالحك. ولكن قل لي أولاً: أليست علاقتي

بزوجتك هي التي دفعتك إلى صفعي؟

أجاب شاتوف وهو يخفض عينيه من جديد:

ـ أنت تعلم حق العلم أن السبب ليس هذا!

ـ ولا كانت الشائعات الغبية التي راجت عن داريا إيفانوفنا هي السبب؟

ـ لا، لا، حتماً لا... يا لها من شائعات سخيفة! لقد قالت لي أختي فوراً...

كذلك صاح شاتوف بلهجة جافية تدل على نفاد الصبر، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه.

فتابع ستافروجين كلامه يقول بلهجة هادئة:

ـ إذن حزرتُ أنا وحزرت أنت: نعم، إن ماريا تيموفيئفنا هي زوجتي الشرعية. لقد تزوجنا ببطرسبرج منذ أربع سنين. وبسببها قمت تضربني، أليس كذلك؟

فدمدم شاتوف يقول أخيراً وهو يتأمل ستافروجين بهيئة غريبة:

ـ كنت قد حزرت ذلك، ولكنني كنت لا أريد أن أصدِّق الأمر.

ـ ومع هذا ضربتني...

احمرّ وجه شاتوف، وغمغم يقول متلعثماً بصوت متقطع:

ـ بسبب... صغارك وتدنّيك... بسبب كذبك. ثم إنني لم أقترب منك لأعاقبك... حين اتجهت إليك... ولم أكن أعرف أنني سأضربك... ولئن ضربتك، فلأنك لعبت دوراً كبيراً جداً في حياتي.

ـ فهمت، فهمت. يكفي هذا. من المؤسف أن بك حمّى. إن أموراً هامة يجب أن أُبلغك إياها.

فهتف شاتوف وهو ينهض عن مكانه مرتعشاً كل الإرتعاش من نفاذ الصبر:

ـ إنني أنتظرك منذ مدة طويلة. قل قضيتك... وسوف أتكلم أنا أيضاً... بعدك...

وعاد يجلس.

بدأ نيقولاي فسيفولودوفتش يتكلم فقال وهو يتوسَّمه مستطلعاً:

ـ هذه القضية من نوع آخر تماماً. لقد اضطررت بسبب الظروف أن أجيئك

هذه الساعة لأُبلغك أن من الممكن أن تُقتل.

نظر إليه شاتوف بوحشية. ثم قال ببطء:

ـ أنـا أعلـم أن حياتي ربما في خطـر، ولكن كيف تستطيع أنت أن تعرف هذا؟

ـ لأنني واحد من الجماعة، مثلك تماماً، لأنني عضو في جمعيتهم، مثلك تماماً.

ـ أنت... أنت عضو في جمعيتهم؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يبتسم ابتسامة خفيفة:

ـ أرى من عينيك أنك كنت تتوقع مني كل شيء إلّا هذا. ولكن اسمح لي: أأنت تعرف إذن أنهم ضاقوا بك وأنهم يعتـزمون قتلك؟

ـ لـم يخطـر ببالي هذا في يوم من الأيـام، لا ولا أطيق ان أصدِّقه حتى في هـذه اللحظـة بعد أقوالك... رغم أن المرء لا يمكن أن يكون واثقاً بشـيء أو متأكداً من شيء في تعامله مع هؤلاء الأغبياء!...

كذلـك صاح شـاتوف في سـورة مفاجئة مـن غضب شـديد وهو يضرب المائدة بقبضة يده. وتابع كلامه يقول:

ـ لقـد قطعـت الصلة بهـم. وجاءني واحد منهـم أربع مرات فقـال إن في إمكاني أن...

لكن شاتوف أمسك عن الكلام فجأة ونظر إلى ستافروجين وسأله:

ـ ولكن ما الذي تعلمه أنت على وجه الدقة؟

استأنف ستافروجين كلامه فقال ببرود امرئ يكتفي بالقيام بواجب:

ـ اطمئـن. لاتخف. إنني لا أخدعك. هـل تريد أن تعرف ماذا أعلم؟ إنني أعلـم أنـك دخلت في هـذه الجمعية في الخارج منذ سـنتين، حتى قبل إعادة تنظيمهـا، وذلك قبيل سـفرك إلى أمريـكا، وبُعيد حديثنا الـذي كتبت إليَّ فيه مـن أمريكا بإفاضة وإسـهاب، فيما أظن. بالمناسـبة: اغفر لـي إنني لم أجبك برسالة، واقتصرتُ على...

ـ ... أن ترسل إليَّ المال. انتظر...

قال شـاتوف ذلك، وأسرع يفتح دُرْجاً في مائدته، فاستلَّ من تحت أوراق فيه، ورقةً نقدية بمائة روبل. وقال لستافروجين:

ـ إليك المال الذي أرسـلته إليَّ حينـذاك. خذه. لولاك لهلكت هناك. وما كان لي أن أسـتطيع رده إليك إلّا بعد مدة طويلة لولا تدخل أمك: فمنذ تسعة أشهر، بعد مرضي، علمت بما أنا فيه من شقاء وعوز وبؤس، فأهدت إليَّ هذه المائة روبل. ولكن أكمل كلامك، أرجوك.

كان شاتوف كمن يختنق.

ـ وفـي أمريكا تغيرت آراؤك، حتى إذا عدت إلى سويسـرا أردت أن تترك الجمعية. ولم يجيبوك، ولكنهم كلفوك بأن تسـتلم في روسـيا آلة طابعة وأن تحتفظ بها هنا إلى أن يأتيك شـخص موفد منهم ليطلب منك أخذها. لسـت علـى علـم بجميـع التفاصيـل، ولكنني أظـن أن الأمر كان كذلـك على وجه الإجمال. أهذا صحيح؟ أمَّا أنت، فقد قبلت هذا مؤملاً أو مشـترطاً أن تكون هـذه المهمة آخر مطلب لهم عندك، وأن يدعوك بعد ذلك وشـأنك. هذا كله لـم أعرفـه منهم هم، وإنما عرفتـه بمصادفة محضة. هناك شـيء لا أظن أنك تعرفه بعد: هو أن هؤلاء السادة لاينتوون الانفصال عنك أبداً.

صاح شاتوف يقول:

ـ مستحيل. لقد أعلنت لهم صادقاً أننا مختلفون من جميع النواحي، وهذا حقـي. هذا حـق ضميري وفكري!... لن أقبل... ما من قوة سـوف تسـتطيع أن...

قاطعه ستافروجين يقول بهيئة رصينة:

ـ لا تصرخ. من الممكن أن يكون فرخوفنسـكي ذاك متجسـساً علينا الآن في الممر بنفسه أو بموفدٍ منه. حتى ذلك السكير لبيادكين قد كلفوه بمراقبتك كمـا كلفـوك أنت بمراقبتـه، أليس صحيحـاً ما أقـول؟ قل لي أولاً هل سـلَّم فرخوفنسكي بأدلتك وحججك أم هو لـم يسلِّم بها؟

ـ سلَّم بها. وقال لي إن في وسعي أن أتركهم، فهذا من حقي...

ـ فاعلـم إذن أنـه يخدعك ويضلّلـك. إني أعلم أن كيريلوف نفسـه، وهو

الـذي لا يـكاد يجمـع بينهم وبينه أي شـبه، قـد أمدَّهم بمعلومـات عنك. إن لهـم عمـلاء كثيريـن. حتى إن بعـض هؤلاء العمـلاء يجهلون أنهـم يعملون للجمعيـة. إنهـم لم يكفوا عـن مراقبتك في يوم من الأيـام. ولقد جاء بطرس فرخوفسـكي إلـى هنا بقصـد البت في أمور كثيـرة منها تقرير مصيـرك تقريراً حاسماً. لقد خُوِّل سلطات تامة لإزالتك في اللحظة التي يراها مناسبة، لأنك تعـرف أشـياء كثيرة، فمن الممكن أن تشـي بالجمعية. أكرر لـك أن هذه هي الحقيقـة. واسـمح لي أن أضيف أنهم مقتنعون اقتناعـاً مطلقاً ـ لا أدري لماذا ـ بأنك جاسـوس، وبأنك إن لم تكن قد خنتهم حتى الآن فسوف تخونهم في المستقبل. أليس هذا صحيحاً؟

حيـن سـمع شـاتوف هـذا السـؤال يطرحـه نيقـولاي فسـيفولودوفتش سـتافروجين بهذه اللهجة العادية، ابتسـم ابتسامة مصنوعة، وقال غاضباً دون أن يجيب إجابة مباشرة:

ـ هبني جاسوساً، فلمن أشي بهم؟

ثم صاح عائداً إلى جملة من الجمل التي قالها محدِّثه فشدهته شدهاً أكبر كثيراً من شدهه للنبأ القائل بأن حياته معرَّضة للخطر، صاح يقول:

ـ ولكـن دعنـا من الكلام عني أنـا. فلأذهب أنا إلى جهنـم. وإنما أريد أن أعرف: كيف أمكنك أنت، أنت ستافروجين، أن تحشر نفسك في هذه الزمرة مـن الخدم الأغبياء الحقيرين؟ أأنت تدخـل عضواً في جمعيتهم؟ أهذا عمل لامع يليق بنيقولاي ستافروجين؟

كذلك هتف شاتوف وقد استولى عليه كمد شديد وحزن هائل.

حتـى لقد صفق يديه إحداهما بالأخرى، كأنه ليس هناك شـيء أدعى إلى المرارة، وأبعث على الأسف من هذا الاكتشاف.

قال ستافروجين بدهشة غير مفتعلة:

ـ معـذرة. ولكـن يخيـل إليَّ أنـك تعدّني كوكبـاً متألقاً ما أنـت بجانبه إلّا حشـرة مسـكينة. لقد سـبق أن لاحظت ذلك عند قراءتي الرسـالة التي بعثتها إليّ من أمريكا.

ـ إنك... إنك تعلم... ولكن كفى حديثاً عني... كفى!

كذلك قال شاتوف يقطع كلامه حاسماً. وأضاف:

ـ إذا كنت تستطيع أن تمدني بإيضاحات... عن سؤالي، فافعل.

ـ بسرور. تسألني كيف أمكنني أن أزج نفسي في مثل هذه القضية الوسخة؟ إنني بعد أن أبلغتك ما أبلغتك أجد نفسي مضطراً أن كون صريحاً معك، إلى حد من الحدود. الحق أنني لا أنتمي إلى هذه الجمعية، ولا انتميت إليها في يوم من الأيام. فأنا إذن أحق منك بأن أتركها لأنني لم أدخل فيها على وجه الإجمال. حتى لقد أعلنت لهم منذ البداية أنني لا أعمل معهم في قضية مشتركة، ولئن اتفق أن ساعدتهم في بعض المناسبات، فإن ذلك لم يكن مني إلّا هواية، إذا لم أجد هواية أفضل. ومع ذلك فقد شاركت في إعادة تنظيم الجمعية على أسس جديدة. ذلك كل شيء. لكنهم غيَّروا رأيهم الآن، وقرروا فيما بينهم أن من الخطر أن يتركوني: وأعتقد أنهم حكموا عليَّ بالإعدام أنا أيضاً.

ـ أوه! إنهم لا يعرفون إلّا هذا: عقوبة الإعدام... مع حكم مطابق للأصول، على ورق ممهور بأختام رسمية وثلاثة تواقيع. وهل تظن أنهم قادرون على أن ينفذوا؟

تابع ستافروجين كلامه يقول بتلك اللهجة نفسها التي تشتمل على قلة الاكتراث ولا يكاد يكون فيها انفعال:

ـ إنك على بعض الحق، ولكن على بعض الحق فقط. لا شك فيه أن هذا كله يتضمن إسرافاً في الخيال: إنهم يضخمون قوّتهم وخطورة شأنهم. وإذا أردت أن تعرف رأيي، فإن الزمرة كلها تتجمع في شخص بطرس فرخوفنسكي، وبطرس فرخوفنسكي هذا يكون متواضعاً جداً حين لا يعد نفسه إلّا عميلاً للجمعية. على أن مبدأ تنظيمهم ليس أسخف من مبدأ تنظيمات أخرى من هذا النوع. إنهم على صلات بـ "الأممية". إن لهم عملاء في روسيا. حتى لقد ابتدعوا أساليب جديدة أصيلة... على الصعيد النظري طبعاً. أمّا عن نياتهم هنا، فإن عمل التنظيمات الروسية التي من هذا النوع تبلغ

من الغموض وتبلغ من البعد عن التوقع أن كل شيء ممكن عندنا. لاحظ أن فرخوفنسكي يملك إرادة.

ـ هذه القملة، هذا الجاهل، هذا الحيوان الذي لا يفهم من روسيا شيئاً؟

كذلك صرخ شاتوف حانقاً أشد الحنق. فقال له نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ إنك لا تعرفه حق معرفته. صحيح أنهم لا يفهمون من روسيا شيئاً كبيراً على وجه العموم، و لكنهم ليسوا أجهل منا بها إلّا قليلاً. ثم إن فرخوفنسكي ذو حماسة.

ـ فرخوفنسكي ذو حماسة؟

ـ نعم، إنه في ما وراء بعض الحدود يكف عن التمثيل والتهريج... ويصبح نصف مجنون. تذكَّر أحد تعابيرك نفسها: "هل تعلم مدى ما يمكن أن يملكه إنسان وحيد من قوة؟" لا تضحك، أرجوك. إنك قادر كل القدرة على إطلاق رصاصة. وهم مقتنعون بأنني أنا أيضاً جاسوس. إنهم إذ يعجزون عن تعريف قضيتهم مستعدون لأن يتهموا الآخرين بالجاسوسية.

ـ ومع ذاك فلست خائفاً أنت منهم، أليس صحيحاً؟

ـ لا، لست خائفاً كثيراً. ولكن وضعك مختلف تماماً. وإنما نبهتك من أجل أن تحتاط. في رأيي أنه ليس أمراً مزعجاً مثيراً أن يهدِّدَ المرءَ أناسٌ سخفاء أغبياء. ولكن الأمر ليس أمر ذكائهم، وقد اتفق أن رفعوا أيديهم على آخرين غيري وغيرك. ولكن الساعة قد بلغت الحادية عشرة والربع...

قال ستافروجين ذلك وهو ينظر في ساعته. ونهض. ثم قال:

ـ أريد أن ألقي عليك سؤالاً عن موضوع غير هذا تماماً.

فصاح شاتوف يقول وهو ينهض فجأة:

ـ ناشدتك الله!

فسأله ستافروجين مدهوشاً:

ـ ماذا تعني؟

ـ اسأل! ألق سؤالك، ناشدتك الله!

كذلك كرر شاتوف وهو فريسة انفعال لا سبيل إلى مغالبته. وتابع يقول:

ـ ولكن على شرط أن أستطيع أنا أيضاً أن ألقي عليك سؤالاً.

أتوسل إليك... إذا سمحت... أصبحت لا أطيق صبراً... اسأل...

انتظر ستافروجين لحظة. ثم بدأ يتكلم فقال:

ـ سمعت أن لـك بعض التأثير في ماريا تيموفيئفنـا، وأنها تحب أن تراك، وأن تسمع كلامك. هل هذا صحيح؟

ـ نعم... إنها تصغي إليَّ أحياناً...

وظهر الاضطراب على شاتوف.

قال ستافرجين:

ـ أنوي أن أعلن زواجنا على الناس في الأيام القليلة القادمة.

فدمدم شاتوف يقول مرتاعاً:

ـ ولكن... مستحيل!

ـ بأي معنى هو مستحيل؟ لا يمكن أن يكون هناك أية صعوبة. شهود الزواج هنا. لقد تمَّ كل شيء في بطرسبرج، على نحو شرعي جداً، بهدوء كامل وسلام تام. ولئن ظل الأمر سراً مكتوماً حتى هذا اليوم، فلأن شهود الزواج، وهم كيريلوف وبطرس فرخوفنسكي وكذلك لبيادكين (الذي يسرني أن يكون الآن قريبي) قد قطعوا على أنفسهم عهداً، هم الثلاثة، بأن يصمتوا.

ـ لست أقصد هذا... إنك تتكلم بهدوء... ولكن أكمل حديثك. قل لي: لم يجبرك أحد على هذا الزواج، هه؟

أجاب نيقولاي فسيفولودوفتش يقول مبتسماً من حرارة شاتوف المندفعة النافدة الصبر:

ـ لا، لم يجبرني أحد؟

فتابع شاتوف كلامه يقول بما يشبه الحمى:

ـ وما ذلك الطفل الذي تتكلم هي عنه؟

ـ الطفل؟ أي طفل؟ عجيب! هذه أول مرة أسمع فيها كلاماً عن طفل! إنها لم تلد طفلاً أبداً، ولم يكن ممكناً أن تلد: إن ماريا تيموفيئفنا قد ظلت عذراء.

ـ آ... ذلك ما كنت أقدِّره... اسمع!

ـ ما بك يا شاتوف؟

لقد غطى شاتوف وجهه بيديه وأشاح رأسه ثم أمسك ستافروجين من كتفيه فجأة، وقال صارخاً:

ـ تعرف على الأقل، نعم، هل تعرف على الأقل لماذا فعلت هذا الأمر، ولمذا ترتضي هذا القصاص الآن؟

ـ هذا سؤال ذكي وبل وغادر. لكني سوف أُدهشك: نعم، إنني أعلم تقريباً لماذا تزوجت، ولماذا قررت الآن أن أرتضي هذا "القصاص" على حد تعبيرك.

ـ لنترك هذا... سنتكلم عنه فيما بعد. انتظر! لننتقل إلى الشيء الجوهري، إلى الشيء الجوهري: إنني أنتظرك منذ سنتين!

ـ حقاً؟

ـ أنتظرك منذ مدة طويلة جداً. لم أنقطع عن التفكير فيك يوماً. إنك الإنسان الذي تستطيع أن... لقد سبق أن كتبت إليك في هذا الموضوع من أمريكا.

ـ أتذكر رسالتك الطويلة تذكراً كاملاً.

ـ لعلها كانت أطول من أن تُقرأ، هه؟ صحيح! ست صفحات كاملة. اسكت. اسكت. قل لي: هل تستطيع أن تهب لي من وقتك عشر دقائق أخرى، الآن، فوراً؟... إنني أنتظرك منذ مدة طويلة...

ـ أهب لك نصف ساعة، ولكن لا أكثر من ذلك. آمل أن يكفيك هذا.

قال شاتوف خارجاً عن طوره:

ـ ولكن على شرط... أن تغير لهجتك. هل سمعت؟ إنني أطالبك مطالبةً بأن تغيِّر لهجتك، بينما كان يجب عليَّ أن أضرع إليك... هل تعرف ما معنى أن يطالب المرء مطالبة، بينما كان ينبغي له أن يتوسل ويتضرع؟...

ـ أفهم أنك بهذه الطريقة تتحلل من القواعد والأصول، وتضع نفسك في خارجها، في سبيل هدف أعلى وغاية أسمى.

بهذا أجابه ستافروجين وهو يبتسم ابتسامة خفيفة. وأردف:

ـ لكنني ألاحظ متألماً أن بك حمّى.

ـ إنني أطلب الاحترام، بل أقتضيه، لا لشخصي ـ فليس لشخصي من قيمة ـ ليذهب شخصي إلى الشيطان، ولكنني أقتضي الاحترام باسم شيء آخر، وفي هذه اللحظة فقط، لهذه الكلمات القليلة. نحن هنا شخصان يلتقيان وجهاً لوجه في اللانهاية... ربما لآخر مرة. اترك لهجتك، تكلم بلهجة إنسانية. تكلم إنسانياً، ولو مرةً واحدة في حياتك. لا أقول هذا من أجل نفسي، بل من أجلك. هل تدرك أن عليك أن تغفر لي تلك الصفعة التي هويت بها عليك لا لشيء إلّا لأنني هيأت لك فرصة معرفة قوّتك الكبيرة؟... ها أنت ذا تبتسم مرة أخرى ابتسامة الازدراء تلك التي تعوّدتها، ابتسامة الازدراء تلك التي يبتسمها أبناء المجتمع الراقي. آه... متى تستطيع أن تفهمني أخيراً؟ تباً لمالك الأطيان العظيم! تباً للسيد الكبير! أفهم أنني أطالب بالاحترام، نعم، أطالب به وأقتضيه، وإلا فلن أتكلم بحال من الأحوال!

كاد اندفاعه أن يبلغ حد الهذيان. فقطب نيقولاي فسيفولودفتش حاجبيه، وأصبح أكثر تحفظاً. ثم قال بلهجة رصينة وهو يزن كل كلمة من كلماته:

ـ إذا بقيت نصف ساعة أيضاً مع أن وقتي ثمين جداً، فثق أنني إنما أفعل ذلك لأنني أنتوي أن أصغي إلى كلامك باهتمام على الأقل. وأنا واثق بأنك ستعلّمني أشياء كثيرة جديدة عليَّ.

صاح شاتوف يقول:

ـ اجلس.

ـ وتهالك هو على كرسيه.

واستأنف ستافروجين كلامه فقال:

ـ اسمح لي أن أذكرك مع ذلك بأنني بدأت أكلمك عن ماريا تيموفيئفنا وإنني كنت أريد أن أتوجه إليك برجاء هام جداً في شأنها، من أجلها هي على الأقل...

ـ هيه؟

كذلك قال شاتوف نافد الصبر كإنسان قاطعتَه في منتصف حديثه، ولم يدرك السؤال الذي ألقيته عليه مع استمراره في النظر إليك.

أضاف نيقولاي فسيفولودوفتش يقول مبتسماً:

ـ ولكنك لم تدع لي فرصة إتمام الكلام الذي شرعت فيه...

فصاح شاتوف يقول وهو يهز منكبيه بعد أن فهم المقصود:

ـ هذه سخافات. سنتكلم عنها فيما بعد.

وسرعان ما رجع إلى فكرته.

7

قال بلهجة تكاد تكون تهديداً وهو يميل على ستافروجين ملتمع العينين رافعاً سبابة يده (إنه لم يلاحظ ذلك حتماً)، قال:

ـ هل تعرف من هو الآن على وجه الأرض الشعب "الحامل للرب" الوحيد، الشعب الذي سيجدد العالم وينقذه باسم إله جديد، الشعب الوحيد الذي بيده مفاتيح الحياة والكلمة الجديدة...؟ هل تعرف من هو هذا الشعب وما اسمه؟

ـ أستنتج من وضعك، بغير تأخر، أنه الشعب الروسي...

هتف شاتوف يقول وهو يضطرب في كرسيه:

ـ ها أنت ذا تضحك منذ الآن! آه من هذا الصنف، من البشر!

ـ هدىء نفسك، أرجوك. لقد كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل.

ـ كنت تتوقع شيئاً من هذا القبيل؟ ولكن ألا تذكّرك هذه الأقوال بشيء؟

ـ بلى. وإني لأرى رؤية واضحة ما الذي تقصده، وإلى أين تريد أن تصل من هذا. إن عبارتك الطويلة، وحتى هذا التعبير: الشعب "الحامل للرب"، ليسا إلّا النتيجة التي تُستخرج من الحديث الذي جرى بيننا منذ أكثر من سنتين في الخارج قبيل سفرك إلى أمريكا... على الأقل إذا صدقت ذاكرتي الآن.

ـ إن تلك الجملة هي لك، لك أنت. أنت الذي قلتها. هذه أقوالك ذاتها،

وليست النتيجة التي تستخرج من "الحديث" الذي جرى بيننا، كان هناك معلّم ينادي بأفكار كبيرة، وكان هناك تلميذ ينبعث من بين الموتى. فأمَّا التلميذ فأنا، وأمَّا المعلّم فأنت.

ـ ولكن إذا صدقت ذاكرتي، فإنك بعد أقوالي تلك إنما دخلت في جمعيتهم ثم سافرت إلى أمريكا.

ـ نعم، وقد كتبت إليك عن هذا من أمريكا. لقد حدثتك في تلك الرسالة عن كل شيء. نعم، لم أستطع أن أنتزع نفسي دفعةً واحدة من كل ما كان قوام حياتي منذ طفولتي، من كل ما كان معقد آمالي وموضوع حماساتي، من كل ماجعلني أسكب دموعاً تفيض بالكره والبغض... إنه لمن الصعب على المرء أن يغير آلهته. لم أصدِّق أقوالك حينذاك، لأنني كنت لا أريد أن أصدِّقها، فرميت نفسي في تلك الهوة الملأى بالقذارات. غير أن البذرة في نفسي بقيت ثم نبتت. قل لي، ولكن بصدق: هل قرأت رسالتي التي بعثتها إليك من أمريكا، إلى نهايتها؟ لعلك لم تقرأها البتة؟

ـ قرأت منها ثلاث صفحات، الصفحتين الأولين والصفحة الأخيرة، وتصفّحت الباقي تصفحاً ولكنني كنت أنوي دائماً أن...

قال شاتوف يقاطعه وهو يجري يده بإشارة ازدراء:

ـ غير مهم، غير مهم! ولكن إذا كنت تعدل عن أقوالك التي قلتها في الماضي عن الشعب الروسي، فكيف أمكنك أن تقولها حينذاك؟ ذلك ما يعذبني اليوم ويسحقني سحقاً.

قال ستافروجين:

ـ لم أكن مازحاً يومئذ. وحين حاولت أن أقنعك في ذلك الأوان فلعلني كنت أفكِّر في نفسي أكثر مما أفكر فيك.

كلام يشبه أن يكون لغزاً أو أحجية.

فأجابه شاتوف:

ـ لم تكن مازحاً؟ لقد بقيت في أمريكا ثلاثة أشهر راقداً على القش بجانب إنسان شقي، فعلمت منه أنك بينما كنتَ تغرس في نفسي فكرة الله والوطن،

كنتَ في الوقت نفسه تسمِّم قلب ذلك الشقي، ذلك المهووس كيريلوف... لقد سكبت فيه الكذب والنفي، وألقيت بعقله إلى الجنون سريعاً. انظر إليه الآن، تأمل ماذا صنعت به! لقد رأيته على كل حال.

ـ أحب أن ألفت نظرك أولاً إلى أن كيريلوف قد قال لي هو نفسه منذ برهة أنه سعيد وأنه طيب الحال تماماً. إن افتراضك أن الأحاديث التي أجريتها معه قد تمت في ذلك الوقت نفسه الذي قام فيه الحديث بيني وبينك، هذا الافتراض صحيح تقريباً. ولكن على أي شيء يدل ذلك؟ أعود، فأقول لك: إنني لم أخدعكما، لا أنت ولا هو.

ـ أنت الآن ملحد، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ وفي ذلك الوقت؟

ـ كما أنا الآن تماماً.

دمدم شاتوف يقول مستاءً:

ـ لئن طالبتك بالاحترام في بداية محادثتنا هذه، فإنني لم أفعل ذلك من أجل نفسي. ولقد كان ينبغي لك، وأنت على هذا الجانب العظيم من الذكاء، أن تدرك ذلك.

ـ إنني لم أنهض حين بدأتَ تتكلم، ولا قطعت حديثنا، ولا انصرفت، بل بقيت جالساً أمامك أجيب عن أسئلتك وعن صرخاتك وزعقاتك طبعاً... فمعنى ذلك أنني لم أغضض من قدرك ولا قصَّرت في احترامك...

قاطعه شاتوف بحركة من يده. وقال يسأله:

ـ هل تتذكر أقوالك: "ما من ملحدٍ يمكن أن يكون روسياً"، هل تتذكر هذا؟

قال ستافروجين بلهجة فيها شيء من الشك:

ـ أقلتُ هذا؟

ـ أتسألني هل قلت هذا؟ أنسيت أنك قلته؟ ألا إنك مع ذلك قد أدركت عندئذ سمةً من سمات الفكر الروسي والروح الروسية. يستحيل أن تكون

قـد نسـيت أنك قلتَ هـذا. حتى لقد أضفـت يومئذ قولك: "ما مـن أحد غير أرثوذكسي يمكن أن يكون روسياً.".

- افترض أن هذه الفكرة هي من أفكار دعاة السلافية.

- لا، إن دعاة السـلافية المعاصرين ينبذونها. لقد أصبحوا أذكى. ولكنك مضيـت إلى أبعد من ذلك، فقلت إن الكاثوليكية الرومانية لم تعد هي الديانة المسـيحية. لقـد أكدت أن المسـيح الذي تنادي بـه روما قد وقع فـي الغواية الثالثة من غوايات إبليس[1]، وإن الكاثوليكية إذ أعلنت للعالم كله أن المسيح لا يمكن أن ينتصر في هذه الأرض ما لم يملك مملكة الأرض إنما نادت بما يخالف روح المسـيح، وهي بذلك تقود العالـم الغربي كله إلى الهلاك. وقد أشرت إلى أن فرنسا إذا كانت تتألم وتتعذب، فإنما مردُّ ذلك إلى الكاثوليكية، لأنها إن كفرت بالإله الروماني المتعفن، لم تظفر بالاهتداء إلى إله آخر. ذلك ما كنت لا تتحرج من قوله حينذاك. إنني أتذكر أحاديثنا تذكراً كاملاً.

قال ستافروجين جاداً كل الجد:

- لـو كنت أملـك الإيمان لكررت هذه الأقوال نفسـها حتماً. إنني لم أكن أكذب حينذاك حين تكلمت كما يتكلم مؤمن. ولكنني أؤكد لك أنه يزعجني جداً أن أسمع ترديد أفكاري القديمة. ألا تطيق أن تمسك عن الكلام؟

صاح شاتوف يسأله دون أن ينتبه أي انتباه إلى ما طُلب منه:

- لو كنت تملك الإيمان؟ ولكن ألست أنت الذي قلتَ لي إنك إذا برهنوا لك برهاناً رياضياً على أن المسـيح ضلال وأن الحقيقة شـيء والمسيح شيء آخر، لآثرت المسيح على الحقيقة؟[2] ألم تقل لي ذلك؟ أجب!

قال ستافروجين رافعاً صوته:

- ولكن اسمح لي أن أسألك بدوري، ما الداعي إلى هذا الامتحان الكاره المبغض، وإلى ماذا يؤدي هذا الاستجواب الغاضب الخبيث؟

---

(1) في إنجيل متى (الإصحاح الرابع، 9) أن الشيطان عرض على المسيح أن يكون له سلطان على مملكة هذا العالم. إشارة إلى السلطة الزمنية للبابا الكاثوليكي بروما.

(2) هذه العبارة نفسها وردت في رسالة بعثها دوستويفسكي إلى السيدة فونفيزينا من أومسك بعد خروجه من السجن في شهر شباط (فبراير) 1854

ـ سينتهي هذا الامتحان، وسينقضي إلى الأبد، فلن تُذكَّر به بعد الآن.
ـ أما زلت عند رأيك من أننا في خارج المكان والزمان؟...
قال شاتوف غاضباً على حين فجأة.
ـ اسكت. إنني غبي أخرق. ولكن فيم يهمني أن يصبح اسمى مثاراً للضحك والسخرية! هل تسمَح لي أن أذكِّرك بفكرتك الأساسية؟... أوه... عشرة أسطر فقط! النتيجة وحدها لا أكثر...
ـ أتمنى أن تقتصر على النتيجة.
قال ستافروجين ذلك، وهمَّ أن ينظر في ساعته، ولكنه أمسك في الوقت المناسب.
ومال شاتوف إلى أمام مرةً أخرى، ورفع سبَّابة يده، ولكن لحظةً قصيرة فحسب، وقال كمن يقرأ في كتاب وهو يحدِّق إلى ستافروجين بنظرة تهديد:
ـ ما من شعب، ما من شعب استطاع يوماً أن ينظم نفسه في الأرض على أسس علمية وعقلية، ما من شعب أفلح في ذلك، أو لعل شعباً من الشعوب قد أفلح في ذلك مدةً قصيرة عن حماقة. إن الاشتراكية في جوهرها ملحدة، لأنها نادت منذ البداية بأنها تستهدف بناء المجتمع على أساس العلم والعقل فحسب. في كل مكان وفي كل زمان، منذ بدء الأعصر، لم يمثل العلم والعقل في حياة الشعوب إلّا دوراً ثانوياً لخدمة الحياة. وسيظل الأمر كذلك إلى نهاية العصور، فإنما تتكوّن الشعوب وتنمو بدافع قوة مختلفة عن هذا كل الاختلاف، بدافع قوة عليا مسيطرة يظل أصلها مجهولاً ولا يمكن تفسيره. هذه القوة هي الرغبة المتأججة في الوصول إلى نهاية، وإنكار هذه النهاية في الوقت نفسه، هي تأكيد الحياة تأكيداً مستمراً لا يتعب، وإنكار الموت. هي روح الحياة، كما يقول الكتاب المقدس، هي "ينابيع المياه الدافقة" التي تهددنا رؤيا القديس يوحنا بأنها ستغيض ذات يوم[1]، هي مبدأ الجمال، على تعبير الفلاسفة، أو هي مبدأ الأخلاق على حد تعبيرهم أيضاً. أمَّا أنا فأسميها

(1) راجع رؤيا القديس يوحنا (الإصحاح الثاني والعشرين، 1).

ببساطة أكبر: البحث عن الله. إن هدف كل شعب، في كل حقبة من تاريخه، هو البحث عن الله فقط، عن إلهه، عن إلهه هو الذي يؤمن به على أنه هو الإله الوحيد الحق. إن الإله هو الحقيقة المركّبة من الشعب كله، منذ وجوده إلى نهايته. في كل زمان وفي كل مكان، كان لكل شعب إلهه الخاص، ولم يحدث حتى الآن أبداً أن كان لكلّ الشعب أو لعدة شعوب إله واحد، مشترك بينها جميعاً• وحين تأخذ الشعوب بأن يصبح لها آلهة مشتركة، فذلك علامة موتٍ لهذه الشعوب، وحين تصبح الآلهة مشتركة بين عدة شعوب، فإن الآلهة تموت، كما تموت الشعوب ويموت إيمانها. ولم يحدث حتى الآن أبداً أن وُجد شعب بغير دين، أي بغير فكرة عن الخير والشر. إن لكل شعب تصوره الخاص للخير والشر، شعب خيره الخاص به، وشرَّه الخاص به. حتى إذا تشاركت عدة شعوب في تصوراتها للخير والشر، فإن هذه الشعوب تنحدر عندئذ، حتى إن التفريق بين الخير والشر يمَّحي حينذاك ويزول. لم يقدر العقل يوماً، ولن يقدر، أن يحدد الخير والشر، بل ولا على أن يفصل الشر عن الخير ولو فصلاً تقريبياً. بالعكس: كان العقل على الدوام مشوشاً تشويشاً مخجلاً يدعو إلى الأسف. أمَّا العلم فإنه لم يُمدَّنا إلّا بحلول مبنية على القوة الوحشية، ولا سيما "نصف العلم" الذي كان أفظع الأوبئة التي أصابت الإنسانية، وكان أسوأ من الطاعون والمجاعات والحروب، والذي لم يظهر إلّا في هذا القرن من الزمان. إن "نصف العلم" طاغية لم نَرَ له مثيلاً من أقدم العصور إلى هذه الأيام، طاغيةٌ له كهنته وعبيده، يسجد أمامه الناس بحب غامر وإيمان خرافي، ويرتجف أمامه العلم نفسه، ولكنه يُهين هو العلمَ إهانةٌ مخجلة. هذا الكلام كله هو أقوالك ياستافروجين، إلّا جملتي الأخيرة عن "نصف العلم": فهذه الجملة لي أنا، لأنني من أهل "نصف العلم"، ولذلك أكرهه كرهاً خاصاً. أمَّا أفكارك أنت، أمَّا تعابيرك أنت، فإنني لم أغيِّر فيها شيئاً، ولم أبدِّل منها حرفاً.

قال ستافروجين مترويأً:

ـ ما أظن أنك لم تغير شيئاً. لقد التقطت أفكاري بهوى مشتعل فشوَّهها

هـذا الهـوى المتأجـج، دون أن تشـعر أنـت بذلـك. يكفي للرهـان على هذا التشويه أنك أنزلت الله إلى حيث جعلته صفةً للشعب لا أكثر.

إن ستافروجين يتابـع الآن شـاتوف بانتبـاه خاص، ولكنـه لا يتابع أقواله بقدر ما يتابع وضعه وحركاته وإشاراته.

صاح شاتوف يقول:

ـ أأنـا أُنزل الله إلى حيث أجعله صفةٌ للشـعب؟ لا بل إنني أرفع الشـعب إلـى حيث أصل به إلـى الله. وهل كان الأمر غير هذا فـي يوم من الأيام على كل حال؟ إن الشـعب هو جسـم الله. كل شـعب لا يكون شـعباً ما لم يكن له إلهـه الخـاص، إلهه الخاص به هو، وما لم يكفر دون أي اسـتعداد للتنازل أو التشـويه، بجميع الآلهـة الأخرى، وما لم يؤمن أنه بفضل إلهه سـينتصر على جميع الآلهة الأخرى وسـيطردها. ذلك كان إيمان جميع الشـعوب الكبيرة، أو على الأقل جميع الشعوب التي كان لها دور في التاريخ، والتي سارت في طليعة الإنسـانية. يستحيل على المرء أن يغالب الوقائع. إن اليهود لم يعيشوا إلّا لينتظروا الإله الحق ولقد أورثوا العالم فكرة الإله الحق. والإغريق قد ألَّهوا الطبيعـة، وأورثوا العالم ديانتهم، أي الفلسـفة والعلم. وروما ألَّهت الشـعب متجسداً في "الدولة"، وأورثت الإنسانية "الدولة". وفرنسا، التي تجسد الإله الرومانـي، لـم تـزد طوال تاريخهـا على أن تنمِّـي فكرة الإلـه الروماني، وإذا كانـت قد أسـقطته أخيراً وانحدرت هي نفسـها إلى هوة الإلحـاد الذي يطلق عليـه هناك، مؤقتاً، اسـم الاشـتراكية، فمـا ذلك إلّا لأن الإلحـاد هو رغم كل شـيء أسـلم من الكاثوليكية الرومانية. ومتى انقطع شـعب كبير عن الاعتقاد بأنه الوحيد الذي يقدر بفضل حقيقته أن يجدد الإنسـانية وأن ينقذ الشـعوب الأخـرى، فإنه سـرعان مـا ينقطع عن أن يكون شـعباً كبيراً، ثـم إذا هو يصبح مادة بشـرية لا أكثر. إن الشعب، إذا كان عظيماً بالفعل لن يقتصر أبداً على أن يقوم بدور ثانوي في حياة الإنسـانية، ولا بد أن يقوم بدور من الطبقة الأولى، فإنمـا هو يريد أن يكون له المـكان الأول تماماً، وأن يقوم بالدور الوحيد. إن الشعب الذي يفقد هذا الإيمان لا يبقي شعباً. ومع ذلك فإن الحقيقة واحدة،

ومعنى هذا أن شعباً واحداً من جميع الشعوب هو صاحب الإله الحق، مهما تكن آلهة الشعوب الأخرى قوية. إن الشعب الوحيد و"الحامل للرب" إنما هو الشعب الروسي...

وصاح شاتوف يقول محموماً على حين فجأة :

ـ و... و... هل يمكن يا ستافروجين أن تعدّني غبياً لا أدرك؟ هل هذه الآراء هي ثرثرات نساء عجائز عجنتها في موسكو، خلال سنين، معاجن دعاة السلافية، أم هي أقوال جديدة كل الجدة، أقوال فريدة، أقوال هي كلمة الخلاص والبعث الوحيدة؟ ... و... فيم يهمني ضحكك الآن! فيم يهمني أن لا تفهم شيئاً مما قلت، أن لا تفهم كلمة واحدة، أن لا تفهم حرفاً واحداً! ... آه... لشد ما أكره ضحكك المتغطرس ونظرتك في هذه اللحظة.

قال شاتوف ذلك ونهض بوثبة واحدة، حتى لقد كان فمه مزبداً.

قال ستافروجين بجدٍ غريب، دون أن يتحرك من مكانه:

ـ بالعكس يا شاتوف، بالعكس. إن أقوالك الحارة أيقظت في نفسي ذكريات كثيرة. إنني أعثر في أقوالك هذه على الحالة الروحية التي كنت أنا فيها من سنتين. وفي هذه المرة، لن أقول كما قلت منذ قليل إنك قد ضخَّمت الأفكار التي عبَّرت أنا عنها في الماضي. حتى ليبدو لي أن أفكاري تلك كانت تتصف بقطع أكبر وجزم أشد واندفاع أعظم. وإني لأؤكد لك مرة ثالثة أنني أتمنى كثيراً لو أكرر اليوم ما قلته أنت كلمة كلمة ولكن...

ـ ولكن يعوزك الأرنب؟

ـ ماذا؟

قال شاتوف وهو يضحك ضحكاً خبيثاً:

ـ هذا التعبير المنحط هو من تعابيرك أنت. "من أجل أن يطبخ المرء طاجن أرنب، يحتاج إلى وجود أرنب، ومن أجل أن يؤمن بإله يحتاج إلى وجود إله.". يقال إنك أنت الذي كررت هذه الجملة في بطرسبرج، كما فعل نوزدريوف الذي أراد أن يقبض على الأرنب من خلف.

ـ كان نوزدريوف، على خلاف ذلك، يتباهى بأنه قبض على الأرنب.

بالمناسبة: اسمح لي أن ألقي عليك سؤالاً، لا سيما وأن هذا من حقي الآن فيما يبدو لي. قل لي: هل أرنبك صار في قبضة يدك أم ما يزال يجري؟

فصاح شاتوف:

ـ أمنعك من إلقاء هذا السؤال بهذه الألفاظ. اسألني بأسلوب آخر، بأسلوب آخر!

فقال نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين وهو ينظر إليه مربدَّ الهيئة:

ـ أنا مستعد. كل ما أردته هو أن أعرف أأنت مؤمن بالله أم لا؟

ـ أنا مؤمن بروسيا، أنا مؤمن بالأرثوذكسية... مؤمن بجسم المسيح... مؤمن بأن ظهور المسيح ثانيةً سيتم في روسيا... مؤمن..

تمتم شاتوف خارجاً عن طوره.

قال ستافروجين ملحاً:

ـ وبالله؟ بالله؟

ـ بالله... سوف... سوف أؤمن.

لم تختلج عضلة واحدة في وجه ستافروجين. وكان شاتوف يتحداه بنظرته الحارة العنيفة. وهتف أخيراً يقول:

ـ أنا لم أزعم على كل حال أنني لا أؤمن بالله. ولكنني أريد أن أُفهمك أنني لست إلّا كاتباً حزيناً مملاً، لا أكثر من ذلك، ولكن مؤقتاً فقط، مؤقتاً! على كل حال، فليهلك اسمي! إنما الأمر أمرك أنت لا أمري أنا. أنا لا أملك أية موهبة، ولا أستطيع أن أقدم إلّا دمي لا شيء غير ذلك، كأي شخص عادي تافه. أنا أهب دمي. غير أنني أعلم عنك أنت. لقد انتظرتك سنتين. ومن أجلك إنما أرقص هنا منذ نصف ساعة عارياً كل العري. إنك الإنسان الوحيد، نعم، الوحيد الذي يستطيع أن يرفع هذه الراية...

وانقطع عن الكلام، وأسند كوعيه إلى المائدة، وأخفى رأسه في يديه كمن اعتراه يأس شديد.

ـ إنني ألاحظ، وهذا أمر عجيب حقاً، أن الجميع يريدون أن يضعوا بين يديَّ لا أدري أية راية. بطرس فرخوفنسكي، هو أيضاً، مقتنع بأنني أستطيع

أن "أرفع رايتهم". هذا ما نُمي إليَّ على الأقل. في ذهنه أنني أستطيع أن أقوم بدور كدور ستنكا رازين[1]، بفضل ما أتمتع به من "قدرة خارقة على الجريمة". تلك أقواله بنصها.

ـ ماذا؟ بفضل قدرتك الخارقة على الجريمة؟

ـ نعم.

ـ همْ...

كذلك همهم شاتوف. ثم سأل وهو يبتسم ابتسامة خبيثة:

ـ هل صحيح أنك انتسبت في بطرسبرج إلى جمعية سرية كانت تسترسل في دعارة حيوانية؟ هل صحيح أنك ربما كنت تتفوق على المركيز دي ساد؟ هل صحيح أنك كنت تجتذب إلى بيتك الأطفال لتدنِّسهم؟ تكلم! لا تكذب!

كذلك صاح شاتوف مهتاجاً. وأردف يقول:

ـ إن نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين لا يمكن أن يكذب أمام شاتوف الذي صفعه على وجهه قل كل شيء، فإذا صدق هذا كله، قتلتك على الفور، في الحال.

نطق ستافروجين بعد صمت طويل فقال:

ـ تكلمت عن هذه الأشياء. لكنني لم أدنِّس أطفالاً.

واصفر وجهه، والتمعت عيناه.

فتابع شاتوف كلامه ولكن دون أن يحوِّل عنه نظرته المشتعلة:

ـ لكنك تكلمت عن هذا، أليس كذلك؟ أحد صحيح أنك زعمت أنك لا ترى أي فرق بين دناءة شهوانية حيوانية وبين عمل عظيم كتضحية المرء بنفسه في سبيل الإنسانية؟ أصحيح أنك تجد في هذين الضدين لذة واحدة وأنك تكتشف فيهما جمالاً واحداً؟

دمدم ستافروجين يقول، وكان يمكنه أن ينهض وينصرف، لكنه ظل جالساً ولم يمض، دمدم يقول:

---

(1) "ستنكا رازين": زعيم عصبة قوقازية أثار الفلاحين في شرق روسيا وجنوبها من سنة 1667 إلى سنة 1671، وفي سنة 1671 خانه أنصاره فأعدم.

ـ تستحيل الإجابة عن أسئلة كهذه الأسئلة... لا أريد أن أجيب.
تابع شاتوف كلامه يقول مرتعشاً ارتعاشاً شديداً.
ـ أنا أيضاً لا أدري لماذا أرى الشر دميماً، وأرى الخير جميلاً، ولكنني أعلم كيف يمَّحي الإحساس بهذا الفرق ويزول لدى أمثال ستافروجين. هل تعرف لماذا تزوجت هذا الزواج السخيف الحقير؟ إنك إنما فعلت ذلك لأن العار والسخافة تمضيان هنا إلى حد العبقرية! لا، إنك لا تحوم حول ضفاف الهوة، بل تلقي نفسك فيها بجسارة منكَّس الرأس. إنك تزوجت حباً بالألم، وميلاً إلى عذاب الضمير، واحتياجاً إلى مباهج روحية. إن في عملك هذا نوعاً من الغيظ العصبي. إن تحديك هذا للحسّ العام قد أغراك إغراءً لم تستطع مغالبته ومقاومته. ستافروجين والمتسولة العرجاء المسكينة التي هي نصف بلهاء! حين عضضت أُذن الحاكم، ألم تشعر بإحساس لذيذ؟ ألم تعان ذلك الإحساس، أيها الأرستقراطي العاطل الخالي؟
قال ستافروجين وقد ازداد اصفرار وجهه شيئاً بعد شيء:
ـ إنك عالم بالنفس الإنسانية. ومع ذلك فقد أخطأت قليلاً في شرح أسباب زواجي...
ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة يُكره عليها نفسه إكراها:
ـ ولكن من أمدَّك بهذه المعلومات؟ أتُراه كيريلوف؟... غير أنه لم يشارك...
قال شاتوف: ـ أيصفرّ لونك؟
فإذا ستافروجين يرفع صوته فجأة:
ـ ولكن ماذا تريد أخيراً؟ إنني هنا أحتمل ضربات سوطك منذ نصف ساعة... إن في وسعك على الأقل أن تدعني أنصرف، بلطف وأدب، اللهم إلّا أن يكون هناك دافع معقول يحضّك على هذا الأسلوب في المعاملة؟
ـ دافع معقول؟
ـ حتماً. إن من واجبك أن تشرح لي هدفك على الأقل. انتظرت أن تشرح

لي هذا الهدف. لكنني لم أجد فيك إلّا غيظاً مسعوراً وكرهاً شديداً. أرجوك، افتح لي بوابة المنزل.

ونهض. فهجم عليه شاتوف بوحشية، وصاح يقول له وهو يمسكه من كتفه:

ـ قبِّل الأرض[1]. اروِها بدموعك. استغفرها.

قال ستافروجين خافض العينين، بلهجة توشك أن يخالطها ألم:

ـ أنا لم أقتلك مع هذا، في ذلك اليوم... بل عقدت ذراعيَّ وراء ظهري.

ـ أكمل كلامك، قل ما يجول في خاطرك ويعتمل في نفسك. لقد جئت تنبهني إلى خطر يحدق بي، وتركتني أتكلم... وغداً تعلن زواجك!... ألا أرى في وجهك أنك فريسة فكرة جديدة، فكرة رهيبة تقاومها! ستافروجين، لماذا حُكم عليَّ أن أؤمن بك دائماً؟ هل كان يمكنني أن أتكلم بهذه الطريقة مع إنسان آخر؟ إنني أشعر بحياء من عواطفي، ومع ذلك لم أخجل من عريي أمامك، لأنني كنت أكلم ستافروجين. لم أخشَ أن أحيل فكرة عظيمة إلى ثورة سخيفة بلمسها، وذلك لأن ستافروجين هو الذي كان يصغي إليَّ!... ألن أقبّل موطىء أقدامك حين ستخرج؟ إنني لا أستطيع أن أنتزعك من قلبي يا نيقولاي ستافروجين!

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ببرود:

ـ أمّا أنا فيؤسفني أنني لا أستطيع أن أحبك يا شاتوف.

ـ أعلم ذلك. أعلم أنك لا تكذب في هذا الذي تقوله. اسمع: ما يزال في وسعي أن أدبِّر كل شيء: سأمدك بالأرنب.

لزم ستافروجين الصمت.

قال شاتوف: ـ أنت ملحد، لأنك أرستقراطي، لأنك سيد. لقد أصبحت لا تستطيع أن تميز الخير من الشر، لأنك أصبحت لا تفهم شعبك... لكن جيلاً جديداً يسير، يخرج من قلب الشعب، ولن تتعرفه أبداً، لا أنت ولا أمثال

---

(1) يعد الشعب الروسي الأرض أمّاً. وفي رواية "الجريمة والعقاب" نرى صوفيا تنصح راسكولنيكوف بتقبيل الأرض تعبيراً عن التوبة والتكفير.

فرخوفنسكي، الأب أو ابنه، ولا أنا، لأنني أنا أيضاً سيد، نعم أنا، ابن قنّك، ابن خادمك باشكا[1]. اسمع! توصل إلى الله بالعمل: هذا سر الأمر كله. فإن لم تفعل زلت كما تزول الطفيليات. توصل إلى الله بالعمل. احصل على الله بالعمل!

ـ بالعمل؟ أي عمل؟

ـ بعمل الفلاح. امض. اترك ثرواتك... آه... إنك تضحك، إنك تخشى أن يستسخفك الناس؟

ولكن ستافروجين لم يكن يضحك. وعاد يقول بعد لحظة تفكير كأنما هو قد سمع قولاً جديداً هاماً يستحق الدرس:

ـ أتعتقد أن الحصول على الله ممكن بعمل الفلاح؟

ثم أضاف يقول منتقلاً إلى موضوع آخر على حين فجأة:

ـ بالمناسبة: هل تعلم أنني لم أعد غنياً، وأنني لا أملك ثروة كبيرة فأهجرها؟ إنني لا أكاد أملك ما يمكنني من تأمين مستقبل ماريا تيموفيئفنا... ولكن ها أنذا أوشكت أن أنسى ما جئت إليك من أجله: لقد جئت إليك لأغراض منها أن أوصيك خيراً بماريا تيموفيئفنا وأن أسألك الاستمرار في العناية بها واليقظة عليها إذا أمكنك ذلك، لأنك الشخص الوحيد الذي له شيء من تأثير في عقلها المسكين... أقول هذا احتياطاً لكل طارئ.

قال شاتوف بلهجة من نفد صبره، وهو ممسك شمعة:

ـ طيب طيب. سأفعل. طبعاً. اسمع. حاول أن تزور تيخون.

ـ من؟

ـ تيخون. أسقف قديم أحيل إلى التقاعد بسبب اعتلال صحته. إنه يقيم هنا في دير القديس أوتيم.

ـ وعلام أزوره؟

ـ هكذا. إنه يستقبل الكثير من الناس. اذهب إليه. لن تخسر شيئاً اذهب إليه.

---

(1) تصغير اسم بافل على سبيل التحقير.

ـ لم أسمع عنه أبداً، ولا رأيت في حياتي شخصاً من هذا النوع من الناس. أشكرك. سأذهب.

قال شاتوف وهو يضيء السلَّم: ـ من هنا.

حتى إذا وصل إلى تحت، فتح بوابة المنزل.

دمدم ستافروجين يقول وهو يجتاز العتبة:

ـ لن أجيء إليك بعد الآن ياشاتوف.

وكان الليل ما يزال حالكاً، وكانت السماء ما تزال ممطرة.

الفصل الثاني
الليل
(تتمة)

1

سَــلكَ شارع ابيفانيا كله، ثم هبط منحدراً قوياً، فكانت قدماه تغوصان في الوحل. وفجأة لمح مكاناً فسيحاً خالياً لونه أشهب: إنه النهر. هنا لا عمارات بل أكواب حقيرة تتعرج بينها شوارع صغيرة وطرق مسدودة.

ســار نيقولاي فسيفولودوفتش بمحاذاة الأسيجة ولكن دون أن يبتعد عن الضفـة. كان يبـدو واثقـاً من الطريـق، بل كان لا يلـوح عليه أنه ينتبـه إليه أي انتباه. إن أفكاراً أخرى وهموماً أخرى تملأ رأســه وتشـغل باله. فما كان أشد دهشته حين نظر حواليه فرأى، وقد خرج من تأمله فجأة، أنه في وسط جسرنا الطويـل المبتل المكوَّن من مراكب. ما من إنســان في ذلـك المكان. ولذلك شُــده حين ســمع صوتاً يناديه من قرب، صوتاً أليفاً لطيفاً من تلك الأصوات المتعاذبة المترققة التي يصطنعها الشبان الذين يعملون في محالّ تجارية وقد جمَّلوا شعرهم بتجعيده.

ـ ألا تسمح لي يا سيدي أن أنتفع بمظلتك؟

قال الشخص ذلك واندس فعلاً أو همَّ أن يندس تحت المظلة، وسار إلى جانبه ملاصقاً بكوعه كوعَه تقريباً. فأبطأ نيقولاي فســيفولودوفتش في خطوه ومـال علـى الرجل لينعـم النظر إليه والتفـرس فيه، بقدر ما يســمح له الظلام

بذلك. إنه متوسط طول القامة، رث الثياب فيما يبدو، أشبه بعامل ثمل قليلاً. إن قبعة من الجوخ، منزوعة الحافة إلى النصف تقريباً، تغطي شعره القصير الأجعد الذي لا بد أنه أنه أكحل اللون. وهو نحيل أسمر الوجه، ولا شك أن عينيه سوداوان جداً، ساطعتان جداً، مصطبغتان بصفرة كأعين الغجر. إن المرء يحزر ذلك رغم الظلام الدامس. ولعله في الأربعين من العمر. ولم يكن سكراناً.

سأله نيقولاي فسيفولودوفتش:

ـ أتعرفني؟

فأجاب الرجل:

ـ السيد ستافروجين، نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين. لقد دُللت عليك، يوم الأحد الأخير، منذ وقف القطار. ثم إننا قد سبق أن سمعنا عنك.

ـ دلَّك عليَّ بطرس ستيفانوفتش؟ أأنت... أأنت فدكا السجين؟

ـ اسمنا الذي سمُّونا به في التعميد هو فيدوروفتش[1]. وما تزال أمنا حية، تقيم في هذه المنطقة. عجوز طيبة من خلق الله، لن تلبث أن توارى التراب، وهي ما تنفك تصلي لله من أجلنا في االليل والنهار، حتى تكون شيخوختها نافعة.

ـ وقد فررت من السجن؟

ـ... غيرت مهنتي في الحياة... فتخلصت من أثقالهم كلها.. ذلك أنني كنت محكوماً بالسجن إلى آخر الحياة. رأيت المدة طويلة جداً.

ـ ماذا تصنع هنا؟

ـ لا شيء يستحق الذكر. الأيام تنقضي سريعة. مات عمنا هنا في الأسبوع الأخير في السجن. للأمر علاقة بتزييف نقود. فأحييت ذكراه بأن رميت الكلاب ببضع عشرات من الحجارة. ذلك كل ما فعلناه حتى الآن. لكن بطرس ستيفانوفتش قد وعدني بأن أحصل على جواز سفر، بل على جواز

---

(1) يتحدث أبناء الشعب عن أنفسهم أحياناً بصيغة الجمع من باب التأدب.

سفر تاجر، كيما أستطيع أن أتجول في روسيا كلها، فأنا أنتظر أن يمنَّ عليَّ بتحقيق وعده. هو يقول: "إن أبي قد ضاع منك ثلاثة روبلات أثناء لعبك بالورق بالنادي الإنجليزي، وأنا أرى هذا عملاً ظالماً، عملاً غير إنساني"[1] هلاَّ تفضلت يا سيدي فأعطيتني ثلاثة روبلات فأشرب كأساً فأتدفأ.

ـ إذن كنت تترقب مروري! أنا لا أحب هذا... مَنْ أمرك به؟

ـ لم يأمرني أحد. لكنني أعرف عواطفك الطيبة. جميع الناس يتكلمون عن ذلك. أنت نفسك تعرف ما مواردنا نحن: حزمة علف أو ضربة شوكة في الكليتين. يوم الجمعة أكلت فطائر حتى أُتخمت، وبعد ذلك بقيت يوماً بغير طعام، وفي اليوم التالي انتظرت، وفي اليوم الثالث شددت على بطني الحزام. غير أن النهر فيه ماء كثير، لذلك أربِّي أسماكاً... هذا كل شيء! أملي كله معقود إذن عليك. عرَّابتي تنتظر هنا. ولكن لا فائدة من المثول أمامها بغير شيء من المال.

ـ بماذا وعدك بطرس ستيفانوفتش مني؟

ـ الحق أنه لم يعدني بشيء، لكنه قال لي مصادفة أنني قد أستطيع أن أنفع سيادتك، إذا واتت الظروف. أمَّا عن هذه الظروف فإنه لم يتحدث حديثاً واضحاً. إن بطرس ستيفانوفتش يريد أن يمتحن صبري. إنه لا يوليني أية ثقة.

ـ لماذا؟

ـ بطرس ستيفانوفتش منجِّم. يعرف جميع كواكب ربنا. ومع ذلك فإنه هو أيضاً غير خالص من العيوب. أنا هنا أمامك كأنني أمام العلي الأعلى، لأن سمعتك تجري في الشوارع. إن بطرس ستيفانوفتش هو بطرس ستيفانوفتش، أمَّا أنت يا سيدي ففي رأيي أنك شيء آخر. هو، إذا قال عن شخص إنه وغد، فقد قال كل شيء، ولا يحبّ أن يعرف شيئاً آخر عنه. وإذا قال عن شخص إنه أبله فقد انتهى الأمر، فليس هذا الشخص في نظره إلّا أبله، على حين أن من الممكن، فيما يتعلق بي أنا أن أكون في أيام الثلاثاء وأيام الأربعاء أبلهاً،

(1) في عهد القنانة كان يجوز بيع الخدم عبيداً أو التنازل عن امتلاكهم سداداً لدين.

ثـم أكـون في أيـام الخميس والجمعة ذكيـاً، بل أن أكون أذكى منـه. هو يعلم الآن أنني أحترق رغبةً في الحصول على جواز سفر ـ لأن المرء في روسيا لا يسـتطيع أن يسير خطوة بغير جواز سفر ـ لذلك فهو يتخيل أنه وضع يده على روحي. أقول لك يا سـيدي إنه من السـهل عليه جداً أن يعيش في هذا العالـم، لأنه يرى الناس على نحو ما يتخيلهم، فبين أولئك الناس الذين تخيلهم تخيلاً إنمـا يعيش. ثـم إنه بخيل بخلاً فاحشـاً. هو يتصور أنني لـن أجرؤ أن أتعرف لـك فأزعجك هذا الازعاج إلّا بأذن منه. ولكنني أقول لك صادقاً كمن يقول لله نفسـه: هذه هي الليلة الرابعة التي أنتظرك فيها على هذا الجسـر، لأبرهن على أنني أسـتطيع الاستغناء عنه، وأن أجد طريقي وحدي. قلت لنفسي: لئن أنحني أمام الحذاء الجديد خير من أن أنحني أمام الخف المهترئ.

ـ فمن قال لك أنني سأعبر الجسر ليلاً؟

ـ أعتـرف أنني عرفت هـذا مصادفةً، أو قل بفضل غباوة الكابتن لبيادكين، ذلـك أنـه عاجز إطلاقاً عن كتمان سـر.. والروبلات الثلاثـة التي أطلبها إنما هـي أجـر انتظاري هنا ثلاثـة أيام وثلاث ليالٍ، إنما هي ثـواب ما تحملت من عناء. أمَّا ثيابي المبتلة فلن نتكلم عنها حتى لا أسيء إليك.

ـ أتجه أنا يسـرةً، وتتجه أنت يمنة. هنا نحن قد بلغنا آخر الجسـر و اسـمع يـا فيدور، إنني أحب أن أُفهم منذ الكلمة الأولـى مرةً إلى الأبد: لن تنال مني كوبـكاً واحداً. ولسـت في حاجة إليك، ولن أكون فـي حاجة إليك يوماً، ولا تعترض طريقي، لا على هذا الجسر ولا في أي مكان آخر. فإذا عصيت أمري هذا أوثقتك، وقدتك إلى الشرطة.

ـ ولكـن عليـك أن تعطينـي شـيئاً، على الأقـل لأنني رافقتـك. إن صحبة الطريق أمتع رغم كل شيء...

ـ امض!

ـ ولكن هل تعرف الطريق؟ هنا شـوارع صغيرة!... في وسـعي أن أكون دليـلاً لك. ذلك أن هذه المدينة تشـبه أن يكون الشـيطان قد حملها في سـلة مثقوبة، فتناثرت على الدرب تناثراً هنا وهناك...

ـ حذار!

ـ لاحظ يا سيدي أنني يتيم لا يملك ما يدافع به عن نفسه.

ـ بل أنت واثق بنفسك ثقة كبيرة.

ـ لا ياسيدي، لست واثقاً بنفسي إلى هذه الدرجة. إنما أنا واثق بك أنت.

ـ قلت لك إنني لست في حاجة إليك.

ـ ولكنني أنا في حاجة إليك. هذه هي المسألة. سأنتظرك في عودتك، مهما يحدث!..

ـ يميناً لأوثقنك إذا وجدتك هنا.

ـ إذن سأمضي أهيء لك حبلاً توثقني به. أتمنى لك رحلة موفقة يا سيدي، فقد ارتضيتَ على الأقل أن تحمي من المطر بمظلتك يتيماً مسكيناً. وحسبي هذا حتى أظل شاكراً لك صنيعك إلى أن أوارى في القبر.

قال الرجل هذا وغاب في الظلام. وتابع نيقولاي فسيفولودوفتش طريقه مهموماً أشد الهم. إن هذا المخلوق الذي هبط عليه من السماء مقتنع اقتناعاً تاماً بأن نيقولاي محتاج إليه، وأنه لن يستطيع الاستغناء عنه، حتى لقد أعلن له ذلك بغير حياء. ولكن من الجائز أيضاً أن يكون هذا المتشرد كاذب، وأنه عرض عليه خدماته بمبادرة منه هو، بدون علم بطرس ستيفانوفتش. فإذا صحَّ هذا فإن وضعه يكون أدعى إلي المزيد من الاستغراب.

2

إن البيت الذي كان نيقولاي فسيفولودوفتش ذاهباً إليه يقع في آخر طرف المدينة، في طريق مسدودة مقفرة بين سياجين تمتد وراءهما بساتين خضار. إنه بيت صغير منعزل خشبي قد بُني منذ برهة وجيزة، فجدرانه المكوَّنة من حطبات مدوَّرة لم تُكسَ بعدُ بألواح.

لقد تُرِك مصراعا إحدى النوافذ مفتوحاً عن عمد، وأُشعلت في الداخل شمعة قُصد منها أن تكون منارة يستهديها الزائر المتأخر المنتظَر قدومه في تلك الليلة.

وكان ستافروجين ما يزال على مسافة نحو ثلاثين خطوة من المسكن الصغير حين لاح له على درجات المدخل رجل طويل القامة، لعله رب البيت يرتقب وصول الزائر.

قال الرجل بصوت يدل على نفاد الصبر وعلى الخشية معاً: ـ أهذا أنت؟

فأجابه نيقولاي فسيفولودوفتش حين وصل إلى درجات المدخل وطوى مظلته: ـ نعم، أنا!

فقال الكابتن لبيادكين (فهو الذي كان ينظر على الباب): ـ أخيراً!

ثم أضاف يقول بصوت فرح متعجل:

ـ هات المظلة، من فضلك! يا له من جو فظيع! سأفتح المظله هنا في ركن. ادخل، أرجوك، ادخل!...

وكان باب الغرفة التي تضيئها شمعتان مفتوحاً على مداه كله.

قال لبيادكين:

ـ لولا أنك وعدتني وعداً قاطعاً بأن تزورنا اليوم لكففت عن انتظارك.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو ينظر في ساعته:

ـ هي الساعة الواحدة إلّا ربعاً.

ودخل الغرفة.

قال لبيادكين:

ـ وفوق ذلك، هذا المطر الغزير! والمسافة بعيدة جداً. ليس عندي ساعة. ولسنا نرى من نوافذنا إلّا مزارع الخضار هذه... فلا نعلم بما يحدث ولا نعرف ماذا يجري. لا أقول هذا من باب التشكي، فأنا لا أبيح لنفسي، لا أبيح لنفسي... ولكنني أقوله لسبب واحد هو أن نفاد الصبر يأكلني أكلاً منذ أسبوع كامل... أريد أخيراً أن أعرف...

ـ ماذا تريد أن تعرف؟

ـ أريد أن أعرف مصيري يا نيقولاي فسيفولودوفتش، اجلس، أرجوك.

قال لبيادكين ذلك وانحنى أمام زائره مشيراً له إلى مكان على الديوان وراء المائدة.

نظر نيقولاي فسيفولودوفتش حواليه. الغرفة صغيرة واطئ سقفها، لا تضم من الأثاث إلّا ما لاغنى عنه: ديواناً وكراسي من خشب عارٍ بغير وسائد، ومائدتين من خشب الزيزفون قد وُضعت إحداهما أمام الكنبة وُوضعت الأخرى في ركن. وهذه المائدة الأخيرة تتراكم فوقها أشياء شتى قد غُطيِّت بمنشفة نظيفة. ثم أن الغرفة كلها تبدو معتنى بها. إن الكابتن لبيادكين لم يسكر منذ ثمانية أيام. وقد اصطبغ وجهه المحتقن بلون ضارب إلى الصفرة. وهو يلقي على ستافروجين نظرات مستطلعة قلقة حيرى، وكان واضحاً أنه لا يدري بأيِّ لهجة يتكلم ولا يعرف ما هو الوضع الذي يمكن أن يفيده أكثر من غيره.

قال وهو يشير إلى الأشياء التي تحيط به:

ـ هكذا أعيش كما يعيش زوسيما[1]. زهد، وعزلة، وفقر، وفق الأمنيات الثلاث التي كان يتغنى بها الفرسان القدامى.

ـ هل تعتقد أن الفرسان القدامى كانوا يتغنون بأمنيات من هذا النوع؟

ـ لعل الأمور قد اختلطت عليَّ. واحزناه! إنني امرؤ تعوزه الثقافة. لقد أفسدت على نفسي كل شيء. هل تصدق يا نيقولاي فسيفولودوفتش؟ هنا إنما تخلصت لأول مرة من أهوائي المشينة وعيوبي المخجلة! لا كأس، بل ولا قطرة! أخيراً صار لي ركن، وأصبحت منذ ستة أيام أحس بالأفراح والمباهج التي يحس بها قلب نقي طاهر. الجدران نفسها يفوح منها شذى أشجار الصنوبر وتذكرني بالطبيعة. ماذا كنتُ حتى الآن؟ و ماذا كان وضعي؟

في الليل بلا مأوى أعدو

ولساني متدل طول النهار[2]

على حد التعبير العبقري الذي جرى به لسان الشاعر... ولكن.. ولكنك

---

(1) زوسيما هو اسم الراهب الذي أنشأ دير زولوفكي في الجزر المقفرة الخالية بالبحر الأبيض في القرن الخامس عشر.

(2) يروي لبيادكين هنا بيتين من قصيدة للأمير ب.آ. فيازمسكي، وهما في سياقهما لهما معنى مختلف كل الاختلاف، فالأمر هنالك أمر عربة ترويكا على الطرق الروسية.

مبتل تماماً... ألا تريد فنجاناً من الشاي؟
ـ لا تزعج نفسك.
ـ كان السماور يغلي ماؤه منذ ثماني ساعات ... ولكنه انطفأ... كجميع الأشياء في هذا العالم. يقال إن الشمس ستنطفئ هي أيضاً ذات يوم... على كل حال، سأدبِّر الأمر إذا لزم. إن آجافيا لم تنم.
ـ قل لي: هل ماريا تيموفيئفنا...
فأسرع لبيادكين يجيبه بصوت خافت:
ـ هي هنا. هي هنا. هل تريد أن تلقى نظرة؟
وأشار إلى الباب المغلق الذي يؤدي إلى الغرفة المجاورة.
ـ أهي نائمة؟
ـ لا، لا، ما هذا الذي تقول؟ إنها تنتظرك منذ غروب الشمس. وهي منذ علمت بالنبأ عُنيت بزينتها واهتمت بمظهرها.
وهمَّ لبيادكين أن يبتسم، ولكنه أمسك.
سأله ستافروجين مقطباً حاجبيه:
ـ كيف حالها على وجه الإجمال؟
ـ على وجه الإجمال؟ تعرف أنت نفسك...
ورفع منكبيه واصطنع مظهر من اعترته شفقة، وأضاف:
ـ هي الآن تسحب أوراقاً من أوراق اللعب...
ـ طيب. سوف نرى هذا فيما بعد. يجب أولاً أن نفرغ منك أنت.
قال نيقولاي فسيفولودوفتش ذلك وجلس على كرسي.
ولم يجرؤ الكابتن أن يجلس على الديوان فجلس على كرسي آخر وانحنى إلى أمام ليحسن الإصغاء، قلقاً مهتماً أشد الاهتمام بما سيقوله له نيقولاي فسيفولودوفتش..
قال نيقولاي فسيفولودوفتش وهو يلقي نظرة على المائدة:
ـ ماذا يوجد هناك تحت المنشفة؟
فالتفت لبيادكين إلى وراء بحركة قوية وقال:

ـ هـذا؟ هـذا كله مـن خيراتك وهباتـك. للاحتفـال بإقامتنا هنـا. ثم إنني قدَّرت أن الطريق طويل وأنك ستصل منهك القوة حتماً...

قال ذلك وهو يبتسـم متحنناً مترفقاً. ثم نهض واتجه نحو المائدة سـائراً علـى رؤوس الأصابـع ورفع المنشـقة باحتـرام واحتياط. كان علـى المائدة عشـاء بـارد كامل: شـرائح مـن لحـم الخنزير، ومـن لحم العجل، وأسـماك سـردين، وجبـن، وإبريق أخضر، وقنينـة طويلة العنق لا شـك أنها من خمرة بوردو. وكان ذلك كله حسن التنسيق يدل على أن يدا خبيرة قد أعدَّته.

ـ أأنت الذي هيأت هذا كله؟

ـ بنفسـي. كان كل شيء جاهزاً منذ أمس. أردت أن أحتفي بك أنت. أنت تعلـم أن ماريا تيموفيئفنا لا تكترث بهذه الأمور. ولكن الشـيء الرئيسـي هو أننـي نلـت ذلك كله من فضلـك وكرمك. ذلك كله منك أنـت. أنت هنا رب الـدار، أمَّا أنا فلسـت على وجه الإجمـال إلّا أجيراً لك بمعنـى من المعاني، ذلك أنني يا نيقولاي فسيفولودوفتش احتفظ باستقلال الروس الروحي رغم كل شيء، رغم كل شيء. فلا تحرمني من هذه النعمة الأخيرة!

كذلك ختم الكابتن لبيادكين كلامه متحمساً.

قال ستافروجين:

ـ همْ... ولكن هلاَّ عدت تجلس!..

ـ إنني أحمل لك أعظم الامتنان، و لكنني احتفظ باستقلالي!

وعاد يجلس متابعاً كلامه بقوله:

ـ آه يـا نيقولاي فسـيفولودوفتش! ما أكثر الأشـياء التـي تراكمت في هذا القلب!... لقد أُرهقت من انتظارك. سوف تقرر مصيري الآن ومصير... هذه المسـكينة الشـقية، ثم بعد ذلك... بعد ذلك... كما كنت أفعل في الماضي، سأسـكب أمامك كل ما يفيض به قلبي، كما كنت أفعل منذ أربع سـنين. ذلك أنني كنت تتنازل فترضى أن تصغي إليَّ حينذاك، وكنت تقرأ أشعاري... ماذا يهمني أنني لُـقبت بلقب فالسـتاف! لقد لعبت فـي حياتي دوراً كبيراً!... وأنا أشـعر اليوم بمخاوف كبيرة، ومنك وحدك إنما أنتظر الغوث والنجدة، لأنك

أنت ضيائي. إن بطرس ستيفانوفتش يعاملني بقسوة بالغة.

كان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي إليه باهتمام، محدقاً إليه بنظرة ثابتة متنبهة... ورغم أن الكابتن كان قد انقطع عن السكر، فإنه لم يكن قد استرد انسجامه النفسي وتوازنه الروحي. إن المدمنين على الشراب ينتهي بهم الأمر في العادة إلى أن يصبحوا لا يستطيعون الخروج عن حالة الاضطراب والتشوش التي تتاخم الجنون، ولكنها لا تمنعهم من أن يخدعوا ويضللوا ويمكروا كغيرهم سواء بسواء، إذا اقتضى الحال.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش بلهجة أصبحت أرق:

ـ أرى يا كابتن أنك لم تتغير أي تغير منذ أربع سنين. صدق الذين زعموا إذن أن النصف الثاني من عمر الإنسان إنما تحدِّده العادات التي يكون قد اكتسبها خلال النصف الأول.

هتف الكابتن يقول بحماسة كلها تظاهر، لأنه كان من المولعين بالعبارات الجميلة:

ـ أقوال رائعة! حُلَّ لغزُ الحياة! من أحاديثك كلها يا نيقولاي فسيفولودوفتش ما أزال أحتفظ خاصةً بتلك الجملة التي نطقت بها في بطرسبرج: "لا بد أن يكون الإنسان عظيماً كل العظمة حقاً حتى يستطيع أن يقاوم العقل".

ـ أو أن يكون أحمق كل الحماقة.

ـ ممكن، إذا شئت. إنك لم تنقطع يوماً عن نثر مثل هذه الومضات الفكرية الحلوة، أمَّا هم... فليحاول ليبوتين أو بطرس ستيفانوفتش معي!

ـ ولكن كيف كان سلوكك أنت يا كابتن؟

ـ كان الذنب في ذلك ذنب السكر وكثرة الأعداء. أمَّا الآن فقد انتهى هذا كله، وسوف أغيِّر نفسي كما تغير الحية جلدها. هل تعلم يا نيقولاي فسيفولودوفتش أنني أكتب وصيتي، بل إنني كتبتها؟

ـ هذا شائق جداً. ماذا تورث، ومَنْ تورث؟

ـ أورث وطني، أورث الإنسانية، أورث الطلبة. نيقولاي فسيفولودوفتش،

لقد قرأت في الصحف قصة حياة أمريكي. لقد أوصى بثروته لطلبة الأكاديمية بالمنطقة، وأوصى بأن يُجعل جلده طبول يُقرع عليه النشيد الأمريكي ليلاً نهاراً. وا أسفاه! ما نحن إلّا أقزام معتوهون بالقياس إلى الأمريكيين، وبالقياس إلى جسارة تفكيرهم. إن روسيا طبيعة لا فكر. فلو حاولت أن أوصي بجلدي ليُصنع منه طبلٌ يُهدى إلى جيش أخمولنسك[1] الذي شرفت بالخدمة فيه أول أمري، من أجل أن يُعزف عليه النشيد الوطني الروسي أمام الجنود مجتمعين، لاتُّهمت بالليبرالية، ولصودر جلدي... لذلك اكتفيت بأن أورث الطلبة. أريد أن أوصي بعظامي لأكاديمية العلوم، ولكن على شرط أن يلصق فوق جمجمتي وريقة تكتب عليها هذه العبارة: "جمجمة ملحد تاب وأناب".

كان الكابتن قد انتعش وتحمس. إن فكرة المليونير الأمريكي قد بثت فيه حماسة صادقة. ولكن لما كان من جهة أخرى ماكراً فقد أراد كذلك أن يُضحك ستافروجين الذي طالما قام لديه بدور المهرِّج. غير أن نيقولاي فسيفولودوفتش لم يبتسم. بالعكس: ها هو ذا يسأل مشتبهاً مرتاباً:

- أتنوي إذن أن تنشر وصيتك أثناء حياتك فتنال مكافأة؟

- هب هذا يا نيقولاي فسفولودوفتش! ماذا لو كانت هذه هي نيتي فعلاً؟

كذلك سأل لبيادكين متروياً محاذراً، وأضاف يقول:

- انظر إلى أين وصلت الآن! لقد انقطعت حتى عن نظم الشعر. وكنتَ أنت مع ذلك تجد متعة في قراءة قصائدي الصغيرة يا نيقولاي فسيفولودوفتش بينما أنت تُفرغ زجاجة من خمرة طيبة... هل تتذكر؟ لكنني هجرت قلمي. لم أكتب بعد ذلك إلّا قصيدة واحدة، شيئاً من نوع "القصة الأخيرة" التي كتبها جوجول وفيها يعلن لروسيا أنه قد انتزع هذا العمل من صدره[2] أنا أيضاً

---

(1) أخمولنسك مدينة صغيرة في سيبريا الغربية.

(2) يتحدث جوجول في وصيته (راجع الفصل الأول من رسائله إلى أصدقائه"، 1847) عن "قصة وداعه" يصفها بأنها أغنية نابعة من القلب، ويجب أن لا تنشر إلّا بعد موته. ولكن أحداً لم ير هذه القصة يوماً، وأغلب الظن أنها لم تكتب أبداً.

نظمت أغنيتي الأخيرة. انتهى!

ـ ما هذه القصيدة؟

ـ عنوانها: "إذا كُسرت ساقها".

ـ كيف؟

لم يكن الكابتن ينتظر إلّا أن يلقى عليه هذا السؤال. كان يقدر أشعاره قدراً كبيراً. لكنه بحكم ازدواج نفسه كان يسعده كذلك أن يُضحك ستافروجين الذي كان في الماضي يضحك إلى حد التلوي أثناء الاستماع إليه. فبذلك كان كلا الشاعر والمهرِّج يجدان ضالتهما. على أن الكابتن كان في هذه المرة يرمي إلى هدف آخر، هدف دقيق حرج: كان يريد من إنشاد أشعاره أن يبرئ نفسه في أمر كان يخشاه كثيراً، وكان يشعر فيه بأنه مذنب آثم.

ـ "إذا كُسرت ساقها"، أي أثناء ركوبها الخيل. ما هذا إلّا نزوة خيال يا نيقولاي فسيفولودوفتش، ما هو إلّا حلم، لكنه حلم شاعر: في ذات يوم، صادفت في الشارع سيدة تلبس ثوب الآمازون الذي تلبسه الفاراسات، فخطف منظرها بصري، فألقيت على نفسي عندئذ هذا السؤال: "ماذا يحدث إذا... أي إذا... إن الجواب واضح. سيتراجع جميع المعجبين، جميع المولَّهين بها، الطامحين إليها... صباح الخير، مساء الخير. ولا يبقى إلّا الشاعر". يا نيقولاي فسيفولودوفتش، إن الحب مباح، حتى لأحقر حقير، حتى لقمل... ما من قانون يستطيع أن يمنع ذكَر القمل أن يحب. ومع ذلك انزعجت السيدة من رسالتي وأشعاري، ويظهر أنك أنت أيضاً قد غضبت. فإذا صدق هذا فهو أمر مؤسف جداً. حتى لقد رفضتُ أن أصدِّقه. من ذا الذي يمكن أن تُلحق به أخيلتي أذى؟ ثم إنني أحلف لك أن الذنب في هذا ذنب ليبوتين: لقد ظل يلح عليَّ قائلاً: "اكتب إليها، اكتب إليها، كل إنسان يحق له أن يكتب رسائل.". وهكذا أرسلت إليها أشعاري.

ـ بل أعتقد أنك طمحت إلى تالزواج منها، أليس هذا صحيحاً؟

ـ هذه تخرّصات أعدائي. إنني محاط بأعداء لا حصر لهم.

قاطعه ستافروجين قائلاً بخشونة:

ـ اقرأ أشعارك.

فقال لبيادكين:

ـ ما هي إلّا حلم، إلّا نزوة خيال، لا أكثر من ذلك...

ومع ذلك نصب جذعه، ورفع يده، وأخذ ينشد:

حلوة الحلوات فقدت ساقاً

فإذا هي أحلى مرتين

وإذا الذي كان يحبها كثيراً

أصبح مولهاً بها ضعفين.

قال ستافروجين وهو يحرك يده بإشارة نفاد الصبر:

ـ كفى!

فإذا بالكابتن لبيادكين يقفز فوراً إلى موضوع آخر، كأن الحديث لم يكن عن أشعاره أبداً، فيقول:

ـ إنني لا أنقطع عن الحلم ببطرسبرج. إنني أتطلع إلى بعث نفسي أيها المحسن إليَّ، هل يمكنني أن أؤمل أن لا تضن عليَّ بما أحتاج إليه للقيام بهذه الرحلة إلى بطرسبرج؟ لقد انتظرتك طوال هذا الأسبوع، كما تُنتظر الشمس.

ـ لا، لا، لا تعوِّل على هذا. لم يكد يبقى معي شيء من مال، ثم علام أعطيك مالاً؟

كذلك قال ستافروجين وقد ثار حنقه فجأة.

وأخذ يعدِّد جميع الأخطاء التي ارتكبها الكابتن: أكاذيبه، إدمانه على السكر، تبديده المال الموقوف على ماريا تيموفيئفنا التي أُخرجت من الدير، الرسائل الوقحة، التهديدات بالكشف عن أمر الزواج، الشائعات الكافية عن داريا بافلوفنا، إلخ. فكان الكابتن يضطرب على كرسيه، ويُجري حركات وإشارات عريضة، ويحاول أن يحتج، ولكن نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين كان يوقفه بشدة وصرامة. وقال له أخيراً:

ـ إنك تتكلم طول الوقت عن "عار لحق بأسرتك". فأي عار يلحق بك إذا

كانت أختك هي زوجة ستافروجين الشرعية؟

قال لبيادكين:

ـ ولكن الزواج بقي مكتوماً يا نيقولاي فسيفولودوفتش، بقي مكتوماً. هذا سر محتوم. إنني أتلقى منك مالاً فأسأل: "لماذا يبعث إليك هذا المال؟". وأنا متقيد بما عاهدت عليه، فلا أستطيع أن أجيب، وبذلك أسيء إلى أختي، وأسيء إلى شرف الأسرة.

كان الكابتن قد رفع صوته. ذلك موضوع كان يؤثر فيه تأثيراً خاصاً، وكان هو يعوِّل على استغلاله لمصلحته. لم يوجس المسكين ما كان ينتظره. وها هو ذا نيقولاي فسيفولودوفتش ينبئه بلهجة هادئة، كأنه يسوِّي مسألة منزلية، بأنه سوف يذيع على الملأ في خلال الأيام القليلة القادمة، وربما غداً أو بعد غد، نبأ زواجه، وأنه "سُيعلم به الشرطة والمجتمع"، وأن قصة "العار الذي لحق بالأسرة" ستسوَّى حينذاك، وكذلك مسألة المساعدات.

حملق الكابتن بعينيه. حتى إنه لم يفهم، فاضطر ستافروجين أن يمده بإيضاحات دقيقة.

قال لبيادكين:

ـ ولكنها... نصف مجنونة...

ـ سأدبر أموري وأتخذ إجراءاتي.

ـ ولكن... ما عسى تقول أمك؟

ـ لتَقُلْ ما تشاء!

ـ ولكن سيكون عليك أن تدخل زوجتك إلى منزلك...

ـ ربما. على كل حال، هذا ليس شأنك، ولا علاقة لك به البتة!

صاح الكابتن يقول:

ـ كيف؟ وأنا ماذا أصير في هذه الحالة؟

ـ لن تدخل بيتي طبعاً.

ـ لكنني أخوها.

ـ الأخوة الذين يكونون مثلك يُبعدون. اقض في الأمر أنت نفسك: لماذا

ينبغي لي أن أعطيك مالاً إذا أذعت زواجي في الملأ؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، نيقولاي فسيفولودوفتش! هذا غير ممكن! فكر مزيداً من التفكير! إنك لن تريد أن تضيِّع نفسك... ماعسى يظن الناس فيك؟ ما عسى يقولون عنك؟

ـ يستوي عندي كل شيء. لقد تزوجت حين استبدت بي هذه النزوة من نزوات الخيال بعد عشاء كثرت خموره، من أجل أن أربح بضع زجاجات من الخمرة راهنوا عليها ضدي... والآن سوف أعلن هذا الزواج إذا كان ذلك يسليني ويضحكني.

قذف ستافروجين هذه الجملة الأخيرة بلهجة حانقة حنقاً شديداً روّع الكابتن فجعل يأخذ كلامه مأخذ الجد.

ـ ولكن أنا؟ ماذا أصير أنا في هذه الحالة؟... ذلك هو السؤال الأساسي! أتراك تمزح يا نيقولاي فسيفولودوفتش؟

ـ لا، لا أمزح.

ـ قل ما تشاء يا نيقولاي فسيفولودوفتش. إنني لا أصدقك... سأتجه إلى المحاكم.

قال ستافروجين:

ـ أنت غبي غباءً خارقاً يا كابتن.

فدمدم لبيادكين يقول:

ـ جائز. ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي بقي لي أن أفعله. في الماضي، حين كانت تعمل للناس ببطرسبرج، كنت ما أزال أستطيع أن أجد لي مأوى هنا أو هناك. ولكن ما الذي أصير إليه إذا أنت تركتني؟

ـ كنت أظن أنك ذاهب إلى بطرسبرج لتغير طراز حياتك. بالمناسبة: لقد سمعت أنك تستعد للوشاية بجميع الأخرين، أملاً في الحصول على عفوٍ عنك. هل هذا صحيح؟

لبث الكابتن فاغر الفم محملق العينين.

فبدأ ستافرجين يتكلم بجد ورصانة ووقار، مائلاً على ضيفه، قائلاً له:

ـ اسمعني يا كابتن...

كان ستافروجين قد تكلم حتى ذلك الحين بطريقة ملتبسة بحيث أن لبيادكين الذي اعتاد أن يمثِّل دور المهرج كان ما يزال يراوده شيء من شك، فكان يتساءل: تُرى هل مولاه غاضب منه حقاً أم هو يضحك عليه؟ أهو يفكر في إذاعة نبأ زواجه على الملأ فعلاً أم أنه يسخر منه ويتسلى به؟ غير أن ما اتخذه وجه نيقولاي فسيفولودوفتش من قسوة وجهامة قد ذهب بآخر شك عند لبيادكين فيما يظهر، فسرت في ظهر الكابتن قشعريرة باردة.

تابع ستافروجين كلامه يقول:

ـ تسمعني يا كابتن جيداً وقل لي الحقيقة كلها، هل وشيت بالآخرين أم أنت لم تش بهم؟ أشرعت في شيء أم لا؟ ألم ترتكب حماقة فترسل رسالة ما؟

ـ لا، لم أفعل بعد... بل إنني لم يخطر هذا ببالي أبداً.

بذلك أجاب لبيادكين ثابتَ النظرة.

قال له ستافروجين:

ـ أنت تكذب. إن ذلك يخطر ببالك. إنك تفكر فيه. بل إن الغاية الوحيدة التي تستهدفها من السفر إلى بطرسبرج هي هذا الأمر. إذا كنت لم تكتب بعد، أفلم تثرثر على الأقل؟ قل الحقيقة: لقد سمعت أشياء عن هذا!

تمتم الكابتن المسكين يقول:

ـ قلت بضع كلمات لليبوتين وأنا سكران. إن ليبوتين خائن. لقد فتحت له قلبي.

ـ ليست المسألة مسألة قلبك، وإنما المسألة أن لا يكون المرء غبياً أحمقاً. إذا كانت هذه الفكرة قد خطرت ببالك فلقد كان ينبغي لك على الأقل أن تحتفظ بها لنفسك سراً مكتوماً لا تفضي به إلى أحد. الأذكياء يعلمون اليوم أن الصمت خير من الكلام.

صاح الكابتن يقول مرتعشاً:

نيقولاي فسيفولودوفتش، ولكنك أنت لم تشارك في شيء، ولست أنت من وشيت به...

- طبعاً، لم يخطر ببالك في يوم من الأيام أن تشي ببقرتك الحلوب!

- نيقولاي فسيفولودوفتش، أترك لك أن تقضي في الأمر بنفسك، أن تقضي في الأمر بنفسك!...

قال لبيادكين ذلك وهو يبكي يائساً، وطفق يروي بصوت لاهث قصة حياته خلال هذه السنين الأربع الأخيرة. إنها قصة بلهاء لرجل أحمق، أقحم نفسه في قضية لا شأن له بها البتة، وظل إلى آخر لحظة لا يفهم خطورة هذه القضية، لانشغاله بالسكر والقصف واللهو.

روى لبيادكين أنه حين كان لا يزال ببطرسبرج قد انجرف في بداية الأمر من باب الصداقة، "من حيث هو طالب مع أنه لم يكن طالباً"، فأخذ - وهو لا يدري ماذا يفعل - يرمي نشرات تحريضية في سلالم المنازل، ويدس منها عشرات تحت الأبواب وفي صناديق البريد، ويحمل منها إلى المسرح فيضعها في قبعات المشاهدين وجيوبهم. وصار في النهاية يقبل أن يتقاضى مالاً "فأنت تعرف مواردي، تعرفها، أليس كذلك؟". ثم وزَّع أنواعاً شتى من المنشورات في ولايتين. "آه يا نيقولاي فسيفولودوفتش، إن ما كان يثيرني أكثر من كل ما عداه هو أن ذلك جميعه كان مخالفاً للقوانين المدنية مخالفة مطلقة، ولا سيما لقوانين الوطن!" كذلك صاح يقول الكابتن، وأضاف شارحاً: "من ذلك مثلاً قولهم أن على الفلاحين أن يتسلحوا بفؤوسهم، فإذا الذين يخرجون في الصباح فقراء، يعودون في المساء أغنياء. فكِّر في هذا الكلام! لقد كنت أرتعش هولاً، ومع ذلك استمريت في توزيع هذه الأوراق! أو ربما كان المنشور[1] نداءً يتألف من خمسة أسطر أو ستة، موجهاً إلى روسيا كلها: "أغلقوا الكنائس بأقصى سرعة، اعدموا الله، ألغوا الزواج، أزيلوا الإرث، تسلحوا بسكاكين!" وأشياء من هذا النوع لا يعلم بها إلّا

---

(1) المنشور المقصود هنا هو النداء المعروف الذي وزع سراً بعنوان "روسيا الفتاة".

الشيطان!... وحين كنت أوزِّع هذه الورقة إنما أوشكت ذات مرة أن أُعتقل. ولكن ضربني الضباط في الثكنة ضرباً مبرحاً، ثم أطلقوا سراحي... بارك الله في كرمهم وسماحتهم! ثم، في السنة الأخيرة، كدت أن يُقبض عليَّ حين أعطيت كارافاييف ورقة بخمسين روبلاً من صنع فرنسا. ولكن أحمد الله على أن كارافاييف الذي كان سكران قد غرق في غدير فخرجت أنا من المأزق. وهنا، عند فرجنسكي، ناديت بحق المرأة في الحب. وفي شهر حزيران (يونيه) طفقت أوزع نشرات في مقاطعة س... من جديد. ويبدو أنهم يريدون إجباري على الاستمرار في القيام بهذا العمل. لقد أبلغني بطرس ستيفانوفتش أن عليَّ أن أطيع: إنه يهددني منذ مدة طويلة.آه... ليتك تعلم كيف عاملني يوم الأحد الماضي! نيقولاي فسيفولودوفتش، إنني عبد، إنني دودة من دود الأرض. ولكنني لست إلهاً، وبهذا إنما أختلف عن دريافين[1]. غير أنك تعرف مواردي!

كان نيقولاي فسيفولودوفتش يصغي إليه باهتمام. فقال:

ـ علمت أشياء لم أكن أعرفها. طبعاً لا شيء مستحيل على رجل مثلك.

ثم أضاف بعد لحظة تفكير يقول:

ـ اسمع، إن شئت قل له، قل للذي تعرفه منهم إن ليبوتين قد كذب، وإنك لم تشأ إلّا أن تخيفني مهدداً بالوشاية بي، لافتراضك أنني أنا أيضاً معرَّض للخطر، وذلك بغية أن تطلب مني مزيداً من المال... هل فهمت؟

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش، هل تعتقد حقاً أنني مهدد بخطر؟ لقد انتظرتك مدة طويلة لأسألك النصح.

ابتسم نيقولاي فسيفولودوفتش ابتسامة ساخرة. وقال له:

ـ هبني أعطيتك مالاً فإنهم لن يدعوك تسافر... ولكن آن لي أن أذهب إلى ماريا تيموفيئفنا.

---

(1) هو جبريل دريافين (1816ـ 1743): شاعر مشهور له قصيدة ذاع صيتها كثيراً عنوانها "رب"، وفيها هذا البيت الذي أصبح كلاسيكياً: أنا ملك، أنا عبد.. أنا دود، أنا رب

ونهض.

قال لبيادكين:

ـ نيقولاي فسيفولودوفتش؟ وما مصير ماريا تيموفيئفنا؟

ـ قلت لك.

ـ هل يعقل أنك كنت تتكلم جاداً؟

ـ أمازلت لا تصدقني؟

ـ هل يُعقل أن ترميني كما يُرمى حذاء مهترئ؟

قال نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكاً:

ـ سوف أرى. هيَّا. دع لي أن أمرَّ!

ـ ألا تريد أن أبقى على درجات المدخل حتى لا أتعرَّض لأن أسمع، رغم إرادتي؟... إن الغرف صغيرة جداً.

ـ فكرة حسنة. اخرج إلى درجات الباب. ولكن خذ مظلتي.

ـ مظلة... مظلتك؟ أأنا أستحق هذا الشرف؟

بذلك تمتم الكابتن وهو يبالغ في المذلة.

قال ستافروجين:

ـ كل إنسان جدير بمظلة.

فأجاب لبيادكين:

ـ بهذه الجملة عيَّنت "الحد الأدنى" للحقوق الإنسانية دفعة واحدة...

لكن لبيادكين كان يتكلم آلياً. لقد صعقته الأنباء التي سمعها فهو لا يستطيع أن يثوب إلى رشده وأن يسيطر على نفسه؟

ومع ذلك فإنه ما إن أصبح على درجات المدخل ونشر المظلة، حتى أخذت ترتسم في ذهنه الطائر الماكر فكرة مهدئة ومألوفة. قال لنفسه: لا شك أنه قد أريدَ خداعُه، وتخويفه، فليس عليه هو أن يخاف.

وقال يحدث نفسه: "إذا كان يمكر ويكذب، فذلك دليل على أن ثمة شيئاً يريد إخفاءه.". لم يستطع لبيادكين أن يصدِّق ما قاله له ستافروجين من أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ، هذا مستحيل. "صحيح أن في وسع المرء أن

يتوقع من مثل هذا الرجل كل شيء. فهو لا يحيا إلّا ليسيء إلى البشر. ولكن لعله خائف مني منذ فضيحة يوم الأحد، لعله خائف مني الآن أكثر مما كان خائفاً في أي يوم من الأيام... لعله إنما أسرع يؤكد لي أنه سيذيع نبأ الزواج على الملأ خشية أن أسبقه أنا إلى ذلك. دعك من السخافات يا لبيادكين! إذا لم يكن خائفاً من رأي الناس فلماذا جاء في الليل، مختبئاً كاختباء لص؟ وإذا كان خائفاً، فهو إذن خائف مما سيحدث الآن، في غضون الأيام التالية... كن على حذر يا لبيادكين! كن يقظاً!...

"إنه يريد أن يخيفني ببطرس ستيفانوفتش. وهذا مخيف حقاً... ما كان أغباني حين تحدثت إلى ليبوتين. الشيطان وحده يعرف ماذا يهيء هؤلاء الأبالسة. إنني لم أفهم من أمرهم شيئاً في يوم من الأيام. ها هم أولاء يتحركون ويسعون هنا وهناك كما كانوا يفعلون منذ خمسة أعوام. ولكن لمن كان يمكن أن أشي بهم؟ "ألم ترتكب حماقة فتكتب إلى أحد؟". همْ... معنى هذا أن من الممكن أن يكتب المرء متظاهراً بالحماقة والبلاهة. "من أجل هذا إنما تريد أن تسافر إلى بطرسبرج". يا للوغد! أنا إنما راودني هذا حلماً من الأحلام، فكيف أمكنه أن يضبطني متلبساً بالحلم نفسه. لكأنه يريد أن يدفعني هو نفسه إلى القيام بهذه الرحلة. هناك حالتان يجب النظر فيهما. حالتان لا ثالثة لهما، فإما أنه خائف لأنه ارتكب عملاً طائشاً ما، وإما أنه ليس خائفاً من شيء فهو يريد أن يدفعني إلى الوشاية بالآخرين!... آه... لبيادكين... إياك أن تقع في الفخ!...". وبلغ لبيادكين من الاسترسال في خواطره هذه أنه نسي حتى أن يصيخ سمعه إلى ما كان يجري في الغرفة الثانية. ولكن كان يصعب أن يسمع شيئاً ما، فالباب سميك، والحديث يجري بصوت خافت.

وإذ لم يستطع الكابتن لبيادكين أن يسمع إلّا بضعة أصوات غير متميزة، بصق من شدة الغضب، وعاد يصفر على درجات المدخل شارد الذهن.

3

إن غرفة ماريا تيموفيئفنا، المزدانة بسـجادة رائعة، أوسع من غرفة الكابتن مرتين. ولكن الأثاث الذي فيها أثاث بسيط كل البساطة أيضاً مصنوع صناعةً غليظة كذلك. على أن غطاءً زاهي الألوان كان يغطي المائدة الموضوعة أمام الديـوان وفوقها مصباح مُشـتعل. وهناك سـتارة منشـورة على طـول الغرفة، تخفي السـرير عـن الأنظار. وعلى مقربة من المائدة يوجـد أيضاً مقعد منجدٌ ظهـره، غيـر أن ماريا تيموفيئفنا لا تجلـس عليه أبداً. وثمـة قنديل صغير كان يشـتعل أمـام أيقونة فـي أحـد الأركان. وعلى مائـدة ماريـا تيموفيئفنا صُفَّت جميع الأشياء التي هي بحاجة

إليها: ورق لعب، مرآة صغيرة، كتاب أغان، ورغيف خبز باللبن، وكذلك كتابـان مصوَّران أحدهمـا يضم قصص رحلات مما يقرؤه الشـباب، والثاني يضم أساطير من القرون الوسطى.

كانـت ماريـا تيموفيئفنا تنتظـر الزائر، كما قال الكابتـن. ولكن حين دخل نيقولاي فسيفولودوفتش وجدها نائمةً وقد اضطجعت نصف اضطجاع على الديوان مسـندةً رأسـها إلى وسـادة. فأغلق سـتافروجين الباب بغير ضوضاء وأخذ يتأمل النائمة دون أن يتحرك من مكانه.

كذب لبيادكين: لم تكن ماريا تيموفيئفنا قد أبدلت هندامها وعُنيت بزينتها. إنهـا ترتدي ذلك الثوب القاتم نفسـه الذي كانت ترتديـه يوم الأحد الماضي عند فرفارا بتروفنا. وما يزال شـعرها معقوداً خلف عنقها كبةً صغيرة. وكانت عنقها الطويلة الجافة عارية. أمَّا الشـال الأسـود الذي كانت فرفارا بتروفنا قد أهدته إليها فقد كان إلى جانبها مطوياً بعناية كبيرة على الديوان. وكان وجهها مثقلاً بالمساحيق والأصباغ على عادتها.

ومـا كادت تنقضي علـى دخول نيقـولاي فسـيفولودوفتش دقيقة واحدة حتـى اسـتيقظت ماريا تيموفيئفنـا بغتةً، كأنما هي قد أحسَّـت نظرته، ففتحت عينيهـا وانتصـب جذعها بحركة قوية. ولكن كأن شـيئاً غريبـاً كان يجري في

ذهـن الزائـر: ظل جامداً قرب البـاب يحدِّق إلى وجه العرجـاء تحديقاً عنيداً بنظـرة نافـذة. ولعل هذه النظرة قد بدت للمرأة قاسـية، أو لعـل المرأة قرأت فيهـا الاشـمئزاز، أو لعل المرأة توهمت توهماً لا أكثـر، ولكن مهما يكن من أمر، فإن تعبيراً عن الارتياع الشديد والذعر القوي يشنَّج وجه الفتاة المسكينة بعد انتظار بضع لحظات، ثم إذا هي ترفع ذراعيها فجأةً كأنما لتحمي نفسها، وإذا هي تجهش باكية منتحبة، تماماً كما يفعل طفل خاف. فلو انقضت لحظة أخـرى، لأخذت تصرخ مسـتغيثة. ولكـن الزائر صحا من شـروده وثاب إلى نفسـه، فتبدلـت هيئته حالاً، واقتـرب من المائدة وهو يبتسـم ابتسـامة لطيفة ودوداً. وقال للفتاة وهو يمد إليها يده:

ـ سـامحيني يـا ماريا تيموفيئفنـا! لقد روَّعتك إذ دخلـت عليك فجأة بغير استئذان.

فسرعان ما فعلت هذه الكلمات اللطيفة فعلها في نفس الفتاة. فزال رعبها، لكنها ما برحت تتفرس في سـتافروجين، بشيء من القلق، وكان واضحاً أنها تبـذل جهداً من أجل أن تفهـم ما يحدث. ومدت إليه يدها خجلى وجلى، ثم ظهرت على شفتيها في آخر الأمر ابتسامة.

دمدمت تقول وهي تلقي عليه نظرة غريبة:

ـ نعمت صباحاً يا أمير.

فقال الأمير مبتسماً بمزيد من المودة والبشاشة:

ـ أغلب الظن أنك كنت ترين حلماً ثقيلاً.

ـ ولكن كيف عرفت أنني حلمت "بهذا".

ثم عادت ترتجف فجـأةً، وارتدّت إلى وراء، رافعةً ذراعيها كأنما لتحمي نفسها، وبدا عليها أنها توشك أن تعود إلى البكاء. فقال لها ستافروجين ملحاً:

ـ هـلاَّ رجعـت إلى رشـدك! مـمَّ أنت خائفة؟ هـل يُعقـل أن لا تكوني قد عرفتني؟

ولكنها لم تهدأ في هذه المرة إلّا بعد برهة طويلة. كانت تنظر إليه صامتة، وقد استبد بها قلق أليم. كان واضحاً أنها تحاول أن تستجلي فكرةً تعذبها فلا

تستطيع إلى ذلك سبيلاً. فهي تارةً تخفض عينيها وتارةً تلقي على ستافروجين نظرة سـريعة. وفجأةً بدا عليها أنها اتخذت قراراً رغم أنها لمَّا تسترد هدوءها بعدُ كاملاً.

قالت له بصوت ثابت جازم:

ـ اجلس إلى جانبي، أرجوك، حتى أستطيع أن أراك من قرب فيما بعد.

واضح أنها اهتدت الآن إلى الفكرة التي كانت تبحث عنها.

وتابعت كلامها تقول:

ـ لن أنظر إليك حالاً، بل سأخفض عينيَّ. وأنت أيضاً لا تنظر إليَّ، إلى أن أرجوك أن تفعل.

ثم ألحت قائلة بشيء من التململ:

ـ ما بالك لا تجلس! هلاَّ جلست!

كان واضحاً أن هناك فكرة جديدة تتضح لها شيئاً بعد شيء.

فجلس سـتافروجين وانتظر. وساد صمت طويل. ثم دمدمت تقول أخيراً بما يشبه الاشمئزاز:

ـ هـمْ... ذلك كلـه يبدو لي قريباً جـداً. إن أحلاماً سـيئة تطاردني، ولكن لماذا رأيتك أنت في الحلم منذ هنيهة، كما أنت الآن تماماً؟

قال ستافروجين متذمراً وهو يلتفت إليها رغم حظرها عليه ذلك:

ـ لنترك الأحلام.

وظهـر في وجهه ذلك التعبير نفسـه الذي ألمَّ بقسـماته سـريعاً منذ قليل. وكان يـرى أن ماريـا تيموفيئفنا ترغب رغبـة قوية في أن ترفـع بصرها نحوه، ولكنها تحجم عن ذلك، مستمرةً على النظر إلى أرض الغرفة بعناد.

قالت وهي ترفع صوتها فجأة:

ـ اسمع يا أمير، اسمع يا أمير...

فهتف ستافروجين يسألها فاقداً صبره:

ـ لماذا تشيحين؟ لماذا لا تنظرين إليَّ؟ ما هذه المسرحية؟

ولكن بدا كأنها لم تسـمعه. وكررت تقول للمرة الثالثة بلهجة جازمة وقد

اتخذ وجهها تعبيراً عن الهمِّ والعداء:

ـ اسمع يا أمير. حين قلت لي في العربة ستذيع نبأ الزواج على الملأ أخافني أن أعلم أن السر سينكشف. لا أدري ماذا أصنع! لقد فكّرت طويلاً، وإني لأرى الآن رؤية واضحةً أنني لا أناسبك البتة. صحيح أنني سأعرف كيف أتزين، وقد أحسن أيضاً استقبال الناس: إن تقديم فنجان من الشاي ليس بالأمر الصعب كثيراً، لا سيما حين يكون للمرء خدم. ولكن، رغم كل شيء، ما عسى يقول الغرباء؟... لقد أدركت يومَ الأحد كثيراً من الأمور في ذلك المنزل. كانت الآنسة الجميلة لا تنفك تنظر إليَّ، ولا سيما بعد دخولك. أنت الذي دخلت عندئذ؟ ألست أنت الذي دخلت؟ أمَّا أمها فما هي إلّا امرأة مضحكة من نساء المجتمع. وكذلك كان لبيادكين مضحكاً. حتى لقد أخذتُ أنظر إلى السقف طول الوقت من أجل أن لا أضحك. كان دهانه جميلاً، ذلك السقف. وأما أمه "هو"، فقد خُلقت لتكون رئيسة دير. إنني أخاف منها. لقد أعطتني مع ذلك شالاً أسود. لا شك أنهم جميعاً قد قالوا في حقي سوءاً. و لكنني لا أحقد عليهم. قلت لنفسي في ذلك اليوم: أنا لا أصلح أن أكون قريبةً لهؤلاء الناس. صحيح أن الكونتيسة لا تطلب منها إلّا مزايا نفسية، لأن لديها خدماً كثيرين يقومون بأعمال المنزل. وإنما ينبغي لها في أكثر تقدير أن تكون على شيء من "الغندرة"، حتى تستطيع أن تحسن وفادة المسافرين الأجانب. ومع ذلك فإنهن جميعاً كن ينظرن إليّ يومَ الأحد ذاك وقد لاح في وجوههن كرب ويأس. داشا وحدها ملاك. إنني أخشى كثيراً أن يؤلموه "هو" بإبداء ملاحظة متسرعة في حقي.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش غاضباً:

ـ لا تخشي شيئاً، ولا تقلقي!

ـ وهبه أحس بشيء من العار، فلن يغضبني ذلك، لأن الشعور بالشفقة يغلب على الشعور بالعار، وإن كان ذلك يختلف باختلاف الناس طبعاً. وإني لأعلم أنهم أحق بشفقتي مني بشفقتهم.

ـ أظن أنهم جرحوك جرحاً عميقاً يا ماريا، أليس كذلك؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة بريئة:

ـ جرحوني؟ أنا؟ لا. أبداً! كنت أنظر إليكم جميعاً: فأراكم تغضبون وتشتجرون. إنكم لا تعرفون حتى كيف تضحكون ضحكاً صادراً عن القلب حين تجتمعون. ثروات كبيرة، وفرح ضئيل!... ذلك كله يبعث على الاشمئزاز. مهما يكن من أمر، فإنني الآن لا أحس بشفقة على أحد. وإنما أنا أشعر بشفقة على نفسي.

ـ سمعت أن أخاك قد جعل حياتك قاسية في غيبتي، فهل هذا صحيح؟

ـ من قال لك ذلك؟ ترَّهات! بالعكس: الأمر الآن أسوأ. الآن أرى أحلاماً سيئة، أرى أحلاماً سيئة لأنك جئت. إني أتساءل: لماذا جئت؟ لماذا؟ قل لي: لماذا جئت؟

ـ ألا تريدين أن تعودي إلى الدير؟

ـ تنبأت بهذا! هاهم أولاء يعرضون عليَّ أن أرجع إلى الدير! لقد شبعت من رؤيته، ديرك هذا! ما عساني فاعلة هناك؟ أنا الآن وحيدة وحدة تامة. فات أوان استئناف حياة ثالثة.

ـ يبدو عليك الغيظ والحنق. أتُراك خائفةً أن يكون حبي لك قد زال؟

ضحكت ماريا تيموفيئفنا ضحكة احتقار وقالت:

ـ أنا لا أهتم بك البتة. وإنما أنا خائفة على نفسي، خائفة أن يزول حبي لشخصٍ ما في يوم قريب. لعلني قد أذنبت في حقه بارتكاب خطيئة كبيرة جداً. أضافت ماريا هذه الجملة الأخيرة فجأة كأنها تكلم نفسها. وتابعت تقول:

ـ... لكنني أجهل الذنب الذي اقترفته. وهذا هو شقائي كله. دائماً، دائماً، في الليل وفي النهار، منذ خمس سنين، لم تنقطع هذه الفكرة عن تعذيبي، وهي أنني مذنبة في حقه... ما هو ذنبي؟ إنني أصلي لله، وأفكِّر بغير انقطاع في الخطيئة الكبرى التي ارتكبتها والآن يتضح أن ذلك كان صحيحاً.

ـ ما الذي كان صحيحاً؟

كذلك سألها ستافروجين، غير أنها تابعت كلامها تقول دون أن تجيب

عن سؤاله وربما دون أن تسمع سؤاله:

ـ وإنــي لأتسـاءل مع ذلك ألم يكـن له "هو" دخل في الأمـر. ولكن كيف أمكنـه أن يرتبـط بمثـل هـؤلاء الأشـرار؟ إن الكونتيسـة يطيـب لهـا طبعاً أن تلتهمنـي كوحش كاسـر، وإن تكن قـد أركبتني عربتها. الجميع اشـتركوا في المؤامرة؟ هل يُعقل أن يكون قد اشترك فيها هو أيضاً؟ هل يُعقل أن يكون قد خانني؟ (هنا أخذت ذقنها وشـفتاها ترتعش). اسـمع، أنت: هل تعرف قصة جريشكا أوتريبيف الذي أعلنت الكنيسة طرده؟[1]

لم يجب نيقولاي فسيفولودوفتش.

قالت وقد عزمت أمرها فجأة:

ـ على كل حال، سألتفت الآن وأنظر إليك. فالتفت أنت إلى جهتي وانظر إليَّ، ولكن أنعم النظر بانتباه. أريد أن أراك لآخر مرة...

ـ إنني أنظر إليك منذ مدة طويلة.

قالت ماريا تيموفيئفنا وهي تتأمله منتبهة:

ـ همْ... لقد سمنتَ كثيراً.

وأرادت أن تضيف شيئاً آخر ولكن الرعب شنَّج وجهها فجأة من جديد، وارتدّت إلى وراء رافعة ذراعيها كأنما لتحمي نفسها.

فصاح نيقولاي فسيفولودوفتش يسألها بما يشبه الحنق:

ـ ماذا بك؟ ماذا أصابك؟

لكـن رعبهـا لم يدم إلّا لحظة، وها هي ذي ابتسـامة غريبة تعقف وجهها، ابتسامة ريابة شكاكة، منفِّرة مزعجة. وقالت فجأة بصوت حازم ملحّ:

ـ أرجوك يا أمير، انهض وادخل!

ـ أدخل؟ أدخل إلى أين؟

---

(1) جريشكا أوتريبيف، هو مغامر استطاع أن يقنع الناس بأنه دمتري ، آخر أبناء القيصر يوحنا الرابع الذي قتل سنه 1591، واستطاع أن يحظى بعرش روسيا سنة 1605، وحين قتله الشعب في السنة التالية استنكاراً لميوله الكاثوليكية أعلنت الكنيسة طرده، وكان هذا الطرد يتكرر كل سنة في الأحد الثالث من الصيام الكبير في جميع أنحاء روسيا.

ـ لبثتُ خمس سنين أتخيل دائماً كيف ستدخل عليَّ. انهض، واذهب إلى الغرفة الأخرى. وسأبقى أنا جالسةً هنا كأنني أنتظر أحداً وسأتناول كتاباً. ثم تدخل أنت كأنك عائد بعد غيبة خمس سنين. أريد أن أرى كيف سيتم هذا.

صرّ نيقولاي فسيفولودوفتش على أسنانه، وجمجم ببضعة أقوال غير مفهومة، ثم ضرب المائدة براحة يده صائحاً:

ـ كفى! أرجوك أن تسمعيني يا ماريا تيموفيئفنا. أرجوك، أن تستجمعي كل انتباهك إذا استطعت. ما أنت مجنونة تماماً على كل حال.

كذلك أفلتت من لسانه هذه الجملة. ولكنه تابع كلامه فقال:

ـ غداً سوف أذيع زواجنا في الملأ. لن تسكني قصراً منيفاً في يوم من الأيام. اطردي هذه الفكرة من ذهنك. هل تريدين أن تقضي حياتك كلها معي، ولكن في مكان بعيد عن هنا؟ في الجبال، بسويسرا... إنني أعرف مكاناً هناك... لاتقلقي: لن أهجرك ولن أضعك في مستشفى للمجانين. عندي من المال ما يكفي لأن نعيش دون أن نسأل أحداً شيئاً. سيكون لك خادمة، فلن تُضطري إلى القيام بأي عمل في البيت. وكل ما تشتهينه سأهيئه لك وأزودك به في حدود الإمكان. سيكون في إمكانك أنَ تصلي، وأن تذهبي إلى حيث تريدين، وأن تفعلي ماتشائين. ولن ألمسك. وأنا أيضاً لن أتحرك، من ذلك المكان. وإذا شئت، فلن أخاطبك بكلمة واحدة، وإذا أردت، فسوف تقصّين عليَّ حكاياتك الصغيرة كما كنت تفعلين في الماضي ببطرسبرج. وسوف أقرأ لك إذا كان ذلك يسرك. ولكننا، في مقابل هذا، سنقضي حياتنا كلها في ذلك المكان. وذلك المكان جهم مقفر. هل تريدين؟ أتعزمين أمرك على هذا؟ ألا تندمين في المستقبل؟ ألن ترهقيني بدموعك ولعناتك؟

أصغت إليه باستطلاع شديد. فلما أنهى كلامه، فكرت ملياً، ثم قالت أخيراً بلهجة فيها سخرية واحتقار:

ـ ذلك كله يبدو غير ممكن. فلربما وجب عليَّ أن أعيش هكذا أربعين سنة في الجبال.

وانفجرت تضحك مقهقهة.

أجاب نيقولاي ستافروجين:

ـ نعم، سنعيش هنالك أربعين سنة إذا وجب الأمر.

وقطب حاجبيه.

ـ هم... لن أقبل هذا بحال من الأحوال.

ـ ولكن معي أنا؟

ـ ومن أنت حتى أسافر معك هكذا؟ انظروا يا ناس! يريد أن أبقى أربعين سنة معلقة في جبل! إن أهل هذا الزمان أصبحوا على جانب عظيم من الصبر! لا، لن يستطيع بوم أن يكون صقراً! إن أميري ليس هكذا.

هكذا صاحت بلهجة الانتصار وهي ترفع رأسها معتزة مفتخرة. فرأى ستافروجين الأمر بوضوح فجأةً. فأسرع يسألها:

ـ لماذا تلقبينني أميراً... و... من تظنينني؟

ـ كيف؟ ألست أميراً إذن؟

ـ لم أكن أميراً في يوم من الأيام.

ـ كيف؟ أأنت نفسك تعترف لي بهذا وجهاً لوجه؟

ـ أكرر أنني لم أكن أميراً في يوم من الأيام.

فصاحت وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

ـ يا إلهي! كنت أتوقع من أعدائه كل شيء، إلّا هذه الوقاحة... هذه الوقاحة لم أتوقعها منهم يوماً!

ثم صرخت تقول خارجة عن طورها وهي تهرع نحو ستافروجين:

ـ ولكن أهو حي على الأقل؟ هل قتلته؟ اعترف...

قال وهو ينهض فجأة وقد انقلبت سحنته:

ـ من تظنينني؟

ولكنها أصبحت الآن غير خائفة، بل مزهوة منتصرة، قالت:

ـ من ذا الذي يعرف من أنت، ومن أين خرجت؟ لقد أوجس قلبي ذلك دائماً منذ خمس سنين. لقد حزر قلبي كل مكيدتهم! وتساءلت أنا: من تُرى تكون هذه البومة العمياء التي دخلت إلى غرفتي؟ لا ياصاحبي، أنت ممثل لا

يجيد التمثيل، أنت أسوأ حتى من لبيادكين. سلِّم لي على الأميرة، وقل لها أن تبعث إليَّ بشخص أمهر منك قليلاً. هل دفعت لك مالاً كثيراً في سبيل قيامك بهذه المهمة؟ أهل تعولك في مطبخها من باب البر والإحسان؟ لقد اكتشفت جميع أكاذيبكم. إنني أعرفكم جميعاً، من أولكم إلى آخركم!

فأمسك ستافروجين ذراعيها بقوة، فوق الكوع قليلاً، لكنها انفجرت تضحك في وجهه ضحكاً مجلجلاً. ثم قالت له:

ـ أمَّا أنك تشبهه كثيراً فهذا صحيح. لكن صاحبي أمير. إنه صقر نبيل[1]. ولست كذلك أنت، فما إلّا بومة، ما أنت إلّا بائع في دكان! صاحبي يسجد لله إذا شاء، ولا يسجد إذا أرادت له نزوة من النزوات أن لا يسجد. وأنت قد صفعك شاتوشكا(عزيزي الطيب شاتوشكا). لقد حكى لي لبيادكين ذلك. مـمَّ كنت خائفاً حين دخلت؟ من ذا الذي روَّعك؟ إنني منذ رأيت وجهك الكريه حين وقعتُ فأنهضتني، أحسست كأن دودة قد نفذت في قلبي. وسرعان ما قلت لنفسي: لا، ليس "هو"، ما هذا "هو" ما كان لصقري أبداً أن يشعر بالعار مني أمام آنسة من آنسات المجتمع الراقي! يا إلهي! إن تلك الصورة التي كانت تملأ خيالي، وهي أن فارسي يطير محلقاً هناك، وراء الجبال، يتأمل الشمس، هذه الصورة كافية لتغمرني بالسعادة خلال هذه السنين الخمس!... تكلم أيها الغشاش الدجَّال. هل دُفع لك أجر كبير؟ هل قبضت مبلغاً ضخماً من أجل أن تكذب؟ أمَّا أنا فما كان لي أن أعطيك قرشاً واحداً!... هأ هأ هأ!...

دمدم نيقولاي فسيفولودوفتش يقول من بين أسنانه وهو ما يزال يمسكها من ذراعها فوق الكوع:

ـ آه... معتوهة!

فصاحت تقول بكبرياء وزهو:

ـ أنزل يديك أيها الغشاش الدجال. أنا امرأة أميري، ولست أخشى سكينك!

(1) في الأغاني الروسية الشعبية، كثيراً ما تقع عل تشبيه الشاب بصقر نبيل.

ـ سكيني؟

ـ نعم، سكينك. إنك تخفي سكيناً في جيبك. كنت تظن أنني نائمة، لكنني رأيت كل شيء: فحين دخلت كنت قد استللت سكينك.

ـ ما هذا الذي تقولين أيتها الشقية؟ أية أحلام ترين؟

هكذا قال نيقولاي فسيفولودوفتش، ودفعها عنه بعنف بلغ من القوة، أنها صدمت الديوان برأسها وكتفيها. وأسرع يخرج من الغرفة. ولكنها لم تلبث أن قامت، وطاردته متوهمة عارجة.

وعلى درجات المدخل قبض عليها لبيادكين بكل ما أوتي من قوة، ولكنها أعولت ترسل إلى نيقولاي هذه الكلمات وهي تضحك ضحك امرأة معتوهة:

ـ جريشكا أوتريبيف! مطرود من الكنيسة!

4

مشى ستافروجين في برك الماء والوحل دون أن ينتبه إلى الطريق وهو يردد: "سكين... سكين!" صحيح أنه في بعض اللحظات رغب رغبة رهيبة في أن يضحك، أن يضحك ضحكاً عالياً مدوياً، كمجنون، لكنه أمسك عن الضحك وسيطر على نفسه دون أن يدري هو نفسه لماذا. ولم يثب إلى وعيه إلّا حين صار على الجسر، في ذلك المكان نفسه الذي لقى فيه فدكا. وكان فدكا هناك ينتظره مرة أخرى. فلما رأى فدكا صاحبنا نيقولاي فسيفولودوفتش خلع قبعته، وابتسم ابتسامة فرحة كاشفاً عن جميع أسنانه، ثم سرعان ما أخذ يثرثر. مرَّ ستافروجين أمامه دون أن يتوقف، وحتى دون أن ينتبه أي انتباه إلى أقوال هذا المتشرد الذي أخذ يتبعه من جديد. فما كان أشد دهشته حين لاحظ أنه نسي وجود فدكا نسياناً تاماً، وإن يكن قد ظل يردد في سره بغير انقطاع: "سكين... سكين" والتفت فجأة، فقبض على المتشرد من ياقته وجندله على الأرض، بكل القوة التي كانت قد تجمعت في نفسه من شدة العنف. وخطر ببال فدكا لحظةً أن يدافع عن نفسه، ولكنه أدرك فوراً أنه

أمـام خصم كهذا الخصم لا تُعدُّ قوته شـيئاً مذكوراً، لذلـك أذعن ولـم يُبد أية مقاومـة، وظل راكعاً على ركبتيه متجهـاً بوجهه إلى الأرض، ينتظر ختام هذه المغامرة، مقتنعاً بأنه غير معرَّضٍ لأي خطر.

ولم يخطئ ظنه. كان نيقولاي فسـيفولودوفتش قد حل عن عنقه المنديل الـذي كان يحيط بـه وأخذ يوثق به يدي سـجينه، ولكنه سـرعان ما عدل عن رأيه ودفع فدكا عنه فسرعان ما انتصب فدكا على قدميه، وإذا بسكين عريضة قصيرة تلتمع بيده، لا يدري أحد من أين أخرجها!...

فما كان من نيقولاي فسـيفولودوفتش إلّا أن "أمره" بحركة تدل على نفاد الصبر:

ـ اخفض السكين! واخفها!

فإذا بالسكين تختفي بسرعة مثلما ظهرت بسرعة.

واستأنف نيقولاي فسـيفولودوفتش سيره صامتاً دون أن يلتفت بعد ذلك إلـى وراء. ولكن الشـخص العنيد ظل يتبعه، ولكنه يتبعـه الآن باحترام، على مسـافة خطوة منه، دون أن يكلمه البتة. وهكذا عبرا الجسر، ثم نزلا إلى ضفة النهـر المنحدرة، ولكنهما دارا في هذه المرة يسـرةً، وسـارا في شـارع ضيق طويـل مقفـر أفضى بهما إلى وسـط المدينة بسـرعة، فلو أنهما سـلكا شـارع ابيفانيـا الذي سـلكه سـتافروجين في الذهـاب لما وصلا إلى وسـط المدينة بمثل هذه السرعة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش يسأل فدكا:

ـ يقـال إنك سـطوت في هذه الأيـام الأخيرة على كنيسـة بمقاطعتنا. فهل هذا صحيح؟

فأجابـه المتشـرد برصانة وأدب وتهذيب، كأن شـيئاً لـم يحدث، بل أجابه ليس برصانة فحسب، وإنما بوقار أيضاً:

ـ الحق أنني دخلت الكنيسة أولاً لأصلِّي...

لـم يُبدِ فدكا شـيئاً من رفع الكلفة واصطنـاع "الصداقة" كما فعل من قبل، وإنما هو يتكلم الآن كلام إنسان جاد، إنسان عملي إن كان قد أسيء إليه فإنه

سرعان ما ينسى الإساءات. وتابع كلامه يقول:

ـ فحين دخلت قلت لنفسي: إن نعمة الله هي التي قادت خطاي إلى هنا... وقد فعلت فعلتي ياسيدي لأننا في مثل وضعنا ندبِّر أمرنا كما نستطيع... إننا لا نطيق الاستغناء عن معونة الآخرين. ولكن صدِّق يا سيدي أنني لم أجن من ذلك أي فائدة. لقد عاقبني الله على آثامي. فالمبخرة وحلة الشماس لم أستطع أن أبيعهما بأكثر من اثني عشر روبلاً. أمَّا طوق القديس نيقولا وهو من فضة فقد زعموا أنه ليس من فضة فلم أقبض ثمنه إلّا مبلغاً زهيداً لا يُذكر.

ـ وذبحت الحارس؟

ـ لقد نظفنا الكنيسة مشتركين، وكنا تشاجرنا في الصباح قرب النهر، لأننا اختلفنا حول هذه المسألة: من الذي يحمل الكيس؟ وعندئذ ارتكبت ذلك الذنب، إذ أرحت رفيقي!

ـ استمر في القتل، استمر في السرقة .

ـ ذلك ما يقوله لي أيضاً بطرس ستيفانوفتش، كلمةً كلمةً، تماماً! ذلك أنه فيما يتعلق بإغاثة الناس ومساعدتهم رجل قاس القلب بخيل. وهو لا يكتفي بأن لا يؤمن بالخالق الذي أخرجنا من طين الأرض وأن يقول إن الطبيعة صنعت كل شيء، بل هو أيضاً لا يريد أن يدرك أننا معشر الفقراء لا يمكننا أن نعيش دون أن يكون لنا أحد يحسن إلينا وينعم علينا وينجدنا. فإذا أخذت تشرح له هذا نظر إليك نظرة خروف، فلا تملك إلّا أن تُشده، هل تصدِّق يا سيدي؟ في مسكن ذلك الكابتن لبيادكين الذي زرته أنت هذه الليلة، في مسكنه أيام كان يقيم بعمارة فيليبوف، كان الباب يظل طوال الليل مفتوحاً على سعته كلها. وكان هو، عدا ذلك، ينام نوم الموتى من فرط السكر، وكان المال يخرج من جميع جيوبه. رأيت ذلك بعيني رأسي. ذلك أننا في وضعنا يستحيل علينا إطلاقاً أن نستغني عن مساعدة الآخرين...

ـ رأيته بعيني رأسك؟ إذن دخلت عليه ليلاً؟

ـ ربما، لكن أحداً لا يعرف ذلك.

ـ فلماذا لم تذبحه؟

ـ زِنتُ الأمر، ما له وما عليه فرأيت أن أعدل عن ذبحه. كنت أعلم أن في إمكاني دائماً أن أجني منه مائة وخمسين روبلاً، ولكن علام التسرُّع ما دمت أستطيع أن أجني ألفاً وخمسمائة روبل على الأقل، إذا أنا انتظرت قليلاً؟ ذلك أن الكابتن لبيادكين يعتمد عليك أعظم الاعتماد في حالة السكر (سمعته بأذني)، ما من حانة هنا ولا من خمارة إلّا سمع فيها يتكلم عن هذا الأمر أثناء سكره. فلما سمعت هذا من جهات مختلفة، عقدت أنا أيضاً كل آمالي على "معاليك" يا سيدي. فأنا أتوجه إليك يا سيدي كما يتوجه ابنٌ إلى أبيه أو أخ إلى أخيه. ولن يعرف بطرس ستيفانوفتش عن ذلك شيئاً، ولن يعرف أحد شيئاً. هل يريد صاحب السعادة أن يعطيني ثلاثة روبلات. إنني أريد أن أعرف الحقيقة، وأن أعرف ما الذي يجب عليَّ أن أفعله، ذلك أننا في وضعنا ياسيدي، يستحيل علينا أن نعيش مستغنين عن مساعدة الآخرين.

انفجر نيقولاي فسيفولودوفتش ضاحكاً، واستل من جيبه محفظة نقوده التي تضم خمسين روبلاً، أوراقاً صغيرة، فرمى إليه من هذه الأوراق واحدة فثانية فثالثة فرابعة. فكانت الأوراق تسقط في الوحل. وكان فدكا يركض وراءها ويحاول إمساكها طائرةً وهو يطلق صرخات قصيرة: "آه... آه...". وأخيراً رمى إليه نيقولاي فسيفولودوفتش حزمة الأوراق كلها، وهو ما يزال يضحك ضحكاً مجلجلاً، واستأنف سيره، ولكنه استأنفه في هذه المرة وحيداً. كان المتشرد جاثماً على ركبتيه في الوحل، ما يزال يبحث عن الأوراق التي بعثرتها الرياح فسقطت في البرك. وظلت صرخاته الصغيرة: "آه... آه... " تترجع في الظلمات مدة طويلة.

الفصل الثالث

المبارزة

1

تمت المبارزة في الغد، في الساعة الثانية بعد الظهر. إن رغبة القتال العنيفة التي كانت تتأرجح نارها في قلب آرتمي بافلوفتش وتدفعه إلى المبارزة مهما كلف الأمر قد عجلت الأحداث. وهو لم يستطع أن يفهم سلوك خصمه فكان خارجاً عن طوره وكان الغضب يستعر في كل نفسه. إنه يهين خصمه بغير داع منذ شهر، ثم لا يتوصل إلى إفقاده صبره. فكان لا بد له حتماً من أن يطلبه نيقولاي فسيفولودوفتش إلى المبارزة، لأنه كان لا يملك أي حجة أو ذريعة لأن يطلبه هو إلى المبارزة. وكان من جهة أخرى يستحي أن يعترف بالبواعث الخفية التي تحضه على هذا السلوك، أعني الكره الفظيع الرهيب الذي كان يحمله لستافروجين بسبب ما ألحقه ستافروجين بشرف الأسرة من إهانة. كان يدرك هو نفسه أنه لا يستطيع أن يذكر هذا الباعث، لا سيما منذ أن قدّم إليه ستافروجين اعتذارات بلغت غاية المذلة، مرتين. وكان جاجانوف قد اعتقد في قرارة نفسه أن نيقولاي فسيفولودوفتش ليس إلّا جباناً. إنه لم يستطع أن يدرك لماذا لم يثأر نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين للصفعة التي تلقاها من شاتوف. وفي ذلك الحين إنما عزم أمره أخيراً على أن يكتب إليه تلك الرسالة التي اشتملت على فظاظة لا مثيل لها، فاضطر ستافروجين عندئذ أن يطلبه إلى المبارزة. كان جاجانوف، بعد أن بعث رسالته، ينتظر الجواب محموماً من شدة نفاد صبره، معدداً احتمالات النجاح كالمريض، منتقلاً من الأمل إلى اليأس ومن اليأس إلى الأمل بغير انقطاع. ومن أجل

أن يتهيأ لكل احتمال رجا مافريكي نيقولايفتش سلفاً أن يكون شاهده: إن مافريكي رفيق طفولته، وهو يقدّره قدراً عظيماً. وهكذا، فإن كيريلوف حين ذهب في صباح الغد إلى جاجانوف، وجد الأرض ممهدة إن صح التعبير.

رفض جاجانوف جميع الاعتذارات والتنازلات الكثيرة التي حملها إليه كيريلوف من عند ستافروجين، رفضها منذ أول كلمة، رفضاً قوياً قاطعاً. وقد شُده مافريكي نيقولايفتش الذي لم يكن يعرف تفاصيل الأمر إلّا أمس، شُده كثيراً حين سمع تلك العروض التي يعرضها ستافروجين وأراد أن يلحّ من أجل حل المسألة حلاً ودياً، لكنه لم يسعه إلّا أن يصمت حين رأى وضع جاجانوف الذي حزر ما كان ينتويه مافريكي فكان يضطرب على كرسيه اضطراباً عصبياً قوياً. لولا أن مافريكي كان قد وعد جاجانوف بمساعدته في هذا الأمر، لانصرف فوراً، لكنه بقي آملاً أن يتدخل فيما بعد، بطريقة أو بأخرى، لتحاشي وقوع كارثة.

نقل كيريلوف الشروط التي يعرضها ستافروجين للمبارزة، فقبلها جاجانوف جميعها دون أي اعتراض، ولكنه طلب إضافة بند آخر إليها، بند قاس من جهة أخرى، وهو أنه إذا انطلقت الرصاصتان الأوليان فلم تقع إصابة حاسمة، كان على المتبارزين أن يطلقا مرة ثانية، فإذا لم تفلح المرة الثانية، أطلقت النار مرة ثالثة. والحق أن كيريلوف قد استاء من هذه المرة الثالثة، وأصر في أول الأمر على أن تعد المبارزة منتهية بعد الإطلاق الثاني لكنه اضطر أن يرضخ أخيراً، ملحاً مع ذلك "على أنه لا مجال لإطلاق رابع حتماً". فتم الاتفاق على هذه النقطة.

هكذا أمكن أن تتم المبارزة في الساعة الثانية بعد الظهر من ذلك اليوم نفسه، في قرية بريكوفو، عند غابة تقع بين أملاك سكفورشنيكي ومصنع شبيجولين. كان المطر قد انقطع عن الهطول تماماً، ولكن الجو رطب، والأرض مبتلة، وكانت ريح قوية تطرد السحب الواطئة الشهباء المتقطعة التي تتلاحق سريعة في السماء الباردة. وكانت الأشجار تحني هاماتها للريح وكان لأوراقها حفيف قوي وصريف صاخب. إنه نهار حزين كئيب.

وصل جاجانوف ومافريكي نيقولايفتش إلى المكان في عربة أنيقة ذات مقاعد طويلة، وكانت العربة يجرها حصانان يقودهما جاجانوف بنفسه. وكان يصحب الرجلين خادم. ولحق بهما ستافروجين وكيريلوف على مسافة قريبة، ممتطيين صهوتي حصانين، وكان يصحبهما خادم هما أيضاً. ولم يكن كيريلوف قد ركب حصاناً قبل الآن، فكان جالساً على السرج كأنه الوتد جموداً وتصلباً، ولكن على جسارة وشجاعة. إنه يمسك بيده اليمنى الصندوق الثقيل الذي يضم المسدسين ولم يشأ أن يعهد به إلى الخادم، ويشد بيده اليسرى على لجام الحصان من قلة الخبرة، لذلك كان حصانه يهز رأسه، ويهم أن يشب في كل لحظة، لكن ذلك لم يكن يروّع الفارس فيما يظهر.

إن جاجانوف رجل سريع التأذي حاد المزاج عارم الغضب، لذلك عدّ ركوب الحصان للوصول إلى مكان المبارزة إهانة جديدة له: فكأن خصمه واثق إذن من انتصاره ثقة تامة ما دام لم يرَ ضرورة لإعداد عربة تقلّه إذا جُرح. فنزل جاجانوف من عربته أصفر اللون من شدة الحنق. وكانت يداه ترتعشان، وسرعان ما أطلع مافريكي نيقولايفتش على ذلك. وحيّاه ستافروجين من بعيد فأشاح وجهه ولم يرد على التحية. وتولى الشاهدان سحب القرعة لتوزيع المسدسات، فكان مسدسا كيريلوف من نصيب ستافروجين. وعدت الخطوات، وحدّد الموضعان اللذان يجب أن يقف فيهما الخصمان.

يؤسفني أن ضرورات القصة تضطرني أن أغفل كثيراً من التفاصيل مع أن بعضها خليق بأن يذكر. كان مافريكي نيقولايفتش يبدو حزيناً مهموماً. ولا كذلك كيريلوف، فقد كان يبدو هادئاً كل الهدوء، غير مكترث البتة. إنه ينفّذ الواجبات التي أخذها على عاتقه تنفيذاً دقيقاً، ولكن دون أي اضطراب، حتى لكأنه لا يبالي كثيراً بالنتيجة التي سيسفر عنها هذا اللقاء. وكان نيقولاي فسيفولودوفتش أكثر شحوباً مما يكون شاحباً في العادة. وهو يرتدي معطفاً خفيفاً ويضع على رأسه قبعة بيضاء من قماش الكستور. كان يبدو عليه التعب والإرهاق، وكان يقطب حاجبيه بين الفينة والفينة لأنه لا يرى أن من

الضـروري أن يخفـي اعتكار مزاجـه. غير أن منظر آرتمـي بافلوفتش كان هو المنظـر الغريـب في تلك اللحظة. هـل يعقل ألا أقول بضـع كلمات عن هذا الشخص؟

2

لـم تتح لـي حتى الآن فرصـة وصف مظهـره الخارجي. إنـه رجل طويل القامـة، بديـن، قد أحسـنت تغذيته، على حـد التعبير الشـعبي، أبيض اللون، أشـقر الشـعر قليله، أميـل إلى ملاحـة الوجه، في نحـو الثالثـة والثلاثين من العمـر. كان هذا الرجل قد طلب إحالته على التقاعد وهو برتبة كولونيل، فلو أنه بلغ رتبة جنرال لاكتست هيئته مزيداً من المهابة أيضاً. ولعله يكون عندئذ جنرالاً ممتازاً.

وتجـدر الإشـارة هنـا، مـن أجـل إبـراز الصفـات التي تميـز بهـا آرتمي بلوفتش، إلى أن السـبب الأساسـي الذي حضه على الاسـتقالة إنما هو تلك الفكرة الأليمة، الماثلة في ذهنه دائماً، وهي فكرة العار الذي لحق باسـمه في أعقاب الإهانة التي أنزلها سـتافروجين بأبيه. فلقـد اعتقد صادقاً أنه ليس من الشرف في شيء أن يستمر في عمله بالجيش، واعتقد أن وجوده يلوث شرف فرقته ورفاقه، مع أن أحداً من هؤلاء لم يكن قد سـمع شيئاً عن ذلك الحادث الـذي وقع لأبيـه. على أن آرتمي بافلوفتش كان قد أوشـك أن يسـتقيل حتى قبـل الإهانـة التي ألحقها سـتافروجين بأبيـه، قبلها بمدة طويلـة، ولكنه عدل عـن ذلـك في آخر لحظـة. ومهما يبدو لكـم الأمر غريباً، فالواقـع أن بيان 19 شـباط (فبراير) القاضي بإلغاء الرق هو الذي حضه يومئذ على ترك الجيش. إن آرتمـي بافلوفتش، وهو من أثرى أثرياء السـادة في مقاطعتنا، لا يدمر بيان 19 شباط ثراءه، حتى إن آرتمي بافلوفتش قادر على أن يقدر الطابع الإنساني الذي يتسـم به ذلك الإجراء، وعلى أن يفهم منافعه الاقتصادية تقريباً، ولكن آرتمـي بافلوفتش أحس فجأة بأن صدور هذا القرار يكاد يكون شـتماً له هو. لـم يكن هذا إلّا نوعاً من عاطفة لا شعورية، ولكن كون العاطفة لا شعورية هو

الذي يهب لها القوة والشدة. ولم يعزم أمره ولا خطا خطوة حاسمة ما ظل أبوه حياً. لكن "نبالة" آرائه قد احترمها وقدّرها عدد من الشخصيات ذات الشأن، التي كانت له بها علاقات وثيقة. كان رجلاً منطوياً على نفسه مغلقاً. يجب أن نذكر أيضاً هذا: لقد كان ينتمي إلى ذلك الصنف من السادة الذين ما نزال نلقاهم في روسيا، والذين يقيمون وزنا كبيراً لعراقة محتدهم ونقاء سلالتهم، ويهتمون بذلك اهتماماً فيه غلوّ. وكان في الوقت نفسه يكره التاريخ الروسي، ويرى العادات الروسية على وجه العموم مثيرة للاشمئزاز بعض الشيء. وهو منذ طفولته، في تلك المدرسة العسكرية الخاصة[1] الموقوفة على التلاميذ النبلاء الأثرياء، التي شُرّف ببدء وإنهاء دراسته فيها، قد تعلق ببعض الأفكار التي كانت تبدو له شعرية: فكان يحب القلاع والقصور وحياة القرون الوسطى، وجانبها الزخرفي، والفروسية. كان منذ ذلك الحين يكاد يبكي من شدة الشعور بالعار حين يتصور أن القياصرة الموسكوبيين القدماء كانوا ينزلون في النبلاء الروس عقوبات جسدية، وكانت المقارنات التي تفرض نفسها عليه بهذا الصدد تجعله يحمرّ خجلاً وحياء. إن هذا الرجل الصلب القاسي الذي كان يعرف مهام وظيفته معرفة رائعة، ويقوم بواجباته على أكمل نحو، كانت نفسه نفس إنسان حالم على وجه العموم. ويقال إنه كان يمكنه أن يلعب دوراً في المجالس، لأنه كان يملك موهبة الخطابة ومع ذلك كان صموتاً طوال حياته، وكان في مظهره تكبر واستعلاء حتى في المجتمع البطرسبرجي العالي الذي أخذ يتردد عليه في هذه السنين الأخيرة. ولقد كاد التقاؤه، في بطرسبرج، بنيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين، أن يجعله مجنوناً. وهو الآن، إذ يجد نفسه في مواجهته على الجانب الآخر من الحاجز، يشعر بقلق فظيع. كان يخيل إليه طوال الوقت أن حادثاً سيحدث

(1) "تلك المدرسة العسكرية الخاصة": هي مدرسة الحرس الامبراطوري ببطرسبرج التي كان لا يقبل فيها إلا أبناء أو أحفاد جنرالات. إن تلاميذ هذه المدرسة يقومون بدور الحرس الغلمان في احتفالات البلاط الامبراطوري، ويتخرجون من المدرسة ضباطاً في الحرس. وقد تحدث "الفوضوي ـ الأمير" عن هذه المدرسة في مذكراته.

فيحول دون قيام المبارزة، فكان أيسر إبطاء يجعله يرتجف ارتجافاً من شدة نفاد صبره. لذلك تقبض وجهه تقبضاً أليماً حين أخذ كيريلوف فجأة يتكلم، بدلا من إطلاق إشارة بدء القتال، فيقول من باب التقيد بالشكل، كما أعلن ذلك هو نفسه:

ـ الآن وقد تسلحتما ولم يبق علي إلّا أن أطلق إشارة القتال، فإنني أعرض عليكما لآخر مرة أن تتصالحا. إنني لا أتكلم إلّا من باب التقيد بالشكل. فهذا واجبي بصفتي شاهدا.

وهذا هو مافريكي نيقولايفتش الذي لزم الصمت حتى ذلك الحين، ولكنه لم يكفّ عن لوم نفسه على ضعفه منذ أمس، يتدخل فوراً، بمصادفة تشبه العمد، فيقول مؤيداً اقتراح كيريلوف:

ـ إنني أثني على أقوال السيد كيريلوف، وأضم صوتي إلى صوته. وليست الفكرة القائلة بأن المصالحة لا تتم على أرض القتال إلّا وهماً من الأوهام الاجتماعية الباطلة التي تصلح للفرنسيين في أكثر تقدير!.. على كل حال، لكما ما تشاءان، غير أنني لا أرى أن هناك إساءة قد وقعت، أو أن هناك إهانة قد لحقت أحداً!... لقد وددت لو أقول هذا الكلام منذ مدة طويلة... ما دام ثمة استعداد لتقديم كل الاعتذارات الممكنة.. أليس هذا صحيحاً؟

قال مافريكي ذلك واحمرّ احمراراً شديداً. إنه قلما قال كلاماً طويلاً هذا الطول كله، وبمثل هذا الاندفاع كله!

وهنا أسرع نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين يتدخل قائلاً:

ـ إنني أؤكد مرة أخرى ما سبق أن عرضته من تقديم كل الاعتذارات الممكنة.

فصاح جاجانوف يقول خارجاً عن طوره، ملتفتاً نحو مافريكي نيقولايفتش، حتى لقد ضرب الأرض بقدمه من شدة غضبه:

ـ مستحيل! قل لهذا السيد يا مافريكي نيقولايفتش، ما دمت شاهدي لا عدوّي، قل لهذا السيد (وأومأ بطرف مسدسه إلى ستافروجين) أن ما يعرضه من تنازلات لا يزيد على أن يفاقم الإهانة. فهو يرى أن الإهانات التي تصدر

عنـي أنـا لا تناله هو بأذى ولا تلحق بـه خزياً! إنه يرى أنه لا عـار عليه إذا هو تهـرب منـي!... فماذا يظننـي إذن؟ ثم إنه قد قال كلامـه أمامك، فلم تغضب لكرامتـي التي تهان، فكيف تكون شـاهدي؟ إنك لا تزيـد على أن تثير غيظي حتى لا أصيبه.

قال ذلك وضرب الأرض بقدمه مرة أخرى، وكان الزبد يخرج من فمه.

صرخ كيريلوف قائلاً بكل ما أوتي من قوة:

ـ انتهى التفاوض. واحد! اثنان! ثلاثة!

فلمـا قال "ثلاثة"، اتجه الخصمان أحدهما نحو الآخر. وسـرعان ما رفع جاجانوف مسدسه بعد خمس أو ست خطوات، وأطلق. ووقف لحظة، فلما لاحظ أنه لم يصب سـتافروجين أسـرع نحو الحاجز. فسـار ستافروجين إلى لقائـه ورفع مسدسـه، لكنه تعمـد أن يرفعه أكثر مما يجـب، بحيث لا تصيب الرصاصـة هدفها، وأطلق دون أن يصـوّب تقريباً. فعل ذلك ثم أخرج منديله ولـفّ به إصبـع يده اليمنـى. وعندئذ فقط إنمـا رأى آرتمـي بافلوفتش أنه لم يخطـئ خصمه تماماً، ولكن رصاصته انزلقت على طول إصبعه دون أن تبلغ منها العظم، فلم تزد الإصابة على أن تكون خدشاً. وأسرع كيريلوف يقول إن المبارزة ستستمر إذا لم يكتف الخصمان بهذا اللقاء الأول.

قـال جاجانوف بصوت مختنق (وكان حلقـه جافاً)، قال وهو يلتفت نحو مافريكي نيقولايفتش من جديد:

ـ إننـي أعلن أن هذا الرجل (وأومأ إلى سـتافروجين مرة أخرى) قد تعمد أن يطلـق رصاصة في الهواء... نعم، تعمد ذلـك بإرادته. فهذه إهانة جديدة، هذه مسبّة أخرى يوجهها إلي... إنه يريد أن يجعل المبارزة مستحيلة.

قال نيقولاي فسيفولودوفتش جازماً:

ـ من حقي أن أطلق كما أريد، شريطة ألا أخلّ بالقواعد المقررة.

فأجاب جاجانوف صارخاً:

ـ لا، ليس من حقه. قل له هذا! ما بالك لا تقول له!

تدخل كيريلوف فقال:

ـ إنني أشارك نيقولاي فسيفولودوفتش رأيه كل المشاركة.

وتابع جاجانوف صراخه يقول دون أن يصغي إلى أحد:

ـ لماذا يتجنب أن يصيبني. إنني أحتقر سماحته هذه... إنني أبصق على... إنني...

فأجابه ستافروجين وقد نفد صبره:

ـ أقسم لك بشرفي أنني لم أشأ إهانتك البتة. وإنما أنا أطلقت في الهواء لأنني أصبحت لا أريد أن أقتل أحداً، لا أنت ولا أيّ شخص آخر. الأمر لا يتناولك. صحيح أنني لا أرى أنني أهان، ويؤسفني كثيراً أن هذا قد أغضبك. ولكنني لن أسمح لأحد بأن يحرمني من استعمال حقي.

أعول جاجانوف يقول متوجهاً بكلامه إلى مافريكي نيقولايفتش أيضاً:

ـ إذا كان يخشى سفح الدم إلى هذه الدرجة من الخشية، فاسأله لماذا طلبني إلى المبارزة؟

قال كيريلوف:

ـ كيف كان يمكنه أن لا يطلبك إلى المبارزة؟ إنك لم تشأ أن تسمع شيئاً. فلم يكن هناك وسيلة للتخلص منك غير هذه الوسيلة!

قال مافريكي نيقولايفتش بجهد ظاهر، وقد آلمه مجرى هذه القضية كثيراً:

ـ أحب أن ألفت النظر إلى أن المبارزة لا يمكن أن تستمر بالفعل إذا أعلن أحد الخصمين أنه سيطلق في الهواء... وذلك لأسباب دقيقة.. وواضحة...

فصاح ستافروجين يقول وقد ذهب عنه كل صبره:

ـ أنا لم أعلن بتاتاً أنني سأطلق في الهواء في كل مرة. إنك لا تعرف ما هي نياتي التي أضمرها، ولا تعرف كيف سأطلق النار في المرة التالية... إنني لا أضع أي عائق يحول دون إتمام المبارزة.

قال مافريكي نيقولايفتش لجاجانوف:

ـ إذا كان الأمر كذلك فالمبارزة تستمر.

وهتف كيريلوف آمراً:

ـ ليقف كل منكما في مكانه أيها السيدان!

وعاد الخصمان يتجه كل منهما نحو الآخر من جديد. ومرة أخرى أخطأ جاجانوف خصمه نيقولاي فسيفولودوفتش الذي أطلق النار في الهواء هذه المرة. غير أن طلقتي نيقولاي فسيفولودوفتش يمكن أن تكونا محل مناقشة، ولولا أنه اعترف هو نفسه بأنه أطلق في الهواء عامداً لكان في إمكانه أن يدعي أنه صوب فأحسن التصويب، لأنه في الواقع لم يسدّد سلاحه نحو السماء أو نحو قمة شجرة، وإنما كان يسدّده إلى ما فوق قبعة خصمه قليلاً. حتى أن تسديده في المرة الثانية كان أخفض من تسديده في المرة الأولى، كأنما ليبرهن على صدق إرادته. ولكن تهدئة جاجانوف أصبحت الآن مستحيلة.

قال جاجانوف وقد كزت أسنانه:

ـ أيضاً. ولكن لا فرق عندي! لقد دُعيت إلى المبارزة فلي أن أستعمل حقي. أريد أن أطلق مرة ثالثة... مهما كلف الأمر!

قال كيريلوف موافقاً على كلامه بلهجة جافة:

ـ هذا حقك.

ولزم مافريكي نيقولايفتش الصمت. وعاد الخصمان إلى موقعيهما مرة ثالثة أخيرة، وسارا أحدهما نحو الآخر بأمر من كيريلوف. فتقدم جاجانوف حتى وصل إلى الحاجز، فلما صار هناك، على مسافة اثنتي عشرة خطوة، صوب إلى ستافروجين. ولكن يديه كانت ترتعشان ارتعاشاً يبلغ من القوة أنه كان يستحيل عليه أن يحسن التسديد. ووقف نيقولاي فسيفولودوفتش جامداً خافضاً مسدسه ينتظر طلقة عدوه.

صرخ كيريلوف بصرامة وعنف:

ـ أطلت... أطلت التسديد كثيراً! أطلق، أطلق بسرعة!

وانطلقت الرصاصة، فإذا بقبعة الكستور الأبيض التي كانت على رأس نيقولاي فسيفولودوفتش، تتدحرج على الأرض. لقد ثقبت القبعة في موضع منخفض، فلو جاءت الطلقة أخفض بمقدار سنتمتر واحد، لانتهى كل شيء.

تناول كيريلوف القبعة من الأرض، ومدها إلى نيقولاي فسيفولودوفتش.

صرخ مافريكي نيقولا يفتش يقول وقد رأى ستافروجين كمن نسي جاجانوف، وأخذ يدقق النظر في القبعة مع كيريلوف، صرخ يقول ستافروجين بانفعال شديد:

ـ أطلق! لا تجعل خصمك ينتظر طويلاً!

فارتعش ستافروجين، ونظر إلى جاجانوف، ثم أشاح بوجهه عنه. ودون أن يكلف نفسه هذه المرة حتى عناء التظاهر، أفرغ مسدسه باتجاه الغابة. وانتهت المبارزة.

لبث جاجانوف واقفاً كالمتجمد. واقترب منه مافريكي نيقولا يفتش، فقال له بضع كلمات. ولكن لم يبدُ على جاجانوف أنه سمعها. وحين انصرف كيريلوف رفع قبعته محيياً مافريكي نيقولا يفتش. أما ستافروجين، المهذب في العادة، فإنه لم يلتفت نحو خصمه بعد أن أطلق رصاصته في اتجاه الغابة، وإنما مدّ مسدسه إلى كيريلوف بحركة مفاجئة، واتجه مسرعاً إلى المكان الذي ربطت فيه الخيول. كان وجهه قد اكتسى تعبيراً خبيثاً. وكان صامتاً. وكان كيريلوف صامتاً كذلك. وركبا حصانيهما، ومضيا خبباً.

3

صاح ستافروجين يسأل كيريلوف بنفاذ صبر:

ـ ما بالك تصمت ولا تتكلم؟

وكانا قد أصبحا غير بعيدين عن البيت. فأجابه كيريلوف:

ـ ماذا تريد أن أقول لك؟

وشب حصان كيريلوف فأوشك كيريلوف أن يسقط.

سيطر ستافروجين على نفسه. وقال بصوت خافت:

ـ كنت لا أريد أن أهين ذلك.. الغبي، ومع ذلك أراني قد أهنته مرة أخرى.

فقال كيريلوف بلهجة قاطعة:

ـ نعم أهنته مرة أخرى. ثم إنه ليس غبياً.

ـ فعلت مع ذلك كل ما استطعت أن أفعله.

ـ لا.
ـ ماذا كان يجب علي أن أفعل؟
ـ كان يجب ألا تدعوه إلى المبارزة.
ـ أأسمح إذن بأن أصفع مرة أخرى؟
ـ نعم.
ـ أصبحت لا أفهم شيئاً.
كذلك قال ستافروجين غاضباً واستطرد يقول:
ـ لماذا ينتظر مني جميع الناس ما لا ينتظرونه من أحد غيري؟ لماذا علي أن أحتمل ما لا يحتمله أحد، وأن أقبل من الأثقال ما لا يطيق أحد حمله؟
ـ كنت أظن أنك أنت نفسك تبحث عن هذه الأثقال.
ـ أنا؟ أبحث عن أثقال؟
ـ نعم.
ـ أهو ظاهر ملحوظ إلى هذا الحد؟
ـ نعم.
ولبثا صامتين بضع لحظات. كان ستافروجين يبدو مهموماً، بل مضطرباً أشد الاضطراب. واستأنف كلامه فقال قلقاً، كأنما هو يحاول أن يبرر سلوكه:
ـ لم أسدّد إليه لأنني لم أشأ أن أقتل أحداً. هذا هو السبب الوحيد. أؤكد لك.
ـ ما كان ينبغي لك أن تهينه.
ـ فماذا كان يجب أن أفعل إذن؟
ـ كان يجب أن تقتله.
ـ أيؤسفك أنني لم أقتله؟
ـ لست آسفاً على شيء. لقد ظننت أنك كنت تريد حقاً أن تقتله. إنك لا تعرف أنت نفسك ما الذي تسعى إليه وتبحث عنه.
قال ستافروجين ضاحكاً:
ـ أبحث عن أثقال.

فسأله كيريلوف:

ـ إذا كنت لا تريد سفح الدم، فلماذا أتحت له فرصة القتل؟

ـ لو لم أطلبه للمبارزة لقتلني بغير مبارزة.

ـ هذا ليس شأنك. لعله ما كان يقتلك.

ـ كان يمكن أن يكتفي بصفعي مثلاً؟

ـ هذا ليس شأنك. احمل أثقالك. وإلا فلا ميزة ولا فضل، ولا جدارة ولا استحقاق!

ـ إنني أبصق على هذا كله، ولا أسعى للحصول على أي ميزة أو فضل أو جدارة أو استحقاق.

ـ كنت أظن أنك تبحث عن ذلك وتسعى إليه.

هكذا ختم كيريلوف الحديث بهدوء يثير الغيظ.

واقترح عليه ستافروجين أن يدخل معه، قائلاً له:

ـ هل لك أن تجيء معي إلى البيت؟

فرد عليه كيريلوف:

ـ بل أنا عائد إلى مسكني. أستودعك الله.

ونزل عن الحصان، وتأبط صندوق المسدسات.

سأله ستافروجين وهو يمد إليه يده ليصافحه:

ـ ولكن أرجو أن تكون أنت على الأقل غير حاقد علي، هه؟

فأجابه كيريلوف عائداً إليه ليصافحه:

ـ لا، بتاتاً! إن أثقالي خفيفة، لأن هذا من طبيعتي، أما أثقالك أنت فهي أكبر، وذلك يتعلق بطبيعتك. ما يجب أن يستحي المرء من هذا كثيراً بل قليلاً.

ـ أنا أعلم أن لي طبيعة ضعيفة، لذلك ليس لي أي مطمع في القوة.

ـ تحسن صنعاً. ما أنت بالقوي. تعال زرني، فنشرب الشاي.

ودخل نيقولاي فسيفولودوفتش بيته مضطرباً اضطراباً شديداً.

4

وسـرعان ما أبلغه ألكسي إيجورتش أن فرفارا بتروفنا، وقد أسعدها كثيراً أن يخرج ابنها في نزهة على الحصان ـ هذه أول نزهة له بعد ثمانية أيام قضاها مريضـاً ـ قد أمـرت بإعداد عربتهـا وخرجت، كما كانت تفعـل في الماضي، لتستنشـق قليلاً من الهـواء الطري، لأنها بعد هذه الأيام الثمانية قد نسـيت ما هواء الشارع.

قاطعه ستافروجين فجأة يسأله:

ـ أخرجت وحدها أم مع داريا بافلوفنا؟

واكفهـر وجهه حين علم أن داريا بافلوفنا، لشـعورها بتوعك صحتها، قد رفضت أن تصحب فرفارا بتروفنا، وأنها الآن في شقتها.

قال له ستافروجين وكأنه اتخذ قراراً حاسماً على حين فجأة:

ـ اسـمع. راقبهـا اليـوم طوال النهـار، فإذا لاحظـت أنها آتية إلـى عندي، أوقفهـا فوراً وقل لها أنني لا أسـتطيع اسـتقبالها، على الأقـل خلال بضعة... وأنني أنا الذي أرجوها هذا الرجاء... وأنني سأسـتدعيها متى آن الأوان. هل تسمع؟

أجابه إيجورتش بصوت مضطرب وهو يخفض عينيه:

ـ سأقول لها ذلك.

ـ ولكن لا تقله لها إلّا إذا رأيت أنها تريد المجيء إلي.

ـ اطمئن بالاً، لن يحدث خطأ. فبواسـطتي أنـا إنما تمت المقابلات حتى الآن. إنها تتجه دائماً إلي.

ـ أعلم. ومع هذا، لا تتدخل أنت إلّا في آخر لحظة.

ولكـن ما كاد يخرج الخـادم العجوز حتى فتح الباب الذي كان قد أغلقه، فـإذا داريـا بافلوفنا تظهر في العتبـة. كانت نظراتها هادئـة، ولكن وجهها كان أكثر شحوباً مما عهد فيه من شحوب.

هتف ستافروجين يسألها:

ـ من أين جئت؟

ـ كنت وراء الباب أنتظر أن يخرج حتى أدخل. وسمعت ما قلته له، فلما خرج اختبئت في زاوية على اليمين فلم يبصرني.

ـ إنني أريد، منذ مدة طويلة، يا داشا، أن أقطع علاقتنا... إلى حين. لم أستطع أن أستقبلك هذه الليلة رغم رسالتك. وقد أردت أن أكتب إليك أنا نفسي، لكنني لا أعرف ماذا أكتب...أضاف هذه الجملة الأخيرة بغضب يكاد يمازجه اشمئزاز.

قالت داريا بافلوفنا:

ـ أنا أيضا كنت أرى أن نقطع علاقتنا. إن شبهات قوية تقوم في نفس فرفارا بتروفنا.

ـ فلتظن ما يشاء لها هواها أن تظن.

ـ ما ينبغي لها أن تقلق. وإذن لم يبق علينا إلّا أن ننتظر النهاية.

ـ أما تزالين واثقة بأن سيكون ثمة نهاية حتماً؟

ـ نعم، أنا واثقة.

ـ لا شيء ينتهي في هذا العالم.

ـ ولكن في هذا الأمر سيكون ثمة نهاية. نادني عندئذ فأجيء. والآن أستودعك الله.

سألها وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ وما عسى تكون تلك النهاية؟

فسألته دون أن تجيب على سؤاله:

ـ ألم تجرح؟... و... ألم تسفح دماً؟

ـ جرى كل شيء مجرى غبياً أحمقاً. لم أقتل أحداً، لا تخافي. على كل حال، ستعرفين التفاصيل في هذا اليوم نفسه. سيتكلم عنها جميع الناس. لا أشعر بأن صحتي حسنة.

ـ أنا ذاهبة.

ثم أضافت تسأله بتردد:

ـ هل اليوم تعلن الزواج؟
ـ لا، لا اليوم، ولا غداً. بعد غد... لست أدري. قد نموت جميعاً. وهذا أفضل. دعيني، دعيني أخيراً!
ـ هل تكون سبباً في ضياع الأخرى... الملتاثة العقل؟
ـ لن أهلك المجنونات... لا هذه المجنونة ولا تلك... ولكنني أعتقد أنني سأضيع العاقلة الحكيمة: أنا أبلغ من الحقارة والدناءة والخسة يا داشا أنني ربما ناديتك أنت "في آخر الأمر"، كما تقولين، فإذا بك تهرعين ملبية النداء، رغم كل ما تتصفين به من عقل وحكمة. لماذا تضيعين نفسك؟
ـ أنا أعلم أنني في النهاية سأبقى وحدي معك. و... أنا أنتظر تلك اللحظة!
ـ وإذا لم أنادك في النهاية، بل هربت؟
ـ هذا لن يكون. ستناديني.
ـ إن ما تقولينه يشتمل على كثير من الاحتقار.
ـ أنت تعلم أن الأمر ليس أمر احتقار فحسب.
ـ معنى هذا أن فيه شيئاً من الاحتقار على كل حال؟
ـ أسأت أنا التعبير. يشهد الله أنني أتمنى أن لا تحتاج إليّ في يوم من الأيام.
ـ أبدلت جملة بجملة تعادلها. أنا أيضاً أتمنى أن لا أكون سبباً في ضياعك.
ـ لن تستطيع يوماً، بحال من الأحول، أن تضيعني. وإنك لتعرف ذلك خيراً مما أعرفه.
كذلك أجابت داريا بافلوفنا بحرارة ولهجة قاطعة. واستطردت تقول:
ـ إذا لم أجئ إلى قربك، سأصير راهبة من راهبات المحبة، أعتني بالمرضى، أو أصبح بائعة متجولة أبيع الأناجيل في القرى. لقد عزمت أمري واتخذت قراري. لا أستطيع أن أتزوج، ولا أستطيع أن أعيش في منازل كهذه. ما أريده شيء آخر... إنك تعرف كل شيء.
ـ لا، لم أستطع في يوم من الأيام أن أعرف ما تريدين. يبدو لي أنك تهتمين بي قليلاً كبعض الممرضات العجائز اللواتي يعتنين بواحدة من مريضاتهن

أكثـر مـن سـائر المريضات ـ لا يـدري أحد لمـاذا ـ أو كبعض تلـك العجائز اللواتـي يحببن دفن الموتـى ويرين أن هذه الجثة أجمل من تلك الأخرى. ما بالك تنظرين إلي بهيئة غريبة عجيبة إلى هذا الحد؟

سألته بلهجة فيها كثير من الشفقة وهي تنظر إليه بانتباه خاص:

ـ أأنت مريض جداً؟ رباه كيف يريد هذا الرجل أن يستغني عني؟

ـ اسـمعي يـا داشـا، إنني الآن تظهر لي أشـباح دائمـاً. فبالأمس مثلا ظهر لي شـيطان صغير على الجسـر، وعرض علي أن يقطع عنـق لبيادكين وماريا تيموفيئفنا، فأنتهي من زواجي الشـرعي، ولا يتحدث عنه أحد بعد ذلك أبداً. وسألني الشيطان الصغير أن أدفع له عربوناً قدره ثلاثة روبلات، لكنه أفهمني بوضـوح أن العمليـة كلهـا لـن تكلفني أقل من ألـف وخمسـمائة روبل. هذا شيطان يجيد الحساب. إنه حيسوب! هأ هأ هأ!.

ـ أأنت واثق بأن ذلك لم يكن إلّا شبحاً؟

ـ لا، لـم يكـن شـبحاً، وإنما هـو فدكا قاطـع الطريق، الهارب من سـجن الأشـغال الشـاقة. ولكن ليس الأمر هذا. هل تعرفين ماذا فعلت؟ لقد أعطيته كل ما كان في محفظتي من مال، وهو الآن مقتنع بأنني دفعت له عربوناً.

ـ لقيته ليلاً، وعرض عليك ذلك العرض؟ ولكن ألسـت ترى إذن أنك قد وقعت في شباكهم وانتهى الأمر؟

ـ ليكن ما يكون!

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة خبيئة:

ـ ولكنني أرى هناك على طرف لسانك سؤالا تريدين أن تلقيه!

خافت داشا.

ـ أي سؤال؟ ليس ثمة سؤال البتة. ليس عندي أيسر شك. اسكت.

كذلـك صاحـت مضطربة أشـد الاضطـراب، كأنهـا أرادت أن تدفع عن نفسها ذاك السؤال.

ـ أأنت واثقة بأنني لن أستعين بفدكا، ولن أذهب إلى دكانه؟

قالت داريا بافلوفنا وهي تضم يديها إحداهما إلى الأخرى:

ـ رباه! لماذا يعذبني هذا التعذيب؟

ـ اغفري لي هذه المزحة السخيفة! لعلني سَرَت إليّ عدوى عاداتهم السيئة! هل تعلمين أنني، منذ ليلة البارحة، تستبد بي رغبة رهيبة في الضحك، في الضحك بلا توقف، مدة طويلة، دائماً... لكأنني مصاب بمرض الضحك. انتبهي! هذه أمي تصل. عرفت ضجة مركبتها واقفة أمام درجات المدخل.

أمسكت داشا يده.

ـ أسأل الله أن يحميك من شيطانك! و... نادني... نادني بأقصى سرعة.

ـ شيطاني؟ ما هو إلّا شيطان صغير مصدور، مزكوم، فاشل. ولكن ها أنت ذي مرة أخرى لا تجسرين أن تعبري عن فكرتك يا داشا!

ألقت عليه داشا نظرة مثقلة بالألم والعتب، واتجهت نحو الباب. فهتف يقول لها، وهو يبتسم ابتامة متشنجة، ابتسامة خبيثة:

ـ اسمعي يا داشا! إذا... الخلاصة... "إذا"... هل فهمت؟ "إذا" أنا استعنت بفدكا وذهبت إلى دكانه، ثم ناديتك بعد ذلك، فهل تجيئين، هل تجيئين حتى بعد ذهابي إلى دكانه؟

خرجت داريا بافلوفنا دون أن تلتفت، ودون أن تجيب، مخفية وجهها بين يديها.

ودمدم نيقولاي فسيفولودوفتش يقول بعد لحظة من تفكير، وقد ألم بوجهه تعبير عن احتقار واشمئزاز:

ـ نعم، ستهرع إلي، حتى بعد ذهابي إلى دكان فدكا. ممرضة! هم!... على كل حال، ربما كان هذا بعينه هو ما أنا بحاجة إليه.

الفصل الرابع
الجميع ينتظرون

1

انتشـرت حكاية المبارزة بسرعة، وأحدثت في النفوس تأثيراً قوياً وأسرع جميع الناس ينحـازون إلى صف نيقولاي فسـيفولودوفتش. إن عـدداً كبيراً ممـن كانوا أعدائه حتى ذلـك الحين قد أصبحوا الآن أصدقـاء له. وكان مرد هذا الانقلاب في الرأي العام، هذا الانقلاب غير المتوقع، كان مَرَدّه في جلّه إلى تدخل شخصية ظلت متحفظة خلال مدة طويلة، ولكنها قالت في الوقت المناسب كلمات محكمة اجتذبت إجماع رأي جميع الناس، إذ أضفت على الحادث معنى جديداً شائقاً. إليكم كيف حدث هذا:

فـي غـداة يـوم المبـارزة، كان المجتمـع كله محتشـداً عند زوجـة عميد النبالـة التي كانت تحتفـل بعيد ميلادها. وقد حضـرت جوليـا ميخائيوفنا هذا الاجتماع، بل قد ترأسـته. وقد وصلت إلى الحفلة مـع ليزافتا نيقولايفنا التي كانت مشـرقة الجمال مرحة المزاج خاصة، وذلك أمر بدا لكثير من سـيداتنا منـذ الوهلة الأولى محل شـبهة وريب. يجـب أن أقول في هذه المناسـبة إن خطوبتهـا مـع مافريكي نيقولايفتـش أصبحت لا تحتمل الشـك. فلقد قالت جوليا ميخائيلوفنا، مجيبة عن سـؤال ألقاه عليهـا جنرال محال على التقاعد، وهو شـخص خطير الشأن سـأتكلم عنه بعد قليل، قالت إن ليزافتا نيقولايفنا مخطوبـة. ومع ذلك لـم تقبل واحدة من هاته السـيدات أن تصدق النبأ. فهن جميعاً مصرات إصراراً عنيداً على تخيل لا أدري أية قصة، لا أدري أية حكاية

عجيبة ملغزة يقال إنها حدثت في سويسرا ويقال إن جوليا ميخائيلوفنا داخلة فيها لا أدري كيف! إنه ليصعب على المرء أن يقول كيف صدق الناس هذه الشائعات بل هذه التخيلات إلى هذا الحد من التصديق، ولماذا يحرصون هذا الحرص المطلق على إقحام اسم جوليا ميخائيلوفنا فيها. فما إن دخلت حتى التفت نحوها جميع الناس بنظرات مثقلة استطلاعاً. ويحسن أن نشير إلى أن الناس كانوا في تلك السهرة لا يتحدثون عن المبارزة إلّا محاذرين، بصوت خافت، وذلك بسبب حداثتها وبسبب ظروف خاصة صاحبتها. يضاف إلى ذلك أنهم يجهلون ما عسى يكون موقف السلطات. على أنهم كانوا يعرفون أن الخصمين المتبارزين لم تتعرض لهم الشرطة بأي إقلاق، وأن جاجانوف قد استطاع أن يرجع صباحاً إلى منزله في دوخوفو. وكان جميع الناس ينتظرون بفارغ الصبر طبعاً أن ينبري أحد للكلام عن الحادث بصوت عال، فيفتح الباب بذلك لحب الاطلاع الذي كان يغلي في جميع الصدور. وكانت آمال الحشود معقودة بخاصة على الجنرال الذي أشرت إليه منذ برهة. ولم يخب ظنهم.

كان الجنرال، وهو واحد من أبرز أعضاء نادينا، رجلاً من مالكي الأراضي ليس على جانب كبير من الغنى والثراء، لكنه متوقد الذهن محكم الآراء، يحب التودد إلى الآنسات والتلطف معهن، ويهوى خاصة أن يتكلم في المجتمع جهاراً بكل ما تهبه له رتبة الجنرال من سلطة وسطوة، أن يتكلم عن أمور لا يسمح الناس لأنفسهم أن يتكلموا فيها إلّا همساً بعد، في الأركان والزوايا النائية. وذلك كان دوره بيننا إن صح التعبير. ثم إنه يتكلم بصوت يتصنع العذوبة، ماطّاً كلماته، ولعله اكتسب هذه العادة من معاشرة الروس الذين يسافرون إلى الخارج أو من معاشرة السّراة القدامى الذين دمّر ثرواتهم تحرير الفلاحين. حتى أن ستيفان تروفيموفتش قد ذكر ذات يوم أن المالك من مالكي الأراضي يكون صوته أقرب إلى اصطناع العذوبة ويكون في كلامه أميل إلى مط الألفاظ، على قدر ما تكون قوانين الإصلاح الزراعي قد نالت ثراءه بأذى أكبر. على أن ستيفان تروفيموفتش كان هو نفسه يجعل

صوته حلواً ممطوطاً، ولكن دون أن يلاحظ ذلك بتاتاً.

ولقد تكلم الجنرال كلام رجل مختص خبير: إنه وهو يمت إلى جاجانوف بقربى بعيدة، كانت علاقاته به سيئة، بل لقد كان بينهما دعاوى تنظر فيها المحاكم. يضاف إلى ذلك أن قام في الماضي بمبارزتين حتى إن إحدى هاتين المبارزتين قد كلفته ثمناً باهظاً، هو أنه أُرسل إلى القوقاز جنديا بسيطاً[1].

أشار أحد الحضور إلى فرفارا بتروفنا التي بدأت تخرج بعد مرضها، بل إنه لم يشر إلى فرفارا بتروفنا نفسها وإنما أشار إلى مركبتها الفخمة التي تجرها أربعة أفراس شهباء من حظيرة التهجين التي يملكها آل ستافروجين. فإذا بالجنرال يقول فجأة أنه قد التقى هذا الصباح "بالفتى ستافروجين" راكباً حصاناً. فسرعان ما صمت الجميع. وحرك الجنرال شفتيه مغمغماً، ثم قال وهو يقلب بين يديه علبة ذهبية للتبغ هي هدية امبراطورية:

ـ يؤسفني أنني لم أكن هنا، منذ بضع سنين خلت. كنت أيامئذ في كارلسباد... هم... إن هذا الشاب الذي يسري بين الناس كلام كثير عنه يشوقني أمره جداً... هم... أصحيح أنه مجنون؟ لقد قيل ذلك في الماضي. وها أنذا أعلم أنه وقد أهين أمام قريباته ذات يوم قد مضى يختبئ تحت مائدة. وأمس قال لي ستيفان فرخوفنسكي إن ستافروجين قد اقتتل في مبارزة مع ذلك... الذي يسمى جاجانوف، لا لشيء إلّا لتحقيق غاية من غايات الفروسية هي أن يقدم جبينه هدفاً يرميه بالرصاص رجل حانق مسعور، تخلصاً منه لا أكثر. هم... ألا إن هذا هو نوع ضباط حرس سنة 1820. من ذا يعاشر هنا؟

وصمت الجنرال كأنه ينتظر جواباً. وبذلك فتح الباب لما كان يضطرم في نفوس أفراد مجتمعنا من نفاد الصبر.

---

(1) كانت المبارزات شائعة جداً في روسيا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، رغم أنها ممنوعة قانوناً، فكان الضباط الذين يقومون بمبارزات يُجرَّدون من رتبهم العسكرية ويرسلون إلى القوقاز جنوداً لا أكثر.

فإذا بصوت جوليا ميخائيلوفنا التي أحنقها أن تشعر فجأة أنها محل أنظار الجميع، إذا بصوتها يعلو قائلاً على حين بغتة:

- أي شيء أبسط من هذا؟ لماذا يدهشنا أن يقتتل ستافروجين في مبارزة مع جاجانوف، وأن يزدري إهانة طالب؟ ما كان له على كل حال أن يقاتل رجلاً كان في الماضي قنا من أقنانه!

كلمات من سحر! إن هذه الفكرة البسيطة لم تكن قد دارت في خلد أحد بعد. وكان لهذه الجملة التي قالتها جوليا ميخائيلوفنا نتائج خارقة. زال جو الفضيحة. جميع التقولات والنمائم والأقاصيص التي كان يتناقلها الناس غابت في الظل. اكتسبت القضية كلها معنى جديداً. إن شخصية جديدة قد انكشفت لنا، شخصية كنا قد أخطأنا في معرفتها، شخصية بطل صلب يمثل أرفع التقاليد. إنه وقد نالته إهانة قاتلة من طالب، أي من شاب متعلم ليس الآن قنا، قد ازدرى الإهانة لأن الشخص الذي أهانه كان في الماضي عبداً له. ويضطرب الناس وتجري النمائم والتخرصات في طريقها، ويلطخ الناس بالوحل ذلك الرجل الذي صفع. ولكن الرجل لا يكترث برأي هؤلاء الناس الذين لم يرتفعوا بعد إلى مستوى فهم الأمور فهماً صحيحاً صادقاً، ويخبطون في آرائهم خبط عشواء.

هتف عضو عجوز من أعضاء النادي يخاطب جاره بحرارة نبيلة قائلاً:

- ما كان أغبانا، أنا وأنت، يا إيفان ألكسندروفتش، حين رحنا نتناقش في المبادئ الصادقة الصحيحة!

فأجابه صاحبه موافقاً في فرح:

- نعم يا بطرس ميخائيلوفتش. ما رأيك في جيل الشباب؟

وتدخل ثالث فقال:

- ليس الأمر أمر جيل الشباب يا إيفان ألكسندروفتش. يجب أن لا تخلط بين الأمور: إن ستافروجين هذا نجم، إنه حالة فذة فريدة، وليس يمثل جيل الشباب. هكذا يجب أن تنظر إلى الأمور.

- وإلى رجال من هذا المعدن إنما نحن بحاجة. يعوزنا رجال من هذا النوع.

على أن الشيء الأساسي هو أن "الرجل الجديد" الذي انكشف "سيداً حقيقياً" قد كان عدا ذلك أغنى مالك في مقاطعتنا، فكان يمكن إذن أن يقوم بدور كبير في الشؤون العامة، وأن يكون نافعاً كل النفع. لقد سبق لي أن قلت كلمة عن الحالة النفسية التي كان عليها مالكو الأراضي عندنا.

وأخذت الرؤوس تزداد حرارة وحماسة.

قال أحدهم: ـ إنه لم يحتقر إهانة الطالب فحسب، بل عقد يديه وراء ظهره، لاحظوا هذا، انتبهوا إلى هذه البادرة.

فأضاف آخر: ـ ولم يجرّ الطالب إلى المحاكم الجديدة.

وتدخل ثالث فقال: ـ رغم أن هذه المحاكم الجديدة كان يمكن أن تحكم له بخمسة عشر روبلاً، تعويضاً عما نال شرفه من إهانة وهو سيد من السادة!... هئ هئ هئ!...

وصرخ صوت غاضب يقول:

ـ بل سأكشف لكم أنا عن سر المحاكم الجديدة[1]. إذا كان أحد مقتنعاً بأنه ارتكب جريمة سرقة أو احتيال، فإن خير ما يفعله هو أن يركض إلى بيته قبل فوات الأوان وأن يقتل أمه، فبذلك يضمن لنفسه البراءة فوراً، وتأخذ سيدات المحاكم بتحريك مناديلها. هذه هي الحقيقة صافيةً.

ـ نعم، هذا صحيح كل الصحة.

وجرت الأحاديث في طريقها. تذكر الناس العلاقات التي كانت قائمة بين نيقولاي فسيفولودوفتش والكونت "ك...". لقد كان معروفاً أن الكونت "ك..." مستقل الرأي وأنه يعادي الإصلاحات الأخيرة. وكان معروفاً كذلك أن له نشاطاً في الحياة العامة، وإن يكن هذا النشاط قد تباطأ قليلاً في الآونة الأخيرة. وها هم أولاء يذكرون على حين فجأة نقلاً عن مصدر مطلع جدير بالثقة والتصديق، رغم أنه ما من واقعة تؤكد هذه الشائعة، أن نيقولاي فسيفولودوفتش قد خطب إحدى بنات الكونت. أما ما لعله قد حدث في

(1) أنشئت المحاكم الجديدة سنة 1864 فكانت محل هجوم الرجعيين عليها، وتندرهم بها.

سويسـرا بين ليزافنا نيقولا يفنا وستافروجين، فلم يتحدث أحد عنه بعد ذلك.
يجب أن نذكر في هذه المناسبة أن أسرة دروزدوف كانت قد فرغت من إتمام جولـة زياراتها التي أهملتهـا حتى ذلك الحين. وأجمعت السـيدات على أن ليزافتـا نيقولايفنـا فتاة كسـائر الفتيات، باسـتثناء أنها تتكلـف الظهور بمظهر شخص مريض الأعصاب، وتستمد من ذلك زهواً بنفسها. وقالوا إن الإغماء الذي أصابها يوم وصول نيقولاي فسـيفولودوفتش لم يكن له من سـبب غير ذعرها من السـلوك المشـين الذي صدر عن الطالب. حتى لقد أصبحوا الآن يبالغـون فـي التلطيف من قيمة الأمـور التي كانوا يسـبغون عليها من خيالهم قبل ذلك ألواناً هائلة فإذا هي أشـبه بألغاز يحار في فهمها العقل. أما العرجاء فقد نُسيت تمامـاً. حتى لقد أصبح الناس ينزعجون مـن الإتيان على ذكرها. "هب أنه كان في حياته مائة عرجاء! من منا لم يكن شاباً؟". وأخذوا يشيدون بموقـف الاحترام الذي يقفه نيقولاي فسـيفولودوفتش من أمه، ويبرعون في وصفه بأنواع الفضائل، ويمتدحون ما حصّل من معارف واسعة وثقافة غزيرة خلال السـنين الأربـع التي قضاها طالباً في الجامعات الألمانية. أما سـلوك جاجانـوف فقـد أجمعوا على نعتـه بأنه قد أعوزته اللياقة والكياسـة، فما كان لجاجانـوف أن يتهجـم علـى رجل مـن طبقته. وأمـا جوليـا ميخائيلوفنا فقد اعترفوا لها بنفاذ البصيرة وسداد الحكم وحصافة الرأي.

لذلـك فإن الناس، حين ظهر نيقولاي فسـيفولودوفتش أخيراً، اسـتقبلوه اسـتقبالاً فيـه جدٌّ يبلـغ غايـة السـذاجة، محدّقين إليـه بنظـرات تفيض حبّ استطلاع ونفاد صبر. وسرعان ما حبس نفسه في صمت كامل مطلق، فأرضى صمتـه الناس أكثر مما كان يرضيهم أن يلقـي خطباً طويلة. الخلاصة: أصبح كل شـيء فيـه محبباً مناسـباً، وجرى سـلوكه مجرى "الموضـة". والمرء في الريف متى ظهر في المجتمع أصبح يسـتحيل عليه أن يختبئ. وعاد نيقولاي فسـيفولودوفتش يراعـى جميـع آداب الريـف مراعـاة دقيقة تمضـي إلى حد الإتقـان المرهف. وكان الناس يرون أنه غير مـرح فيقولون: "لقد تألم كثيراً. إنـه إنسـان غير عادي. من حقه أن يكـون مهموماً". حتى زهـوه وحتى تعاليه

اللذان استـاء منهما الناس استـياءً كبيراً قبل أربع سـنين، أصبحـا الآن يثيران الاحترام والإعجاب.

وكانت فرفارا بتروفنا هي المنتصرة أكثر من أي شخص آخر. لا أدري هل أسفت كثيراً على انهيار آمالها المتعلقة بليزافتا نيقولايفنا. لكنها على كل حال قد وجدت في زهوها قوةً تشد أزرها. والأمر الغريب أنها بين عشية وضحاها اقتنعت اقتناعاً جازماً بأن ابنها نيقولاي قد اختار عروسـاً لنفسـه إحدى بنات الكونـت "ك...". والأغرب من ذلك أن هذا الاقتناع كان لا يقوم، عندها هي أيضاً، إلّا على شـائعات تسـري في المدينة. ولقد كانت تتمنى أن تسـأل ابنها عن هذا الأمر، ولكنها لـم تجرؤ. ومع ذلك عجزت عن السـيطرة على نفسـها مرتيـن أو ثـلاث مرات فلامت ابنها، وهي تصطنع المـرح، على أنه أصبح لا يصارحها بشـؤونه كمـا كان يفعل من قبـل. فكان نيقولاي فسـيفولودوفتش يبتسـم، ولكنه يلتزم الصمت، فكانت هي تـرى في هذا علامة موافقة. ورغم ذلك، رغم ذلك كله، لـم تفلح في نسيان العرجاء. كانت ذكرى العرجاء تثقل على قلبها كصخرة. إنها كابوس رهيب يعذبها ويوقظ في نفسـها إحساسـات تنبؤ غريبة، بينما كانت مؤمنة إيماناً قاطعاً بأن ابنها خطب إحدى بنات الكونت "ك...". لكننا سنتكلم عن هذا كله مرة أخرى فيما بعد. وحسبنا أن نذكر الآن أن فرفـارا بتروفنـا قد وجدت نفسـها طبعاً، من جديد، محـلّ احترام وتقدير، وحفـاوة وترحيب، في المجتمع كله، غير أنها لـم تسـتفد من هذا كثيراً، لأنها لا تخرج إلّا نادراً.

مع ذلك فقد زارت جوليا ميخائيلوفنا زيارة فخمة. يجب أن نشـير إلى أن أحداً لـم تؤثر في نفسـه الكلمات البليغة التي نطقت بها جوليا ميخائيلوفنا في حفلـة عيد ميلاد عميدة النبالة كما أثرت في نفس فرفارا بتروفنا: لقد أزاحت تلـك الكلمات عن قلبها حملاً ثقيلاً، وبدّدت من نفسـها شـيئاً من الشـكوك التـي ظلت تعذبها منذ يوم الأحد ذاك. حتى لقد قالت صراحة: "إنني لـم أكن أفهـم تلـك المرأة". وباندفاعها المعهود فيها، المألـوف عندها، قالت لجوليا ميخائيلوفنا حين زارتها: إنني آتية "لأشـكرك". فسرّت زوجة الحاكم سروراً

عظيماً، ولكنها حافظت على وضع الرصانة والاستقلال، وأخذت ترى في خطورة شأنها وعلو قدرها رأياً عظيماً، حتى لقد غالت في هذا بعض المغالاة في أغلب الظن. من ذلك أنها أعلنت أثناء الحديث أنها لم تسمع أبداً عن الأعمال العلمية التي قام بها ستيفان تروفيموفتش.

ـ إنني أستقبل طبعاً الشاب فرخوفنسكي، وأعامله معاملة لطيفة. صحيح أنه طائش، ولكنه ما يزال فتى. ثم إنه على جانب من الثقافة. هو على كل حال ليس كناقد قديم فات أوانه وولى زمانه.

فأسرعت فرفارا بتروفنا تعلن لجوليا ميخائيلوفنا أن ستيفان تروفيموفتش لم يكن ناقداً في يوم من الأيام، وأنه قد عاش عندها دائماً، وأنه اشتهر "بأحداث يعرفها الناس كافة" وقعت له في بداية حياته العلمية، كما اشتهر في الآونة الأخيرة بأعماله التي تتناول تاريخ إسبانيا. وهو يهيء الآن كتاباً عن وضع الجامعات الألمانية، كما يهيء دراسةً عن "مادونا" درسدن فيما تعتقد. الخلاصة: لقد رفضت فرفارا بتروفنا أن تترك صديقها للسان جوليا ميخائيلوفنا.

ـ عن "مادونا" درسدن؟ عن مادونا سيستو؟[1] يا عزيزتي فرفارا بتروفنا، لقد وقفت ساعتين أتأمل هذه اللوحة، ثم انصرفت عنها خائبة الأمل. ما كان أشد دهشتي حين لم أفهم منها شيئاً. كارمازينوف يقول هو أيضاً أن فهمها عسير. ما من أحد يرى فيها اليوم شيئاً خارقاً، لا الروس ولا الإنجليز. إن الشيوخ هم الذين خلقوا مجدها.

ـ أهذه موضة جديدة؟

ـ أنا من جهتي أرى أن لا ننظر إلى شبابنا نظرة تعالٍ. الناس في كل مكان يصيحون قائلين: هؤلاء شيوعيون، ولكن في رأيي أن علينا أن نجتذبهم وأن نحميهم من أنفسهم. إنني أقرأ كل ما ينشر الآن: المجلات، المؤلفات التي تتكلم عن الشيوعية، كتب العلوم الطبيعية. إنني أتلقى جميع المطبوعات

(1) كان دوستويفكي شديد الإعجاب بمادونا سيستو التي رسمها رافائيل والتي كانت في معرض درسدن.

الجديـدة، لأن علـى المرء أن يعرف زمانه، وأن يعرف الناس الذين يعيشـون فـي عصره. لا يسـتطيع المرء علـى كل حال أن يقضي حياتـه كلها فوق ذرى الخيـال. والنتيجـة التـي أخلـص إليها هي أن علينا أن نسـتميل الشـباب وأن نمنعهـم من السـقوط في الهوة. تلك قاعدتي في السـلوك. وصدّقي يا فرفارا بتروفنـا أننا وحدنا، أبناء المجتمع، نسـتطيع بتأثيرنا الحسـن وموقفنا الودود خاصة أن نمسـكهم علـى حافة الهوة التـي يدفعهم إليها مـا يتصف به جميع هؤلاء الشيوخ الطيبون من تعصب وتزمت وعدم تسامح. ثم إني سعيدة جداً بمـا قلته لي عن سـتيفان تروفيموفتش. لقد أوحيت إلـيّ بفكرة: إنه قد يفيدنا كثيـراً في الصبيحة الأدبية. تعلمين أنني أنظـم حفلة كبرى لمعونة المعلّمات الفقيـرات اللواتـي يرجـع أصلهـن إلـى إقليمنا. إن سـتّـاً منهن قـد وُلدن في مقاطعتنا، وتبعثرن في أنحاء روسـيا، وبينهن اثنتان مسـتخدمتان في مصلحة التلغـراف، واثنتان طالبتـان. ومنهن أيضاً من يردن دخول الجامعة، لكنهن لا يملكن من المال ما يمكّنهن من ذلك. إن حظ المرأة الروسـية فظيع يا فرفارا بتروفنا. إن مسألة الدراسة العليا هي مشكلتهن الآن. حتى لقد اضطر "مجلس الامبراطوريـة"[1] نفسـه أن يعالج هذه المشـكلة في الآونة الأخيرة. يسـتطيع المـرء في بلادنا العجيبة هذه روسـيا أن يفعل ما يريـد. لكنني أعود فأكرر أن المجتمـع لن يتوصل إلى توجيه هـذا العمل الجليل في الطريق القويم إلّا إذا التزم في معاملة الجيل الجديد موقفاً يفيض بشاشة وترحيباً وحفاوة وتعاطفاً نشـيطاً. إن الصفوة من الناس ليسـت كبيرة العدد وا أسـفاه! صحيح أن هناك أناسـاً يُعدّون صفوة، لكنهم مبعثرون. فلنتحـد إذن فنكون أقوياء. الخلاصة: ستقام عندي صبيحة أدبية، يعقبها غداء خفيف، ثم تتبع الغداء فترة استراحة، وفـي المسـاء تُقـام حفلـة راقصة. ولقـد كنا ننتوي تدشـين الحفلـة بلوحات حيـة، لكنني أعتقد أن النفقات تكون عندئذ باهظة، لذلك سـنكتفي بأن نقدم للجمهـور رقصتيـن أو ثلاثاً من رقصـات الكادريل المقنعـة التنكرية، ممثلة

(1) تشكل "مجلس الامبراطورية" سنة 1811 كمجلس استشاري، وكان يناقش مشاريع القوانين مرتبطاً بالامبراطور.

الاتجاهات الأدبية الرئيسية. إن هذه الفكرة التي تشتمل على فكاهة إنما اقترحها كارمازينوف الذي يساعدني كثيراً من جهة أخرى. وسوف يقرأ علينا في الصبيحة الأدبية آخر عمل أدبي له، وهو عمل لم يطلع عليه أحد بعد. إن كارمازينوف يهجر القلم، ولن يكتب بعد اليوم. وفي هذه الصفحات يودّع الجمهور، عمل رائع عنوانه: "شكراً". وقد جعل العنوان بالفرنسية. هو يرى أن ذلك أحلى وألطف وأرهف. وأنا أشاطره هذا الرأي. بل أنا التي اقترحت عليه هذا الاقتراح. أظن أن ستيفان تروفيموفتش يستطيع، هو أيضاً، أن يقرأ لنا شيئاً، شريطة أن لا يكون طويلاً... وأن لا يكون فيه تعالم كثير!... أعتقد أن بطرس ستيفانوفتش سيجيئ إليك، ويطلعك على البرنامج، أو اسمحي لي أن أحمله إليك بنفسي.

ـ واسمحي لي من جهتك بأن أضع اسمي في قائمة المتبرّعين. وسوف أنقل اقتراحك إلى ستيفان تروفيموفتش، وسوف ألحّ عليه أن يقبل.

عادت فرفارا بتروفنا مفتننةً بجوليا ميخائيلوفنا أشد الافتتان. وقد سندتها بعد ذلك ودعمتها بكل ما تملك من قوة. ولكن حنقها على ستيفان تروفيموفتش قد اشتد مزيداً من الاشتداد في الوقت نفسه، لا ندري لماذا! وكان المسكين لا يخطر بباله شيء من ذلك بتاتاً.

قالت فرفارا بتروفنا لنيقولاي فسيفولودوفتش وبطرس ستيفانوفتش وقد جاءا إليها في السهرة:

ـ إنني هائمة بحبها حقاً. ولست أدري كيف أمكن أن أخطئ في معرفة هذه المرأة.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ عليك مع ذلك أن تصالحي العجوز. إنه يائس. إنك تعاملينه معاملة مسرفة في الشدة. أمس التقى بمركبتك فحيّاك، ولكنك أشحت وجهك عنه. نريد أن ندفعه إلى أمام. إن لي أملاً فيه. وما يزال في وسعه أن يفيدنا.

ـ آ... أنا واثقة بأنه سيقرأ.

ـ ليس الأمر هو هذا فحسب. كنت أريد أن أذهب إليه اليوم، فهل أبلغه شيئاً من جهتك.

قالت فرفارا بتروفنا بشيء من التردّد:

ـ إذا شئت. ولكنني لا أدري كيف ستدبر الأمر. كنت أنتوي أن أتولى بنفسي شرح ما أريد شرحه، فأحدّد له موعداً...

وقطّبت حاجبيها. فقال بطرس ستيفانوفتش:

ـ موعداً؟ لا يستحق الأمر كلّ هذا. يكفي أن أنقل إليه ما تريدين أن أنقله إليه...

فقالت فرفارا بتروفنا:

ـ ولكن قل له إنني سأبلغه موعد لقائنا، باليوم والساعة. لا تنسَ هذا.

خرج بطرس ستيفانوفتش وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة. يمكنني أن أقول ـ إذا صدقت ذاكرتي ـ إنه كان في ذلك الأوان كثير الغضب، وإنه كان يعامل جميع الناس تقريباً معاملة فيها شيء من حدة المزاج. والغريب في الأمر أن الناس كانوا يغفرون له هذا. لقد سلموا بأن من حقه أن ينعم بحظوة خاصة. وينبغي أن أذكر أن مبارزة نيقولاي فسيفولودوفتش قد أثارت حنقه كثيراً. لقد فوجئ بنبأ الحادث. فحين رُويت له القصة اخضرّ لونه من شدة الغضب. هل جرح ذلك كبرياءه؟ إنه لم يعلم بالأمر إلّا في الغد، أي بعد أن أصبحت المدينة كلها على علم به.

فلما لقي ستافروجين مصادفة في النادي بعد ذلك بخمسة أيام قال له:

ـ لم يكن من حقك أن تبارز.

يجب أن نلاحظ أنهما لم يكونا قد التقيا بعد المبارزة، رغم أن بطرس ستيفانوفتش كان يأتي إلى فرفارا بتروفنا كل يوم.

نظر إليه نيقولاي فسيفولودوفتش صامتاً، ذاهل الهيئة، حتى لكأنه لم يفهم ماذا كان يريد منه الآخر، ومضى دون أن يتوقف، واجتاز الصالة الكبرى متجهاً نحو البوفيه. فما كان من بطرس إلّا أن ركض وراءه، حتى إذا وصل إليه وأضاف:

ـ وقد ذهبت أيضاً إلى شاتوف... وتريد أن تعلن على الملأ زواجك بماريا تيموفيئفنا...

وأمسكه من كتفه عن ذهول.

فانتزع نيقولاي فسيفولودوفتش نفسه منه بحركة مفاجئة، والتفت إليه بوجه يعبّر عن التهديد بغتة. فنظر إليه بطرس ستيفانوفتش، وتقبضت شفتاه بابتسامة صفراء. ولم يدم ذلك كله إلّا لحظة. ومضى نيقولاي فسيفولودوفتش.

2

ترك بطرس ستيفانوفتش بيت فرفارا بتروفنا وذهب إلى أبيه رأساً. كان يغذ الخطو من شدة شوقه إلى إفراغ غضبه وإلى الثأر لنفسه من إهانة كنت ما أزال أجهلها. يجب أن أقول أن ستيفان تروفيموفتش، أثناء آخر لقاء تم بينه وبين ابنه يوم الخميس من الأسبوع الماضي، قد انتهى إلى طرد ابنه طرداً إلى الباب مهدّداً إياه بعصاه. وكان الأب هو الذي بادر إلى المشاجرة في الواقع. وقد كتم عني وقوع هذا الحادث بينه وبين ابنه. ولكن حين وصل بطرس ستيفانوفتش راكضاً وهو يبتسم ابتسامته المستمرة التي تتكلف تواضعاً ساذجاً، وينظر نظرته المتفحصة المستكشفة التي تثير في النفس انزعاجا كريهاً، فقد أسرع ستيفان يومئ مهيباً أن لا أترك الغرفة. فكذلك أمكنني أن أعرف علاقاتهما، لأنني شهدت حديثهما كله في هذه المرة.

كان ستيفان تروفيموفتش مضطجعاً على ديوانه. وكان قد نحل جسمه واصفر لونه بعد يوم الخميس الماضي.

جلس بطرس ستيفانوفتش إلى جانبه بدون كلفة، وجعل ساقيه تحته بغير أي تحرّج، فاحتل من الديوان مكاناً أكبر مما يجيزه احترام الابن لأبيه. فابتعد ستيفان تروفيموفتش بوقار، ملتزماً الصمت.

كان على المائدة كتاب مفتوح هو رواية عنوانها: "ما العمل؟"[1]. يؤسفني

---

(1) الرواية الاشتراكية التي كتبها تشيرنيتشفسكي، ونشرت سنة 1864 وحظيت بشهرة واسعة وإعجاب كبير لدى الشبيبة الراديكالية. وقد هاجمها دوستويفسكي بشدّة في قصته "في قبوي".

أن عليّ أن أكشف الآن عن الضعف الغريب في صديقي: إن فكرة الخروج من العزلة وخوض معركة أخيرة كانت لا تنفك تتجسد في خياله الذي تفتنه الأحلام. فحزرت أنه كان "يدرس" هذه الرواية لا لشيء إلّا أن يهيء نفسه لتلك المعركة المحتومة مع أولئك "الزاعقين": يعرف أسلحتهم وأدلتهم وحججهم من عقيدتهم نفسها، ثم يربكهم ويحرجهم ويفحمهم على مرأى منها "هي" ذاتها. ولكن لكم كان يعذبه ذلك الكتاب! كان في بعض الأحيان يرميه على الأرض، ويأخذ يسير في الغرفة كالخارج عن طوره.

وكان يقول لي بصوت محموم رهيب:

ـ إنني أسلم بأن الفكرة الأساسية التي يقول بها الكاتب صحيحة صادقة. إنها فكرتنا، فكرتنا بعينها. نحن الذين زرعناها، ونحن الذين تعهدناها بالشرح! وما عساهم يقولون بعد الذي قلناه نحن على كل حال؟ ولكن رباه! لكم شوّهوها، وبتروها، وأساؤوا التعبير عنها. أهذه هي الأهداف التي سعينا إلى بلوغها؟ من ذا الذي يستطيع أن يتبيّن هنا فكرتنا الأصلية نحن؟

كذلك كان يقول هذه الجمل الأخيرة وهو ينقر على الكتاب بإصبعه.

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قرأ عنوان الكتاب بعد أن تناوله من على المائدة، سأله وهو يضحك ضحكاً ساخراً:

ـ أتثقف نفسك؟ آن الأوان حقاً. إن شئت جئتك بما هو خير من هذا أيضاً.

ظل ستيفان تروفيموفتش صامتاً وقوراً. وكنت جالساً على الديوان.

شرح بطرس ستيفانوفتش الغرض من زيارته بكلمات قليلة. فكان طبيعياً أن شُده ستيفان تروفيموفتش شدها كبيراً. وكان يصغي إلى ابنه بقلق يمازجه استياء واستنكار.

ـ هكذا إذن. إن جوليا ميخائيلوفنا تأمل أن أجيء لأقرأ عندها!

ـ ليس الدافع إلى دعوتك أنها بحاجة إليك حقاً. لكنها أرادت من ذلك أن تسر فرفارا بترونا وأن تداريها لا أكثر. وطبيعي أنك لن تجرؤ أن ترفض.

ثم أضاف يقول وهو يبتسم ابتسامة ساخرة:

ـ وأنا واثق من جهة أخرى بأنك تتمنى أن تقرأ... إنكم جميعاً، معشر العجائز، مغرورون بأنفسكم، محبون للظهور. ولكن اسمع: يجب أن لا يكون ما ستقرؤه مملاً إملالاً شديداً. ماذا تكتب في هذه الأيام؟ أما زلت مشغولاً بكتابة تاريخ إسبانيا؟ أعطني ورقتك قبل موعد الصبيحة الأدبية بثلاثة أيام، لألقي عليها نظرة، لأن من الجائز أن تنيمنا جميعاً من فرط الضجر.

كان واضحاً أن الفظاظة الصريحة في هذه الأقوال المهينة، بل وكذلك تعجل بطرس ستيفانوفتش في كلامه، إنما كانا مقصودين متعمدين، حتى ليفهم المرء من طريقة حديثه أن مخاطبة ستيفان تروفيموفتش بلغة ألطف، أمر مستحيل في رأي بطرس ستيفانوفتش. ومع ذلك أصرّ صديقي على تجاهل الإهانات. لكن الأنباء التي سمعها قد بثت في نفسه اضطراباً شديداً. سأله وقد اصفر لونه:

ـ ولكن هل "هي" هي نفسها، تبلغني هذا الكلام بواسطتك "أنت"؟

ـ أقصد... أنها تريد أن تضرب لك موعداً لتتمكنا من التصارح: ذلك أثرٌ أخير من آثار تكلفكما العاطفي. لقد تغنجت عليها خلال عشرين عاماً، فعوّدتها على هذه الأساليب المضحكة السخيفة. ولكن لا تقلق: انتهى الأمر الآن. هي نفسها لا تنفك تكرر أنها الآن فقط إنما أخذت "ترى رؤية واضحة". لقد قلت لها بصراحة تامة إن صداقتكما تقوم عند كل منكما على أن يفرغ أحدكما أمام الآخر مياهه الوسخة. ما أكثر ما قالته لي يا صاحبي! هه! ما كان أحلاه من دور، ذلك الدور الذي قمت به تجاهها خلال هذا الوقت كله، وهو دور خادم! لقد احمرّ وجهي خجلاً وحياء عنك!...

ـ أنا قمت بدور خادم، أتقول ذلك عنّي أنا؟

كذلك صاح يقول ستيفان تروفيموفتش، عاجزاً عن السيطرة على نفسه. فأجابه ابنه قائلاً:

ـ بل كنت أسوأ من ذلك، كنت طفيلياً، أي خادماً لا يعمل. نحن أكسل من أن نعمل، لكن لنا أسناناً طويلة. هي نفسها تدرك هذا الآن. ولكن ما أفظع

ما روته لي عنك! لشدّ ما ضحكت يا صاحبي من الرسائل التي كنت تكتبها وتبعثها إليها! هذا مخجل، هذا مقزز. ألا إنك لمنحط انحطاطاً عميقاً! إن في البر والإحسان شيئاً يفسد الشخص الذي يقبلهما إفساداً يبقى إلى الأبد ولا يزول: إنك مثال على ذلك واضح.

ـ أطلعَتْك على رسائلي؟

ـ كلها. يستحيل على المرء طبعاً أن يقرأ هذا كله! ما أكثر الصفحات التي سوّدت! يخيّل إليّ أن هناك أكثر من ألفي رسالة. ولكن هل تعلم يا صاحبي أنها في لحظة من اللحظات كانت مستعدةً لأن تتزوجك فيما أظن؟ لقد ضيعت على نفسك بالغباء فرصة عظيمة! أنا أتكلم هنا من وجهة نظرك أنت طبعاً! ومهما يكن من أمر، فلو تزوجتها لكان ذلك أفضل من أن تقبل الزواج "لتغطية آثام الغير طمعاً في المال" فتكون مهرجاً تضحك عليه المدينة كلها.

ـ طمعاً في المال؟ أهي التي قالت هذا؟

كذلك هتف يقول ستيفان تروفيموفتش متألماً. فأجابه ابنه قائلاً:

ـ ما عسى يكون الباعث إذن؟ لماذا تتخبط هذا التخبط؟ لقد دافعت أنا عنك بهذه الحجة نفسها. وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي تملكها لتبرر سلوكك. هي نفسها أدركت أنك كنت في حاجة إلى مال، كسائر الناس، وأنك من هذه الناحية ربما كنت على حق. لقد برهنت لها برهاناً رياضياً على أن كلاً منكما يستفيد من هذه العلاقات التي بينكما: هي رأسمالية، وأنت مهرّج عاطفي! ثم إنها لا تأخذ عليك شيئاً من ناحية المال هذه، وإن تكن قد اتخذتها بقرةً حلوباً. ولكن ما يحنقها هو أنها و ثقت بك خلال عشرين عاماً، وأنها خُدعت بعواطفك الجميلة التي كانت تضطرها إلى الكذب بمعنى من المعاني. إنها لن ترضى أن تعترف بأكاذيبها هي طبعاً، ولكنها ستجعلك تدفع ثمن أكاذيبك أنت غالياً. لا أدري حقاً كيف لم تتنبأ بأنك ستدفع الثمن باهظاً في يوم من الأيام، مع أنك تملك شيئاً من الحس السليم. لقد نصحتها بأن تضعك في ملجأ، في ملجأ مناسب، فاطمئن. لن يكون في هذا إذلال لك. وهذا ما ستفعله فيما أظن. هل تتذكر آخر رسالة بعثتها إليّ وأنا في س...، منذ ثلاثة أسابيع؟

صاح ستيفان تروفيموفتش يسأل ابنه:

ـ هل يعقل أن تكون قد أطلعتها على تلك الرسالة؟

فأجابه ابنه:

ـ كيف لا؟ فوراً! إنها تلك الرسالة التي ذكرت لي فيها أنها تستغلك وأنها غيورة من مواهبك. ثم حدثتني فيها عن "خطايا الغير". بالمناسبة يا صاحبي، إن لك غروراً وأنانية لا مثيل لهما! لشدّ ما ضحكت! إن رسائلك مزعجة مرهقة على وجه العموم، فأسلوبك فظيع كريه. كان يتفق لي أحياناً أن لا أقرأ الرسائل التي تصلني منك. منها واحدة ملقاة في مكان، لم أفضضها قط. في إمكاني أن أردها إليك غداً إذا شئت. ولكن تلك الرسالة الأخيرة كانت هي الذروة. لشدّ ما ضحكت. يا إلهي! لشدّ ما ضحكت!

قال ستيفان تروفيموفتش:

ـ ما أنت بإنسان، ما أنت بإنسان! أنت وحش، أنت غول!

ـ لا سبيل إلى التحدث معك. ها أنت ذا تغضب من جديد، مثلما غضبت يوم الخميس الأخير.

نهض ستيفان تروفيموفتش مهدّداً يسأل ابنه:

ـ كيف تسمح لنفسك بأن تكلمني هكذا؟

ـ ماذا؟ إنني أكلمك بوضوح وبساطة.

ـ أأنت ابني أم لا، أيها الوحش؟

ـ لا بد أنك تعرف هذا خيراً مما أعرفه أنا. والآباء ميّالون طبعاً إلى تصديق الأوهام في هذا الشأن...

ـ اسكت، اسكت!

كذلك قاطعه ستيفان تروفيموفتش وهو يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه!

قال الابن:

ـ إنك تصرخ وتشتمني، كما فعلت في المرة الأخيرة حين أردت أن تضربني. فاعلم أنني وضعت يدي على الوثيقة بعد أن قضيت الليل كله في

نبش صندوقي. ولكن دع للعزاء سبيلاً إلى نفسك. لا شيء واضح دقيق. ما هي إلّا رسالة صغيرة أرسلتها إلى ذلك البولندي الصغير. فإذا حكمنا على الأمر من خلال اللهجة...

ـ إذا قلت كلمة واحدة أخرى، فلأصفعنّك!

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يلتفت إليّ فجأة:

ـ كذلك هم الناس. إن الأمر مستمر بيننا على هذا النحو منذ يوم الخميس الماضي. يسعدني أنك اليوم هنا، ففي إمكانك أن تكون قاضياً لنا. أحب قبل كل شيء أن أسجل هذه الواقعة: هو يأخذ عليّ أنني أقول عن أمي هذا الكلام، ولكن أليس هو الذي دفعني إلى ذلك دفعاً؟ حين كنت طفلاً في بطرسبرج، ألم يكن يوقظني مرتين في الليل ليقبّلني ويبكي فوقي كما تبكي امرأة عجوز؟ وهل تعلم ماذا كان يروي لي في ذلك الحين؟ لقد كان يقصّ عليّ هذه الحكايات نفسها عن أمي. فمنه هو إنما عرفت هذه الحكايات.

ـ أوه! لقد كان لأقوالي معنى آخر تماماً، معنى رفيع! إنك لم تفهم. إنك لم تفهم شيئاً، لم تفهم شيئاً البتة!

ـ أعترف مع ذلك أن هذه الحكايات كانت في فمك أدنأ وأحط. على كل حال، هذا كله لا أكترث به! وإنما أضع نفسي في الموضع الذي تنظر منه أنت إلى الأشياء. أما من الموضع الذي أنظر أنا منه إلى الأمور، فلا تقلق. إنني لا ألوم أمي. فيم يهمني أن تكون أبي أو أن لا تكون؟ سيّان عندي. أنا لست مسؤولاً عما جرى بينكما في برلين. وهل كان في وسعكما أن تتصرفا تصرفاً يتصف بالتعقل والحكمة؟ ألا تدرك إلى أي حد كنتما سخيفين مضحكين؟ ومهما يكن من أمر، فيم يهمك أن أكون ابنك أو ابن ذلك البولندي؟

والتفت بطرس ستيفانوفتش نحوي من جديد وقال:

ـ اسمع! إنه لم ينفق عليّ قرشاً واحداً في يوم من الأيام، ولم يرني إلّا حين بلغت السادسة عشرة من عمري. وبعد ذلك، أثناء وجوده هنا، نهبني نهباً. ثم ها هو ذا الآن يصرخ قائلاً إنه ظل طوال حياته يتألم في سبيلي، وها هو ذا يمثل أمامي تمثيلاً لا يخفي كذبه. أنا لست فرفارا بتروفنا، فاعفني من هذا التمثيل!...

ونهض وتناول قبعته.

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول وقد اصطبغ وجهه بصفرة كصفرة وجه الأموات، ومدّ يده نحو ابنه:

ـ إنني ألعنك، ألعنك!

قال بطرس ستيفانوفتش مدهوشاً:

ـ هل يُعقل أن ينطق امرؤ بسخافات كهذه السخافات. هيا. أستودعك الله يا صاحبي. لن أعود بعد اليوم. لا تنسَ أن ترسل إليّ مقالتك، وأن لا تكثر فيها من الحماقات إذا أمكن، هه؟ وقائع، ووقائع، ووقائع، لا أكثر. وعليك بالإيجاز خاصة.

3

كانت هناك أسباب تدعو بطرس ستيفانوفتش إلى أن يتصرف مع أبيه كما تصرّف: في رأيي أنه يريد أن يغرق العجوز في اليأس ويضطره بذلك إلى ارتكاب عمل من الأعمال الفاضحة الصاخبة التي ستفيد الابن في تحقيق أهداف بعيدة سوف نتكلم عنها فيما بعد. إن طائفة كبيرة من المشاريع والخطط، وهي كلها تقريباً مشاريع رهيبة، كانت تشغل في ذلك الأوان ذهن الشاب الذي كان يستهدف كذلك ضحايا أخرى غير ستيفان تروفيموفتش. غير أن هناك واحدة من هذه الضحايا كان يعوّل عليها تعويلاً خاصاً: هي السيد فون لمبكه نفسه.

ـ إن آندره أنطونوفتش فون لمبكه ينتمي إلى ذلك الشعب الذي أنعم عليه الحظ[1]، ويُعدّ ممثلوه في روسيا ببضعة مئات من الآلاف، ويؤلفون ـ ربما على غير علم منهم ـ عصبةً منظمةً أكمل تنظيم. ليست هذه العصبة مخلوقاً اصطناعياً. وإنما هي نشأت من تلقاء نفسها على نحو طبيعي، فهي لم تقم

---

(1) كان بين الألمان في روسيا عدد غفير من كبار العسكريين وكبار الموظفين، لا سيما في عهد نيقولا الأول "مولاي، اجعلني بالترقية ألمانياً" كذلك قال الجنرال آ. إيرمولوف للقيصر نيقولا الأول الذي كان يريد أن يكافئه.

على عقد مبرم، بل على التزام أدبي. إن هدف هذه العصبة هو دعم ومساعدة جميع ممثلي هذا الشعب، في كل وقت، وفي كل مكان، وفي جميع الظروف وقد نال آندره أنطونوفتش شرف الدراسة في واحدة من تلك المدارس العليا التـي لا يتردد إليها إلّا أولاد أسـر غنية أو ذات نفـوذ. حتى إذا أتمّ تلاميذ هذه المدارس دراستهم، أُسندت إليهم على الفور تقريباً وظائف هامة في إدارات الدولـة. لقـد كان أحـد أعمام آنـدره أنطونوفتش ليوتنان كولونيل في سـلاح الهندسـة، وكان عمه الآخر صاحب مخبز. غير أن آندره أنطونوفتش، إذ ظفر بدخول تلك المدرسـة الأرسـتقراطية، قد وجد هنالك عدداً كبيراً من ممثلي الشـعب الذي يرجـع أصله إليه. وكان مـرح الطبع خفيف الظـل فكان رفاقه يحبونه كثيراً، ولكنه لم يكن مجتهداً في دراسـته. وبينما كان أكثر الشـبان في الصفوف العليا، ولا سيما الروس، يناقشون منذ ذلك الحين مشكلات كبرى من مشـكلات السـاعة، حتى لكأن حل هذه المشـكلات لا ينتظـر إلّا منهم، كان فون لمبكه ما يزال يسترسـل في أمازيحـه البريئة كما يفعل تلميذ صغير. وكانت تهريجاته البسـيطة، السـاخرة أحياناً، تضحك الجميع، وذلك ما كان يريده. فتارة يلقي عليه الأستاذ سؤالاً في الصف فإذا هو يتمخط تمخطاً يبلغ من الغلظة أن الجميع ينفجرون ضاحكين ومعهم الأسـتاذ نفسه، وتارةً يمثل فـي المهجع لوحة حيـة ذات طابع مسـتهتر، فيصفق له رفاقـه فرحين، وتارةً يعـزف بمجرد قرص أنفه افتتاحيـة "فرا ديافولـو"[1]. وكان يتميز كذلك بنوع مـن الإهمال المقصود كان يعـده فكهاً باعثاً على الضحـك. وفي أواخر أيام إقامته بالمدرسـة، أخذ ينظم شـعراً باللغة الروسـية، ذلك أنه، على غرار كثير مـن أبناء جنسـه، كان لا يعرف لغته الأم إلّا معرفة ناقصـة جداً. فكان أن قرّبه هـذا الميل إلى الشـعر من رفيق له هو ابن جنرال روسـي ألمـت به مصائب. إن هـذا الفتـى المكتئـب النفس الحادّ المـزاج كان رفاقه في المدرسـة يرون أنه سـيكون في المسـتقبل أحد أمجاد أدبنـا. وقد أنعم هذا الفتـى على آندره

(1) "فرا ديافولو" الأوبرا الكوميدية التي وضعها دانيل فرانسوا أوبير (1782-1871)، وكانت واسعة الشهرة والانتشار في ذلك الأوان.

أنطونوفتش بحمايته. وبعد ثلاث سنين كان ذلك الفتى المكتئب قد ترك الوظيفة وفرغ للأدب، فكان إذن ينتعل حذاء مهترئاً، ويرتجف من شدة البرد تحت معطف صيف. وإنه كذلك في ذات يوم من أيام الخريف إذ هو يرى على جسر آنتشكوف رفيقه القديم الذي كان قد شمله هو بحمايته، "لمبكا"، كما كانوا يسمونه في المدرسة، فلم يتعرفه في أول وهلة، ووقف مبهوتاً. لقد وجد نفسه أمام شاب يرتدي أحسن حلة، له في العارضين لحيتان أُحسن قصّهما، ضاربةً شقرتهما إلى حمرة، وعلى إحدى عينيه نظارة. حذاءان ملمعان، قفازان زاهيان نضران، معطفه على آخر موضة، يمسك تحت ذراعه محفظة أوراق.

أظهر لمبكه كثيراً من اللطف والمودّة، وذكر لصاحبه عنوانه، ودعاه أن يزوره. إن اسمه الآن ليس "لمبكه" فقط، بل فون لمبكه. ومع ذلك زاره رفيقه القديم، ربما لا يدفعه إلى هذا إلّا الغيظ وإلا الحرص على أن يسخر منه ويضحك عليه. استقبله على السلّم ـ وما هو بالسلم الفخم بتاتاً لكنه مفروش بسجادة حمراء ـ استقبله سويسري شدّ حبل جرس يدق في الطابق الأعلى. وكان الزائر ينتظر أن يدخل شقة رائعة، فإذا هو يرى صاحبه "لمبكه" مقيماً في غرفة صغيرة مظلمة مخرّبة، مشطورة شطرين بستارة لونها أخضر قاتم. والأثاث مريح مناسب بعض الشيء، لكنه عتيق جداً. والنوافذ العالية الضيقة مزوّدة بستائر خضر داكنة. إن فون لمبكه يقطن عند شخص يمت إليه بقرابة بعيدة، هو جنرال شمله برعايته ومنّ عليه بحمايته.

استقبل فون لمبكه الزائر بمودة، مع احتفاظه بمظهر وقور. وتحدث عن الأدب فيما تحدث، ولكن دون أن يتعرض لأية مشكلة حادة. وجاء خادم له رباط عنق أبيض، فقدّم للضيف شاياً أصفر وبسكويتاً جافاً. ولكن الرفيق سارع يطلب كأساً من ماء سلتس لا لشيء إلّا أن يزعج صاحب البيت. فجيء إليه بالماء بعد شيء من الانتظار، وبدا على فون لمبكه شيء من الارتباك لإزعاج الخادم مرةً أخرى. ومع ذلك اقترح على الزائر أن يبقى للعشاء، فما كان أوضح سروره حين رفض الزائر هذا الاقتراح وانصرف.

فـي ذلـك الأوان كان آنـدره أنطونوفتش مولّها بحب البنت الخامسـة من بنـات الجنرال، ويبدو أنها كانـت تبادله عاطفة بعاطفة. لكن ذلك لـم يمنع أن تزوجـت آماليا، بعد ذلـك بمدة قصيرة، ألمانياً من رجـال الصناعة كان رفيق الجنرال العجوز في الماضي.

لم يشعر آندره أنطونوفتش من ذلك بحزن مسرف في الشدة، وأخذ يعمل في صنع مسرح من الكرتون: تُرفع السـتارة، فيخرج الممثلون إلى المسـرح يلوحون بأيديهم ويُجرون إشـارات شـتى، والشـرفات ملأى بالمشـاهدين، وموسـيقيو الأوركسـترا يحركهم جهـاز فيزلقون أقـواس آلات الكمان على أوتارهـا، بينما قائد الأوركسـترا يضبـط الإيقاع بحركات عصـاه بين تصفيق الضبـاط والشـبان الأنيقين الذين يجلسـون علـى كراسـي أرض الصالة. إن هـذا كله، حتـى أدق تفاصيله، قد صنعه فون لمبكه نفسـه، واقفـاً على إنجاز هذا العمل سـتة أشـهر كاملـة. حتى إذا فرغ منـه أقام الجنـرال العجوز حفلة ضمت خاصته: البنات الخمس وبينهن العروس وزوجها، وسيدات وآنسات كثيـرات يصحبهـن أزواجهن وآباؤهن. رأى المشـاهدون المسـرح وأنعموا النظـر فيه فأعجبوا به أيما إعجـاب. ثم قاموا إلى الرقص. وكان لمبكه راضياً أعظم الرضا، فسرعان ما تعزى.

السـنون تنقضي وفون لمبكه ينجح في عملـه: ينال مناصب مرموقة على الدوام، مع رؤساء أصلهم ألماني في جميع الأحيان. فكذلك وصل إلى رتبة تُعـد عالية جداً بالقياس إلى سـنّه. وكان منذ مدة طويلة يتمنى أن يتزوج، فهو يترصد فرصة مواتية مناسـبة. وعلى غير علم من رؤسـائه أرسـل إلى إحدى الصحف قصةً كتبها فلم يقيّض لها أن تُنشر. لكنه، في مقابل ذلك، أخذ يصنع بالكرتـون محطة سـكة حديدية، فكان هـذا العمل الذي أنجـزه عملاً ناجحاً كل النجـاح مـرة أخرى: المسـافرون يخرجون إلى رصيـف المحطة مثقلين بحقائبهم وأكياسـهم ومعهم كلابهم وأولادهم، فيركبون عربات القطار التي يضطرب من حولها سـائقون وحمّالون، ثم تُقرع إشـارة فيتحرك القطار. لقد اقتضاه إنجاز هذا العمل البارع سنة من شغل دائب. ومع ذلك كان ينبغي له أن

يتزوج. إن حلقة معارفه واسعة. وهو يخالط أبناء جنسه خاصة. ولكنه يتردد إلى الأوساط الروسية أيضاً بطبيعة الحال. وأخيراً بينا هو يدخل السنة التاسعة والثلاثين من عمره، نزل عليه ميراث: إن عمه صاحب المخبز قد أوصى له في وصيته بمبلغ قدره ثلاثة عشر ألف روبل. فلم يبق عليه إلّا أن ينال منصباً ممتازاً. إن السيد فون لمبكه، رغم رتبته الكبيرة، كان رجلاً متواضعاً. كان يمكن أن يرضيه كل الإرضاء أن يحظى بمركز مستقل مريح يضمن له بعض الموارد الإضافية، كان هذا يمكن أن يكفيه إلى آخر أيام حياته. لكنه بدلاً من مينا أو أرنستين التي كان ينتظر أن يتزوجها، وقع على جوليا ميخائيلوفنا. فإذا بحياته في العمل تبلغ على الفور مدى آخر وتتسع اتساعا ليس في الحسبان. لقد أحس فون لمبكه المتواضع الذي يتقيد بالمواعيد ويواظب على العمل أن من حقه هو أيضاً أن يكون طموحاً.

كانت جوليا ميخائيلوفنا تملك أرضاً تُقدّر في المقاييس القديمة بمائتي نفس، وعدا ذلك جاءت إلى أنطونوفتش بصلات لها نفوذ وسلطان. ومن جهة أخرى كان لمبكه فتى جميلاً، بينما تجاوزت هي الأربعين من العمر. شيء غريب: كان لمبكه يزداد ولهاً بها كلما ازداد شعوراً بوضعه كخطيب لها. حتى لقد أرسل إليها في صباح يوم الزواج أشعاراً. وذلك كله، مع الأشعار، كان يعجب جوليا ميخائيلوفنا كثيراً. أربعون عاماً! ما هذا بقليل!... وبعد الزواج بمدة قصيرة، مُنح الرجل وساماً ونال رتبة أعلى، ثم سُمّي حاكماً لإقليمنا.

وقد عنيت جوليا ميخائيلوفنا منذ البداية بترويض زوجها أشد العناية: هو في رأيها رجل لا تعوزه الكفاءات. فهو يحسن تمثيل وظيفته، يعرف كيف يجلس وكيف يصغي مهيباً، وكيف يلتزم الصمت إذا وجب الصمت، ولكنه قادر أيضاً على أن يلقي خطاباً، حتى إنه يملك شذرات أفكار، وقد اكتسب طلاء من اللبرالية لا غنى عنه في هذا الزمان. غير أن الشيء الذي كان يقلق جوليا ميخائيلوفنا مع ذلك هو أن زوجها بعد أن قضى عمره كله ساعياً وراء الوظائف يبدو الآن قليل الطموح، ويميل إلى الراحة. إنه، بينما كانت تحاول

أن تبث فيه نشاطها، قد شرع في صنع معبد بروتستانتي: القس يصعد إلى المنبر ويلقي موعظة، المؤمنون يصغون إليه بتقى وخشوع ضامين أيديهم، سيدة تجفف دموعها بمنديلها، رجل عجوز يتمخط، ثم يُسمع صوت أرغن صغير طلبه فون لمبكه من سويسرا خصيصاً رغم أنه كلّف ثمناً غالياً. رُوّعت جوليا ميخائيلوفنا، فما كان منها إلّا أن صادرت هذا العمل الجميل منذ علمت بوجوده، وسجنته في خزانة من أثاث المنزل. ومن أجل أن يتعزى عن ذلك، استأذن فون لمبكه امرأته في أن يكتب رواية، فأذنت له بذلك، ولكن على غير علم من أحد. ومنذ ذلك الحين أصبحت جوليا ميخائيلوفنا لا تعتمد إلّا على نفسها. ومن سوء الحظ أنها امرأة يعوزها القصد والاعتدال، وأنها تنقاد كثيراً للخيال. فليس من باب الصدفة أنها ظلت عانساً خلال مدة طويلة ذلك الطول كله. إن الأفكار يطارد بعضها بعضاً في ذهنها الطموح، المهتاج. وإذ كانت تغذي في نفسها بعض الأهداف وتريد أن تحكم الإقليم، فقد اختارت نوعاً من اتجاه سياسي، مقتنعةً بأنها ستفلح في الجمع بين الناس وقيادة العقول. حتى لقد قلق فون لمبكه من ذلك بعض القلق في أول الأمر، ولكنه بما يملك من حس الموظف سرعان ما أدرك أن وظيفة حاكمٍ في إقليم ليست بالأمر الرهيب على وجه الإجمال. وفعلاً، سارت الأمورُ في الشهرين الأولين أو في الأشهر الثلاثة الأولى سيراً مرضياً جداً. ولكن بطرس ستيفانوفتش خرج له من جوف الأرض بعد ذلك، فجرت الأحوال مجرى غريباً.

يجب أن نقول إن الشاب فرخوفنسكي قد أخذ يعامل آندره أنطونوفتش، منذ أول لحظة، معاملة خالية من أي تحرّج، ووهب لنفسه حقوقاً عليه خاصة ولم تشأ جوليا ميخائيلوفنا رغم حرصها الشديد على مهابة زوجها، أن تلاحظ وضع بطرس ستيفانوفتش، أو قل على الأقل إنها لم توله اي اهتمام ولم تقم له أي وزن. لقد جعلت من الشاب صديقها الأثير. فكان يتناول وجبات طعامه عندها، حتى ليكاد ينام في منزلها. وقد حاول فون لمبكه أن يدافع عن نفسه فكان يخاطبه أمام الناس بقوله: "يا فتى"، وكان يربت على كتفه مصطنعاً

وضع من يرعاه ويحميه، ولكنه لم يظفر بشيء: فإن بطرس ستيفانوفتش ما يزال يبدو عليه أنه يتواقح معه، حتى حين كان يخاطبه بلهجة فيها كثير من الجد، وكان يوجه إليه أمام الناس أقوالاً غريبة بحضور آخرين. وفي ذات يوم دخل فون لمبكه حجرة عمله فوجد بطرس ستيفانوفتش بسبيل أن ينام على الديوان. فقال الفتى للحاكم إنه لم يجد في البيت أحداً، فانتهز الفرصة ليغفو "غفوة قصيرة". فشعر الحاكم بأنه أهين إهانة كبيرة، وشكا أمره إلى امرأته مرة أخرى، لكن امرأته سخرت من فرط تأذيه، وأخذت عليه أنه لا يعرف كيف يجعل الناس على مسافة منه: فإن "هذا الفتى" لا يسمح لنفسه بأن يرفع الكلفة بينه وبينها على هذا النحو. "ثم إنه ساذج بسيط، وإنما تعوزه الخبرة في مخالطة المجتمع". فزعل فون لمبكه قليلاً، ثم أذعن لإلحاح زوجته، فانتهى إلى مصالحة بطرس ستيفانوفتش. ولم يعتذر بطرس عن فعلته مع ذلك، حتى لقد تخلص من الموقف بمزحة صغيرة أخرى كان يمكن أن تُعد إهانة أخرى جديدة، ولكنها قُبلت على أنها علامة ندم. ومن سوء حظ آندره أنطونوفتش أنه كان قد كشف للشاب عن نقطة ضعفه، وأطلعه على أنه يكتب رواية. وإذ ظنّ فيه طبيعةً حارة شعرية، وإذ كان يبحث منذ مدة عن مستمع يقرأ له ما يكتب، فقد قرأ له فصلين من مخطوطة الرواية في ذات مساء، فكان بطرس ستيفانوفتش يصغي إليه دون أن يخفي ضجره، حتى لقد تثاءب صراحة، ولم يثنِ على المؤلف أي ثناء. ولكنه حين همّ بالانصراف طلب منه المخطوطة ليعيد قراءتها في البيت، كما قال، فيرى فيها رأياً أوضح، ويحكم عليها حكماً أصح، فأعطاه آندره أنطونوفتش المخطوطة. ومنذ ذلك اليوم لم يفلح آندره أنطونوفتش في استردادها. كان بطرس ستيفانوفتش يجيء كل يوم، ولكنه كلما طُلبت منه المخطوطة اكتفى بأن يضحك، ثم أعلن أنه أضاعها في المساء نفسه الذي حملها فيه. فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالنبأ، لامَت إلى زوجها لوماً شديداً، وهتفت تقول له قلقة أشد القلق: آمل على الأقل أن لا تكون قد حدثته عن المعبد البروتستانتي الذي أخذت تصنعه من الكرتون!

أصبح آندره أنطونوفتش مهموم البال، وذلك أمر رأى الأطباء أنه يسيء

كثيراً إلى صحته. فإلى جانب الهموم والمصاعب الإدارية، والتي سنعود إلى الكلام عنها فيما بعد، أصبح يشعر بعذاب في قلبه، لا كحاكم، بل كفرد فحسب. إن آندره أنطونوفتش لم يتصور حين تزوج أن الشقاق يمكن أن يحدث في بيته. حتى أن هذه الفكرة لم تكن تدور في خلده لحظةً حين كان يحلم أن يتزوج مينا أو أرنستين. لقد أدرك أنه عاجز عجزاً مطلقاً عن مغالبة الزوابع المنزلية. وأخيراً صارحته جوليا ميخائيلوفنا فقالت له:

ـ لا يجوز لك أن تزعل لأمر تافه هذه التفاهة، أولا لأنك أعقل منه كثيراً، وثانياً لأنك أعلى منه مقاماً في السلم الاجتماعي. إن هذا الفتى لم يتخلص بعد تخلصاً تاماً من عقليته الثورية. وفي رأيي أن تصرفاته لا تعدو أن تكون تصرفات صبيان. لكننا لا نملك أن نبدله دفعة واحدة، وإنما ينبغي أن نسير إلى هذا الهدف خطوة خطوة. إن علينا أن نفهم الجيل الجديد. أنا مثلاً أؤثر فيهم باللين والرفق وأعاملهم بالحسنى، فأمسكهم على حافة الهاوية قبل أن يتردوا فيها.

أجابها فون لمبكه قائلاً:

ـ لكنه يقول أشياء فظيعة. إنني لا أطيق أن يزعم بحضوري على مسمع من الناس أن الحكومة تشجع الإدمان على السكر لتخبل الشعب وتمنع من التمرد. تخيلي موقفي حين يكون علي أن اسمع أقوالاً كهذه الأقوال!

قال الحاكم هذا الكلام متأثراً بالحديث الذي جرى في الأونة الأخيرة بينه وبين بطرس ستيفانوفتش. إنه وقد أراد أن يفلّ سلاح خصمه بميله اللبرالي قد أطلعه على مجموعته من المنشورات الثورية التي ظهرت في روسيا وفي الخارج منذ سنة 1859، والتي كان قد جمعها لا بدافع حب الاطلاع وحده، بل بدافع المنفعة أيضاً. وإذ أدرك الشاب نيته أعلن له بفظاظة أن سطراً واحداً من بعض هذه المنشورات أزخر بالمعاني من جميع قراطيس أي دائرة من دوائر الحكومة، "بما في ذلك دائرتك حتماً".

فصعّر لمبكه وجهه، ثم قال بصوت يكاد يكون ضارعاً وهو يشير إلى المنشورات:

- ولكن هذا سابق لأوانه.

فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

- لا، ليس سابقاً لأوانه. إنكم تخافون منه وهذا دليل على أنه ليس سابقاً لأوانه.

- ولكنهم يدعون الشعب إلى تهديم الكنائس...

- ولم لا؟ أنت رجل ذكي، وأنت إذن غير مؤمن، وأنت تدرك حق الإدراك أن الدين إنما يفيدكم في تخبيل عقول الشعب. إن الحقيقة أشرف من الكذب.

- طيب طيب، لنسلم بأن ما تقوله صحيح. ولكن هذا سابق لأوانه.

كذلك قال فون لمبكه ملحاً. فأجابه الشاب:

- إذا كنت موافقاً على تدمير الكنائس، وعلى الزحف إلى بطرسبرج بهراوات، إذا كانت المسألة في نظرك مسألة توقيت، فكيف يمكنك أن تكون موظفاً في الدولة؟

هتف فون لمبكه يقول بلهجة حانقة، منزعجاً أشد الانزعاج من أنه انقاد للوقوع في فخ يبلغ هذا المبلغ من الغلظة:

- ليس الأمر هذا، ليس الأمر هذا بتاتاً. أنت مخطئ لأنك ماتزال شاباً تجهل أهدافك ومراميك. تقول إننا موظفون في الحكومة؟ موظفون مستقلون؟ هذا صحيح. ولكن اسمح لي: ما هو عملنا الذي نقوم به؟ إن علينا مسؤوليات، ولكننا في الحساب الأخير إنما نخدم القضية العامة مثلكم. نحن لا نزيد عن أن نبقي ما تزعزعونه أنتم، وهو ما سينهار في يوم من الأيام. نحن لسنا أعداءكم، أبداً. نحن نقول لكم: "امضوا إلى أمام، تقدموا، بل وزعزعوا، أعني زعزعوا كل ما هو عتيق بالٍ، كل ما يجب أن يتغيّر. ولكننا سنبقيكم في الحدود المعقولة متى لزم ذلك، فنحميكم بهذا من أنفسكم، لأنكم إذا لم نوجد نحن، لن تزيدوا على أن تقلبوا روسيا عاليها سافلها، فلا يبقى لها وجه إنساني. إن هدفنا إنما هو الإبقاء على هذا الوجه الإنساني. ألا فافهموا أنكم في حاجة إلينا، كما أننا في حاجة إليكم. في إنجلترا أيضاً، لا غنى لحزب الأحرار عن حزب المحافظين، ولا غنى لحزب المحافظين عن

حزب الأحرار فنحن المحافظون وأنتم الأحرار. هكذا أرى أنا الوضع.

أصبح آندره أنطونوفتش فصيحاً بليغاً. إنه منذ كان في بطرسبرج كان يحبّ أن يعبّر عن أفكار ذات طابع لبرالي. وهو في هذه المرة قد استرسل مزيداً من الاسترسال في هذا لأن أحداً لا يتجسس عليه. وكان بطرس ستيفانوفتش صامتاً، وكان يلتزم موقفاً أقرب إلى الجد مما عُهد فيه، فكان ذلك يحرّض الخطيب مزيداً من التحريض على الكلام.

استأنف كلامه قائلاً وهو يمشي في حجرة مكتبه طولاً وعرضاً:

ـ هل تعلم أنني وأنا "رئيس" هذا الإقليم إن صح التعبير تقع على عاتقي واجبات تبلغ من الكثرة أنني أعجز عن أداء واحدة منها، ولكنني من جهة أخرى أستطيع أن أقول أيضاً إنني ليس لي عمل أقوم به. والسر في هذا هو أن كل شيء مرهون في حقيقة الأمر بما تستهدفه الحكومة. لنفرض أن الحكومة، في سبيل تهدئة الخواطر والنفوس، أو لأسباب سياسية معينة، أقامت نظاماً جمهورياً، ولكنها في الوقت نفسه عززت سلطات حكام الأقاليم. أؤكد أننا معشر حكام الأقاليم سنرتضي الجمهورية عندئذ، بل سنرتضي ماشئت، أنا شخصياً، على كل حال، أشعر بأنني أستطيع ذلك... الخلاصة: لنفرض أن الحكومة أرسلت البرقية التالية:

"عليكم بنشاط جبار"، إنني سأندفع عندئذ في القيام "بنشاط جبار". أعلنت ذلك هنا أمام جميع الناس: "أيها السادة، من أجل تحقيق التوازن والازدهار للمؤسسات الإقليمية، لا بد حتماً من تعزيز سلطات حاكم الإقليم". يجب على هذه المؤسسات أن تعيش حياة مزدوجة إن صح التعبير، فهي من جهة أولى ينبغي أن تبقى وتستمر (أنا أُسلّم بأن هذا ضروري لا غنى عنه)، ولكن يجب من جهة أخرىٰ أن لا توجد، وذلك وفقاً لما تستهدفه الحكومة. فإذا بدا لها فجأة أن هذه المؤسسات ضرورية، كانت هذه المؤسسات تحت تصرفي. وإذا أصبحت غير ضرورية لم يعثر أحد على أثر لها. هكذا أفهم "النشاط الجبار"، ولكن يستحيل تحقيق ذلك بدون تعزيز سلطات حاكم الإقليم. نحن نتكلم هنا أنا وأنت على انفراد. ولقد أبلغت

بطرسبرج أن من الواجب حتماً أن يوضع على باب الحاكم خفير. وما زلت أنتظر الجواب.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ بل أنت تحتاج إلى خفيرين اثنين.

سأله فون لمبكه متحيراً:

ـ لماذا أحتاج إلى اثنين؟

ـ قد لا يكفيك واحد ليفرض الاحترام. إنك تحتاج إلى اثنين.

ـ آه منك يا بطرس ستيفانوفتش! إنك تجيز لنفسك معي ما لا يعلم إلّا الله!... تستغل طيبتي فتلكزني لكزات قوية!

جمجم بطرس ستيفانوفتش قائلاً:

ـ لك ما تشاء! مهما يكن من أمر، فإنك تشق لنا الطريق، وتهيء لنا النجاح.

ـ ماذا تريد أن تقول؟ أي نجاح تقصد؟ من أنتم الذين أشق "لكم" الطريق؟

حين علمت جوليا ميخائيلوفنا بأمر هذه المحادثة، استاءت استياء شديداً.

فقال آندره أنطونوفتش محاولاً تبرير سلوكه:

ـ ما كان لي على كل حال أن أعامل أثيرك كما أعامل شخصاً هو دوني مقاماً، ولا سيما حين نتحدث على انفراد. لقد انقدت للرغبة في الكلام... وهذا ذنب قلبي الطيب.

ـ بل قل قلبك الطيب أكثر مما يجب. ما كنت أعرف أنك تجمع منشورات. أرني هذه المنشورات، من فضلك!

ـ لكنه... طلب أن يستعيرها يوماً واحداً.

صاحت جوليا ميخائيلوفنا تسأله:

ـ وأعطيته إياها؟ ما أقلّ براعتك.

ـ سوف أطالبه بردّها إليّ حالاً.

ـ لن يردّها.

ـ سأصر على استردادها. من هو ومَنْ أنا حتى نخشاه، وحتى لا أجرؤ أن أفعل شيئاً؟

كذلك صاح فون لمبكه غاضباً ونهض. فقالت له جوليا ميخائيلوفنا وهي توقفه بإشارة:

ـ اجلس وهدئ نفسك. سوف أجيبك الآن عن سؤالك الأول: هذا شاب زُكّي لي تزكية حارة، وأوصيت به خيراً، إن له مواهب طبيعية، وكثيراً ما يقول أشياء تبلغ غاية الذكاء. ويؤكد لي كارمازينوف أن له صلات بجميع الأوساط، وإن له تأثيراً كبيراً ونفوذاً قوياً على الشبيبة بالعاصمة. فإذا استطعت أن أجتذب هؤلاء الشبان، وأن أجمعهم حولي، أمكنني أن أجنبهم الكارثة بتحديد هدف لطموحهم. إنه مخلص لي إخلاصاً صادراً من كل نفسه، وهو يطيعني في كل شيء.

ـ ولكن... بينما نحن نتملّقهم... يستطيعون هم أن يفعلوا ما الله به أعلم!... هذه فكرة طبعاً.

ـ لكن... لكن سمعت منذ برهة أن هناك منشورات توزَّع في إقليم "ف..."

كذلك تمتم فون لمبكة وهو ما يزال يحاول الدفاع عن نفسه بغموض. ثم أردف:

ـ سبق أن سَرَت هذه الشائعات في الصيف الماضي، فتحدث الناس عن نداءات وأوراق نقدية مزيفة، وأشياء من هذا القبيل. ومع ذلك لم يُعثر على شيء حتى الآن. من قال لك هذا؟

ـ فون بلومر.

ـ ناشدتك الله دعني من صاحبك فون بلومر هذا، ولا تكلمني عنه قط!

واضطرت جوليا ميخائيلوفنا أن تصمت لحظة لتسترد هدوءها. لقد كانت تكره فون بلومر، الموظف في ديوان الحاكم. وسنعود إلى هذا الأمر فيما بعد.

ـ أرجوك أن لا تصدِّع رأسك بمسألة فرخوفنسكي. فلو كان يشارك في أعمال صبيانية كهذه، لما تكلم كما يتكلم معك ومع غيرك. إن الذين يكثرون من الكلام لا يكونون خطرين. بل إنني لأقول لك: إذا حدث شيء من ذلك فسأكون أول من يطلع عليه منه. إنه مخلص لي إخلاصاً متعصباً، نعم متعصباً...

يجـب أن أذكـر في هـذه المناسـبة، مسـتبقة الأحـداث، أنه لـولا طموح جوليـا ميخائيلوفنـا وثقتها بنفسـها، لكان مـن الممكن أن لا يسـتطيع أولئك الأشـخاص الأدنيـاء الصغار أن يفعلوا عندنا من الشـر ما فعلـوا، وهكذا يقع على عاتق جوليا ميخائيلوفنا جزء كبير من تبعة هذا الشر.

الفصل الخامس

قبل الحفلة

1

إن الحفلـة التي كانت تُعدُّها جوليا ميخائيلوفنـا لصالح معلّمات إقليمنا، قـد أرجئت عدة مرات، فمن بين الذين كانوا يسـعون و يتحركون حول امرأة الحاكـم ويسـاعدونها فـي ما تهيئـه وتحضّره نسـتطيع أن نذكر، عـدا بطرس ستيفانوفتش، هـؤلاء الأشـخاص: ليامشـين، الموظـف الصغيـر الذي كان فـي الماضـي يتردد على ستيفان تروفيموفتـش ثم اسـتطاع الآن بموهبته في العـزف على البيانـو أن ينال حظوةً لـدى جوليا ميخائيلوفنـا، وليبوتين الذي كانت جوليا ميخائيلوفنا تنوي أن تجعله رئيساً للجريدة المستقلة التي أرادت أن تنشـئها في إقليمنـا، وأخيراً كارمازينـوف، الذي لـم يكن شـديد التحمس كالآخريـن، ولكنه أعلن مع ذلك راضيـاً مرتاحاً أنه يهيء مفاجأة ممتعة، وأن "رقصة الأدب" ستكون مشهداً خلاباً. وقد تكاثرت التبرعات والهبات. فإن جميـع أفراد الصفـوة المختارة فـي مجتمعنا أرادت أن تشـارك فـي الحفلة. هـذا عـدا أن أشـخاصاً مـن عامة الناس قـد قُبلـوا أيضاً على شـرط أن تكون مسـاهماتهم كبيرة. لقد صرَّحت جوليـا ميخائيلوفنا أن التقريب بين الطبقات وخلـط بعضهـا ببعض من الأمـور اللازمة أحيانـاً: "إذا لم نقـم نحن بتثقيف هؤلاء المسـاكين وتنوير عقولهم، فمـن ذا الذي يجب أن يفعل ذلك؟". وقد شـكلت جوليا ميخائيلوفنا من خلصائها نوعاً من لجنة إدارية قررت أن تتخذ الحفلـة طابعـاً ديموقراطياً. وكانـت ضخامة التبرعات تحـض على الإنفاق:

لقد أُريد أن تكون الحفلة شيئاً خارقاً لا عهد بمثله من قبل. فذلك هو السبب في أن موعد الحفلة قد أرجئ مراراً. وكانوا لا يعرفون بعد أين ستقام حفلة الرقص: أتقام في منزل عميدة النبالة وهو منزل واسع، أم تقام عند فرفارا بتروفنا في سكفورشنيكي؟ إن سكفورشنيكي بعيدة قليلاً، غير أن عدداً من أعضاء اللجنة قالوا إن المرء يحس هناك "بحرية أكبر". وكانت فرفارا بتروفنا نفسها تود أن تُقام الحفلة عندها. إنه ليصعب علينا أن نفهم لماذا كانت هذه المرأة تسعى ذلك السعي كله إلى نيل الحظوة لدى جوليا ميخائيلوفنا! لعلها قد سرَّها أن ترى أن جوليا ميخائيلوفنا كانت من جهتها تقف من نيقولاي فسيفولودوفتش موقف العبادة، وتعامله كما لا تعامل أحداً قط. أعود فأكرر مرة أخرى: إن بطرس ستيفانوفتش كان لا ينفك يهمس في أذنها أن لنيقولاي فسيفولودوفتش صلات قوية بجهة سرية، وأنه مكلف بمهمة خاصة حتماً.

وما كان أغرب حالة النفوس في ذلك الأوان! كانت حالة غريبة عجيبة حقاً! فبين السيدات خاصةً كانت تسيطر حالة من قلة المبالاة، والخفة، لا يدري المرء من أين انبجستا فجأة. إن أشدَّ الأفكار أصبحت تُقبل بحماسة. لكأن ريحاً من جنون ومرح قد عصفت بالناس جميعاً. غير أن مشهد هذا المرح لم يكن بالمشهد الممتع دائماً. أصبحت الفوضى هي الموضة...

فيما بعد، حين انتهى كل شيء، أُلقيت تبعة ذلك على جوليا ميخائيلوفنا، والمحيطين بها، وتأثيرها. ولكن لا شك أن جوليا ميخائيلوفنا لم تكن المسؤول الوحيد. لقد كان كثير من الناس في البداية يتغنون بمدح امرأة الحاكم الجديد التي استطاعت أن تجمع الناس وأن تجعل الحياة في الريف أمتع. حتى لقد وقعت حوادث فاضحة لا يمكن أن تُعدَّ جوليا ميخائيلوفنا مسؤولة عنها بحال من الأحوال، حوادث لم يزد الناس على أن ضحكوا منها، ولم يوجد من يضع لها حداً، ويضع الأمور في نصابها. على أن بعض الناس قد قاوموا هذا التيار، وظلوا مبتعدين، محتفظين برأيهم. لكنهم لم يحتجّوا واكتفوا بالتبسّم.

أذكر أنه تكونت في تلك الأيام جماعة يجب أن نعترف بأنها اتخذت صالون جوليا ميخائيلوفنا مركزاً لها. فكان من المسلَّم به في داخل هذه الحلقة أن الشبان يحق لهم، بل ويجب عليهم، أن يسترسلوا في مهازل شتى منها ما كان يبلغ حداً كبيراً من الجرأة والمجون. وكانت هذه الحلقة تضم بين أعضائها عدة سيدات منهن من كن بارعات الجمال. كان هؤلاء الشباب يقومون برحلات، وينظمون سهرات، حتى لقد كانوا في بعض الأحيان يتجولون على ظهور الخيل أو في العربات موكباً في الشوارع، ويبحثون عن المغامرات ويسعون إليها، أو يستثيرونها أو يلفقونها عند اللزوم، لا لشيء إلّا أن يستطيعوا بعد ذلك قصَّ حكايات مضحكة ونوادر مسلية. فكانت مدينتنا تُعامَل معاملة مدينة محتلة تقريباً. كان هؤلاء "الهازلون"، كما سمَّاهم الناس عندنا، لا يتحرجون من شيء ولا يصدهم شيء.

من ذلك أن امرأة ضابط برتبة ملازم، وهي امرأة سمراء ما تزال شابة لكن حياتها الصعبة مع زوجها قد أهرمتها قبل الأوان، قد ارتكبت حماقة الجلوس إلى مائدة القمار في سهرة من السهرات آملة أن تربح ما تشتري به لنفسها خماراً، ولكنها بدلاً من أن تربح ثمن الخمار خسرت خمسة عشر روبلاً. وإذ لم تكن تملك ما يمكنها من دفع هذه الخسارة، وإذ خافت أن يلومها زوجها، فقد استجمعت كل شجاعتها وقررت أن تقترض المبلغ من ابن عمدتنا، وهو صبي داعر لم يكتف بأن رفض إقراضها المال، بل أسرع يحكي القصة لزوجها وهو يضحك في قهقهة مجلجلة. وكان الملازم المسكين لا يملك لمعيشته إلّا راتبه الضئيل، فما إن عاد بامرأته إلى البيت حتى انهال عليها يضربها ضرباً موجعاً رغم صرخاتها ودموعها ورغم أنها جثت على ركبتيها تستغفره عن ذنبها. إن هذه القصة الأليمة لم تثر عندنا إلّا الضحك والمزاح. ولم تكن المرأة الشقية تنتمي إلى مجتمع جوليا ميخائيلوفنا، لكن إحدى سيدات هذه الحلقة وهي امرأة شاذة الأطوار جريئة وقحة، كانت تعرف امرأة الملازم، فمرَّت بها وأخذتها إلى بيتها، فسرعان ما اجتمع عليها فتياننا المتحللون الفاسدون، فدللوها وأغرقوها بالهدايا

وتسلوا بها أربعة أيام قضتها كلها عند السيدة الجريئة، فكانت تنزل معها إلى المدينة، وتشارك في المسرات وتشهد حفلات الرقص. وكانوا يحضّونها على ملاحقة زوجها أمام المحاكم، فتثير بذلك فضيحة، باذلين لها الوعود بمساعدتها والشهادة لها على زوجها. ولبث الزوج ساكناً صامتاً، يخشى دخول المعركة. وارتأت المرأة الشابة أخيراً أنها قد أخطأت الطريق، فلما جاء مساء اليوم الرابع تركت حاميتها ورجعت إلى بيتها شبهَ ميتة من شدة الخوف. لا يدري أحد ماذا جرى بين الزوجين. ولكن نوافذ الجناح الخشبي الصغير الذي يسكنه الملازم قد ظلت مغلقةً مدة خمسة عشر يوماً لم تُفتح مرةً واحدة. فلما علمت جوليا ميخائيلوفنا بالأمر أظهرت استياءً شديداً من تدخل السيدة الشاذة الأطوار التي كانت مع ذلك قد عرَّفتها بامرأة الملازم منذ الأيام الأولى. ومهما يكن من أمر، فإن هذا كله سرعان ما طواه النسيان.

وبعد ذلك بزمن قصير وقعت فضيحة أخرى. إن موظفاً صغيراً يتمتع بسمعة حسنة كانت له ابنةٌ تبلغ من العمر سبعة عشر عاماً مشتهرة في المدينة كلها بأنها بارعة الحسن فاتنة الجمال، فزوَّجها شاباً هو موظف صغير أيضاً. وما لبث الناس أن علموا أن الزوج الشاب قد تصرف مع عروسه تصرفاً سيئاً جداً في ليلة الزفاف نفسها، انتقاماً لشرفه الملطخ. وقد شهد ليامشين الحادث تقريباً، ذلك لأنه وقد سكر في الوليمة قد قضى الليلة في بيت العروسين. لذلك ما إن طلع النهار حتى ركض ينشر القصة الطريفة في كل مكان. فسرعان ما تكونت جماعة من نحو عشرة أشخاص انضم إليها بطرس ستيفانوفتش وليبوتين الذي كان رغم شعره الأشيب يشارك في جميع المهازل التي ينظمها فتياننا المتحللون. ركب الجميع أفراساً، حتى إذا مضى العروسان في عربة يقومان بجولة الزيارات التي توجبها التقاليد على العروسين غداة زفافهما، أحاط فرساننا بالعربة يضحكون ضحكاً مرحاً، وظلوا يرافقون الزوجين طوال النهار في المدينة. وكانوا لا يدخلون البيوت في أثرهما بل ينتظرون على الباب في كل مرة ممتطين صهوات خيولهم. يجب أن نقول أيضاً إنهم قد امتنعوا عن إهانة الزوجين صراحةً، لكن هذا

لا ينفـي أنهم أثـاروا فضيحة تحدثت عنهـا المدينة كلها. غيـر أن فون لمبكة غضـب في هذه المرة، وقامت بينه وبين امرأته مناقشـة حامية. وقد اسـتاءت جوليا ميخائيلوفنا اسـتياءً شـديداً كذلـك، فقررت أن توصد بـاب منزلها في وجـه هـؤلاء الفاسـدين. ولكنها لـم تلبـث أن غفـرت لهم اسـتجابةً لإلحاح بطرس سـتيفانوفتش الـذي دعمه وأيده كارمازينوف. لقـد رأى كارمازينوف أن "المزحة" فكهة لطيفة. فقال:

ـ هـذا مـن تقاليد البلاد. ومهمـا يكن من أمر فللقصة لـون جميل.. وفيها جـرأة محببة. ثـم إن جميع الناس يضحكون منها ويتفكهون بها وأنت وحدك غاضبة.

غيـر أن هناك مهازل أخرى، مهازل لا تطاق فعلاً، مهازل لها طابع خاص جداً.

وفـدت إلى مدينتنا بائعة متجولـة تبيع الأناجيل. إنها امـرأة فقيرة الحال، لكنها في الوقت نفسـه محترمة جداً. وقد اهتـم الناس بها لأن الجرائد كانت فـي تلـك الآونة قد خصَّت البائعين المتجولين بعـدد من المقالات. فهذا هو الوغـد ليامشـين يتظاهر بأنه يريد شـراء كتب مـن المرأة الطيبـة، فيدسُّ لها، بمساعدة طالب عاطل كان يضرب في الشوارع بانتظار أن يُعيَّن معلّماً، يدس لهـا في رزمة كتبها حزمـة صور خليعة كان قد زوَّد بها (كمـا علمنا ذلك فيما بعـد) رجـل عجوز محترم كان يحمل وسـاماً (لكنني سـأكتم اسـمه)، وكان يحـب "الضحـك البريء والمـزاح الطيب". فلمـا وصلت بائعـة الكتب إلى السـوق وأخـذت تفـك رزمتها تبعثـرت الصـور الفوتوغرافيـة الخليعة على الأرض، فأخذ الناس يضحكـون، ثم أخذوا يدمدمون ويهمهمون، ثم تحلق حـول المرأة المسـكينة حشـد راح يكيل لها الشـتائم جزافـاً، وكان يمكن أن يلحقـوا بها أذى لولا أن تدخلت الشـرطة فاقتادت بائعة الكتب إلى القسـم، ثـم لـم تفرج عنها إلّا في المسـاء بفضـل إلحاح مافريكـي نيقولايفتش الذي علـم بتفاصيـل هـذه القصة الدنيئة كلها فاسـتاء أشـد الاسـتياء. وقد غضبت جوليـا ميخائيلوفنا غضباً شـديداً وقررت أن تطرد ليامشـين. ولكن أصحابنا

"الهازلين" أخذوه إليها في ذلك المساء نفسه فما زالوا يضرعون إليها أن تسمع مرةً واحدة، لا أكثر، المزحة الموسيقية الجديدة التي فرغ ليامشين من تأليفها منذ قليل، حتى أذعنت وخضعت. واتفق أن كانت هذه الفانتازيا الموسيقية التي عنوانها: "الحرب الفرنسية الألمانية"[1]، مضحكة بالفعل.

تبدأ القطعة الموسيقية بنوع من نشيد "المارسييز" البطولي الذي يضم قول الشاعر:

بدم الأعداء الفاسد فلنسق أخاديد أرضنا

إن المطلع كله زاخر بالكبرياء ونشوة الانتصارات المقبلة. ولكن ها نحن أولاء على حين فجأة، أثناء توسع لحن النشيد المجيد، ها نحن نسمع في موضع ما، في ركن ما يزال غير متميز، لكنه قريب غير بعيد، اللازمة الصغيرة البذيئة من أغنية "حبيبي أوغسطين" (بالألمانية). إن نشيد المارسييز لا يحفل بهذه اللازمة، وإنما يسترسل في الحماسة لانتصاره المقبل. ولكن أغنية "أوغسطين" تكبر، وتقوى، وما تنفك تغدو أكثر جرأة ووقاحة، وها هو ذا لحنها يدخل في نشيد المارسييز نفسه دخولاً ليس بالمتوقع. ويأخذ نشيد المارسييز بالغضب، ويلاحظ أخيراً تسلل أغنية أوغسطين، فيريد أن يتخلص منها وأن يطردها كما تُطرد ذبابة مزعجة، ولكن أغنية "حبيبي أوغسطين" تقاوم وتثبت. إنها مرحة ملأى بالثقة، زاخرة بالوقاحة. ويطيش صواب نشيد المارسييز: فلا يُخفي بعدئذ حنقه وسخطه. وها هي ذي صرخات الاستياء والاستنكار، وها هي ذي الدموع الغزيرة، وها هي ذي الأيمان المغلظة ترقى مع الأذرع المرفوعة إلى السماء منادية:

لا شبر من أرضنا، لا حجر من قلاعنا

ولكن نشيد المارسييز كان قد اضطر أن يساير أغنية "حبيبي أوغسطين"،

(1) إن الحرب الفرنسية الألمانية التي قامت بين 1871ـ 1870 تصورها هذه القطعة الموسيقية القصيرة في صورة صراع بين نشيد "المارسييز" وبين أغنية ألمانية عنوانها "حبيبي أوغسطين". وقد سبق أن أشار دوستويفسكي إلى هذه الأغنية في بداية روايته "مذلون مهانون"، وهي تنتهي بهذه الجملة "أوغسطين راقد في الوحل".

وأن يجـاري إيقاعهـا، حتـى ليختلـط لحنـه بلحنها اختلاطـاً أبله، ثـم إذا هو يرضـخ وينطفـئ. ومـع ذلك نظل نسـمع مـن هنا ومـن هناك: "بـدم الأعداء الفاسـد... بدم الأعداء الفاسـد..."، ولكن الجملة سـرعان ما تنثني لتسـاير أغنية الفالس البذيئة الخليعة. لقد خضع نشيد المارسييز: إنه جول فافر يبكي في صديرة بسـمارك، ويترك كل شـيء، كل شـيء... ولكن أغنية أوغسـطين تنتفخ عندئذ وتصبح حانقة معربدة: إنها براميل البيرة التي شُـربت، إنه النصر يزدهي بنفسـه متغطرساً، إنها المطالبة بتعويضات تبلغ مليارات، إنها الأوامر بإحضار فاخر السـيجار ومعتق النبيذ، انه أخذ الرهائن. لسـنا الآن أمام أغنية "حبيبي أوغسطين" بل نحن إزاء زئير ينطلق وحشياً. انتهت الحرب الفرنسية الألمانية. صفق المسـتمعون. وقالت جوليا ميخائيلوفنا مبتسمةً: "ويستحيل طـرده!". وتـمَّ الصلـح. لقـد كان الوغد ينعم بشـيء مـن الموهبة حقـاً. لقد أكَّـد لي سـتيفان تروفيموفتـش ذات يـوم أن أكبـر الفنانين يمكـن أن يكونوا أوغـاداً فظيعين، فهذا لا ينفي ذاك. وسـرت إشـاعة بعد ذلـك بقليل تقول إن ليامشـين إنما سـرق هذه الفانتازيا الموسيقية من فتى موهوب لكنه متواضع، عرفـه مصادفةً ولـم يسـمع عنه أحد شـيئاً بعـد ذلك، أقول ذلك عابـراً. وإنما يجب الآن أن أذكر أن ليامشـين الذي كان في الماضي يسـعى حول سـتيفان تروفيموفتـش فيمثل، متى طُلـب منه ذلك، يهوديين يتشـاجران[1] أو اعتراف امـرأة صمـاء، أو صرخـات أم تلد، أصبـح الآن عند جوليـا ميخائيلوفنا يقلد سـتيفان تروفيموفتـش نفسـه في بعـض الأحيان تقليـداً كاريكاتوريـاً، تحت عنـوان: "لبرالـي مـن سـنوات الأربعينات". لقد بلـغ من النجـاح أن أحداً لا يخطر بباله أن يطرده: لقد عرف كيف يجعل من نفسـه إنسـاناً لا غنى عنه. ثم إنه بما يجيده من التملق قد نال حظوةً لدى بطرس ستيفانوفتش الذي كان قد أصبح له في ذلك الأوان سلطان كبير على جوليا ميخائيلوفنا.

ما كان لي أن أفيض في الكلام على هذا الشقي الذي لا يستحق أن أتكلم

---

(1) كانت الموسيقى الواقعية رائجة في تلك السنين. وقد ألف موسجورسكي سنة 1868 مجموعة قطع موسيقية بعنوان "لوحات من معرض". وكانت إحدى هذه القطع تمثل يهوديين يتشاجران.

عنه لولا أن وقع حادث مثير يؤكد الناس أنه قد شارك فيه ولا يمكنني أن أصمت عنه.

ففي ذات صباح، انتشر في المدينة كلها نبأ حدوث حادث يخرق المقدسات.

وعند مدخل الميدان الواسع الذي يقوم فيه السوق، ترتفع الكنيسة القديمة، كنيسة "ولادة العذراء" وهي من أجمل المباني التاريخية في مدينتنا العريقة. وتحت الباب الذي في جدار صحن الكنيسة توجد منذ زمان قديم أيقونة موضوعة في واجهة مصنوعة من قضبان حديد وزجاج، هي أيقونة كبيرة تمثل العذراء. ففي ذات صباح من الأصباح وُجدت الأيقونة منهوبة: الزجاج قد حُطِّم، وقضبان الحديد قد فُكَّت، ولآلئ كبيرة وأحجار كريمة (لا أعرف قيمتها) قد انتُزعت من الإكليل والإطار. غير أن الأخطر من ذلك، أن الجناة لم يكتفوا بارتكاب فعل السرقة بل زادوا عليه فاقترفوا عملاً ينافي الشعور الديني، عملاً حقيراً دنيئاً: فوراء الزجاج المحطَّم وُجدت فأرة حية في ما يقال.

اليوم، بعد انقضاء أربعة أشهر على وقوع هذا الحادث، لا يشك أحد من الناس في أن هذه الجريمة إنما ارتكبها فدكا الهارب من سجن الأشغال الشاقة، ولكن الناس يضيفون إلى ذلك أن ليامشين ساعده في ارتكابها. لم يتكلم أحد عن ليامشين حينذاك، ولم يشتبه فيه أحد. لكن الجميع يؤكدون اليوم أنه هو الذي أدخل الفأرة وراء الزجاج. أذكر أن السلطات فقدت صوابها قليلاً يومذاك. ومنذ الصباح أصبح الوقوف أمام مكان الجريمة لا ينقطع. على أن الجمهور لم يكن ضخماً. لعله نحو مائة شخص. فبعض يأتي وبعض ينصرف. والآتون يرسمون على أنفسهم إشارة الصليب ويقبِّلون الأيقونة. وظهر راهب يحمل صينية وجعل يجمع العطايا. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، ارتأت السلطات أخيراً أن تمنع التجمع وأصدرت أمراً إلى الذين انتهوا من تقبيل الأيقونة ووضع عطاياهم بأن ينصرفوا. ويظهر أن هذا الحادث المؤسف قد أحدث في نفس فون لمبكة أثراً سيئاً، وجعله في حالة اكتئاب شديد. حتى لقد صرَّحت جوليا ميخائيلوفنا، إذا صدق ما سمعته

عنهـا، أنها في ذلك اليوم بعينه إنما أخذت تلاحـظ على زوجها ذلك الانهيار الغريب الذي لم يبارحه إلى حين مغادرته مدينتنا، والذي ما يزال يلازمه، على ما يقال، حتى الآن بسويسرا، حيث يرتاح بعد إقامته القصيرة في إقليمنا.

أذكر أنني مررت بميدان السـوق في نحو السـاعة الواحدة. كان الجمهور صامتـاً، وكانـت الوجوه مكفهـرّة مظلمة. رأيت عربة من عربـات الدرويكي يصل عليها تاجر بدين أصفر، فيسجد أمام الأيقونة، ويقبّلها ويضع روبلاً في الصينيـة، ثـم يركب عربة ثانية وهو يزفر زفرات قويـة، وينصرف. ثم وصلت مركبة فيها سـيدتين يصحبهما اثنان من شـبابنا المسـتهترين. نزل الشابان من المركبـة (وكان أحدهمـا قد تقدم في السـن قليلاً على كل حـال) واقتربا من الأيقونة وهما يشقان لهما طريقاً بين الجمهور بقسوة ووحشية. لم ينزع أحد منهمـا قبعته احتراماً، حتـى أن أحدهما وضع على عينيه نظارة. وانطلقت من النـاس دمدمـات وهمهمات إن تكـن خافتة فقـد كان واضحاً أنها مسـتنكرة سـاخطة. وهذا هو الذي يضع على عينيه نظارة، يخرج محفظة نقود محشـوة بـالأوراق المالية، فيتناول منها كوبـكاً ويلقيه في الصينية. ثـم يضحك الاثنان كلاهمـا، ويتكلمان بصوت عال، ويعودان إلى السـيدتين. وفـي تلك البرهة ظهـرت ليزافتا نيقولايفنا على صهوة حصانها، يخفرها مافريكي نيقولايفتش كمـا جرت بذلـك العادة دائماً. قفزت الفتاة عن فرسـها، ورمـت اللجام إلى رفيقهـا الـذي بقي على حصانـه تنفيذاً لأمرهـا، واقتربت مـن الأيقونة لحظةَ كان الشـاب يلقـي الكوبك فـي الصينيـة. احمرّ خـدّا الفتاة اسـتياءً. ونزعت قبعتهـا المدوَّرة، وخلعت قفازيها وانحنت على الأرض ثلاث مرات في تقى وخشـوع، ثم أخرجت محفظة نقودها، ولكنها حين لم تجد في المحفظة إلّا نقوداً فضية صغيرة، أسرعت تنتزع قرطي أذنيها المزدانين بالماس ووضعتهما في الصينية سائلةً الراهب وهي منفعلة أشد الانفعال:

ـ هل يمكنني؟ يمكنني، أليس كذلك؟ هذا لزينة الأيقونة.

فأجابها الراهب قائلاً:

ـ نعم، هذا مباح، كل هبة فهي حسنة.

وكان الناس صامتين لا يظهرون لا لوماً ولا تحبيذاً. وعادت ليزافتا نيقولايفنا تركب حصانها ملطخة بالوحل، وانصرفت عدواً.

2

بعد ذلك الحادث بيومين، لقيتها مع صحب كثير تركب ثلاث عربات محاطة بعدد من الفرسان. فدعتني بإشارة من يديها، وأوقفت العربات وألحَّت أن أنضم إليهم. فوجدوا لي مكاناً صغيراً في مركبتها، وقدمتني، ضاحكةً، إلى السيدات الأنيقات جداً اللواتي كن يصحبنها، وذكرت لي أنهم ماضون في رحلة شائقة جداً. كانت تضحك طول الوقت، حتى لقد كانت تبدو مرحةً مرحاً عجيباً. إن فيض نشاطها يكاد يتجاوز حدود الاعتدال في هذه الآونة الأخيرة. وكانت الرحلة التي يقومون بها شائقة بالفعل: إنهم ذاهبون إلى الجهة الأخرى من النهر، إلى منزل التاجر سيفاستيانوف. إن هذا الرجل يؤوي عنده منذ عشر سنين، في جناح خشبي بصحن الدار، رجلاً يقال له سيميون ياكوفلفتش[1]، وهو "مجذوب" يحكى أنه أوتي القدرة على التنبؤ بالمستقبل فهو يعيش عند صاحب البيت حياة فراغ وهدوء وبحبوحة. كانت شهرة هذا الشخص القديس قد انتشرت وذاعت حتى في الأقاليم المجاورة، بل لقد وصلت هذه الشهرة إلى العاصمتين. فكان الناس يؤمونه من أقاصي البلاد، يرونه ويسمعونه، ويحمل إليه كل منهم عطية. وكانت هذه العطايا أو الهبات، وهي ضخمة في بعض الأحيان، تُنقل إلى الكنائس المحلية (إلا أن يأمر سيميون ياكوفلفتش بغير ذلك) أو تُرسل خاصة إلى دير "ولادة العذراء" الذي أوفد إلى "الجنوب" مندوباً مقيماً يستلم العطايا والهبات.

كانت الجماعة كلها تتوقع من هذه الرحلة تسلية كثيرة، لا سيما وأن أحداً منا لم يكن قد رأى، بعدُ، سيميون ياكوفلفتش، باستثناء ليامشين الذي كان

---

(1) إن شخصية جد سيميون ياكوفلفتش هذه تذكر بشخصية واقعية هي إيفان كوريشا (1861- 1780)، وهو رجل متنبئ دجال كان له بموسكو معجبات.

قـد جاء إليه مـرةً والذي كان يؤكد لنـا الآن أن الرجل القديـس قد أمر بطرده بضربات مكنسة وأنه رماه هو نفسه ببطاطستين ضخمتين مسلوقتين ساخنتين. وبيـن الفرسـان الذى يحيطـون بالعربـات، رأيت بطرس سـتيفانوفتش الذي استأجر لهذه المناسـبة حصاناً قوزاقياً كان لا يحسن ركوبه، ورأيت نيقولاي فسـيفولودوفتش الذي كان يشارك دائماً في أمثال هذه الرحلات المرحة، مع بقائه قليل الكلام. ولقد كان وجهه ينم يومئذ عن ابتهاج وانتعاش.

لما عبرنا الجسـر فأصبحنا أمام فندق من أهم فنـادق المدينة قال أحدهم فجـأة إنه قـد عُثر في هذا الفندق منذ برهة على جثة مسـافر أطلق على نفسـه رصاص مسدس، فهل لكم في رؤية المنتحر؟ فاستحسن الجميع هذه الفكرة وحبذوها: فإنه لم يسبق لسيداتنا أن رأين منتحراً قبل اليوم. وأذكر أن إحداهن قالـت بصـوت عالٍ: "لقد سـئمنا من التسـليات العادية فلا داعـي لأن نزعج أنفسـنا بهـذه التسـلية الجديدة، اللهـم إلّا أن تكون شـائقة". ولـم يمتنع عن الدخول إلّا بضعة أشـخاص ظلوا ينتظرون عند مدخل الفندق. أمّا الآخرون ومنهم ليزافتا نيقولايفنا ـ وهذا ما أدهشـني كثيراً ـ فقد أسرعوا يلجون الدهليز القذر المعتم. كانت غرفة المنتحر مفتوحة: كان يُنتظر وصول الشرطة، ولكن لـم يجـرؤ أحد أن يمنعنا مـن الدخول طبعاً. إنه فتى يبلغ التاسـعة عشـرة من عمره في أكثر تقدير، جميل الوجه، أشقر الشعر غزيره كثيفه، حلو القسمات، صافي الجبين جداً. كان الجسـم قد تجمد. إن الوجه الشـاحب يبدو كأنه من مرمـر. لقد ترك الفتى على المائدة بطاقة مكتوبة بخط يده يعلن فيها أنه أطلق على نفسـه الرصاص لأنه "التهم" أربعمائة روبل. وكانت كلمة "التهم" بارزة في الرسالة القصيرة التي ضمَّت ثلاثة أخطاء إملائية في أربعة أسطر.

كان واقفاً أمام الجثة رجل ضخم يزفر زفرات عميقة هو واحد من مالكي الأراضـي ينزل في الفندق نفسـه. فعلمنا منه أن الفتى قـد أوفدته أمه الأرملة وخالاته ليتولى، بإشـراف قريبة لهن، شـراء جهاز أختٍ له أكبر منه سـتتزوج قريبـاً، ومن أجل شـراء هذا الجهـاز عهد إليه بأربعمائـة روبل جُمعت خلال عشـرات السـنين بفضل أنواع من الحرمان القاسـي. وقد سـافر الفتى مودِّعاً

بالدموع ومشيَّعاً بإشارات الصليب، وتوصيات ملحة ونصائح كثيرة وأدعية متصلة. وكان سلوك الفتى إلى ذلك الحين سلوكاً ممتازاً والحق يقال. فيما وصل إلى المدينة منذ ثلاثة أيام لم يذهب إلى قريبته، بل استأجر غرفةً في الفندق، ثم مضى إلى النادي تواً، على أمل أن يربح مبلغاً ضخماً من المال في ركن ناءٍ من مقامر عابر. لكنه لم يجد أحداً من هذا النوع. فلما عاد إلى الفندق في منتصف الليل أمر لنفسه بشمبانيا وسيجار فاخر وعشاء يتألف من ستة أطباق أو سبعة. لكن الشمبانيا أدارت رأسه، والسيجار أورثه غثياناً، فلم يستطع أن يمس أي طبق من أطباق الطعام ونام كالمغشي عليه. ثم استيقظ في صباح اليوم التالي نضراً كتفاحة، وذهب فوراً إلى نوع من كاباريه يقوم على إدارته غجر، ويقع على الضفة الأخرى من النهر، كان الفتى قد سمع عنه في الليلة البارحة بالنادي، ولم يرجع إلى الفندق إلّا في اليوم الثالث، في نحو الساعة الخامسة بعد الظهر، وقد رجع سكران كل السكر، فرقد فوراً، ولبث نائماً حتى الساعة العاشرة من المساء. حتى إذا أفاق أمر بشريحة لحم، وزجاجة خمر، وعنب وورق وحبر، وطلب فاتورة الحساب. لم يلاحظ أحد في وضعه شيئاً خاصاً يلفت النظر: فلقد كان يبدو هادئاً لطيفاً. ولعله قد انتحر في نحو منتصف الليل. لكن الشيء الغريب هو أن أحداً لم يسمع صوت طلقة المسدس، لا من الجيران ولا من العاملين بالفندق. وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد الظهر فقط إنما قرع بابه الخادم، فلما لم يسمع جواباً اقتحم الغرفة. كانت قنينة الخمر فارغاً نصفها، وكان قد بقي من العنب بضعة عناقيد. وكانت الرصاصة قد أُطلقت على القلب رأساً، وكان المسدس، ذي الطلقات الثلاث، الصغير الحجم، قد سقط من يدي الفتى على السجادة. وكان الجسم الذي لم ينزف منه إلّا قليل جداً من الدم موجوداً الآن على ديوان في ركن من الغرفة. لا بدّ أن الموت قد تمَّ فوراً. فالوجه ليس فيه أثر من آثار ألم: إنه يعبر عن الهدوء بل وعما يشبه السعادة. حتى لكأنه يوشك أن يُبعث حياً.

شاهد أصحابنا المنظر بفضول شره. إن كل مصيبة تنزل بأحد من البشر

تشتمل دائماً على شيء يفرحنا. وقد نظرت سيداتنا إلى الشاب المنتحر صامتات. أمّا الرجال وقد حافظوا على حضور بديهتهم فقد كانوا يحاولون أن يلمعوا بملاحظة لطيفة أو قولة فكهة. فقال أحدهم إن الفتى ما كان في وسعه أن يتخيَّل حلاً أفضل، وإنه تصرف تصرفاً فيه كثير من الذكاء. وقال آخر: لئن كانت حياته قصيرة، قد كانت ملأى زاخرة. وتساءل ثالث على حين فجأة: لماذا تكثر حوادث الانتحار ببلادنا هذه الكثرة كلها في الآونة الأخيرة، كأن الناس يحسون بأنهم لا جذور لهم تشدهم إلى الحياة، ولا أقدام لهم تقف على أرض. فلم يتلق المتسائل أي جواب غير نظرات خالية من اللطافة. وفي مقابل ذلك رأيت ليامشين، الذي يحرص على أن يكون له شرف تمثيل دور المهرِّج، رأيته يأخذ من الطبق عنقود عنب، فقلده في ذلك شخص آخر. حتى إذا مدَّ ثالث يده إلى قنينة الخمرة دخل مفوض الشرطة إلى الغرفة، وأخرج منها الجميع. وإذ كانوا قد رأوا ما أرادوا أن يروه، فقد انسحبوا دون أي اعتراض، إلّا ليامشين الذي شاء أن يحتج، فما كان من هذه الفكاهة إلّا أن زادت مرح الجماعة وأنعشت نشاطها، وتابع الركب الفرح طريقه وسط سيلٍ من الضحك والكلام.

وصلنا إلى عند سيميون ياكوفلفتش في الساعة الواحدة تماماً. كانت بوابة منزل التاجر الكبير مفتوحة على سعتها. وكان كل من يريد الدخول إلى جناح "المجذوب" يستطيع أن يدخل. وعلمنا أن سيميون ياكوفلفتش يتغدى، ولكنه مع ذلك يستقبل. فدخلنا جميعنا دفعةً واحدة. إن الغرفة التي يأكل فيها "المجذوب" ويستقبل، لها ثلاث نوافذ. وهي واسعة سعةً كافية، وثمة حاجز من قضبان خشب، علوُّه متر تقريباً، يقسمها إلى جزأين يمتد من جدار إلى آخر، ويقسم الغرفة قسمين متساوين. فأمَّا الزوار العاديون فإنهم يقبعون وراء الحاجز، وأمَّا الزوار الذين يخصهم الرجل القديس بامتياز خاص فإنه يأمر بإدخالهم إلى الجهة التي هو فيها، من باب في السور خاص به، ويجلسهم، إذا بدا له ذلك، على مقاعد عتيقة من جلد، أو على ديوان. أمَّا هو فإنه متربع فوق مقعد كبير ذي مسند عال، وهو مقعد مهترئ

كل الاهتراء. الرجل في نحو الخمسين من العمر، طويل القامة، أصفر اللون، متورم الوجه، حليق اللحية تماماً، قليل شعر الرأس. إن خده اليمنى منتفخة، وإن فمه موارب قليلاً، وله ثؤلول ضخم بقرب منخره الأيسر، وله عينان صغيرتان هادئتان. وهو يرتدي ثياباً على الزي الأوروبي، ولكن لا صديرة ولا ربطة عنق تحت ردنجوته الأسود. قميصه من قماش خشن، لكنه ناصع البياض. وقدماه، المريضتان فيما أظن، ينتعلان خفَّين مما يُنتعل في البيت. يقال إنه كان في الماضي موظفاً وكانت له رتبة. لقد فرغ الآن من تناول حساء خفيف بالسمك، وشرع في أكل الطبق الثاني وهو بطاطس مسلوقة بغير تقشير ومرشوشة بملح. إنه لا يأكل في حياته شيئاً آخر قط، ولكنه يكثر من شرب الشاي، فهو يهوى الشاي كثيراً. إن خدماً ثلاثة يقفون حوله، والتاجر هو الذي يدفع لهم أجورهم. فأحدهم يرتدي بزة رسمية، والثاني يشبه أن يكون مستخدماً في محل تجاري، والثالث شبيه بخادم كنيسة. وهناك عدا هؤلاء فتى في السادسة عشرة من عمره، كثير الحيوية والنشاط، وراهب شائب الشعر، مهيب المظهر، وإن يكن سميناً بعض السمنة، يحمل بيده علبةً مغلقة للعطايا والهبات. وعلى مائدة يغلي سماور توجد إلى جانبه صينية عليها نحو دستتين من الكؤوس. وعلى مائدة أخرى مقابلة قد صُفَّت الهدايا: أرغفة خبز، وصرر سكر، ورطلان من الشاي، وخفَّان مطرَّزان، ومنديل تلف به العنق، وقطعة جوخ لصنع رداء، وقطعة نسيج مما تخاط منه القمصان... أمَّا العطايا المالية فيذهب بها الراهب إلى الكنيسة في العلبة المغلقة، دائماً على وجه التقريب. وكان عدد الزائرين نحو اثني عشر زائراً، اثنان منهما كانا جالسين قرب سيميون ياكوفلفتش، فأمَّا أحدهما فهو حاج من "عامة الناس" وأمَّا الثاني فهو راهب قصير نحيل كان ماراً بمدينتنا، وقد جلس متواضعاً خافض العينين. وكان باقي الزوار وراء الحاجز. إن أكثرهم أناس من الشعب، باستثناء تاجر سمين ذي لحية وصل إلى المدينة من القرية المجاورة، وهو يرتدى لباساً على الزي الروسي، لكنه معروف بأنه عظيم الثراء، وباستثناء رجل آخر من مالكي الأراضي، وامرأة عجوز نبيلة فقيرة.

كان الجميع ينتظرون، لا يجسرون أن ينطقوا بكلمة واحدة قبل أن يتجه إليهم الرجل القديس بالكلام. إن أربعة منهم راكعون. ومالك الأرض، الرجل السمين، الذي يبلغ من العمر نحو خمسة وأربعين عاماً، هو الذي يلفت الانتباه خاصة: كان راكعاً أمام الحاجز، يراه كل من بالغرفة، ينتظر بكثير من الخشوع أن يمن عليه سيميون ياكوفلفتش بنظرة أو كلمة طيبة. إنه هنا منذ ساعة، ولكن الرجل القديس لا يوليه أيَّ انتباه.

تكدست سيداتنا على الحاجز وهن يُطلقن ضحكات صغيرة ويتبادلن همسات فرحة، فيدفعن الزوار الآخرين ويحجبنهم، إلّا المالك الذي حافظ على مكانه في عناد، متشبثاً بقضبان الحاجز بكلتا يديه. وسرعان ما أصبح سيميون ياكوفلفتش محط هذه الأنظار الضاحكة المستطلعة. وتسلح عدد منا بنظارات تُمسك باليد، أو توضع على الأنف، حتى أن ليامشين أخذ يتأمل القديس مستعملاً نظارتين مقرِّبتين من النظارات التي يُستعان بها في المسرح. وألقى علينا سيميون ياكوفلفتش نظرة هادئة كسولة من نظرات عينيه الصغيرتين.

ثم قال بصوت خفيض أبحَّ قليلاً:

ـ نظرات لطيفة!

فانفجرت جماعتنا كلها ضاحكة: مامعنى هذا القول: "نظرات لطيفة"؟ ولكن سيميون ياكوفلفتش عاد إلى صمته الكامل. وأتى على طبق البطاطس الذي كان يأكله، ومسح شفتيه بمنشفة، ثم حُمل إليه الشاي. إنه في العادة لا يشرب الشاي وحيداً، وإنما يقدِّم منه إلى زواره، أو قل إلى عدد من زواره يصطفيهم. وكان هذا الاصطفاء من بين الزوار يفجأ الناس دائماً بما فيه من أمور غير متوقعة. فهو تارةً يهمل الأغنياء والشخصيات الهامة فيأمر بالشاي لفلاح أو لامرأة عجوز من الشعب، وهو تارةً أخرى يحتقر الفقراء فيأمر بالشاي لتاجر سمين من التجار مليء الجيب بالمال. هذا عدا أنه لا يعامل جميع الذين يختارهم معاملة واحدة: فواحد يأمر له بشاي محلى بالسكر، وآخر يأمر له بشاي مع قطعة من السكر عليه أن يمصها مصاً أثناء احتساء

الشـاي، وثالث لا يأمر له مع الشـاي بسـكر بتاتاً. ففي هذه المرة وقع اختيار سـيميون ياكوفلفتـش علـى الراهب الغريـب القصير، فأمر له بشـاي محلًّى، وعلى الحاج العجوز فأمر له بشـاي من غير سـكر. أمَّا الراهب السمين الآتي من ديرنا فإنه لم يأمر له بشيء، رغم أنه كان ينال كأسه دائماً.

ـ سيميون ياكوفلفتش، قل لي شيئاً! إنني منذ زمن طويل أحب أن أعرفك.

بذلك صدح صوت مغرِّد مغناج هو صوت تلك السيدة الأنيقة التي قالت منذ برهة إن على المرء أن لا يكون متشـدداً في شـؤون التسـليات شريطة أن يكون الأمر شائقاً.

فلم يرض سيميون ياكوفلفتش حتى أن ينظر إليها. وزفر مالك الأراضي، الراكع أمام الحاجز، زفرة صاخبة، كأن أحداً قد نفخ في صفَّارة قوية.

قال "الرجل التقي"، وهو يشير بإصبعه إلى التاجر الغني:

ـ هاتوه بشاي محلًّى بسكر.

فاقترب التاجر الغني وركع إلى جانب المالك.

وقال سيميون ياكوفلفتش حين صُبَّ الشاي:

ـ مزيداً من السكر.

فضاعفوا له مقدار السكر. فقال:

ـ مزيداً، مزيداً!

فضاعف الخادم السكر مرة ثانية، ثم ضاعفه مرة ثالثة، فكان مقدار السكر الذي وُضع في الشـاي أربعـة أضعاف المقدار العادي. فأخذ التاجر يشـرب شرابه طيِّعاً خاضعاً. وهمس الناس وهم يرسمون إشارة الصليب:

ـ يا رب!

وزفـر المالك من جديـد. وارتفع صوتُ سـيدة فقيرة كانـت جماعتنا قد دفعتهـا إلى الحائط، ارتفـع على حين فجأة أليماً موجعاً، لكنه يبلغ من الحدة أن جميع الحضور دُهشوا، ارتفع يقول:

ـ سـيميون ياكوفلفتـش، أبتـاه! إنني هنا منذ سـاعة أرتقـب أن تلقي عليّ نظرتك الحنون. كلِّمني. قل لي، ماذا يجب أن أفعل، أنا اليتيمة المسكينة!

فقال سيمون ياكوفلفتش للخادم الذي يشبه خادم كنيسة:

ـ اسألها!

فدنا الخادم من الحاجز، وسأل الأرملة بصوت رقيق بطيء:

ـ هل فعلت ما أمرك به سيميون ياكوفلفتش آخر مرة؟

ـ أنَّى لي أن أستطيع فعل ما أمرني به أيها الأب العزيز! هؤلاء أناس من أكلة لحوم البشر حقاً! لقد شكوني إلى المحاكم، وهم يهددونني بأن يجروني إلى أمام مجلس الشيوخ، أنا أمهم!

قال سيميون ياكوفلفتش للخادم وهو يشير إلى كتلة سكر:

ـ أعطها هذا!

فأسرع الفتى نحو المائدة، وتناول الكتلة، ومدَّها إلى الأرملة.

فهتفت الأرملة تقول:

ـ أوه! أبتاه! عظيمة طيبتك! ما عساني فاعلة بهذا كله؟

فأردف سيميون ياكوفلفتش يقول متابعاً كلامه:

ـ مزيداً! مزيداً!

فجيئت المرأة بكتلة أخرى. فألح سيميون ياكوفلفتش مكرراً:

ـ مزيداً!

فجيئت بثالثة، فرابعة، فرأت نفسها محاطة بسكر من كل جهة.

ـ زفر الراهب السمين: إن هذا كله كان ينبغي أن يُرسل إلى الدير كالعادة.

وتندهت الأرملة قائلة بمذلة:

ـ ولكن ما عساني صانعة بهذا كله؟ إنه يكاد يثير الغثيان... أم تُرى هذا نبوءة؟

دمدم واحدٌ من الجمهور يقول:

ـ هو نبوءة طبعاً.

ـ أعطوها رطلاً آخر.

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش.

كانت قد بقيت على المائدة حزمة كاملة. ولكن الرجل المقدس أمر بأن تعطى رطلاً واحداً فأطيع.

قال الناس متنهدين وهم يرسمون على أنفسهم إشارة الصليب:

ـ يارب! يا رب! واضح أنها نبوءة.

وتصدَّى الراهب السمين الذي أغضبه أن يرى أنه نُسي، وأن عليه أن يستغني عن كأس الشاي الذي اعتاد أن يؤمر له به، تصدَّى للتعليق على هذا فقال للمرأة برصانة:

ـ عليك أولاً أن تجعلي قلبك حلواً بالطيبة والغفران فيما كان ذلك هو معنى هذا الرمز!

فهتفت المرأة تقول وقد غضبت فجأة:

ـ ما هذا الذي تقول يا أبت! لقد أرادوا أن يلقوني في النار حين شب حريق في منزل أسرة فرخيشيف. وقد رموا في صندوقي قطة فاطسة، إنهم لا يتورعون عن شيء...

صاح سيميون ياكوفلفتش يقول محركاً ذراعيه:

ـ اطردوها! اطردوها!

فوثب خادم الكنيسة والخادم الشاب إلى الجهة الأخرى من الحاجز، فأمسك خادم الكنيسة بالأرملة تحت ذراعيه، فسرعان ما عادت ذليلة متواضعة وانقادت سائرة نحو الباب، دون أن يفوتها أن تلقي نظرة على كتل السكَّر التي حملها الصبي وراءها.

قال سيميون ياكوفلفتش يأمر الخادم الذي يشبه أن يكون مستخدماً في محل تجاري والذي كان يقف بقرب مقعده:

ـ استرد منها كتلة من السكر.

فركض الخادم وراء الأرملة، فما هي إلّا لحظة حتى رجع الخدم الثلاثة بكتلة السكر التي أُعطيت للأرملة ثم استُردت منها، لكن المرأة انصرفت بثلاث كتل.

قال صوت قريب جداً من الباب:

ـ سيميون ياكوفلفتش، رأيتُ في الحلم طائراً. إنه زاغ صعد من الماء ومضى يرتمي في النار. فما معنى هذا الحلم؟

قال الرجل "التقي":

ـ نذير برد.

وعادت السيدة الأنيقة تسأله:

ـ سيميون ياكوفلفتش، لماذا لا تجيبني؟ إنني منذ مدة طويلة أهتم بك ويشوقني أمرك.

ـ اسأله.

كذلك قال سيميون ياكوفلفتش لراهب ديرنا مشيراً إلى مالك الأرض الذي ما يزال راكعاً، دون أن ينتبه إلى السيدة الأنيقة التي وجَّهت إليه ذلك السؤال.

ـ ماذا كان ذنبك؟ هل سبق أن أُمرت بشيء؟

فأجاب الرجل بصوت أجش:

ـ أمرت بأن لا أقتتل مع الناس، أُمرت بأن أسيطر على نفسي.

ـ فهل أطعت الأوامر؟

ـ لا أستطيع، يستحيل عليَّ أن أتحكم بسلوكي وأسيطر على نفسي.

ـ اطرده! اطرده! بالمكنسة!

كذلك صاح سيميون ياكوفلفتش محركاً ذراعيه من جديد. فإذا بالمالك يلوذ بالفرار قبل أن يُنفَّذ فيه هذا التهديد.

قال الراهب وهو يلتقط من الأرض قطعة ذهبية بعشرة روبلات:

ـ ترك قطعة ذهبية.

ـ فقال سيميون ياكوفلفتش وهو يشير إلى التاجر الثري:

ـ أعطها هذا.

فلم يجرؤ التاجر الثري أن يرفضها. ولم يملك الراهب إلّا أن يعلق على ذلك بقوله:

ـ الذهب يجذب الذهب!

ـ وأَعط هذا شاياً بالسكر.

قال سيميون ياكوفلفتش ذلك وهو يشير إلى مافريكي نيقولايفتش.

فملأ خادم كأساً، ولكنه أخطأ فقدمه إلى الشاب الأنيق ذي النظارة. فصحح سيميون ياكوفلفتش خطأه قائلاً:

ـ بل لهذا! الطويل، الطويل!

فتناول مافريكي نيقولايفتش الكأس، وقام بتحية عسكرية سريعة وأخذ يشرب الشاي. فلا أدري لماذا أخذ جميع صحبنا يضحكون!

وقالت ليزا فجأة:

ـ مافريكي نيقولايفتش، إن السيد الذي كان راكعاً قد انصرف، فاركع أنت في مكانه. فنظر إليها مافريكي نيقولايفتش مبهوتاً.

ـ أرجوك. ستسرني بهذا سروراً عظيماً.

ثم تابعت تقول مسرعة بلهجة ضاغطة مندفعة:

ـ اسمع يا مافريكي نيقولايفتش! يجب، يجب حتماً أن أراك راكعاً. فإذا لم تركع فلن تجيئني بعد اليوم. أريد... أريد...

لا أدري ماذا كان معنى هذا. لكنها أصرَّت على رأيها إصراراً عنيداً، وتكلمت بلهجة حاسمة قاطعة، وكأنها تعاني نوبة عصبية. ولقد كان مافريكي نيقولايفتش، كما سنرى ذلك فيما بعد، يعزو هذه النزوات الغريبة التي تزداد يوماً بعد يوم، إلى البغض الأعمى الذي تحمله له الفتاة. ولكنها كانت تضمر له مع ذلك اعتباراً واحتراماً وعاطفة، وكان هو يعرف ذلك. على أن هذا لا ينفي أنها كانت تحمل له عداوة لا شعورية لم تفلح الفتاة في أن تنتصر عليها.

لم يقل مافريكي نيقولايفتش كلمة واحدة، وإنما التفت إلى عجوز كانت وراءه فأعطاها الكأس، وفتح باب الحاجز ودخل دون استئذان إلى الجزء الموقوف على سيميون ياكوفلفتش من الغرفة، وركع في وسطه. أظن أن رقة إحساسه وبساطة قلبه قد روَّعتهما هذه الإهانة الفظة التي أنزلتها فيه ليزا بحضور المجتمع كله. لعله قال لنفسه إنها لا بد أن تخجل من سلوكها حين ترى هذا الذل الذي أكرهته عليه. نعم، لا بد أن يكون مافريكي نيقولايفتش رجلاً من نوع مافريكي نيقولايفتش حتى يحاول أن يؤثر في امرأة بوسائل تبلغ هذا المبلغ من السذاجة، وتبلغ هذا المبلغ من قلة التبصر. وكان منظر

هـذا الرجـل الطويل المتخلـع الراكع الذي ظـل وجهه رصينـاً لم يضطرب، كان منظـراً مضحكاً كل الإضحاك. غير أن أحداً لم يضحك حينذاك: إن هذا المشـهد الغريب قد أثار شـعوراً بالضيق والانزعاج. واتجهـت الأنظار كلها إلى ليزا.

غمغم سيميون ياكوفلفتش قائلاً:

ـ منتهى الرقة! منتهى الرقة!

فاصفـرت ليزا فجأة، وأطلقت صرخـة، واندفعت إلى الجهة الأخرى من الحاجـز، وأخـذت تشـد مافريكي نيقولايفتـش لتنهضه وكأنهـا خرجت عن طورها، وتصرخ زائغة الهيئة قائلة:

ـ قم! فوراً! كيف جرؤت على أن تفعل هذا؟

فقـام مافريكي نيقولايفتش. وأمسـكت بذراعيه تحـت كوعيها، وحدَّقت إلى عينيه بنظرة مرتاعة.

وكرر سيميون ياكوفلفتش:

ـ نظرات لطيفة، نظرات لطيفة!...

ورجعت إلينا بمافريكي نيقولايفتش أخيراً، كانت جماعتنا كلها مضطربة أشـد الاضطـراب، وأرادت السـيدة الأنيقـة أن تسـرِّي عنا في أغلـب الظن، فاتجهت تخاطب سـيميون ياكوفلفتش مرة ثالثة، قائلة له بصوتها الحاد وهي تبتسم ابتسامة غنج ودلال:

ـ هيه... سـيميون ياكوفلفتش، هلا تنازلت فقلت لي شيئاً؟ لطالما عوَّلت عليك!...

ـ ابحثي لنفسك عمن... ابحثي لنفسك عمن يـ..!...

كذلك صاح "وليُّ الله" غاضباً وهو يلتفت إليها. وقد نطق "القديس" بهذه العبارة البذيئة بوضوحٍ مروِّع. فما سـمعته سيداتنا يقول هذا الكلام حتى لذن بالفرار و هنَّ يطلقن صرخات صغيرة مرتاعة، بينما انفجر مرافقوهن الفرسان يضحكون ضحكاً هوميرياً. هكذا انتهت زيارتنا لسيميون ياكوفلفتش.

غيـر أن حادثاً غريباً قد وقع أيضاً قبل ذلـك، وإني لأعترف لكم بأنني من

أجل الوصول إلى هذا الحادث خاصةً إنما سردت التفاصيل كلها عن رحلتنا.

قيل إن ليزا التي كان يسندها مافريكي نيقولايفتش قد اصطدمت فجأة، أثناء هروب الجميع إلى خارج غرفة سيمون ياكوفلفتش، قد اصطدمت قرب الباب بنيقولاي فسيفولودوفتش. يجب أن أقول إنهما، منذ مشهد يوم الأحد وإغماء ليزا، لم يتعرض أحد منهما لصاحبه، ولا كلَّمه، رغم أنهما يلتقيان في المجتمع. لقد رأيتهما قريبين أحدهما من الآخر عند الباب، وبدا لي خلال لحظة أنهما توقفا كلاهما وألقى كل منهما على الآخر نظرة غريبة. لكن الازدحام كان شديداً فمن الجائز أنني أخطأت. غير أن ما أكده الآخرون هو أن ليزا رفعت يدها إلى مستوى وجه نيقولاي فسيفولودوفتش، وأنها كانت ستصفعه حتماً لولا أنه تنحى في الوقت المناسب. فلعل ليزا أحست، ولا سيما بعد المشهد الذي وقع مع مافريكي نيقولايفتش، أن نظرة ستافروجين أو ابتسامته تجرحان شعورها. أعترف بأنني من جهتي لم ألاحظ شيئاً. لكن الجميع قد أكدوا أنهم رأوا هذه الحركة. ومهما يكن من أمر، فإذا كان قد حدث شيء فإن الذين استطاعوا من بيننا أن يروه قليل، وذلك بسبب الازدحام والفوضى. ولقد رفضت في ذلك الوقت أن أصدق ما قالوه. ولكنني أذكر أن وجه نيقولاي فسيفولودوفتش كان يبدو أثناء العودة شاحباً بعض الشحوب.

3

في ذلك اليوم نفسه، وفي تلك الساعة نفسها تقريباً، تمَّ اللقاء الذي كانت فرفارا بتروفنا قد قررت منذ مدة طويلة أن تحدده لستيفان تروفيموفتش، ولكنها أرجأته حتى ذلك الحين، لا أدري لماذا! ولقد تمَّ هذا اللقاء في سكفورشنيكي.

وصلت فرفارا بتروفنا إلى منزلها الريفي مشغولةً جداً: كان قد تقرر في الليلة البارحة نهائياً أن تقام الحفلة في منزل عميدة النبالة. ولكن فرفارا بتروفنا، بما تتميز به من تعجل، سرعان ما قررت أن لا يمنعها شيء بعد تلك

الحفلة من إقامة حفلة أخرى بمنزلها في سكفورشنيكي، تدعو إليها المدينة كلها. فسوف يرى الناس حينذاك أن منزلها هو الأجمل، وسوف يرون أن الاستقبال فيه أليق، وأن الحفلة فيه ستمتاز بذوق ألطف. نستطيع أن نقول على وجه العموم أن فرفارا بتروفنا قد تغيرت حتى أصبحت لا تكاد تُعرف. لقد طرأ عليها تحوّل كامل، فصارت "السيدةُ العظيمةُ" ذات الكبرياء (كما كان يلقبها ستيفان تروفيموفتش) امرأةً عادية من نساء المجتمع التافه، خفيفةً ذات نزوات.

ما إن وصلت فرفارا بتروفنا إلى منزلها الريفي حتى قامت بجولة سريعة فيه، يصحبها العجوز الأمين ألكسي إيجورتش فاموشكا[1] الاختصاصي الواسع الخبرة في شؤون تزيين المنازل. ودارت المناقشة: ما الأشياء وما اللوحات التي يجب إحضارها من منزل فرفارا بتروفنا بالمدينة؟ أين يجب وضع هذه الأشياء واللوحات هنا! كيف نُرتِّب الأزهار؟ كيف يمكن الاستفادة من أشجار البرتقال؟ أين توضع مجموعة الطنافس الجديدة؟ والبوفيه، أين يكون؟ وهل يقام بوفيه واحد أم اثنان؟ إلخ إلخ...

وبينما كانت فرفارا بتروفنا مشغولةً بمناقشة هذه الأمور، إذ خطر ببالها فجأة أن ترسل عربتها لتجيئها بستيفان تروفيموفتش.

وكان ستيفان تروفيموفتش متهيئاً. لقد أُبلغ منذ مدة طويلة أن فرفارا بتروفنا ستحدد له موعداً، وكان ينتظر فعلاً أن تدعوه دعوة مفاجئة من هذا النوع. فحين ركب العربة رسم على نفسه إشارة الصليب: لأنه كان يحس أن مصيره سيتقرر أخيراً.

وجد صديقته في الصالة الكبرى. إنها جالسة على كنبة صغيرة أمام منضدة من مرمر تكتب، كان فاموشكا وهو يحمل بيده متراً، يقيس علوَّ المنصات والنوافذ، ويملي الأرقام على فرفارا بتروفنا فتسجلها.

لم تقطع فرفارا بتروفنا عملها حين وصل ستيفان تروفيموفتش وإنما

---

(1) "فاموشكا": تصغير اسم فوما تحبباً.

أومأت له بحركة من رأسها، حتى إذا عبَّر لها عن تحياته واحترامه متمتماً، مدت إليه يدها بسرعة تصافحه من دون أن تنظر إليه، وعينت له مكاناً إلى جانبها يجلس عليه.

وقد حكى لي ما جرى، فيما بعد، فقال: "جلست وانتظرت خمس دقائق أو ست دقائق كاملة، ضاغطاً قلبي. إن المرأة التي أراها أمامي ليست هي تلك التي أعرفها منذ عشرين عاماً. فكان من شأن اقتناعي المطلق بأن كل شيء بيننا قد انتهى أن ملأني بقوة دُهشت منها هي نفسها. أحلف لك أنها بُهتت من ثبات جناني وصلابة إرادتي في تلك الساعة الأخيرة.".

وفجأة وضعت فرفارا بتروفنا قلمها على المنضدة والتفتت إلى ستيفان تروفيموفتش بحركة مفاجئة وقالت له:

ـ يا ستيفان تروفيموفتش، هناك أمور يجب أن نصفّيها. أنا واثقة بأنك قد هيأت عبارات جميلة وألفاظاً عاطفية وصيحات مؤثرة، ولكن أليس الأفضل أن نمضي إلى الوقائع رأساً؟

انتفض ستيفان تروفيموفتش. قال لنفسه: إذا أسرعتْ إلى اتخاذ هذه اللهجة منذ البداية فما عسى تكون التتمة والنهاية.

ـ انتظر! اسكت! دعني أتكلم! ستتكلم أنت بعد ذلك، رغم انني لا أعرف حقاً بماذا يمكن أن تجيبني!

كانت تتدفق في الكلام، وتابعت كلامها من دون أن تنتظر أجوبة:

ـ فيما يتعلق براتبك الذي يبلغ ألفاً ومائتي روبل، فإني أرى أنه واجب مقدس عليَّ أن أستمر في تقديمه إليك حتى آخر حياتك. ولكن علام الكلام عن "واجب مقدس" ؟ هذا اتفاق لا أكثر ولا أقل. بذلك نكون أقرب إلى الواقع، أليس كذلك؟ وإذا شئت سجَّلناه كتابةً. وإذا اتفق أن متُّ قبلك، فقد اتخذت إجراءات خاصة لهذه الحالة. وبالإضافة إلى ذلك تقع على عاتقي أجرة المسكن ونفقات الخادمة والمعيشة. فإذا ترجمنا هذه المصاريف إلى مال، كان المبلغ اللازم ألفاً وخمسمائة روبل، أليس كذلك؟ وإني لأضيف إلى هذا ثلاثمائة روبل للنفقات الخارقة، فيكون المجموع كله ثلاثة آلاف

روبل في السنة. ألا يكفيك هذا المبلغ؟ أظن أنه ليس بالمبلغ الضئيل. والآن خذ المال، وردَّ إليَّ خدمي، وعش كما يحلو لك أن تعيش، في المكان الذي تريد: بطرسبرج، أو موسكو، أو الخارج، أو حتى هنا، ولكن ليس عندي، هل تفهم؟

قال ستيفان تروفيموفتش ببطء وكآبة وأسى:

ـ منذ مدة غير طويلة سمعت من هذا الفم نفسه مطلباً آخر يبلغ هذا المبلغ نفسه من القطع والجزم والإلحاح. وخضعت للمطلب... رقصت الرقصة القوزاقية لأسرَّك... "نعم، هذا التشبيه مباح. لقد كنت مثل قوزاقي صغير من الدون يرقص على قبره... والآن..." (بالفرنسية).

ـ قف ياستيفان تروفيموفتش. أنت ثرثار إلى درجة فظيعة. إنك لم ترقص، وإنما جئت إليَّ متزيناً بربطة عنق جديدة، لابساً قميصاً نضراً ناصع البياض، داساً يديك في قفازين جميلين، متدهّناً متعطراً. أؤكد لك أنك كنت راغباً في الزواج أشد الرغبة. كان ذلك يُقرأ في وجهك. وصدِّقني إذا قلت لك إنه لم يكن جميلاً منك. ولئن لم أُبد هذه الملاحظة حينذاك، فلقد كان من جانبي ذوقاً وأدباً ولطفاً. لكنك كنت راغباً، نعم كنت راغباً في أن تتزوج، رغم كل الأشياء الدنيئة التي كتبتها عني وعن خطيبتك خفيةً. والأمر الآن يختلف عن ذلك تماماً. ما شأن "قوزاقي الدون والقبر" هنا؟... إنني لا أفهم هذا التشبيه. بالعكس: لا تمت، بل عش أطول عمرٍ ممكن، وسيسعدني هذا كثيراً.

ـ أعيش في ملجأ؟

ـ في ملجأ؟ لا يذهب المرء إلى ملجأ حين يكون له دخل قدره ثلاثة آلاف روبل. آ... نعم... نعم تذكرت الآن. إن بطرس ستيفانوفتش قد قال، فعلاً، في ذات مرة، على سبيل المزاح، أنه سيضعك في ملجأ. على أن الملجأ الذي كان يعنيه ملجأ من نوع خاص جداً، ينبغي أن نفكر في هذا حقاً. إنه ملجأ لا يُستقبل فيه إلّا أشخاص محترمون جداً، رجال برتبة كولونيل مثلاً، حتى أن بين المرشحين لدخوله شخصاً برتبة جنرال. فإذا دخلته بما تملك من مال وجدت فيه الراحة والرخاء وخدمة ممتازة. فتستطيع أن تتصرف فيه

إلى العلم وأن تلعب لعبة الورق التي تلعبها كل يوم...

ـ "طيب... دعينا من هذا الكلام" (بالفرنسية).

ـ "دعينا من هذا الكلام"؟ (بالفرنسية).

قالت فرفارا بتروفنا ذلك وهي تحرك يدها بإشـارة تنم عن التململ ونفاد الصبر. وأضافت:

ـ إذا كان الأمر كذلك فهذا كل شـيء. هـا أنا ذا قد أبلغتك ما عقدت عليه نيتي. بعد الآن، سيعيش كل منا مستقلاً عن الآخر، سيسير كل منا في طريقه...

ـ هذا كل شيء؟ هذا كل ما بقي لنا من السنين العشرين التي أنفقناها معاً؟ أهذا وداعنا الأخير؟

ـ إن لك ولعاً شديداً بالصيحات العاطفية المؤثرة يا ستيفان تروفيموفتش! لقد انقضت هذه الموضة وأصبحت بالية! الناس يتكلمون الآن بخشونة ولكن ببساطة. إنك ما تنفك تتكلم عن هذه السنين العشرين. نعم، إنها عشرون سنة من الأنانية! الرسـائل التـي بعثتها إليّ إنما كُتبت للأجيـال القادمة، لا لي أنا، ما أنت بصديق. وإنما أنت منشئ ينمِّق أسلوبه ويزوِّق كتابته. والصداقة على كل حال كلمة ضخمة لا تعني على وجه الإجمال إلّا أن يتساكب اثنان مياهاً وسخة...

ـ رباه! هذه كلها كلمات ليسـت لك! إنك تكررين درسـاً حفظته عن ظهر القلب. هل ألبسوك أنت أيضاً زيَّهم؟ "عزيزتي، عزيزتي، (بالفرنسية)... بأي طبق من عدس بعتهم حريتك؟

قالت فرفارا بتروفنا غاضبة:

ـ لسـت ببغـاء أكرر أقوال الآخريـن. ثق أن قلبي مثقل بأشـياء تكفيني من أجل أن أجد الكلمات التي تناسـبني. ماذا فعلت في سـبيلي أثناء هذه السنين العشـرين؟ منعتَ عني حتى الكتب التي كنت أستقدمها لك والتي ما كان لها أن تُقـصَّ لولا أنني كنت آمر بتجليدها. ماذا كنـت تعطيني للقراءة حين كنتُ

"في السنين الأولى أطلب منك توجيه مطالعاتي؟ كابفيج[1]، ولا شيء إلاّ كابفيج، كنت تغار من تطور فكري ونمو ثقافتي، فكنت تتخذ إجراءاتك للحيلولة دونهما. ومع ذلك فمنك أنت إنما يضحك الآن جميع الناس. أعترف بأنني لم أكن أرى فيك على الدوام إلّا ناقداً أدبياً لا أكثر. إنك ناقد أدبي لا أكثر. وحين سافرت إلى بطرسبرح وقلت لك إن في نيتي أن أنشئ مجلةً وأن أقف عليها حياتي كلها أسرعت تنظر إليَّ ساخراً وتتخذ مني موقف استعلاء وغطرسة.

- لم يكن الأمر هذا... لم يكن هذا بتاتاً... وإنما كنا يومئذ نخشى الملاحقات...

- لا، لم يكن الأمر كذلك. أمّا عن الملاحقات فلم يكن لك أن تخشاها في بطرسبرح. وبعد ذلك، في شهر شباط (فبراير) حين سرت بعض الشائعات، هرعت إليَّ مذعوراً، وطلبت مني أن أعطيك شهادة في صورة رسالة تثبت أن المجلة المزمع إصدارها لا شأن لك بها بتاتاً، وأن الشبان يترددون عليَّ أنا لا عليك أنت، وأنك لست إلّا مربياً يعيش عندي لأنني ما أزال مدينةً له بمال. هل تتذكر؟ لقد كان لك طوال حياتك موقف خاص يا ستيفان تروفيموفيتش!

صاح ستيفان تروفيموفتش يقول مكروباً يائساً:

- إنها لحظة ضعف، لم يكن إلّا كلاماً جرى بيني و بينك على انفراد. ولكن هل يُعقل، هل يُعقل قطع كل صلة بسبب حوادث طارئة صغيرة من هذا النوع؟ هل يُعقل أن لا يبقى بيننا شيء بعد هذه السنين كلها؟

- إنك حيسوب إلى درجة رهيبة: تصرُّ بكل ما أوتيت من قوة على أن أبقى مدينةً لك. حين عدتَ من الخارج، كنت تنظر إليَّ من علٍ، ولا تدعني أقول كلمة واحدة. وحين سافرت أنا بدوري وأردت أن أقص عليك انطباعاتي عن "مادونا سستين" لم تتنازل حتى أن تستمع لحديثي إلى نهايته، واكتفيت بالتبسم متعالياً متكبراً كأنني عاجزة حتى عن الشعور بأي شيء.

---

(1) هو بنجامان كايفيج: مؤرخ فرنسي ملكي الاتجاه.

ـ لـم يكن الأمر كذلـك... لعل الأمر كان يتعلق بشـيء آخر... "نسـيت" (بالفرنسية).

ـ بـل كان الأمـر كمـا وصفت. ولـم يكن مع ذلـك ثمة داع إلـى اصطناع الاستعلاء والتكبر. كل ما كنت تحكيه لي عن تلك اللوحة لم يكن إلّا سخفاً وحماقـة ومحـض خيال من جهتك. ما من أحد يشـعر الآن بنشـوة تجاه هذه المادونا، أو يضيِّع وقته في تأملها، باسـتثناء شـيوخ سـذَّج بسطاء. وذلك أمر مؤكد مبرهن عليه.

ـ مبرهن عليه؟

ـ إنها لا تفيد في شـيء على الإطلاق. هذه الجرة مفيدة لأننا نسـتطيع أن نملأها ماءً، وهذا القلم نافع لأنه يتيح لي أن أسجل ما أريد تسجيله. أمَّا تلك اللوحـة فما هي إلّا وجه امرأة أسـوأ مـن الوجوه التي نلقاها في الشـارع. إذا رسـمتُ تفاحةً ووضعت إلـى جانبها تفاحة حقيقية، فأيَّهـا تختار؟[1] إنك لن تخطـىء الاختيـار. أنا موقنة من هذا. ذلك ما يبقى اليـوم من جميع نظرياتك متى سلَّطنا عليها أول شعاع من حرية النظر.

ـ طيب... طيب...

ـ إنك تبتسـم سـاخراً. ماذا كنت تقول لي عن الصدقة؟ والحقيقة أن اللذة التـي يهيئها لنـا التصدق لذة أنانية لا أخلاقية. إنها تتيـح للغني أن يبتهج بغناه وسلطاته إذ يقارنهما بضعف الفقير. والصدقة تفسد المعطي والآخذ كليهما. وهي فوق ذلك لا تبلغ غايتها ولا تحقق هدفها، لأنها تكاثر البؤس. فالكسالى الذين لا يريدون أن يعملوا يتزاحمون حول أولئك الذين يعطون، كالمقامرين الذيـن يتحلقـون حول المائـدة الخضراء أملاً فـي أن يربحـوا. والدريهمات القليلـة التـي يرمونها إليهم لا تخفف جزءاً من مائة جـزء من آلامهم. كم من المـال وزَّعت طوال حياتك؟ ثمانين كوبكاً في أكثر تقدير. تذكر هذا. حاول

---

(1) يتهكم دوستويفسكي هنا على الرأي الذي ذهب إليه تشيرنيشفسكي القائل بأن "آثار الفن أقل قيمة من الجمال الواقعي"، وهو الرأي الذي يدافع عنه تشيرنيشفسكي في كتابه "العلاقات الجمالية بين الفن والواقع".

أن تتذكر متى تصدقت آخر مرة. ربما منذ سنتين أو حتى منذ أربع سنين. إنك لا تزيد على أن تتكلم فتعرقل عمل الآخرين. إن من الواجب، حتى في المجتمع الحالي، إصدار قانون يحظر الصدقة. أمَّا المجتمع الجديد فلن يكون فيه فقراء قط.

ـ أوه! سيل من الأقوال العجيبة! المجتمع الجديد! إذن قد وصلت إلى هنا؟ مسكينة! كان الله في عونك!

ـ نعم، وصلت إلى هنا يا ستيفان تروفيموفتش. كنت تحرص على أن تخفي عني جميع الأفكار الجديدة التي يعرفها الناس كافةً منذ الآن. ولم تفعل ذلك إلّا بدافع الغيرة، فقد كنت تريد أن تحتفظ بسلطانك عليَّ والآن أرى امرأة يقال لها جوليا تسبقني مائة فرسخ! إنما أصبحت أرى بوضوح أخيراً. لقد دافعت عنك ما وسعني أن أدافع يا ستيفان تروفيموفتش. ولكن جميع الناس يدينونك.

قال وهو ينهض فجأة:

ـ كفى! لا أملك إلّا أن أتمنى لك الندامة وأدعو لك بالتوبة!

ـ عد إلى الجلوس دقيقة أخرى يا ستيفان تروفيموفتش. لم أختم كلامي بعد. لقد طُلب منك أن تقرأ شيئاً في الصبيحة الأدبية. أنا رتبت ذلك. فماذا تنوي أن تقرأ؟

ـ لأقرأنَّ بضع صفحات عن ملكة الملكات تلك، عن المثل الأعلى للإنسانية، عن تلك "المادونا" التي لا تساوي في رأيك كأساً أو قلماً!

صاحت فرفارا بتروفنا تسأله خائبة الآمال:

ـ إذن لن تقرأ قصة تاريخية! لن يصغي إليك أحد. أتصرُّ على هذه "المادونا"؟ إنني لا أرى ما هي اللذة التي تجنيها من إنامة المستمعين. ثق يا ستيفان تروفيموفتش أنني لا أقول هذا الكلام إلّا في سبيل مصلحتك. خير لك أن تختار قصة قصيرة أو حكاية خفيفة عن حياة البلاط بإسبانيا في القرون الماضية مضيفاً إليها بضع تأملات فكهة من ابتكارك. فخامة البلاط، السيدات الجميلات، حوادث القتل بالسم، ذلك كله شائق! كارمازينوف

يقـول إنه ليكون أمراً غريباً جداً أن لا تجد في تاريخ إسـبانيا موضوعاً شـائقاً تتكلم عنه.

ـ كارمازينوف، هذا الأحمق الأجوف، يبحث عن موضوعات لي أنا؟

ـ إن كارمازينوف يكاد يملك ذكاء رجل دولة. لسـانك وقح سليط جداً يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ صاحبك كارمازينوف أشبه بعجوز نمامة شريرة غبية! عزيزتي! عزيزتي! إنك خاضعة لتأثيره كل الخضوع! رباه!

ـ إنني أكره فيه اصطناعه علوَّ الشـأن، ولكننـي أنصف ذكاءه. أعود فأقول إننـي دافعت عنك بـكل ما أوتيت من قوة، ما وسـعني أن أدافـع. علام يظهر المرء بمظهر سخيف مضحك مضجر؟ بالعكس: اصعد إلى المنصة مبتسماً، كرجـل يمثل عصراً مضى وانقضى، واقصص عليهم حكايتين أو ثلاثاً مما لا يسـتطيع أن يضارعك فيه أحياناً خفة ظل وروح فكاهة. هل يضيرك أن تكون شـيخاً، أن تمثل عصراً آخر، وأن تبقى متخلفاً في وراء! اعترف أنت نفسـك بهـذا، مبتسـماً في مسـتهل خطابك، فيـرى الجميع عندئذ أنك بقيـة باقية من عصـر تصرَّم حقـاً، ولكنك بقية لطيفة محببة حلوة فكهـة... رجل من الزمان القديـم فعـلاً، ولكنه يملك من الذكاء ما يمكنّه من إدراك سـخافة الآراء التي ظل متعلقاً بها حتى الآن. هيَّا، حقق لي هذه المسرَّة، أرجوك!

ـ "عزيزتي" (بالفرنسية)! كفى! لا تلحِّي! يستحيل عليَّ هذا. سوف أتكلم عن "المادونا" وسوف أثير زوبعة تسحقهم أو لا تنال أحداً غيري.

ـ ستكون أنت الضحية حتماً يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ ذلـك قَدَري. سـأتكلم عن ذلك العبد الحقير الجبـان، عن ذلك الخادم الشـرير العفن الذي سـيصعد أول الصاعدين على سلَّم، ممسكاً بيديه مقصاً، ويأخـذ يمـزق ذلـك الوجه الإلهـي، ذلـك المثل الأعلى، باسـم المسـاواة، والحسد... والهضم! فلترجع أصداء لعنتي أولاً، ثم، ثم...

ـ ثم مستشفى المجانين؟

ـ ربما. ولكن سـواء أخرجت غالباً أم خرجت مغلوباً، فلأحملنَّ في ذلك

المساء نفسه كيس متسوِّل، تاركاً جميع أشيائي وأمتعتي، جميع عطاياك وهباتك، جميع مرتباتك ووعودك، ماضياً على قدميَّ أختم حياتي عند تاجر من التجار كمربٍ لأولاده، أو أموت جوعاً تحت سياج. "تقرر المصير فليكن ما يكون" (باللاتينية).

ونهض من جديد.

ونهضت فرفارا بتروفنا أيضاً، مشتعلة العينين من الغضب! وصاحت تقول:

ـ كنت من هذا على يقين! كنت أعلم منذ سنين أنك لا تنتظر إلّا اللحظة التي تلطخني فيها بالعار، أنا وبيتي، بما ستذيعه من افتراءات وتنشره من تخرّصات! ما حكاية أن تصبح مربياً أو تموت تحت سياج؟ ليس هذا إلّا شراً ونية إساءة وعزماً على النميمة!

ـ لقد احتقرتني دائماً، لكنني سأنهي حياتي كفارس ظل وفياً لسيدته. إذ لا شيء كان أغلى عندي من رأيك في يوم من الأيام. منذ هذه اللحظة، لن أقبل منك أية عطية، بل أمجِّدك تمجيداً مبرّأً من كل منفعة!

ـ سخف!

ـ لم تحترميني يوماً. لعلني أتصف بأنواع كثيرة من الضعف. نعم، لقد كنت طفيلياً عليك. إنني أتكلم الآن لغة المذهب العدمي. ولكن حياة الطفيلي لم تكن المبدأ الأعلى الذي أستمد منه أفعالي في يوم من الأيام. وإنما حدث ذلك عرضاً من تلقاء نفسه، لا أدري كيف... كنت أظن دائماً أن بيننا شيئاً يفوق الشراب والطعام، ولم أكن حقيراً في يوم أبداً، أبداً... والآن، سرْ يا ستيفان تروفيموفتش في طريقك لتصلح أخطاءك! الوقت متأخر، الخريف قد تقدم، البرية غارقة في الضباب، قطرات الماء المتجلدة تملأ طريق شيخوختي، وفي زئير الرياح أسمع نداء الموت... و لكن هيَّا سر في الدرب... إن سكة جديدة تنفتح أمامي ملأى بحب نقي وفية للأحلام[1].

---

(1) بيتان من الشعر للشاعر بوشكين في قصيدته "الفارس الفقير"

أوه! وداعاً يا أحلامي! يا عشرين عاماً! " تقرر المصير، فليكن ما يكون" (باللاتينية).

كذلك ختم ستيفان تروفيموفتش كلامه، وابتل وجهه بالدموع.

وتناول قبعته.

قالت فرفارا بتروفنا مغالبةً انفعالها:

ـ لا أفهم اللغة اللاتينية!

من يدري؟ لعلها أرادت هي أيضاً أن تبكي. ولكن الغضب والكبرياء غلباها مرةً أخرى. قالت:

ـ لا أعرف إلّا شيئاً واحداً، هو أن هذا كله أمور صبيانية منك. لن تكون في يوم من الأيام قادراً قدرة كافية على تنفيذ تهديداتك الأنانية. لن تمضي إلى مكان. لن تذهب إلى أي تاجر من التجار، وستظل بين ذراعيَّ، مستمراً على قبض مرتبك وعلى استقبال أصدقائك الذين لا يُطاقون، كلَّ ثلاثاء. أستودعك الله يا ستيفان تروفيموفتش.

ـ "تقرر المصير، فليكن ما يكون" (باللاتينية).

قال ستيفان تروفيموفتش ذلك، وحيَّاها بانحناءة شديدة، وعاد إلى داره وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

الفصل السادس
بطرس ستيفانوفتش يسعى

1

عُيِّنَ موعد الحفلة نهائياً، ولكن فون لمبكه كان يزداد اكتئاباً وهمّاً. إنه يوجس تنبؤات غريبة مشؤومة، فكان ذلك يقلق جوليا ميخائيلوفنا كثيراً. والحق أن الأمور كانت لا تجري على ما يرام على الحاكم القديم، وهو رجل حليم مفرط في الحلم، قد أدخل في الإدارة شيئاً من الفوضى. ومن جهة أخرى كانت الكوليرا تهدِّد إقليمنا الذي كانت بعض مناطقه قد اجتاحتها أوبئة ذهبت بماشيتها عدا ذلك. وطوال الصيف كله عانت المدينة والأرياف كثيراً من حرائق قالت شائعةٌ سخيفة لكنها شائعة كانت تزداد انتشاراً في الشعب يوماً بعد يوم، أنها من صنع يدٍ مجرمة. وقد تضاعف عدد السرقات في الآونة الأخيرة. وكان ذلك كله يمكن أن لا يُعتبر خطيراً لولا أن هموماً ومشاغل أخرى قد أُضيفت إليه فعكرت هدوء آندره أنطونوفتش الذي حالفه الحظ والتوفيق إلى ذلك الحين.

إن الشيء الذي فجأ جوليا ميخائيلوفنا أكثر من كل ما عداه هو أن زوجها قد ازداد صمته وتكتمه شيئاً بعد شيء. ذلك أمر غريب. هل هناك ما يوجب التكتم حقاً؟ صحيح أنه لا يناقشها ولا يعارضها إلّا نادراً، وأنه في أكثر الأحيان يطيعها طاعةً مطلقة. وقد اتخذ فون لمبكة، خضوعاً لإلحاح زوجته، إجراءين أو ثلاثة إجراءات تشتمل على مجازفة وتكاد تكون غير شرعية، بغية تعزيز سلطة الحاكم. ولهذا الغرض نفسه ارتُكبت مظالم

صارخة: من ذلك أن أناساً يستحقون أن يُحالوا إلى القضاء وأن يُنفوا إلى سيبيريا قد أُعطوا جوائز لا لسبب غير تدخل جوليا ميخائيلوفنا وشفاعتها، ومن ذلك أن شكاوى ومطالب كثيرة قد تقرر أن لا يجاب عنها. هذا كله لم يظهر إلّا فيما بعد. ولم يكن فون لمبكة يوقِّع على كل شيء فحسب، بل كان لا يدهشه أيضاً تدخل امرأته في واجبات عمله وشؤون وظيفته. وفي مقابل ذلك كان يتفق له أن يغتاظ ويحتد فجأةً لأمور "تافهة"، فكان هذا يدهش جوليا ميخائيلوفنا أشد الدهشة. واضح أنه كان يشعر بالحاجة إلى تدارك أيام الطاعة بدقائق تمرد. غير أن من المؤسف أن جوليا ميخائيلوفنا رغم كل ما تتمتع به من ذكاء لم تستطع أن تدرك هذه الرهافة عند رجل مرهف بطبيعته. لقد كان لها، وا أسفاه، هموم أخرى تملأ رأسها! نشأ عن ذلك كثير من سوء التفاهم!

على أن هذه الأمور ليست من شأني، وليس في وسعي أن أجيد الحديث عنها، ولو أردت ذلك. لست أنا من يجب أن يحكم على الأخطاء التي لعلها ارتُكبت في الإدارة. فلأدع الشؤون الإدارية إذن في جانب. لقد كان هدفي حين شرعت في سرد هذه الأحداث غيرَ هذا الهدف تماماً. يُضاف إلى ذلك أن التحقيق الذي يُجرى الآن في إقليمنا سيكشف عن وقائع أخرى أيضاً. يكفي أن ننتظر قليلاً. ومع ذلك يستحيل عليَّ أن أتجنب بعض الإيضاحات.

فها أنا ذا أستمر في الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا. لقد كان في وسع هذه السيدة المسكينة (إنني أرثي لحالها كثيراً) أن تحصل على كل ماكانت ترغب في الحصول عليه وعلى كل ما كان يجتذبها (من مجدٍ وغيره) دون أن تلجأ إلى تلك المكائد الغريبة التي عادت إليها منذ خطواتها الأولى عندنا. غير أنها، سواء أكان ذلك راجعاً إلى فرط خيالها أم كان راجعاً إلى ما لقيت في شبابها من خيبة الآمال، ما إن ابتسم لها الحظ حتى اعتقدت أنها مدعوة إلى تحقيق أمور عظيمة، وحتى شعرت أنها هي السيدة "المختارة المصطفاة" بين جميع السيدات. وطبيعي أن أولئك الذين تملقوا أوهامها ـ وما أكثرهم! ـ كانوا ينالون منها كل ما يريدون فإذا المرأة المسكينة التي كانت تظن في نفسها

استقلال الرأي وأصالة الفكر ألعوبة تتقاذفها شتى المكائد والمؤامرات. إن كثيراً من الناس البارعين قد استطاعوا باستغلال سذاجتها أن يدبِّروا أمورهم الصغيرة في أيام حكمها القصير. ولقد كانت أفكارٌ متعارضةٌ أكبر التعارض متناقضة أشد التناقض تضطرب في رأسها فوضى، مصطبغةً بصبغة الحرية. كانت تبدو، في آن واحد، من أشياع الملكية الكبيرة، والمبادىء الأرستقراطية، وتعزيز السلطات الإدارية، والمثل العليا الديموقراطية، والمؤسسات الجديدة، والنظام، وحربة التفكير، والاشتراكية، وشدة التقيد بآداب الصالونات الأرستقراطية وفرط الإهمال العامي الذي يلاحَظ في الشباب المحيطين بها. كانت تحلم بتحقيق سعادة الجميع، والمصالحة بين من لا سبيل إلى المصالحة بينهم، أو قل كانت تحلم بأن تجمع الناس كافةً على حب شخصها. وكان لها أثيرون تفضِّلهم على غيرهم، وكان بطرس ستيفانوس الذي يؤثر فيها ويتسلط عليها بالتملق المفضوح والمصانعة الكاذبة وغير ذلك من أساليب، يحظى بإعجابها كثيراً. ولكنها كانت تحرص عليه لسبب آخر أيضاً، سبب مضحك، يبرز ملامح شخصية هذه المرأة المسكينة: لقد كان يلازمها أمل قوي بأن هذا الشاب سيكشف لها عن مؤامرة هامة ستدَّبر للدولة. كذلك كانت تتصور مهما يبدُ لكم هذا غريباً. أنها تتخيل، لا أدري لماذا، أن ثمة مؤامرة لا بد أنها تحاك ضد الدولة في إقليمنا، وكان بطرس ستيفانوفتش يساهم في ترسيخ هذه الفكرة الغريبة في ذهنها، تارةً بصمته المليء بالسر، وتارةً بتلميحات متحفِّظة متكتمة. كانت تتصور أن له علاقات بجميع الثوريين، ولكنه من جهة أخرى مخلص لها إخلاصاً يبلغ حدَّ العبادة. فاكتشاف المؤامرة، وامتنان دوائر بطرسبرج العليا، والمناصب العظيمة التي سيستلمها زوجها، وما سوف تحدثه هي نفسها من تأثير في الشبيبة لوقفها عند حافة الهاوية، ذلك كله كان راسخ الجذور في رأسها المشوَّش المضطرب. فما دامت قد أفلحت في إنقاذ بطرس ستيفانوفتش وإخضاعه (لقد كانت مقتنعة بهذا اقتناعاً مطلقاً)، فلتفلحنَّ أيضاً في إنقاذ الآخرين. لن يهلك أحد منهم. لسوف تعرف كيف تعرض الأمور ببطرسبرج

عرضاً من شأنه أن ينقذ الجميع. لن تنقاد إلّا للشعور السامي بالعدالة. وعندئذ سيبارك التاريخ اسمها أخيراً، وقد تباركه اللبرالية الروسية نفسها. وتكون المؤامرة مع ذلك قد كُشفت. فتتحقق جميع الفوائد وتُجنى جميع المنافع في آن واحد.

ولكن ينبغي حتماً، في الحفلة على الأقل، أن يبدي آندره أنطونوفتش وجهاً هادئاً مطمئناً. فلا بد إذن من تهدئته وتسليته. ومن أجل ذلك أسرعت ترسل إليه بطرس ستيفانوفتش آملةً أن يُذهب عنه ما يحسه من إرهاق، وذلك بأن يروي له، على سبيل المثال، أنباء جديدة عن المؤامرة. واعتمدت في هذا على الشاب اعتماداً كاملاً.

كان بطرس ستيفانوفتش قد كفَّ منذ مدة طويلة عن دخول مكتب فون لمبكة. وها هو ذا يدخل الآن على "المريض" وهو في أسوأ حالات اعتكار المزاج.

2

كانت قد وقعت أحداث لم يتوصل السيد فون لمبكه إلى توضيحها لنفسه. من ذلك أن ملازماً ثانياً (في تلك الناحية نفسها التي أقام فيها بطرس ستيفانوفتش حفلةً منذ مدة قصيرة جداً) قد وجَّه إليه رئيسه نوعاً من اللوم بحضور جنود. والملازم شاب صغير نُقل من بطرسبرج إلى هنا منذ فترة وجيزة، وهو صموت عابس متعاظم رغم أنه قصير سمين أحمر الخدَّين. فما كان منه حين لامه رئيسه إلّا أن استشاط غيظاً فهجم على رئيسه خافض الرأس وهو يصرخ صرخةً حادة ذُهل لها جميع أفراد الفصيلة، ثم صفع الرئيس وعضَّه في كتفه عضةً بلغت من القوة أنه لم يمكن تخليص كتف الرئيس من بين أسنانه إلّا بعد عناء كبير. لقد فقد عقله. فذلك أمر لا سبيل إلى الشك فيه. وكانت قد لوحظت عليه في الآونة الأخيرة أمور شاذة كثيرة في الواقع، من ذلك أنه رمى من بيته أيقونتين تملكهما صاحبة الدار، حتى

لقد هشَّم إحداهما بفأس. ومن ذلك أنه رتَّب على بعض المناضد مؤلفات فوجت ومولشوف وبوشنر[1]، فكان في كل مساء يوقد شموعاً أمام هذه الأنواع من مناضد الكنائس التي توضع عليها كتب الصلوات. ولا بد أنه كان رجلاً مثقفاً إذا قضينا في ذلك برأي على أساس عدد الكتب التي وُجدت عنده. ولو ملك خمسين ألف فرنك إذن لربما أبحر مسافراً إلى جزر ماركيز، كما فعل ذلك الفتى الذي يحدثنا عنه هرتسن في أحد كتبه بكثير من الفكاهة[2]. وحين اعتقل عُثر في جيوبه وفي مسكنه على منشورات تدعو إلى التمرد والعصيان والثورة.

الحق أن هذه المنشورات ليس لها في ذاتها شأن، وهي في رأيي لا تستحق أن نتوقف عندها. فما أكثر ما رأينا من منشورات تشبهها! ثم إن المنشورات لم تكن جديدة. فهي نفسها، كما علمنا فيما بعد، كانت قد انتشرت في إقليم س... في الأونة الأخيرة. وقد أكد ليبوتين الذي كان قد سافر إلى الاقليم المجاور قبل ذلك بستة أسابيع، أن هذه الوريقات يتناقلها الناس هنالك. غير أن ما فجأ آندره أنطونوفتش خاصةً هو أن مدير مصنع شبيجولين كان منذ برهة حمل إلى الشرطة حزمتين أو ثلاث حزم من هذه المنشورات، ضُبطت في المصنع وهي مماثلة تماماً للمنشورات التي عثر عليها عند الملازم الثاني. وكانت الحزم ما تزال مربوطةً لم تفضَّ، وما من أحد من العمال كان قد اتسع وقته للاطلاع على هذه الوريقات. والأمر ليس خطيراً على وجه الاجمال. غير أن آندره أنطونيوفتش غرق في تأملات أليمة: لقد بدت له المسألة معقدة تعقيداً مزعجاً.

---

(1) هؤلاء هم الممثلون الثلاثة، للمذهب المادي العامي في ذلك الأوان. فكتاب "رسائل فزيولوجية" (فوجت 1895ـ 1817) وكتاب "القوة والمادة" (لودفيج بوشنر 1899ـ 1824) قد ساهما مساهمة كبيرة في نشر المادية والإلحاد في روسيا بين 1860ـ 1870 وسوف يصف انجلز هؤلاء الكتاب بأنهم "باعة مادية رخيصة".

(2) يحدثنا هرتسن في "مذكراته" أنه قد زاره في لندن سنة 1858 فتى كان مسافراً إلى جزر ماركيز وهو يحمل ثلاثين ألف فِرنك لينشئ هنالك رابطة اشتراكية. والشاب إنما هو في الواقع سيد اسمه بولس باختيف سافر فعلاً إلى نيوزيلانده، ولم يعرف أحد ما صار إليه.

ذلك أن مصنع شبيجولين[1] كان منذ برهة قصيرة مسرحاً لما أُسمي "فضيحة شبيجولين" التي أحدثت في إقليمنا ضجة كبيرة، وأثارت صحف العاصمة جلبةً شديدة حولها كذلك. فمنذ ثلاثة أسابيع مات أحد عمال المصنع بالكوليرا، ثم أعقبت وفاتَه عدةُ وفيات أخرى. فانتشر الرعب بين الناس لا سيما وأن الكوليرا قد ظهرت في الولايات المجاورة. يجب أن نلاحظ من جهة أخرى أن السلطات كانت قد سارعت إلى اتخاذ الإجراءات الصحية اللازمة. ومع ذلك فإن مصنع آل شبيجولين، وهم أناس أغنياء لهم علاقات كبيرة، لم يكن قد زاره أحد المفتشين. لهذا أسرع الناس في المدينة يصيحون أن المصنع موبوء، وأن الأماكن التي يسكنها العمال خاصةً تسودها منذ سنين قذارة تبلغ من الشدة أن الكوليرا حتى إذا لم تكن قد وفدت من الأقاليم المجاورة فمن الجائز جداً أن تكون قد انطلقت من تلقاء ذاتها من مصنع شبيجولين. وقد اتخذت السلطات طبعاً الإجراءات اللازمة، وأشرف آندره أنطونوفتش بنفسه على تنفيذها فوراً. ونُظِّف المصنع في غضون ثلاثة أسابيع. ولكن آل شبيجولين لم يلبثوا أن أغلقوه لا ندري لماذا! كان أحد الأخوين شبيجولين يعيش دائماً ببطرسبرج، وسافر الأخ الثاني إلى موسكو فورَ صدور الأمر بتنظيف المصنع وتطهيره. وقام مدير المصنع بدفع أجور العمال، ولكنه بلغ من قلة الأمانة وكثرة الغش في سداد حقوقهم أن العمال أخذوا يدمدمون متذمرين، مطالبين بأن يحاسَبوا حساباً أعدل. وقد ارتكبوا هذه الخراقة: وهي أنهم ذهبوا إلى الشرطة متجمهرين، دون صخب على كل حال، لأنهم لم يكونوا في حالة اهتياج. وفي تلك الآونة إنما نقل المدير إلى آندره أنطونوفتش المنشورات التي عُثر عليها في المصنع.

دخل بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة عمل الحاكم دون استئذان، بصفته

(1) هذه القصة مستوحاة من واقعة حدثت فعلاً: وهي الإضراب الذي قام به عمال مصنع النسيج (ستيجلتس) في بطرسبرج سنة 1870، إن نحو ثمانمائة عامل قد أعلنوا هنالك الإضراب لأن إدارة المصانع احتجزت جزءاً من أجورهم بينما كانوا يطالبون هم بزيادة الأجور. وقد قدموا عريضة لرئيس الشرطة فزار المصنع، فأحيل ثلاثة وستون عاملاً إلى المحاكمة في شهرِ حزيران (يونيه). إن هذا "الإضراب الأول" الذي انطلق في روسيا قد أحدث أثراً عميقاً ودوياً كبيراً.

صديقاً للمنزل، ولأن جوليا ميخائيلوفنا كانت قد حمّلته عدا ذلك رسالةً إلى زوجها. فلما رأى فون لمبكة صاحبنا الشاب قطَّب حاجبيه ووقف أمام مكتبه عابس الوجه. إنه حتى تلك اللحظة لم يزد على أن يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، متناقشاً مع سكرتيره فون بلومر وهو ألماني أخرق متجهم، كان فون لمبكه قد أتى به من بطرسبرج رغم ما أبدته جوليا ميخائيلوفنا من معارضة شديدة.

ـ آ... ها أنا أقع عليك مع ذلك، يارئيس المدينة الذي لا يراه أحد.

كذلك صرخ بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً، وهو يضع يده على منشور مبسوط فوق المائدة. وأضاف يقول:

ـ هذا سيثري المجموعة التي تملكها، هه؟

احمرّ آندره أنطونوفتش. وتقلّص وجهه فجأة. وصاح يقول وهو يرتجف غضباً:

ـ اترك! اترك هذا كله فوراً. ولا تحسبنْ ياسيد...

ـ ماذا دهاك؟ أرى أنك غاضب، هه؟

ـ اسمح لي أن ألفت نظرك، يا سيد، أنني بعد الآن لن أتسامح بتاتاً في هذا الذي تبيحه لنفسك من "رفع الكلفة" (بالفرنسية)، وأرجوك أن تتذكر...

ـ ياسلام! إنه يتكلم جاداً!

ـ اسكت، اسكت! ولا تحسبنّ...

كذلك صرخ فون لمبكة وهو يقرع الأرض بقدمه.

لا يدري إلّا الله إلى أين كان يمكن أن يمضي هذا! من المؤسف أن هناك، عدا كل ما مرَّ ذكره، أمراً كان بطرس ستيفانوفتش يجهله كل الجهل، وكانت تجهله حتى جوليا ميخائيلوفنا. كان آندره أنطونوفتش المسكين قد بلغ من الاضطراب والبلبلة أنه في الأونة الأخيرة قد تسرَّب إلى نفسه، خفيةً، شيء من الغيرة على امرأته من بطرس ستيفانوفتش. فكان في وحدته، ولا سيما ليلاً، يقضي ساعات شاقة إلى أبعد الحدود.

قال بطرس ستيفانوفتش بشيء من الوقار والرصانة:

ـ ما كان أغباني حين ظننت أن رجلاً يقرأ لي روايته في خلوة، خلال يومين متتاليين، إلى ما بعد منتصف الليل، ويسألني رأيي، إنما يكون قد تنازل عن "الرسميات" معي!... ثم إن جوليا ميخائيلوفنا تستقبلني كما تستقبل صديق حميم... فكيف تريد مني أن لا أحتار؟

ثم أضاف يقول وهو يضع على المائدة دفتراً كبيراً ثقيلاً ملفوفاً على شكل أسطوانة، ومغلفاً تغليفاً كاملاً بورق أزرق:

ـ بالمناسبة، إليك روايتك...

احمرّ وجه فون لمبكة. وسأله متئداً، يفيض من فرح كان عاجزاً عن كظمه ولكنه حاول كظمه بكل ما أوتي من قوة:

ـ أين وجدته؟

ـ تصور!... وجدته ملفوفاً كما هو وقد انزلق وراء منضدة. لا بد أنني حين وصلت إلى البيت قد ألقيته على المنضدة بحركة خرقاء. ولم نجده إلّا أمس الأول، أثناء غسل أرض الغرفة. وما أكثر ما شُغلت به...

خفض فون لمبكة عينيه قاسي الهيئة. وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه:

ـ لم يغمض لي جفن خلال ليلتين بسببك. لقد عثروا عليه أمس الأول، لكنني لم أجئك به، وذلك لأتمكن من قراءته كله. وإذ إنني مشغول في النهار، فقد كنت أقرأ ليلاً. فهل تريد أن تعرف رأيي؟ إنني غير راض عن الفكرة. على أن ذلك لا يهمني، فأنا لم أكن ناقداً في يوم من الأيام. المهم أنني لم أستطع انتزاع نفسي من الكتاب، رغم استيائي منه!... الفصلين الرابع والخامس هما.. هما.. لا أدري بماذا أصفهما! شيء مدهش... وما أكثر ما دسست فيهما من روح الفكاهة والسخرية... لقد ضحكت ضحكاً مجلجلاً. ما أبرعك في التهكم، "دون أن يظهر ذلك" (بالفرنسية)!... أمَّا الفصلين التاسع والعاشر، فليس فيهما إلّا غرام... وهذا لا شأن لي به... غير أن الكتابة مؤثرة... فرسالة أجرنيف كادت تبكيني، رغم أنك صغتها بأسلوب مرهف غاية الرهافة!... مؤثرة... مؤثرة حقاً! وكأنك مع ذلك قد أردت أن تظهرها

بمظهر الزيف، أليس كذلك؟ أحزرت أم لا؟ أما عن النهاية فلا أملك إلّا أن أقول إنك تستحق عليها أن أضربك.

فما الذي تنادي به وتدعو إليه في الواقع؟ إنها لا تزيد على أن تكون ذلك التمجيد القديم للسعادة العامة، وكثرة الأولاد، وسعة الرزق. إنهم يعيشون سعداء ويجمعون أموالاً. سوف تسحر القارئ بهذا الكلام، فأنا نفسي لم أستطع أن أبرأ من التأثر به، ولم أستطع أن أنتزع نفسي من قراءته، فكيف بغيري!... ذلك خطير! إن القراء بسطاء أغبياء. وعلى الأذكياء أن يخرجوهم من حذرهم... أما أنت... ولكن دعنا من هذا الموضوع الآن. إلى اللقاء. أكرر قولي: لا تغضب. لقد جئت لأقول لك كلمتين قد تهمانك، ولكنك الآن مهتاج حانق...

كان آندره أنطونوفتش، في أثناء ذلك، قد أخذ روايته، ووضعها في مكتبة من خشب السنديان أحكم إغلاقها بالمفتاح، وأشار لسكرتيره بلومر أن يخرج. فترك بلومر الغرفة حزين الهيئة مستطيل الوجه.

قال فون لمبكة مدمدماً مظلم الوجه:

ـ لست حانقاً. غير أن هناك مزعجات تنصبّ عليَّ من كل جهة..

ولكن غضبه كان قد هبط. وجلس أمام مكتبه. وأضاف يقول:

ـ اجلس، وقل لي ما تريد أن تقوله. إنني لم أرك منذ مدة طويلة يا بطرس ستيفانوفتش. ولكن يجب عليك بعد الآن أن لا تدخل إلى هنا بهذه الطريقة... تقتحم الغرفة اقتحاماً وتدخلها كهبوب الريح. حين يكون المرء بسبيل القيام بعمل من الأعمال، فإنه أحياناً...

ـ هذه آدابي لم تتغير، وليس لي آداب غيرها...

ـ أعرف. وأنا على يقين من أنك لا تفعل هذا بسوء نية، ولكن حين يكون للمرء هموم كثيرة... اجلس، اجلس.

تهالك بطرس ستيفانوفتش على الديوان، وتربَّع فوراً.

3

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يومئ إلى المنشور بحركة من رأسه:

ـ ما تلك الهموم؟ ألعلها هذه السفاسف؟ إنني قادر على أن أحمل إليك من هذه الوريقات ما شئت. وقد اطلعت عليها أيضاً في إقليم س...

ـ أي أثناء إقامتك في ذلك الإقليم؟

ـ طبعاً. أأطلع عليها إذن أثناء غيابي؟ هناك منشور رُسمت في أعلاه كرمة وفأس. اسمع لي (وتناول المنشور). نعم، توجد هنا فأس أيضاً. هو ذلك المنشور نفسه، تماماً.

ـ فماذا؟ لماذا الفأس تخيفك؟

ـ ليست هي الفأس. ولست خائفاً. ولكن هذه القضية... إن لهذه القضية شأناً... هناك ظروف...

ـ ما هي تلك الظروف؟ ألأن المناشير قد جيء بها من المصنع؟ هئ هئ! ولكن هل تعلم أن العمال في هذا المصنع لن يلبثوا أن يكتبوا بأنفسهم منشورات؟

سأله فون لمبكة وهو يلقي عليه نظرة قاسية:

ـ كيف هذا؟

ـ هكذا! ما عليك إلّا أن تراقبهم. إنك مسرف في اللين يا آندره أنطونوفتش. أنت تكتب روايات، بينما عليك أن تعمد إلى الطريقة القديمة.

ـ ما هي الطريقة القديمة؟ ما هذه النصائح؟ لقد نظفنا المصنع. أمرت بتنظيف المصنع فتمَّ تنظيفه.

ـ والعمال يتحركون ويعصون. يجب جلدهم بالسوط فينتهي كل شيء.

ـ يتحركون ويعصون؟ مستحيل: لقد أمرت بتنظيف المصنع فتمَّ تنظيفه وتطهيره.

ـ هيه يا آندره أنطونوفتش. إنك رجل ليِّن!

قال فون لمبكة حانقاً من جديد:

ـ أولاً لست بالليِّن إلى الحد الذي تتصور، وثانياً...

كان فون لمبكة يتحدث إلى الشـاب في عناء، مسـتطلعاً، لعل الشـاب أن يقول له شيئاً جديداً.

قاطعه بطرس ستيفانوفتش وهو يصوِّب نظره إلى ورقة أخرى تحت كباسة الورق، وهي نوع من منشور أيضاً، كان من الواضح أنه طُبع في الخارج، لكنه صيغ شعراً لا نثراً.

ـ هـا... هذا منشـور آخر مما سـبق لي أن اطلعت عليه بـل حفظته: "بطل يثير الحمية"[1]. أرني قليلًا. أليس هو ذلك المنشور نفسه "بطل يثير الحمية"؟ إنني أعرف هذا المنشور مذ كنت في الخارج. أين عثرت عليه؟

سأله فون لمبكة مصيخاً بسمعه:

ـ تقول إنك اطلعت عليه في الخارج؟

ـ طبعاً. منذ أربعة أشهر بل خمسة.

قال فون لمبكة وهو ينظر إليه نظرة مرهقة:

ـ ما أكثر الأشياء التي رأيتها في الخارج!

لم يُصغ بطرس سـتيفانوفتش إلى كلام فون لمبكة، بل فضَّ الورقة وأخذ ينشد هذه الأبيات بصوت عال:

لم يكن نبيلاً ولا غنياً
بل كان ابناً من أبناء الشعب
طارده انتقام القيصر
واضطهاد أعوانه
لم يخش أن يتعرض للسجن والموت.
ومضى ينادي في الشعب:
حرية، مساواة، أخوة.

---

(1) "بطل يثير الحمية": معارضة لقصيدة نظمها مهاجر اسمه نيقولا أوجاريوف (صديق هرتسن) وأهداها إلى الشاب نتشايف وطبعت بمدينة جنيف سنة 1870 على ورقة مستقلة وأعاد نتشايف طبعها في العدد الثاني من جريدة "عدالة الشعب" الصادرة في جنيف أيضاً، وقد وزعت أثناء محاكمة في موسكو.

بذلك هيأ الثورة

ثم فر إلى الخارج

مفلتاً من زنزانات القيصر

هارباً من سياط الجلاد

واستعد الشعب للثورة

لتحطيم القيد القاتل

من سمولنسك إلى طشقند

وأخد ينتظر عودة الطالب، نابضاً بالحماسة.

انتظره نافد الصبر

ليمضي بعد ذلك بغير تردد

يحطم أعوان السلطان

ويدمر الامبراطورية الروسية كلها

فيجعل الرزق مشاعاً

ويلغي إلى الأبد

الكنائس والزواج

وسائر هذه الشرور المعطلة.

سأل بطرس ستيفانوفتش:

ـ لا شك أنهم وقعوا على هذا عند الضابط، هه؟

ـ غريب! أتعرف أيضاً ذلك الضابط؟

ـ أظـن. لقد قصفنـا ولهونا معاً خلال يومين. كان نصف مجنون منذ ذلك الحين.

ـ من يدري؟ قد لا يكون مجنوناً البتة!

ـ أتقول هذا لأنه يعضُّ الناس؟

ـ ولكن اسمح لي: إذا كنت قد رأيت أبيات الشعر هذه في الخارج، ثم إذا بنا نكتشفها هنا عند ذلك الضابط...

ـ ماذا؟ ماذا تريد أن تقول؟ أهذا استجواب يا آندره انطونوفتش؟

وتابع بطرس ستيفانوفتش كلامه قائلاً بلهجة وقورة فجأة:

- اسمع يا آندره أنطونوفتش: إنني منذ عودتي من الخارج قد قدَّمت إيضاحاتي إلى من يجب تقديمها إليه، وقد عُدَّت تلك الإيضاحات كافية بطبيعة الحال، ما دامت هذه المدينة قد سعدت بأن تعدَّني بين سكانها. فأنا أرى إذن أن تلك الفترة من حياتي قد ختمت، وأن أحداً لا يملك أن يحاسبني بعد اليوم. وأنا كنت قد أنهيت ذلك كله، فلأنني لم يكن في وسعي أن أفعل غير ذلك. ولكنني لست خائناً. إن الذين زوَّدوني برسائل تزكية إلى جوليا ميخائيلوفنا يعرفون ماضيَّ وقد شهدوا لي بأنني رجل شريف. على كل حال، فليذهب هذا كله إلى الشيطان! فأنا إنما جئت لأحدثك في أمر عام، ولقد أحسنت صنعاً إذ صرفت صاحبك بلومر. هو أمر على جانب كبير من الخطورة عندي يا آندره أنطونوفتش: لي مطلب عندك، ورجاء لديك.

- مطلب عندي، ورجاء إليَّ؟ تكلم. إنني أصغي إليك، بل ثق أنني أصغي إليك باهتمام. وعلى وجه العموم، يجب أن أقول لك يا بطرس ستيفانوفتش إنك تدهشني كثيراً.

ظهر على فون لمبكه شيء من الانفعال. واعتدل بطرس ستيفانوفتش في جلسته، مدلّياً ساقيه من تحته، وبدأ يتكلم فقال:

- في بطرسبرج تكلمت بصراحة عن أشياء كثيرة. لكنني كتمت بعض الأمور. ومن الأمور التي كتمتها هذه القصيدة (قال ذلك وهو يشير بإصبعه إلى قصيدة "البطل"). كتمت أمر هذه القصيدة أولاً لأنها لا تستحق الاهتمام بها والكلام عليها، وثانياً لأنني اكتفيت بالإجابة عن الأسئلة التي ألقيت عليَّ. إنني أكره فرط إظهار التحمس في مثل هذه الحالة: وذلك هو في رأيي الفرق بين الخائن وبين الإنسان الشريف الذي تجبره الظروف. على كل حال، دعنا من هذا... المهم أنني الآن... الآن وقد افتضح أمر هؤلاء الأغبياء، وأصبح كل شيء واضحاً، وصاروا بين يديك، وبتُّ أرى أنه لا يمكن إخفاء أمر من الأمور عنك - لأنك رجل ذكي نافذ البصيرة رغم ما يبدو عليك من ذهول - وما داموا مستمرين في.. فإنني.. فإنني.. الخلاصة... إنني جئت لأتوسل

إليك أن تنقذ واحداً منهم... غبياً مثلهم... وربما كان مجنوناً.. أن تنقذه رحمةً بشبابه الغض، ورأفة بما لقي من صنوف الشقاء، واستلهامه لأفكارك الإنسانية... إنني آمل أن لا تكون إنسانياً في رواياتك فحسب...

بهذه الجملة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه بلهجة أصبحت ساخرة على حين فجأة، وكأنه يتعجل الانتهاء من حديثه لفرط نفاد صبره.

كانت هيئته هيئة إنسان صادق لكنه أخرق محروم من الحس العملي، إنسان طيب مسرف في الطيبة، مرهف مسرف في الرهافة، إنسان يمكن أن يوصف خاصةً بأنه غير ذكي، كما أسرع فون لمبكة يقول لنفسه ذلك بما عُهد فيه من نفاد البصر وسداد الرأي، وكما سبق له أن قدَّر هذا منذ مدة طويلة ولا سيما في الأسبوع الأخير، حين خلا إلى نفسه في الليل فأخذ يكيل للشاب أنواع الشتائم متحيراً من ذلك النجاح الذي أصابه الشاب مع زوجته جوليا ميخائيلوفنا.

سأله بفخامة وهو يحاول إخفاء استطلاعه:

ـ من الذي تشفع له، وما معنى هذا كله؟

ـ هو... هو... أو! أهي خطيئتي إذا كنت أثق بك؟ أهي خطيئتي إذا كنت أعدك إنساناً نبيلاً أكمل النبل، وإذا كنت أعدُّك على وجه الخصوص ذكياً... قادراً... قادراً على أن.. تفهم! أوه!.

كان واضحاً أن الشاب المسكين مرتبك لا يعرف كيف يخرج من المأزق الذي تورَّط فيه!

ـ إنني إذا سميته لك فقد فضحته وخنته، أليس كذلك؟ هه؟

ـ ولكن كيف يمكنني أن أعرفه إذا لم تذكر لي اسمه؟

ـ صحيح، صحيح. إنك بمنطقك تفحم كل مجادل، وترد دائماً على كل سؤال. هوه! طيب... إن ذلك "البطل"، ذلك "الطالب" هو شاتوف. ها قد عرفت الآن كل شيء!

ـ شاتوف؟ ماذا تقصد؟

ـ إن الطالب الذي جاءت القصيدة على ذكره هو شاتوف. إنه يقيم هنا. إنه قن قديم. هو ذلك الذي صفع ستافروجين.

قال لمبكة:

ـ أعرف، أعرف. ولكن اسمح لي: ما تهمته، وما هو رجاؤك بشأنه؟

ـ أريد إنقاذه، ألا تفهم؟ إنني أعرفه منذ ثماني سنين.. ولعلني كنت صديقه!

ثم أضاف: ـ ليس عليَّ أن أقدم إليك تقريراً عن حياتي الماضية. كل ذلك لا قيمة له، ولا شأن له ولا خطر. كانوا ثلاثة لا أكثر. وإذا حسبت شركاءهم في الخارج لم يتجاوز عددهم العشرة. ليس الأمر هذا. وإنما المهم أنني أثق بعواطفك الطيبة، وأثق بذكائك المتوقد. فافهم الموقف كما هو، وانقله إلى من ينبغي نقله إليه على حقيقته، ولا تخلق منه قصة ضخمة، ذلك أن الأمر كله لا يعدو أن يكون حلم فتى فاقد صوابه... فتى شقي لاحقه سوء الحظ، وحالفه الشقاء. ليست القضية قضية مؤامرة على أمن الدولة...

كان بطرس ستيفانوفتش كمن يختنق.

قال فون لمبكة بلهجة يكاد يكون فيها فخامة وجلال:

ـ هـمْ... أرى أن له علاقة بقضية المنشورات التحريضية! ولكن اسمح لي: لو كان يعمل وحيداً لما استطاع أن ينشرها هنا، وفي الضواحي وحتى في إقليم س...! ... ثم، وهذا هو الأمر الأساسي، من أين أخذ هذه المنشورات؟

ـ أحقاً لا تعرف؟

ـ كيف يمكنني أن أعرف؟

ـ أنت تعرف مع ذلك أن شاتوف واحد من أفراد العصابة.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يُجري بيده حركة تعبِّر عن نفاد الصبر كأنه يحاول الإفلات مما يتصف به محدثه من براعة وذكاء:

ـ هوه! طيب... اسمع... سأقول لك الحقيقة كلها. إنني لا أعرف شيئاً عن المناشير التحريضية، لا أعرف شيئاً البتة... شيطان يأخذني... هل تفهم معنى هذه الجملة: لا أعرف شيئاً البتة؟ طبعاً... هناك ذلك الملازم الثاني، وربما كان هناك شخص آخر... ثم شخص ثالث هنا... وهناك أخيراً

شـاتوف، ربما... وذلك كله غبـار... ذلك كله عدم... لكنني جئت متشـفعاً لشاتوف. يجب إنقاذه. لأن تلك الأشعار هو التي نظمها، وبعنايته إنما طُبعت في الخارج. ذلك ما أنا موقن منه واثق به. أما المنشـورات التحريضية، فإنني أجهل كل شيء عنها.

ـ إذا كانت الأشعار له، فالمنشورات له أيضاً. ولكن ما هي الأسباب التي تدعو إلى الاشتباه في السيد شاتوف؟

ما إن سـمع بطرس سـتيفانوفتش هذا السؤال حتى ظهر عليه مايظهر على المـرء مـن فقدان الصبـر فقداناً كامـلاً، ثم إذا هـو يخرج محفظـة أوراقه من جيبـه، ويخـرج من المحفظة ورقـة مكتوبة، ويصرخ قائلاً وهـو يرمي الورقة على المائدة:

ـ إليك الأسباب!

فضَّ فون لمبكة الورقة المكتوبة منذ سـتة أشـهر، والمرسلة إلى الخارج، فلم تكن تضم إلّا سطرين:

"لا أسـتطيع أن أطبع هنا لا قصيدة "البطل" ولا أي شـيء آخر فاطبعوا في الخارج.".

رفـع فون لمبكـة عينيه إلى بطرس سـتيفانوفتش وحدَّق إليـه بنظرة ثابتة. صَدَقت فرفارا بتروفنا: ان آندره أنطونوفتش له في بعض الأحيان نظرة كنظرة خروف.

وأسرع بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال:

ـ سأشرح لك. لقد نظم هذه الأبيات هنا منذ ستة أشهر، ولكنه لم يستطع أن يطبعها سراً. فأرسل يطلب طبعها في الخارج. هذا واضح، هه؟

ـ كل الوضـوح . ولكـن إلـى من كتـب رسـالته القصيرة هـذه؟ ذلك غير واضح بعد.

كذلك سأل فون لمبكة بملاحظة مرهفة. فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

ـ إلى كيريلوف طبعاً. الرسـالة بُعثت إلى كيريلوف، في الخارج. ألم تكن تعلـم ذلـك؟ المزعج في حقيقة الأمـر أنك تعبث بي الآن عبثـاً. فأنت مطلع

على هذه القصيدة منذ مدة، وأنت عارف إذن بسائر الأمور الأخرى. ماذا جاء بها هنا إلى مكتبك؟ لقد استطعت إذن أن تضع يدك عليها. فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا تعذبني هذا التعذيب؟

قال ذلك وجعل يجفف بمنديله عرق جبينه بحركة عصبية.

فقال له فون لمبكة موافقاً، متحاشياً أن يجيب عن السؤال الذى ألقاه عليه بطرس ستيفانوفتش:

ـ فعلاً... أعرف بعض الأشياء... ولكن من هو كيريلوف هذا؟

ـ هو ذلك المهندس الذي وصل إلى هنا في الآونة الأخيرة، وكان شاهد ستافروجين في المبارزة. شخص مهووس، مجنون! لعل صاحبك الملازم الثاني إنما أصابته نوبة حمى حارة لا أكثر، أما الآخر، كيريلوف، فهو مجنون حقاً، مجنون تماماً. ذلك أمر أضمنه لك. آه يا آندره أنطونوفتش، لو عرفت الحكومة ما هؤلاء الناس في الواقع لما رفعت يدها عليهم. إنهم جميعاً مؤهّلون لدخول دار المجانين. لقد استطعت، في سويسرا، أثناء انعقاد مؤتمرهم أن ألاحظهم على مهل.

ـ هل هناك يختبئ قادة الحركة؟

ـ قادة الحركة؟ ثلاثة أشخاص في أكثر تقدير. منظر يهلك المرء منه ضجراً وسأماً. وما هذه الحركة؟ وما تلك المناشير التحريضية؟ ومَنْ الشركاء؟ لنتكلم عنهم! ملازمون أولون، وطلاب! إنني أسألك وأنت رجل ذكي كيف لم يستطيعوا أن يضموا ولو شخصية هامة واحدة؟ لماذا يضطرون دائماً إلى الاكتفاء بطلاب وفتيان في العشرين من أعمارهم؟ ثم هل هم كثيرون؟ لقد أرسلوا في ملاحقتهم ألوف الكلاب، فما عدد الذين تم اكتشافهم؟ سبعة أشخاص فقط! قلت لك: منظر يهلك الإنسان منه ضجراً وسأماً!

كان لمبكة يصغي إليه بانتباه. ولكن هيئته كانت كأنها تقول:

"لا يمكنك أن تغذي بلبلاً بأقاصيص"(1).

---

(1) مثل روسي معناه: كفى كلاماً ولننتقل إلى العمل.

قال آندره أنطونوفتش:

ـ اسمح لي: إنك تزعم أن الرسالة قد بُعثت إلى الخارج. ولكنني أرى أنها لا تحمل أي اسم. فكيف أمكنك أن تعرف أنها أُرسلت إلى كيريلوف في الخارج، و... و... أن شاتوف هو كاتبها فعلاً؟

ـ الأمر سهل. احصل على بضعة أسطر من شاتوف، وقارن بين ذلك الخط وخط هذه الرسالة. لا بد أن مكاتبك تضم توقيع شاتوف في ذيل ورقة ما. أمَّا سؤالك عن كيريلوف، فإن كيريلوف هو الذي أطلعني على الرسالة بنفسه.

ـ وإذن فأنت نفسك...

ـ نعم، أنا نفسي، أنا نفسي... كنت أطلع على أشياء كثيرة في الخارج. أمَّا تلك الأشعار، فظهر أن المرحوم هرتسن[1] هو الذي نظمها لشاتوف، بينما كان شاتوف يطوف في الخارج، نظمها ذكرى للقائهما، أو تكريماً لشاتوف، أو نوعاً من التزكية له والتوصية به... أين لي أن أعرف! على كل حال، فإن شاتوف هو الذي نشرها في الناس كأنما ليقول: "انظروا إلى رأي هرتسن فيَّ".

قال لمبكه وقد تخَّيل أخيراً أنه أخذ يرى الأمر رؤية واضحة:

ـ هاه! قلت لنفسي: المناشير، يفهم المرء أمرها... ولكن هذه الأشعار، مامعناها؟

ـ كيف يمكن أن لا تدرك هذا؟ لا أدري لماذا ثرثرت هذه الثرثرة كلها. اسمع. اترك لي شاتوف، وليأخذ الشيطان سائر الآخرين، ومنهم كيريلوف الذي يختبئ عند فيليبوف حيث يختبئ شاتوف أيضاً. إنهم غاضبون عليَّ، لأنني رجعت... ولكن اترك لي شاتوف، وسأقدمهم إليك جميعاً على طبق واحد. إن في وسعي أن أفيدك يا آندره أنطونوفتش. رأيي أن عصبتهم التعيسة الصغيرة لا يزيد عددها على تسعة أفراد أو عشرة. إنني أطاردهم لمصلحتي

---

(1) المرحوم هرتسن: معروف أن ألكسندر هرتسن قد مات بباريس في 21 كانون الثاني (يناير) 1870.

الشـخصية. نحن نعرف منهم حتى الآن ثلاثة: شـاتوف، وكيريلوف، وذلك الملازم الثاني. أمَّا الباقون فإنني "أفحصهم" من قرب. ولسـت حسير البصر تماماً. الأمر كما في اقليم س... لقد قبضوا هنالك أثناء توزيع المناشير على طالبين، وتلميذ في مدرسة ثانوية، وولدين لأسرة من الأسر، ومعلّم مدرسة، وميجر محال على التقاعد كان الإدمان على السكر قد أصابه بخبال في عقله. ذلك كل شيء. صدِّقني. حتى لقد دُهشوا هنالك كثيراً. ولكنني أحتاج إلى ستة أيام. لقد أجريت حساباتي، فانتهيت إلى أنني محتاج إلى ستة أيام، لا تقل يوماً واحداً. فإذا أردت أن تحصل على نتيجة فلا تفعل شيئاً قبل ستة أيام، ولسوف أُسلمك إياهم في كيس واحد. أما إذا تدخلت قبل ذلك، طارت العصافير فوجدت العش خالياً. ولكن اترك لي شاتوف. أنا أدافع عن شاتوف. ولعل الأفضل أن يُستدعى إلى هنا سراً فيُستقبل في هذه الحجرة كما يُستقبل صديق، ويستجوب ببراعة وحذق، فترفع أمام عينيه جميع الحجب، فإذا هو يهوي على قدميك باكياً. أنا من هذا على يقين. إنه رجل عصبي، بائس. امرأته تلهو مع ستافروجين. استقبله استقبالاً حسناً. أكرم وفادته، فيكشف لك عن كل شيء... ولكن يجب عليك أن تنتظر ستة أيام. وإياك خاصةً أن تقول كلمة واحدة لجوليا ميخائيلوفنا. التزم الكتمان الكامل. احفظ السر حفظاً تاماً. أتستطيع أن تكتم سراً؟

ـ ماذا؟ ألم تقل أنت شيئاً لجوليا ميخائيلوفنا؟

كذلك صاح لمبكة متعجباً محملقاً. فأجابه بطرس ستيفانوفتش:

ـ لها هي؟ وقاني الله شرَّ هذا! آه يا آندره أنطونوفتش! إنني أحرص كثيراً على صداقتها وأضمر لها احتراماً عظيماً... وما شئت... ولكنني سأعرف دائماً كيف أصون نفسي من ارتكاب هذه الغلطة. إنني لا أعارضها، وأنت نفسك تعلم أن معارضتها خطر كبير. لعلني قد دسست في حديثي لها إشارةً ما، لأنها تحب ذلك كثيراً. أمَّا أن أسمِّي لها أشخاصاً بأعينهم، كما أفعل معك أنت، أو أن أنقاد لشيء من هذا القبيل، فاللهم لا!... لماذا أتجه إليك أنت الآن؟ لأنك رجل رغم كل شيء، رجل جاد يملك خبرة واسعة أكسبته

إياهـا المهنـة. إنك قد رأيت في حياتك كثيراً! وأحسـب أنك في هذه الأنواع مـن الأمور تسـتطيع أن تتنبأ بكل خطوة من خطواتك علـى غرار الأمثلة التي وقعـت تحت بصرك في بطرسـبرج. أمَّـا إذا ذكرت هذين الاسـمين لها هي، أسـرعت تذيعهما في كل مكان قبل كل شـيء! ذلك أنها من هنا إنما تريد أن تثير دهشة بطرسبرج. لا، لا، إنها مسرفة في الانقياد لحرارة الحماسة!

دمدم آندره أنطونوفتش يقول بشيء من الرضى، على استيائه من أن يتجرأ هذا الشاب الطائش فيقول مثل هذا الكلام عن جوليا ميخائيلوفنا:

ـ نعم، إنها تتصف بشيء من هذا الاندفاع العارم...

ولكن لعل بطرس ستيفانوفتش قد أحسَّ أنه لم يقل ما فيه الكفاية فأراد أن يزيد في تملق لمبكة ليستولي عليه استيلاء أكمل، فقال:

ـ نعـم، تماماً، إنهـا تتصف بكثير من هذا الاندفاع العـارم. قد تكون امرأة عبقرية، وامرأة مثقفة، لكنها إذا تدخلت في الأمر أطارت العصافير من عشها. لن تسـتطيع أن تصمد لإغراء الكلام سـتة أيام ولا ست ساعات. آ... يا آندره أنطونوفتش، لا تطلب من امرأةَ من النسـاء أن تنتظر ستة أيام. آمل أن تعترف بـأن لي شـيئاً من الخبرة، فـي مثل هذه الأمور على الأقـل. إنني أعرف بعض الأشـياء، وأنت لا تجهل أنني قادر على أن أعرف بعض الأشـياء. وإذا كنت أسـتهلك ستة أيام، فليس ذلك نزوة مني، بل إجراء يقتضيه الموقف وتحجبه الظروف.

بدأ فون لمبكة يتكلم فقال بغير تردد:

ـ سـمعت أنك حين عدت من الخارج قد أعربت لمن يجب أن تعرب له عن ذلك، أقول أعربت له عن... ندمك وتوبتك إن صح التعبير.

ـ ما شأن التصريحات التي أدليت بها حينذاك؟

ـ أنا لا أحب التدخل طبعاً. ولكن كان يبدو لي دائماً أنك تتكلم هنا بلهجة أخرى مختلفة كل الاختلاف، عن الدين مثلاً، وعن المؤسسات الاجتماعية، وعن الحكومة أخيراً...

ـ أي ضير في هذا؟ إنني ما زلت أفكر هذا التفكير نفسه. غير أن هذه الآراء

يجب تطبيقها على غير النحو الذي يتصوره أصحابنا الأغبياء هؤلاء. تلك هي المسألة كلها. ما قيمة أن أعضَّ رجلاً في كتفه؟ أنت نفسك قد وافقتني على آرائي، ولكنك قلت إن الأوان لم يئن بعد.

ـ كان الموضوع عندئذ غير هذا تماماً.

قال بطرس ستيفانوفتش ضاحكاً:

ـ هئ هئ!... أرى أنك رجل حذر متروٍّ يزن كل كلمة من كلماته. اسمع يا عزيزي. لقد كان عليَّ أن أعرفك معرفة أدق وأكمل، ومن أجل ذلك كنت أكلمك بتلك اللهجة. ولستَ الإنسان الوحيد الذي تعلمت كيف أعرفه بهذه الطريقة. لعلني أردت أن أعرف طبعك!

ـ ما حاجتك إلى معرفة طبعي؟

ـ أين لي أن أعرف!!...

وعاد بطرس ستيفانوفتش يضحك. واستطرد يقول:

ـ اسمع يا عزيزي المحترم جداً آندره أنطونوفتش. إنك رجل ماكر، ولكن ليس هذا موضوع اهتمامي بعد، وقد لا أصل إليه يوماً. هل تفهم؟ لعلك قد فهمت! صحيح أنني حين عدت إلى بطرسبرج قدمت معلومات وإيضاحات إلى الجهة التي يجب أن تُقدَّم إليها تلك المعلومات والإيضاحات. ولست أدري حقاً لماذا لا يجوز لإنسان له اقتناعات صادقة أن يفعل ما فعلت، خدمةً لاقتناعاته هذه. ومع ذلك فما من أحد "هناك" قد كلفني بأن أدرس طبعك، وأنا على وجه العموم لم أكلف نفسي حتى الآن بمهام من هذا النوع. انظر في الأمر بنفسك: إن هذين الاسمين اللذين كشفت لك عنهما، كان في وسعي أن لا أذكرهما لك أنت أولاً، وإنما أبعث بهما إلى "هناك" رأساً، أي إلى الجهة التي قدمت إليها المعلومات والإيضاحات الأولى. ولو كنت أسعى إلى نيل مكافأة أو جني نفع مادي لعمدت إلى ذلك حتماً، أمَّا الآن فإن بطرسبرج ستوجه شكرها وامتنانها إليك أنت. ولكنني إنما أتدخل من أجل شاتوف (كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بنبل)، من أجله وحده، وفاء

لذكرى صداقتنا القديمة... على أنك إذا أمسكت بالقلم لتكتب إلى "هناك" فلك أن تكيل لي المديح إن شئت، فلا اعتراض لي على هذا. هئ هئ!... أستودعك الله! لقد استهلكت من وقتك مدة طويلة. ما كان ينبغي لي أن أثرثر هذه الثرثرة كلها...

بذلك ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه وهو يبتسم ابتسامة رضى، وينهض عن الكنبة. فأجابه فون لمبكة بمودة، ناهضاً هو أيضاً:

ـ بالعكس. لقد سرَّني كثيراً أن الأمور اتضحت.

كان واضحاً أن الكلمات الأخيرة التي قالها محدِّثه قد أحدثت في نفسه أثراً حسناً. وأردف يقول:

ـ إنني أقبل خدماتك شاكراً ممتناً. وثق أن كل ما يقع على عاتقي من إشارة إلى همتك ونشاطك وحماستك سوف...

ـ ستة أيام فقط. أمهلني ستة أيام. وحذار أن تتحرك في أثناء هذه المدة. ذلك كل ما يجب.

ـ حسن جداً.

ـ إنني لا أكبِّل يديك طبعاً، وما كان لي أن أسمح لنفسي بهذا. إنك لا تستطيع العدول عن القيام بما تقوم به من بحث وتقصٍ. ولكن كل ما أطلبه منك هو أن لا تروِّعهم قبل الموعد المناسب. إنني أعتمد في هذا على ذكائك وخبرتك. آه... لا بد أن عندك كلاباً من كل نوع! هئ هئ!...

هكذا أنهى بطرس ستيفانوفتش كلامه بمرح ظاهر ولهجة هي لهجة شاب قليل المبالاة. فأجابه فون لمبكة متحفظاً ولكن على لطف ومودة:

ـ ليس الأمر كذلك تماماً. إن للشبيبة آراء مغالية في هذا الموضوع... ولكن بالمناسبة، هناك أمر آخر: إذا كان ستافروجين قد استعان بكيريلوف شاهداً في المبارزة، فمعنى ذلك أن ستافروجين، هو أيضاً...

ـ ماذا؟

ـ صديقين حميمين؟

ـ أوه! لا، لا، لا! هنا ترتكب خطأً جسيماً، رغم كل ما تتصف به من حذق

ومكر، بل إنك لتدهشني. كنت أظن أنك مطلع على مايتعلق بهذا الأمر... همْ... إن ستافروجين هو النقيض، تماماً.

قال لمبكة غيرَ مصدِّق:

ـ أهذا ممكن؟ أهذا ممكن؟ لقد قالت لي جوليا ميخائيلوفنا إن المعلومات التي وصلت إليها من بطرسبرج تفيد أن ستافروجين قد يكون مكلفاً بنوع من مهمة...

ـ لا أعرف شيئاً! لا أعرف شيئاً البتة! لا أعرف شيئاً على الإطلاق! أستودعك الله!

كذلك قطع بطرس ستيفانوفتش الحديث على حين فجأة، راغباً رغبةً واضحة في الاكتفاء بهذا الحد. وركض نحو الباب.

فصرخ الحاكم يناديه قائلاً:

ـ لحظة يا بطرس ستيفانوفتش، لحظة أخرى! هناك مسألة صغيرة، ثم أدعك تنصرف.

فتح فون لمبكة درجاً، وأخرج منه ظرفاً. ومدَّ الظرف إلى بطرس ستيفانوفتش قائلاً له:

ـ إليك عيِّنة من هذا النوع نفسه. إنني إذ أطلعك على ذلك أبرهن لك على ثقتي بك. خذ. قل لي رأيك.

كان الظرف يضم رسالةً، غريبة جداً، غير مذيلة بتوقيع، موجهة إلى فون لمبكة الذي استلمها أمس.

فقرأ بطرس ستيفانوفتش الأسطر التالية ممتعضاً أشد الامتعاض:

"صاحب المعالي،

"مادام هذا لقبك. أنهي إلى علمك في رسالتي هذه أنه يتهيأ الآن تآمر على حياة شخصيات كبيرة وعلى الوطن. كل شيء يتجه إلى هذه الغاية. أنا نفسي وزعت منشورات تحرِّض على الثورة خلال سنين، وتحض على الزندقة. هناك فتنة تُحضَّر. ألوف المنشورات التحريضية يكفي كل واحد منها لإثارة مئات من الأفراد الذين سيركضون لاهثين إذا لم تتدخل

السلطات سلفاً. ذلك أن هناك مكافآت ضخمة موعوداً بها. والشعب غبي. وهناك الخمرة أيضاً. ولخوفي من هؤلاء وأولئك على السواء، فإنني نادم على أخطاء لست مسؤولاً عنها في الواقع، لأن الذنب ذنب الظروف. فإذا كنت تريد أن أشي لك بالأمور حفاظاً على الوطن، وعلى الكنائس والأيقونات أيضاً، فإنني الشخص الوحيد القادر على ذلك بشرط أن ترسل إليَّ الشعبة الثالثة[1] برقية سريعة تبلغني فيها العفو عني، ولكن عني وحدي. أمّا الآخرون فيجب أن يحالوا إلى المحاكم. فإذا كنت موافقاً على هذا فلتكن الإشارة المتفق عليها بيننا هي التالية: ضع في الساعة السابعة من كل مساء شمعة مشتعلة على نافذة البواب. فمتى اطمأنت نفسي لرؤيتها جئت أقبل اليد الرحيمة التي ستمدها إليَّ بطرسبرج. ولكن على شرط أن يُخصَّص لي راتب، وإلا فكيف أعيش؟ ولن تندم على هذا، لأنك ستنال وساماً. ولكن عليك بالصمت وإلا دقوا عنقي! إنني أرتمى على قدمي معاليك.

"الزنديق اليائس التائب: مجهول"

وذكر فون لمبكة أن الرسالة وُجدت في شرفة البواب، وكانت قد وضعت فيها أثناء غيابه.

فقال بطرس ستيفانوفتش يسأله بغلظة:

ـ فما رأيك؟

ـ يخيَّل إليَّ أن كاتب الرسالة رجل أراد أن يسخر مني.

ـ قد يكون الأمر كذلك. أنت رجل لا تُخدع!

ـ ومما يقوى ظني هذا أن في الأمر غباء شديداً بالفعل.

ـ هل سبق أن تلقيت رسائل من هذا النوع؟

ـ واحدة أو اثنتين، بدون اسم المرسل أيضاً.

ـ طبعا. لا يذكر المرسل اسمه. وهل الأسلوب والخط واحدان في هذه الرسائل جميعاً!

---

(1) "الشعبة الثالثة" من مكاتب الامبراطور هي الدائرة التي تهتم بالشؤون السياسية وتلاحق الثوريين.

ـ لا. إنها تختلف أسلوباً وخطاً.

ـ وهل هي سخيفة كهذه؟

ـ نعم، سخيفة... وحقيرة.

ـ إذا كانت من نوع واحد، فمن الجائز أن تكون الأخيرة صادرة عن نفس المصدر.

ـ لا سيما وأن فيها غباءً مفرطاً. أولئك رجال أذكياء لا يمكن أن يكتبوا ترهات كهذه حتماً.

ـ طبعاً.

ـ ولكن ماذا لو كان الأمر أمر وشاية فعلاً؟

قال بطرس ستيفانوفتش بلهجة خشنة:

ـ هذا بعيد عن الاحتمال. وإلا فما تلك البرقية المطلوبة من الشعبة الثالثة؟ وما ذلك الراتب؟ واضح أن الأمر تهريج!...

قال لمبكة وهو يشعر بالخجل من هذه الشبهات التي راودته:

ـ إنك على حق.

ـ اسمع. أعطني الرسالة فأكتشف لك كاتبها حتى قبل أن أسلّمك الآخرين.

قال فون لمبكة موافقاً بشيء من تردد:

ـ خذها.

ـ هل أطلعت عليها أحداً؟

ـ لا، لا، إطلاقاً!

ـ أقصد هل أطلعت عليها جوليا ميخائيلوفنا؟

ـ وقاني الله شر هذا! ثم إنني أستحلفك أن لا تطلع عليها أحداً.

كذلك صاح الحاكم يقول مرتاعاً. وأردف:

ـ لو أطلعتها عليها لاضطربت اضطراباً شديداً، ولغضبت مني غضباً رهيباً...

ـ نعم، لو اطلعت عليها لآخذتك أنت أولاً، ولقالت إن الذنب ذنبك حين يتجرأ أحد فيسمح لنفسه أن يكتب إليك بهذه الطريقة. منطق النساء معروف. طيب. أستودعك الله. قد أُعلمك اسم كاتب هذه الرسالة في غضون ثلاثة أيام. تذكر ما اتفقنا عليه.

4

قد لا يكون بطرس ستيفانوفتش غبياً أحمقاً، ولكن صَدَق السجين فدكا حين قال عنه "إنه يرى الناس في الصورة التي يرسمها عنهم خياله، ومع هؤلاء الناس إنما يعيش".

ولقد ترك الآن فون لمبكة وهو مقتنع اقتناعاً جازماً بأن فون لمبكة قد هدأ ستة أيام على الأقل، وهي المهلة التي كان في حاجة إليها. والحق أن هذه الفكرة خطأ، ولا تقوم إلّا على الصورة التي رسمها خيال الشاب عن آندره أنطونوفتش والتي تصوِّره أنه رجل أهبل.

الواقع أن آندره أنطونوفتش، كسائر الرجال الوجلين الريَّابين قد امتلأ في أول الأمر ثقةً بهذا الذي أخرجه من الشك، وفرح فرحاً كبيراً، وبدا له الموقف، بعد انصراف بطرس ستيفانوفتش، في صورة مُطَمئْنة رغم التعقيدات والمتاعب التي قد تنشأ عنه لاحقاً. مهما يكن من أمر، فقد تبدَّد ما كان يراوده من شكوك وما كان يساوره من أنواع القلق والتردد. وإلى الراحة إنما كانت تتوق نفسه خاصةً، لأنه يشعر منذ بضعة أيام بأنه متعب مرهق منهك القوى. ولكن طمأنينته لم تطل وا أسفاه! إن إقامته الطويلة ببطرسبرج قد تركت في نفسه آثاراً لا تمَّحي. لقد كان يعرف التاريخ الرسمي بل والسري "للجيل الجديد"، لأنه كان رجلاً طُلعةً، وكان يجمع المناشير التحريضية غير أنه لم يفهم منها شيئاً في يوم من الأيام. وهو يحس الآن أنه ضائع تماماً. إن غريزته توحي إليه أن إيضاحات بطرس ستيفانوفتش تشتمل على شيء بعيد عن الاحتمال، شيء مناقضٍ لجميع الأشكال والأعراف. وكان يحدث نفسه قائلاً في حيرة وارتباك: "مع ذلك فإن الشيطان وحده

يعرف ما يمكن أن يحدث في هذا "الجيل الجديد"، والشيطان وحده يعرف كيف تجري الأمور!".

وإنه لغارق في هذه التأملات والأحلام إذ أطل عليه رأس بلومر من ثقب الباب. إن بلومر لم يترك الغرفة المجاورة طوال مدة زيارة بطرس ستيفانوفتش. يجب أن نذكر أن بلومر هذا يمت بقرابة إلى آندره أنطونوفتش، قرابة بعيدة طبعاً حرص فون لمبكة طوال حياته على أن يكتم أمرها ويسكت عنها وجلاً. وإني لأستميح القارئ عذراً إذا أنا قلت كلمات عن هذه الشخصية التافهة. إن بلومر واحد من تلك الفئة الغريبة من الألمان "العاثري الحظ"، لا بسبب عجزه الخارق، بل بدون سبب ظاهر على وجه الإجمال.

إن الألمان "العاثري الحظ" ليسوا خرافة: إنهم يوجدون فعلاً حتى في روسيا، ويؤلفون جنساً على حدة. ولقد عطف فون لمبكة دائماً على بلومر عطفاً كبيراً، وكان يشد أزره ويدعمه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً أثناء ارتقائه على سلَّم المجتمع، محاولاً أن يجد له وظيفة صغيرة في مكتب من مكاتبه. ولكن بلومر كان قليل الحظ. فتارةً تلغى وظيفته فجأة، وتارةً يتغير رؤساؤه، حتى لقد أوشك ذات مرة أن يُحال إلى القضاء مع موظفين آخرين. وهو موظف مخلص لعمله دؤوب مجتهد، غير أن وجهه المتجهم دائماً كان يسيء إليه أكبر الإساءة. إنه طويل القامة محدودب الظهر أحمر اللون، حزين النفس بل وعاطفي الطبع، وهو رغم مذلّته عنيدٌ عنادَ بغل، معارض دائماً. وكان هو وامرأته وذريته الغفيرة يحملون لآندره أنطونوفتش شعوراً بالشكر يبلغ حدَّ العبادة. وما من أحد أحبه في يوم من الأيام إلّا فون لمبكة. وقد كرهته جوليا ميخائيلوفنا منذ اللحظة الأولى، لكنها لم تستطع أن تحطم مقاومة زوجها. كانت تلك أول مشاجرة بين الزوجين. حدث هذا بعد الزواج على الفور تقريباً، أثناء الأيام الأولى من شهر العسل. لقد اكتشفت جوليا ميخائيلوفنا وجود بلومر فجأةً، وكان مختفياً حتى ذلك الحين واكتشفت في الوقت نفسه ذلك السر المخجل وهو أن بينه وبين زوجها صلة قرابة. وقد استغفرها آندره

أنطونوفتش متوسلاً ضارعاً ضاماً يديه إحداهما إلى الأخرى، وقصَّ عليها بطريقة عاطفية مؤثرة قصة بلومر كلها وقصة صداقتهما التي ترجع إلى عهد الطفولة، لكن جوليا ميخائيلوفنا رأت أن شرفها قد تلطخ بالعار إلى الأبد، حتى عمدت إلى الإغماء مرةً بعد مرة. ومع ذلك ثبت فون لمبكة ولم يتزحزح عن موقفه، وأعلن لزوجته أن لا شيء يمكن أن يحمله على هجر بلومر، فلم تملك الزوجة رغم دهشتها الشديدة واستغرابها القوي إلّا أن ترضخ للأمر الواقع وأن تقبل بلومر. ولكن تم الاتفاق بين الزوجين على أن تظل القرابة سراً مكتوماً، وأن يُكتفى من اسمه باسم بلومر، وهو اسم أسرته، أما اسمه واسم نسبته إلى أبيه فلا يجيء أحد عليهما بذكر، إذ شاءت المصادفة أن يكون اسمه واسم نسبته إلى أبيه هما آندره أنطونوفتش أيضاً. وحين وصل بلومر إلى مدينتنا لم يزر أحداً، ولم يعاشر إلّا صديقاً ألمانياً، وعاش حياة ضيقة منزوية. وكان منذ مدة طويلة على علم بعيوب لمبكة المتعلقة بميله إلى الأدب، حتى لقد أصغى إليه وهو يقرأ عليه روايته في خلوة، فكان بلومر أثناء تلك الجلسات التي ربما دامت في بعض الأحيان ست ساعات متتالية، كان يبقى جالساً جامداً متصلباً كأنه وتد مغروز في الأرض، يتصبب عرقه قطرات كبيرة، ويبذل جهوداً مستميتة في سبيل أن لا ينام، وفي سبيل أن يحافظ على هيئة اللطف والمودة. حتى إذا رجع إلى البيت أخذ يبكي مع زوجته، وهي امرأة طويلة يابسة، تألماً على هذا الإنسان المحسن إليهما كيف يُشغف بالأدب الروسي هذا الشغف المشؤوم.

ألقى آندره أنطونوفتش على بلومر نظرة تفيض بالألم، وقال له متعجلاً رافضاً رفضاً واضحاً أن يستأنف الحديث الذي قطعه عليهما وصول بطرس ستيفانوفتش منذ حين:

ـ دعني هادئاً يا بلومر، دعني وشأني، أرجوك.

فقال بلومر مصراً بعناد فيه احترام:

ـ إن الأمر يمكن أن يتم على نحو خفي مرهف. ألست تتمتع بسلطات كاملة؟

ـ إنك تبلغ من الإخلاص لي والاستعداد لخدمتي أنني لا يسعني إلّا أن أخاف منك كلما نظرت إليك.

ـ أنت دائماً تقول أشياء ذكية ثم تنام بعد ذلك هادئ البال راضياً عن أقوالك، ولكن هذا بعينه ما يلحق بك الضرر ويسيء إليك.

ـ لقد أدركت منذ هنيهة أن الأمر ليس ذاك، ليس ذاك قط.

ـ أتكون شكوكك قد نشأت عن تصديقك هذا الشاب الكاذب المنحط؟ لقد استولى عليك بامتداح موهبتك الأدبية.

ـ إنك لا تفهم شيئاً. مشروعك سخيف. أقول لك إن مشروعك سخيف. لن نعثر على شيء، ولكن الفضيحة ستكون رهيبة. سيسخر منا الناس وسيضحكون علينا. ثم إن جوليا ميخائيلوفنا...

ـ سنعثر حتماً على كل ما نبحث عنه وسنجد كل ما نسعى إليه.

كذلك أجاب بلومر وهو يضع يده اليمنى على قلبه، ويقترب من فون لمبكه مزيداً من الاقتراب. واستطرد يقول:

ـ سوف نقوم بالتفتيش فجأة، في ساعة مبكرة من الصباح، ملتزمين أكبر لطف ورقّة في معاملة الشخص الذي أعنيه، ولكنا نطبق القانون أيضاً تطبيقاً صارماً. إن هناك شباباً ـ مثل ليامشين وتلياتنيكوف ـ يؤكدون أننا سنضع أيدينا على كل ما نحن باحثون عنه. لقد ذهبوا إلى السيد فرخوفنسكي مراراً كثيرة. ما من أحد يقيم للسيد فرخوفنسكي أي وزن. إن السيدة ستافروجين قد حجبت عنه حمايتها، وحرمته من أية حظوة لديها، وإن كل إنسان شريف، إذا كان بين سكان هذه المدينة الأفظاظ الغلاظ إنسان شريف، مقتنع اقتناعاً تاماً بأن الزندقة والاشتراكية إنما منبعهما هناك. إن السيد فرخوفنسكي يحتفظ في بيته بجميع الكتب المحظورة، مثل "أفكار" ريلايف[1]، وهو يملك مؤلفات هرتسن الكاملة... وقعت مصادفة على قائمة كاملة تقريباً...

ـ هه! هذه الكتب موجودة لدى جميع الناس! ما أشد سذاجتك يا عزيزي

---

(1) كان كوندراتي ريلايف شاعراً ذا موهبة كبيرة، وقد نشر سنة 1825 ديواناً من الشعر يضم قصائد تاريخية، بعنوان "أفكار" وهي قصائد تستلهم روحاً وطنية ليبرالية. وبعد إعدام ريلايف سنة 1826، بصفته أحد قادة ثورة ديسمبر، إنما منعت الرقابة آثاره.

المسكين بلومر!

تابع بلومر كلامه دون أن ينتبه أي انتباه إلى هذه الملاحظة فقال:

ـ وعدداً كبيراً من المنشورات التحريضية. سوف نهتدي في آخر الأمر حتماً إلى المصدر الذي تصدر عنه هذه المنشورات المتداولة هنا. إن اشتباهي في هذا الشاب فرخوفنسكي قد قوي واشتد!

ـ أنت تخلط بين الأب والابن. إنهما على غير وفاق. العلاقات بينهما سيئة. الابن يتهكم على أبيه ويسخر منه علانية.

ـ ما هذا إلّا تمثيل!

ـ أتراك آليت على نفسك أن تميتني! هلاّ فكرت قليلاً. إن فرخوفنسكي شخصية هامة هنا. ولقد كان أستاذاً. هو رجل معروف. سوف نثيرها فضيحة. ستهزأ بنا المدينة كلها. وسوف يُفلت منا الآخرون جميعاً... ثم هلاّ فكرت فيما سوف تقوله جوليا ميخائيلوفنا!

غير أن بلومر ظل يصر في عناد، ولا يريد أن يسمع شيئاً وأن يفهم شيئاً. قال وهو يلطم صدره بيده:

ـ لم يكن أستاذاً، وإنما كان مكلفاً بإلقاء دروس. لم يكن إلّا في رتبة معيد. ولم يظفر بأي لقب فخري. وقد طُرد من الوظيفة لأن السلطات اشتبهت فيه واتهمته بالتحريض على الثورة. وهو منذ ذلك الحين تراقبه الشرطة سراً. ولما كانت تُهيأ هنا اضطرابات فإن من واجبك أن تتدخل. ولكنك تفوِّت الفرصة فتحرم نفسك من التميز باكتشاف المجرم الحق.

ـ هذه جوليا ميخائيلوفنا آتية! امضِ يا بلومر، امضِ!

كذلك صاح آندره أنطونوفتش حين سمع صوت امرأته في الغرفة المجاورة على حين فجأة.

ارتعش بلومر، ولكنه لم يستسلم. قال ملحاً وهو يضغط على صدره بكلتا يديه مزيداً من الضغط:

ـ دع لي أن أتصرف. دع لي أن أتصرف.

ـ امضِ! امضِ! افعل ما شئت... فيما بعد! هوه!

كذلك كرر فون لمبكة بصوت صافر.

وفُتح الباب وظهرت جوليا ميخائيلوفنا في العتبة. فلما رأت بلومر توقفت في فخامة وجلال، ورشقته بنظرة فيها احتقار وفيها غضب، كأن مجرد وجود هذا الشخص إهانة لها. فحيَّاها بلومر بصمت، منحنياً انحناء شديداً حتى كاد ينثني نصفين من شدة الاحترام، ثم اتجه نحو الباب سائراً على رؤوس الأصابع مباعداً ذراعيه قليلاً.

سواء أكان بلومر قد فهم من صيحة آندره أنطونوفتش الحانقة أنه أجاز له أن يتصرف كما يشاء، أم كان قد قرر أن لا يحفل برأي صاحبه هذا المحسن إليه، وذلك في سبيل مصلحة صاحبه نفسها ولاقتناعه بأن النجاح سوف يبرر الجرأة، فالمهم أن هذه الحادثة بين الحاكم ومرؤوسه قد كانت لها، كما سنرى فيما بعد، نتيجةٌ لم تدر في خلد أحد ولا توقّعها أحد، نتيجة سلَّت كثيراً من الناس، وأحدثت ضجة كبيرة، وأحنقت جوليا ميخائيلوفنا، وبلبلت أفكار آندره أنطونوفتش إذ هوت به في أحرج لحظة إلى شلل في الإرادة يرثى له.

5

كان ذلك اليوم من أيام بطرس ستيفانوفتش حافلاً بأعمال كثيرة يجب عليه أن يقوم بها. إنه حين خرج من عند فون لمبكه أسرع يسير إلى شارع أبيفانا راكضاً، ولكنه حين مرَّ أمام المنزل الذي يقيم فيه كارمازينوف بشارع "الأبقار"، توقف فجأة، وابتسم ودخل، فقال له الخادم إن "مولاه ينتظره"، فدُهش من ذلك دهشةً كبيرة، لأنه لم يكن قد أنبأ كارمازينوف بأنه سيزوره.

ولكن الكاتب الكبير كان ينتظره فعلاً منذ أمس، بل منذ أمس الأول. لقد أعطى بطرس ستيفانوفتش، قبل ثلاثة أيام، مخطوطة قصيدته "شكراً" (التي كان يتأهب لإلقائها في الصبيحة الأدبية التي تحضّرها جوليا ميخائيلوفنا). وهو إذ أعطاه إياها قد اعتقد أنه يتلطف معه، لاقتناعه بأنه إذ يتيح لهذا الشاب أن يطلع قبل سائر الناس على عمل أدبي يبلغ هذا المبلغ من علو الشأن إنما

يرضي غرور الشـاب. وكان بطرس ستيفانوفتش قد لاحظ منذ مدة طويلة أن هذه الشـخصية الكبيرة المعجبة بنفسـها، المحبة للظهور، التي أغرقها الناس بمدح وتعظيم لا يحلم بمثلهما بشـر عاديون، أقول كان بطرس سـتيفانوفتش قد لاحظ أن هذه الشخصية الكبيرة أو هذا "الفكر الجبار" إنما كان يتودد إليه لا أكثر، بل ويتودد إليه بكثير من الشراهة. وقد حزر الشاب أخيراً، فيما يخيَّل إليَّ، أن كارمازينوف كان يتصور أن هذا الشاب إن لم يكن هو رئيس الحركة الثورية الروسـية كلها، فهـو على الأقل واحد من أحسـن الناس اطلاعاً على هذه الحركة، وله على الشبيبة سلطان كبير ونفوذ لا سبيل إلى جحوده.

إن الحالـة النفسـية والفكرية التي كان عليها هـذا الكاتب الكبير الذي هو "أذكى رجل في روسيا" كانت تهم بطرس ستيفانوفتش كثيراً، ولكنه لبعض الأسباب كان قد تحاشى حتى ذلك الحين أن يلتمس لها إيضاحاً.

كان الكاتـب الكبيـر يقيم عنـد أخته المتزوجـة ضابطاً فـي البلاط، يملك أرضاً في إقليمنا. وكانت الأخت وزوجها يشـعران نحو قريبهما الشهير بحب يبلغ درجة العبادة. ولكنهما الآن ـ وما كان أشد أسفهما لهذا! ـ قد اضطرا إلى البقاء بموسـكو، فوقع شرف اسـتقبال الضيف العظيم على سيدة عجوز فقيرة تمـت إلـى ضابط البلاط بقرابة بعيـدة، وهي تعيش في منزلـه منذ مدة طويلة، وتتولـى خدمة البيـت. إن الجميع في هـذا المنزل يمشـون الآن على رؤوس الأصابـع منذ وصول السـيد كارمازينوف. وكانت السـيدة العجوز تكتب إلى موسكو كل يوم تقريباً لتقول لأصحاب المنزل كيف نام الضيف الشهير وماذا تنازل فأكل. حتى إنها في إحدى المرات قد أرسلت برقية لتذكر أنه بعد عشاء راقص في منزل رئيس البلدية قد اضطر أن يتجرع ملعقة دواء. وكانت لا تجرؤ أن تدخل عليه إلّا لماماً. ولكنه كان كيِّساً في معاملتها، وإن كان لا يكلمها إلّا عند الضرورة القصوى، وإذا يكلمها فإنه يكلمها بلهجة باردة.

حين دخل عليه بطرس سـتيفانوفتش وجده يأكل ضلع اللحم الذي اعتاد أن يأكلـه، ومعـه نصف كأس من نبيذ أحمر. لقد سـبق لبطرس سـتيفانوفتش فرخوفنسـكي أن جاءه مراراً، فكان في كل مرة يجده جالسـاً إلى ضلع اللحم

هـذا يأكله، ويستمر في أكله بحضـوره دون أن يقدِّم له أي شـيء في مرة من المـرات، حتى إذا فرغ من ضلـع اللحم أتبعه بفنجان صغير من القهوة. وكان الخـادم الذي يخدمه يُلبس يديه قفازيـن دائماً، ويرتدي رداء "فراك"، وينتعل حذاءين مرنين ليس لوقعهما على الأرض صوت.

قال كارمازينوف وهو ينهض عن الكنبة:

ـ ها...

ومسـح فمه بمنشـفة، وتقـدم نحو زائره مشـرق الهيئـة ليقبّله وفقـاً لعادة الروس الذين أصبحت لهم شهرة كبيرة. ولكن بطرس ستيفانوفتش كان يعلم بالتجربـة أن كارمازينـوف يتظاهـر بتقبيل النـاس مع أنه لا يزيـد على أن يمد إليهـم خـدَّه. وهذا ما فعله في هذه المرة فالتقـت الخدان. وعاد كارمازينوف يجلس على الكنبة دون أن يُظهر أنه لاحظ ذلك. وبحركة ودود أومأ للشـاب إلى مقعد قبالته ليجلس عليه. فجلس بطرس ستيفانوفتش على المقعد جلسة مريحة.

سأله الكاتب مغيِّراً عاداته في هذه المرة:

ـ لا شك أنك.. ألا تريد أن تتغدى؟

وكان واضحاً في هيئته أنه يطلب جواباً سلبياً. ولكن بطرس ستيفانوفتش أسـرع يقول إنه يسـره أن يتغدى. فإذا بالدهش والاسـتياء يلقيان ظلهما على كارمازينـوف، ولكـن ذلك لم يـدم إلّا لحظة قصيرة. ثم قـرع الجرس ينادي الخادم بعصبية، فلما جاء الخادم أمره بغداء ثانٍ، فكان في صوته رغم حسـن أدبه ولطف كياسته، حنق لا يخفى. وقال يسأل ضيفه:

ـ ماذا تريد؟ أضلع لحم أم شيئاً من قهوة؟

ـ ضلعاً وقهوة. وأمرْ لي أيضاً بنبيذ. فأنا جائع.

كذلك أجاب بطرس سـتيفانوفتش وهو يتأمل رداء الكاتب العظيم بانتباه شـديد. كان السـيد كارمازينوف يرتدي نوعاً من سترة مبطنة بقطن، لها أزرار لامعـة كالصدف، تشـبه أن تكون جاكيتـة، ولكنها قصيرة قليلاً، فلا تناسـب كرشـه الناتئ ولا تناسـب ذلك التدوير في ذلك الجزء من الجسـم الذي يبدأ

عند الفخذان. غير أن لكل إنسان ذوقه الخاص به. ورغم أن جَوّ الغرفة كان حاراً، فقد غطى ركبتيه بغطاء صوفي ذي مربعات يتدلى على الأرض.

سأله بطرس ستيفانوفتش:

ـ أنت مريض؟

فأجاب الكاتب الروائي بصوته الحاد، مقطعاً كلماته برهافة ورقة، منغماً لهجته على الطريقة الأرستقراطية:

ـ لا، ولكنني أخشى أن أصبح مريضاً في هذا الجو. لقد انتظرتك أمس.

ـ لماذا انتظرتني؟ أنا لم أبلغك أنني آتٍ.

ـ صحيح... ولكن مخطوطتي عندك.. هل قرأتها؟

ـ مخطوطتك؟ أية مخطوطة؟

قال له كارمازينوف مشدوهاً:

ـ آمل أن تكون المخطوطة معك!

وبلغ من القلق أنه أهمل قهوته ونظر إلى بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً مذعوراً.

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ آ... تقصد "مرحباً".

ـ بل "شكراً".

ـ سيان. لقد نسيتها نسياناً تاماً، ولم أقرأها. ليس في الوقت متسع. لا أدري حقاً ماذا صنعت بها. ليست في جيوبي... لا بد أنني تركتها على مائدتي. لا تقلق. سوف أجدها.

ـ بل أفضل أن نبعث أحداً يبحث عنها في الحال. قد تضيع. قد تُسرق.

ـ ما عسى يصنع بها من يخطر بباله أن يسرقها؟ ثم، ما بالك تقلق؟ إن جوليا ميخائيلوفنا تؤكد أنك تستنسخ دائماً عدة نسخ: نسخةً تودعها عند الكاتب بالعدل في الخارج، وثانية تدعها في بطرسبرج، وثالثة تتركها بموسكو، ويظهر أنك ترسل نسخةً رابعة إلى صاحب البنك الذي تودع عنده أموالك.

ـ لكن موسكو قد تُحرق، فتحرق معها مخطوطتي "لا" إنني أفضل أن نرسل أحداً يبحث عنها في الحال.

ـ انتظر. هي ذي مخطوطتك.

كذلك قال بطرس ستيفانوفتش وهو يخرج من إحدى جيوبه الخلفية حزمة من أوراق الرسائل. إنها مجعَّدة مهترئة قليلاً. واستطرد يقول:

ـ تصور أنني، حين أعطيتني إياها، قد دسستُها في هذا الجيب الخلفي مع منديل، ثم بقيت فيه. نسيتها تماماً.

استولى كارمازينوف على مخطوطته بشراهة، وفحصها بعناية، وعدَّ أوراقها، ثم وضعها بكثير من الاحترام على منضدة صغيرة في جانب، بحيث لا تغيب عن بصره.

قال بصوت صافر، عاجزاً عن كبح غيظه:

ـ لعلك لا تقرأ كثيراً.

ـ نعم، لا أقرأ كثيراً.

ـ ومن الأدب الروسي، ألا تقرأ شيئاً؟

ـ من الأدب الروسي، لحظة... لقد قرأت شيئاً ما... "على الطريق"... أو "في الطريق"... أو "عند تقاطع الطرق"... لا أدري على وجه الدقة. قرأت ذلك منذ مدة طويلة... منذ خمس سنين تقريباً.. لا وقت لديّ.

وخيَّم صمت.

قال كارمازينوف:

ـ حين وصلتُ إلى هنا أكدت لجميع الناس أنك رجل تحظى بذكاء نادر، ويخيَّل إليَّ أنهم مفتونون بك الآن.

أجاب بطرس ستيفانوفتش ببساطة يقول:

ـ شكراً.

وجيء بالغداء. فهجم الشاب على ضلع اللحم هجمة نهمة، وأتى عليه، وشرب كأساً من نبيذ، وابتلع قهوته.

حدَّث كارمازينوف نفسه قائلاً وهو يتفحص الشاب بطرف عينيه أثناء

ابتلاعـه آخـر جرعـة: "لعـل هـذا القليـل الأدب قد لاحـظ سـخرية جملتي الأخيرة... إني لعلى ثقة بأنه ما من شـيء كان أشـدَّ لجاجةً وإلحاحاً عليه من قراءة مخطوطتي بسرعة. هو يكذب. إنه يبيِّت فكرة. لعله لا يكذب مع ذلك، وإنما هو غبي لا أكثر! إنني أحب لعبقري أن يكون على شـيء من غباء. ألن يكون عبقرياً بينهم؟ على كل حال، فليذهب إلى الشيطان!...".

ونهض وأخذ يسير في الغرفة طولاً وعرضاً، وذلك ما كان يفعله بعد كل وجبة تنشيطاً لجسمه.

قال بطرس ستيفانوفتش يسأله وهو جالسٌ يشعل سيجارة:

ـ أأنت مسافر قريباً؟

ـ لقد جئت لأبيع أرضي، وسفري مرهون بوكيلي.

ـ يظهر أنك عدت إلى روسـيا لأنك خشـيت الأوبئة التي تهدد بالانتشـار في أعقاب الحرب، هه؟

ـ لـ... لا! ليس الأمر هذا تماماً!

كذلك أجاب السيد كارمازينوف مقطعاً كلامه. وكان كلما وقف واستدار ليسـتأنف مشـيه فـي الغرفة يحرك سـاقه اليمنى قليـلاً. واسـتطرد يقول وهو يبتسم بشيء من السخرية:

ـ لكننـي أنتوي فعلاً أن أحيـا أطول مدة ممكنة. إن النبالة الروسـية تنحل بسرعة خارقة من جميع النواحي. ومن جهتي أحب أن أؤخر انحلالي أطول تأخيـر ممكـن. لذلـك أريد أن أسـتقر في الخـارج إلى الأبد: المنـاخ هنالك أصح، والبنيان الاجتماعي أقوى، وكل شيء متين مبني بحجر. ما رأيك؟

ـ همْ... إذا انهارت بابل أوروبا فستكون تلك كارثة كبرى فعلاً (أنا أوافقك علـى رأيـك في هذه النقطـة، وإن كنت أقدِّر أنها باقية ما بقيـت) أما عندنا في روسـيا فلا يرى المرء ما الذي يمكن أن ينهار على وجه الإجمال. لن نشـهد حجارة تتسـاقط، وإنما سـيتداعى كل شيء وحلاً. إن روسيا المقدسة عاجزة عجـزاً مطلقاً عن إبداء أية مقاومة لأي شـيء. وبفضل الإله الروسـي ما يزال الشعب الروسي هادئاً بعض الهدوء. ولكن المعلومات الأخيرة تدل أن الإله

الروسي لم يبق له كثير من قوة، وأن إلغاء الرق قد أوشك أن يُسقطه، وهو قد هزَّه هزاً قوياً على كل حال. ثم، هناك السكك الحديدية، وهناك أنتم... إنني، فيما يتعلق بالإله الروسي، أصبحت لا أؤمن به بتاتاً.

ـ والإله الأوروبي!

ـ إنني لا أؤمن بأي إله. لقد افتروا عليَّ عند الشبيبة الروسية. إن قلبي كان دائماً معها. وقد اطلعت على المنشورات التحريضية التي تنتشر هنا. إنها تدع الناس مبلبلين حيارى، لأن لهجتها تروِّع عقولهم، ولكن الجميع مقتنعون، حتى من دون أن يدركوا ذلك، بأن لها تأثيراً قوياً. إن كل شيء يتدحرج إلى الهوة منذ مدة طويلة، والناس يعلمون منذ مدة طويلة أيضاً أنهم لا يستطيعون أن يتشبثوا بشيء. ومما يزيد يقيني بنجاح هذه الدعاية السرية أن روسيا هي الآن بين سائر بلاد العالم البلد الذي يمكن أن يحدث فيه كل شيء دون أن تعترضه أية مقاومة مهما تكن يسيرة. إنني أفهم كل الفهم لماذا كان الروس الذين يملكون ثروة ما، يجتازون الحدود متزايدين سنةً بعد سنة. إن الغريزة هي التي توجّههم وتقود خطاهم. حين توشك سفينة على الغرق فإن الفئران أول من يتركها. إن روسيا المقدسة بلد البيوت الخشبية، إنها بلد بائس شقي و... خطر، إنها بلد شحاذين، مغرورين في الطبقات العليا، لكن سوادهم الأعظم يعيش في أكواخ مترنحة الجدران. فهم يسعدهم أن يجدوا أي مخرج، ويكفي أن يدلهم أحد على أي مخرج. الحكومة وحدها ما تزال تريد أن تقاوم، ولكنها تلوِّح بهراوتها في الظلام وتهوي بها هنا وهناك خبط عشواء، وتصيب الموالين. هنا كل شيء محكوم عليه، مقضي عليه. روسيا ليس لها مستقبل. أنا أصبحت ألمانياً، وإني لأعتزّ بهذا.

ـ لقد بدأت كلامك بالحديث عن المنشورات التحريضية. فما رأيك فيها؟

ـ جميع الناس خائفون منها. معنى هذا أنها تؤثر تأثيراً كبيراً قوياً. إنها تفضح الكذب فضحاً صريحاً، وتبيِّن أن لا شيء عندنا يمكن التعلق به والاستناد إليه والاعتماد عليه. إنها ترفع صوتها عالياً بينما يصمت الجميع.

أمجد شـيء فيها رغم شـكلها إنما هو الجرأة الخارقة فـي النظر إلى الحقيقة وجهـاً لوجـه. إن هذه القـدرة لا يتصف بهـا إلّا الجيل الروسـي الحالي. لا، الناس في أوروبا ليس لهم هذه الجسارة بعد: البنيان الأوروبي من حجر، وما يزال المرء هناك يجد ما يتعلق به ويسـتند إليه. إذا صدقت رؤيتي وإذا صدق حكمي، فإن الفكرة الثورية الروسـية تقوم أساسـاً على نفي الشرف. يعجبني أن أرى هذا معبَّراً عنه بمثل هذه الشجاعة ومثل هذه الجسارة. لا، في أوروبا مـا يزال النـاس لا يفهمون هذه الفكرة، وليس الأمر كذلـك عندنا، فإلى هذه الفكـرة بعينهـا إنما سـيهرع الناس. ليس الشـرف في نظر الروسـي إلّا حملاً لا فائـدة منـه، والأمر على هـذا النحو في جميـع الأزمان على امتـداد تاريخ الروس كله. لذلك سـيكون من اليسـير إغراؤه و جرُّه بالمناداة "بحق التخلي عن الشـرف" صراحةً، إننـي أنتمي إلى الجيل القديم، وأعتـرف أنني ما أزال أعتنق فكرة الشـرف. ولكن ذلك ليس إلّا عادة. ما زلت متمسـكاً بالأشـكال القديمة. لنسـلّم بأن هذا ضعف. إنه لجدير بالمرء أن يموت مع المبادئ التي تعلق بها طوال حياته...

قطع كارمازينوف كلامه فجأة. وحدّث نفسـه يقول: "إنني أتكلم وأتكلم. ويبقى هو صامتاً يراقبني. لقد جاء لألقي عليه سـؤالاً محدَّداً. فلسـوف ألقي عليه ذلك السؤال".

سأله بطرس ستيفانوفتش فجأة:

ـ لقـد رجتني جوليا ميخائيلوفنا أن أسـألك ببراعـة عن موضوع المفاجأة التي تهيئها للحفلة الراقصة بعد غد، فما هي هذه المفاجأة؟

ـ نعم، سـتكون مفاجاة حقاً. وسأُدهش جميع الناس... لكنني لن أكشف لك عن سري.

بذلك أجاب كارمازينوف متعاظماً. فلم يلح بطرس ستيفانوفتش كثيراً.

ـ قال الكاتب العظيم:

ـ يوجد هنا رجل اسمه شاتوف. هل تتصور أنني لم أره بعد؟

ـ هو شخص ممتاز. وبعد؟

ـ لا شيء خاصاً. لكن الناس يتكلمون عنه كثيراً. أليس هو الذي صفع ستافروجين؟

ـ نعم هو الذي صفع ستافروجين.

ـ ما رأيك في ستافروجين؟

ـ الحق أنني لا أدري ما هو بين أصناف الرجال. أحسب أنه نوع من دون جوان.

كان كارمازينوف يكره ستافروجين، لأن ستافروجين اعتاد أن لا يلتفت إليه وأن لا يكترث به.

قال وهو يضحك ساخراً:

ـ إذا تحقق عندنا ما تنادي به المنشورات التحريضية، في يوم من الأيام، فسوف يكون زير النساء هذا أول من يجب شنقه.

فقال بطرس ستيفانوفتش:

ـ قد يُشنق قبل ذلك.

فقال كارمازينوف محبذاً مؤيداً، دون أن يضحك في هذه المرة، وكانت لهجته جادة:

ـ لعل ذلك أن يكون خيراً.

ـ سبق أن قلت هذا. واعلمْ أنني نقلت كلامك إليه.

ـ حقاً؟ فعلت هذا؟

كذلك سأل كارمازينوف وانفجر ضاحكاً. فقال بطرس ستيفانوفتش:

ـ وقد أجاب بأنه إذا شُنق هو، فيكفيك أنت أن تُجلد جلداً، لا على سبيل المزاح، بل جلداً صارماً، كما يُجلد الفلاحون.

وتناول بطرس ستيفانوفتش قبعته ونهض. فمدَّ إليه كارمازينوف كلتا يديه. وقال يسأله بصوته المتلطف المرائي الذي اصطنع نبرة جديدة على حين فجأة، مع استمرار الكاتب العظيم في إمساك يدي الشاب بيديه:

ـ قل لي: إذا كانت مشروعاتكم ستتحقق... فمتى... متى يمكن أن يحدث هذا؟

فأجابه بطرس ستيفانوفتش بفظاظة:

ـ ما يدريني!

ونظر كل من الرجلين في عيني صاحبه.

فألح كارمازينوف سائلاً بصوت فيه مزيد من العذوبة واللطف.

ـ تقريباً؟ على وجه التقريب؟

فجمجم بطرس ستيفانوفتش يقول بمزيد من الفظاظة:

ـ لديك متسع من الوقت لبيع أرضك، ولديك متسع من الوقت لتفر بجلدك. وكان الرجلان ما يزال كل منهما ينظر في عيني الآخر.

وساد الصمت لبعض الوقت.

وقال بطرس ستيفانوفتش أخيراً:

ـ سيبدأ الأمر في شهر أيار (مايو)، فلا يأتي عيد "الشفاعة" إلّا ويكون كل شيء قد انتهى.

قال كارمازينوف بلهجة مؤثرة وهو يشد على يدي زائره:

ـ أشكرك أصدق الشكر.

وحدّث الشاب نفسه قائلاً بعد أن ترك كارمازينوف: "لديك متسع من الوقت، يا أيها الفأر، لترك السفينة قبل غرقها. ولكن إذا كان هذا الذي يشبه أن يكون رجل دولة يسألني بهذا الجد كله عن تاريخ البدء يوماً وساعة، ويشكرني بهذه الحرارة على المعلومات التي زوَّدته بها فلا يجوز أن نشك في أنفسنا بعد هذا (قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وضحك ساخراً). همْ... حقاً إنه ليس غبياً، و... ما هو إلّا فأر يهاجر. مثله لا يشي".

وأسرع إلى منزل فيليبوف، شارع أبيفانيا.

6

دخل بطرس ستيفانوفتش أولاً إلى مسكن كيريلوف. كان كيريلوف وحيداً على عادته، وكان يقوم ببعض التمارين الرياضية وسط الغرفة. لقد

باعد ساقيه وجعل يُدير ذراعيه فوق رأسه. وكانت كرة من الكاوتشوك ملقاة على أرض الغرفة. ولم يكن شاي الصباح قد رُفع عن المائدة بعد أن أصبح بارداً.

وقف بطرس ستيفانوفتش على العتبة لحظة. ثم قال مرحاً بصوت رنان وهو يلج الغرفة:

ـ أرى أنك تعنى بصحتك عناية كبيرة رغم كل شيء. يا لها من كرة جميلة! ما أحلى تواثبها! أهي أيضاً للقيام بتمارين رياضية؟

ارتدى كيريلوف ردنجوته. وقال بخشونة:

ـ نعم، إنني أعتنى بصحتي. اجلس.

ـ لقد جئت لأمكث لحظة قصيرة. على كل حال، ها أنا ذا أجلس. الصحة شيء ممتاز، و لكنني أتيت لأذكِّرك بما تمَّ عليه الاتفاق بيننا. إن الأوان يقترب. بعض الاقتراب".

بهذه الجملة الأخيرة ختم بطرس ستيفانوفتش كلامه مازحاً.

ـ أي اتفاق؟

ـ تسألني أي اتفاق؟

قال بطرس ستيفانوفتش ذلك وانتفض مرتاعاً.

فقال كيريلوف:

ـ ليس بيننا اتفاق ولا التزام. أنا لا أشعر بأنني مرتبط. إنك مخطئ.

فصاح بطرس ستيفانوفتش قائلاً وهو ينهض على حين فجأة:

ـ ما هذا الذي تقول؟

ـ إنني أنفّذ مشيئتي. إنني أحقّق رغبتي.

ـ أية رغبة؟

ـ رغبتي تلك نفسها.

ـ كيف يجب أن أفهم هذا الكلام؟ هل معناه أنك ما تزال مصمماً على ما عقدت النية عليه؟

ـ نعم، ولكن الأمر ليس أمر اتفاق، فما كان ثمة اتفاق قط، ولست بمرتبط.

وإنما هي مشيئتي وحدها، كانت وما تزال مشيئتي وحدها.

قال بطرس ستيفانوفتش وهو يعود إلى الجلوس راضياً مرتاحاً:

ـ طيب، طيب، أسلِّم بأنها مشيئتك الحرة، وإنما المهم أن لا تكون مشيئتك هذه قد تغيرت. إنك تندفع وتتحمس من أجل كلمة. لقد أصبحت سريع الاهتياج في هذه الآونة الأخيرة. لذلك صرت لا أزورك. على أنني كنت أعرف أنك لن تخون.

ـ إنني لا أحبك البتة. ولكن في وسعك أن تعتمد عليَّ، رغم أنني لا أقبل تعبير الخيانة هذا.

قال بطرس ستيفانوفتش وقد عاد إليه قلقه:

ـ إن علينا مع ذلك أن نتكلم بوضوح حتى لا نتعرض للبلبلة. إن هذه القضية تتطلب دقة ووضوحاً. وأقوالك هذه تقلقني كثيراً. هل تعدني بأن تتكلم؟

قال كيريلوف بخشونة وهو يحدق إلى زاوية من الغرفة:

ـ تكلم!

ـ لقد قررت منذ مدة طويلة أن تنتحر... أقصد أن هذه الفكرة قد قامت في نفسك. هل وُفقت في التعبير؟ ألم أرتكب خطأً ما؟

ـ وهذه الفكرة ما زالت قائمة في نفسي.

ـ عظيم. لاحظ أن أحداً لم يجبرك عليها إجباراً.

ـ نعم. ما أغبى تعبيرك عن فكرك!

ـ طيب، طيب. لقد عبَّرت عن فكري بغباء وحماقة. لا شك أبداً في أن الكلام على الإجبار هنا حماقة. والآن أتابع: إنك كنتَ عضواً في الجمعية منذ إنشائها وقد كاشفت أحد أعضائها بمشاريعك.

ـ لم أكاشف أحداً بشيء، وإنما قلت ببساطة ما أريد أن أفعله.

ـ طيب. صحيح. الكلام على "المكاشفة" هنا سخف. لم يكن ذلك منك اعترافاً. وإنما أنت قلت ما قلته ببساطة. كلام عظيم.

ـ ليس هذا كلاماً عظيماً. إنك تتردد وتلتوّى في أقوالك ولا تلتزم

الصراحة. لستُ مضطراً إلى أن أشرح لك كل شيء، وما أنت بقادر على أن تفهم أفكاري. لقد قررت أن أنهي حياتي لأن هذه فكرتي، لأنني أريد أن أنتصر على الرعب من الموت... لأن... ولكن ليس عليك أن تعرف لماذا. ماذا تريد؟ شاياً؟ الشاي بارد. انتظر سآتيك بكأس أخرى.

كان بطرس ستيفانوفتش قد أمسك إبريق الشاي فعلاً، وكان يبحث ببصره عن كأس فارغة. فمضى كيريلوف إلى الخزانة، وتناول منها كأساً نظيفة.

ثم قال:

ـ لقد تغديت عند كارمازينوف، وأصغيت إلى حديثه، فعرفت، ثم ركضت لأجيء إلى هنا فتصبب عرقي مزيداً من التصبب، فأنا الآن ميت ظمأً!

ـ أشرب! الشاي بارد! ذلك ممتاز.

عاد كيريلوف يجلس، وحدَّق بعينيه مرةً أخرى إلى زاوية من الغرفة. واستطرد يقول بتلك اللهجة نفسها:

ـ لقد قدَّروا، في الجمعية، أنني بانتحاري أستطيع أن أخدمهم: فإذا قمتم هنا بعمل شيء ما، فأخذت السلطات تبحث عن الفاعلين، أطلقت أنا على رأسي رصاصة تاركاً رسالةً أذكر فيها أنني أنا الذي فعلت كل شيء. فبذلك تفلتون من الشبهات خلال سنة بكاملها.

ـ بل تكفينا بضعة أيام، بل قد يفيدنا يوم واحد أكبر الفائدة.

ـ حسن. فطلبوا مني أن أنتظر. فأجبت بأنني سأنتظر إلى أن تنبئني الجمعية بأن أفعل، فأفعل، لأن الأمور عندي سواء.

ـ نعم، ولكن تذكَّر أنك تعهّدت بتحرير هذه الرسالة معي، وبأن تصبح متى وصلت إلى روسيا... أن تصبح رهن إشارتي، لهذا الأمر وحده طبعاً، أمَّا في كل ما عدا ذلك فأنت حر.

كذلك أضاف بطرس ستيفانوفتش بلهجة تشبه أن تشتمل على تودد وتحبب.

ـ لم أتعهّد بشيء. وانما أنا قبلت لأن الأمور عندي سواء...

ـ طيب... طيب... ليس في نيتي قط أن أجرح كرامتك، ولكن...

ـ ليست المسألة مسألة كرامة.

ـ تذكَّر مع ذلك أنك أُعطيت مبلغاً من المال لتتمكن من السفر. فقد تقاضيت إذن مالاً.

صرخ كيريلوف يقول وقد اصطبغ وجهه بحمرة شديدة:

ـ هذا خطأ! أنا لا أعمل من أجل مال.

ـ بلى، أحياناً.

ـ أنت تكذب. لقد كتبت من بطرسبرج عارضاً جميع الإيضاحات اللازمة، وقد رددت في بطرسبرج مبلغ المال، رددته بنفسي... فالمال رُدَّ إذن، اللهم إلّا أن تكون قد احتفظت به لنفسك.

ـ طيب طيب. موافق. لقد رُدَّ المال. وإنما المهم أن تكون ماتزال مستعداً لما كنت مستعدّاً له من قبل.

ـ نعم، ما أزال مستعداً. فمتى أتيت فقلت لي: "آن الأوان"، فعلت ما وعدت به. هل الموعد قريب؟

ـ بعد بضعة أيام... ولكن لا تنس أن علينا أن نحرِّر الرسالة معاً في تلك الليلة.

ـ وحتى قبلها بليلة إن شئت. لقد قلتَ إن عليَّ أن أضع على عاتقي تبعة المنشورات التحريضية.

ـ نعم، وأشياء أخرى أيضاً.

ـ لن أحمل نفسي كل شيء.

سأله بطرس ستيفانوفتش مرتاعاً من جديد:

ـ ما الذي ترفض أن تحمِّله نفسك؟

ـ ما لا أريد. وكفى هذا! أصبحت لا أطيق الكلام في هذا الموضوع!

سيطر بطرس ستيفانوفتش على نفسه وغيَّر مجرى الحديث. قال:

ـ هناك الآن شيء آخر: هل تجيء الليلة إلى عند أصحابنا؟ اليوم عيد فرجنسكي، وسوف نجتمع متعللين بهذه الحجة.

ـ لا أريد.

ـ بل تعال، أرجوك. يجب أن تجيء. يجب أن نفرض عليهم مهابتنا بعددنا ومظهرنا... إن لك وجهاً... وجهاً لا تُقاوم له جاذبية.

قال كيريلوف ضاحكاً:

ـ أهذا رأيك؟ طيب. سأجيء. ولكنني لن أجيء من أجل أن تفرض عليهم مهابتنا بوجهي. في أية ساعة يكون الاجتماع؟

ـ في وقت غير متأخر، في الساعة السادسة والنصف. وتستطيع أن تدخل فتجلس ولا تكلم أحداً، مهما يكن العدد كبيراً. ولكن لا تنس أن تحمل قلماً وبضعة أوراق.

ـ لماذا القلم والأوراق؟

ـ بالنسبة إليك لا قيمة لهذا، أمَّا بالنسبة إليّ فإن له قيمةً كبيرة. ستمكث هناك جالساً لا تقول كلمة، بل تصغي وتتظاهر من حين إلى حين بأنك تدوِّن شيئاً. لك أن ترسم إذا كان يحلو لك ذلك.

ما هذه السخافات؟ ما الغرض من هذا كله؟

ـ أليست الأمور عندك سواء. إنك ما تنفكّ تردد بأن جميع الأشياء عندك سواء.

ـ بل قل لي لماذا!

ـ طيب. اسمع: إن العضو الذي ننتظره، وهو المفتش، كما تعلم، لم يستطع أن يغادر موسكو. وأنا قد أبلغت عدداً من الأعضاء أن مفتشنا سيحضر الاجتماع. فسوف يظنون إذن أنك المفتش، وسيُدهشون دهشة كبيرة لا سيما وأنك هنا منذ ثلاثة أسابيع.

ـ هذه كلها ترهات! ليس لكم مفتش بموسكو.

ـ طيب. لنسلِّم بذلك. لنا مفتش. سحقاً للمفتش. ولكن هل يزعجك ما أطلبه منك؟ هل يؤذيك أو يسيء إليك؟ أنت أيضاً عضو في الجمعية.

ـ قل لهم إنني مفتش. سأبقى جالساً لا أنطق بكلمة. ولكنني لا أريد قلماً ولا ورقاً.

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا أريد!

صـار وجـه بطرس سـتيفانوفتش ضارباً إلـى الخضرة من شـدة الغضب، ولكنه كظم غيظه وسـيطر على نفسـه من جديد، ونهض وتناول قبعته. وقال يسأل بصوت خافت:

ـ هل "الآخر" عندك؟

ـ نعم.

ـ طيب سأخلِّصك منه قريباً. اطمئن بالاً ولا تقلق.

ـ لست قلقاً البتة. إنه لا يجئ إلّا في الليل. المرأة العجوز في المستشفى، وامرأة ابنها ماتت، وأنا وحيد منذ يومين. وقد دللته على اللوح الخشبي الذي يمكن تحريكه بسهولة في الحاجز، فيستطيع أن يدخل دون أن يُرى.

ـ سأخلِّصك منه قريباً.

ـ هـو يكذب. إنـه ملاحق مطارد. وهـم إلى الآن لا يشـتبهون في وجوده هنا. هل تتحدث معه مصادفةً؟

ـ نعـم، طـوال الليل. إنه لا يكف عن شـتمك. قرأت عليـه رؤيا يوحنا في الليلة الماضية، وشربنا شاياً. أصغى بانتباه شديد، بل شديد جداً، طول الليل.

ـ لسوف تهديه إلى الإيمان بالمسيحية!

ـ إنه مسيحي. ولكن اطمئن: سوف يقتل. من تريد أن يقتله لك؟

ـ لا، لست في حاجة إليه من أجل أن يقتل، بل من أجل شيء آخر... هل شاتوف على علم بأمر فدكا؟

ـ نحن لا نتخاطب أبداً. أنا وشاتوف لا يرى أحد منا الآخر.

ـ أأتنما متخاصمان؟

ـ لا، لسـنا متخاصمين، ولكن كلاً منا يتحاشـى الآخر. لقد اضطجعنا في أمريكا جنباً إلى جنب مدة مسرفة في الطول.

ـ سأصعد إليه.

ـ افعل ما تشاء.

ـ قد نجيئك أنا وستافروجين بعد الخروج من السهرة في نحو الساعة العاشرة.

ـ تعالا.

ـ هناك أشياء هامة يجب أن أكلمه فيها. اسمع: أعطني كرتك هل أنت في حاجة إليها الآن؟ أنا أيضاً سأقوم بتمارين رياضية. سأدفع لك ثمنها إن شئت.

ـ خذها. إنني أهبها لك.

وضع بطرس ستيفانوفتش الكرة في الجيب الخلفي من ردنجوته.

دمدم كيريلوف يقول فجأة وهو يشيِّع زائره إلى الباب:

ـ لن أعينك على ستافروجين في شيء.

فنظر إليه الزائر مدهوشاً، ولكنه لم يجب.

إن هذه الكلمات الأخيرة التي قالها كيريلوف قد بثت في نفس بطرس ستيفانوفتش اضطراباً عميقاً. ولكن وقته لم يتسع للتفكير في الأمر، لأنه تذكر وهو يصعد سلَّم شاتوف أن عليه أن يسبغ على وجهه الحانق هيئة ألطف.

كان شاتوف في بيته، راقداً على سريره وهو مرتدٍ كلَّ ثيابه: كان يشعر بأن حالته الصحية ليست حسنة تماماً.

صاح بطرس ستيفانوفتش يقول وهو في العتبة:

ـ يا لسوء الحظ! أأنت مريض حقاً؟

واختفى عن وجهه قناع اللطف فجأة، ولمَّ بعينيه لهيب خبيث.

قال شاتوف وهو ينهض:

ـ لا أبداً، لست مريضاً البتة. ولكن رأسي...

كان زائغ الهيئة: إن ظهور بطرس ستيفانوفتش على هذا النحو المباغت قد روَّعه حقاً.

بدأ بطرس ستيفانوفتش يتكلم فقال بلهجة فيها إيجاز، وفيها مايشبه أن يكون أمراً:

ـ أنا إنما جئت لأحدثك في أمر يتطلّب أن تكون في صحة جيدة. اسمح لي أن أجلس.

قال ذلك وجلس ثم أردف يقول:

ـ وأنت عُدْ فاجلس على سريرك. نعم. هكذا. في هذا المساء، سيعقد بعض أصحابنا اجتماعاً عند فرجنسكي، متعللين بحجة عيد ميلاده. وسأجيء أنا مع ستافروجين. وإذ إنني عالم بما أنت عليه الآن من حالة نفسية خاصة، فما كان لي أن أجرَّك حتماً إلى هذه السهرة... تحاشياً لتعذيبك بطبيعة الحال، لا خوفاً من وشاية منك. ولكن الظرف يوجب أن تحضر الاجتماع قطعاً. ستجد هناك أشخاصاً نتفق معهم اتفاقاً نهائياً على الطريقة التي يجب أن تخرج بها من الجمعية، وتعطيهم الأشياء المختلفة المودعة عندك. سنرتب الأمر خفيةً: أقودك إلى ركن من الأركان، وهناك يتم كل شيء، لأن عدد الحضور سيكون كبيراً، ولا داعي لأن يطلع الجميع على المسألة. لا أكتمك أنني تعبت كثيراً في الدفاع عنك. ولكنهم الآن موافقون فيما يبدو لي. على شرط أن ترد المطبعة وجميع الأوراق طبعاً. وبعد ذلك تكون حراً طليقاً، وتمضي إلى حيث تشاء.

كان شاتوف يصغي إليه مغتاظ الهيئة مقطب الحاجبين. إن خوفه العصبي الذي رأيناه فيه منذ قليل قد بارحه الآن تماماً. قال شاتوف بلهجة قاطعة:

ـ أنا لا أعدّ نفسي ملزماً بتقديم حساب لأي شيطان! لست في حاجة لأن تُردَّ إليَّ حريتي، فأنا حر.

ـ لا تملك كل الحرية. لقد عُهد إليك بأشياء كثيرة. وليس من حقك أن تترك دون أن تبلغ أحداً ما عزمت عليه. ثم إنك لم تفصح عما بنفسك إفصاحاً واضحاً حول هذا الموضوع في يوم من الأيام، فجعلتنا في حيرة من أمرنا.

ـ منذ وصولي بعثت رسالةً واضحة كل الوضوح.

أجابه بطرس ستيفانوفتش بهدوء:

ـ لا، لم تكن رسالة واضحة البتة. مثال ذلك أنني بعثت إليك قصيدة "البطل" لتطبعها هنا، ولتحتفظ بالنسخ إلى أن تُطلب منك، وكذلك بعثت

إليك نشرتين ثوريتين. فرددت هذا كله مع رسالة مشتبهة لا تعني شيئاً على وجه الإجمال.

ـ بل أعلنت صراحة أنني أرفض أن أطبع.

ـ نعم، ولكن جوابك لم يكن واضحاً. لقد كتبت تقول: "لا أستطيع" وهذا لا يعني أبداً: "لا أريد". لقد أمكننا أن نفترض أنك ترفض بسبب بعض الظروف المادية. هكذا فُهم جوابك، واستُنتج منه أنك ما تزال عضواً في الجمعية. لقد عهدوا إليك بأشياء، فأصبحوا بذلك معرَّضين للخطر. هم يقولون هنا إنك إنما أردت أن تخدعهم لتحصل على بعض المعلومات الهامة ثم تشي بهم. وقد دافعت عنك بكل بما أوتيت من قوة، وأطلعتهم على جوابك الذي يتألف من سطرين، كوثيقة تبرئك. ولكنني إذ أعدت قراءة هذه الرسالة اضطررت أن أعترف أنا نفسي بأنها لم تكن واضحة، وبأنها يمكن أن توقع في الخطأ.

ـ هل حرصت إذن على الاحتفاظ برسالتي؟

ـ فيم يضيرك هذا؟ إنها ما تزال معي.

صاح شاتوف غاضباً:

ـ هنيئاً لكم بها! ليكن ما يكون! إذا كان أصحابك الأغبياء هؤلاء يتصورون أنني وشيت بهم، فليس يهمني ما يتخيلون! وددت لو أعرف ما الذي يمكنكم أن تصنعوه بي!

ـ يمكن أن تُراقب، وأن تشنق عند أول نجاح تحققه الثورة.

ـ أي حين تستولون على السلطة وتسيطرون على روسيا؟

ـ لا تضحك. أعود فأقول لك إنني دافعت عنك. مهما يكن من أمر، فإنني أنصحك بأن تأتي هذا المساء. علام هذه الأقوال التي لا طائل تحتها، وفي هذا الزهو الزائف والعجب الباطل؟ أليس الأفضل أن تنفصل على مودة وصداقة؟ ينبغي لك على كل حال أن تَرُدّ إليهم المطبعة والأحرف، وكذلك الأوراق القديمة. على هذا إنما سنتفق.

جمجم شاتوف قائلاً:

ـ سأجيء.

كان خافض الرأس، شارد الذهن، حالم الهيئة. وكان بطرس ستيفانوفتش يتفحصه من مكانه خلسة.

وقال شاتوف فجأةً يسأل وهو يرفع رأسه:

ـ هل سيحضر ستافروجين؟

ـ نعم، قطعاً.

ـ هيه، هيه!...

وصمت الرجلان من جديد. وابتسم شاتوف ابتسامة فيها مرارة واشمئزاز.

ـ وهل طُبعت أخيراً قصيدتك الدنيئة "البطل" التي رفضت أن أطبعها؟

ـ نعم.

ـ وهل يؤكدون لطلاب المدارس الثانوية أن هرتسن نفسه هو الذي كتبها في دفترك.

ـ نعم، هرتسن نفسه.

ساد صمت جديد دام ثلاث دقائق. ونهض شاتوف أخيراً وقال:

ـ اخرج من هنا. لا أريد أن أبقى معك.

فسرعان ما نهض بطرس ستيفانوفتش وقال بما يشبه المرح:

ـ ها أنا ذا أنصرف. كلمة أخيرة: هل كيريلوف وحيد تماماً في جناحه الآن بغير خادمة؟

ـ نعم، وحيد تماماً. هيَّا انصرف. إنني لا أطيق أن أبقى معك في غرفة واحدة.

حدّث بطرس ستيفانوفتش نفسه قائلاً حين أصبح في الشارع: "ها أنت ذا في أحسن حالة. وفي هذا المساء ستكون على ما أحب لك أن تكون. ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا. نعم، ما كان يمكن أن أتمنى خيراً من هذا. إن الإله الروسي نفسه قد أرسلك عوناً لي".

7

لا شك أنه تحرك كثيراً في ذلك اليوم، ولا شك أن مساعيه لم تخل من نجاح إذا صدق ما كان يعبر عنه وجهه من بهجة منتشرة على أساريره حين

وصل إلى عند ستافروجين في الساعة السادسة تماماً من المساء. إلّا أنهم لم يدخلوه على الشاب فوراً، فستافروجين كان منذ برهة قصيرة قد خلا إلى مافريكي نيقولايفتش في حجرة عمله. ولقد سبَّب هذا النبأ لبطرس ستيفانوفتش شيئاً من انشغال البال. وها هو ذا يجلس قرب باب الحجرة منتظراً خروج الزائر. كان يسمع الحديث ولكنه لا يميز الأقوال. ولم تدم زيارة مافريكي نيقولايفتش مدة طويلة. فإن فرخوفنسكي لم يلبث أن سمع صيحات قوية، ثم سرعان ما فُتح الباب وخرج الضابط شاحب الوجه ممتقع اللون، حتى إنه لم يلاحظ بطرس ستيفانوفتش، ومرَّ مسرعاً. فهرع بطرس ستيفانوفتش إلى حجرة ستافروجين فوراً.

لا أملك أن أعفي نفسي من أن أصف هنا، على وجه التفصيل، اللقاء الذي تم بين "الخصمين المتنافسين"، وهو لقاء بدا أنه لا بد أن يكون مستحيلاً بسبب الظروف القائمة، ولكنه تم مع ذلك.

إليكم كيف جرت الأمور: كان نيقولاي فسيفولودوفتش غافياً غفواً خفيفاً على ديوانه بعد الغداء، حين جاء ألكسي إيجورتش يعلن له عن زيارة مافريكي نيقولايفتش. فلما سمع ستافروجين هذا الاسم هبّ واقفاً على حين فجأة، وكأنه لم يصدِّق أذنيه. غير ان ابتسامةً لم تلبث أن ظهرت على شفتيه، ابتسامة فيها معنى الزهو بالانتصار، ولكن فيها معنى الدهشة المرتابة في آن واحد. ولا شك أن مافريكي نيقولايفتش الذي دخل في تلك اللحظة، قد خطفت تلك الابتسامة بصره، لأنه توقف في وسط الغرفة فجأة، وكأنه كان يتساءل أليس الأفضل أن يرجع أدراجه. ولكن ستافروجين قد أسرع يبدِّل تعبير وجهه أثناء ذلك، وها هو ذا يتقدم بضع خطوات للقاء الزائر ويمد إليه يده، وفي هيئته دهشة صادقة. غير أن مافريكي نيقولايفتش لم يتناول اليد الممدودة، وأسرع يأخذ كرسياً بحركة خرقاء، ويجلس أمام رب الدار دون أن يقول كلمة، ودون أن ينتظر أن يدعوه رب الدار إلى الجلوس.

جلس نيقولاي فسيفولودوفتش على الديوان موارباً، ونظر إلى الزائر بانتباه، وانتظر صامتاً.

قال مافريكي نيقولايفتش فجأة:

ـ تزوج ليزافتا نيقولايفنا إذا شئت.

وأغرب ما في الأمر أنه كان يستحيل على المرء أن يدرك من لهجته هل عبارته تلك رجاءٌ أم هي نصيحة، أم هي تنازل، أم أمرٌ يأمره به.

لبث نيقولاي فسيفولودوفتش صامتاً. لكن الزائر وقد عبَّر تعبيراً واضحاً عن الهدف من زيارته كان يحدق إليه بنظرة ثابتة، وينتظر جوابه.

قال ستافروجين أخيراً:

ـ إذا لم أخطئ، وما أنا بمخطئ حتماً، فإن ليزافتا نيقولايفنا خطيبتك.

أجاب الزائر مؤيداً بصوت واضح ثابت:

ـ نعم، نحن مخطوبان رسمياً.

ـ هل... تشاجرتما؟ معذرة يا مافريكي نيقولايفتش.

ـ لا! إنها "تحبني"، وهي "تقدرني". هذه أقوالها هي نفسها. وأقوالها أثمن شيء عندي.

ـ طبعاً.

ـ ألا فاعلم مع ذلك أنها إذا ناديتها أنت أثناء قيام الكاهن بمراسم زواجنا في الكنيسة أمام الهيكل وهي واضعة حجابها على وجهها، فسوف تبادر إلى تركي أنا والآخرين في سبيل أن تلبي نداءك وتتبع خطاك!

ـ حتى في لحظة الزواج؟

ـ حتى في لحظة الزواج.

ـ ألست تخطئ الظن والتقدير؟

ـ لا. إنها تحت الكره المستمر الصادق العميق الذي تحمله لك ينفجر في قلبها الحب في كل لحظة... وينفجر الجنون... أصدق الحب وأوسعه... والجنون! وبالعكس: تحت الحب الذي تحمله لي يتفجر الكره، يتفجر كره فظيع رهيب. ما كان لي أن أتخيل في يوم من الأيام قبل الآن حدوث تحولات كهذه التحولات... أو انقلابات كهذه الانقلابات!...

ـ يدهشني مع ذلك أنك خطيب ليزافتا نيقولايفنا والحال ما وصفت! هل لك حق في ذلك؟ هل أجازته هي لك؟

اكفهر وجه مافريكي نيقولايفتش وخفض رأسه.

وقال أخيراً:

ـ إنـك تنطق بأقـوال لا داعي إليهـا ولا جدوى فيها. إنـك تنتقم وتنتصر. أنـا علـى يقين من أنك تقرأ بين السـطور. هـل هنا مجال لزهـوٍ كهذا الزهو؟ ألست راضياً كل الرضى، مرتاحاً كل الارتياح؟ هل يُعقل أن أظل مضطراً إلى وضـع النقاط على الحروف؟ أن أكون مـا أزال محتاجاً إلى توضيح الأمور؟ طيـب! ليكن! سـوف أضع النقاط على الحـروف إذا كنت تريد إذلالي. ليس لي أي حق، ولم أحصل على أية إجازة. إن ليزافنا نيقولايفنا ليست على علم بشـيء، وقد فقد خطيبها كل شـعاع من عقل وأصبح مهيأً لدخول مستشـفى من مستشـفيات المجانين. وأعجـب ما في الأمر أنه يجيئك هو نفسـه ليعلن لك ذلك. إنك الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يجعلها سعيدة، في هذا العالـم، وليس هناك إلّا رجل واحد يستطيع أن يجعلها شقية: وهذا الرجل هو أنا. إنك تكافح في سـبيل الظفر بها، وتعذبها وتضطهدها، ولكنك ـ وهذا ما لا أدري سببه ـ لا تتزوجها. إذا كان الأمر بينكما لا يعدو أن يكون أمر اختصام حبيبين قام بينهما في الخارج، وإذا كان يجب عليَّ في سـبيل إنهاء هذا الاختصام أن أضحّي بنفسي فأنا مستعد للقيام بهذه التضحية. ليست أقوالي هذه إجازة ولا أمراً. فما ينبغي أن يُجرح من هذا شـعورك، ولا أن تُمسَّ كبرياؤك. إذا أردت أن تحل محلي أمام الهيكل في الكنيسة ففي وسعك أن تفعل ذلك ولا تحتاج لأن أجيزه لك، وما كانت بي حاجة طبعاً إلى أن أعرض جنوني. لا سيما وأن زواجنا، بعد هذه الخطوة التي قمت بها، قد أصبح مستحيلاً. لا أستطيع الآن أن آخذها إلى الكنيسـة للزواج: فوجودي هنا، وكوني جئتك متنازلاً لك عن خطيبتي، جئتك أنت عدوَّها، هما في نظري دناءة لن أستطيع احتمالها طبعاً.

ـ هل تنتحر حين نُزوَّج؟

ـ لا! ولكـن أنتحـر بعد مدة طويلـة. لا أريد أن ألطخ بدمـي ثوب زفافها. وقد لا أنتحر لا الآن ولا في المستقبل.

ـ أغلب الظن أنك تقول هذا الكلام لتهدئني.

ـ لأهدِّئك؟ وهل يعنيك قليل من الدم زيادةً أو نقصاناً؟

كان شاحب الوجه، وكانت عيناه تسطعان. وران الصمت دقيقة.
استأنف ستافروجين كلامه فقال:
ـ اعذرني إذا أنا سألتك. إن هناك أسئلةً لا يحق لي حتى أن ألقيها عليك. غير أن بين تلك الأسئلة سؤالاً يخيَّل إليَّ أنه يجوز لي إلقاؤه. قل لي: ما الذي حضَّك على الاعتقاد بعواطفي نحو ليزافتا نيقولايفنا؟ على أي أساس أقمت هـذا اليقين الذي أتاح لك أن تجيء إليَّ وتصارحني بما صارحتني به... وأن تجازف فتعرض عليَّ هذا العرض؟
قال مافريكي نيقولايفتش وهو ينتفض دهشةً:
ـ كيف؟ ألم تحاول أن تخطبها؟ ألا تطمع في زواجها؟ ألا تفكر أنت نفسك في هذا؟
ـ إنني على وجه العموم لا أستطيع أن أكلِّم أي إنسان عن عواطفي نحو امرأة. معذرة. هذه سمة شاذة من سمات طبيعتي. ولكنني في مقابل ذلك سأقول لك الحقيقة كلها فيما يتعلق بالباقي: إنني متزوج، ويستحيل عليَّ إذن أن أتزوج امرأة أخرى، أو أن أحاول "طلب يد امرأة أخرى".
بلغ مافريكي نيقولايفتش من الذهول أنه ارتمى إلى وراء، وحدَّق إلى وجه ستافروجين بنظرة متجمدة. ثم دمدم يقول بعد برهة:
ـ تصور أنني لم أكن أتوقع أي شيء من هـذا القبيل بتاتاً. لقد قلتَ منذ حين أنك لست متزوجاً... فصدَّقت أنا أنك لست متزوجاً...
واصفر وجهه اصفراراً رهيباً. وها هو ذا يضرب المائدة بقبضة يده ضربة قوية على حين فجأة، ويقول:
ـ بعد اعتراف كهذا الاعتراف، إن لم تدع ليزافتا نيقولايفنا وشأنها هادئة البال فإنك تشقيها، ولأضربنَّك عندئذ بالعصا كما يُضرب كلب.
قال ذلك ونهض واثباً وأسرع يخرج من الغرفة.
وهُرع بطرس ستيفانوفتش يدخل على رب الدار، فوجده في حالة نفسية لم يكن يدور في خلده أن يجده عليها.
قال ستافروجين وهو يضحك ضحكاً صاخباً مجلجلاً يبدو أن دخول بطرس ستيفانوفتش متعجلاً مستطلعاً عجيب الهيئة هو الذي أطلقه فيه:

ـ آ.. هـذا أنـت! أكنـت تتنصت على البـاب؟ انتظر! لمـاذا كان عليك أن تجيء؟ أظن أنني كنت قد وعدتك بشيء ما... آ... نعم... تذكرت: سنذهب إلى "جماعتنا"! أنا سـعيد بوصولك! لا تستطيع أن تتخيل شيئاً جاء في محله كوصولك الآن.

وتناول قبعته، وانصرفا فوراً.

قال بطرس ستيفانوفتش مرحاً:

ـ إنك تضحك سلفاً من فكرة رؤية "جماعتنا".

وكان بطـرس سـتيفانوفتش يحـاول تـارة أن يمشـي إلـى جانـب رفيقـه علـى رصيـف الآجـر الضيق، وتـارة يركض علـى وحل أرض الشـارع، لأن ستافروجين لـم يلاحظ البتة أنه كان يسير في وسط الرصيف فيملؤه كله.

أجاب ستافروجين يقول بصوت رنان فرح:

ـ أنا لا أضحك بتاتاً بالعكس: إنني مقتنع بأنهم جميعاً أناس جادون.

ـ مـا هـم إلّا "أغبياء متجهّمون"، كما تفضلـت فوصفتهم بهذا في يوم من الأيام.

ـ لا شيء أدعى إلى التسلية أحياناً من رؤية "أغبياء متجهّمين"!

قال بطرس ستيفانوفتش:

ـ آ... لا شك أنك تفكر في مافريكي نيقولايفتش. أنا واثق بأنه جاء يعرض عليك أن يتنازل لك عن خطيبته، هه؟ تصور أنني أنا الذي حضضته على هذا حضاً غير مباشر! وإذا رفض أن يتنازل عنها، فسنأخذها منه أخذاً، هه؟

كان بطـرس سـتيفانوفتش يعـرف حتمـاً مـا يخاطر بـه حين يتكلـم بهذه اللهجة. ولكنه حين يكون في حالة من الاهتياج الشديد يؤثر أن يجازف بكل شيء على أن يظل في حالة بلبلة ليس فيها يقين.

اكتفى ستافروجين بأن ضحك. وسأله:

ـ أما تزال منتوياً أن تساعدني؟

ـ نعم، إذا ناديتني، ولكن هل تعلم أن هناك وسيلة أخرى، أفضل كثيراً؟

ـ أعرف هذه الوسيلة.

ـ لا. إن الأمر ما يزال سراً. ولكن لا تنس أن هذا السر يكلف مالاً.

ـ أعرف مبلغ المال اللازم!

كذلك قال ستافروجين، ولكنه سيطر على نفسه وصمت.

سأله بطرس ستيفانوفتش وقد قلق فجأة:

ـ كم؟ ماذا قلت؟

ـ قلت: اذهب إلى الشيطان، أنت وسرُّك! الأفضل أن تقول لي الآن: من هم الذين سنلقاهم هناك؟ أنا أعلم أن الأمر أمر احتفال بعيد فرجنسكي، ولكن من هم المدعوون إلى الحفلة؟

ـ أنواع شتى! وسيكون هناك كيريلوف أيضاً.

ـ جميع أعضاء فئتك؟

ـ هوه! أرى أنك متعجل كثيراً. إننا لم نكوِّن هنا فئة واحدة حتى الآن!

ـ فماذا فعلت إذن حتى استطعت أن توزع ذلك العدد الكبير كله من النشرات التحريضية؟

ـ في المكان الذي نذهب إليه لا يوجد إلّا أربعة أعضاء منتسبون. أمَّا الآخرون فإنهم ينتظرون متجسسين بعضهم على بعض، وينقلون إليَّ كل شيء. أناس مضمونون. تلك كلها مواد يجب تنظيمها، ثم تجري الأمور. ثم إنك أنت الذي وضعت النظم التي يجب اتباعها، فما حاجتي إلى شرح هذا لك؟

ـ والأمور لا تجري؟

ـ بل تجري! لا يمكن أن تجري خيراً من ذلك! سوف أضحكك: إن أحسن وسيلة للتأثير إنما هي الزي الرسمي الموحَّد. لا شيء أقوى أثراً من الزي الرسمي الموحّد. لذلك أوجدت طائفة كبيرة من الألقاب والوظائف: إنني أنشئ سكرتيرين، ومفوّضين سريين، وأمناء صندوق، ورؤساء، ومسجلين، ومساعدين للمسجلين. ذلك كله يرضي كثيراً، ويحدث في النفوس أثراً كبيراً. ثم هنالك الناحية العاطفية طبعاً. إن الفضل في نجاح الاشتراكية يرجع أكثره إلى الناحية العاطفية. وإنما البلاء أن المرء يقع أحياناً على ضباط صغار حانقين مسعورين ما يلبثون أن يعضوا. وهناك أيضاً أناس ليسوا إلّا أوغاداً. هم رجال شجعان على وجه الإجمال، رجال يمكن الانتفاع بهم كثيراً. غير

أن المرء يضيع معهم وقتاً طويلاً، لأن عليه أن يراقبهم عن كثب. والقوة الرئيسية أخيراً، أو قل الأسمنت الذي يربط كل شيء ويشد بعضه إلى بعض، إنما هو الخوف من رأي الآخرين. هذه قوة حقاً! إنني لأتساءل أحياناً عمن يجب أن نشكر له أنه برع تلك البراعة كلها في أنه جعل الناس لا يملك واحد عنهم فكرة شخصية. لكأنهم يستحبون أن يفكروا لأنفسهم بأنفسهم.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تحمّل نفسك هذا العناء كله؟

ـ كيف لا تستفيد من هذا الظرف؟ كيف لا تستولي على من يمد إليك ذراعيه؟ أأنت لا تؤمن حقاً بالنجاح؟ الإيمان موجود، لكن ما نفتقر إليه إنما هو إرادة العمل. ومع أمثال هؤلاء الناس إنما يكون النجاح ممكناً. أقول لك: إنهم مستعدون لأن يلقوا أنفسهم في النار إذا لزم الأمر. يكفيني من أجل ذلك أن آخذ عليهم فتور اعتقاداتهم. إن البلهاء يعيبون عليَّ أنني خدعت جميع الناس حين تكلمت عن اللجنة المركزية، و "تشعباتها التي لا نهاية لها". أنت نفسك لمتني على هذا في ذات يوم. والواقع إنني لم أخدع أحداً: إن اللجنة المركزية هي أنت وأنا. وأمَّا تشعباتها فسوف يكون لنا منها القدر الذي نشاء.

ـ ولا أحد غير الرعاع؟

ـ هؤلاء مواد. سوف يكونون نافعين في شيء ما.

ـ وما تزال تعتمد عليَّ؟

ـ أنت زعيم. أنت قوة. أنا أقف في ظلك. أنا سكرتيرك.

إننا نبحر على ظهر سفينة، مجاديفها من قبقب، وأشرعتها من حرير، وفي مؤخرتها تتربع ليزافتا نيقولايفنا الجميلة[1]... أوه! نسيت الأغنية!...

قال ستافروجين ضاحكاً:

ـ ها هو ذا ينسى بقية القصة. سأحكي لك حكاية أخرى. لقد أتيت منذ هنيهة على تعداد القوى التي تملكها وتتصرف فيها. صحيح أن الوظيفية والعاطفية هما إسمنت ممتاز حقاً. غير أن هناك ما هو خير من هذا: ادفع أربعة من أعضاء فئتك إلى قتل خامسهم بحجة أنه يخونهم أو يتجسس

(1) هذا تذكر لأغنية شعبية تصور زعيم ثورة 1667، ستيفان رازين، مبحراً في نهر الفولجا مع فتاة جميلة جالسة على حافة سفينته.

عليهم أو يشي بهم، فإن هؤلاء الأربعة ما إن يشتركوا معاً في سفك دم حتى يرتبطوا ارتباطاً قوياً، فيصبحوا عبيداً لك، لن يجسروا بعد ذلك أن يتمردوا، أو أن يحاسبوا. هأ هأ هأ!...

قال بطرس ستيفانوفتش يحدث نفسه: "أنت... أنت ستدفع ثمن هذا. بل ستدفعه في هذا المساء نفسه. إنك تجيز لنفسك أشياء كثيرة مرنة في الكثرة!..".

في هذا أو في ما يشبهه إنما فكر بطرس ستيفانوفتش. وكانا قد اقتربا من دار فرجنسكي.

سأله ستافروجين قائلاً:

ـ أغلب الظن أنك قدمتني بصفتي عضواً في اللجنة المركزية آتياً من بطرسبرج، أو مفتشاً على صلة بالأممية[1]، أليس كذلك؟

فأجاب بطرس ستيفانوفتش بقوله:

ـ لا، لم أقدِّمك مفتشاً. لست أنت المفتش. وإنما أنت أحد الأعضاء المؤسسين، وأنت على علم بأهم أسرار التنظيم. ذلك هو دورك. سوف تتحدث حتماً، أليس كذلك؟

ـ من زعم لك هذا؟

ـ أنت الآن ملزم بالتحدث.

وقف ستافروجين مدهوشاً في وسط الشارع، غير بعيد عن أحد المصابيح. ولبث بطرس ستيفانوفتش ينظر إليه وفي وجهه تحدٍ. فبصق ستافروجين وتابع طريقه. ثم سأل صاحبه:

ـ وأنت هل ستتحدث؟

ـ لا بل أكتفي بالإصغاء إليك.

ـ شيطان يأخذك! ولكن اسمع... إنك توحي إليَّ في الواقع بفكرة...

أسرع بطرس ستيفانوفتش يسأله:

ـ ما هي هذه الفكرة؟

---

(1) "الأممية" أو "الانترناسيونال": معروف أنه كان في ذلك الأوان أمميتان اثنتان إحداهما هي "الرابطة الأممية للعمال" التي أسسها كارل ماركس في لندن سنة 1864، والثانية هي "الرابطة الديموقراطية الاشتراكية" التي أنشأها باكونين في جنيف. ولقد كان نتشايف على صلة بالثانية.

ـ جائز جداً أن أتحدث هناك. ثم أهوي عليك بضرب مبرِّح!

ـ بالمناسبة، لقد نقلت إلى كارمازينوف منذ قليل أنك قلت إن من الواجب أن يُجلد... لا جلداً شكلياً فحسب، بل جلداً حقيقياً كما يُجلد فلاح!

ـ لكنني لم أقل هذا الكلام في لحظة من اللحظات.

ـ سيان... "إذا لم يكن هذا واقعاً، فهو خيال جميل."[1]. (باللاتينية).

ـ طيب... شكراً! أنا ممتن أعظم الامتنان.

ـ هل تعرف ماذا يقول كارمازينوف؟ يقول إن عقيدتنا في الواقع تنفي الشرف، وإن خير وسيلة لإغراء الروس وجرِّهم إنما هي الدعوة الصريحة إلى حق المرء في إنكار الشرف.

صاح ستافروجين قائلاً:

ـ كلمات رائعة! كلمات من ذهب! لقد وضع إصبعه على الحقيقة! الحق في إنكار الشرف! جميع الناس سيجيئون إلينا. لن يشاء أحد أن يبقى في الخلف! ولكن ألا يمكن أن تكون فرداً من أفراد من الشرطة السرية يا فرخوفنسكي؟

ـ حين يكون في رأس المرء أفكار كهذه، فإنه يحاذر أن يعلنها...

ـ صحيح. ولكننا نتكلم الآن على انفراد لا يسمعنا أحد.

ـ لا، لست من الشرطة السرية بعد. ولكن كفى! لقد وصلنا. اصطنع السحنة المناسبة للظروف يا ستافروجين. إنني دائماً أفتعل هيئة خاصة حين أدخل عليهم. يكفي أن تتخذ هيئة مظلمة. ذلك كل شيء، ليس الأمر أصعب من هذا.

---

(1) "إذا لم يكن هذا واقعاً فهو خيال جميل": من الأمثال السائرة الإيطالية.

شخصيات الرواية

أركل

ضابط، عضو في الجمعية السرية الثورية

آرينا بروخورفنا

راجع اسم فرجنسكي

ألكسي إيجورتش أو إيجوروفتش

خادم فرفارا بتروفنا، ومحل ثقتها

ألكسي نيليتش

راجع اسم كيريلوف

ليزافتا نيقولايفنا

راجع اسم لوشين

آندره أنطونوفتش

راجع اسم لمبكة

إيفان أوسيبوفتش

حاكم المقاطعة السابقة. قريب فرفارا بتروفنا ستافروجين.

باشكا

تصغير اسم بافل فيدوروفتش

بتروشكا

تصغير اسم بطرس ستيفانوفتش فرخوفنسكي

براسكوفيا إيفانوفنا

راجع اسم دروزدوف.

بطرس ستيفانوفتش

ويرد اسمه مصغراً: بتروشكا

راجع اسم فرخوفنسكي

بلومر (فون بلومر)

سكرتير الحاكم آندره انطونوفتش فون لمبكة، ومحل ثقته.

تلياتنيكوف (أليوشا تلياتنيكوف)

سكرتير الحاكم السابق إيفان أوسيبوفتش

توشين

هي إليزافتا أو ليزافتا نيقولايفنا توشين. ويرد اسمها مصغراً ليزا، ولدت لبراسكوفيا إيفانوفنا من زوجها الأول الكابتن لوشين. خطيبة مافريكي نيقولايفتش.

تولكاتشنكو

مستخدم في السكك الحديدية. عضو الجمعية السرية الثورية.

تيخون

أسقف معتزل في دير. يتلقى اعتراف نيقولاي فسيفولودوفتش ستافروجين.

جاجانوف (آرتيمي بافلوفتش جاجانوف).

كابتن متقاعد. ابن بافل بافلوفتش جاجانوف، رجل عجوز ممن يحيطون بستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

جـ ... ف (أنطون لافرنتيفتش)

القاص. صديق ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

جوليا ميخائيلوفنا

راجع اسم لمبكة

داريا بافلوفنا

ويرد اسمها مصغراً: داشا، داشكا

راجع اسم شاتوف.

داشا، داشكا

تصغير اسم داريا بافلوفنا

دروزدوف (براسكوفيا إيفانوفنا دروزدوف)

أرملة الكابتن توشين، ثم الجنرال إيفان إيفانوفتش دروزدوف، صديقة آل ستافروجين. أم إليزافتا نيقولايفنا توشين.

ستازيا

تصغير اسم ناستاسيا

ستافروجين (فرفارا بتروفنا ستافروجين)

مالكة أطيان، غنية، أرملة الجنرال. أم نيقولاي فسيفولودفتش (نيقولنكا)، الضابط سابقاً، المنتمي إلى الجماعة الثورية. متزوج سراً من تيموفئيفنا لبيادكين.

ستيفان تروفيموفتش

راجع اسم فرخوفنسكي

سيميون إيجورفتش

راجع اسم كارمازينوف

سيميون ياكوفلفتش

"مجذوب" ينسبون إليه مواهب نبوءة.

شاتوف (إيفان شاتوف)

طالب، عضو سابق في الجمعية السرية الثورية. ابن القن بافل فيدوروفتش (باشكا) الذي كان خادم آل ستافروجين. زوج ماريا أجناتيفنا، وأخو داريا بافلوفنا (داشا، داشكا). ربيب فرفارا بتروفنا ستافروجين.

شيجاليوف

أخو آرينا بروخورفنا فرجنسكي. عضو في الجمعية السرية الثورية.

صوفيا ماتفيفنا أوليتينا

بائعة متجولة، رفيقة سفر ستيفان تروفيموفتش فرخوفنسكي

فرجنسكي

دوستويفسكي

الشياطين

ضللنا الطريق فما عسانا فاعلين؟

الشيطان يجرّنا هنا وهناك

ويديرنا إلى كل الجهات

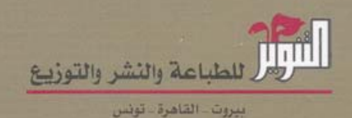
بهذه الأبيات من بوشكين، وبمقطع من انجيل لوقا عن الشياطين التي دخلت في الخنازير يفتتح دوستويفسكي روايته التي يعطيها عنوان "الشياطين".

أما الشياطين فهم أولئك الذين يتصارعون على روسيا وليس من أجلها.

في العام 1871 نشر دوستويفسكي الجزء الأول من روايته هذه، وتلك المرحلة كانت مرحلة الانقسامات والأفكار المتصارعة، حيث تنمو أفكار الاشتراكية، والأفكار التي تدعو إلى التحرّر من سلطة الكنيسة، وحيث سلطة الدولة تبدو أضعف، وروسيا ترى نفسها أقل من ألمانيا وبقية أوروبا.

عبر نماذج يختارها دوستويفسكي بعناية، من المجتمع الروسي، وهي نماذج لشخصيات حقيقية في جزء كبير منها ، يقدّم لنا صورة عن المجتمع الروسي في تلك الأيام، وعن النقاشات الواسعة التي كانت تدور حول الأفكار الجديدة، وحول رغبة رؤية روسيا في مصاف الدول الأكثر تحضّراً، وحول حياة الشعب الروسي. وتشكّل المناقشات حول القضايا الأدبية وحول الدين والايمان، وحول الخير والشرّ، والارستقراطية، والديمقراطية، وحرية التفكير، والصراع بين العلم والدين... الخلفية التي يبني عليها دوستويفسكي نماذج شخصياته.





بيروت - القاهرة - تونس